تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي

طبع

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطاني - طهران

2273
948
v.1-2

2273.948 v.1-2
al-Tihrānī
...Muqtanayāt al-durar

DATE	ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072714007

al-Tihrani, ʿAli ibn Husayn al-Musawi al-Haʾiri

Muqtanayat al-durar

الجزء الأول

من كتاب التفسير

المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد على الحائرى الطهرانى

أعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندى

مدير

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطانى - طهران

مطبعة الحيدرى بطهران

١٣٣٧ هـ . ش .

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله الذى نزّل القرآن نوراً و سراجاً وقمراً و منيراً . و الصلاة و السلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس وهدى و موعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . ولعنة الله على اعدائهم اجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن ، و تبيين لغاته و مشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه و بينوا حقائقه من مجازه . و جمع جمعوا أحكامه و بينوا حلاله و حرامه وطائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه ، و كيفما كان ما و صلوا الا الى مبلغ علمهم ، و منتهى هممهم ؛ و انى لهم الوصول الى حقائق التنزيل ودقائق التأويل ؟ لان القرآن هو النور الذى أنزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وآله .

الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى ، المستضيئين بنور علمهم المأمورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم اهل بيت النبى غرفاً ، وغاصوا فيها و اقتنوا منها درراً ؛

وها هى «مقتنيات الدرر» قداقتناها علم من الاعلام ؛ ثمرة الشجرة الطيبة ، والنخبة من السلالة الطاهرة : «الحاج الميرسيد على الحائرى» تغمده الله بغفرانه ، واوتى كتابه هذا بيمينه . قداقتنى من الدرر أغلاها ، و من الغرر أسناها ؛ فحقيق أن يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

وقد وفق الله تعالى تلميذه المستضىء بنور علمه المقتفى أثره الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم .

هذا ومن الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء واورمة الفضل الحاج محمود الكاشانى ؛ فانعم عليه و شرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين واتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

و نشكر جميل مساعى الفاضل الوجيه غلامحسين المصلحى حيث بذل جل أوقاته فى استكتاب هذا الجزء من نسخة الاصل وتصحيحه فلله دره . ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتمامه بمحمد وآله .

محمد الاخوندى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي وفقنا لإقتناء الدرر من كلماته الغرر ، وهدانا لمعرفة التقاط الثمر من الشجر ، شجرة مباركة كثيرة النماء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، قرآناً عربياً غير ذي عوج ، ناطقاً بالبينات والحجج ، تكاد الرواسي لهيبته تمور ، ويذوب من خشيته الحديد وصم الصخور .

أنزله على عبده وحبيبه محمد المصطفى لرسالاته ، والمرتضى بكمالاته ، أرسله بالهدى ودين الحق ، وعرفه من شعائر الشرايع ما جل ودق ، صلوات الله عليه وعلى ابن عمه وخليفته المخلوق من سنخه وطينته وجعله مستودعاً لعلمه وعلى الأئمة الأحد عشر من اولاده ، الذين لم يعصوا الله طرفة عين وهم بأمره يعملون ، وبوحيه يحكمون .

يا بني الزهراء والنور الذي ✿ ظن موسى انه ناراً قبس

لا او الى الدهر من عاداكم ✿ انه آخر حرف من عبس

وبعد فيقول الحقير الفقير «علي بن حسين الموسوي» الطهراني مسكناً والحائري مسقطاً ومولداً ، لما رأيت أن يوسف الصديق يباع في سوق العدو والصديق ، وعرض كل غنى في شرائه اموالا خطيرة ، وحضروا في ذلك السوق والحظيرة ، فساقني الطمع وشاقني حبي إلى ذلك المطمع ، أن اقدم بين يدي نجوي صدقة بدراهم معدودة ، استجديتها برهة من الزمان من ههينا وههينا ، وأنا ذو بضاعة مزجاة وظلي فيه اقلص من ظل حصاة ، فلمت نفسي من هذه الإرادة وقلت لها قفي مكانك ، من أنت و ما تمنيك وأنت أحقر

2273
.948
V.1-2

من ذرة ، والصفقة أغلى من ملايين درة ، لكني ما استطعت ان امنعها لأن الذكرى تسوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه .

فغلبني الغرام والهيام ، فالقيت دلوي في الدلاء ، رجاء ان ينفعني حب الصديق ، فما باليت عذل العدو والصديق وأنا اعلم انه ليس من لمس درهماً صيرفيا ، ولامن اقتنى دراً جوهرياً ، ومعذلك اقنيت درراً من البحور الزاخرة ، والتقطت ثماراً جيدةً فاخرة من كتب التفاسير من الأساتيد والنحارير ، مستعيناً بالله والفت الملتقطات ، وسميته

[بمقتنيات الدرر وملتقطات الثمر]

وأرجو من الله أن يتفضل عليّ بالغفران ويجعلني من أهل القرآن .

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وفي تقديم الاستعاذة على البسملة من باب تقديم التخلية على التحلية ، فأن طبيب القلوب يبدأ أولاً بتنقيتها من العقايد الزائغة ، ثم يعالجها بما يقويها على الطاعات ، وكذلك طبيب الأجسام ، ومن أراد قرائة القرآن والدخول في المناجات مع الحبيب يحتاج إلى طهارة اللسان ، لأنه قد تلوث بفضول الكلام ، فيطهره بالاستعاذة . فهذه الكلمة فاتحة كلام المتقربين ، على أنه إمتثال أمر رب العالمين ، حيث قال : (فإذا اقرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) .

فإن قيل فاستعيذ بالله من الشيطان الرجيم اوفق دراية لمطابقته المأمور به . فالجواب انه ﷺ قال هكذا أقرأنيه جبرئيل عن القلم عن اللوح ، فمعني أعوذ التجيء واستعصم واستجير بالله ،

واختلف في أن هذا الاسم الشريف علم فرد اوصفة مشتق أو غير مشتق ، قيل هو من وله لتحير العقول عن إدراك كنهه ، وقال بعض أهل التحقيق مثل السعد التفتازاني في حواشي الكشاف ، انه كما تحيرت الأوهام في ذاته وصفاته تعالى فكذا في اللفظ الدال عليه ، والاستعاذة تتناول جمع أقسام الشرور من مذاهب الباطلة وعقايد الزايغة وما يضر في الدين ؛ وهومنهيات التكليف بل من جميع المكاره والبلايا النازلة كالغرق والحرق والعمى والزمانة والفقر وأشباهه من المخاوف والآفات ، فأعوذ بالله يتناول الكل فالعاقل لما علم ان التحرز من مجموع هذه الامور لا يمكن لعدم تناهيها ، و ان قدرة الخلق لا تفيء بدفعها ، فحمله وعلمه العالم بأن يقول أعوذ بالله القادر على كل المقدورات من الشيطان اي : المبعّد من رحمة الله ؛ والاستعاذة من الجن والانس لازمة وعظة الانسان نفسه الزم .

قال ابن عباس لمّا عصى لعن وصار شيطاناً وإنما سمّي بهذا الإسم بعد لعن الله له . والشيطان من الشطن وهو البعد . او من شاط اذا بطل . وامّا قبله فاسمه عزازيل او نأيل ، وفي روضة الأخبار الشياطين ذكور واناث يتوالدون ولايموتون ، بل مخلّدون حتّى تنقر من الدنيا . لكن الجن ذكور واناث يتوالدون ويموتون ، والملائكة ليسوا بذكور ولا اناث ولا يتوالدون ولا يأكلون ولايشربون ؛ وللشيطان والجنّة حقيقة ووجود ؛ ولم ينكر الجن إلاشرذمة قليلة من الجهّال وحمقاء الفلاسفة ، وحقيقتهم عند من لم يقل بالمجردات : هي اجسام هوائية ؛ وقيل نارية قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة من الحيوان والطير وبنى آدم ؛ لها عقول وافهام تقدر على الأعمال الشاقة كما كانوا يعملون لسليمان المحاريب والتماثيل والجفان والقدور ؛ وعند من قال لها مجردات ارضية سفلية وذلك لأن المجردات اعني الموجودات الغير المتحيزة ولا الحالة في المتحيز اما عالية مقدسة ، وهم الملائكة ، ويسميها المشائيون عقولاً ؛ والاشراقيون انواراً قاهرة أو متعلقة بتدبيرها ؛ ويسمّونها المشائيون نفوساً سماوية والاشراقيون انواراً مدبّرة ، واشرفها حملة العرش ثم الحافون حوله ، ثم ملائكة الكرسي ، ثم ملائكة السماوات طبقة طبقة ، ثم ملائكة كرة الأثير والهواء الذي من طبع النسيم ثمّ ملائكة كرة الزمهرير ، ثمّ ملائكة البحار ثم الجبال وهكذا (الرجيم) اي المرمى من السموات بالقاء الملائكة حين لعن وطرد اوالمرمى بشهب السماء إذا قصدها . قيل من استعاذ بالله من الشيطان على وجه الحقيقة بحضور القلب وبشرائطها ، جعل الله بينه وبين الشيطان ثلثمائة حجاب ، كل حجاب كما بين السموات والأرض ومن المعلوم انّ الدعاء الذي لايختلف عن الإستجابة المشار إليها في الآية بقوله تعالى ادعوني استجب لكم هو الذي يكون بلسان الاستعداد ، فانّه أجمع الفقهاء على انّ الشرط اذا كان مناف لمقتضى العقد فذلك العقد فاسد ، فتأمل في سبب حرمانك من الإجابة . قال ابن عباس : خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم من المسجد فإذا هو بإبليس فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما الذي جاء بك الى مسجدي قال : يا محمد جاء بي الله قال : فلم ذا قال : لتسألني عمّا شئت قال ابن عباس فكان اول شيء سأله الصلوة فقال صلى الله عليه وآله وسلم له يا ملعون لِمَ تمنع امتي عن الصلوة بالجماعة قال : يا محمد اذا خرجت اُمتك للصلوة ، تأخذني الحمى الحارة فلا تندفع حتي يتفرقوا فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لم تمنع اُمتي عن

العلم والدعاء، قال: عند دعائهم يأخذني الصمم والعمى، فلا تندفع حتى يتفرقوا. و قال ﷺ: لم تمنع أمتي عن القرآن قال: عند قرائتهم اذوب كالرصاص، قال ﷺ: لم تمنع أمتي عن الجهاد قال: اذا خرجوا إلى الجهاد يوضع على قدمي قيد حتى يرجعوا؛ وإذا خرجوا إلى الحج أسلسل واغلل حتى يرجعوا؛ وإذا همّوا بالصدقة توضع على رأسي المناشر فتنشرني كما ينشر الخشب. وكل معروف صدقة.

قال النبي ﷺ آتاني جبرئيل وقال ان الله يقول: وعزتي انه ليس من الكبائر كبيرة هي أعظم عندي من حب الدنيا وقال: ما عُبِد الله ابغض على الله من الهوى إنتهى.

أقول: و من أبواب التخلص من شر اللعين المراقبة والمحاسبة بمؤاخذة النفس وملامتها، مثل أن يخاطبها يا نفس ويحك مضى ربيع الشباب فلا يفوتك خريف الشيب فإن فاتك الهرفى فلا تحرم من الرجعى يا ظالم النفس والعباد أما سمعت قول الله: «إن ربك لبالمرصاد» أليس وراءك عقبة كئود والرجل حافية وما لك مركب؛ وان قدامك يوماً لو طلعت فيه شمس الضحى لعاد أظلم من ليلك؛ وقد دنوت إلى منازل دونها حتوف والطريق مخوف. قال علي عليه السلام أيها اليفن الكبير قد لهزه القنبر اي: خالطه الشيب كيف أنت إذا التجمت أطواق لنار بعظام الأعناق؛ فاغتنم مهلة قبل قدوم الغائب المنتظر.

أقول: و كيف يكون الانسان عاقلاً ولا يقسم اوقاته؛ وفي الخبر ان إبليس يرفع الدنيا كل يوم في يديه فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؛ ويهمه ولا يسره فيقول: أصحاب الدنيا نحن، فيقول: لا تعجلوا فانها معيوبة، فيقولون: لا بأس بها، فيقول: ثمنها ليس بدراهم ولا دنانير، انما ثمنها نصيبكم من الجنة؛ واني اشتريتها بأربعة أشياء بلعنة الله وعذابه وقطيعته، وبعت الجنة بها؛ فيقولون: يجوز لنا ذلك، فيقول: أريد أن تربحوني على ذلك وهو أن توطنوا قلوبكم على أن لا تدعوها أبداً، فيقولون: نعم فيأخذونها فيقول الشيطان: بئست التجارة.

وسئل النبي ﷺ عن وسوسة الشيطان، فقال: السارق لا يدخل بيتاً ليس فيه شيء، فذلك من محض الايمان. قال أمير المؤمنين عليه السلام: الفرق بين صلوتنا و صلوة أهل الكتاب وسوسة الشيطان، لأنه قد فرغ من عمل الكفار وانهم وافقوه؛ والمؤمنون

يخالفونه والمحاربة تكون مع المخالفة .

(بسم الله) قالوا : علوم جميع كتب السّماويّة في القرآن و علومه في الفاتحة وعلومها في البسملة و علومها في الباء ؛ و قد وقع الاختلاف بين فقهاء المدينة والشام والبصرة وقراء مكّة والكوفة وفقهائهما ، في أنّ البسملة هل هي آية من الفاتحة وغيرها فقال : فقهاء المدينة والبصرة و الشام انّ التسمية ليست من الفاتحة ولا من غيرها من السّور ؛ وإنّما كتبت للفصل والتبرك ؛ وهومذهب أبوحنيفة ومَن تابعه ؛ وقراء مكّة والكوفة وفقهائهما على أنّها آية من الفاتحة ؛ ومن كلّ سورة كما عليه ابن عبّاس فقال : هي آية في كلّ سورة ؛ وهو الصحيح ؛ وأوّل ما جرى به القلم في اللوح ؛ وأوّل ما نزل على آدم ؛ وكانت الكفّار والمشركون يبدأون باسم آلهتهم فيقول : باسم اللاّت والعزّى فوجب أن يقصد الموحّد، معنى اختصاص اسم الله بالإبتداء فلذلك قدر المتعلّق متأخّراً أي : باسم الله اتلوواقرأ واستعين ؛ والإبتداء يكون بالأهم نحوقوله : بسم الله مجريها ومرسيها ؛ كقولك للمعرس باليمن والبركة ؛ و التقدير أعرست باليمن والاسم أحد اسماء التي بنوا أوائلها على السكون ، فإذا نطقوا لهامُبتدئين زادوا همزة لئلاّ يقع الإبتداء بالساكن . أو من الوسم محذوف الفاء ؛ و طولوا الباء في كتابه بسم الله تعويضاً من طرح الألف وكلمة « الله » أصله الإله ، أو من لاه يليه إذا تستر من الستر ثم ادخلت عليه الألف واللام فجرى الإسم العلم ، مثل النّاس أصله أناس فحذفت الهمزة وعوّضت منها حرف التعريف ، والصحيح انّ : معنى الإله هوالذات الذي يحقّ له العبادة وانّما حقّت له ، لقدرته تعالى على أصول النعم ؛ ولا يطلق هذا الاسم على غيره تعالى أبداً .

عن الصّادق عليه السلام قال : من قال لا إله إلّا الله مُخلصاً دخل الجنة ، واخلاصه بها أن يحجزه لا إله إلّا الله عمّا حرم الله ؛ وعن حذيفة بن اليمان قال لا يزال لا إله إلّا الله ترد غضب الربّ عن العباد ماكانوا لا يبالون ما انتقص من دنياهم إذا سلّم دينهم ، فإذا كانوا لا يبالون ما انتقص من دينهم إذا سلمت دنياهم . ثم قالوا هذه الكلمة ردت عليهم وقيل لهم كذبتم ولستم بصادقين . قال علي عليه السلام : في تفسير الإمام في معنى البسملة استعين على هذا الأمر بالله الذي لا يحق العبادة لغيره اذا استغيث والمجيب إذا دعى .

وقداودع جميع العلوم في الباء أي : بي كان ماكان وبي يكون ما يكون فوجود العوالم بي . وقال بعض أهل النظر لعلّ السرّ في أن جعل افتتاح الكتاب الكريم بحرف الباء ؛ و قدّمت على سائر الحروف لا سيّما على الألف مع تجرد الألف ، بل يسقط الألف ويثبت مكانه الباء في بسم الله : إنّ في الباء تواضعاً وانكساراً وفي الأنف ترفّعاً وتطاولاً ، فمن تواضع لله رفعه الله ؛ والباء للاتصال و الإلصاق ، بخلاف أكثر الحروف خصوصاً الألف من حروف القطع ؛ والباء مكسورة فلمّا كانت فيها انكسار في الصورة والمعنى، وجدت شرف العندية من الله ؛ وذكروا فيها استحسانات أُخر ليس هذا المختصر يسعها ، مثل انّ للباء علوّ الهمّة بخلاف بعضها ، فانّه لما عرضت عليها النقط ماقبلت إلّا واحدة ، ومن قبيل هذه المناسبات كثيرة ذكروها في شروحهم ،

قال أمير المؤمنين أنا النقطة تحت الباء لعلّ مراده بيان مرتبة دلالته وإرشاده على التوحيد ، أو يصف نفسه ﷺ في مقام معرفة التوحيد ؛ ولذا وجبت ولايته .

قال محمّد بن صفوان عن ابن عبّاس قال : كنّا عند رسول الله فأقبل عليّ ﷺ قال له النبيّ ﷺ مرحباً بمَن خلقه الله أبيه آدم بأربعين ألف سنة ، قلنا أكان ابن قبل أبيه فقال : نعم انّ الله خلقني وعليّاً من نور واحد قبل هذه المدة ، ثمّ قسّمه نصفين، ثمّ خلق الأشياء من نوري و نورعليّ ... الحديث ؛ أو مراده علمه بعلوم الكتب الأولين والآخرين فيما أشرنا قبيل ذلك . قال صاحب التأويلات النجميّة انّ الباء شفوي و كان أوّل انفتاح فم الذرة الإنسانيّة في عهد الست بالجواب بكلمة بلي ، فاختصت الباء بهذه الاختصاصات ، فجعلها سبحانه مفتاح كتابه ومبدأ كلامه وخطابه ؛ وأسماء الله تذكر فيما يصح أن يطلق عليه بالنظر إلى ذاته او باعتبار صفة من صفاته الثبوتيه كالعليم او السلبيّه كالقدوس او باعتبار فعل من افعاله كالخالق لكنها توقيفية عند الاكثر (**الرحمن**) الرحمة فى اللغة رقة القلب والانعطاف ومنه الرحم والمراد هناهو التفضل والاحسان فالمعني العاطف على خلقه بالرزق لهم ودفع الافات عنهم ؛ والرحمن فعلان فى الرحمن الذى يرحم ويبسط الرزق علينا الرحيم فى دنيانا وديننا ؛ وفى الرحمن من المبالغة ماليس فى الرحيم تلك المبالغة لشمول الرحمن في الدارين واختصاص الرحيم بالاخره او بالمؤمنين . (**الرحيم**)

اى المترحم اذا سئل اعطى واذالم يسئل غضب ؛ و بنى آدم حين يسأل يغضب قال النبى ﷺ ان لله مائة رحمة اعطى واحدة منها لاهل الدنيا كلها و ادّخر تسعاً و تسعين الى الاخرة يرحم بها عباده

واعلم ان الرحمة من الصفات الالهية وهى حقيقة واحدة ؛ لكنها تنقسم بالذاتية والصفاتية اي تقتضيها اسماء الذات واسماء الصفات وكل منهما عامّة وخاصّة فالرحمة العامة و الخاصة الذاتيّتان ماجاء في البسملة قيل ان الله تعالى ثلاثة آلاف اسم ، الفٌ عرفها الملائكة لاغير ؛ والف عرفها الانبياء لاغير ، وثلاثمأة في التورية ؛ و ثلاثمائة في الانجيل ؛ وثلاثمائة في الزبور ؛ وتسعة و تسعون في القرآن ؛ وواحد استاثر الله به ثم معنى هذه الثلاثة الاف في هذه الاسماء الثلاثة الله والرحمن والرحيم فمن علمها و قال فكانما ذكر الله بكل اسمائه .

و في الخبر انّ النبى ﷺ قال ليلة اسري بى الى السماء عرض عليّ جميع الجنان ، فرأيت فيها اربعة انهار : نهراً من لبن و نهراً من ماء و نهراً من خمر و نهراً من عسل فقلت : ياجبرئيل من اين تجيئى هذه الانهار والى اين تذهب قال تذهب الى حوض الكوثر ولا ادرى من اين تجيئى ؛ فادع الله ليحكمك اويراك ، فدعا ربّه فجاء ملك فسلم على النبي ﷺ ثم قال : يامحمد غمض عينك قال : فغمضت عيني ثم قال : افتح عينك ففتحت فاذا انا عند شجرة ؛ ورأيت قبة من دره بيضاء و لها باب من ذهب وقفل لوان جميع ما فى الدنيا من الجن و الانس و ضعوا على تلك القبة لكانوا مثل طائر جالس على جبل ، فرايت هذه الأنهار الأربعة تخرج من تحت هذه القبة فلما اردت ارجع قال لى ذلك الملك : لم لاتدخل القبة قلت : كيف ادخل و على بابها قفل لامفتاح له عندي قال الملك مفتاحه بسم الله الرحمن الرحيم ، فلما دنوت من القفل و قلت بسم الله الرحمن الرحيم انفتح القفل فدخلت فى القبة فرايت هذه الانهار تجرى من اربعة اركان القبة ؛ ورأيت مكتوباً على اربعة اركان القبة بسم الله الرحمن الرحيم ؛ و رأيت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله ورأيت نهر اللبن يخرج من هاء الله ، ونهر الخمر يخرج من ميم الرّحمن ونهر العسل من ميم الرّحيم فعلمت ان اصل هذا الانهار الاربعة من البسملة ؛ فقال الله سبحانه

يا محمد من ذكرني بهذه الاسماء من اُمتك بقلب خالص من الرياء وقال : بسم الله الرحمن الرحيم سقيته من هذه الانهار؛

وفي الحديث : من رفع قرطاساً من الارض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم اجلالا له ولا سمه عن ان يدنس كان عند الله من الصديقين ، و خفف عن و الديه و ان كانا مشركين . وعن الرضا عليه السلام : ان البسملة اقرب الى اسم الله الاعظم من سواد العين الى بياضها قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا قال المعلم للصبي : بسم الله بالخلوص : كتب الله له ولا بويه ولمعلمه برائة من النار اذا كانوا مومنين ولا يحصل الخلوص الا بهذه الاربع ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اوصيك باربع خصال الاولى : الصدق فلا تخرجن عن فيك كذبة ابداً (الثانية) : الورع ولا تجرى على خيانة ابداً و (الثالثة) ، الخوف من الله كانك تراه و الرابعة ، كثرة البكاء من خشية الله يبنى لك بكل دمعة الف بيت في الجنة .

قال الشيخ احمد البوني في لطائف الاشارات : ان شجرة الوجود تفرعت عن البسمله و العالم كله قائم بها و من اكثر من ذكرها رزق الهيبة عند العالم العلوى والسفلى قال الشيخ اكبر في الفتوحات اذا قرأت فاتحة الكتاب ، فصل بسملتها معها في نفس واحد من غير قطع . قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم حالفاً عن جبرئيل حالفاً عن ميكائيل حالفاً عن اسرافيل قال الله : يا اسرافيل بعزتي و جلالي وجودي و كرمي من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة فاشهدوا على انى قد غفرت له و قبلت منه الحسنات وتجاوزت له عن السيئات ولا اُحرق لسانه بالنار واجيره من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب يوم القيمة والفزع الاكبر.

(سورة فاتحة الكتاب) : وجه التسمية بفاتحة الكتاب اما لافتتاح المصاحف بها ، واما لأن الحمد فاتحة كل كلام ؛ و اما لانها اول سورة نزلت و سميت بام القرآن وام الشيء اصله ؛ وذلك لان المقصود من كل القرآن تقرير امور اربعة : اقرار بالالوهية والنبوة ، واثبات المعاد ، واثبات الحكم ، والامر له ، وهذه السورة جامعة لهذه المراتب ، وسميت بالسبع المثاني لانها سبع آيات ، اولان كل آية منها تقوم مقام سبع من القرآن ، فمن قرأها اعطى ثواب قرائة الكل ؛ او لان من قرأ آياتها السبع غلقت عنه ابواب النيران

السبعة . واماوجه التسمية بالمثاني فلانها تثنى في كل صلوة ، اولان نزولها مرتين مرة في مكّة و اخرى في المدينة و سميت بسورة الصلوة و سورة الشافية والكافية والوافيه و سورة الحمد و سورة السؤال و سورة الدعاءو سورة الكنز لماروي ان الله تعالي قال فاتحة الكتاب كنز من كنوزعرشي

(**الحمدلله رب العالمين**) قال الزمخشري : الحمدعلى الابتداء وخبره الظرف الذى هولله و اصله النصب باضمار فعله ، على انه من المصادر التى تنصبها العرب بافعال مضمرة و معنى الاخبار كقولهم شكراً وعجباً و ما اشبهه ، و منها سبحانك و معاذ الله ينزلونها منزلة افعالها ، والعدول بهاعن النصب الى الرفع في الاية على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ، و منه قوله تعالى قالوا سلاماًقال ابراهيم سلام رفع السلام الثانى للدلالة على انّ ابراهيم حيّاهم بتحيّة احسن من تحيتهم ، لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم ، فيؤل حقيقة المعنى نحمدالله حمداً فلذلك قيل اياك نعبد وايا ك نستعين انتهى

فقوله الحمدلله لامه امّا للعهد اى الحمد الكامل ؛ و هو حمدالله لنفسه وحمد الرسل اواللام للعموم و الاستغراق اى جميع المحامد والاثنية من الملك و البشر خاص لله . و الحمد والمدح اخوان و هوالثناء الجميل من نعمة او غيرها . و الحمد و الثناء ذاتاً خاص به تعالى شانه على لسان انبيائه ، و التكليف من النعمة لان بقائك موقوف عليه ، و اما الشكر فعلى النعمة خاصة ، و الحمدثناء المحمود و اظهار كمالهو افعاله و اثاره ، وهو قولي و فعلي و حالي .

اما القولي فحمداللسان و ثنائه عليه بما اثنى به نفسه على لسان انبيائه .

و اما (الفعلى) فهو الاتيان بالاعمال البدنية من العبادات و الخيرات ابتغاء لمرضاته حتى يستعمل الحامد كل عضو فيما خلق لاجله على الوجه المشروع حتى يوافق ساير اعضائه لسانه

(واما الحالى) فهو بحسب القلب كالتخلق باخلاق الله من الرضا والتسليم والاتصاف بالكمالات العلميه وحب المعروف و بغض المنكر ورده وهو الجهاد الاكبر فيكون في حكم الشهيدثواباً فمن ماروى في ثواب الشهداء يشمله فحينئذ يكون اهل الحالويستحق

المواهب من الله الواردة عليه ميراثاً اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس وذلك بسبب العمل الصالح المزكّي للنفس المصفّي للقلب ، وعبّر بالحال لحول العبد به من الرسوم العادية الشهوية إلى الصفات الحقية ، وأول قدم الحال الدخول في باب الأبواب وهو التوبة ، لأنها أول ما يدخل به العبد حضرت القرب من جبان الرب ☼(ربّ العالمين)☼ ربّه يربه فهو ربّ ، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة ، كما وصف بالعدل ؛ والرب السيد المالك ، ومنه قول صفوان لأبي سفيان لأن يربّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن ، ومنه قوله ﷺ أللهم لاتجعل لفاجر عليّ يداً : بيان برهان على استحقاقه تعالى الحمد بقوله مربى العالمين بايجادهم وتربية أسباب وجودهم فيربى الظاهر بالنعمة والباطن بالفيض والرحمة وأحكام الشريعة التي بها قوام بقائهم في السعادة الأبدية ويربى سبحانه اجزاء العوالم كلاً بحسبها فسبحان من ربى الإنسان بأحسن التربية فاسمع بعظم وبصر بشحم .

أعلم أنّه اختلف في أفضلية نعمة البصر والسمع فقال قائل بأفضلية السمع لوجوه منها أنّ الله قدم في الذكر في اغلب القرآن السمع على البصر و التقديم في الذكر دليل على الشرف .

ومنها أنّ العمى وقع في حق الأنبياء وأمّا الصمم فغير جائز لأنّه مخلّ بأداء الرسالة .

ومنها ان السمع تدرك من جميع الجوانب دون البصر .

ومنها انّ الإنسان يستفيد من المعارف من المعلم وذلك لا يمكن إلّا بالسمع .

ومنها انّ امتياز الإنسان عن سائر الحيوانات بالنطق والكلام ، وانما ينتفع به السامعة لا الباصرة ومتعلّق السمع النطق الذي به شرف الإنسان ومتعلق البصر الألوان والاشكال وذلك أمر مشترك بين الإنسان وسائر الحيوان .

ومنهم مَن قال بأن البصر أفضل من السمع قالوا المشهور انّه ليس الخبر كالمعاينة وذلك تدل على أنّ اكمل وجوه الإدراك البصر .

الثّاني انّ عجايب حكمة الله في العين أكثر من عجائب حكمته في تخليق الأذن فركّب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات وجعل لها عضلات كثيرة على صور مختلفة

والأذن ليس كذلك ، و كثرة العناية في التخليق في الشيء يدلّ على كونه أفضل من غيره .

الثّالث انّ القوّة الباصرة هي النور و آلة السّامعة هي الهواء والنّور أشرف من الهواء .

الرابع انّ البصر يرى ما فوق سبع سماوات والسمع لايدرك ما بعد على فرسخين فكان البصر أقوى .

الخامس إنّ بعض النّاس يسمع كلام الله و كلام الملائكة في الدنيا ولا يراه أحد و أنّ موسى سمع كلام من غير سؤال ولمّا سئل الرؤية قال لن تراني فذلك يدل على أنّ حال الرؤية أعظم وأعلى من السماع ، على أنّ ذهاب العين ليس كذهاب السّمع وهي الكريمتان . وانطق بلحم ورتّب غذائه في النبات بحبوبه وثماره وفي الحيوان بحيوته و آثار نفعه ، وفي الأراضي بأشجاره وأنهاره و في الأفلاك بكواكبه وأنواره .

ولمّا علم أنّ النفوس لو يهملوا اهلكوا أنفسم في مدّة قليلة لعدم علمهم في تدبير امورهم وبقائهم ، وضع لهم قانونا سماوياً لحفظ نفوسهم ودرك سعادة الفانية والباقية لأنّهم خلقوا للبقاء لا للفناء ، فسبحان مَن فلحت حجته واستظهر سلطانه واقسطت موازينه فجعل السيئة ذنباً والذنب فتنة والفتنة دنسا ، وجعل الحسنى عتبا والعتبى توبة والتوبة طهوراً ، فمن تاب اهتدى ومن افتتن غوى مالم يتب إلى الله ويعترف بذنبه ولايهلك على الله هالك . الله الله فما أوسع ما لديه من التوبه والرحمة والبشرى والحلم العظيم ، وما أنكل ما عنده من الإنكال والجحيم والبطش الشديد ، فمن ظفر بطاعته اجتلب كرامته ومن دخل في معصيته ذاق وبال نقمته وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين .

قال الباقر عليه السلام صلّى علي عليه السلام بالعراق صلوة الصبح ثمّ خطب خطبة فبكى وأبكى الناس من خوف الله ثمّ ما رؤى بعد ذلك ضاحكاً إلى أن توفي فما ظنّك بنفسك .

وربما يغتر بعض الجهّال ببعض ظواهر الأخبار بما ورد في ثواب الأعمال وهو غافل عن شرائطها الشرعية الواقعية أو يغتر بالنسب الرفيع كالسيادة والعالمية فيقول مثلاً جدي يشفعني فلايقوم بالشرعيات ولا يعمل بالفرعيات ولا ينفعه الحسب ولا النسب كما في روضة الكافي .

قال الباقر عليه السلام : لاتتّخذوا من دون الله وليجة ، فلاتكونوا مؤمنين فإنّ كلّ سبب ونسب وقرابة ووليجة وشبهة منقطع مضمحلّ ، كالغبار الّذي يكون على الحجر الصلد إذا أصابه المطر الكثير إلّا ما أثبته القرآن ويكون بأطاعة الرسول ؛ «وأطيعوا الله والرسول وأُولى الأمر منكم» ودع عنك الفضولي والمعضلات ، وإنّ سنة الله لاتبدّل .

و(**العالمين**) جمع عالم والعالم جمع لاواحد له من لفظه . والعالم اسم لكلّ مايعلم به في الأصل كالخاتم إسم لما يختم ، ثمّ غلب استعماله فيما سوى الله .

قال وهب : لله ثمانية عشر ألف عالم والدنيا عالم منها . قال كعب الأحبار : العوالم لاتحصى لقوله تعالى : «ومايعلم جنود ربّك إلّاهو» .(١)

وعن أبي هريرة : إنّ الله تعالى خلق الخلق من ذوي العقول أربعة أصناف : الملائكة والشياطين والجنّ والإنس ، ثمّ جعل هؤلاء عشرة أجزاء : تسعة منهم الملائكة وواحد الثلاثة الباقية ، ثمّ جعل هذه الثلاثة عشرة أجزاء : تسعة منهم الشياطين وجزء واحد الجنّ والإنس ، ثمّ جعلهما عشرة أجزاء تسعة منهم الجنّ وواحد الإنس . ثمّ جعل الإنس مائة وخمسة وعشرين جزءاً فجعل مائة جزء في بلاد الهند ، منهم ساطوخ وهم أُناس رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب ، ومالوخ وهم أُناس أعينهم في صدورهم ، وماسوخ وهم أُناس آذانهم كآذان الفيلة ، ومالوف وهم أُناس لايطاوعهم أرجلهم يسمّون «دوالباي» وهؤلاء كلّهم كفرة مصيرهم إلى النار . وجعل اثني عشر جزءاً منهم في بلاد الروم : النسطوريّة والملكائيّة والإسرائيليّة ومصيرهم إلى النار جميعاً . وجعل ستّة أجزاء منهم في المشرق : يأجوج ومأجوج وترك وخاقان ، وترك حد خلخ وترك خضر ، وترك جرجر ، وجعل ستّة أجزاء في المغرب : الزنج والزطا والحبشة والنوبة وبربر وسائر كفّار العرب ومصيرهم إلى النار ، وبقي من الإنس من أهل التوحيد جزء واحد ، فجزّأهم ثلاثاً وسبعين فرقة : اثنتان وسبعون على خطر وهالكة ، وهم أصحاب البدع والضلالات وفرقة ناجية .

وفي الحديث : إنّ بني إسرائيل تفرّقت على ثنتين وسبعين فرقة ، وتفرّق أمّتي

---

(١) المدثر : ٣١ .

على ثلاث وسبعين فرقة كلّهم في النار إلّا فرقة واحدة . قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال : من هم على ما أنا عليه- يريد في الاعتقاد والقول والفعل - .

وبالجملة هو تعالى شأنه ربّ العوالم بأسرها ، و«العالم» بفتح اللام اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين ويطلق على كلّ ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض ، فأقول : عالمون وعالمين جمع الواو والنون وهو جمع العقلاء .

اعلم أنّ العاقل من اجتمع فيه هذه الخصال العشرة :الأولى أن يحلم عمّن جهل عليه ، ويتجاوز عمّن ظلمه ، ويتواضع لمن هو دونه ، ويسابق من فوقه في طلب البرّ ، وإذا تكلّم تدبّر ؛ فإن كان خيراً تكلّم فغنم ، وإن كان شرّاً فسكت فسلم ، وإذا عرض له فتنة استعصم بالله، وأمسك يده ولسانه ، وإذا رأى فضيلة في الأدنية انتهزلها ، لايفارقه الحياء ولايبدو منه الحرص فتلك عشرة خصال يعرف بها العاقل .

وأمّا الجاهل هو أن يظلم من خالطه ويتعدّى على من هو دونه ، ويتطاول على من هو فوقه ، كلامه بغير تدبّر ؛ إن تكلّم أثم ، وإن سكت غفل، وإن عرضت له فتنة سارع إليها ، فأردته ، وأن رأى فضيلة أبطأ عنها ، لايخاف ذنوبه القديمة ، ولايرتدع فيما بقي من عمره من الذنوب ، يتوانى عن البرّ غير مكترث لمافاته من الطاعة فتلك عشر خصال من صفة الجاهل الّذي حرم العقل بشهوته ، هذا اسم لا صفة فكيف جمعت بالواو والنون ؟ قالوا: ساغ ذلك لتضمّن معنى الوصفيّة فيه وهي الدلالة على معنى العلم أو للتغليب؛ لأنّ في هذه العوالم عالم العقلاء من الملك والجنّ والبشر فصحّ أن يؤتى بجمع العاقل .

(الرحمن الرحيم) وفي التكرار إشعار بأنّ التسمية آية مستقلّة ؛ وأيضاً ندب العباد بذكر رحمته ويناسب الربّيّة الرحمانيّة السائقة إليهم أرزاقهم في الدنيا .والرحيميّة الّتي توجب الغفران لهم في العقبى ، ولأنّ الرحمة تنال بعد الحمد أو بالرحمانيّة والرحيميّة المتعلّقة بالذات ، وفي البسملة وهو المتعلّقة بالصفات .

(مالك يوم الدين) وقرىء «ملك يوم الدين» قال هرمس الهرامسه :أشدّ الأعمال ثلاثة : الجود عند القلّة ، والورع عند الخلوة ، والعفو عند القدرة ، ويقال لذي السلطة أيضاً : ملك عادل .

ولا تدوم ملكيّته هي في الدنيا إلّا بأمور ستّة : الأوّل أن لايتجاوز عن قانون

الكتب فانه متى ماعدل عنه عدل النظام عن ملكه لامحالة ، الثاني فانه ان لاتاخذه في الله لومة لائم ، الثالث صاحب شرطة توقف الرعية على حدودهم و ينتصف من الاقوياء للضعفاء و الثالثة صاحب خراج يستقصي ولايخون ولايظلم والرابعة صاحب بريد صادق ينهى الاخبار بالصدق يوسع ولايضيق على الحفدو الولد واذا ملك الاراذل باد و قرائة اهل الحرمين ملك لقوله لمن الملك اليوم و لقوله ملك الناس و اصل الملكه الربط و الشدة والقوة و المراد من اليوم فى الاية مطلق الوقت لامانعبّر به من انه من الطلوع الى الغروب و اضافة اليوم الى الدين كاضافة سائر الظروف الى ما وقع فيها من الحوادث ، كقولهم .

يا سارق الليلة اهل الدار ☆ اى مالك الامر في يوم الجزاء وقيل قرائة الملك ابلغ من المالك لان المالك هو الذى ملك شيئاً من الدنيا و اما ملك هو الذى يملك الملوك لكنه معهذا قالوا مالك بالالف اكثر ثواباً من ملك لزيادة حرف فيه . حكي عن الثلجى انّه قال كان من عادتي قرائة مالك فسمعت من بعض اهل الفضل ان ملك ابلغ فتركت عادتى وقرأت ملك ورأيت في المنام قائلا يقول لى لم نقصت من حسناتك عشراً اما سمعت قول النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ القران كتب له بكل حرف عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات و رفعت له عشر درجات فلم اترك عادتى حتى رأيت ثانياً في المنام انّه قيل لى لم لاتترك هذه العادة اما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن فخماً مفخماً اي عظيماً معظماً فاتيت قطربا فسألته مابين المالك والملك قال الملك افخم معني من المالك وهو الانسب بمقام الاضافة الى يوم الدين (اياك نعبدو اياك نستعين) ايّا ضمير منفصل للمنصوب و اللواحق التى تلحقه من الكاف والهاء والياء لبيان الخطاب والغيبة والتكلم وتقديم المفعول لقصد الاختصاص و العدول عن لفظ الغيبة الي الخطاب يسمى الالتفات عادتاً من كلام الفصحاء لان فيه فائدة للسامع و تطربة نشاط يحصل له في الافتنان و يحصل بهذه الصنعة في الكلام استدرار اصغائه اليه بحسن الايقاظ فبيّن الله سبحانه للعبد بيان الحقيق بالحمد و امره بالحمد و استشهد سبحانه في استحقاقه الحمد واختصاصه له تعالى بربوبيّته و من صفاته برحمانيته فانكشف للعبد علم اليقين بمالكيته وخالقيته فانّ من كانت هذه

صفاته لم يكن غيره يستحق العبادة و الثناء اذهوالمختص بالحمد و هوالرّب المالك للعالمين باسرها لايخرج احد من ملكوته وربوبيته و هوموصوف بولاية النعم الظاهرة و الباطنة من الرحمة فالمعبودية خاصة به و الفائدة المختصة من صنعة الالتفات في الاية هى انه بعد بيان شئون *(الجلالة)* بالاوصاف المذكورة تعلق العلم بمعلـوم عظيم الشأن حقيق بالعبادة والاستعانة به فخوطب ذلك المعلوم المتميز فقيل اياك نعبد وانما قدم ذكر العبادة على الطلب لان تقديم الوسيلة يكون قبل طلب الحاجة ليستوجب العبد الهداية فقال : اهدنا الصراط المستقيم . وروي ان الصادق عليه السلام قرء اهدنا صراط المستقيم واعلم ان المهتدي هوالذى ترك الدنيا و العادة ثم اشتغل بوظائف الطاعة والعبادة لامن اتبع هواه اوخلط هواه بهداه . قال الشيخ البرسى : من استدام ذكر الهادى الخبير المبين عقيب سهر وجوع اطلع على اسرار الغيب . وكذا ذكر النور الهادى ويقول بعده اهدنى يا هادى و اخبرنى ياخبير فبهذا البيان الجلى صار العبد يشاهد بعين اليقين و يخاطبه جاهاً و يناجيه شفاهاً .

أياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة و نستعين منك و لا نعبد غيرك والضمير المستكن في نعبد و نستعين للقارى و من معه من الحفظة و حاضري الجماعة ، اوله و لسائر الموحدين ادرج عبادته في تضاعيف عبادتهم و خلط حاجته بحاجتهم لعلها تجاب و تقبل ببركاتها و لهذا شرّعت الجماعة ؛

والعبادة هى العبودية على النهج الذى امر به المعبود فمن العبادة الصلوة بلا غفلة والصوم بلا غيبة والصدقة بلامنة والحج بلا ارائة والغزو بلاطمع ولاسمعة والعتق بلا اذية و الذكر بلاملالة و سائر الطاعات بلا آفة و كك في الاخلاق الرضى بلا ملال و كدورة و الصبر بلا شكاية و اليقين بلا شبهة والاقبال بلا رجعة والايصال بلا قطيعة و يجمع كل هذه الامور اتباع السنة وهومفتاح السعادة، كما قال ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله . ولمّا انعم الله على عبده بنعمة الصلوة قسّمها بينه وبين عبده كما قال على لسان نبيه قسمت الصلوة بينى و بين عبدى نصفين فنصفها لى و نصفها لعبدي و لعبدى ماسئل فنصفها الذى لحضرة جلاله : الصفات والاسماء الحسنى والحمد والثناء والشكر؛

و نصفها الذى للعبد الطلب و الدعاء (اهدنا الصراط المستقيم) بيان الطلب و المعونة المطلوبة اذهو الذى سئله الانبياء والاولياء كما قال يوسف ﷺ توفنى مسلما اذلايعتمد على ظاهر الحال فقد يتغير بالمآل كمالابليس و برصيصاوبلعم ، اى ارشد ناطريق الهداية و الصراط المستقيم استعارة عن ملة الاسلام والدين الحق واثبتنا على الهداية ، وهداية الله على انواع منها الهداية بارسال الرسل فانّهم الدعاة الى الله في عالم الامر و الخلق اى : الباطن و الظاهر قال تعالى ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا وهذا سماع يعم المعنوى شامل للمعاينة القلبية المساوق للايمان بالغيب ؛ ومنها الهداية بانزال الكتب سيماالفرقان . ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ؛ ومنها الهداية القلبية : في الحديث اذا اراد الله بعبد خيرا فتح عينا قلبه لايسمع بمعروف الاعرفه ولا بمنكر الا انكره و منها الهداية بالالهام الربانى المخصوص بالاولياء أوالمعجزات الباهرات الجاريات على أيدى الانبياء والمعصومين

والى هذه الاشارة بقوله ﷺ : « إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي ما أن تمسّكتم بهما لن تضلّوا » و الالف و اللام في الصراط للعهد يشمل جميع انواع الهدايات بقرينة بعده في قوله « صراط الذين أنعمت عليهم » فيعمّ هذا المعنى الكلّي في هذاالفرد ، فهو من قبيل الاشتراك المعنوي لكن ليس بمشترك معنوي ، بل هذه الانواع افراده وأعداده كعددالاول والثانى في معني العترة ، فالصراط المتصف بالاستقامة مندرج تحت هذاالمفهوم الكلي ، وهو صراط اوليائه . قيل فيه وجوه اخري (احدها) ثبتنا على الدين الحق ، لأنَّ الله قد هدى الخلق كلّهم على الفطرة الّا انّ الانسان قد ينزل وترد عليه الخواطر الفاسدة ، فيلزم ان يسأل الله ان يثبته على دينه ويدعه عليه ويعطيه زيادات الهدى التي هى احد اسباب الثبات علي الدين كما قال تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدي» وهذا كقول القائل لغيره وهويأ كل ، كل : اى دم على الاكل . (وثانيها) انّ الهداية هى الثواب اولازمها الثواب فمعناه اهدنا الى طريق الجنة ثواباً (وثالثها) ان المراددلنا على الدين الحق في مستقبل العمر كما دللتنا عليه في الماضى ، قال امير المؤمنين يعنى ادم لنا توفيقك الذى اطعناك به في ماضي عمرنا ، حتى نطيعك لذلك في مستقبل ايّامنا.

وفي الكلام تحقيق آخر وهو ان العبد يحتاج الي الهداية في جميع اموره آناً فآناً ولحظة فلحظة ، فادامة الهداية هي هداية اخري بعد الهداية الاولى ، فتفسير الهداية بادامتها ليس خروجاً عن ظاهر لفظها ، وفي الآية الشريفة لفظ جامع يشتمل علي مسألة احكام المعرفة والتوفيق لاقامة الشرايع في الاسلام ومعرفة من اوجب الله طاعته واجتناب المحارم والاثام والبرائة من احوال الزائلين المزيلين والضالين المضلّين ممن عاند الحق وعمى عن طريق الرشد ، فقال :

صراط الذين انعمت عليهم : بدل من الصراط الاول بدل الكلّ ، والمنعم عليهم الذي اصطفاهم من خلقه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين والذين اقبلوا بالقبول من طلب رضاه حتى لو امر بذبح ولده كابراهيم ، اوبأن ينقاد للذبح كاسمعيل ، اوبأن يرى نفسه في البحر كيونس ، أو بأن يتلمذ مع بلوغه اعلى درجات الغايات كموسى ، أو بأن يصبر في الامر بالمعروف على القتل والشق بنصفين كيحيى وزكريا . ومعلوم ان المنعم عليهم طبقات ، وهؤلاء المذكورون وامثالهم المكمّلون في الاهتداء بحسب قابلياتهم ، فأنعم الله على ضمائرهم وارواحهم انوار العناية ، وعلى هممهم انار الولاية وعلى نفوسهم وطباعهم قمع الهوي وقهر الطبع وحفظ الشرع بالرعاية ومن مكايد الشيطان بالمراقبة والكلاية ، ودونهم المؤمنون الذين معهم ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا في اتباع السنة وانقياد النفس للاوامر والنواهي .

وفي كتاب المعاني : عن الصادق ﷺ الهداية هي الطريق الي معرفة الله و هما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الاخرة ، فأما الصراط في الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مر علي الصراط الذي هو جسر جهنم في الاخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط الذى هو جسر جهنم في الاخرة ، وعنه ﷺ ان الصراط امير المومنين ، وزاد في رواية اخري ومعرفته ، وفي اخري نحن صراط المستقيم فمعرفته واتبّاعه الصراط المستقيم فمن اصابه تلك المعرفة وذلك النور فقد اهتدى ، ومن اخطاه فقد ضلّ ، ياعلي ياعلي انت انت صراط الله لو انصفوكا وقرء صراط من انعمت عليهم عن اهل البيت. وعن عمر بن الخطاب وعمر بن الزبير.

لكن الصحيح هو المشهور ؛ والمنعم عليهم هم الذين خصهم الله بعصمته و احتج بهم على بريته وفضلهم على خليقته ، فيكون ذلك شهادة لصراطهم بالاستقامة على أكد الوجوه ، كما تقول : هل ادلك على اكرم فلان فيكون ذاك في وصفه بالكرم من قولك هل ادلك على فلان الاكرم، لانك ذكرت كرمه مجملا اولاً ومفصلاثانياًواوقعت فلانا تفسيراللاكرم فجعلته علما في الكرم ، ومعني الكلام انه : من اراد رجلا جامعاً للكرم ففلان : والمنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله وقايدهم ورئيسهم الذيلم يشرك بالله طرفة عين ، وهوالصراط الاعظم امير المؤمنين ﷺ ،

حبه موجب خلد ونعيم — بغضه منشأ نار وسقر
ها على بشر كيف بشر — نوره فيه تجلّى وظهر
هو والمبدء شمس وضياء — هو و الواجب نور وقمر
علّة الكون ولولاه لما — كان للعالم عين واثر
ما هو الله ولكن مثلا — معه الله كنار وحجر
وله ابدع ما تعقله — من عقول و نفوس وصور
فلك في فلك فيه نجوم — صدف في صدف فيه درر
جنس الاجناس عليٌ وبنوه — نوع الانواع الى الحادي عشر
كلّ من مات ولم يعرفهم — موته موت حمير و بقر
ليس من اذنب يوماً بامام — كيف من أشرك دهراً و كفر
قوسه قوس نزول و عروج — سهمه سهم قضاء و قدر
حبّه مبدء خلد و نعيم — بغضه منشأ نار و سقر
من له صاحبة كالزهراء — او سليل كشبير وشبر
من كمن هللّ في عهد صبي — اوكمن كبّر في عهد صغر
أيها الخصم تذكر سنداً — متنه صحّ بنصّ وخبر
إذ أتى احمد في خم غدير — بعليّ و على الرّحل نبر
قال من كنت انا مولى له — فعلى له مولى و مقر

قبل تعيين وصيّ ووزير   من رأى مـــات نبي و هجر

قال شيخ الطايفة في اماليه باسناده عن الاصبغ بن نباتة قال : دخل الحارث الهمداني علي اميرالمؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام في نفر من الشيعة وكنت فيهم ، وذكر الحديث وقال في آخره و ابشرك ياحارث و الذى فلق الحبّة و برء النسمة ليعرفني وليّي وعدوّى في مواطن شتّي ليعرفنى عندالممات وعندالصّراط ، وعندالمقاسمة، فقال: وما المقاسمة يامولاي قال : مقاسمة الجنّة و النّار أقول : هذا وليى و هذا عدوّي ، ثمّ أخذأميرالمؤمنين يد الحارث وقال يا حار اخذت بيدك كما أخذ رسول الله بيدى ، فقال لى وقد اشتكيت حسدة قريش والمنافقين انّه اذا كان يوم القيمة أخذت بحجزة يعنىعصمة منذىالعرش تعالى، وأخذت انت ياعلّى بحجزتى وأخذت ذرّيتك بحجزتك و أخذت شيعتك بحجزتكم ، فماذا يصنع بنبيّه ، ومايصنع نبيّه بوصيّه ، وما يصنع وصيّه بأهل بيته و شيعتهم . خذها إليك قصيرة من طويلة ، أنت مع من احببت ولك ما اكتسبت قالها ثلاثاً ، فقام الحارث يجر ردائه جذلا وقال ما أبالي و ربّى بعد هذا متي لقيت الموت اولقينى .

وعن اميرالمؤمنين عليه السلام قال : قال لىرسول الله ياعلىان الله اعطانى فيك سبع خصال انت اول من ينشق القبر عنه واوّل من يقف على الصراط معى فتقول للنار خذى هذا فهولك وذري هذا ، فليس هولك ، وانت اول من يكتسى اذا كسيت ويحيي اذاحييت واوّل من يقف معى عن يمين العرش واول من يقرع باب الجنّة واول من يسكن معي عليين واول من يشرب معىمن الرحيق المختوم الذى ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ابن بابويه قال: قالرسول الله معاشر الناس من أحسن من الله قيلا واصدق من الله حديثا ، معاشر الناس ان ربكم امرنىان اقيم لكم عليا علما واماماً وخليفة ووصياً وان اتخذه أخا ووزيراً ، معاشر الناس ان علياًباب الهدي بعدى والداعي الي ربى وهوصالح المؤمنين ومن احسن قولا ممن دعا الى الله و عمل صالحاً و قال : انني من المسلمين ، معاشر الناس ان علياً منّى ، ولده ولدى وهو زوج حبيبتى ، امره امري ونهيه نهيي ،

أيها الناس عليكم بطاعته واجتناب معصيته ، وانّ طاعته طاعتي ومعصيته معصيتي معاشر الناس ان علياً صدّيق هذه الامة وفاروقها وهارونها ويوشعها وشمعونها و آصفها ، انه باب حطتها وسفينة نجاتها، انه طالوتها وذوقرنيها ،معاشر الناس انه محنة الورى والحجة العظمى والآية الكبرى وامام الهدى والعروة الوثقى ، معاشر الناس انّ علياً قسيم لايدخل النار وليّ له ولاينجو منها عدوّ له ، انّه قسيم الجنّة لا يدخلها عدوّ له ولا يتزحزح منها ولىّ له ، معاشر اصحابي قدنصحت لكم وبلّغتكم رسالة ربّي ولكن لاتحبون الناصحين اقول قولي هذا واستغفر الله لى ولكم .

وأصل الصراط سراط من السين وابدلوا السين بالصاد لما بين الصاد والطاء مواخاة في الاستعلاء ، ولكراهة ان يتسفل بالسين ، ثم يتصعد بالطاء ابدلوا بالصاد .

غير المغضوب عليهم ولا الضالين جرّ غير على البدلية من الهاء و الميم في عليهم مثل قول الشاعر :

على حالة لوانّ في القوم حاتم ‌ ‌ ‌ على جوده لضنّ بالماء حاتم

فجرّ حاتم على البدليّة من الهاء من جوده ، اويكون غير مجروراً على البدليّة من الذين ، او يكون صفة للذين و كلمة غير يستعمل لمعني المغايرة ونفى الحكم . و معني الغضب ثوران النفس عند ارادة الانتقام ويحصل غليان في دم القلب لشهوة التشفي والانتقام ، وهذه الكيفية في حقّ الله تعالى محال ، والمراد هنا نقيض الرضى ، او ارادة الانتقام اوالاخذ الشديد : وذلك لانّ القاعدة التفسيرية عند اهل التفسير انّ الافعال التى لها اوايل بدايات وأواخر غايات إذا لم يجز ولم يمكن اسنادها الى الله باعتبار البدايات يراد بها حين الاسناد النهايات كالغضب والحياء والتكبّر والاستهزاء والسرور والغم . والمراد من المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالين ، النصارى .

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: (من لعنه الله و غضب عليه و جعل منهم القردة و الخنازير) وقال تعالى : (و لقد علمتم الذين اعتدوا في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) .

و اما النصارى بدلالة قوله : (ولاتتبعوا اهواء قوم قد ضلّوا من قبل واضلوا كثيراً

و ضلوا عن سواء السبيل) ، و الاية في حقهم و قداشتهر تفسيرالمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى ، و فسرالمغضوب عليهم بالعصاة في الفروع و الضالين بالمختلين في الاعتقاديات ، فان المنعم عليه من وفق الجمع بين العلم و العمل بالاحكام الاعتقاديّة و العمل بالشريعة فالمقابل له من اختل احدى قوتيه العاقلة و العاملة ، ولفظة «لا» تفيد تاكيدالنفي الواقع قبلها ، وفي عدوله سبحانه عن اسناد الغضب الى نفسه تعالى مع التصريح باسنادعديله اعنى النعمة اليه تشييد لمعالم العفو والرحمة واشارة لمباني الجودوالكرم حتى كان الصادرعنه هوالانعام لاغير ، و ان الغضب صادر عن الغير بسبب ان الغير صار سبب الغضب والا فالمناسب ان يقول غير الذين غضبت عليهم ، فصار الكلام في قوة التصريح في جانب الرحمة والتعريض في جانب العقاب.

و كذلك اغلب الايات المتضمنة لذكر العفووالانتقام ، فانك تجدهاظاهرة في ترجيح جانب العفو : مثل قوله تعالى : «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء و كان الله غفوراً رحيما» مع ان ظاهر المقابلة و نسق الاية ان يقول و كان الله غفوراً معذباً ، و كذلك قال تعالى « غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذي الطول » حيث بعد بيان صفة الانتقام بقوله شديد العقاب جعلها محفوفة بنعوت الاحسان . و ليس المراد تخصيص نسبة الغضب باليهود و نسبة الضلال بالنصارى بل جميع الكفّار في بين النسبتين داخلون والكفر ملّة واحدة الا ان الله يخص كل فريق بسمة يعرف بها و يميز بينه و بين غيره بها و ان كانوا مشتركين في صفات كثيرة .

وقال عبد القادر الجرجاني ان حق اللفظ فيه ان يكون خرج مخرج الجنس

وقيل المراد من المغضوب عليهم العصاة ومن الضالين الجاهلون بالله لان المنعم عليهم هم الجامعون بين العلم والعمل فكان المقابل لهم من اختل احدى قوتيه العاقلة والعاملة والمخل بالعلم والعمل جاهل ضالّ .

فأن قيل انّ من المعلوم ان المنعم عليهم غيرالفريقين فماالفائدة في البيان ، اقول : الفائدة اشعار مقام الخوف والرجاء .

قال محمدالحلبي عن ابي عبدالله ﵇ أنّه كان يقرء ملك يوم الدّين و يقرء اهدنا

صراط المستقيم و عند اهل السنّة بعد فراغ الفاتحة يستحب القول بكلمة آمين وروى جميل عن ابى عبد الله ﷺ قال : إذا كنت خلف امام ففرغ من قرائة الفاتحة فقل انت من خلفه : الحمد لله ربّ العالمين . و روى فضيل بن يسار عنه ﷺ إذا قرأت الفاتحة ففرغت من قرائتها فأنت في الصلوة فقل الحمد لله رب العالمين. واعلم انّ المصلّى اذا توجه بوجهه الى الله لاداء وظيفة العبودية و احرم بالتكبيرة مع النية الخالصة لمولاه و التزم بحضور قلبه وعرف نعم الله بالمشاهدة و نفسه بذلك اعدل شاهد واصدق راءٍ ابتده بالتسمية استفتاحاً باسم المنعم و اعترافاً بالهيته واستر واحاً الى ذكر فضله فبعد ان اعترف بالمنعم الفرد اشتغل بالشكر له والحمد له فقال «الحمد لله» ولما رأى نعم الله على غيره واضحة كما شاهد آثارها على نفسه لائحة عرف أنّه رب الخلائق اجمعين فقال «رب العالمين» و لذلك لمّا كان شمول فضله و عموم رزقه للمربوبين قال «الرحمن» ولما راى تقصيرهم فى واجب شكره وعدم مؤاخذته عاجلا بالعصيان قال «الرحيم» ولمّا رأى ما بين العباد من التباغى والفساد والتكالب والتلاكم و ان ليس بعضهم من شرّ بعضهم بسالم علم أنّ و رائهم يوماً ينتصف فيه للمظلوم من الظالم فقال .

«مالك يوم الدين» ولما عرف هذه الجملة فقد علم انّ له خالقاً رازقاً يحيى ويميت و يبدئ و يعيد و لمّا صار الاله الموصوف بهذا الوصف كالمدرك بالحس والعيان تحول عن لفظ الغيبة إلى الخطاب فقال .

«ايّاك نعبد» ثم سئله الاستعانة لاموره دينا و دنيا بقوله « وأياك نستعين» ثم سئله الاستدامة على دين الحق والثبات عليه بل طلب أمراً جامعاً لجميع مراتب الخير فقال «إهدنا الصراط المستقيم» صراط اوليائك الذين اصطفيتهم فسأله ان يلحقه بهم ويسلك به سبيلهم لاسبيل الزائغين والمنحرفين فقال «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

والقرآن اعجز الاولين والآخرين بالبلاغة والفصاحة . اعلم أنّه لابدّ ان ان يكون لكلّ كلام مرغوب حظّ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة فحينئذ ماظنّك بمافى ذروة الاعجاز وأعلم انّ شعب البلاغة فى علم المعانى والبيان عشرة : الاستعارة ، والتشبيه و الكناية والايجاز والاطناب والمغالطة والتضمين والاستدراج والمبادى والتخلص

والاولى : اى الاستعارة هو ان يحاول المنشى والمتكلم تشبيه شيىء بغيره ولا يأتى باداة التشبيه طلبالزيادة الدلالة مع الايجاز فيستعير اسم المشبه به ويكسوه الشبه من غير تعرض لذكر المشبه فيحصل به زيادة بلاغة مثاله فاذاقها اللهّٰ لباس الجوع والخوف . الضمير المؤنث راجع إلى مكة بأعتبار أهلها و وجه الاستعارة ان الثوب لما كان يحيط بجوانب اللاّبس استعار اسم اللباس للخوف والجوع حيث اراد سبحانه الاخبار عن احاطة الجوع والخوف من جميع الجهات فهو ابلغ فى المقصود اذ لو قال جعل اللهّٰ الجوع والخوف محيطين بهم من جوانبهم كانّه لباس لهم لم يكن فى الكلام من الحسن مافى الاستعارة .

الثانية : من أبواب البلاغة التشبيه وهو الدلالة على شيئين أشتركا فى معنى لكن ذلك المعنى ثابت ومعروف فى الاسم الذى دخلت عليه أداة التشبيه فيجعل المنشي والمتكلم الاسم الذى لم تدخل عليه الاداة كالاسم الذى دخل عليه الاداة مثاله زيد كالأسد و وجهه كالقمر كأنّهم جراد منتشر شبّه سبحانه الناس عند خروجهم من القبور مضطربين متحيرين قد طبقوا الجهات بكثرتهم لايلوى بعضهم على بعض بالجراد المنتشر لحصول هذا المعنى من هذا التشبيه .

الثالثة : الكناية وهو لفظ استعمل في معناه لكن المراد ما يلزم ذلك المعنى، مثاله في عيسى وامه كانايا كلان الطعام ، كنى به عن خروج الخارج منهما لانه من لوازم الاكل وهو افصح واوجز والطف ، والمقصود من هذه الكناية ان من خرج منه هذا الخارج فهو بمعزل عن الالهية وردّ محكم لقول النصارى .

الرابعة : الايجاز وهو التعبير بالالفاظ القليلة عن المعانى الكثيرة وهو دليل على رجحان العقل ، فكل نوع صحيح من الايجاز معدود من الاعجاز ، وقد اجمع ارباب المعانى والبيان انّ أوجز كلمة استعملتها العرب هى قولهم : القتل انفى للقتل ، فلمّا نزل قوله ولكم في القصاص حيوة اذعنوا برجحانه بل قولهم القتل انفي للقتل هذا الكلام ليس بتامّ فانّ بعض القتل هو موجب لكثرة القتل لانفيه .

الخامسة : الإطناب وهو ذكر الشيء مرّة أخرى بلفظ غير الاول لشدة الاعتناء به ، مثاله : « اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس في قلوبكم » ، فقوله بافواهكم

اطناب لانّ قوله يقولون دلّ علي مادلّ بافواههكم فانّ القول لايكون الا بالفم ولكن نبّه به على تعظيم هذا الامر لشدة قبحه .

السادسة : المغالطة وهي ان ياتي المنشي المجيد بكلام يدلّ على معنى وله مثل او نقيض يكون المثل والنقيض احسن موقعا ، مثاله في حقّ المنافقين وقد صدر منهم كلمات في حق النبيّ بالاستهزاء ، فقال : « فلئن سألتهم ليقولنّ انّما كنّا نخوض ونلعب » فغالطوا في الجواب بهاتين الكلمتين الموهمتين صدق ما كانوا فيه ، فكذّبهم الله بقوله : « قل أبالله و آياته ورسوله كنتم تستهزؤن »

السابعة : التضمين وهو ان يضمن المنشي كلامه شيئا من الامثال او الشعر او الحديث وهو يزيد الكلام عذوبة وحسنا .

الثامنة : الاستدراج وهو ان يصوغ لغرضه الفاظاً يكسوها من اللطافة ما يحيّر الالباب ، وهو الركن الاعظم في هذه الصناعات ، مثاله في القرآن . « واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء » ، فانّ موسى ﷺ لمّا اراد ان ينقل قومه من أرضهم الى غيرها اسمعهم ما سرّهم ثم استدرجهم الى مطلوبه بقوله : « ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم .

التاسعة : المبادى وتسمّى براعة الاستهلال ، وهو ان يجعل اوّل كلامه دالاّ على المقصود كقول النحوى : الحمد لله الذى رفع من انخفض لجلاله .

العاشرة : التخلّص وهو ان يجعل بين المعنى الذى ينتقل عنه والذى ينتقل اليه ارتباطا وتعلّقا بحيث يكون الكلام المشتمل على المعانى المتعددة كالمنتظم فى سلك واحد مثاله : « واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون قالوا نعبد اصناماً فنظلّ لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرّون » الى ان يقول فانهم عدو لى الاّ رب العالمين » ، فانّ فى هذه الايات الى قوله : ثم يحيين من حسن التخلص مايدهش العقول فتأمّل فى حسن البلاغة .

قال اهل البيان انّ من البلاغة براعة الاستهلال وحسن الابتداء وهو ان ياتي المتكلّم بكلام يفهم غرضه من كلامه عند الابتداء من كلامه ، من استهل الصبي اى صاح عند الولادة ،

واستهل رأى الهلال واستهلت السماء اى جادت بالهلال وهو اول النظر والمقصود من إنزال القرآن حفظ الاصول التى عليها مدار الدين والدنيا والاصل الأول معرفة الله وصفاته، والى هذا المعنى الاشارة برب العالمين الرحمن الرحيم من الصفات.

فيستحق الحمد و الاطاعة ثم الاهم معرفة النبوات، واليه الاشارة بالذين انعمت عليهم و معرفة المعاد، و اليه الاشارة بمالك يوم الدين، ثم علم العبادات و اليه الاشارة بإيّاك نعبد، وعلم السلوك وهو حمل النفس على الاداب الشرعية والانقياد، واليه الاشارة باهدنا الصراط المستقيم، وعلم القصص وهو الإطّلاع على اخبار الامم السابقة ليعلم المطّلع على ذلك سعادة من اطاع الله وشقاوة من عصاه، واليه الاشارة بقوله: «صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» ففى فاتحة القرآن براعة و تنبيه على الغرض من انزال القرآن، وكذلك سورة اقرء فيها حسن الابتداء والبراعة، فان فيها الامر بالقرائة والبدء فيها باسم الله لتعريف ذاته، وفيه اشارة الى علم الاحكام بقوله «علّم الانسان مالم يعلم» مثال براعة الاستهلال فى الشعر قول ابى تمام يهنّى المعتصم العباسى بفتح عمورية وكان المنجمون زعموا انها لاتفتح فى هذا الوقت.

السيف اصدق انباء من الكتب ... فى حدّه الحد بين الجِدّ واللعب

بيض الصفايح لاسود الصحائف فى ... متونهنّ جلاء الشك و الريب

قيل فى معنى التفسير اصله من التفسرة وهو ماء المريض يجعلونه فى القارورة ليعلم ويستنبط الطبيب مرض المريض فيستكشف منه، وقيل غيره. و القرآن معانيه على اقسام منها ان المصلحة لاتقتضى ان يعلم علمه احد حتى الانبياء، مثاله: «يسئلونك عن الساعة ايّان مرسيها قل انّما علمها عند ربّى لا يجلّيها لوقتها الاهو» و قسم يعلمه من عرف العربية وهو المحكم، مثل: «قوله تعالى ولا تقتلوا النفس الّتي حرم الله الّا بالحق و«لاتقربوا الزنا ولا تقربوا مال اليتيم» واغلب القرآن من هذا القسم الثانى، وقسم ثالث وهو الّذى لايتبين المراد منه كاملا الّا اذا شرحه النبي، و هو الذى يسمّى بالمجمل نحو «اقيموا الصلوة واتوا الزكوة» ومثل «ولله على الناس حجّ البيت» وقسم رابع وهو الّذى لفظه مشترك وهو الّذى يسمّى بالمتشابه كه آن ذو احتمال بر معانى چند باشد، در

اینصورت پس متشابه آن باشد که مراد از ظاهر فهمیده نشود بدون دلیل سمعي نه عقلی ، بعبارة اخرى لا يقدم المكلّف فى العمل به الا باخبار الرسول والامام من نقل الصحيح عنهم .

ومثال آيات متشابهه مثل وجاء ربّك وقوله فثمّ . وجه الله . وقر آن ناسخ است و منسوخ يعني آيه بعد نسخ حكم ماقبل راميكند مثل « والذين يتوفّون منكم ويذرون ازواجا يتربّصن بانفسهن اربعة اشهروعشرا » كه اين آيه نسخ كرد آيه قبل راكه اين بود « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم متاعا الي الحول » وهذا الحكم منسوخ لكن التلاوة غير منسوخة ، هذا قسم من النسخ واما العامّ فهو لفظ يشمل جميع افراد جنسه والخاص لايشمل الاالفرد واما اسامى القرآن اولها القرآن من الضم والجمع وفرقان و كتاب وذكر وتنزيل و حديث و موعظة و تذكرة و تبيان و بصائر وفصل وحكم وحكيم وذكرى و حكمة ومهيمن وشافي وهدى وهادي وصراط مستقيم ونور وحبل و رحمت و روح و قصص وحق وبيان وعصمة ومبارك و نجوم لانّها نزلت نجما نجما قال الله فلا اقسم بمواقع النجوم و هو المراد من المعنى ومجيد وعزيز و كريم و عظيم و سراج و منيروبشير و نذير و عجيب و قيّم و مبين و نعمة و عليّ فهى ثلاثة و اربعون اسمالها مناسبات مع المسمى . و اما السورة سميت بها قيل السورة المنزلة العظيمه . قال النابغة الم تر ان الله اعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب . اي منزلة شريفة عالية و كذا سور البلد لانه مرتفع .

هذا اذا كان بغير الهمزة لكن اذا كان مهموزا فالمعنى بقية الماء والطعام فى الاناء ، واما الاية بمعني العلامة مثل « آية منك فى كلام عيسى و بمعنى الرسالة ابلغه عني آية اى رسالة و بمعنى الجماعة كقولهم خرج القوم بآيتهم اى بجماعتهم وبمعنى الاعجوبه ، كل هذه المعانى مناسبة للآية واما الكلمه لفظ موضوع يدل على معني بالوضع .

فى ثواب القرائة روى شهر بن حوشب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم القرآن غنى لاغنى دونه ولافقر بعده قال صلى الله عليه وآله وسلم القرآن افضل كلشيء دون الله فمن وقّر القران فقد وقّر الله و من لم يوقّر القرآن فقد

استخف بحرمةالله وحرمةالقرآن عندالله كحرمةالوالدعند ولده .

وعن أبى امامة عن رسول الله ﷺ قال : من قرأ ثلث القرآن كأنه اوتى ثلث النبوّة . ومن قرأ ثلثيه كأنّما اوتى ثلثى النبوّة ومن قرأ تمام القرآن فكأنّما اوتي تمام النبوّة ، ثمّ يقال له اقرأ وارقأ بكلّ آية درجة في الجنّة .

و في رواية عن نساء النبي قال رسول الله ﷺ حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبّسون نور الله ، المعلّمون كلام الله ، من عاداهم فقد عادي الله ، و من والاهم فقد والى الله ، يقول الله تعالى ياحملة القرآن تحبّبوا الى الله بتوقير كتابه يزدكم حبّاً ويحببكم إلى خلقه ويدفع عن مستمع القرآن شرّ الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة ، ولمستمع آية من كتاب الله خير من مبشر ذهبا ولتالى آية من كتاب الله خير مما تحت العرش الى تخوم الارضين السفلى ، وفي رواية عن النبى ﷺ : من تلا كتاب الله من الصفحة لامن ظهر الخاطر خفّف الله عن والديه ولو كانا مشركين .

وفي خبر آخر قال معاذ بن جبل : قال رسول الله ﷺ : ان اردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور ، والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن فانّه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان . و روى حارث الهمدانى عن امير المؤمنين عن رسول الله : انّه ﷺ ذكر فتنة بعده فقلنا يارسول الله فبما الخلاص منها ؟ قال : بكتاب الله ،

قال عطا أنزلت فاتحة الكتاب بمكّة يوم الجمعة كرامة اكرم الله نبيّه بها وكان معها سبعة آلاف ملك حين نزل بها جبرئيل ، روى ان عير اقدمت من الشام لابى جهل بمال عظيم وهى سبع فرق ورسول الله واصحابه ينظرون إليها وأكثر الصحابة بهم جوع و عرى فخطر ببال النبى ﷺ ان يسأل شيئاً من الله لحاجة اصحابه فنزل قوله تعالى : «ولقد آتيناك سبعاً من المثانى» أى مكان سبع قوافل لابى جهل ، ولمّا علم الله ان تمنّيه لم يكن لنفسه بل لاصحابه قال : « ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » .

وفضايل هذه السورة كثيرة ، قيل انّه ليست فيها سبعة احرف ، ثاء الثبور وجيم الجهيم وخاء الخوف وزاء الزقوم وشين الشقاوة وظاء الظلمة وفاء الفراق ، و من قرأها

على التعظيم والحرمة امن من هذه الاشياء السبعة . و في الروضة من خطبة لعلي بن الحسين عليه السلام : واشعروا قلوبكم خوف الله وتذكّروا ماوعدكم الله في مرجعكم اليه من حسن ثوابه كماقد خوّفكم من شديد العقاب ، فأنّه من خاف شيئاً حذّره ومن حذر شيئاً تركه ، ولا تكونوا من الغافلين . قال الصادق عليه السلام : من عرف الله خاف الله ، ومن خاف الله سخط نفسه عن الدنيا ، وان حبّ الشرف والذكر لايكونان في قلب الخايف الهارب والمؤمن بين مخافتين ذنب قدمضى وعمر قدبقي لايدرى مايكتسب فيه من المهالك فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، حتى يكون عاملا لمايخاف ويرجو .

روى الصدوق من ليث بن ابي سليم قال : سمعت رجلا من الانصار يقول : بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر إذجاء رجل فنزع ثيابه ثمّ جعل يتمرّغ في الرّمضاء يقلّب ظهره مرّة وبطنه مرّة وجبهته مرّة ويقول يانفس ذوقي فماعندالله اعظم ممّا صنعت بك ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر اليه مايصنع ثم انّ الرجل لبس ثيابه ثمّ اقبل فأومى اليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيده ودعاه فقال له : يا عبد الله ما حملك على ماصنعت قال : مخافة الله فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لقد خفت ربّك حق مخافته ، فانّ ربّك يباهي بك اهل السماء ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم لاصحابه يامعشر من حضر ادنوا من صاحبكم حتّى يدعولكم فدنوا منه ، فدعا لهم فقال : اللهمّ اجمع امرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا والجنّة مآبنا .

أقول وقلّة الخوف ناشية من ضعف الايمان وشدة الغفلة ، امّا ضعف الايمان لانّك ما استكملته باليقين وايمانك ظنيّاً تخمينيا ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة ، والعلاج ملازمة الفكر في اهوال القيامة والتدبّر في سيرة الانبياء و الكمّلين فانّهم مع عصمتهم وجلالة شأنهم كيف يخافون الله ويأخذهم الغشوة من الخوف و يتململون تململ السليم ؟

وأما الغفلة فتزول بالتذكير ومجالسة الاخيار و مشاهدة احوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لايخلو من تأثير . قال السجاد عليه السلام سبحانك عجبا لمن عرفك كيف لايخافك ؟

أقول : ان الخوف اذا كان صادقاً يظهر اثره في الظاهر والباطن كماترى المتصف بالغضب يحمر وجهه ويقف شعره ويشتد حركاته الى انتقام من ظلمه ، كذلك من اتّصف بالخوف يصفر وجهه ومن اتّصف برقة القلب تجرى دمعة عينيه بمجرّد سماع مصيبة ، كلّ ذلك العلاقة الذاتية بين الظاهر والباطن . وهذا معنى قولهم بين الروح والجسد علاقة طبيعية : ففى الروح كالاصل واللب وفي الجسد كالفرع والقشر و هما متلازمان ، اماسمعت انّه ﷺ كان اذا قام الى الصلاة تغير لونه حتى يعرف ذلك من وجهه و كذلك ابنه السجاد ﷺ كان اذا قام للوضوء تغيرت حاله و ذلك لانّه قد غلب عقولهم على شهواتهم فتركوا اللّذايذ الدنيويّة علماًمنهم بفنائها وخافوا من هيبة كبرياء الله ورجوا رضى الله والرجاء مقام سنى .تمت سورة الفاتحة .

سورة البقرة مدنية

سورة البقرة مدنيّة إلّا آية منها فانّها نزلت في حجّة الوداع بمنى وهى : « واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله »

بسم الله الرحمن الرحيم مرّ تفسيره ، واعلم انّ المراد من قولهم مكّية اومدنيّة انّه كلمّا نزل قبل الهجرة يقال : مكيّة ، وكلمّا نزل بعدالهجرة يقال مدنيّة ، سواء نزلت بالمدينة أوغيرها ، وفي الكافي عن العياشي عن أبي جعفر عليه السلام قال : نزّل القرآن على أربعة ارباع ربع فينا وربع في عدوّنا وربع سنن وامثال وربع فى فرائض .

وفي رواية عن الاصبغ بن نباتة قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : نزّل القرآن أثلاثاً ثلث فينا وفي عدوّنا وثلث سنن وأمثال وثلث فرايض وأحكام . والمثل اتيان لفظ جلي لايضاح معنى خفيّ وفايدته التـأكيد في اثبات الحكم للممثّل مثل قوله صلى الله عليه وآله : مثل اهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجي ومن تخلّف عنها هلـك .

« **الٓمٓ** » وقدتكلّموا في شأن فواتح السور الكريمة فقيل انهامن الاسرار المحجوبة ، والعلوم المستورة ومن المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وهى سرّ القرآن ، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها الى الله ، وهذا هو المروى عن ائمتنا عليهم السلام وفسّرها لاخرون على وجوه :

أحدها : انها أسماء السور.

وثانيها : ان المراد الدلالة على أسماء الله فقوله الٓمٓ معنى الالف : انا الله ، واللام : اللطيف ، والميم : المجيد كمافي قوله « الٓرٰ » أنا الله أرى ، و « كهيعص » : انا الله الكريم الهادي الحكيم العليم الصادق ، فهي حروف مقطعة كل منها مأخوذ من إسم من أسمائه ، وقالوا الاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربيّة كما قال الشاعر : قلت لها قفي فقالت : ق ، أي وقفت . والقول الاول أقرب إلي القبول ، فيكون من المواضع المعمّيات بالحروف بين المحبين ، لايطلع عليها غيرهما .

قال الرازي في المفاتيح أن الالفاظ التي يتهجّى بها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة ، لأنّ الضاد مثلا لفظة مفردة دالة على معنى مستقل بنفسه من غير دلالة على الزمان المعين لذلك المعنى وذلك المعنى هو الحرف الاول من ضرب ، فثبت أنّها أسماء لذلك المسمّيات ولأنّها يتصرّف فيها بالتعريف والتنكير والجمع والتصغير والوصف والاضافة والاسناد ، وحكمها مالم تلها العوامل أن تكون ساكنة الاعجاز كأسماء الاعداد ؛ فيقال : الف، لام، ميم، كماتقول : واحد، اثنان، ثلاثة، فاذاوليتها العوامل أدركها الاعراب كقولك هذه ألف ؛ وكتب الفا ، ونظرت إلى ألف ، وإنما سكنت سكون ساير الاسماء حيث لا يمسّها اعراب لفقد موجبه ، و سكونها وقف لا بناء ، لأنّها لو بنيت لحذي بها حذو كيف وأين ، انتهى .

والذين قالوا : انّ هذه الحروف المقطعة سرٌّ محجوب استأثر الله به ، كما سئل الشعبي عن هذه الحروف ، فقال سرّ الله فلاتطلبوه . وعن ابن عبّاس قال : عجزت العلماء عن إدراكها فقدردّ عليهم المتكلّمون وقالوا لايجوز أن يرد في كتاب الله مالايكون مفهوماً للخلق ، واحتجّوا بالآيات والاخبار والمعقول مثل قوله تعالى : « أفلا يتدبّرون القرآن ام على قلوب أقفالها» أمرهم بالتدبر في القرآن ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه ، وكذلك قوله : « وإنه لتنزيل ربّ العالمين نزل به الرّوح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » يدلّ على أنّه نازل بلغة العرب وإذا كان كذلك وجب أن يكون مفهوماً ، وكذلك قوله : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » و الاستنباط منه لايكون يمكن إلامع الاحاطة بمعناه ، وقوله : « أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم انّ في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » وكيف يكون الكتاب كافياً ؟ و هو غير مفهوم .

وأما الأخبار : قال علي عليه السلام : عليكم بكتاب الله ، فيه نبأ ماقبلكم وخبر مابعدكم وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قصمه الله ومن اتبع الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، هو الذي لايزيغ به الاهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولايخلق على كثرة الرد ، ولاتنقضي عجائبه ، من قال به صدق، ومن حكم

بهعدل، ومن خاصم له فلج، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

أمّا المعقول انّه لوورد شيء لاسبيل إلى العلم به لكانت المخاطبة به تجري مجرى مخاطبة العربي باللّغة الزنجيّة ولمّا لم يجز ذلك فكذا هذا ، واحتجّ مخالفوهم بالاية والخبر والمعقول .

أما الآية فهو انّ المتشابه من القرآن وأنّه غير معلوم لقوله : « ومايعلم تأويله إلا الله » والجواب عن هذا الجواب انّه انّما استدلوا على مدّعاهم بهذه الاية حيث أوجبوا الوقف بقوله إلّا الله ، ومن أين ثبت وجوب الوقف ، ثم من أين لزم فهم المتشابهات لكل احد بل كلّ احد يجب أن يفهم من القرآن ما بيّنه الشارع علي لسان النبي ﷺ وذلك مفهوم من المحكمات بتعليم النبي وبيانه ، وأمّا العلم بتأويله ومالايجب عليهم فذلك علمه عند رسوله وإنّما يعرف القرآن من أنزل عليه ، فيكون علم فواتح السور من العلوم المخزونة عنده وعند نبيّه ، ومن المعلوم أنّ معرفة كمال حقايق القرآن بأجمعها ليس من وظيفة عامّة الناس لأن القرآن بحر له بطون ، وأين الثريا من يد المتناول ، ولكن يجب معرفته لاداء مايجب على المكلّف أدائه ، فأيّ محذور يترتّب إذا لم يفهم المكارى من قوله (حمعسق) وهو علم غير مربوط بالاحكام ، والعلم المتعلّق بالاحكام ، فهو من المحكمات ، وقد بينه الشارع ؛ على أنّ القول بأنّ هذه الفواتح من السّور غير معلومة مروى عن اكابر الصحابة .

والافعال التى كلفنا بها قسمان : منها مانعرف وجه الحكمة فيها على الجملة كالصلاة، والزكوة، والصوم، مثل أن الصلاة تواضع محض وتضرّع الخالق، والزكوة سعى فى دفع حاجة الفقير والصوم سعى فى كسر شهوة النفس والاستغفار مثلا حطّ للذنوب ، فمن استغفر السبعين بهذا الاستغفار المذكور في صحيفة العلوية الذي في آخره : اللهمّ واستغفرك لكل ذنب جرى به علمك فيّ وعليّ الى آخر عمرى بجميع ذنوبى لاوّلها وآخرها و عمدها وخطائها وقليلها وكثيرها ودقيقها وجليلها وقديمها وحديثها وسرّها وعلانيتها و جميع ما أنا مذنبه وأتوب إليك وأسألك أن تصلّي على محمّد و آل محمّد و أن تغفرلى جميع ما أحصيت من مظالم العباد قبلي فإنّ لعبادك عليّ حقوقاً أنامرتهن بها تغفرها لي

كيف شئت وأنّى شئت يا أرحم الراحمين ، غفرالله ذنبه .

ومنها مالانعرف وجه الحكمة فيه ولايلزم لنا معرفة حكمة أفعاله ، مثل رمي الجمرات ، ومعرفة بعض متشابهات القرآن وفواتح السور يكون من هذاالقبيل ، انتهى رجعنا الى التفسير .

الٓمٓ . قيل إنّ فواتح السّور أقسام أقسم الله بها وهي من أسمائه تعالى .

وقيل : إنّها أسماء القرآن وقيل : إنّها تسكيت للمشركين كانوا تواصوا فيمابينهم أن لايستمعوا لهذا القرآن وأن يلغوا كماورد به التنزيل من قولهم : لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فربّما صفقوا وصفروا ليغلطواالنبي ، فأنزل الله هذه الحروف حتى إذا سمعوا شيئاً غريباً استمعوا إليه ، و تفكّروا ، واشتغلوا عن تغليطه ، فيقع القرآن في مسامعهم ، ويكون ذلك سبباً لدرك منافعهم .

و قيل : إنّ المراد بها أن هذاالقرآن الذى عجزتم عن معارضته من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم و كلامكم ، فاذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من عند الله لأنّ العادة لم تجر بأنّ النّاس يتفاوتون في القدر من الكلام هذا التفاوت العظيم وإنّما كرّرت في مواضع استظهاراً في الحجّة .

وقيل : انّ كل حرف منها يدلّ على مدّة قوم و آجال آخرين يعرفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي تأويلات القاسانية، «ألف» إشارة إلى الذات الذي اول الوجود، و«ل» اشارة إلى العقل الفعّال المسمّى بجبرئيل وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ويفيض إلى المنتهى ، و«م» إشارة إلى محمّد الذى هو آخر الوجود ولذا ختم به .وقيل وجوه اخر لايسعها هذا المختصر.

وأما إعراب موضع «الٓمٓ» فيختلف بحسب اختلاف هذه الوجوه ، فيجوز الرفع على الابتداء أوعلى الخبر لمبتدأ مقدر ويجوزالنصب محلا على اضمارفعل ، تقديره ا تل أواقرأ . وأماعلى قول من جعل هذه الحروف المقطعة قسما موضعها النصب أيضا باضمار لانّ حرف القسم إذاحذفت يصل الفعل الى المقسم به فينصبه ، فانّ معنى قولك بالله: أقسم بالله، ثم حذف اقسم فبقى بالله فلوحذفت الباء لقلت الله لافعلنّ بنصب الله . وأما علي مذهب من جعل هذه الحروف اختصاراً من كلام يعلمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقائل ابن عبّاس فلا محلّ

لهامن الاعراب لأنّها بمنزلة قولك زيدقائم في أنّ موضعه لامحلّ له من الاعراب، وإنّما يكون للجملةموضع إذا وقعت موقع المفرد، وهذه الحروف المتهجّية واسماء الاعداد اذا اخبرت عنهـا ادخلتها في جملة الأسماءالمتمكّنة واخرجتها بذلك من حيّز الاصوات و الّا فحكمها على السكون كالمبنى ؛ اوهو المبنى .

قولهتعالى :« **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** » إن جعلت الٓمٓ اسماً للسورة ففيه وجوه :

احدها : ان يكون الٓمٓ مبتدأ و ذلك مبتدأ ثانياً ، و الكتاب خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأوّل ، فيكون المعنى : انّ ذلك الموعود به ، الكتاب الذي يستاهل ان يسمّى كتاباً ،كانّما سواه بالنسبة اليه ناقص ، كمـا تقول هو الرّجل اى الكامل في الرجولية .

و الوجه الثاني : ان يكون الكتاب صفة ، فيكون المعنى الٓمٓ هو ذلك الكتاب الموعود .

والوجهالثالث : ان يكون التقدير هذهالٓمٓ ،فيكون جملة « وذلك الكتاب» جملة اخرى ، «ذلك» يشارالى البعيد كما انّ هذا اشارةالى ماقرب ، والاسم ذا، والكاف للخطاب واللاممزيدة للتأكيد . قال الاخفش ذلك في الاية بمعنى هذا لأنّ الكتاب كان حاضراً . قال الحفاف بن ندبه :

اقول له و الرمح يأطر متنه تأمّل خفافاً انني اناذلكا

اى انا هذا ، وهذا الاستشهاد غيرتاملأنّه يمكن اجرائه على اصله ، اى انّني ذلك الرّجل الّذي سمعت به و بشجاعته .

قال الزمخشري الاشارة وقعت الى الٓمٓ بعدما سبق التكلّم به وتقضى ، والمنقضي في حكم المتباعد ، وهذا جار في كلّ كلام ، يحدث الرجل بحديث ثم يقول : وذلك ممّا لاشكّ فيه ، ويحسب الحاسب ثم يقول : فذلك كذاو كذا ، وقال تعالى : « لافارض ولا بكر عوان بين ذلك » ولأنّه لماوصل من المرسل الى المرسل اليه وقع في حدّ البعد كماتقول لصاحبك وقداعطيته شيئاً : احتفظ بذلك .

والحقّ انّ هذه البيانات لايطمئن اليها النفس واضعف من حجة نحوي ، لكنّ الاوجه هو انّ الله وعد نبيّه ان ينزل عليه كتاباً لايمحوه الماء ، ولايخلق على كثرة الرد فلمّا انزل القرآن قال : هذا القرآن ذلك الكتاب الذى وعدتك او هذا القرآن (والقرآن يشمل على الكل والبعض ولو آية) ذلك الكتاب الذى وعدت به في الكتب السالفة والكتاب مصدر بمعنى المكتوب ، كالحساب بمعنى المحسوب ، والكَتب بمعنى الضمّ لانضمام بعض الحروف ببعض ، ومنه يقال للجند كتيبة ، ومن قال انّ المراد من الكتاب في الاية : التوراة والانجيل فقول فاسد ، لانّه وصف الكتاب بأنّه لاريب فيه وانه هدى ، و وصف مافي ايدي اليهود والنصارى بأنه محرّف بقوله : « يحرّفون الكلم عن مواضعه » و الكتاب جاء في القرآن على وجوه :

أحدها : الفرض مثل كتب عليكم الصيام ومثل ان الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .

وثانيها : الحجّة والبرهان مثل فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين .

وثالثها : الأجل مثل وما أهلكنا من قرية إلّا ولها كتاب معلوم .

ورابعها : المكاتبة مثل كتابة السيّد عبده ، والذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت ايمانكم .

قوله «لاريب فيه» - اى لاريب و شكّ كائن في الكتاب ، و انّه حقّ و صدق و معجزة ، وريب اسم لا ، وفيه خبرها . والريب من رابني الشيء اذا حصل فيه الريبة ، وهي قلق النفس واضطرابها ، والريب اقبح اقسام الشكوك .

فإن قيل : انّه نفى الريب ونحن نرى انّ الكفار شكّوا فيه ، والمبتدعون شكّوا في معاني متشابهه ، فمامعنى نفي الريب على سبيل الاستغراق ؟ فالجواب انّ نفي الريب عن الكتاب يعني انّ الكتاب ليس فيه سبب ريب ولا يتمكّن فيه ريب لصدقه ، لا انّ الناس لايشكّون فيه .

وقيل معنى الاية النهي وإن كان لفظها الخبر ، اى لاترتابوا ولاتشكّوا فيه كقوله : « لارفث ولافسوق ولاجدال ».

هدى : اى القرآن رشد، اوفيه هدى.

المتقين : المتّصفين بالتقوى، و تخصيص الهداية بالمتّقين و إن كان القرآن هدى لجميع الناس لانهمّ هم المهتدون به، فالشمس شمس وان لم يرها الضرير، والعسل عسل و ان لم يجد طعمه المحرور والمتقين اصله الموتقيين مفتعلين من الوقاية فقلبت الواو تاء وادغمت تاء الأولى في الثانية التي بعدها وحذفت الكسرة من الياء استثقالاً لها ثم حذفت لالتقاء الساكنين فبقي متّقين، والتقوى اصله وقوى فقلبت الواو تاء كالتراث اصله وراث، والتقوى له ثلاث مراتب :

الأولى : التوّقى عن العذاب المخلّد بالتبرّى عن الكفر، وعليه قوله تعالى : و الزمهم كلمة التقوى.

والثانية : التجنب عن كلّ مايؤثم من فعل اوترك حتى الصغائر و هو المتعارف بالتّقوى في لسان الشرع، وهوالمعنى بقوله :«ولو انّ اهل القرى آمنوا و اتّقوا»، و الثالثة : ان يتنزّه عمّا يشغل ضميره عن الحقّ ويتبتّل اليه بكلّيته وهو التقوى الحيقيقّة المأمور بها في قوله تعالي : «يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته» وهذا النوع من التقوى ماانتهى اليه همم الأنبياء والأولياء، وماعاقهم التعلّق بعالم الأشباح عن العروج الى عالم الارواح ولم تصدّهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤن الحق و لم يتعدوا الحدود، ولذا احتملوا في دين الله حتى شتموهم : يامذلّ المؤمنين

وروى الصدوق في اماليه باسناده عن المفضّل بن عمر قال سئلت الصّادق عليه السلام عن العشق فقال قلوب خلت عن ذكر الله فأذاقها الله حب غيره.

قال افلاطون الالهي العشق قوّة غريزية متولدة عن وساوس الطبع واشباح التخيل للهيكل الطبيعي يحدث للشجاع جبناً وللجبان شجاعة ويكسو كلّ انسان عكس طباعه

قيل انّ بعض الصلحاء غسل ثوبه في الصحراء مع صاحب له فقال له : تعلّق الثوب في جدار الكروم، فقال لاتضرب الوتد في جدار الناس، فقال نعلّقه في الشجر فقال انّه لعلّ يكسر الاغصان اويضرّها فقال نبسطه على الارض، فقال انهّا معلف الدواب لانستره عنها فولى ظهره حتى جفّ جانب ثم قلبّه حتى جفّ الجانب الاخر و كان بعض الصلحاء

لايجلس في ظل شجرة غريمه ، و يقول في الخبر كلّ قرض جرّ نفعا فهو ربا .

« **الذين يؤمنون بالغيب** » : صفة للمتّقين فحينئذ الجملة محلّها الجر ، ويجوز ان يكون محلّها النصب ، تقديره اعنى الذين يؤمنون بالغيب ، ويجوز أن يكون محلّه الرفع اي هم الذين يؤمنون بما غاب عن العباد علمه ، و خفى عن حواسهم من التوحيد و البعث و الجنّة و النار و قيام القائم و الرجعة وسائر الامور التي يلزمهم الايمان بها ممّا لا يعرف بالمشاهدة ، وانّما يعرف بدلائل نصبها الله عليهم . و الايمان هو التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالأركان ، وقد جاء هذا المعنى بلفظ آخر ، وهو انّ الايمان قول مقول وعمل معمول وعرفان بالعقول واتباع الرّسول ، وقيل انّ المراد من الغيب في الآية القرآن ، فمن اخلّ بالاعتقاد به وحده فهومنافق ، ومن اخلّ بالاقرار والاعتقاد فهو كافر ، و من أخل بالعمل دونهما فهو فاسق عندنا و كافر عند الخوارج و خارج عن الايمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة : و الغيب قسمان ، قسم لا طريق عليه كما قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو » و قسم نصب عليه دليل كالتوحيد والنبوّات واليوم الآخر وامثاله وهو المراد هنا ، والباء للملابسة ، وقيل المراد بالغيب القلب لانّه مستور ، و المعنى يؤمنون بقلوبهم حقيقة ، لا كالمنافقين الذين يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم ، فحينئذ الباء للالة والاستعانة .

وقيل في معنى قوله « يؤمنون بالغيب » اى غائبين عن مرأى الناس متلبسين بالغيب كقوله تعالى : « يخشون ربّهم بالغيب » .

و عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله إذا قبل رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ما يرى عليه اثر السفر و لا يعرفه احد منا فاقبل حتى جلس بين يدى رسول الله صلّى الله عليه وآله و ركبتيه يمس ركبة رسول الله ، فقال يا محمّد اخبرنى عن الاسلام ، فقال النبي ان تشهد ان لا إله إلّا الله و انّ محمّداً رسول الله و تقيم الصلاة و تؤتى الزكاة و تصوم رمضان و تحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، فقال : صدقت فتعجّبنا من سؤاله و تصديقه ، ثم قال فما الايمان ؟ قال : ان تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و البعث بعد الموت و الجنّة و النار و بالقدر ، فقال :

صدقت ، ثم قال فما الاحسان ؟ قال : ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك قال صدقت ، ثم قال فاخبرني عن الساعة ؟ فقال النبي ﷺ ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال صدقت ، قال فاخبرني عن اماراتها ، قال ان تلد الأمة ربتها وان ترى الحفاة العراة دعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال صدقت ؟ ثم انطلق فلما كان بعد ثالثة ، قال لي رسول الله : ياعمر هل تدري من الرجل ؟ قلت الله اعلم ورسوله ، قال : ذاك جبرئيل اتاكم يعلمكم امر دينكم ، وما اتاني في صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه :

ويقيمون الصلوة - وإقامة الصلاة ادامتها على الوجه المأمور به ، يقال أقام القوم سوقهم إذا لم يعطلوها عن البيع والشراء ، و لعل معنى الصلوة مأخوذ اصله من رفع الصلا في الركوع والسجود ، والصلا عظم في العجزة وللصلوة اطلاقات . للدعاء كما في قوله : « وصل عليهم » اى ادع لهم ، وللثناء كقوله : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » والقرائة مثل قوله : « ولاتجهر بصلاتك » وبالرحمة كقوله تعالي : (اولئك عليهم صلوات من ربهم) وبالصلوة المشروعة المخصوصة بافعال و اذكار - سميت بها لما في قيامها من القرائة وفي قعودها من الثناء والدعاء ولفاعلها من الرحمة والمراد في الاية المداومة على الصلوات الخمس المشتملة علي القيام والركوع والسجود والتسبيح ومراعاة حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن وحقوقها الباطنة من الحضور والاقبال بالقلب .

قال ابراهيم النخعي اذا رايت رجلا يخفف الركوع والسجود فترحم على عياله يعني من ضيق المعيشة :

فاستمع آداب الصلوة حتى لا تكون كالتاجر الذي اشتري حمل الابريشم ولم يره فلما اتي بالاحمال في معرض البيع راها التجار كلها خرق الصوف فقاموا يضحكون من بضاعته وهو مطرق براسه خجلان ، وانت كذلك يوم تبلى السرائر قال الله : (قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا)

سرمايه عمر و كار و بار تو بحشر بنگر چو گشايند چه خواهد بودن

فاعمل خالصاً ونقحه عن الشوائب مثل الرياء فان الرياء يتصور بصورة الحية في قبرك و تنهشك و كذلك البخل بصورة العقرب فتلسعك ، و قليل من العمل اذا كان

خالصا يكشف سدد الغفلة و يدفع الشبه القلبية و يزيل سوادها فتنور بنور الصدق و و يتطهر عن قذارة المعاصى السالفة و عن لوث الاجسام الرذلة المعلولة ، فيكون اول باب بدر الهداية رؤية كوكب ضعيف ثم ينبسط بالخلوص والعمل شيئاً فشيئاً فصار قمراً و شمساً فينقلب الليل من شمس وجودك نهاراً فعند ذلك تدرك ذوق حلاوة الخلوة و المناجات و انما منعك عن الذوق و صرف وجهك عن الباب عاداتك المألوفة وشهواتك النفسيّة و مخالطتك مع ابناء الدنيا .

و في كتاب تنبيه الغافلين انّ حاتم الزاهد دخل على عاصم بن يوسف فقال له عاصم : ياحاتم هل تحسن أن تصلّي ؟ فقال نعم ، قال كيف تصلى ؟ قال اذا تقارب وقت الصلوة اسبغ الوضوء ثم استوى في الموضع الذى اصلّي فيه حتى يستقر كل عضو منّي ، واري الكعبة بين حاجبى و المقام بحيال صدرى و الله فوقي يعلم ما في قلبى ، و كان قدمى على الصراط و الجنة عن يمينى و النارعن شمالي وملك الموت خلفى ، وأظنّ انها آخر صلوتي فى الدنيا ثم اكبّر تكبيراً باحسان و اقرأ قرائة بتفكر و اركع ركوعاً بتواضع و اسجد سجوداً بتضرع ، فاجلس واتشهد على الرجاء واسلّم علي الاخلاص فاقوم وانا بين الخوف و الرجاء و اتعاهد علي الصبر ، قال عاصم يا حاتم اهكذا صلوتك قال كذا صلوتي منذ ثلاثين سنة فبكى عاصم و قال ماصلّيت من صلوتى مثل هذا قطّ .

و في ثواب الاعمال قال الصادق ﷺ فضل الصلوة في اول وقتها خير للمؤمن من ولده و ماله ، و فى حديث آخر ايضاً عنه ﷺ كفضل الاخرة على الدنيا ، و عن اصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين ﷺ قال ان الله ليهمّ بعذاب اهل الارض جميعاً حتى لايحاشي منهم احدا اذا عملوا بالمعاصي و اجترحوا السيئات فاذا نظر الي الشيب ناقلي اقدامهم الي الصلوة والولدان يتعلّمون القرآن رحمهم فاخّر ذلك عنهم . والنوافل لها آثار مخصوصة وهي مكمّلات لنواقص الفرائض . وللاذكار وللآيات آثار مخصوصة مثل انّ آية الكرسى مع قطع النظر عن ثواب قرائتها يدفع كيد العفاريت .

قال رسول الله أتانى جبرئيل فقال يامحمّد أنّ عفريتاً من الجنّ يكيدك فى منامك فعليك بقرائة آية الكرسى عند منامك فكان يقرئها حين منامه و اذا قام من نومه خرّ

لله ساجداً ثم يقول ، الحمد لله الذى احيانى بعد موتى أن ربي لغفور شكور ؛

و من أفضل الطاعات الصلوة ، و الصبر علي الطاعات شديد مطلقاً لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية و تشتهى الربوبية ومن الطاعات والعبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلوة فيحتاج الى الصبر ومنها مايكره علي الطبع بسبب البخل وحب المال كالزكوة والانفاق وكذلك الحج والجهاد ويحتاج المطيع في اطاعته الى الصبر فى ثلثة احوال ، الاولي قبل الطاعة بتصحيح النية والاخلاص ، والثانية حالة العمل كي لايغفل عن الله في اثناء عمله لئلاً يكون العمل جسداً بلاروح فلا يتكاسل في آدابه و يدوم علي ذلك الى الفراغ ، والثالثة بعد الفراغ فيحتاج الي الصبر ايضاً عن افشائه من السمعة و الرياء و العجب ، و كذلك المعاصى يحتاج الى الصبر عن تركها ، فاشد انواع الصبر عليها بالصبر عما كان مألوفاً بالعادة فان العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشياطين علي جند الله فلا يقوى الجند جندين ، ثم ان كانت تلك المعصية مماتيسر فعله كان الصبر عنه اثقل كالصبر عن معاصى اللسان من الكذب و الغيبه و الثناء علي النفس و جميع هذه المعاصى تحتاج الى الصبر وتركهاشديد على النفس ، وهيهات فاين الثريا من يد المتناول ، فمن لم يقدر على حفظ لسانه كيف يتمكن من عفة بطنه و فرجه ؛ مع أنه عرف ان الصمت سلّم الخلاص و النطق يحبس الهزار في الاقفاص . و لن تدرك لذة العبادة إلا بالتدبر و التفكر في خلوص العمل ، و هذه القطعة من اللحم اذا ماحبسته بطابقين لاتبقي لك عملا في الغالب ، أماسمعت ان الجرس آفة القوافل ؛ خير القوس الكتوم و خير الشراب المختوم رشين الفتي يطرد الاحباء ، و وسواس الحلي يوقظ الرقباء ، ياأسفى على غفلة الملدوغ ومعه الترياق يتداوله ولايتناوله اما يعلم أن تأخير العمل عن العلم حبس الماء من النبت واصلاح الظاهر مع فساد الباطن حيلة اصحاب السبت ؛ دانق من الصلات احب اليه من الصلوة . أترجوا نجات المخفين باوزار جمعتها وحقوق منعتها ؛ عرض عليك زخارف الدنيا فنسيت كلمة الله العليا ، سترى حين تبدوا الضمائر وتبلى السرائر . ثوب مطوى تبصر خروقه يوم النشر و بز مكتوم تظهر عيوبه يوم الحشر و لو ان الحراثة ريعان الحداثة و الزراعة فى اول الخريف

لا في آخر المصيف ، و لكن يا نفس لا تيئسى من روح الله ما دامت بقية فيك بشرط خلوص النيّة والاقبال الكلي الى الله والاعراض عن غيره «وتنزل من القرآن ماهوشفاء ورحمة للمؤمنين» .والقرآن شفاء ويختلف الاثر باختلاف الكلام والمتكلّم وقصة علقمة بن عطارد وتنصّره بعد اسلامه في زمن أبي بكر حيث ناقش في اهدنا الصراط المستقيم فشكي أبو بكر الى أمير المؤمنين فكتب ﷺ :بسم الله الرّحمن الرّحيم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، ثم فسّر معنى اهدنا الصراط المستقيم في الكتاب و بعثه الى علقمة فاسلم علقمة ورجع الى المدينة ، فاستشفِ بالقرآن وتلاوته مع التدبر في فحاويه من الامراض الروحانية والعقائد الفاسدة و الاخلاق المذمومة ، فانه يهديك الى الذى ينفعك النفع الباقى لا الفانى ، تأمّل في قوله تعالى : « استجيبوا لربكم من قبل أن ياتى يوم لا مردّ له من الله » كيف عين لك الخير الباقي وهو اجابة ربكم بالاطاعة ، و وقت الاجابة في أيام عمرك ، و اشارة الى أنّ الطريق إليه مفتوح ، و عن قريب سيغلق الباب عليكم بالموت بغتة ، تمتع من شميم عرار نجد فمابعد العشيّة من عرار فشمّ العرار في النجد فانّك ان انتقلت الى حدّ البرزخ بزوال شمس الحيوة لا يمكنك التدارك و شمه فلا تغلق على نفسك ابواب المواهب والفتوحات حيث اقدرك على تحصيلها ، فتتبّع القرآن في الليل و النّهار يوصلك الى مقام الايمان ومرتبة اليقين و الاجابة فان الله جعل القرآن علاجا للقلوب المريضة التي ناشئة من نسيان الله كما قال : « نسوا الله فنسيهم » ، و العلاج يكون بالذكر كماقال : « فاذكرونى اذكركم » فاذا ذكر الله وتدبّر في القرآن استشفي ، و يكون قلب الذاكر عرش الرحمن و المنظر الالهى ، والقرآن اعظم نعم الله و هو حبل الله المتين ، فالويل لمن انقطع عن هذا الحبل فما تنفعه شفاعة الشافعين و كان السلف اذا فاتهم بعض آداب الليل من الصلوة والتلاوة يبكون طول النهار لما فاتهم من الليل ويقول ما اشد الى بابى مغلق وستر الليل مسدل و لم اقرء حزبى البارحة وماذاك الابذنب احدثته . في اخبار داود ﷺ : ان الله اوحى الى داود. ياداود ابلغ اهل الارض اني حبيب لمن اجبنى ، مونس لمن آنس بذكري ، جليس لمن جالسنى ، و صاحب لمن صاحبني و مختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعني ، ما

احبّني عبداعلم ذاك يقينا من قلبه الاقبلته لنفسى واحببته حبالايتقدمه احد من خلقى من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فارفضوا ياأهل الارض ما انتم عليه من غرورها وهلّموا الى كرامتى ومصاحبتى وأنسوا بى أوانسكم واسارع الى محبتكم فانى خلقت طينة احبائى من طينة ابراهيم خليلى و موسي نجيى و محمد حبيبى ، و روى ان الله اوحى الى بعض الانبياء انّ لى عباداً يحبونى و أحبّهم و يشتاقون الي و اشتاق اليهم و يذكروني اذكرهم فان حذوت طريقهم احببتك و ان عدلت عنهم مقتك قال يا رب وما علامتهم قال سبحانه يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعى الشفيق غنمه و يحنّون الى غروب الشمس كما يحنّ الطائر الى وكره عندالغروب فاذا جنّهم الليل و اختلط الظلام و فرشت الفرش و نصبت الاسره و خلا كل حبيب بحبيبه نصبوا اليّ اقدامهم وافترشوا اليّ وجوههم وناجونى بكلامى وتملّقوا الى بانعامى ، فبين صارخ و باك و بين متاوّة وشاك و بين قاعد وقائم وراكع وساجد بعينى مايتحمّلون من اجلى و بسمعى مايشتكون من حبّى اوّل مااعطيهم ثلاث :اقذف من نورى في قلوبهم فيخبرون عنّى كما أخبر عنهم ، والثانية : لو كانت السموات والارض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة : اقبل بوجهى عليهم أفترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم احدما اريد أن اعطيه ، و اوحي الى داود ﷺ : اعلم بني اسرائيل انه ليس بينى و بين احد من خلقي نسب فلتعظم رغبتهم عندى ضعنى بين عينيك و انظر الىّ ببصر قلبك ، و خذ من نفسك لنفسك ، و اقطع شهوتك لى فانّما ابحت بعض الشهوات لضعفة خلقى ، واما الاقوياء فانّ نيل الشهوات المباحة تنقص حلاوة مناجاتي ، فاني لا ارضى الدنيا لحبيبى و نزهته عنها ، يا داود لو يعلم المدبرون عنّى كيف انتظارى لهم و رفقي بهم و شوقى الى ترك معاصيهم لما توا شوقاً اليّ وتقطعت اوصالهم من محبّتى ياداود هذه ارادتى في المدبرين عني فكيف ارادتى في المقبلين عليّ وما اجلّ مايكون عندى اذا رجع إليّ.

قال قطب محيى : الخروج من زمرة الخاسرين بنص القرآن المجيد الايمان و و العمل الصالح و التواصي بالحق اى المعروف و الصبر اى تحمل مشقّة التكليف كما في سورة العصر ٭ بسم الله الرحمن الرحيم والعصر ان الانسان لفى خسر الّا الذين آمنوا

و عملوا الصالحات وتواصوا بالحق و تواصوا بالصبر» ، فعليهذا اذا كان المؤمن رأى ان اخاه جاهلا في امور دينه فلا يهتم له و لا يرفع جهله لا يخرج من زمرة الخاسرين ولو آمن وعمل صالحا لانّه مسامح في اقامة الحدود ومداهن في دينه بل يسري جهل الجاهل اليه فانّ العالم و الجاهل من نوع واحد والناس مشتركون فى القعود في سفينة الدنيا فاذا كان واحد من اهل السفينة بسبب جهله اخذ قدوما و اشتغل بنقر السفينة ليشرب الماء من النقب فاذا ما منعوه و ما اخذوا القدوم من يده فيغرق السفينة واهلها جميعا كما أن البدن اذا اصاب عضوه مرض فجميع الاعضاء تكون مؤفة و ايضا يسرى الجهل و الضلالة الى ذلك المؤمن العالم الصالح لانّ السيل اذا كان جارفا يذهب الفيل والنجار اذا لم يجده المنشار والخشب من اين يصنع الباب فيكون بطالا وينقطع صنعة النجارة و لايكون باب ولا نجّار ، و بالجملة فهذان العمودان وهو الامر بالمعروف والنّهى عن المنكر ان لم يكونا من اصول الدين كما قالته المعتزلة فهما قواما الدين و لولاهما ما بقى الدين فاكشفوا ياأهل الدين صحائف التعليم وصفائح التعلم وأحيوا السنة بتواصى الحق و اكثروا مجالس مذاكرة العلم النافع على طريقة محافظة السلف من دون الجدل و المراء من بيان اسباب المنجية من النار و المؤدية الى دار السلام من السنة النبويّة و القرآن العظيم الذى اخرست آياته الفصحاء و حيّرت حكمته ومعانيه العقلاء ؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؛ و لاتضيّع الجوهر النفيس وهوايّام عمرك في تحصيل بعض العلوم ، و اعلم ان اجلّ العلوم ما دخل معك في القبر وهو علم التوحيد و لا ينكشف لك هذا الباب الّا بعدان تعمل بقدر معلومك منه فما تصنع بالسيف اذا لم تك قتالا فالخرم التجنّب عن المعاصى حتى تكون النفس مطمئنة .

و اول ما يجب عليك بعد ان عرفت ان لك ربا صون النفس عن القبائح والرذائل ؛ ففي اقامة الفرائض فجاهد وعلى سنن الرسول فعاهد فمن لم يوقر السنة و لم يجلها لم يعرف قدر الفريضة و لا محلّها فانّ العروس يجب لها الزينة و السنة زينة الفريضة ، ثم لا تغفل من هفوات تصدر منك و انت غافل ولا تقل ، انى اتقيت الكبائر فان السيل

اوّلها القطرة وان شبل الزنبال تقطع اوصاله النمل ولايقدر الزنبال دفع النمل الضعيف مع قوته عن شبله ،ولاتقل انها صغيرة ؛ النهاية الصغيرة تولد في قبرك حيّة ؛ والكبيرة ثعباناً ، اما سمعت قول الله تعالى : (ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربّك احدا) ؟

و في كتاب انس الجليل في تاريخ القدس والخليل انّ بجانب الغربى من بيت المقدس مقبرة كانت معروفة بمقبرة ماملا تصحيف مامن الله يسمّونها اليهوديت مملو فاتّفق يوما ان قارى قرأ هذه الاية في تلك المقبرة في ضمن تلاوته فسمع من قبر ؛ وجدنا وجدنا ، وكان ذلك القبر معروفاً بقبر وجدنا و ما عرف صاحب القبر .

و بالجملة فان كنت في ريب فعافاك الله وان كنت من اهل اليقين فما هذه الغفلة فكما انّ الحكم في القود و القصاص يختلف فى تنوين و اضافة في قولك : انا قاتلُ غلامَك وانا قاتلُ غلامِك كذلك بحركة أو كلمة أو فعلة تكون في الاخرة من اهل الشقاوة أو السعادة فاعمل ولا تغفل و لا تيأس .

اما سمعت قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله انّ الله يغفر الذنوب جميعا انّه هو الغفور الرحيم » فانّ هذه الاية متضمنة كثرة الرحمة من وجوه

الاول ـ خطاب اللطف بالنسبة الى ذاته ، فقال ياعبادى ولم يقل يا أيّها العصاة مع ان الخطاب اليهم .

الثانى ـ قال: لاتقنطوا ولفظ القنوط مستلزم تحريم اليأس من المغفرة مع الاسراف والتجاوز في ارتكاب المعاصى .

الثالث ـ انّه تعالى لم يكتف بذكر لا تقنطوا بل اكدّ بقوله : انّ الله يغفر الذنوب جميعا .

الرابع ـ وضع المظهر موضع المضمر وقال انّ الله وذلك لاسناد المغفرة بصريح اسمه الذى قامت السموات و الارض به .

الخامس ـ استوعب مغفرته بلفظ الجميع للتحقّق والتاكيد في وقوع المغفرة

السادس ـ اتيان ضمير الفصل بين الاسم و الخبر ليفيد معنى الحصر من رحمته

و مغفرته للدلالة على التاكيد فى المغفرة .

السابع - ضمّ الرحمة بالمغفرة دلالة على سعة رحمته .

عن ثوبان مولى رسول الله قال : رسول الله ﷺ بعد نزول الآية ما احب ان لى الدنيا وما فيها بهذه الاية . فى المنهج عن أمير المؤمنين عليه السلام انّ هذه الاية اوسع آية دالة على الرحمة وقيل ان الحسنات يذهبن السيئآت اوسع آية فى القرآن

قائم باشي بخدمت حق صائم باشي ز شر مطلق

وهذا معنى قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر و الصلوة) ، فاسع ان تدرك المراتب الاربعة تخلية و تحلية و تجلية و فناء حتى يكون قلبك ازهر اجرد

فى الكافى: القلوب اربعة قلب فيه نفاق وايمان اذا ادرك الموت صاحبه على نفاقه هلك و ان ادركه على ايمانه نجى وقلب منكوس وهو قلب المشرك والكافر وقلب مطبوع وهو قلب المنافق وقلب ازهر اجرد وهو قلب المؤمن فيه كهيئة السّراج ان اعطاه الله شكر وان ابتلاه صبر فحينئذ ادرك مرتبة الرابعة من النفس وهي الامّارة واللوامة والملهمة والمطمئنة

في البحار من الحديث : انّ في القيمة تنكشف خزانة ساعات يومك و ليلك ، فساعة التى عملت فيها الخير والحسنات يصيبك فرح و سرور لو قسم على اهل النار لما وجدوا الم النّار وكذلك ساعة التى عصيت فيها يصيبك خوف لو قسم على اهل الجنة لايستلذّون من نعيمها ، و كذلك ساعة اشتغلوا في المباحات يتحسرون غاية من تضييع الوقت فيا مغرور ترتكب الكبائر ، فلو نصحك ناصح تعتّل بالضرورة ، ماشبه عذرك بعذر السارق للغمر ! فلو اغتررت بانتسابك التشيّع و حبّ عليّ فما هذه النسبة مع ادمان المعاصى الا كذب محض وادّعاء ، انّما شيعة على عليه السلام من شايعه وتابعه فما اشبه كلامك بكلام ذلك المداح السكران لّما قيل له لِمَ تشرب الخمر و ما تصنع ان لم يغفرك الله ؟ فقال ان لم يغفر نى فعلىّ حىّ يوم القيمة فيغفر لى آه ، آه ! فما رعوها حق رعايتها .

و الحاصل ان الله سبحانه سنّ في الصلوة امورا فبالمداومة عليها قال : « الذينهم على صلوتهم دائمون » و بالاقامة عليها بقوله : « و اقيموا الصلوة » و بادائها في اوقات

مخصوصة بقوله : « كانت على المؤمنين كتابا موقوتاً » و بادائها في الجماعات بقوله : « و اركعوا مع الراكعين » و بالحضور و الخشوع فيها بقوله : « الذينهم في صلوتهم خاشعون » ثمّ بعد هذه الاوامر من الله فى الصلوة صارت الناس على طبقات طبقة لم يقبلوها راساً و رئيسهم أبو جهل ، قال الله في حقّه : « فلا صدّق و لا صلّى » فذكر سبحانه مصيرهم بقوله « ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين » الى قوله « وكنا نكذّب بيوم الدّين » .

و طبقة قبلوها و لم يؤدوا حقها و هم اهل الكتاب قال الله : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة » فذكر سبحانه مصيرهم الى النّار فقال « فسوف يلقون غيّاً » و هى دركة فى جهنّم اهيب موضع فيها تستغيث الناس منها كل يوم كذا و كذا مرّة ، و طبقة ادّوا بعضا و لم يؤدّوا بعضا متكاسلين و هم المنافقون قال الله تعالي « انّ المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم و اذاقاموا الي الصلوة قاموا كسالى » و ذكر ان مصيرهم الى النار و الويل ، و هو واد فى جهنّم لوجعلت فيها جبال الدنيا لماعت و سالت .

قال النبى ﷺ : من ترك صلوة حتّى مضى وقتها عذّب بالنار حقباً ، و الحقب ثمانون سنة ،كل سنة ثلثمائة وستون يوماً ،كل يوم الف سنة مما تعدّون وتأخير الصلوة من غير عذر كبيرة .

و طبقة قبلوها وراعوها بشرائطها ، ورأسهم المصطفى ، قال تعالى « انّ ربّك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل » و كذلك اصحابه ، فذكرهم الله بقوله « قدافلح المؤمنون الذينهم فى صلوتهم خاشعون » و ذكر مصيرهم فقال : « اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس » ، و هو ارفع موضع فى الجنة و ابهاه ، ينال المؤمن فيه مناه و ينظر الي رحمة مولاه .

و الصلوة خير موضوع فمن شاء فليستقلل و من شاء فليستكثر ، قال الله تعالي : «انّ الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر» . وقال النبيّ ﷺ : الصلواة قربان كل تقى . و عليك بعد اتمام الفرائض بادابها و اتيان قضاء ما فات من عمرك كما فات الاشتغال بالنوافل خصوصاً نافلة الليل كما قال تعالى : « ان ناشئة الليل هي اشد وطأ و اقوم

قيلا ». وقد جاء في الحديث قم من الليل و لوقدر حلب شاة او قدر اربع ركعات او ركعتين. وقيل في تفسير « تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء » هو قيام الليل كسلا او تهاونالقلة الاعتداد بذلك يليك عليه فقد حرم من الخير الكثير، وقد يكون العبد شائقاً و تائقاً لقيام الليل و لا يتوفق فالسبب فيهان ذنوب النهارقد قيّدته فليحذر العبد في نهاره، حتي قال بعض المتهجّدين حرمت قيام الليل سبعة اشهر بذنب فقيل له ماكان ذلك الذنب، قال رأيت رجلا بكاءً فقلت في نفسي هذا مراء، وقد يكون ينقطع عنك التوفيق خمسين سنة بسبب اداء حق من حقوق الله او حقوق الخلق مثل ان تطلق مثلاً امرئتك وهي تهب لك صداقها بمحضر القاضي وانت مديون لها ومااوفيت صداقها مع انّها وهبتك، اما سمعت قول الله « فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً »؛ و ابرائها لك بسبب سوء العشرة معها لا عن طيب نفسها والقاضي الفقير لا يعلم بذلك و قد حكم لك بالتخليص من الصداق.

و من آداب الصلوة انّه اذا دخل الوقت يقدم السنة النوافل الراتبة ففي ذلك سرّ وحكمة، منها انّ العبد تشعث باطنه وتفرق همّه بسبب المخالطة من الناس و الدنيا و قيامه بمهامّ المعاش من صرف همّ الى أكل أو نوم بمقتضى الحيلة فاذا قدم النافلة ينجذب باطنه الى الحضور ويتهيّأ للمناجات فيذهب بالنافلة اثر الغفلة والكدورة من الباطن فيصير مستعدّاً حاضر اللفريضة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات، ثم بعد النافلة يجدّد التوبة عند الفريضة عن كل ذنب عمله من الذنوب عامّة وخاصة، فالعامّة، الكبائر و الصغائر مما نطق الكتاب به، واما الخاصّة ذنوب الحال فكلّ عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله و يعرّفها صاحبها كما قيل: ؛ حسنات الابرار سيّآت المقربين ؛.

ثم اذا تمكّن لايصلّي الّا جماعة، فانّها تفضّل صلوة الغدبسبع و عشرين درجة. و بعد ان استقبل القبلة بظاهره والحضرة الالهيّة بباطنه يقرأسورة الناس وآية التوجّه قبل الصلوة فتوجّه ظاهراً و باطناً ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث يكون كفّاه حذو منكبيه و ابهاماه عند شحمة اذنيه ويضمّ الاصابع، و الضّم اولى من النشر، و يكبّر

و يجزم راء اكبر و يجعل المدّ في الله و لا يبالغ في ضمّ الهاء من الله ثم يرسل اليدين مع التكبير من غير نقص .

و صفوة الصلوة التكبيرة . و يكون النيّة بالله لله و من الله . وقال السلف كيفيّة الدخول في الصلوة هو ان تقبل على الله اقبالك عليه يوم القيمة و وقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وانت تناجيه وتعلم بين يدى من انت واقف ، فان لله عباداً اذا كبّر في الصلوة غاب في مطالعة العظمة و الكبرياء و امتلأ باطنه نورا فصار الكون باسره في فضاء شرح صدره كخردلة في فلاة و اذا شرع في القرائة يطرق رأسه في قيامه و يكون نظره الى موضع السجود ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسر الانطواء عن الركبتين ويعاطف البدن و رعاية الاعتدال في الاعتماد على الرجلين جميعاً ، و يقول : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل البسملة في الركعة الاولي ، ويقرء الفاتحة والسورة بحضور قلب ، وجمع همّ وخاطر ، بين القلب واللسان ، بحظّ وافر من الوصلة و الدنو و الهيبة و الخشية و الوقار ، و ان لم يكن كذلك وقال باللسان من غير مواطاة القلب ، فما اللسان ترجماناً ، ولا القارى متكلّماً قاصدا ، سماع الله حاجته ، ولا مستمعاً الى الله فاهما عنه سبحانه مايخاطبه ، فصلوته جسد بلاروح ، واقلّ مراتب الخاصّة الجمع بين القلب واللسان فى التلاوة ، فتخرج الكلمه من لسانه ، ويسمعها بقلبه ، فتقع الكلمة من القرآن في فضاء قلب ليس فيه غيرها بكمال الرعى ، ودرك شريف فحواها من معان تلطّف عن تفصيل الذكر ، فيكون الظاهر له من معاني القرآن قوت النفس ، فالنفس المطمئنة متعوّضة من معاني القرآن ، و بمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق في لجج الاشواق ، كما حكى عن أمير المؤمنين انّه صلّى ذات يوم فاستخرجوا كسرة النشارة التى كانت في رجله و هو لم يحسّ بذلك .

ثم اذا أراد الركوع يتأمل قدراً يسيراً ، فيركع والنصف الاسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين ، وتجافي مرفقيه عن جنبيه ، ويمدّ عنقه مع ظهره ، ويضع راحتيه على ركبتيه ، منشورة الاصابع ، ويستحب فى الركوع نشر الاصابع وفى السجود بالعكس و يقول سبحان ربى العظيم وبحمده ثلاثه ، و هذا العدد ادنى الكمال ، والذكر يكون

بعد التمكّن من الركوع ويكون في ركوعه ناظراً نحوقدميه فهو اقرب الى الخشوع من النظر الى موضع السجود ، وانّما النظر الى موضع السجود حال قيامه ويقول بعد الذكر راكعاً : أللهمّ لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت و لك أسلمت خشع لك سمعي و بصري وعظمي ومخي وعصبي ، ويكون قلبه في الرّكوع متصفاً بالتواضع والاخبات . قيل علامة الهداية الصلوة مع الخشوع و التواضع ، ثم يرفع رأسه قائلا سمع اللّٰه لمن حمده عالماً بقلبه مايقول ، فاذا استوى قائماً يحمد ويقول ربّنا لك الحمد ملأ السموات والارض وملأ ماشئت الي آخر الدعاء فان اطال في القيام فيكون ذلك في النافلة بعد الرفع من الركوع فليقل لربى الحمد مكرّرا مااراد ، فامّا في الفرض فلايطول تطويلا يزيد على الحدّ زيادة بيّنة تخرجه عن صورة الصلوة ، ثم يهوى ساجدا و يكون في هويّه مستيقظا حاضراخاشعا عالما بما يهوى فيه و اليه و له ، فانّ من الساجدين من يتصور ويكاشف انّه يهوى الي تخوم الارضين متغيّبا في اجزاء الملك من الحياء ، واظهار الانكسار و الذلّة و استشعار روحه عظيم كبريائه تعالي ، كما وردانّ جبرئيل يستر بخافيته من جناحه استصغارا لنفسه ، و حياءً من اللّٰه ، و يتفاوت الساجدون في مراتب العظمة واستشعار كنهها من الانبياء والاولياء والمؤمنين لكل منهم على قدر خطّه من ذلك ، وفوق كل ذىعلم عليم ، فمنهم من يتّسع دعاؤه وينشر صباؤه في سجوده ويخطى بالصنيعين و يبسط الجناحين فيتواضع بقلبه اجلالا و يرفع بروحه اكراما فيجتمع له الانس و الهيبة و الحضور و الغيبة و القرار و الفرار و الاسرار و الجهار فيكون في سجوده سابحا في بحر معرفته و شهوده لم يتخلّف منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر في سجوده سجد لك سوادي و خيالي الى آخره .

و يقول في سجوده الذكر ثلاثاً الى السبع الذى هو الكمال وفى الهوّى يضع ركبتيه اولا ثم يديه ثم جبهته و انفه ، و يباشر بكفيّه من دون حائل من الارض من ثوب وغيره ، ويكون راسه بين كفيّه و يداه حذو منكبيه من تيامن و تياسر منهما ولا يلصقهما بفخذه ، ويقول بعد التسبيح بالدعاء الماثور اللهم لك سجدت وبك امنت الخ ؛ ثم يرفع راسه بكرا و يجلس على رجله اليسرى موجها بالاصابع الى الكعبه و يضع

اليدين على الفخذين ويقول : رب اغفرلي وارحمني ، ولايطيل هذه الجلسة في الفريضة ، اما في النافلة فلا باس بالاطالة ويكرر قوله رب اغفر وارحم ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ثم اذا اراد النهوض الى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ، وهكذا بقية الركعات ، وفي الصلوة سر المعراج وهو معراج القلوب فليذهن ويفهم ما يفعل ويقول ، فالتشهد مقر الوصول بعد قطع الهيأت على تدريج طبقات السموات والدعوات والمناجات ويدر مايفعل ومايقول ، فبعد الشهادة يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم بادب كامل ، ثم على عباد الله الصالحين ، فاذا صلى وسلم لايبقى عبد في السماء ولافي الارض من عباد الله الصالحين الا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية ، ويدعو في آخر صلوته لنفسه وللمؤمنين وان كان المصلي اماما لاينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه و لمن و رائه و للمؤمنين فان الامام المتيقظ كحاجب دخل على سلطان و ورائه اصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض على السلطان حاجاتهم ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا ولهذا وصفهم الله بقوله كانهم بنيان مرصوص ، كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم ، فالبركات تسرى من البعض الي البعض بل جميع المؤمنين المصلين في اقطار الارض بالصلوة يقع بينهم تناصر و تعاضد بحسب القلوب ، بل يمدهم الله بالملائكة الكرام كما امد رسول الله بالملائكه المسومين ، وهذ الامداد يقع لهم اذا اصطفوا للجماعة كما حكى عن كعب الاخبار انه سئل كيف تجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يولد بمكة و يهاجر بطيبة ليس بفحاش ولا يكافئي بالسيئة السيئة وليكن يعفوا ، وامته الحمادون لله و يكبرون الله علي كل نجد ، يوضؤن اطرافهم ويأتزرون في اوساطهم ، يصفون في صلوتهم كما يصفون في قتالهم ، دويهم في مساجد هم كدوي النحل ، و من اقام الصلوات الخمس في جماعة بحضور القلب فقد ملأ البر والبحر عبادة ، وهي سر الدين وتمحيص للذنوب ، لكن يجتنب المصلي ان يكون باطنه مرتهنا بشيء ويدخل الصلوة ، و لذا قيل من فقه الرجل ان يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلوة ولا يدخل في الصلوة وهو مغضبا بل يكون خاشعا . قال ابن عباس ان الخشوع في الصلوة ان لا يعرف المصلى من علي يمينه وشماله . قال بعضهم اذا كبرت التكبيرة الاولى ان الله ناظر الي شخصك عالم بما

في ضميرك فمثّل الجنة عن يمينك والنار عن شمالك . وهذا التمثّل يكون تداويا بالدفع الوسوسة . قال النبي ﷺ من صلّى ركعتين صحيحتين و لم تحدّث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله ما تقدم من ذنبه . وقد قيل وردان المؤمن اذا توضأ للصلوة تباعد عنه الشيطان خوفاً منه لانّه تاهّب للدخول علي الملك ، ويضرب بينه وبين الشيطان سرادق ، فاذا قال الله اكبر ، اطلّع الملك في قلبه ، فاذا لم يكن في قلبه اكبر من الله و اهمّ منه يقول الملك صدقت ، الله في قلبك كما تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش و اذا كان في قلبه شيء اكبر و اهمّ منه يقول له كذبت فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه من الملكوت ، فيلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه و ينفث و يوسوس اليه حتى ينصرف من صلوته . و القلوب الصافيه تصير سماويّة فيدخل بالتكبير في السماء ، والله تعالي حرّس السماويّات من تصرّف الشياطين ، والمؤمن لازال يكون برفع الحجاب ، و رفع الحجاب لا يحصل الّا بعد فناء نفسه في رضى الله . قال النبي ﷺ لا يستكمل العبد الايمان حتى تكون قلة الشيء احبّ اليه من كثرته و حتي يكون ان لا يعرف ، احبّ اليه من ان يعرف . و هذا مقام يحصل بعد مجاوزة عقبات ، وطى مقامات كثيرة صعبة ، ادناها الاخلاص والقاء حظوظ النفس بالكلّية ثم مكاتمة ذلك عن الخلق جملة ، فاذا حصل هذا المقام لايبقى للنفس انيّة وصار تسليما محضا و رضى بحتا ، ولا يريد الّا مايريد الله ، فيتخلّص حينئذ من الكبر والرياء والحرص والعجب والمهلكات جميعا .

نردبان خلق اين ماو منيست عاقبت زين نردبان افتادنيست

حتى انّهم اذا لم تحضرهم النية لم يقدموا على العمل لانّ النيّة انبعاث النفس وتوجّهها الى ماظهر ، وذلك ممّا يقدر عليه و ممّا لا يقدر عليه في بعض الاحيان ، فانّ الدواعى لها اسباب مثل انّ اذا غلبت علي الانسان شهوة النكاح كيف يتمكّن ان يكون غرضه ثواب كثرة النسل في امّة محمّد ﷺ بل الداعى دفع الشهوة ودرك اللذّة ، فالقصد الشهوة لا السنّة ، فمن مال قلبه الي الدنيا لم يتيسّر له القربة في غالب الاعمال حتى في الفرائض ، وغايته ان يتذكر النّار ويحذّر نفسه عقابها ، او نعيم الجنة ويرغب في

ثوابها ، فيكون ثوابه ناقصا بسبب انّه انبعثت له داعية ضعيفة فيكون الثواب بقدر الرغبه والقصد ، واما الطاعة على نيّة اجلال امر الله لاستحقاقه تعالى الطاعة و العبوديّة فلا يتيسّر للراغب في الدّنيا ، وهى اعزّ النيّات و العبادات ويعزّ على بسيط الارض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ، فافهم سبب قلة اثار الفيض من عبادتك ، و قد غلط اقوام حيث اعتقدوا انّ المقصود من الصلوة ذكر الله فاىّ حاجة الى الصلوة و قد سلكوا سبيل الضلال ، وقوم اخرون سلكوا طريقا ادّتهم الي نقصان الحال فانّهم راقبوا الفرائض ولكن انكروا فضل النوافل واغترّوا بسير روح الحال واهملوا فضل الاعمال ولم يعلموا انّ لحكم الله في كلّ هيئة من الهيأت اسرارا وحكما لا توجد في شيء من الاذكار فالاحوال والاعمال روح وجسمان ، فالاعمال تزكوا بالاحوال ، والاحوال تترّقى و تنمو بالاعمال ، وصاحب الشريعة اعلم بصلاح الامر منك يافضول ، وصاحب البيت ادري بما في البيت ، و عليك باجراء سنة الله ، وعليك بالتناسب في الاحوال فمن المناسب ان يكون اللباس شاكلا للطعام والطعام شاكلا للكلام والكلام شاكلا للفعال ، ترى بعض الناس يلبس عبائه بثلاثة دراهم ، و شهوته في بطنه بخمسة دراهم ، كل اكله ومنكحه بدنانير ، فمن خشن ثوبه ينبغى ان يكون ماكوله من جنسه ، فمتي اختلف الثوب و الماكول اوالقول والفعل فذلك دليل على كمون الهوى في احد الطرفين امّا في طرف الثوب لموضع نظر الخلق الى زهده وامّا فى طرف الماكول لفرط الشره وكلا الوصفين مرض ، الم تعلم انّ الذّين حفظوا علانيتهم واضاعوا سرائرهم تسوّد وجوهم ؛ ومما ينسب الى السجّاد ﷺ من الادعية ؛ اللهّم انّى اعوذ بك ان تحسن في لامعة العيون علانيتى و تقبح لك فيما اخلو سريرتى فيحلّ بى مقتك ؛ وحكي عن بعض الكاملين انّهم لم يحضروا بعض الاوقات عند اساتيدهم فسئلوا عن السبب فقال انّى اذا رايته احسن له كلامى و تظهر نفسى عنده باحسن احوالها وفي ذلك الفتنة والعجب ، وكلّ ذلك لاجل التخلّص من شائبة الرياء .

في بيان حكم العمل المشوب ، هل يستحق به الثواب ام هدر ؛ فقد اختلف فيه بان يقتضى ثواباً ام عقابا املا ثوابا ولا عقابا ، وظاهر بعض الاخبار تدلّ على انّه لاثواب

له ، وليس بعض الاخبار يخلو عن تعارض والعلم عندالله ، ولعلّ ان ينظر الى قدرقوّة الداعى فان كان الداعين مساويا في القوّة تقاوما وتساقطا فصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الدنيا اغلب فليس بنافع ومُفض للعقاب نعم العقاب الذى فيهاخفّ من الرياء الخالص ، وان كان قصد التقرب اغلب بالاضافة الى الباعث الدنيوى و الرياء فله بقدر ما فضّل من قوّة الباعث الديني ، و الدليل عليه فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره وبقوله « انّ الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » فيحبط منه قدر الذي يساويه وبقيت زيادة ، فداعية الرياء من المهلكات ، وداعية الخير من المنجيات ، فاذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادّتان فان كان يقويّه هذا اغلب فهذا اغلب و كذلك بالعكس فكما ان المستضر بالحرارة لايخلوا عن اثر فكذلك .

قال بعض اهل السلوك كن نجماً فان لم تستطع فكن قمراً ، فان لم تستطع فكن شمسا ؛ اي كن مصلّيا جميع الليل كالنجم يشرق او كالقمر يضيء بعض الليل اوفصلّ بالنهار . واداء الفرائض بالجماعة من المستحّبات الاكيدة ؛ خصوصا اليومية منها ؛ و خصوصاً لجيران المسجد ؛ اومن يسمع النداء ، وقد ورد في فضلها و ذمّ تاركها من ضروب التاكيدات ما كاد تلحقها بالواجبات ، ففى الصحيح الصلوة في جماعة تفضل على صلوة الفذاى الفرد باربع و عشرين درجة ؛ قال رسول الله ﷺ اتاني جبرئيل مع سبعين الف بعد صلوة الظهر فقال يامحمد انّ ربّك يقرءك السلام واهدى اليك هديّتين ، قلت ماتلك الهديتان ؛ قال الوتر ثلث ركعات والصلوة الخمس فى الجماعة ، قلت ياجبرئيل مالا مُتيّ في الجماعة ، قال اذا كان اثنين كتب الله لكل واحد بكل ركعة مائة وخمسين صلوة ، واذا كانوا ثلاثة كتب الله لكلّ واحد بكل ركعة ستمائة صلوة ، واذا كانوا اربعة كتب لكل واحد الفاومائتي صلوة و اذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد بكل ركعة الفين و اربعمائة صلوة ، و اذا كانوا ستة فاربعة الاف و ثمانمائة بكل ركعة ، و اذا كانوا سبعة فلهم بكل ركعة تسعة الاف و ستمائة صلوة ، و اذا كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة تسعة عشر الفاومائتى صلوة ، واذا كانوا تسعة كتب لكل واحد منهم بكل ركعة ستة وثلاثين الفا و اربعمائة صلوة ، واذا كانوا عشرة كتب الله

لكل واحد منهم بكل ركعة سبعين الفا والفين وثمانمائة صلوة ، فان زادوا على العشرة فلوصارت السموات كلّها مدادا والاشجار اقلاما والثقلان مع الملائكة كتّابا لم يقدروا ثواب ركعة ، يا محمد تكبيرة يدركها المؤمن مع الأمام خير من ستين الف حجة و عمرة ، وخير من الدنيا وما فيها بسبعين الف مرة ، وركعة يصلّيها المؤمن مع الامام خير من مائة الف دينار يتصدّق بها على المساكين و سجدة يسجدها المؤمن مع الأمام فى جماعة خير من عتق مائة رقبه ، و كذلك يتضاعف الثواب والاجر بتضاعف الامكنة والائمة مثل مسجد الكوفة وساير المساجد ومثل العالم الهاشمي و غيره . ولايجوز ترك الجماعة رغبة عنها او استخفافاً بها . ففي الخبر لاصلوة لمن لايصلّي في المسجد إلا من علة ، ولاغيبة لمن صلى ورغب عن جماعتنا ، ومن رغب عن جماعة المسلمين وجب علي المسلمين غيبته وسقطت عدالته ، ووجب هجرانه ، واذا دفع إلى امام المسلمين انذره وحذّره فان حضر جماعة المسلمين والا احرقت عليه داره ؛ وفي خبر آخر ان امير المؤمنين عليه السلام بلغه ان قوماً لايحضرون الصلوة فى المسجد فخطب فقال : إنّ قوماً لايحضرون الصلوة معنا فى مساجدنا فلايوا كلونا ، ولايشاربونا ، ولايناكحونا ، أو يحضروا معنا صلوتنا جماعة ، واني لاوشك بنار تشعل في دورهم فاحرقها عليهم اوينتهون . و امثال هذه الاخبار عندنا الامامية كثيرة . واما عند اهل السنة : قال بعضهم : المراد من قوله تعالى : «ياقومنا اجيبوا داعي الله » المراد من الداعي المؤذنون الذين يدعون الى الجماعة في الصلوات الخمس وتارك الجماعة شرّ من شارب الخمر وقاتل النفس بغير حق ، ومن القتات و من العاق لوالديه ، ومن الكاهن والساحر ، ومن المغتاب وهوملعون في التورية والانجيل والزبور والفرقان ، وهوملعون على لسان الملائكة ، لايعاد إذا مرض ، ولايشهد جنازته اذا مات قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم تارك الجماعة ليس مني ، ولاأنا منه ، ولايقبل الله منه ، صرفاً ولاعدلا ، اي نافلة ولافريضة ، فان ماتوا على حالهم ، فالنار اولى بهم كذا في روضة العلماء ، قال ابن عباس بعث الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله فلمّا صدّق زاد الصلوة فلمّا صدّق زاد الزكوة فلمّا صدّق زاد الصيام فلمّا صدّق زاد الحج ثمّ الجهاد ثمّ اكمل لهم الدّين ، قال مقاتل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلّي بمكّة ركعتين بالغداة ، وركعتين بالعشاء ، فلما عرج به الى السماء امر بالصلوة الخمس

وانما فرضت الصلوة ليلة المعراج لان المعراج افضل الاوقات واشرف الحالات ، والصلوة بعد الايمان بالله افضل الطاعات ، وفى مرتبة العبودية احسن الهيآت ، ففرض افضل العبادات ولما اسرى به شاهد ملكوت السماء وعبادات سكانها من الملائكة ، فاستكثرها ﷺ غبطة ، وطلب ذلك لامته ، فجمع الله له فى الصلواة الخمس عبادات الملائكة كلها ، لان منهم من هو قائم ، ومنهم من هو راكع ، ومنهم من هو ساجد ، وحامد ، ومسبح ، الي غير ذلك ، فاعطى الله اجور عبادات اهل السموات لامته اذا اقاموا الصلوات الخمس . وقيل ان الحكمة فى كونها خمس صلوات ، لانها كانت في الامم السالفة متفرقة فجمعها لنبيه وامته مجمع الفضائل كلها ، فاول من صلى الفجر آدم عليه السلام والظهر إبراهيم عليه السلام والعصر يونس عليه السلام والمغرب عيسى عليه السلام ، والعشاء موسى عليه السلام : وقيل صلى آدم عليه السلام الصلوة الخمس كلها ، ثم تفرقت بعده بين الانبياء ، واول من صلى الوتر رسول الله ﷺ ليلة المعراج ، لذلك قال زادني ربي صلوة اى الوتر على الخمس او صلوة الليل ، واول من بادر الى السجود جبرئيل ولذلك صار رفيق الانبياء ، و اول من قال: سبحان الله جبرئيل ، والحمد لله آدم ، ولا إله إلا الله نوح ، والله اكبر ابراهيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله رسول الله ﷺ ، ذكر هذا فى كشف الكنوز وحل الرموز ، و فى بعض الشروح لما اراد الله افاضة الخيرات لنبيه وتيسير الامر لهم كى لا يملوا من العبادات لون لهم الطاعات ليستريحوا من نوع الى نوع ، فجعل فى اليوم خمسا و فى السنة شهراً وفي المأتين خمسة وفي العمر نورة كيلا ينفكون عن العبودية ولايملون ، ووسع عليهم الوقت حتى لايتأسفون بفوت اوقاتها ، و تبقي لهم صفة الاختيار ، وفرق بين يد المرتعشة من الفلج و اليد التى تحركها و ترعشها انت ، فتأمل يا اخى في هذه الدقيقة كي تبين لك نكتة الجبر والاختيار انتهى .

«**و مما رزقناهم ينفقون**» اى ومن الذى رزقناهم واعطيناهم ينفقون ، والرزق فى اللغة العطاء ، والانفاق اخراج المال يقال انفق ماله اى اخرجه عن ملكه وصرفه ، وتقديم المفعول فى الآيه للاهتمام به ، والمحافظة على رؤس الآى ، و المراد بهذا الانفاق الصرف الى سبيل الخير فرضا كان اونفلا ، ومن فسره بالزكوة ذكر افضل انواعه اوخصصه بها لاقترانه بما هى شقيقتها واختها ، وهى الصلوة . و الاظهر فى الآيه ان المراد من النفقه

الزكوة ، وفي الانفاق فضائل لاتحصى قال الله تعالى : « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل » الآيه . واعلم ان انفاق المال في الخيرات احدار كان الدّين والسرّ فيه ان المال محبوب الخلق وهم مامورون بحبّ الله ومدعوّون للحبّ بنفس الايمان فجعل تعالى بذل المال امتحانا لصدقهم في دعواهم فان المحبوبات تبذل لاجل المحبوب، فانقسم الخلق الى ثلاث طبقات : الطبقة الاولى الاقوياء وهم الّذين انفقوا جميع ماملكوا ونصف ما ملكوا فهولآء صدقوا ما عاهدوا الله في دعواهم ، ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيوتيه اجراً عظيما ، الطبقة الثانية المتوسطون و هم الذين لم يقدروا على اخلاء اليد عن المال دفعة ولكن امسكوها لاللتنعم بل للانفاق عند ظهور محتاج ، ويقنعون في حق انفسهم بمايقوّيهم على العبادة ، واذا عرض محتاج بادروا الى سدّ خلته ، ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكوة، وانما غرضهم العمدة في الامساك ترصّد الحاجات . والطبقة الثالثة الضعفاء وهم المقتصرون على اداء الواجب فلا يزيدون عليها و لا ينقصون منها و لاشكّ بانّا لسنا من الطبقة الاولى والثانية لكن ينبغي ان نتجاوز الدرجة الثالثة ولو الى اواخر طبقات المتوسّطين، وتزيد على الواجب فان الاكتفاء بمجرّد الواجب حدّ البخلاء . قال الله تعالى « ان يسئلكموها فيحفكم تبخلوا » فاجتهد لاينقضى عليك يوم الّا وتتصدّق بشيء وراء الواجب ولو شيئاً يسيرا فترتفع بذلك من طبقة البخلاء ، وان لم تملك شيئاً فمعونة في حاجة اوشفاعة خير فيكون بذلك في الخير ممّا تقدر عليه من جاه وكلمة طيّبة اذا كنت فقيراً . وحافظ في صدقتك على خمسة امور : الاوّل الاسرار ، فانّ صدقة السّر تطفى غضب الربّ . وقد قال الله تعالى « وان تخفوها و تؤتوها الفقراء فهوخير لكم » وبذلك تخلص عن الرياء ، والرياء محبط ومهلك ينقلب في القلب في صورة حيّة اذا وضع في القبر اويولم ايلام الحيّة كما ان البخل ينقلب في القبر في صورة عقرب . الثاني ان يحذر من المنّ وحقيقته ان ترى نفسك محسنا الى الفقير ، وعلامته ان تتوقّع شكر امنه : قال الله تعالى : « لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والاذى » مع انّ آخذ الصدقة هو الذي يكون له على المعطى حق بقبوله منه ، والزكوة والصدقات او ساخ الاموال فاذا اخذ الفقير منك فقد طهّر لك طهرة فله الفضل عليك ، أرايت لو انّ فصّاداً فصدك مجّاناً و اخرج

من باطنك الدم الذى تخشى ضرره اليس هو المحسن لك ؟ فالذى اخرج من الباطن رذيلة البخل مع ان ضرره في الحيوة الاخرة اولى بان تراه متفضلاً عليك . الثالث ، ان تخرج من اطيب اموالك قال الله تعالى : «وتجعلون لله ماتكرهون» قال الله تعالى «لاتيمموا الخبيث منه تنفقون» ، والانسان يؤثر الاعز لحبيبه دون الاخس . الرابع ان تعطى بوجه طلق فرح غير مستكره ، قال رسول الله ﷺ سبق درهم بماة الف درهم ، و انما اراد ﷺ بهما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من انفس امواله فذلك افضل من مائة الف درهم مع الكراهية . الخامس ان تتحرى بصدقتك محلا تزكوا به الصدقة مثل الرجل المتقى العالم الذى يستعين بها على تقوى الله والصالح المعيل ذى الرحم ، وان لم تجتمع تمام هذه الاوصاف فباحادها ايضاً تزكوا الصدقة . قال رسول الله ﷺ اطعموا طعامكم الاتقياء واولوا معروفكم المؤمنين ، وقال ﷺ لاتأكل الاطعام تقي ولا ياكل طعامك الاتقى . وفى ثواب الاعمال عن ابي جعفر عليه السلام قال ان عابدا عبدالله ثمانين سنة ثم اشرف على امرأة فوقعت في نفسه فنزل اليها فراودها على نفسها فطاوعته فلما قضى منها حاجته طرق ملك الموت فاعتقل لسانه فمر سائل فاشار اليه ان خذ رغيفا كان فى كسائه فاحبط الله عمل ثمانين سنة بتلك الزنية وغفر الله له بذلك الرغيف ، اتظن ان ينفعك في غنمته لا بل الربح فى خير امضيته او خصم ارضيته فأد قرضك وأوف فرضك ولاتسع لقاعد و لاتسهر لراقد . روي انه اوحى الله الى بعض انبيائه انى قضيت عمر فلان نصفه بالفقر و نصفه بالغنى فخيره حتى اقدم له ايهما شاء فدعى النبى وطلبه فجاء الرجل فاخبره النبى بما اخبره الله فقال الرجل حتى اشاور زوجتى فقالت زوجته اختر الغنى حتى يكون هو الاول فقال لها الرجل ان الفقر بعد الغنى صعب شديد والغنى بعد الفقر طيب لذيذ فقالت لا بل اطعنى فيهذا فرجع الى النبى فقال اختار نصف عمري الذى قضى لى فيه بالغنى ان يقدم ، فوسع الله عليه الدنيا ، وفتح عليه باب الغنى ، فقالت له امرأته ان اردت ان تبقى هذه النعمة فاستعمل السخاء مع خلق ربك ، فكان الرجل اذا اتخذ لنفسه ثوبا اتخذ لفقير ثوبا مثله ، فلما تم نصف عمره الذي قضى له فيه بالغنى اوحى الله الى نبى ذلك الزمان انى كنت قضيت نصف عمره بالفقر ونصفه بالغنى لكنى وجدته شاكرا لنعمائى والشكر

يستوجب المزيد فبشّره انّى قضيت باقى عمره بالغنى .

«والذين يؤمنون بما انزل اليك» ثم بيّن سبحانه صفة المتّقين فقال : « والّذين يؤمنون بما انزل اليك» اى القرآن باسره والشريعة عن اخرها والتعبير عن انزاله بالماضي مع كون بعضه مترقّبا ولم ينزل لتغليب المحقّق وقوعه على المقدّر ولتنزيل ما فى شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع ولانّ القرآن شيء واحد فى الحكم ، او الانزال فى هذه الاية بمعنى الوحى ، وهذا النزول الثانوى على عالمه البشريّة والنزول الاوّل الى عالم نوره من غير واسطة جبرئيل والنزول الثّانى الي عالم الخلق زيادة فى علمه غير مسبوق بالجهل بل نزول علم على علم أو زيادة علم على علم ، و اليه الاشارة بقوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » و « قل ربّ زدنى علماً » . ويستفاد من هذه الآية وهى قوله : « والذين يؤمنون بما اُنزل إليك » انّ الكلام مخلوق لأنّ المنزل لابدّ وأن يكون حادثاً و ممكناً ولايكون قديماً خلافاً للاشاعرة فانّهم قالوا بالكلام النفسى فزعموا أنّ الله لم يزل متكلّماً مع وضوح أنّ الكلام غير المتكلّم ، و يمتنع اقترانهما كما يمتنع اتحادهما مع انّه يستلزم تعدّد القدماء وهو ينافى التوحيد ، فالكلام الالهى المنزل على انبيائه كلّه حادث ومخلوق ، والمتكلّم هو الخالق فيخلق الكلام بارادته و مشيّته ؛ والاشاعرة يقولون بالصفات الزائدة مع ما يدّعون من الاقرار بالتوحيد ويقولون بالقدماء الثمانية ومنها الكلام النفسى ، وهذا ينافى التوحيد ضرورة انّ مفهوم الواجب لايصدق على كثيرين ، و حقيقة الوجود البحت لايشوبه شيء من التركيب الذاتى و الخارجى والذهنى والجنس والفصل وماقاله الاشاعرة يستلزم تركّب الواجب من الذات والصفات بشهادة انّ الصفة غير الموصوف . والقول بالصفات الزائدة يستلزم كون الذات فاقداً للكمالات الذاتية وافتقارها الى صفاتها ، و كل محتاج ممكن ويستلزم النقص ، و كل ناقص ممكن ، قال امير المؤمنين عليه السلام و نظام توحيد الله تعالى نفى الصفات عنه ، فمن وصف الله فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن عدّه فقد ثنّاه ، ومن ثنّاه فقد جزّاه **ايقاظ**: وامّا ما قرره الحكماء من أنّ الواحد لايصدر عنه الّا الواحد وأنّ العقل الاوّل هو المخلوق من غير واسطة وانّ العقل الاوّل هو الخالق للعقل الثّانى ، وهكذا إلى أن ينتهى إلى العقول العشرة ، فهذه القاعدة مع

عدم ورود تصديقها في شيء من الكتاب والسنّة مخالفة لما ينساق من هذه الاية الكريمة لانّ العقل الاوّل هو الحقيقة المحمّديّة كما يستفاد من الحديث ، وهو أوّل ما خلق الله نور نبيك : ياجابر و قوله تعالى : « بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » صريح في أنّ المنزل بالكسر انّما هو الله ، والقول بأنّه صلى الله عليه وآله خالق للعقل الثاني مخالف للادلة الاربعة وهي الكتاب والسنة والاجماع ودليل العقل ، إذ نسبة الخلق و الصنع إلى غيره غير جائز ، هل من خالق غير الله ؟ وقد صحّ انّه صلى الله عليه وآله عبد و نبيّ و قوله : بما انزل اليك إشارة إلى الهدايات و الافاضات و الوحي النازلة من الله بالنسبة إليه ، وقد جعلهم الله مجرى للفيوضات ، وليس علمه ذاتياً مستغنياً عن الافاضة و اليه الاشارة بقوله تعالى : « ووجدك ضالاً فهدى » ، ولاشكّ انه صلى الله عليه وآله ممكن فيحتاج في هدايته وساير صفاته الى الواجب ، والضالّة بمعنى الغيبوبة لأنّ مرتبته كانت خفيّة من أول الامر ، فهدى الله باظهار تلك الحقيقة المقدّسة واعلانها واعلاء كلمتها والله متمّ نوره ولو كره المشركون قال عليّ عليه السلام أنا الاوّل، أنا الاخر ، أنا الظاهر ، أنا الباطن ، قيل في معناه وجوه ، الاول انّه أوّل من آمن برسول الله في عالم الغيب و الشهادة وانّه عليه السلام أوّل من آمن في جميع العوالم من عالم الانوار و المثال و عالم الأرواح و النفوس وعالم الذّر الأوّل الّذى قال الله : « ألست بربّكم ؟ » ، وعالم الذر الثاني المتّصف بالاجابة المشروطة والذّر الثالث المشتمل على الاجابة المتخيّرة وعالم الملك والناسوت ، فانّه عليه السلام اوّل من دعى واجاب .

الثاني انّه اوّل من اجاب نداء ابراهيم حين اذّن للناس بالحجّ ، وهو والأئمّة حقيقة الرّسول وهم والرسول اوّل الاولياء و آخرهم وجود اورتبة وتمام الانبياء والاولياء والاوصياء انّما خلقوا من اشعّة انوار محمّد واهل بيته صلوات الله عليهم ومن قبسات فيضهم ونورهم ، وهو قوله عليه السلام بكم بدأ الله وبكم يختم . وفي الحديث قال الصادق نحن الاوّلون و نحن الآخرون ، وايضاً في الحديث عنهم انّه اى عليّاً عليه السلام الاوّل والآخر اى مرجع الاولياء بدءاً وختماً وانّ له الولاية الكلّية في الدنيا والآخرة وانّه اوّل الخلق شرفاً واياب الخلق اليهم لانّه الواسطة في جميع الفيوضات .

«وما انزل من قبلك» التورية والانجيل وسائر الكتب السالفة والايمان بالكل فرض عين جملة، وبالقرآن فرض عين تفصيلا حيث انّا متعبّدون بتفاصيله.

«وبالاخرة» تانيث الآخر الذى يقابل الأول وسمّيت الدنيا دنيا لدنوّها من الاخرة، وسمّيت الاخرة آخرة لتاخرها ولكونها بعد الدنيا، والآخر بفتح الخاء الذى يلي الاوّل.

«هم يوقنون» الايقان اتقان العلم بالشيء بنفي الشكّ والشبهة عنه نظراً واستدلالاً. والمراد من الاخرة الدار الاخرة بحذف الموصوف لأنّ الآخرة صفة، ولابدّ لها من موصوف.

«ويوقنون» اى يعلمون، وذلك لأنّ الكافرين ما كانوا امتيقّنين بها بل كانوا يقولون: ان هى الاحيوتنا الدنيا نموت ونحيى، ولمّا كان اهل الكتاب عليه من الشكوك، وكانوا يقولون: لم تمسّنا النار الّا ايّاماً معدودات وكذلك مختلفاتهم في انّ نعيم الجنّة هل هو من قبيل نعيم الدنيا اولا وهل هو دائم اولا؛ فقال فرقة منهم يجرى حالهم في التلذّذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا، وقال آخرون انّ ذلك انّما احتيج اليه في هذه الدنيا من أجل نماء الاجسام والتوالد والتناسل واهل الجنّة مستغنون عنه فلا يتلذّذون الّا بالنسيم والارواح العبقة والسّماع اللذيذ والفرح والسرور، فهم عن الاعتقاد في امور الاخرة بمعزل من الصحّة فضلاً عن الوصول الى مرتبة اليقين، وامّا المؤمنون فهم موقنون غير مختلفين ولا شاكيّن، قال علماء الاخلاق اليقين على ثلاثة اوجه: يقين عيان ويقين خبر ويقين دلالة، فامّا يقين العيان فهو انّه اذا رآى شيئاً زال عنه الشك في ذلك الشيء، وامّا يقين الدلالة فهو ان يرى الرّجل دخانا ارتفع من موضع فيعلم باليقين انّ هناك نارا وان لم يرها، وامّا يقين الخبر فهو انّ الرجل يعلم باليقين انّ في الدنيا مدينة يقال لها بغداد وان لم ينته اليها، فهيهنا يقين خبر، والعلم اليقين هو العلم الحاصل بالادراك والاستدلال والنظر. ودرجات اليقين تكمل بدوام النظر والمجاهدات المشروعة مثل دوام الوضوء، وقلّة الاكل وكثّرة الذكر والسكوت بالفكر في ملكوت السموات والارض وباداء السنن والفرائض وترك ما سوى الحق وتقليل المنام واكل الحلال وصدق المقال والمراقبة بالقلب الى الله، فهذه مفاتيح العلوم والمشاهدة، وثمرة اليقين، الاستعداد

للآخرة ، ولذا قيل عشرة من المغرورين،من ايقن ان الله خالقه ولايعبده ، ومن ايقن ان الله رازقه ولا يطمئن به ومن ايقن ان الدنيا زائلة ويعتمد عليها ومن ايقن ان الورثة اعداؤه ويجمع لهم ومن ايقن ان الموت آت فلا يستعد له ومن ايقن ان القبر منزله فلا يعمره و من ايقن ان الديان يحاسبه فلا يصحح حسابه وحجته و من ايقن ان الصراط ممره فلا يخفف ثقله ومن ايقن ان النار دار الفجار فلايهرب منها ومن ايقن ان الجنة دار الابرار فلا يعمل لها . قال رجل من الزهاد رايت غلاما في البادية يمشي بلا زاد فقلت ان لم يكن له يقين فقد هلك ، فقلت يا غلام اتمشي في مثل هذا الموضع بلازاد ؟ فقال ياشيخ ارفع رأسك ، هل تري غيرالله تعالى ؟ فقلت له الان فاذهب حيث شئت . قال ابراهيم الخواص : طلبت المعاش لاكل الحلال فاصطدت سمكة وقعت في الشبكة واخرجتها وطرحت الشبكة في الماء فوقعت اخرى فيها ثم عدت فهتف بي هاتف لم تجد معاشا الا ان تأتي الى مايذكر الله فتقتلهم ، فكسرت القصبه وتركت .

فعاشر اهل الرشد تهتدى و لابد للمبتدى من منبه

من الاولى فالاولى بالنسبة الى حال السالك .

اولئك على هدى من ربهم اولاء جمع لاواحد له من لفظه، ومفرده ذلك والكاف للخطاب ، ومافي اشارة لفظ اولئك من البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل ، وهو مبتداء اى الموصوفون بالصفات المذكورة كائنون على هدى وتنكير هدى لكمال تفخيمه كأنه قيل على هدى اى هدى لايبلغ كنهه كماتقول لوابصرت فلانالابصرت رجلا«من ربهم» من عنده تعالى ، وانما قال من ربهم لان كل خير وهدى من الله والهداية في اتباع الرسول.

واولئك هم المفلحون تكرير اولئك للتفخيم وللدلالة على ان كل واحد من الحكمين مستقل لهم في التميز به عن غيرهم فكيف بهما ، وكلمة هم في مثل هذه المواضع يسمونه البصريون فصلا والكوفيون عمادا انما ياتون بها للدلالة على ان الواقع بعده خبر لاصفة وان المسند ثابت للمسند اليه دون غيره ، فالقصر قصر الصفة علي الموصوف لا العكس. والمفلح الفائز بالبغيه والفلح الشق والقطع والفتح ، ومنه سمى الزارع فلاحاً لانه يشق الارض ، وحاصل المعنى هم الفائزون بالجنة والناجون من النار وتشبثت الوعيدية

بالآية في خلود الفساق من اهل القبلة في العذاب ، واجيبوا بان المراد من المفلحين، الكاملون في الفلاح ، فيلزم من المعني عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم ، فاما عدم الفلاح لهم رأسا لايلزم . هذا ما اجابه البيضاوي وتمسك المرجئة بهذه الآية من وجه آخر واحتجوا بان الله حكم بالفلاح على الموصوفين بالصفات المذكورة في هذه الاية فوجب ان يكون الموصوف بهذه الاشياء مفلحا وان زنى وان سرق وشرب الخمر، واذا ثبت في هذه الطائفة تحقق العفو ثبت في غيرهم ضرورة اذلا قائل بالفرق . والجواب عن قول المرجئة ان وصفهم بالتقوى يستلزم اتقاء ترك الواجبات والمعاصي ، ومعلوم بالضرورة ان من اتقي من المعاصي كيف يسرق ويزني ؛ وهو متقي من المعاصي؟

« **ان الذين كفروا سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون** » . لما ذكر خاصة عباده بصفات الايمان والتقوي و الفلاح ذكر في هذه الاية العتاة المردة الذين لايغني عنهم الآيات والنذر. وتعريف الموصول اما للعهد والمراد به ناس باعيانهم كابي لهب وابي جهل واحبار اليهود او للجنس متناولا كل من صمم على كفره تصميما لايرعوي بعده ، والكفر لغة الستر والتغطية ، وفي الشريعة انكار ماعلم بالضرورة مجيئي الرسول به . والكافر له اطلاقات. احدها نقيض المؤمن ، قال الله تعالى : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله » ، و يطلق على الجاحد قال : « ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » اى جحد وجوب الحج ، ويطلق نقيض الشاكر، قال تعالى : «واشكروا لي ولا تكفرون » ويطلق علي المتبري ، قال تعالى: «ويوم القيمة يكفر بعضكم ببعض» اى يتبرء بعضكم من بعض .

سواء عليهم اى متساو، وسواء اسم بمعني الاستواء ، وخبر لأن ، «انذرتهم يامحمد ام لم تنذرهم وهذا مثل قولك ، سواء على اقبلت ام ادبرت ؛ و اللفظ لفظ الاستفهام و معناه الخبر اى الانذار وعدم الانذار سيان لهم ، واصل الأنذار الأعلام بامر مخوف و كان هؤلاء القوم كقوم هود الذين قالوا لهود ، سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين .

لايؤمنون جملة مؤكدة مبينة لماقبلها من اجمال مافيه الاستواء، وتخفيف وتفريغ لقلبه ﷺ

فان قلت لما علم الله انهم لا يؤمنون فلم امر نبيه بدعائهم ، فالجواب ؛ لئلا يكون

للناس علي الله حجة بعد الرسل ؛ وقال ؛ ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو لا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك .

«**ختم الله على قلوبهم**» لما ذكر هم بصفاتهم الخبيثة ذكر عقوباتهم فهو تعليل للحكم السابق وبيان مايقتضيه . وفي معني الختم وجوه .

احدها ان المراد بالختم العلامة فاذا انتهي الكافر من كفره الى حالة يستحق الحرمان من الفيض الاقدس ختم وطبع على قلبه علامة ونكتة سوداء تشاهدها الملائكة فيعلمون بها انّه لا يؤمن بعدها كما انّه يعلم و يكتب في قلب المؤمن علامة تعلم الملائكة بها انّه مؤمن فيمدحونه ويستغفرون له .

وثانيها ان المراد بالختم ان الله شهد عليها وحكم بانها لاتقبل الحق .

وثالثها ان المراد بذلك انه ذمهم بانها كالمختوم عليها في انّه لا يدخلها الايمان و لا يخرج عنها الكفر فتمكن الكفر في قلوبهم فصارت كالمختوم عليها .

ورابعها ان قلبه ضاق عن النظر والاستدلال ، فهو خلاف من ذكر في قوله : « افمن شرح الله صدره للاسلام فهو علي نور من ربه » ومثل قوله « ام على قلوب اقفالها » والوجوه بحسب المعني متقاربة :

«**وعلى سمعهم**» اى وختم الله على اذانهم فجعلها بحيث تعاف استماع الحق ولاتصغى الى خبر ولاتعيه عقوبة لهم على سوء اختيارهم فعبر سبحانه من احداث هذه الكيفية و الهيئة بالطبع والختم على الاستعارة ، فلو قيل اذا ختم الله على قلوبهم و على سمعهم فمنعهم الهدى فكيف يستحقون العقوبة ؟ فالجواب انّ الختم والطبع والضلال وامثال هذه الامور عقوبة و مجازاة من الله بكفرهم ، وهي مستندة الى الله من حيث ان الممكنات بقدرته و من حيث انها جزاء منه تعالي لكن هذا الجزاء مسبب مما اقترفوه بدليل قوله « بل طبع الله عليها بكفرهم » ، وقوله تعالى ، « ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم » فالختم لا ستحقاق الكفر كالعذاب الواقع على الكافر ، و الله تعالى قد يسرّ عليهم السبل فلو سلكوا سبيله لوفّقهم ، فحاصل معنى الختم عقوبة من الله لاتمنع العبد جبرا ولا تحمله على الكفر كرهاً بل هي زيادة عقوبة له على سوء إختياره ، وتماديه

وغيّه في الكفر تسبّب عن هذا الطبع . والأمر لهم بالايمان بقوله تعالى : « فما لهم لايؤمنون » يدلّ على أنّهم متمكنين من الايمان والخطاب بقوله : « آمنوا بالله ورسوله » يدلّ على أنّهم غيرعاجزين عن الايمان وإلّا لزال الخطاب وسقط اللّوم ، فالعبد هوالذي أورد هذا الختم على قلبه وعلى سمعه . وفي توحيد السمع قيل السبب فيه انّه في الاصل مصدر والمصادر لاتجمع لصلاحيتها للمفرد والجماعة مثل انهّم يكيدون كيداً وأكيد كيدا لكن الأبصار جمع البصر وهو اسم عين لا مصدر فجمع والاضافة الى الجماعة تغنى عن الجماعة ، وقال سيبويه انّه توسّط جمعين فدلّ على الجمع وان وحّد مثل قوله : « يخرجهم من الظلمات الى النور » دلّ على الأنوار .

«**وعلى أبصارهم غشاوة**» أى غطاءٌ والمرادحدوث حالة تجعل أبصارهم بسبب كفرهم لا تجتلى الآيات كما تجتليها أعيُن المستبصرين ومعنى التنكير في الغشاوة بيان انّه على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً ممّا يتعارفه الناس وهي غشاوة التعامى عن الآيات ، وترتيب الذكر يوافق الخطابات حيث يقول : أفلا تعقلون ، أفلا تبصرون ، أفلا تسمعون.

«**ولهم عذاب عظيم**» والتنكير أى لهم من الآلام نوعاً عظيماً لايعلم كنهه الّا الله نعوذ بالله من سوء الخاتمة . حكى انّ ملكاً شابّا في بني اسرائيل ، قال انّي أجد في الملك لذّة فلا ادرى أكذلك يجده الناس أم أنا أجده ، فقالوا له كذلك يجده الناس ، قال فماذا يقيمه ويديمه ؟ قالوا يديمه ويقيمه لك ان تطيع الله ولا تعصيه فدعا من في بلده من العلماء و الصلحاء وقال لهم كونوا بحضرتى ومجلسي فما رأيتم من طاعة الله فأمروني وما رأيتم من المعصية فازجروني عنها فعل ذلك فاستقام له الملك أربعمائة سنة ثمّ أنّ ابليس أتاه يوماً على صورة رجل وقال له من أنت ؟ قال الملك رجل من بني آدم قال ابليس لو كنت من بنى آدم لمتّ كما يموت بنو آدم ولكنّك اله فادع الناس الى عبادتك فدخل في قلبه شيئ ثم صعد المنبر فقال أيّها الناس انّي اخفيت عليكم امراً حان ولزم اظهاره وهو انّي ملككم منذ كذا سنة ولو كنت من بنى آدم لمت ولكنّى اله فاعبدوني فأوحى الله الى نبيّ ذلك الزمان ، وقال أخبره انّى استقمت له ما استقام لى فتحول

من طاعتي الى معصيتي فبعزتي لأسلّطن عليه بخت نصر ولم يتحول عن ذلك فسلّطه عليه فضرب عنقه واوقر من خزينته سبعين سفينة من ذهب .

«**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين**» لما افتتح الله السورة ببيان أحوال المؤمنين واوصافهم وثنّى بذكر اضدادهم الماحضين في الكفر ظاهراً وباطناً ثلّث في هذه الآية بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين وهم المنافقون الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أخبث الكفرة وأبغضهم الى الله لأنّهم موّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء . والناس اسم جمع للانسان سمّي به لأنّه عهد اليه فنسى قال الله : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » وقيل سمّى به لظهوره بخلاف الجن من انس أى ابصر لأنّهم ظاهرون ، و لذلك ايضاً سمّوا بشر ، وقيل من الانس الذى هو ضد الوحشة لأنّهم يستأنسون بأمثالهم واللاّم في ؛ ومن الناس؛ للجنس ومن موصوفة ، وتقدير الكلام ؛ ومن الناس ناس يقرّون باللّسان ويقولون صدقنا بالله و باليوم القيمة ؛ وسمّى آخراً لأنّه لا يوم بعده ولا ليلة بعده و متأخر عن جميع الأيّام . والناس أصله اناس وزنه فِعال فاسقطت الهمزة منها لكثرة الإستعمال اذا دخله الألف واللاّم واُدغمت اللاّم في النّون كما قيل لكنا في لكن أنا .

«**وما هم بمؤمنين**» وما حرف مشبّه بليس من حيث يدخل على المبتدأ والخبر كما يدخل ليس عليهما . وفيه معنى نفى الحال كما في ليس فاجرى مجراه في العمل ، والباء زائدة مؤكّدة للنفى أى ليسوا بمصدّقين في دعويهم واظهارهم الايمان .

«**يخادعون الله والذين آمنوا**» . استيناف وقع جواباً عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنّه قيل ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ؟ فقيل يخادعون الله ويخادعون المؤمنين بقولهم اذا رأوهم آمنا وهم غير مؤمنين فانّهم كانوا يريدون بما صنعوا ان يطلعوا على أسرار المؤمنين فيشيّعوها الى مخالفيهم واعدائهم وان يدفعوا انفسهم مايصيب ساير الكفّار من القتل والنهب والأسر وصنع الله معهم من اجراء احكام المسلمين عليهم وهم عنده اخبث الكفّار واهل الدرك الأسفل من النار استدراجاً لهم مجازاةً لهم بمثل صنيعهم صورة صنع المخادعين فتكون المخادعة بين الاثنين .

«وما يخدعون الّا انفسهم وما يشعرون» النفس ذات الشيء وحقيقته أي ان ضرر مخادعتهم راجع اليهم لايتخطاهم الى غيرهم ومايضرون بذلك الّا انفسهم فيستوجبون بذلك النفاق العقاب في العقبى وفي الحديث يؤمر بنفر من الناس يوم القيمة الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا الى قصور الجنة والى ما اعدّ الله تعالى لأهلها نودوا ان اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بندامة وحسرة ما رجع الاولون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربّنا لو ادخلتنا النار قبل ان ترينا ما اريتنا من ثواب ما اعددت لاوليائك فيقول ذلك اردت بكم كنتم اذا خلوتم بي بارزتموني بالمعاصي فاذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين و تظهرون خلاف ما تنطوي قلوبكم عليه هبتم الدنيا ولم تهابوني، اجللتم النّاس ولم تجلّلوني، فاليوم اذيقكم اليم عذابي. قال الله لعيسى يا عيسى: ليكن لسانك في السر والعلانية واحداً و كذلك قلبك، وعن الصّادق عليه السلام قال قال رسول الله: مازاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق انتهى. والمنافق قسم معادل للمشرك حيث قال: «ويُعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات» بل اشدّ عذاباً لانّهم في الدرك الاسفل من النار.

«ومايشعرون» حال من ضمير يخدعون اي مايحسون بذلك الفعل القبيح لتماديهم في الغواية و نزّلهم منزلة الجمادات وحطّهم من منزلة البهائم حيث سلب عنهم الحسّ الحيواني. اعلم انّ كل واحد نوع من الموجودات له كمال خاص وفعل لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء بمعنى انّه لايجوز ان يكون موجود آخر سواه يصلح لذلك نوعاً، وهذا حكم مستمر في الامور العلويّة والسفليّة كالشمس والكواكب و كأنواع الحيوان و كأنواع النبات والمعادن و كالعناصر، اذا تقرر هذا فاذن نوع الانسان له كمال وفعل خاص به لايشاركه فيه غيره وهومايصدر عن قوّته المميّزة، فكل من كان تميزه واختياره افضل كان اكمل في انسانيته لأنّ افضل السيوف ماكان امضى، فمن كان اقدر على فعله الخاص به واشدّ تمسكا بشرايط جوهره الذى تميّز به عن الموجودات كان اكمل، فانّ الفرس إذا قصّر عن كماله ولم تظهر افعاله الخاصّة به وهو العَدْو حطّ عن مرتبة الفرسيّة واستعمل بالاكاف كما يستعمل للحمير، فاذا قصّر الانسان عن افعاله

التى خلق لها حطّ عن مرتبة الانسانيّة الى مرتبة البهيميّة ، هذا اذا صدرت افعاله ناقصة غير تامّة ، لكن اذا صدر منه افعال ضد ما خلق له يستحق المقت والعذاب وان دام على الضدّ استحق العذاب الدائم كما اذا دام على فعل ما خلق له استحق النعيم الدائم ، وسعادة كل موجود انّما هي صدور افعاله الّتى تخصّ صورته عنه تامّة كاملة فسعادة الانسان تكون في صدور افعاله التى خصّ بها وخلق لاجلها بحسب تميّزه ورويّته وان كان لهذه الرويّة والمروى فيه تفاوت ، فأفضل الرويّة ما كان في أفضل مروي ثم ينزل رتبة فرتبة الى ان ينتهى الى النظر في الامور الممكنة من العالم الطبيعى و الحسّي فيكون الناظر في هذه الأشياء اعرض عن خاصّته التى بها صار انساناً وسعيداً و اقبل في أشياء دنيّة لا فائدة له بها واستعمل نظره وفكره فيما لم يخلق لاجله فتنزل عن درجته فاذا اشتغل بالشهوات صار في زمرة البهايم واذا اشتغل فى الفتنة والفساد صار فى زمرة المؤذيات والسباع ، واذا تعطل صار فى زمرة الجمادات وهكذا الى ان تفنى خاصّته ودخل فى خاصّة غيره على حسب اعماله واختياره .

و اعلم انّ الحكماء الالهى و علماء الاخلاق اجمعوا على انّ اصول أجناس الفضائل اربع و هى الحكمة و العفّة و الشجاعة و العدالة و يتنوع منها فروع كما انّ اصول اجناس الفضائل اربع و يتنوع منها فروع و هى الجهل و الشره و الجبن و الجور و هى اضداد الاربعة الاولى لكن اشخاص الانواع من الطرفين بلا نهاية . أما الحكمة فهى فضيلة النفس الناطقة المميّزة و هى ان يعلم الموجودات من حيث هى موجودة وثمرة علمـه ان يعرف ايّها يجب ان يفعل وايّها يجب ان يترك وامّا العفّة فهى فضيلة الحسّ الشهوانى و ثمرة هذه الفضيلة ان يصرف شهواتة بحسب النظر حتى لا ينقاد لهـا و يكون غير متعبّد لشيء من شهواته الضارّة حتى يصير حرّاً مالكاً لا مملوكاً ، وأمّا الشجاعة فهى فضيلة النفس الغضبيّة فيستعمل ما يوجب الرأى الحاذق ولا يخاف من الامور الهائلة المفزعة اذا كان فعلها جميلا وتحمّلها محمودا ، وامّا العدالة فهى فضيلة للنفس و يحدث للنفس بعد اجتماع هذه الفضائل الثلاث المذكورة فيحدث للانسان بالعدالة سمة يختار بها دائماً الانصاف من نفسه على نفسه اوّلاً ثم الانصاف والانتصاف من غيره والفضائل التى من فروع اجناس الأربع كثيرة مثل الفروع

التى تحت العفّة ، الحياء والصبر والقناعة والدماثة ومعنى الدماثة حسن انقياد النفس وتبرعها فى الجميل و كذلك من فروع العفّة الانتظام ومعناه حال للنفس تقودها الى تقدير الامور ، منهاحسن الهدى وهو تكميل النفس بالزينة الحسنة ، ومن فروع العفة الورع و الوقاروهى لا تعدو كذلك فروع الرذائل الاربع كثيرة ، وهى اجمالا مايضاد الفضائل الاربع لانّه يفهم من كلّ واحدة من الفضائل الاربع ، وفروعها ما يقابلها مثل انّ الجهل يقابل العلم والوقاحة يقابل الحياء الى ما لا يتناهى .

«فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون».

المراد بالمرض فى الآية الشك والنفاق وانّما سمّى الشك والنفاق مرضاً لأنّ المرض هو الخروج عن حدّ الاعتدال فالبدن مالم تصبه آفة يكون صحيحاً و كذلك القلب مالم يصبه آفة من الريب يكون صحيحاً ، والمراد انّه فى اعتقاد قلوبهم الذى يعتقدونه فى توحيد الله ورسالة رسوله مرض، وزاد يجىء متعدّ ياً كما فى هذه الآية، ولازما كما فى قوله : «فأرسلناه الى مائة الف او يزيدون » فالمرض حقيقة فيما يعرض للبدن، فيخرجه عن الاعتدال و مجاز فى الاعراض النفسانيّة التى يخلّ بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد وحبّ المعاصى من فنون الفسق والكفر المؤدّى الى الهلاك الروحانى، وزوال الحيوة الابديّة وكانت قلوب المنافقين متألّمة تحرقاعلى مافات عنهم من الرياسة ، وحسداً على مايرون من اثبات امر الرسول واستعلاء شأنه يوماً فيوما فزاد الله غمهّم بما زاد فى اعلاء امره فزاد المرض بأن طبع على قلوبهم لعلمه بأنّه لا يؤثّر فيها التذكير والانذار وبازدياد التكاليف الشرعية وتكرير الوحى وتضاعف النصر لانّهم كلّما ازداد التكاليف بنزول الوحى يزدادون كفراً ويشقّ عليهم التكلّم بالشهادة حقيقة، وازدادوا بذلك اضطراباً وامتناعاً، وازدادوا بذلك فى الآخرة عذاباً على عذاب كما قال سبحانه «زدناهم عذاباً فوق العذاب» ولهم فى الآخرة عذاب اليم » يصل ألمه الى القلوب .

«بما كانوا يكذبون» بسبب كذبهم المستمر، او بمقابلة كذبهم الدائم ، وهو قولهم؛ آمنّا ؛ والكذب من قبايح الذنوب، وفواحش العيوب ، لاسيّما الكذب فى الدين ، ورأس كلّ معصية ، به يتكدّر القلوب ، وانّه ابغض الاخلاق ومجانب للايمان ، بمعنى انّ

الايمان في جانب ، والكذب في جانب آخر مقابل له . وفي الحديث : مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ، وبالجملة فقبح الكذب وحسن الصدق ضروريتان مطلقتان. انظر الى الصبح الكاذب طالماقتل القوافل والصبح الصادق ظهر به تباشير الهداية والنور لاهل المراحل ، فلاتكدّر جوهر النفس بترك الفضائل فضلاً عن ارتكاب الرذائل ويكون اول تجريد افعال النفس ان ترفعها عن رتبة الاخسّ التي يستحق بها المقت من الله والعذاب الاليم ثمّ تكميلها بالعلوم الشريفة الاولى فالاولى ، فانّ كسب الفضائل كالصناعات في مراتب الشرف فانّ في الصناعات ما هو اشرف وما هو أدون كصناعة الطب وصناعة الدباغة التي يستصلح بها جلود البهائم، والسيف الصمصام ، غير السيف الكهّام واعلم ان وجود الجوهر الانساني بقدرة فاعله وخالقه تعالى ، فأمّا تجويد جوهره ففوض الي الانسان ليستعمل قوتيه اعني العالمة والعاملة فيما خلقتاله ، فيختار الأشرف فالاشرف في العالمة ، وهو العلم بمعرفة خالقه ، وكذلك العاملة لخدمة مولاه حيث انّه عبد ؛ وما خلقت الجنّ والانس إلّا ليعبدون ؛ ولا يهمل دقيقة ولا ساعة من عمره هاتين القوّتين ، ولما كان هذا الانسان مركّب ومحتاج الى امور يتعيّش بها فلابدّ ان يصرف بعض قواه العاملة لمعاشه بقدر ما يتوقف معاشه عليه والزايد علية تفريط النعمة و تفويت للسعادة الانسانيّة التي خلقه الله لها . واعلم ان الانسان من بين جميع الحيوان انسيّ الطبع لا يكتفى بنفسه في تكميل ذاته ولابدّ له من معاونة قوم كثيري العدد حتى يجرى امره على السداد ، ولهذا قال الحكماء ، انّ الانسان مدنيّ بالطبع ؛ وكلّ انسان بالطبع وبالضرورة يحتاج الى غيره ، ولابدّ ان يعاشر الناس بقدر الضرورة لاحتياجه ولأنّهم يكملون ذاته ويتمّمون انسانيّته ، وهو أيضاً يفعل بهم مثل ذلك ، فاذا كان الأمر كذلك كيف يؤثر الانسان التفرّد والتخلّي بملازمة المغارات والكهوف اوالاسكان في الصوامع او التعيش الصعب في المفاوز ويمنع نفسه عن درك هذه الفضائل ، ولذا قيل كن بين الناس ولاتكن مع الناس ، والنهي بسبب ان الشرور فيهم غالبة على الخير لكن بالانفراد لا تظهر افعاله الخاصّة وصار بمنزلة الجماد ، وليست الفضائل اعداما بل هي اعمال و افعال وهي تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم من ضروب الاجتماعات لانّ العفّة مثلا

اوالحياء او الصبر أوالسخاوةاوالحلم وأمثالهاكيف يتحقق وجودها من دون ان يكون الانسان متعاشراً في أمثاله ؛ وبئس العادة الجهل ، والخُلق حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر وروية ، وهذه الحالة تنقسم الى قسمين ، منها ما يكون طبيعياً من اصل المزاج كالانسان الذي يحركه ادنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب اويجبن من السير شيء اويرتاع من خبر يسمعه اويغتم ويحزن من ايسر شيئ يناله . ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة اولاً فأولا حتى يصير ملكة وخلقا . واختلف الناس فقال بعضهم من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه ، وقال آخرون ليس شيء من الاخلاق طبيعياً للانسان بل تنتقل بالتأديب اما سريعاً او بطيئاً ، وهو المختار لأنا نشاهد خلافه عياناً ولان القول الاول يؤدي الى ابطال قوة العاقلة والى رفض السياسات وترك الناس همجا مهملين، وهذا ظاهر الشناعة ، والرواقيون قالوا ان الناس كلهم يخلقون اخياراً بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون اشراراً بمجالسة اهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع بالتأديب ، واما قوم آخرون قبل الرواقيين قالوا : ان الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لاجل ذلك اشرار بالطبع وانما يصيرون اخياراً بالتأديب إلا ان فيهم من هو في غاية الشر لا يصلحه التأديب ، وفيهم من ليس هو في غاية الشر فيمكن ان ينتقل من الشر الى الخير بالتأديب ، واما جالينوس قال ان الناس من هو خير بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع و فيهم من هو متوسط بين هذين وافسد المذهبين الاولين واثبت مذهبه بأن قال انا نرى من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشر ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء الى الخير ، ومنهم من هو متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار الى الخير وقد ينتقلون بمصاحبة الاشرار الى الشر .

اقول ان في كلام جالينوس نظراً بأن يكون من الناس شرير بالطبع لانه لو صح هذا لكان التكليف عليهم عبثاً و لغواً ، فانهم يكونون بطبعهم خارجين عن حد تعلق سياسة الله اليهم فان احداً لايروم ان يغير حركة النار التي الى فوق بأن يعودها الحركة الى اسفل ،ولاان يعود الحجر حركة العلو ولورامه ما صح له ، وبهذا البيان ثبت منع

الشرير بالطبع ، وصح التوسط بينهما ،فحينئذالانسان قابل الاخلاق في الخيروالشر ، فليتخلّق بأخلاق الله وسياسته التي بيّنها في الكتاب على السنة انبيائه ، فأبواب هذه السياسة متابعة الكتاب كما انّ ابواب الشرّ مخالفة الكتاب والسنة ، و بالمتابعة يظهر جوهر الانسان واسم الانسان وان كان يطلق على الطرفين من هذا الباب لكن البون بينهما كبون الاضداد . قال رسول الله ﷺ ليس شيىء خيراً من الف مثله إلّا الانسان، وقال ﷺ الناس كابل مأة لا تجد فيها راحلة واحدة ولم أر امثال الرجال تفاوتاً الى المجد حتى عدّ ألف بواحد . قال ﷺ وزنت بامّتى فرجحت بهم ولذا قال سبحانه (انّ ابراهيم امّة) معانّه سلام الله عليه واحد فكن الفاً ولا تكن واحدا .

«واذاقيل لهم لاتفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون». اى واذا قال المسلمون لهؤلاء المنافقين هذا القول وهو قولهم لا تفسدوا في الارض . والفساد خروج الشيء عن الصلاح ، والفساد في الارض تهيّج الحروب والفتن المتتبّعة لزوال الاستقامة في احوال العباد واختلال النظام والمعاش والمعاد والمراد ما نهوا عنه من افشاء امر المسلمين واسرارهم الى الكفّار .

«قالوا انما نحن مصلحون» . جواب لاذا ورد للناصح ان شأننا الاصلاح وحالنا متمحّضة عن شوائب الفساد ، الا تنبيه اى اعلموا ايّها المؤمنون

«انهم هم المفسدون». أثبت سبحانه لهم ما نفوه ونفى عنهم ماأثبتوه اى هم مقصورون على الفساد لأنفسهم بالكفر وللناس بالتعويق عن الايمان

« ولكن لايشعرون »ولا يحسّون فيدركون الصلاح عن الفساد فيفسدون صلاح آخرتهم باصلاح دنياهم ، ولا شعور لهم .

«واذا قيل لهم» من طرف المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف

آمنوا حذف المؤمن به لظهوره اى **«آمنوا بالله و باليوم الاخر كما امن الناس»** إيماناً مماثلاً لا يمانهم ، واللام في النّاس للجنس والمراد به الكاملون في الانسانيّة ، العاملون بعطيّة العقل اوللعهد، والمراد به الرسول و من معه .

«قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء» الهمزة للانكار، وانّما نسبوهم الى السفاهة مع انهم في الغاية من الرشد والرزانة والعقل لكمال انهماكهم في الغواية، فمن حسب الضلال هدى فسمّى الهدى لا محالة ضلالا، وكان حينئذ كثير من المؤمنين فقراء صعاليك، ومنهم موالي كصهيب وبلال وامثالهم. فان قيل كيف يصحّ النفاق مع المجاهرة بقولهم، أنؤمن كما آمن السفهاء؛ فالجواب انّ المنافقين كانوا يتكلّمون بهذا الكلام في أنفسهم سرّاً، دون ان ينطقوا به جهراً، لكن هتك الله استارهم، واظهر اسرارهم، وكانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فردّ الله عليهم هذا القول بقوله:

«ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون» والآية تنبيه، وردّ، ومبالغة في تسفيههم وتجهيلهم، فانّ الجاهل بجهله، الجازم على ماهو الواقع اعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف، فانّه ربّما ينفعه الآيات والنذر، وقوله لا يعلمون، بيان على أن ذلك الجهل لازم لهم، لعدم علمهم بجهلهم، وذلك لعدم تعقلهم بما ينفعهم وما يضرّهم، فان العلم تابع للعقل، وبئس العادة والخلق الجهل. روى انّه لما خلق آدم أتى اليه جبرئيل بثلاث تحف: العلم والحياء والعقل، فقال يا آدم اختر من هذه الثلاث ما تريد فاختار العقل فأشار جبرئيل الى العلم والحياء بالرجوع الى مقرّهما فقالا انّا كنّا في عالم الأرواح مجتمعين فلا نرضى ان يفترق بعضنا عن بعض في الاشباح ايضاً فنتبع العقل حيث كان فقال جبرئيل عليه السلام استقرّا فاستقر العقل في الدماغ والعلم في القلب والحياء في العين فليسارع العاقل الى تحصيل العلم و المعرفة، وللعقل نجوم وهي للشيطان رجوم وللعلوم اقمار وللقلوب انوار واستبصار، وللمعارف شموس ولها في قلوب المتقين طلوع، وللعاملين بالتقوى مشارق ليس لها مغارب، فالعلم بلا عمل يتيم، والعمل بلا علم سقيم، وهما معاً صراط مستقيم. في الكافي عن السجاد عليه السلام قال: انّ المنافق ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، واذا قام الى الصلوة اعترض، قلت يابن رسول الله وما الاعتراض قال الالتفات واذا ركع ربض يمسي وهمّه العشاء وهو مفطر ويصبح وهمّه النوم ولم يسهر، ان حدّثك كذبك وان ائتمنت خانك وان غبت اغتابك وان وعدك اخلفك

«واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انّا معكم انّما نحن مستهزؤن» روى انّ عبد الله بن اُبي واصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم

نفر من الصحابة فقال ابن أبي انظروا كيف ارد هذه السفهاء عنكم فلمّا دنوا منهم اخذ عبدالله بيد على بن ابيطالب فقال مرحباً بابن عم رسول الله وختنه وسيّد بنى هاشم ماخلا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال على عليه السلام يا عبد الله اتق الله ولا تنافق فان المنافقين شرّ خلق الله فقال له عبد الله مهلاً يا ابا الحسن انّى تقول هذا والله انّ ايماننا كايمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثمّ افترقوا فقال ابن ابى لأصحابه كيف رأيتمونى فعلت فاذا رأيتموهم فافعلوا ما فعلت فاثنوا عليه خيراً وقالوا ما نزال بخير مادمت فينا فنزلت الآية

المعنى ساق القصة في تمهيد نفاقهم وبيان مذهبهم ومعاملتهم مع المؤمنين بأن يظهرون معهم الايمان واذا اجتمعوا في الخلوة ، والى في الآية بمعنى الباء اومع مثل خلوت بفلان واليه اذا انفردت معه والمراد من شياطينهم المشاركون في النفاق والتمرّد وكل عات متمرّد فهو شيطان وقيل المراد من شياطينهم كهنتهم في بنى قريضة كعب ابن الاشرف وفي جهينة عبد الدار وفي بني اسد عوف ابن عامر وفي الشام عبد الله بن سوداء وكانت العرب تزعم فيهم انهم مطلعون على الغيب ويداوون المرضى ويعرفون الاسرار وليس من كاهن الّا وعند العرب انّ معه شيطاناً

« **قالوا انّا معكم** » موافقوكم على اعتقادكم ودينكم ولا يفارقكم في حال من الاحوال وكأنّه قيل لهم عند قولهم انّا معكم فما بالكم يوافقون المؤمنين بكلمة الشهادة والحضور في جماعاتهم ومساجدهم فقالوا انّما نحن في اظهار الايمان عندهم مستهزؤن بهم وانّما نكون معهم ظاهراً لنشاركهم في غنائمهم و تنكح بناتهم و نحفظ اموالنا و نسائنا من ايديهم فرد الله عليهم بقوله :

« **الله يستهزىء بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون** » : اى يجازيهم على استهزائهم ويرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزىء بهم او يعاملهم معاملة المستهزىء بهم في الآخرة كما اشرنا اليه سابقاً يروى انّه يفتح لهم باب الى الجنة وهم في جهنم فيسرعون نحوه فاذا وصلوا اليه سدّ عليهم وردّوا الى جهنم والمؤمنون على الآرائك في الجنه ينظرون اليهم فيضحكون منهم كما ضحكوا من المؤمنين في الدنيا فذلك بمقابلة هذا ، ويفعل بهم ذلك مرّة بعد مرّة ، و يمدهم اى يزيدهم من

مدّ الجيش وامدّه اذازاده، والمدّ الجذب، لانّه سبب الزيادة في الطول، والمادة، كلشيء يكون مدداً لغيره وقيل كلشيء حدثت زيادته في نفسه فهو مدد بغير الف وكل زيادة احدثت في الشيء من غيره فهوامده ويمدّهم في طغيانهم قيل معناه يملي لهم ليؤمنوا وهم معذلك متمسكون بطغيانهم وعمههم والعمه في البصيرة كالعمى في البصر وهوالتحيّر وقيل المعنى يدعهم ويتر كهم من فوائده ومنحه التي يكرم المؤمنين ثواباً لهم ويمنعها الكافرين عقاباً كشرح الصدر وتنوير القلب فهم في ضلالهم يتحيّرون وذلك بسبب انهم اعرضوا عن الحق

« اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فماربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »

اُولئك المنافقون الموصوفون الذين اشتروا الضلالة وهي الكفر والنفاق بالهدى وهو الايمان وقبول القرآن واستبدلوها به **فماربحت تجارتهم** فاسناد التجارة الى مثل هذا الامر على الاتساع ولمشابهتها ايّاه من حيث انّها سبب الربح والخسارة والتاجر الرابح من اتفق له في الصبا ان يربى على ادب الشريعة واخذ بوظايفها حتى تعودها فقد بلغ مراتب الانسانيّة فليكثر حمد الله على هذه الموهبة العظيمة ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوه وابتلى بمعاشرة اهل الخلاعة والمجون ورواية الشعر الفاحش ونيل اللذّات مثل اشعار امرىء القيس والنابغة ومال طبعه الى التغزّل والتعشّق فقد ادركه الشقاء والخسران فما ربحت تجارته ومهما تنبّه وهيهات فليجتهد على التدريج الى نظام نفسه منها ممّا لا يدرك كلّه لا يترك بعضه فإن فاته الربح فلا يفوته رأس المال و ادخل السّفينة قبل ان تغرق .

«وما كانوا مهتدين » الى طريق التجارة لأنّه قد فات منهم الربح و رأس المال لأنّهم اكتسبوا من طول العمر خذلاناً ومن كثرة الأموال والاولاد حرماناً قال الله سبحانه لحبيبه ليلة المعراج انّ من نعمتي على امّتك انّي قصّرت أعمارهم كيلا تكثر ذنوبهم واقللت اموالهم كيلا يشتدّ في القيمة حسابهم واخرت زمانهم كيلا يطول في القبور حبسهم قال بعض علماء الاخلاق ينبغي للسالك ان يتحفّظ رأس ماله ثم يطلب الربح حتى اذا فاته الربح في صفقة فربما يتداركه في صفقة اخرى لبقاء الأصل **حكى** انّه كان للشيخ أبي علي الدقاق مريد تاجر متمول فمرض يوما فعاده الشيخ وسأل منه سبب علّته فقال

التاجر اشتغلت نهاري في التجارة حتى تعبت فقمت هذه الليلة لمصلحة التهجد فلمّا اردت الوضوء بده اى من ظهرى حرارة فاشتد امرى حتّى صرت محموما فقال الشيخ لا تفعل فعلا فضولياً ولاينفعك التهجد ما دمت لم تهجر دنياك وتخرج محبتها من قلبك وتحرص عليها فاللايق لك اولا هو ذاك ثم الاشتغال بوظائف النوافل فمن كان به اذى من صداع لا يسكن ألمه بالطلاء على الرجل ومن تنجست يده لا يجد الطهارة بغسل ذيله وكمّه ومن علامة اتّباع الهوى المسارعة الى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات ترى الواحد منهم يقوم بالأوراد الكثيرة و النّوافل الثقيلة ولا يقوم بفرض واحد على وجهه .

وفي قوله تعالى **وما كانوا مهتدين** صنعة الايغال فانّ الايغال في اصطلاح البديعين ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها فانّ في قوله اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم تم المعني وافاد بقوله وما كانوا مهتدين مبالغة في ضلالتهم لأنّ المطلوب في تجارتهم سلامة رأس المال وحصول الربح وربما تضيع الطلبتان ويبقى لهم معرفة التصرف في طريق التجارة فبيّن هذه النكتة انّهم ضلّوا الطريق ، وليس لهم طريق ومعرفة في التجارة بعده أبدا ، فتاجروا مع الله ، بالاعمال الصالحة ، والصدقات، واطلب التجافي عن دار الغرور ، واقرع باب الاستغفار والاعتذار، ودع المباهات والافتخار ولا يغرّك عزّك في دنياك ، واقبال ايّامك ، فانّ الاقبال مقلوب لابقاء ، فبموتك يذهب الذهب ، والغناء عناء ، والدرهم همّ ، والدينار نار ، بل لا تضيع عمرك في تحصيل العلوم الفضول ، فاقنع من العلوم بقدر حاجتك للعمل ، فان النحو محو ، والنجوم رجوم والرياضي رياضة ، والفلسفة فل سفه ، والعلم النافع ، علم القرآن والحديث ، وهما اصول الشريعة وقانون الطريقة ، كل العلوم سوى القرآن مشغلة غير الحديث ، وإلّا الفقه في الدين ، العلم ماكان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين .

«مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما اضائت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون » : اى مثل هؤلاء المنافقين لمّا اظهروا الايمان وابطنوا الكفر كمثل الذي اوقد ناراً ، واصل المثل بمعنى النظير ، ثم قيل للقول الناشر

واستعير لكل حال أوقصّة أوصفة لها شأن عجيب و غرابة ، كقوله ، ولله المثل الاعلى اى الوصف الذي له شأن من العظمة والجلال ، والتمثل الطف ذريعة الى تفهيم الجاهل ويجعل المعقول محسوساً ، والخفي جليّاً ، ولذا اكثرالله فى كتبه الأمثال ، وفي الانجيل سورة تسمّى سورة الامثال ، قيل وفي القرآن قريب من ألف آية من الامثال والعبر ، اعلم ان التمثيل الطف ذريعة الى تفهيم الجاهل الغبى ، وقمع سورة الجامح الابى كيف لا ، وهورفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وابرازلها فى معرض المحسوسات وكان من عادة الانبياء والرسل ، بيان الحكم فى بعض المقامات بالامثال ، وتصوير الحقايق الغامضة العقلية ، بكسوة الامثلة الحسيّة ، وذلك لانّ اكثر الناس يغلب عليهم الجهة الحسيّة ؛ قال ابراهيم النظام ، فى المثل ، اربع خصال ، لايجتمع فى غيره من الكلام ، ايجاز اللفظ ، وأصابة المعنى ، وحسن التنبيه ، وجودة الكناية ، ثمّ اعلم ، انّ الامثال ، تتفاوت فى الدرجات ، نازلة مثلا مابعوضة فمافوقها ، وصاعدة حتى ينتهى الى آل محمد صلوات الله عليهم ، كما فى فقرة الزيارة الجامعة ، والمثل الاعلى ، وليس فوقهم مثل ، وقدضرب الله الامثال ، فى السور ، لهذه الحكمة ، فى البقرة ، وآل عمران ، والانعام ، والاعراف ويونس ، وهود ، والرعد ، وابراهيم ، والنحل ، وبنى اسرائيل ، والكهف ، والحجّ ، والنور ، والفرقان ، والعنكبوت ، والروم ، ويس ، والزمر ، وزخرف ، ومحمد ، والفتح ، والحديد ، والحشر ، والجمعة ، والتحريم ، والمدّثر ، وغيرها ، والتشبيه باعتبار المشبّه والمشبّه به ، على اربعة اقسام .

الاول يقال له التشبيه الملفوف ، وهوان يؤتى على طريق العطف بالمشبهات اولا ، ثم تمّ بالمشبه بها ، يقول امرء القيس ،

كان قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

والثانى يقال له التشبيه المفروق ، وهوان يؤتى بمشبّه ، ومشبّه به ثمّ آخر وآخر ، كقول المرقش ، يصف النساء :

النشر مسك والوجوه دنا نير و اطراف الاكف عنم

الثالث التسوية ، وهو ان يتعدد المشبه دون المشبّه به ، كقول الشاعر :

صدغ الحبيب وحالى كلاهما كالليالى　　و ثغره فى صفاء وادمعى كاللئالى

والرابع المجمع ، وهو ان يتعدّد المشبّه بدون المشبّه به ، كقول البحترى .

كأنّما يبسم عن لؤلؤ　　منضّد او برد او اقاح

وقد مثّل الله حال المنافقين ، فى سورة البقرة ، كمثل الذى استوقد ناراً فلمّا اضائت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون : ثم أنه لزيادة التوضيح مثّل مثالاً آخر : فقال او كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق : فقوله او كصيب او هيهنا للاباحة ، نحو جالس الفقهاء اوالمحدثين ، يعنى كلا الفريقين اهل ان تجالس ، كصيّب ، اى كاصحاب مطر منزل من السماء ، وتنكر الصيّب اريد به نوع تهويل شديد ، كالنار فى التمثيل الاول ، فالمعنى مثل هؤلاء المنافقين ، فى جهلهم كاصحاب مطر منزل عليهم من السحاب ، في هذا المطر ظلمات ، لانّ السحاب يغشى الشمس بالنهار ، والنجوم بالليل ، فيظلم الجو ، ورعد وبرق ، فحاصل المعنى ، انّ الله شبّه حالهم ، في حيرتهم ، بحال من اخذته السماء ، فى ليلة مظلمة ، مع هذه الأحوال ، من الرعد والبرق وخوف من الصواعق ، فكلّما دعوا الى خير وغنيمة ، اسرعوا لطلب النفع ، كما انّ اولئك كلّما اضاءلهم البرق مشوابضوء البرق لكن اذاوردت شدّة على المسلمين ، مثل يوم احد وقفوا وتحيّروا لكفرهم ، كما وقف اولئك فى الظلمات متحيّرين ، تأمّل فى هذا التمثيل ، كيف جمع بياناً شافياً واضحاً مفيداً ، يتعقله كل جاهل ، ويفهم منه معان كثيرة ، دون اطناب ، مع وضوح المقصود المعتنى به ، وهذا التشبيه ، من القسم الثالث ، من الاقسام الاربعة ، لانّ القسم الثالث ، هو ان يتعدد المشبه ، دون المشبه به انتهى . وقد يحذف آلة التشبيه ، لانّه يستنبط التشبيه ، من الكلام ، مثاله فى القرآن ، قوله تعالى: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً : فانّه مثل الاغتياب باكل الانسان ، لحم انسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك ، حتى جعله لحم الأخ ، ثم لم يقتصر عليه حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ما هو في غاية الكراهة ، ففيه اربع دلالات ، وفيه لطف آخر فانّه تعالى جعل المغتاب بمعنى المفعول ، بمنزلة الميت ، لانه كما لايقدر الميت ، الدفاع من السّوء عن نفسه ، كذلك حال الغائب الذى اغتيب ، لايعلم حتى يدفع عن نفسه ذكر السوء .

«**استوقد ناراً**» : الاستيقاد طلب سطوع النار ، وارتفاع لهبها ، والمعنى اوقد في فازة في ليلة ظلماء ، «**فلما أضائت**» : الاضائة فرط الانارة ، **ماحوله**: أى حول المستوقد من الاماكن والاشياء ، واصل الحول ، الدوران ، ومنه الحول للعام ، لانّه يدور ، وجواب لمّا **ذهب الله بنورهم** اى اذهب واطفأ نارهم التي هى مدار نورهم وضوئهم «**وتركهم في ظلمات لايبصرون**» : بحيث لا يبقى من النور عين ولا اثر اى صيّرهم في ظلمات لا يبصرون ماحولهم فانّ المنافقين اظهروا كلمة الايمان غدراً و مكراً ، فاستناروا بنورها ، واستعزوا بعزّها ، فناكحوا المسلمين ، ووارثوهم ، وقاسموهم الغنائم ، وامنوا على اموالهم واولادهم ، فاذا بلغوا آخر العمر ، كلّ لسانهم عنها وحرموا من فائدتها ، وبقوا في ظلمة النفاق و الكفر وسخط الله ، وعادوا الى الخوف و الظلمة

«**صم بكم عمى فهم لايرجعون**» : اى هم صم عن الحق لايسمعونه ، كأنه انسدت خروق مسامعهم ، بكم ، خرس ، لايقولونه ، كأنّهم لا يتمكّنون ان ينطقوا به ، مثل من به آفة في لسانه ، «**عمى**» فاقدوا الابصار عن النظر ، وهم في الآخرة يعاقبون بجنسها ؛ قال الله و نحشرهم يوم القيمة على وجوههم عميا و بكما وصما «لا يسمعون سلام الله ، ولا يخاطبون الله ، ولا يرون آثار رحمته ، والمؤمنون يكرمون يومئذ بخطابه ، ولقاء كرامته ، وسلامه ؛ «**فهم لايرجعون**» بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة ، لايعودون عن الضلالة الى الهدى والفطرة السليمة التي فطر النّاس عليها ،

« **اوكصيب من السماء فيه ظلمات و رعد و برق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت و الله محيط بالكافرين** » : مثّل الله مثالاً آخر ، عن حال المنافقين ، اى حالهم كحال أصحاب مطر يصوّب و يقع ، و صيّب اصله صيوب ، على وزن فيعل ، فاجتمعت الواو و الياء ، والاولى ساكنة ، فقلبت ياءا ، وادغمت ، مثل سيّد و جيّد ، و أو في الآية للتخيير والتساوى ، اى كيفيّة قصة المنافقين ، شبيهة بهاتين القصتين ، فان مثلت بأحدهما ، او بهما جميعاً ، فانت مصيب ، وأو ، يكون بمعنى الواو اوجه ، مثل قوله تعالى : «ان تأكلوا من بيوتكم او بيوت آبائكم» قال الشاعر :

وقد زعمت ليلى بأنّي فاجر لنفسي تقاها او عليها فجورها

«**من السماء**» : يتعلّق بصيّب ، والصيّب ليس بعاقل ، ولا يعطف غير العاقل على العاقل ، فالمراد اصحاب الصيّب المنزل من السماء ، قال الامام الرازي : من الناس مَن قال : المطر انما يتحصل من ارتفاع ابخرة رطبة من الارض ، ومن البحار الى الهواء ، فينعقد هناك من شدة البرد ، ثم ينزل مرة اخرى ، وأبطل الله ذلك المذهب ، بأنّ ذلك الصيب نازل من السماء ، ومادته منها ، وعن ابن عباس ان تحت العرش بحراً ، ينزل منه ارزاق الحيوانات ، يوحى اليه ، فيمطر ما شاء من سماء الى سماء ، حتى ينزل الى سماء الدنيا ، ويوحى الى السحاب ، انغربله ، فيغربله ، فليس من قطرة يقطر إلّا ومعها ملك ، يضعها موضعها ، ولا ينزل من السماء قطرة ، إلّا بكيل معلوم ، إلّا ماكان من يوم الطوفان ، فانه مانزل بكيل ؛ «**فيه ظلمات**» : اى فى الصيب ، أو فى السحاب ، فأيّهما اريد ، فظلمة المطر تكاثفه ، وانسجامه بتتابع القطر ، وظلمة لازمة ، وهوالغمام ، و كذلك ظلمة السحاب ، تطبيقه ، وانسجامه ، وتراكمه ، وظلمة الليل ، ولما كان التعلّق بين السحاب ، والمطر شديداً ، جاز اجراء احدهما مجرى الآخر ، في بعض الاحكام ،

«**ورعد وبرق**» : الرّعد هو صوت قاصف يسمع من السحاب ، والبرق هو ما يلمع من السحاب ، و المشهور بين الحكماء ، انّ الرعد يحدث من اصطكاك اجرام السحاب بعضها ببعض ، او من اقلاع بعضها عن بعض ، عند اضطرابها ، بسوق الرياح ايّاها سوقاً عنيفاً ، ولا يعتمد على مثل هذه الكلمات ، سواء صدرت من حكيم أو غيره ، ما لم يوافق الروايات المأثورة عن الأئمة عليهم السّلام ، بل اذا خالف قول الحكيم ، بما نطق به الأئمة المعصومون، فذلك ليس بحكمة ، والقائل ليس بحكيم ، بل هو حجّام

قال المورج : الحكمة مأخوذة من حكمة اللجام ، لأنّها تضبط الدابة ، ولمّا كانت الحكمة تمنع السفه ، فلذا سميت حكمة ، فلوقيل انّ الحكيم ، يأوّل الحديث ، ولا ينكره ، فالجواب ، ان الضرورة باعثة على التأويل في امور لايجوزان يحمل على ظاهر حكمها ، لان في كلّ محكم ورد في لسان الشرع ، فارادوا ان يوافقوا معنى ارادوا فأوّلوه فمثل هذه التأويلات ، آخر باب التعطيل ، وفتح اول باب الالحاد ، و حكمة المحمدية ،

اغنتنا عن كلّ حكمة، وانفع الحكم ما امرنا به، وهو الزهد في الدنيا، حتى يكون سلامة لنا في اخرتنا، قال عبدالمؤمن الأصبهانى، في رسالته الموسومة باطباق الذهب و هى مائة مقاله، عارض بها اطراق الذهب للزمخشرى و قد صنع في تمام مقالات المأة، صنعة الاقتباس، قال في المقالة السابعة، طوبى للتقى الحامل الذى سلم من اشارات الانامل وتبّا لمن قعد في الصوامع ليعرف بالاصابع، والكامل، كامن متضأيل، والناقص، قصير يتطاول، والعاقل قبعة، والجاهل طلعة، والوجاهة فتنة، والاشتهار محنة، اجعل كنزك في التراب، وسيفك في القراب، ولو علم الجزل، صولة النجار، وعضة المنشار، لماتطاول شبرا، ولا تخايل كبرا، وسيقول البلبل العيقل، يا ليتنى كنت غرابا، ويقول الكافر، يا ليتنى كنت ترابا،

قال الله، ليس لك من الامر، وانّ الامر كلّه لله، فلا تختر ما نهاك الله، وامتثل ما امرك الله ولاتعتذر بالضرورة، و بالجملة فالصحيح، الذى يعول عليه انّ الرعد صوت ملك السحاب، يزجرها، وهو يسبّح، قال الطبرسى، روى ذلك عن ابن عباس، ومجاهد وهو المروىّ عن ائمتنا عليهم الصلوة و السلام وروى الترمذى، عن ابن عباس فى روح البيان، قال اقبلت يهود، الى رسول الله ﷺ، فقالوا اخبرنا عن الرعد، ماهو، قال ﷺ ملك من الملئكة، موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، تسوقه بها حيث شاء الله فقالوا ما هذا الصوت الذى يسمع، قال زجره حتى ينتهى الى حيث امر، فقالوا صدقت فعلى هذا المراد بالرعد، صوت ذلك الملك، لا عينه، وانّه يخور في نقرة ابهام الملك الماء وانّه يسبّح الله، لا يبقى ملك في السماء، الاّ رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل القطر؛ وفي الحديث انّ الرعد، صوت ملك، اكبر من الذباب، واصغر من الزنبور؛ و«برق»: قيل انه مخاريق الملائكة من حديد، يضرب بها السحاب، فينقدح منه النار، عن على سلام الله عليه؛ وقيل انّه سوط من نور، يزجر به الملك السحاب، واما في مناسبة المثل، قيل وجوه: احدها انّه شبّه المطر المنزل من السماء بالقرآن، وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، والوعيد بزواجر القرآن، ومن البرق، والصواعق، ببيانه، ووعيده والأقرب في بيان التشبيه، ما روى عن ابن مسعود، وجماعة من الصحابة، ان رجلين،

منافقين، من اهل المدينة، هر بامن رسول الله ﷺ فاصابهما المطر الذى ذكر الله فى الاية، ورعد وبرق وصواعق، فكلما اضاء لهما الصواعق، جعلا اصابعهما في اذانهما، مخافة ان تدخل الصواعق، في اذانهما، فتقتلهما، واذا لمع البرق، مشيا في لمعه، واذا لم يلمع لم يبصرا، فندما، وجعلا، يقولان يا ليتنا قد اصبحنا، فنأتي محمدا، فنضع ايدينا، في يده فاصبحا، فاتياه، واسلما، وحسن اسلامهما، فضرب الله شأن هذين الرجلين مثلا لمنافقى المدينة، فان منافقى المدينة، كانوا اذا حضروا النبى ﷺ جعلوا اصابعهم في اذانهم، فرقا من كلام النبيّ ان ينزل فيهم شيء، كما كان ذلك الرجلان، يجعلان اصابعهما في اذانهما؛ من الصواعق: جمع صاعقة، وهي الوقع من السحاب، تسقط معه نار محترق، لكنّها مع حدّتها سريعة الخمود، قالوا بين السماء وبين الكلة الرقيقة، التي لايرى اديم السماء، الاّ من ورائها نار منها تكون الصواعق، تخرج النار، فتفتق الكلة وتكون الصوت منها؛ اوجرم، ثقيل، مذاب، مفرغ من الاجزاء اللطيفة الارضيّة الصاعدة، المسمّاة دخانا، والمائية المسمّاة بخارا حارّ حاد، في غاية الحدّة و الحرارة، لاتقع على شيء الاّ ثقب واحرق، و نفذ في الارض حتّى بلغ الماء، فانطفأ ووقف؛ قال إبن عباس، من سمع صوت الرعد فقال، سبحان الذى يسبّح الرعد بحمده و الملائكة من خيفته وهو على كلشيء قدير، فان أصابته صاعقة فعلّي ديته، و كان النبى ﷺ إذا سمع الرعد، وصواعقه، يقول، اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك.

«حذر الموت» منصوب بيجعلون على العلة اى خوفا من الموت.

«والله محيط بالكافرين» الاحاطة الاحداق بالشيء من جميع جهاته و هومجاز في حقه تعالى اى محدق بعلمه وقدرته لا يفوتونه فيحشرهم يوم القيمة ويعذبهم والحيل لاترد باس الله ووضع الظاهر موضع الضمير للايذان بانّ ماد هممهم من الامور الهايلة بسبب كفرهم والتصريح بكفرهم.

«يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم و ابصارهم ان الله على كل شيء قدير»

ألكلام وقع جوابا عن سؤال مقدّر كانّه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق فقيل يكاد

ذلك البرق يختلس ويستلب أبصارهم بسرعة ، من شدّة ضوئه ، وكاد من أفعال المقاربة ولا يتم بالفاعل ، ويحتاج الى خبره ، وخبره الفعل المضارع ، ويخطف ابصارهم في موضع النصب ، وخبر كاد ؛ و كلّما : أصله كلّ ، وضمّ إليه ما الجزاء ، وهو منصوب بالظرف ، والعامل فيه أضاء : فالمعنى متى ما أضاء البرق لهم ؛ مشوا فيه : أي في ذلك المسلك وفي مطرح نور البرق ، خطوات يسيره .

«وإذا اظلم عليهم» : وخفي البرق ، واستتر صار الطريق مظلما ، ووقفوا في اماكنهم متحيرين .

«ولوشاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم» : اى ولو اراد الله ان يذهب الاسماع التى في الرأس ، والأبصار لذهب بها بصوت الرعد و نور البرق عقوبة لهم لانّه لا يعجز عن ذلك و ذلك مثل قول الشاعر ☆ فلوشئت ان ابكـى دماً لبكيته ☆ عليه ولكن ساحة الصبر اوسع .

«ان الله على كلشى قدير» فاعل له بقدرته وحاصل المعنى إن الله شبه حال المنافقين في حيرتهم وضلالتهم بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد وبرق و خوف من الصواعق والموت فكلّما دعوا الى خير وغنيمة اسرعوا لطلب الخير والنفع كما إنّ اولئك كلمّا اضاء لهم البرق مشوا فيه لاهتدائهم الطريق بضوء البرق فكذلك حال المنافقين لكن اذا وردت شدّة على المسلمين مثل يوم احد تحيّروا ووقفوا لكفرهم كما وقف اولئك في الظلمات متحيرين و قيل المراد انّهم إذا آمنوا صار الايمان لهم نورا و مشوا باهتداء نور الايمان فاذا ماتوا عادوا الى ظلمة العقاب لان ايمانهم ليس عن حقيقة .

«يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون»

ياء حرف نداء واىّ اسم مبهم يقع على اجناس كثيرة ولايتم الا بان يوصف وصفته تكون باسم الجنس مثل الناس واىّ منادي مفرد معرفة لانّه وقع موقع حرف الخطاب وهو الكاف وانما بنى على الحركة مع انّ الاصل في البناء السكون لانه ليس بغريق في البناء و البناء عارض فيه وحرك بالضمّ لانّه كان في اصله ايٌ بالتنوين فلما سقط التنوين اشبه

قبل وبعد الذى قطع عنه الغاية والناس مرفوع لانه صفة لایّ فتبعه على حركة لفظه و لا يجوزهيهنا النصب وان كانت الاسماء المنادات المعرفة يجوز في صفاتها النصب والرفع لان هنا الصفة هو المنادى في الحقيقة واى وصلة اليه ويدل على ذلك لزومها هاء التنبيه و بالجملة الناس يصلح اسماللمؤمنين والكافرين والمنافقين والنداء تنبيه الغافلين وتعريف الجاهلين وتهييج المطيعين اعبدوا ربكم يقول للكفار وحدّوا ربكم و للعاصين اطيعوا ربّكم ، وللمنافقين اخلصوا معرفة ربكم ، و للمطيعين اثبتوا على طاعة ربّكم واللفظ قابل لهذه الوجوه كلها وهو من جوامع الكلم والعبادة استفراغ الطاقة في استكمال الطاعة .

«**الذى خلقكم**» صفة تدل على التعظيم والتعليل و الخالق إختراع الشيىء على غير مثال سبق وخلق الذين من قبلكم من الامم المتقدمة قبل زمانكم وانّ خلق اصولهم من موجبات العبادة كخلق انفسهم «**لعلكم تتقون**» اى لعلكم تتّقون الحرمات بينكم ؛ وتكفون عما حرّم الله ؛ وهذا كقول القائل : اقبل لعلّك ترشد ؛ و إنّه ليس من ذلك على شك وإنّما يريدان يقبل فيرشد . قالوا فائدة ايراد لفظة لعلّ هي: ان لايحل العبد ابدا محل الاّ من المدّل بعمله ، بل يزداد حالا فحالا حرصا على العمل و حذرا من تركه .

والحاصل انّ لعلّ للترجي والاطماع ؛ وهي من الله واجب لانّه تعالى لا يطمع الاّ فيما يفعل واستعمال لعلّ مشعر: بان العامل لاينبغى ان يغترّ بعبادته وعمله ، بل يكون ذاخوف ورجاء فعليك في مراقبة الواردات من خزانة الخيال

عن كتاب اسعاف الراغبين انّ الشيخ محمّدا باالمواهب الشاذلى رأى النبي ﷺ فقال النبي له اذاكان لك حاجة فانذر للطاهرة الخنسية ولو بدرهم يقضي الله حاجتك و هى بنت الحسن ابن زيدبن المجتبي ﷺ زوجة الاسحق المؤتمن ابى جعفر الصادق ﷺ توفت بمصر ودفن بها وكانت حفرت قبرها بيدها تنزل فيه وتصلّى و قرئت فيه ستة الاف ختمه توفت سنة ثمان و ماتين احتضرت وهى صائمة فالتزموها لتفطر فقالت واعجباه انّى منذ ثاثين اسئل الله ان القاه و انا صائمة افطر الآن هذا لايكون ثم قرئت سورة الانعام الى

ان وصلت لهم دار السلام عند ربهم و ماتت .

«الذی جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا و انتم تعلمون »

صفة ثانية لربكم ، الارض بساط العالم و بسيطها ، روى عن امير المؤمنين انّه قال انّما سمّيت الارض ارضا لانّها تتأرّض ما في بطنها يعني تا كل ما فيها وقيل لانها تتارض بالحوا فر والاقدام ، قال اهل المساحة : انّ بسيطها من حيث يحيط بها البحر الذی يقال له المحيط اربعة وعشرون الف فرسخ ، كل فرسخ ثلاثة اميال ، يصيراثنا عشر الف ذراع و كلّ ذراع ست وثلاثون اصبعا ، كلّ اصبع ست حبّات شعير مصفوفة بطون بعضها الى بعض ، فللسودان اثناعشر الف فرسخ ، وللبيضان ثمانية، والفرس ثلاثة، وللعرب الف ، كذا نقل صاحب الكتاب الملكوت وسمت وسط الارض المسكونة حضرة الكعبة ، وامّا وسط الارض كلّها عامرها وخرابها فهوالموضع الذی يسمّى قبّة الارض ، و هومكان يعتدل فيه الازمان في الحرّ والبرد ، ويستوی الليل والنهار ابداً ، لايزيد احدهما على الاخر

فراشاً جعلها متوسطة بين الصلابة واللين ، صالحة للتوطن والقعود عليها ، والنوم فيها كالبساط المفروش ، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيّا ، فانها وان سلّمنا كرويّتها لكن مع عظم جرمها قابلة للتسطيح والافتراش ، وجعل

«**السماء**» : وهو ما علاك « **بناء**» : قبّة مضروبة عليكم ، وكلّ سماء مطبقّة على الاخرى ، مثل القبّة ، والسماء الدنيا ملتزمة اطرافها على الارض كذا نقل في بعض التفاسير كما في تفسير ابی الليث .

«**وانزل من السماء ماء** » ای مطراً ينحدر من السماء على السحاب ومنه على الارض ولعلّ حكمة نزوله على السحاب بدواً ثم على الارض لاجل ان يغربله السحاب حتى ينزل على ترتيب التقاطر حسب ما نشاهده .

«**فاخرج به**» ای انبت الله بسبب الماء المنزول.

«**من الثمرات**» : ای الماكولات من الحبوب والفوا كه من الارض والشجر.

«**رزقاً لكم**» و ذلك بانّ اودع في الماء قوّة فاعليّة وفي الارض قوّة منفعلة فتولد

من ثمارها اصنافا ثمار لتعرفوه بالخالقيّة والرازقية فتوحدوه .

«فلا تجعلوا لله اندادآ»: جمع ندوهو المثل اى امثالا تعبدونهم كعبادة الله،قال ابن عباس لاتقولوا لولا فلان لاصابنى كذا ولولا كلبنا يصيح على الباب لسرق متاعنا ، وعن النبى ﷺ قال اياكم ولو ، فانّه من كلام المنافقين ، قالوا لو كانوا عندنا ما ماتوا و ما قتلوا .

«وانتم تعلمون» : انّ الله هو الذى خلقكم وخلق الارزاق لكم لتعبدوه وتعرفوه باستحقاقه الوحدانيّة والتفرد ، والاية تفيد انّ الانسان لابدّ ان يخلص عمله لله فقط ، و يترك ملاحظة الاغيار .

واعلم انّ معرفة النفس من اهمّ الأمور فيكون نعرف ماهى ، واىّ شىء هى ، ولاىّ شيئى اوجدت فينا ، حتى نستعملها فيما ينبغى ، و نمنعها عمّا لا ينبغى ، وماالذى يزكيها فتفلح و ماالذى يدسّيها فتخيب ، كما قال الله قد افلح من زكيها وقد خاب من دسّيها ، وقد اتضح انّ فينا شيئى ليس بجسم ، ولا بجزء من جسم ، ولا عرض ، بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشيئى من الحواس ، وله افعال تضاد افعال الاجسام ، ولا يشاركها في حال من الاحوال ، والدليل على انّه ليس بجسم ولاعرض ، انّ كلّ جسم له صورة ما ، فانّه ليس يقبل صورة اخرى ، الا بعد مفارقة الصورة الاولى ، مثل انّ الجسم اذا كان في صورة وشكل من الاشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا اخر من التربيع و التدوير الا ان يفارقه الشكل الاول وان بقى فيه شيئى من رسم الصورة الاولى ، لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل يخلط به الصورتان ، ولا يخلص له احدهما على التمام ، ونحن نجدا نفسنا تقبل صور الاشيأ كلها على اختلافها من المحسوسات و المعقولات على التمام من غير مفارقة للاولى ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا و تقبل الرسم الثانى ايضاً تاما كاملاثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة دائماً ، وهذه الخاصة مضادة الخواص الاجسام وبهذه العلّة يزداد الانسان فهما كلما تخرج في العلوم والاداب ، فليست النفس جسما .

وامّا انها ليست ، بعرض لأن العرض في نفسه محمول ابدا ، موجود في غيره ، لا قوام له بذاته ، فثبت ان طباع النفس وجوهرها من غير طباع الجسم والبدن ، وانها اكرم

جوهراً من كل ما في هذا العالم ، من الامور الجسمانية ، والنفس وان كانت تأخذ كثيراً من مبادى العلوم عن الحواس ، لكن لها من نفسها مباد اخر ، لاتأخذها عن الحواس ، وهى المبادى العالية التى تبتنى عليها القياسات الصحيحة المقطوعة الصحة ، بل الحواس تخطئ احيانا مثل حركة السفينة والشاطىء ، لكن النفس العاقلة ترد على الحواس هذا الحكم ، وتغلطه في ادراكه ، وتعلم انه ليس كما يراه ، وهذا العلم من ذاتها وجوهرها فهذه فضيلة النفس ، و بهذه الفضيلة يدرك الانسان السعادات ، مالم تتلوث النفس برذائل الشهوات الرديئة الجسمانية ، فحينئذ تنقلب هذه الملكة الملكية الى ملكة الشيطانية ، وخاب من دسيها .

فالعاقل ينبغي ان يقوى قوة ملكيته ، ويضعف قوى بهيميته ، حتى يستدرك من فيض النور المودع فيه ، وهو المعبّر بالنفس الناطقة ، و بالروح القدسي و بالعقل ، لان يستفيد من تلك القوة السعادة الدائمة ، ويبعد عن عالم البهيميّة والشقاوة الابدية ، ولا يحصل هذا الفيض الا اذا كان حريصا في الاطاعة و العبادة ، قنوعا في الدنيا ، ولم يكن حريصا في المال و زخارف الدنيا ، لأن من احب المال والدنيا حبا مفرطا فقد هلك هلاك الابد ، ويكون حاله اسوء من البهيمة ، لان البهيمة اذا ماتت و هلكت استراحت ، و هو اول عذابه ، ومعلوم ان حرصه على المال يصده عن استعمال الرأفة و بذل ما يجب ، ويضطره الى الخيانة و الكذب والاختلاق ومنع الواجب والاستقصاء واستجلاب الحبة والدانق ، وربما يسعى في قتل نفسه ، بسبب معارضة خصمه ، فليستعمل الانسان نفسه فيما خلق له ، ولا يغير جبلّتها فيكون مستعملا الماء لايقاد النار ، والنار لدفع العطش ، قد خسر ودسيها ، وكان عليه ان يقلها ، و معذلك جعل الله لك برحمته الواسعة مندوحة ، وهى باب التوبة والاستغفار ، قال رسول الله ﷺ طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيمة تحت كل ذنب استغفر الله ، قال الصادق عليه السلام اذا اكثر العبد الاستغفار رفعت صحيفته و هي تتلألأ ، وكان رسول الله ﷺ لايقوم من مجلس و ان خف ، حتى يستغفر الله خمسا وعشرين مرة ، وقال سلام الله عليه ان المؤمن ليذكر الله الذنب بعد بضعة وعشرين سنة ، حتى يستغفر الله منه ، فيغفر له ، قال رسول الله ﷺ قول لا اله الا الله والاستغفار خير العبادة كما قال الله سبحانه فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك

لا اقول تنسى طريقة الاستغفار من قول امير المؤمنين ، اولها الندم ، الثاني العزم على ترك العود ،

الثالث اداء حقوق الناس ، الرابع اذابة اللحم الذى نبت من الحرام ، وينبت لحم جديد ، الخامس اداء فرائض المضيعه ، السادس ان تذيق الجسم الم الطاعة ، كما اذقتها حلاوة المعصية، ثم يقول استغفر الله .

وفي توصية رسول الله ﷺ لمعاذ يا معاذ انّي محدّثك بحديث ان أنت حفظته نفعك وان انت ضيّعتة انقطعت حجتّك عند الله يا معاذ انّ الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السّموات والارض فجعل لكلّ سماء من السبعة ملكاً بوّاباً فيصعد عليه الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى له نور كنور الشمس حتّى إذا طلعت به الملائكة إلى السّماء الدنيا زكته و كثرته فيقول الملك الموكّل للحفظة قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربّي ان لا ادع عمل من اغتاب الناس يتجاوزني انه كان يغتاب الناس و كذلك الى السماء الثانية ملك الفخر يردّه وهكذا إلى السّماء الثالثة فيردّه ملك التكبّر و كذلك إلى الرابعة فيردّه ملك العجب و كذلك إلى السماء الخامسة فيردّه ملك الحسد و كذلك الى السماء السادسة فيردّه ملك الرحمة و كذلك الى السماء السابعة بعمله من صلوة وصوم وفقه واجتهاد وورع لها دويّ كدويّ النحل وضوء كضوء الشمس معها ثلاثة آلاف ملك فيقول لهم الملك الموكّل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واقفلوا على قلبه انا احجب عن ربّي كلّ عمل لم يرد به ربّي انّه كان يعمل لغير الله انّه اراد به رفعة عند الناس وذكراً عند العلماء وصيتا في المدائن أمرني ربي ان لا ادع عمله يجاوزني الى غيري و كلّ عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء قال النبي ﷺ و يصعد الحفظة بعمل من زكوة وصوم وصلوة وحج وعمرة وخلق حسن و ذكر لله ويشيعه ملائكة السموات حتى يقطعون الحجب كلّها الى الله عز وجل فيقفون بين يديه ليشهدوا له بالعمل الصالح المخلص لله فيقول الله انتم الحفظة على عمل عبدي وانا الرقيب على قلبه انّه لم يردني بهذا العمل واراد به غيري فعليه لعنتى فيقول الملائكة كلّهم عليه لعنتك و لعنتنا فتلعنه السّموات السبع ومن فيهنّ قال معاذ قلت يا رسول الله كيف لي بالنجاة والخلوص قال اقتد بي وعليك باليقين وان كان في عمالك تقصير وحافظ على لسانك من الوقيعة اى الغيبة في اخوانك من حملة القرآن ولا تزك نفسك عليهم ولا تدخل

عمل الدنيا بعمل الآخرة ولاتمزق الناس فيمزقك كلاب النار يوم القيمة في النار ولا تراء بعملك الناس .

قوله تعالى : «**وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين**» : اى في شك من القرآن الذي نزلناه على محمّد ﷺ في كونه وحيا منزلا من عند الله والتنزيل النزول على سبيل التدريج **فاتوا** جواب الشرط وهو امر تعجيز «**بسورة**» وحدّ السورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر أقلّها ثلاث آيات وانّما سميت سورة لكونها اقوى من الآية مأخوذة من سورة الاسد اى قوته هذا ان كانت واوها اصلية وان كانت منقلبة عن همزة فهى مأخوذة من السؤر الذي بقيّة الشيء فالسورة قطعة مفرزة ما فيه من غيرها .

«**من مثله**» اى مثل القرآن في البيان الغريب والمعنى الجامع النافع وعلو الطبعة في النظم والتركيب اى ائتوا بمثل ما أتى هو ، ان كنتم تزعمون انّه كلام البشر اذ انتم وهو سواء في الجوهر واللسان والخلقة وليس هو اولى منكم بالاختلاق منكم .

تأمّل في ابداع هذه الآية وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين وقد اجمع الفصحاء على أنّ هذه الآية إشتملت على اثنا و عشرين نوعاً من البديع مع انّها سبعة عشر لفظة الأول المناسبة بين ابلعي واقلعى الثّاني الاستعارة الثّالث الطباق بين الأرض والسماء ٤ المجاز ٥ الارداف ٦ التمثيل ٧ التعليل ٨ صحة التقسيم ٩ الاحتراس ١٠ حسن النسق ١١ المساواة ١٢ ائتلاف اللفظ مع المعنى ١٣ الايجاز فانّه امر ونهى واخبر ونادى و اهلك وابقى واسعد واشقى وقصّ من الأنبياء ما لو شرح لاحتاجت الى الظواهر باخصر لفظ وابلغ معنى ١٤ التسهيم ١٥ التهذيب لأنّ مفرداته موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سهلة المخارج سليمة عن التنافر بعيدة عن التباعد وعقادة التركيب ١٦ حسن البيان ١٧ الاعتراض وهو قوله وغيض الماء واستوت على الجودي ١٨ الكناية فانّه لم يصرّح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وأتى على سبيل الكناية لأنّ تلك الأمور العظام لا تأتى إلّا من ذي قدرة لايغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى غيره تعالى

١٩ التعريض ٢٠ التمكين ٢١ الانسجام ٢٢ الابداع **أقول** انّ الفصيح التكلّم يعرف انّ هذه الصنايع في سبعة عشر لفظة في غاية الاعجاز مثلا ألمساواة هي ان اللفظ لايزيد على معناها وهذه غاية لفصاحة لأنّ المعانى الدقيقة يحتاج بألفاظ كثيرة حتى يستخرج ذلك المعنى من تلك الألفاظ المتكثرة فحينئذ إذا كان اللفظ لا يتكثّر وافاد المعنى غاية الفصاحة .

«وادعوا شهدائكم» :جمع شهيد بمعنى الحاضر والناصر **«من دون الله»** متعلّق بادعوا اى ادعوا متجاوزين الله من حضركم كائنا من كان للاستظهار في معارضة القرآن او المراد الحاضرين في مشاهدكم وانديتكم من رؤسائكم وفصحائكم واشرافكم الذين تفزعون اليهم في الملمّات والمهمّات ليعينوكم في الإتيان بمثله وقيل ان الظرف متعلق بشهدائكم والمراد بالشهداء الاصنام ودون بمعنى التجاوز اى ادعوا اصنامكم الذين اتخذتموهم الهة وزعمتم انهم يشهدون لكم يوم القيمة انكم على الحق متجاوزين الله في اتخاذها .

«ان كنتم صادقين» في أنّ محمداً ﷺ يقوله من تلقاء نفسه وجواب ان محذوف اى ما فعلوا كذلك من الاتيان بمثله .

«فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين» فان لم تفعلوا ما امرتم من الاتيان بالمثل بعد ما بذلتم سعيكم **«ولن تفعلوا»** فيما يستقبل ابداً فانّه معجزة النبى ﷺ اعتراض بين الشرط والجواب وقد وقع الامر حيث اخبر بعدم وقوعه ولو عارضوه بشىء يدانيه في الجملة لتناقله الرّواة خلفاً عن سلف .

«فاتقوا النار التى وقودها» : ولمّا لم تؤمنوا به صرتم من اهل النّار فاتّقوها واتركوا العناد احذروا النار التى حطبها وهو مايوقد به النار **«الناس»** : اى العصاة **«والحجارة»** اى حجارة الكبريت وانّما جعل حطبها منها لسرعة التهابها وبطوء خمودها وقبح رائحتها ولصوقها بالبدن او المراد من الحجارة الاصنام التى عبدوها ونحتوها من الحجارة وانما جعل التعذيب بها ليتحقّقوا انّهم عذّبوا بعبادتها وليست نار الجحيم كلّها توقد

بالناس والحجارة بل هى نيران شتّى منها نار بهذه الصفة .

«**اعدت للكافرين**» : وهيئت للذين كفروا بمانزلناه وفيه دلالة على ان النار مخلوقة موجودة الآن خلافاً للمعتزلة وفي الآية اشارة الى ان ثمرة الأخذ بالقرآن والقبول به وبمحمد ﷺ هو النجاة من النار التي وقودها الناس والحجارة .

« **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون**» ألبشارة الخبر السّار الذي يظهر به أثر السرور أى فرّح يا محمد قلوب الذين آمنوا بأنّ القرآن منزل من الله مثل قوله بشر المشائين الى المساجد في ظلم الليالى بالنور التام يوم القيمة .

«**و عملوا الصالحات**» وفعلوا الفعلات الصالحات وهى كل ما كان لله تعالى حسب ما امر به وفي عطف العمل على الايمان دلالة على تغائرهما واشعار بأنّ مدار الاستحقاق مجموع الأمرين فانّ الايمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولاغناء بأساس لا بناء عليه وطلب الجنة بلا عمل حال السفهاء .

« **ان لهم جنات**» بساتين فيها اشجار مثمرة قيل الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه الكرم كذا قال الفراء ، ولفرط التفاف اغصان اشجارها وتسترها سميت جنة كانها ستره والجنان ثمان دار الجلال كلها من نور ، مدائنها وقصورها بيوتها واوانيها وابوابها ودرجها وغرفها واعاليها واسافلها وخيامها و حليها ، ودار القرار كلها من المرجان ، ودار السلام كلها من الياقوت الاحمر ، وجنة عدن من الزبرجد وهى قصبة الجنة وهى مشرفة على الجنان كلها وباب جنة عدن مصراعان من زمرد و ياقوت ما بين المصراعين كما بين المشرق و والمغرب وجنة المأوى من الذهب الاحمر ، وجنة الخلد من الفضة ، وجنة الفردوس من اللؤلؤ كلها وحيطانها لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت ولبنة من زبرجد وملاطها وما يجعل ما بين اللبنتين مكان الطين المسك وقصورها الياقوت وغرفها اللؤلؤ ومصاريعها الذهب وارضها الفضة وحصباؤها المرجان وترابها المسك و نباتها الزعفران والعنبر و جنة النعيم من الزمرد كلها وفي الخبر ان المؤمن اذا دخل الجنة راى سبعين الف حديقه

في كل حديقة سبعون الف شجرة ، على كل شجرة سبعون الف ورقة ، وعلى كل ورقة مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله ، امة مذنبة ، ورب غفور، كل ورقه عرضها من مشرق الشمس الى مغربها ـ

«**تجرى من تحتها الانهار**» :والأنهار جمع نهر بسكون الهاء وفتحها وهو مجرى الواسع و عن مسروق انّ أنهار الجنّة تجرى من غير اخدود وشقّ في الارض وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ماكانت أشجارها مظلّلة والأنهار في خلالها مطرّدة والانهار أربعة الخمر والعسل واللبن والماء فاذا شربوا من نهر الماء يجدون حيوة ثم انهم لايموتون و إذا شربوا من اللبن يحصل في أبدانهم تربية ثم انهم لا ينقصون وإذا شربوا من نهر العسل يجدون شفاء و صحة ثم انهم لايسقمون واذا شربوا من نهر الخمر يجدون طرباً وفرحاً ثم انهم لا يحزنون .

روى انّه كتب عرضاً على ساق العرش بسم الله الرحمن الرحيم فعين الماء تنبع من ميم بسم وعين اللبن تنبع من هاء الله وعين الخمر تنبع من ميم الرحمن وعين العسل تنبع من ميم الرحيم هذا منبع الأنهار وأمّا مصبّها فكلّها تصب في الكوثر وهو حوض النبي وهو في الجنة اليوم وينتقل يوم القيمة الى العرصات لسقي المؤمنين ثم ينتقل إلى الجنّة ويسقى أهل الجنّة أيضاً من عين الكافور وعين الزنجبيل وعين السلسبيل وعين الرحيق ومزاجه من تسنيم بواسطة الملائكة ويسقيهم الله الشراب الطهور بلا واسطة كما قال وسقاهم ربّهم شراباً طهورا .

«**كلّما رزقوا منها**»: اى متى اطعموا من الجنّة «**من ثمرة**» ليس المراد بالثّمرة التفّاحة الواحدة او الرمانة الفذة وانّما المراد نوع من انواع الثمار و من الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية لأنّ الرزق قد ابتدى من الجنّات ومن الجنّات قد ابتدى من ثمرة «**رزقا**» مفعول رزقوا وهو ماينتفع به الحيوان طعاماً .

«**قالوا هذا الذى رزقنا من قبل**» اى هذا مثل الذي رزقنا من قبل هذا في الدنيا ولما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته وانّما جعل ثمر الجنّة كثمر الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه فانّ الطباع مائلة الى المألوف متنفّرة عن غير المعروف كأنهم

قالوا هذا عين ما رزقناه في الدنيا مثلا ان ّهذه الرمّانة مثل الرمّانة التي اكلناها في الدنيا فمن اين لها من اللذّة والطيب هذه اللذة وهذا البيان لفرط استعجابهم واستغرابهم ممّا يجدون من اللذّة مع إتحادهما في الشكل واللون ولا يقدح فيه ما روى عن ابن عباس انّه قال ليس في الجنّة من اطعمة الدنيا إلّا الاسم فانّ ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حسن اللذّة والهيئة لا لبيان ان لا تشابه بينهما اصلا كيف لا واطلاق الاسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعاً وقيل معنى قوله هذا الذي رزقنا من قبل انّ ثمار الجنّة اذا اجتنيت من أشجارها عاد مكانها مثلها فيشتبه عليهم فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل قاله يحيى ابن كثير وابو عبيدة والقول الأول قال ابن عبّاس واختاره الشيخ أبو جعفر الطوسي.

«**واتوا به متشابها**» : على البناء المجهول اى جيئوا بذلك الرزق والمراد جنس الرزق متشابهاً اى متشابه في الجوده خيار لارذل فيه متساوى فى الفصل كقول الشّاعر :

من تلق منهم فقل لاقيت سيّدهم مثل النجوم التى يسرى بها السّاري

وقيل المعنى متشابهاً فى الصورة واللون مختلفا فى الطعم والقول الآخر في الآية ان التشابه في كل ما أُتوا به من حيث الموافقة بالمسكن يوافق الساكن والخادم يوافق المخدوم والمسكن يوافق الفرش وكذلك جميع ما يليق به .

«**ولهم فيها ازواج مطهرة**» قيل انّها حور العين وقيل هن من نساء الدنيا مهذبة من الاحوال المستقذرة كالحيض والنفاس و البول والغائط والصداع والولاده وجميع الأدناس وكلمة مطهّرة ابلغ من طاهرة واشعار بأنّ مطهّرات طهّرهن الله قال الحسن هن عجائزكم العمش الغمص الرمص طهرن من الأقذار والآثام وعن ابن عبّاس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلق الحور العين من اصابع رجليها الى ركبتيها من الزعفران ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الادفر ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الاشهب اى الابيض ومن عنقها إلى رأسها من الكافور اذا اقبلت يتلألأ نور وجهها كما يتلألأ نور الشّمس لأهل الدنيا.

«**وهم فيها خالدون**» : اى فى الجنّة دائمون يبقون ببقاء الله لاانقطاع ولا نفاد

لأنّ النعمة تتمّ بالبقاء والخلود كما تنتقص بالزوال والفناء ، والخلود هو الدوام من وقت مبتدء ولذا لا يقال في حق الله خالد، قال عكرمة اهل الجنة ولد ثلاث وثلاثين سنة رجالهم ونساؤهم، وقامتهم ستون ذراعا على قامة ابيهم آدم ﷺ شباب جرد مرد مكحلون ، عليهم سبعون حلّة ، تتلون كل حلّة في كل ساعة سبعين لونا ، لا يبترنون ولا يمتخطون ، يزدادون كل يوم جمالا وحسنا ، كما يزداد اهل الدنيا هرما وضعفا ، لا يفنى شبابهم ، ولا تبلى ثيابهم .

« **قوله تعالى انّ الله لا يستحيي ان يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربّهم و امّا الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضلّ به كثيرا و يهدى به كثيراً وما يضلّ به الاّ الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما امر الله به ان يوصل و يفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون** » وجه تعلّق الآية بما قبلها أنّه لما جاء في القرآن ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل اورد المنافقون والكفار انّ مثل هذه الاشياء لا يليق ان يذكر في القرآن وكلام الفصحاء وذلك يقدح في فصاحة القرآن فضلا عن كونه معجزا ، فاجاب الله عن شبهتهم بان ذكرها مشتملا على حكم بالغة ولذلك ضرب الامثال بالنار والظلمات والرعد و البرق ليس بقبيح ، حتى يستحى ان يضرب بها المثل ، فنزلت الاية دفعا لمقالهم ، المعنى : اعلم ان الحياء تغير وكيفية يعترى الانسان من خوف ما يعاب به ، يقال حي الرجل كما خشي ونسى ، فاستحال هذا المعنى على الله سبحانه لانه تغير يلحق البدن وكيفية حاصلة ، وذلك لا يعقل الا إلى الجسم فيجب تاويله وهو انّ هذا الكلام جاء على سبيل اطباق الجواب على السؤال والشبهة التى اوردوها حيث قالوا اما يستحيي ربّ محمّد ان يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ، فردّ سبحانه كلامهم على طبق ايرادهم فقال ان الله لايستحيي الآيه .

ووجه اخر في الكلام وهو ان كل صفة تطلق للعبد إذا وصف الله تعالى بذلك فهو محمول على نهايات الاعراض ، لا على بدايات الاعراض ، مثاله ان الحياء له مبدأ و منتهى فالمبدأ هو التغير الجسماني والمنتهى ترك ذلك الفعل الذى ينسب فاعله الى القبيح ، فاذا ورد الحياء في حق الله ليس المراد ذلك الخوف ألذى هو مبدأ الحياء ومقدمته ، بل ترك

الفعل الذى هومنتهاه ، وكذلك استعمال الغضب في حقه فان مبدأ الغضب غليان دم القلب وشهوة الانتقام وله غاية وهوانزال العقوبة بالمغضوب عليه ، فاذاوصف الله بالغضب فليس المراد ذلك المبدأ أعنى شهوة الانتقام بل المراد أنزال العقاب وهو المنتهي ، فهذاهو القانون الكلى في نسبة هذه الاوصاف الى جنابه تعالى ، وقيل وجه آخر في معنى لايستحى اى لا يخشى ان يضرب مثلا ، ويستعمل الخشية بمعنى الحياء مثل هذا المورد ، كما استعمل الخشية في معنى الحياء حيث قال : وتخشى الناس والله أحق ان تخشيه ، اى تستحيي الناس والله احق ان تستحييه ، فالاستحياء بمعنى الخشية في هذه الاية ، كما ان الخشية بمعنى الاستحياء في تلك الاية و استعمال المثل تفهيم المرادو تقريب الذهن الى المعنى ، امر مستحسن شايع في العرب والعجم ولااستنكاف فيه وبالجمله .

«ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضة» اى لايخشى أن يضرب مثلا يوضحه به لعباده المؤمنين بماهو المثل ، يعنى اىّ مثل كان و كلمة -ما- في الاية لزيادة الابهام والشيوع في النكرة ، سواء كان المثل صغيرا او كبيرا «بعوضة» وتقدير الاية لا يستحيي ان يضرب مثلاً بعوضة فيكون بعوضة مفعولا ثانيا ليضرب وضرب بمعنى جعل ، اويكون -ما- نكرة مفسرة ببعوضة فيكون بعوضة بدلا من ما ومعنى ، ما ، شيئى ، فحينئذ يفسر شيئاً بعوضة ، وقال الفراء إنّ معناه إن الله لايستحيي ان يضرب مثلا ، مابين بعوضة الى مافوقها والمثل يوتى به لفهم المخاطب ، سواء كان صغيرا كالبعوضة ، اوجليلا كالفيل وقدورد في كلام العرب والعجم فقالوا في التمثيل اجرء من الذباب واسمع من القراد تزعم العرب انّ القراد يسمع الهمس الخفى ، من مناسم الابل على مسافة سبع ليال ، اوسبعة أميال ، وفي المثل فلان اعمر من القراد ، وذلك انها تعيش سبعمائة سنة ، واجرء من الذباب ، لانه يقع على أنف الملك ، وجفن الأسد ، فاذاذبّ ودفع ، آب ورجع ، ولذلك سمىّ بالذباب و في المثل يقال هو اجمع من ذرة يزعمون انها تدخر قوت سبع سنين ، فانظر ايها المتأمل ، كيف خلق الله الذباب والبعوض مع صغر حجمهما كل الة وعضو اعطاه الفيل القوى الكبير بزيادة جناحين واعطى البعوض والذباب جرأة ، اظهرها في طيرانهما ، في وجوه الناس ، مع مبالغة الناس في ذبهما ودفعهما بالمذبه ، وكيف ركب الجبن في الاسد و اظهر ذلك الجبن فيه بتباعده عن

مساكن الناس ، وطرقهم ، وامكنتهم ، ولو تجاسر الأسد، تجاسر الذباب والبعوض ، لهلك الناس ، فجمل بقدرته في الضعيف التجاسر والجرءة ، وفي القوى الجبن واعجب من هذين الامرين ، عجزك عن هذا الضعيف ، وقدرتك على ذلك الكبير .

حكى انّه خطب المأمون اذات يوم ، فوقع ذباب على عينه ، فطرده ، فعاد مراراً حتّى عجز وقطع الخطبة ، فلمّا صلّى ، احضرا باهذيل شيخ الاعتزال ، فقال له : لم خلق الله الذباب ؟ قال الشيخ : ليزل به الجبابرة ، قال : صدقت . وفي خلق الذباب وامثاله حكم و مصالح ، قال وكيع : لولا الريح والذباب لانتنت الدنيا ، فسبحان القادر الذى ليس خلق العرش مع عظمته عليه اعسر ، ولا خلق البعوضة عليه ايسر ، وانت ايّها الانسان العاصى ، اذا كان جزعك من هذا البعوض في الدنيا و عجزك عنه ، فكيف حالك اذا تسلّطت عليك الحيّات و العقارب في لظى ؟ ؛ اعلم انّه لمّا ثبت بضرورة العقل و العيان الحسّى ، انّ لنا خالقاً حكيماً ، لزم معرفة ان الموجودات ، لم تخلق عبثاً و انّما خلقو اليعرفوا خالقهم ، فيصيبو ابتلك المعرفة السعادة الدائمة والفيض الدائم ؛ و هـذه المعرفة و العبادة تتوقف على بعث الرسل وانزال الكتب ، كى يحصل هذا الغرض من الحكيم و يعرفوا ما يصلحهم وما يفسدهم والاّ لاختل النظام الاصلح ، الواجب رعايته في مقام الحكمة ، وبطل الغـرض و ذلك لا يليق بالحكيم القادر ، فوجب وجود الحجّة للناس وقد قام الا تفاق من جميع المذاهب والا ديان انّه اتى رجل اسمه محمّد ﷺ و ادّعى النبوّة و اتى بـكتاب ، مجموع فيه جميع مـا يحتاجونه ، من النظام الأتمّ وتحدّى بذلك الكتاب ، الأيتان بمثله ، لفظاً و معنىً ، حكماً وحكمةً ، ثم انّه استقر في سنّة الله وطريقته ، من لدن آدم في جميع الاعصار ، على نصب الحجة ، من رسول ، اووصىّ ، لئلا تبطل الحكمة ولا يفوت الغرض ، والعلّة الباعثة ، لوجوب الدعوة النبويّة ، هى الباعثة لوجوب وجود وصىّ ، يرشد الى بقاء دعوة النبى ومع القطع بعدم وجود وصىّ عن المسيح ، نقطع بوجوب وجود النبى ، اتماماً للحجّة ومعلوم بالبداهة ، انّ في هذا الزمان ، لا يكفى وجود المسيح ، في السماء الرابعة ، كمالا يمكن الاكتفاء بوجوده تعالى عن البعثة ، فلوقيل ؛ انّ شريعة عيسى

باقية ، الى هذا العصر ، فالجواب ؛ انه لو كانت شريعته باقية ، لوصل الينا من طرف اوصيائه ، لمعرفةمصالح الامـّةولم يجتمعوا امـّته علي الشرك ، لأنّ امـّته متفقون على القول بالتثليث ، والحلول والاتحاد ، كما صرحوابه في الاناجيل ، المجعولة ، المحرفةالمشتملة على انحاء الكفر والشرك والارتداد و لم يبق عندهم شيء مما جاء بهالمسيح و لو كان لمسيح ، حافظاً لدينهم ، لم يجمعواعلى الباطل ، ثمّ انالمسيح ، باعتقادالنصارى مصلوب مقتول و باعتقادنا انـّه رفع الى السماء ، ولاجل عدم كونه متصرفا ، في الشرعيات و عدم قيامه بمصالح العباد ، بمنزلة النبيّ الميّت ، فلا يكتفى به ، في اتمام الحجـّة ، فالعلّة الباعثة لوجوب الدعوة من الانبياء ، هي الباعثة ، لوجوب وجود الوصى ، يرشد الـى بقاء تلك الدعوة ، في عصرنا ، فمع القطع بعدم وجود وصيّ ، عن المسيح ، في آخر الزمان نقطع بوجود البعثة النبويـّة الختمية الكاملةالمحمـّدية ، اتماماً للحجـّة ، وهذهالحجة منحصرة في محمـّد وعترته المعصومين عليهم الصوة والسلام

و بوجه آخر نقول : كما انّ سائر الصفات ، يستعلم من الافعال والاقوال والحركات والسكنات ، كذلك الصدق والحق والعصمة و سائر كمالات الانبياء و الاوصياء يستفاد من ملاحظة حالاتهم وسيرتهم واقوالهم ومن تتبّع وتأمل بعين الانصاف ، في اوصافهم و شئونهم ، لا يبقى له ريب ولا شبهة ، في حقانيتهم ويستعلم اوصافهم من التسامع والتواتر من اتصافهم بتلك الصفات الملائمة للنبوّة والوصاية ، كما انّ العادل ، يعرف بالمعاشرة التامة ؛ فانظر الى ما ظهر عنه ومنه و به ﷺ من سيرته واحواله والعلوم الكاملة والحكم الربانية ، التى اندرست من اجلها ، الحكمة التى كانت متداولة بين الحكماء واليونانيـّين واتفقت العقلاء ، على هجران كتبهم ، لعدم حاجتهم ، الى تلك الكتب و الحكم ، بعد ظهور القرآن ، في هذه الامة المرحومة ، كما لا حاجة في الاستصباح بالسراج ، عند طلوع الشمس ، مع وضوح انـّه ، ما حضر عند معلّم ، في مقام التحصيل ، بل كان يتيما ، ما بين قوم ، لا يعرفون شيئا ، من الحكم والآداب ، فهذه الحكمة ، الربانية والتربية الالهية ، من اعظم المعجزات ، الدالةعلى صدقه ، وتماميـّةهذه الشريعة و ناسخيتـّه ، لجميع الاديان فعلم انّ هذا الامر ، خارج عن الطبع البشرى والحكم البالغة ، المستفادة من كلماته ، و

افعاله ، من اعظم الشواهد على نبوّته وحقيّة دينه ،

والحاصل : قد ورد كثير من الامثال ، في الانجيل ، فقد مثّل سبحانه ، غل الصدر، في الانجيل بالنخالة ، قال : لاتكونوا كمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، ويمسك النخالة كذلك انتم ، تخرج الحكمة من افواهكم وتبقون الغلّ في صدوركم و كذلك مثل سبحانه ، مخاطبة السفهاء ، باثارة الزنابير ، قال : لاتثيروا الزنابير ، فتلدغكم ، فكذلك لا تخاطبوا السفهاء ، فيشتموكم وقال في الانجيل : لا تدّخروا ذخائركم حيث السوس و الارضة ، فتفسدها ولا في البرية ، حيث اللصوص ، والسموم ، فيسرقها اللصوص ويحرقها السموم ولكن ادّخروا ذخائركم عندالله .

وجاء في الانجيل مثل ملكوت السماء ، كمثل رجل ، زرع في قريته حنطة جيدة نقية ، فلمّا نام الناس ، جاء عدوّه ، فزرع الزوان وهو بفتح الزاى وضمها ، حبّ ، مرّ ، يخالط البر ، فقال الزارع لمولاهم : يا سيدنا ، اليس حنطة جيدة ، زرعت فى قريتك ، قال بلى ، قالوا : فمن اين هذا الزوان قال غفلتم عن عدوّكم وسا محتموه ، فاخلط فى زرعكم فالزارع ، الانسان والقرية ، العالم والحنطة الطاعة والزوان المعاصى.

اقول لا يجوز لأحد من المسلمين - مطالعة كتاب الانجيل والتورية ، الاّ اذا كان مقصوده ألاحتجاج على النصارى واليهود ، بسبب اثبات حقية القرآن ، خصوصاً اذا كان قليل المؤنة فى العلم ، فانّ فيها التحريف و الا كاذيب المحكية ، من لسان المسيح عن قول الله ، فمنها ما في الاناجيل الاربعة ، من الاختلافات فى نسب المسيح ، مع انّ الانجيل المنزل من الله كان منحصراً فى واحد :

ومنها ما فى الانجيل ، من انّ المسيح ، صنع خمراً واعطاها لامّه مريم ، مرسلا ايّاها والخمر لاهل المجلس .

ومنها ما فى الانجيل ، من انّ الأبن فى الأب حلّ ، والأب فى الأبن وهذا يستلزم تضاد الحال والمحل ومناف لمراتب التوحيد ،

و منها ما فى التوراة من انّ نوحا ، شرب الخمر ، بعد خروجه من السفينة

ومنها ايضاً فى التوراة ، من انّ لوطا ، شرب الخمر وزنى بابنتيه ،

ومنها ما في التورية ، من ان هرون ، امر بصنع العجل ، فمع هذه القبائح، التي دونوها وسموها ، الانجيل والتورية ونسبوا الافعال القبيحة ، الى الانبياء ، كيف يكون حال امة ، ينسبون الى انبيائهم، ما يأنف الفاسق ، المتجاهر ، من مثل هذه الامور وليس ذلك الا الالحاد او تفسيق لأهل الوحي واشد حمقا من اولئك ، بعض اهل السنة حيث كتبوا هذه الاكاذيب ، في مصنفاتهم ، واعتقدوها ؛ وسموا كتابهم ، بخطيئة الانبياء

والحاصل ان الله سبحانه، مثل الامثال ، في هذه الايات ، لأن ينبه بذلك المؤمنين على لطيف صنعه ؛ ليقروا بوحدانيته ، و كمال قدرته وحكمته ، ليهتدوا .

«**فاما الذين آمنوا** » بالقرآن و بمحمد ﷺ « **فيعلمون انه** » اى: التمثل « **الحق**» : الثابت الذى لايسوغ انكاره « **من ربهم** » فيفكرون ويوقنون ان الله خالق هذه الاشياء ؛ فيؤمنون به « **واما الذين كفروا** » وهم المشركون واليهود «**فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا**» اى : لاعراضهم عن طريق الاستدلال ، و انكارهم ، وجحودهم ؛ ماذا اراد الله ، بهذا المثل واى شيء اراد ، بهذا المثل الخسيس ، فلما حذف الالف واللام في المثل نصب على الحال ، او التميز ، فاجابهم الله بقوله : «**يضل به كثيرا و يهدى به كثيرا**» فيه وجهان ، قال الفراء انه حكاية عن قولهم ، و من بقية كلامهم حيث قالوا ، ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ؛ ثم قال الله : « **وما يضل به الا القوم الفاسقين**» وهذا وجه حسن ، استحسنه الطبرسي ، والوجه الاخر ، انه كلامه تعالى واذا كان كلامه تعالى ، فمعنى قوله يضل به كثيرا ، ان الكفار يكذبونه ، وينكرونه ، ويقولون : ليس هو من عند الله ، فيضلون بسببه ، فاذا حصل الضلال بسببه ، اضيف اليه ، و كذلك لما حصلت الهداية بسببه اضيف ، فمعنى الاضلال ، على هذا ، تشديد الامتحان الذى ، يكون عنده ، الضلال ، لان المحنة ، اذا اشتدت على الممتحن ، فمضل عندها ، سميت اضلالا ، واذا سهلت ، فاهتدى عندها ، سميت هداية ،

وحاصل المعنى : ان الله يمتحن بهذه الامثال ، عباده ، فيضل بها ، قوم كثير، لانكارهم ويهدى بها ، قوم كثير ، لقبولهم ومثله قوله تعالى : رب انهن اضللن كثيرا من الناس ،

اى ضلوا عندها ، وهذا كما يقال للرجل ، اذا ادخل الفضة ، النار ، ليظهر فسادها ، من صلاحها ، فظهر فساد ها ، افسدت فضّتك وهولم يفعل فيها .

وانّما يراد انّ فسادهم ، ظهرعند امتحانه ، و قريب من ذلك ، قـولهم ، فلان اضل ناقته ، ولا يريدون انّه اضلها ، وانّما يريدون ، من هذا الكلام ، انهاضلّت عنه، لامن غيره ، ويمكن ان يكون ، الأضلال ، بمعنى التخلية ، على وجه العقوبة ، و منع الالطاف ، التى تنعل بالمؤمنين ، جزاءً على ايمانهم ، وهذا كما يقال ، لمن لا يصلح سيفه افسدت سيفك ، اريد به ، انّك لم تحدث ، فيه الاصلاح ، في كل وقت ، بالصيقل ، و قد يكون الاضلال ، بمعنى الاهلاك والعذاب والتدمير ومنه قوله تعالى : ان المجرمين، في ضلال وسُعُر وقوله تعالى : اذا ضللنا في الارض ، اى : هلكنا ، فعلى هذا ، يكون المعنى ، ان الله ، يهلك ويعذب بالكفربه ، كثيرا ، بان يضلّهم ، عن الثواب وطريق الجنة فبسببه ، يهلكوا ؛ ويهدى الى الثواب ، وطريق الجنة ، بالايمان به كثيرا ، وهذا القول، عن ابى على الجبائى ، ويدل على ذلك ، قوله : وما يضل به الاّ الفاسقين . انتهى بيان وجوه المعنى ، في الاضلال من كلام علمائنا .

لكن علماء العامة ، المعتزلة منهم ، قالوا : واسناد الاضلال ، اليه تعالى ، اى: خلق الضلال مبنى على انّ جميع الاشياء ، مخلوقة له تعالى ، وان كانت ، افعال العباد، من حيث الكسب ، مستندة اليهم .

وامّا الاشاعرة ، فتفسيرهم وعبائرهم ، في مثل ، موضوع الضلال والهداية ، غير قابل ، للذكر ، بسبب غلوّهم في الجبر.

قال الطبرسي : وكلّ ما في القران ، من الاضلال ، المنسوب اليه تعالى ، فهو بمعنى المذكور، من الوجوه ولا يجوزان ينسب ، الى الله تعالى ، اضلال ، اولاً لا ضلال قبله ، ولايكون الاضلال ، من فعله ، بل اضلاله ، سبحانه ، تبعا ، لضلال المكلّف ، واما الاضلال التى يضاف ، الى الشيطان ، مثل قوله : ولقد اضل منكم جبلاً كثيرا وقوله : و اضل فرعون قومه و كذلك اضافة الاضلال ، الى السامرى ، وهوان يكون ، بمعنى التلبيس و التغليط و التشكيك والايقاع في الفساد ، ممّا يؤدّى الى التظليم ، فذلك في حق الله ، غير

جائز ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ؛ انتهى بيان الاضلال.

واما الهداية في القرآن ، يطلق على وجوه :

فتارة ، بمعنى الدلالة ، والارشاد ، يقال هداه الطريق ، والى الطريق ، اذا دلّه عليه وهذا الوجه ، عام لجميع المكلّفين ، فانه سبحانه ، اهدى كلّ مكلّف وارشده ، الى الحق ، على لسان رسله وكتبه ، كما قال : ولقد جائهم من ربّهم الهدى و قوله « انّا هديناه السبيل » وقوله « واما ثمود فهدينا هم فاستحبوا العمى على الهدى »

وتارة المراد بالهداية : زيادة الالطاف ، التى بها ، تثبت على الهدى ، ومنه قوله . « والذين اهتدوا زادهم هدى » ، اى شرح صدورهم وثبّتها .

وتارة يكون الهداية : بمعنى الاثابة ، مثل قوله : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ اعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم » ومعلوم ، ان الهداية ، التى تكون بعد القتل ، هى الاثابة لا محالة ، لانه ليس بعد الموت تكليف ،

ورابعها الحكم بالهداية ، كقوله « ومن يهدى الله فهو المهتدى » وهذه الوجوه الثلاثة خاصّة بالمؤمنين ، لايمانهم .

وخامسها ان تكون الهداية ، بمعنى جعل الانسان ، اى بخلق الهداية فيه ، كما يجعل الشيء ، متحركا ، بخلق الحركة ، والله يجعل ، العلوم الضرورية ، في القلوب فذلك هداية منه ، وهذا المعنى الخامس ، عام لجميع العقلاء كالوجه الاول .

واما الهداية التى ، كلف الله ، العباد فعلها ، كالايمان به ، وانبيائه ، وغير ذلك ، فانها من فعل العباد ، وان كان قد انعم عليهم ، بدلالتهم ، على ذلك ، لكنهم يستحقون على فعلهم ، المدح والثواب ، كما ان الكافر ، بفعله ، يستحق الهوان والعذاب ،

والهداية ، تسكن في قلب ، فارغ من الدنيا ، نسئل الله ان لايحرمنا ، من الطافه بسوء افعالنا .

«**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما امر الله به ان يوصل و يفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون**» ، ثم وصف الله ، احوال المنافقين ، الموصوفين ، في الاية السابقة فقال : « **الذين ينقضون** » : النقض ، فك التركيب ، والنسخ ، واستعمال

النقض ، في ابطال العهد ، من حيث تسمية العهد ، بالحبل ، على سبيل الاستعارة ، لما فيه من علاقة الوصلة ، بين المتعاهدين ،

قيل: عهدالله ثلاثة ، الاول ، ما اخذه ، على ذرّية آدم ، بان تقرّوا بربوبيّته .

والثانى ، ما اخذه على الانبياء ، بان اقيموا الدين ، ولا تفرقوا فيه ،

والثالث ، على العلماء ، بان يبينوا الحق ولايكتموه ، *درروز الست بلى گفتى * امروز ببستر لاخفتى .

«**من بعد ميثاقه**» : اى بعد الوثيقة وتوكيده بالقبول والضمير ، راجع الى العهد اوالى الله ، اى: بعد توثيق الله ، ذلك العهد ، بارسال الرسل ، و انزال الكتب ، و قيل : المراد في الآية ، كفار اهل الكتاب ، وعهدالله الذي نقضوه ، هو ما اخذ عليهم في التورية من اتباع محمد ﷺ ، والتصديق بما جاء به ، ونقضهم لذلك ، تركهم وجحودهم به بعد معرفته وكتمانهم ذلك ، عن الناس ، ومغالطتهم ، على الناس ، بعد ان بينه الله ، في كتابهم وامرهم ان لا يكتمونه ، فكتموا و نقضوا العهد .

«**ويقطعون ما امر الله به ان يوصل**» اى : يقطعون ، ما امر الله ، بوصله ، و هو يشمل كل قطيعة ، لا يرضى الله ، قطعه ، كقطع الرحم ، وموالاة المؤمنين ، وايقاع الفتنة والفساد ، بين المسلمين ، والتفرقة بين الانبياء والكتب ، في تصديق البعض وانكار البعض

قال : صاحب كشف الغطاء ، العجب ، ثم العجب ، من قوم يعترفون بنبوّة موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام وغيرهما و ينكرون نبوة محمّد ﷺ فانّهم ، ان ادعوا ، عدم حجيّة المعجزات ، لزمهم انكار جميع النبوّات ، فينتفى الوسائط ، في اثبات الشرايع ، بيننا و بين رب السموات ، وان ادعوا ، نفى المعجزات : من نبينا ، فما بالهم ، لا ينفون المعجزات ، بالنسبة الى انبيائهم ، مع تقدم عهدهم ، وزيادة بعدهم ، وزمانهم ، فانّ انكار الاخبار ، بالنسبة الى ما تقادم عهده ، و طالت سلسلته ، اقرب من انكاره ، بالنسبة الى القريب .

وكلّ رفض خير ، فهو قطيعة ، بل تعاطى الشر ، ايضا ، فانه يقطع الوصلة ، فيما بين الله ، والعبد .

و في الحديث : اذا اظهر الناس ، العلم ، و ضيّعوا العمل ، و تحابوا بالالسن و تباغضوا بالقلوب ، و تقاطعوا الارحام ، لعنهم الله ، عند ذلك ، فاصمّهم و اعمى ابصارهم انتهى .

«**ويفسدون في الارض**» : بالمنع عن الايمان ، والاستهزاء بالحق ، وقطع الوصل ، التى عليها يدور فلك نظام العالم ، وصلاحه ،

وقيل: اراد كلّ معصية ، تعدّى ضررها ، الى غير فاعلها ، والاولى حمله على العموم.

«**اولئك هم الخاسرون**» : المغبونون، بالعقوبة في الآخرة مكان المثوبة في الجنّة لانّهم استبدلوا النقض بالوفاء والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح وعقابها بثوابها .

« **كيف تكفرون بالله و كنتم امواتا فاحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ اليه ترجعون** »

الاستفهام انكارىّ، لا بمعنى انكار الوقوع ، بل بمعنى انكار الواقع ، واستبعاده ، والتعجيب منه لأنّ التعجب من الله ، يكون على وجه التعجيب ، كانه يقول: الا تتعجبون انّهم يكفرون بالله ، ومعهم ما يصرفهم ، عن الكفر ، الى الايمان ، من الدلائل .

«**و كنتم امواتا فاحياكم**» : والحال انكم كنتم اجساماً ، لاحيوة لها ، عناصرا ، واغذية ، ونطفا ، ومضغا ، وقبل هذه الحالات كنتم اعداما ، «**فاحياكم**» بخلق الارواح ونفخها فيكم ، في ارحام امهاتكم وهذا البيان الزام لهم بالبعث ، فكما انّ الاحياء امكن لهم بعد ان كانوا امواتا ، كذلك يمكن حصوله بعد ان يموتوا ، وحاصل المعنى انكم لم تكونوا اشياء فخلقكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم يوم القيمة ، وقيل انّ المعنى كنتم نطفا في اصلاب آبائكم ، وبطون امهاتكم ، والنطفة موات ، فاخرجكم في الدنيا احياء ، ثمّ يميتكم ، ثمّ يحييكم في القبر للمسألة ، ثمّ يحييكم ويبعثكم يوم الحشر للمجازاة على الأعمال ، وسمّي الحشر رجوعا الى الله ، لأنّ رجوع امركم اليه و في هذه الاية ، دلالة على انّه لم يرد من عباده الكفر ولا خلقه ، لأنّه لواراد منهم او خلقه فيهم لم يجز ان يضيفه اليهم ، بقوله كيف تكفرون بالله ، كما لا يجوز ان يقال لهم ، كيف كنتم طوالا ، اوقصارا ، اوذكرا اوانثى ، ممّا هو فعله فيهم ؛ «**ثم يحييكم**» للسؤال في القبور

فيحيى حتى يسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين ؛ ويقال له : من ربك ومن نبيك ؛ وما دينك ، ويدل كلمة ، ثم ، التى للتعقيب : على انه لم يردبه حيوة البعث ، فان تلك الحيوة يومئذ ، بالرجوع الى الله ، بالحساب ، بقوله : ثم اليه ترجعون.

« **هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعاً ثم استوى الى السماء فسويهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** »: لما أستعظم المشركون امر الاعادة ، عرفهم الله خلق السموات والارض ؛ ليدلهم بذلك على قدرته على الاعادة : اى قدر خلقها لانتفاعكم بها في دنياكم ودينكم .

وتمسك بعض الجهلة المتصوفه ، من اهل الاباحة بهذه الآية ، و حملوا اللام في لكم على الاطلاق والاباحة ، وقالوا لاحظر ولا نهى و هذا منهم كفر صريح ، ومخالف لتمام كتب الله ورسله . وقد نهى الله ، وامر واباح و حظر ووعد ، واوعد و بشر وهدد والنصوص ظاهرة ، والدلائل متظاهرة ، والاخبار متظافرة ، فمن حمل هذه الآية ، على الاباحة المطلقة ، فقد انسلخ من الدين بالكلية ؛ « **ثم استوى الى السماء** » قيل فيه وجوه احدها و هو الأقرب قصد الى خلقها ، بارادته ، ومشيتة ، قصداً سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه ، فسواها ، وهذا كقول القائل : كان الامير يدبر امر الشام ، ثم استوى الى الحجاز : اى تحول تدبيره اليهم .

وثانيها انه بمعنى استولى على السماء كما قال لتستوا على ظهورها : اى تقهروه ، فيكون المعنى : ثم استوى الى السماء في تفرده بملكها ، و لم يجعلها كالأرض ملكا لخلقه .

و ثالثها ما روى عن احمد ابن يحيى ابن تغلب : انه سئل عن معنى الاستواء في صفة الله ، فقال الاستواء ، الاقبال على الشيء ، يقال فلان كان مقبلا على فلان ثم استوى الى يكلمنى .

اقول : هذا المعنى ، هو المعنى الاول الذى ذكره الطبرسى وهذا المعنى الثالث ، ايضا ذكره الطبرسي ، مع ان الاقبال والقصد متساويان ، او متلازمان ولايظن ظان ان بين هذه الآية وبين قوله « والارض بعد ذلك دحيها » تناقض ، لأن الدحو ، البسط .

روى ان الله خلق الارض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر: اى الحجر ملء الكف عليها دخان يلتزق بها، ثم اصعد الدخان، وخلق منه السموات وامسك الفهر في موضعه ثم بسط منه الارض وقال اول ما خلق الله، جوهرة طولها وعرضها مسيرة الف سنة فى مسيرة عشرة الاف سنة، فنظر اليها بالهيبة فذابت واضطربت، ثم ثار منها دخان، فارتفع واجتمع زبد فقام فوق الماء، فجعل الزبد ارضا والدخان سماء فالسماء من دخان خلقت، وبريح ارتفعت وباشارة تفرقت، وبلا عماد قامت، وبنفخة تكسرت

«**فسويهن**» اى: اتمهن، وقومهن مصونات عن العوج والفطور، والضمير فيه مبهم فسر بقوله: «**سبع سموات**» منصوب على التميز، نحو ربه رجلا،

قال سلمان الفارسى: هى سبع، اسم الاولى رفيع وهى من زمردة واسم الثانية، ارقلون، وهى من فضة بيضاء والثالثة قيدوم وهى من ياقوتة حمراء والرابعة ماعون وهى من درة بيضاء والخامسة دبقاء وهى من ذهب احمر والسادسة وقناء وهى من ياقوتة صفراء والسابعة عروباء وهى من نور يتلألأ.

«**وهو بكل شىء عليم**»: فيه تعليل كانه قال لكونه عالما بكنه الاشياء كلها، خلق ما خلق على هذا النمط الاكمل و الوجه الانفع و فى الآية دلالة على ان الاصل فى الاشياء، الاباحة لانه سبحانه ذكر انه خلق ما فى الارض لمنفعة العباد.

قوله تعالى: « وَاِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ اِنِّى جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا اَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ اِنِّى اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

واذ: مفعول اذكر مقدرة: اى اذكر لهم واخبر وقت «**قال ربك للملائكة**» قيل الخطاب لجميع الملائكة، وقال ابن عباس: الخطاب لسكنة الارض بعد الجان من الملائكة لا جميع الملائكة: والملائكة جمع ملك، والتاء لتأكيد الجماعة، وسموا بها، فانهم وسائط ورسل بين الله والخلق، واختلف في اشتقاقه: قيل من الالوكة وهى الرسالة، قال الخليل؛ الالوك الرسالة، وهى المألكة على مفعله، ماخوذ من الك الفرس

اللجام ، وقيل ، انّما سمّيت الرسالة الوكا ، لأنّها تمضغ وتؤلك في الفم تألك الشكيم واللجام ، فالملائكة ، وزنها معافلة مقلوبة ، ووزن ملأك ، معفل مقلوب ، مألك ، فعل ؛ وقال بعض : الكلمة مهموزة ، والقيت حركة الهمزة ، على اللام وحذفت الهمزة فقيل ملك ؛ وقال ابو عبيدة : انّ اصله لأك ، اذا ارسل ، فملأك مفعل وملائكة مفاعلة غير مقلوبة ، والميم في هذه الصورزائدة ، لكن ذهب ابن كيسان ، ان الميم اصليّة ، و انّه من الملك ، وان وزن ملاك ، فعال ، مثل شمال ، وملائكه فعائله ، والهمزة زائدة،وقوله تعالى : الله يصطفى من الملائكة رسلاً ، : يدل : على انّ جميع الملائكة ليسوا برسل ، فعليهذا يكون اسم جنس ؛ والملائكة عند اهل الاسلام واكثر المسلمين ، انوار و اجسام لطيفة ، قادرة على التشكل باشكال مختلفة ، والدليل على هذا ، ان الانبياء كانوا يرونهم

روى في شرح كثرة الملائكة ، انّ بنى آدم ، عشر الجن ، وهما ، عشر حيوانات البر ، والكلّ ، عشر الطيور ، والكلّ ، عشر حيوانات البحر ، وهؤلاء كلّهم ، عشر ملائكة السماء الدنيا ، وكلّ هؤلاء ، عشر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا الى السماء السابعه ، ثم كلّ اولئك في مقابلة الكرسى ، نزر قليل ، ثم جميع هؤلاء ، عشر ملائكة سرادق ، واحدى سرادقات العرش ، التى عددها ستمائة الف ، طول كلّ سرادق وعرضه وسمكه اذا قوبلت به السموات والارض وما فيهما وما بينهما ، لايكون لها ، عنده ، قدر محسوس وما منه من مقدار شبر ، الاّ وفيه ملك ، ساجد ، اوراكع ، اوقائم .

« **انى جاعل فى الارض خليفة** » : الجعل ، والخلق ، والفعل ، والاحداث ، نظائر ، الاّ انّ الجعل قد يتعلّق بالشيء ، لا على سبيل الايجاد ، بخلاف الفعل ، والاحداث يقول جعلته متحركاً ، وحقيقة الجعل تغيير الشيء عمّا كان عليه ، وحقيقة الفعل والاحداث الايجاد ، انّى جاعل ، اى مصيّر ؛ قيل ان الله خلق السماء والارض وخلق الملائكة والجن فاسكن الملائكة ، السماء ، واسكن الجن ، الارض ، والجنّ هم بنوا الجان ، و هو ابو الجنّ ، كآدم ابو البشر ، وخلق الله الجان ، من لهب ، من نار ، لادخان لها ، بين السماء والارض ، قيل : الصواعق تنزل منها ، ثمّ لمّا سكنوا فيها ، كثر نسلهم ، وذلك قبل آدم بسنين متطاولة ، قيل بالفى عام ، قال الحقى : في روح البيان بستين الف سنة ، فعمروا

دهراً طويلا ، في الارض ، مقدارسبعةالاف سنة ، ثمّ ظهر فيهم ، الحسد والبغى، فافسدوا وقتلوا ، فبعث الله اليهم ، ملائكة سماء الدنيا ، وامرّ عليهم ، ابليس ، فهزموا الجنّ ، و اخرجوهم من الارض ، الى جزائر البحور ، وشعوب الجبال ، وسكنوا الارض، واعطى الله ابليس ، ملك الارض ، وملك السماء الدنيا ، وخزانة الجنّة ، وكان له جناحان ، من زمرد اخضر ، وكان يعبدالله ، تارة في الارض ، و تارة في السماء ، و تارة في الجنّة ، فدخله ألعجب ، فقال في نفسه ، ما اعطاني الله هذا الملك ، الاّ لأنّي اكرم الملائكة عليه .

وانما عبرّ سبحانه خليفة اراد بالخليفة آدم ، لانّه خليفته في ارضه ، يحكم بالحق و كان سبحانه قد اعلم ملائكته انّه يكون من ذريته من يفسد فيها ، عن ابن عباس

وقيل انّما سمى ّ الله آدم خليفة لانّه جعل آدم و ذرّيته خلفاء للملائكة ، لانّ الملائكة كانوا من سكّان الارض ؛ وقيل خليفة عن الجنّ الذين افسدوا وقتلوا واخرجوا ، فجعل آدم بدلهم ، وقيل عنى بالخليفة ولد آدم ، يتخلّف بعضهم ، بعضا ، وهم خلّفوا آدم ، في اقامة الحق ، وعمارة الارض ، «**قالوا اتجعل فيها**» استيناف لبيان ما قالته الملائكة ، قالوا اتجعل في الارض «**من يفسد فيها**» كما افسدت الجن ، وفائدة التكرار في الظرف تاكيد الاستبعاد ، «**و يسفك الدماء**» ظلما كما فعل بنوا الجانّ اولأنّ الله اخبرهم بانّه سيكون من ذرّية هذه الخليفة من يعصى و يسفك الدماء ، و انّما قالت الملائكة هذا الكلام ، على سبيل الاستعلام ، على وجه المصلحة و الحكمة ، لاعلى وجه الانكار؛«**و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك**» : اى والحال انا ننزّهك، عن كل ما لايليق بشأنك ، مشتغلين بحمدك ، والتسبيح نفى مالا يليق ، و التقديس اثبات ما يليق به ، و السبّوح هو المستحقّ للتنزيه ، والقدوس المستحق للتطهير ، و القدس السطل الذى يتطهّر به ؛

قال الله في جوابهم : «**انى اعلم مالا تعلمون**» من الحكمة ، والمصلحة باستخلاف آدم ، وانّ من ذرّيته ، الطايع ، والعاصى ، فيظهر الفضل والعدل واوّل شىء اظهره الله بنور قدرته من ظلمة العدم ، كان نور محمّد صلى الله عليه وآله ، كما قال صلى الله عليه وآله اوّل ما خلق الله نورى ثم خلق العالم بما فيه من نوره ، بعضه من بعض ، فلمّا ظهرت الانوار من و جود نوره ،

سمي نورا ، و كلما كان اقرب الى الاختراع ، كان اولى باسم النور ، كما ان عالم الارواح ، اقرب الى الاختراع من عالم الاجسام ، فلما كان نور النبي صلى الله عليه وآله اقرب نظر في فائدة خلقه ، كان اولى باسم النور ، ولهذا كان يقول ، انا من الله و المؤمنون مني ، قال صلى الله عليه وآله كنت نورا بين يدي ربي قبل خلق آدم باربعة عشر الف عام و كان يسبح ذلك النور ويسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله آدم القى ذلك النور في صلبه ولولاه لما خلق الله آدم ولا العرش ، فليس كل مخلوق يطلع على غيب الخالق .

وروى عن ابيعبدالله عليه السلام انه قال ان الملائكة سئلت الله ولم يكن جميعهم ، بل بعضهم ، ان يجعل الخليفة منهم وقالوا نحن نقدسك ، ونطيعك ، ولا نعصيك كغيرنا ، قال فلما اجيبوا بقوله اني اعلم مالا تعلمون ، علموا انهم تجاوزوا عن حدهم ، فلاذوا بالعرش استغفارا ، يقولون لبيك ، ذا المعارج لبيك ، وسئلوه التوبة ، فامرهم ان يطوفوا بالضراح ، وهو البيت المعمور ، فمكثوا به سبع سنين ، يستغفرون الله بما قالوا ، ثم تاب عليهم من بعد ذلك ، ورضى عنهم ، فكان هذا اصل الطواف ، ثم جعل الله البيت الحرام ، حذاء البيت المعمور ، توبة لمن اذنب من بني آدم وطهورا ؛ وفي العلل عن الصادق عليه السلام فحجبهم عن نوره سبعة الاف عام ، فرحمهم وتاب عليهم .

« **وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين** » اي علم الله آدم معاني الاسماء ، والمراد معانيها ، اذ الاسماء بلا معان لا فائدة فيها ، وفي المجمع والعياشي عن الصادق عليه السلام انه عليه السلام سئل ماذا علمه قال علمه الارضين ، والجبال ، والشعاب ، و الاودية ، ثم نظر الى بساط تحته ، فقال و هذا البساط مما علمه ، وفي تفسير الامام ، عن السجاد عليه السلام علمه اسماء كلشيء ، واسماء انبياء الله واوليائه ، و عتاة اعدائه ، فيكون المعنى ، و علم آدم اصحاب الاسماء ، يعني المسميات ، فان قيل انه كان في المسميات ، و اصحاب الاسماء مالا يكون عاقلا ، فلم قال عرضهم ؛ ولم يقل عرضها ، لانه لما كان في جملتها الانبياء و الائمة ، و الملائكة ، والجن ، والانس ، و هم العقلاء ، فغلب الاكمل لانه جرت عادة اهل اللسان ، والعرب بتغليب الكامل على الناقص .

و قال ابن عباس ، وسعيدبن جبير ، و مجاهد ، انّه تعالى علّمه ، جميع الصناعات وعمارة الارضين ، والاطعمة ، والادوية ، واستخراج المعادن ، وغرس الاشجار ، ومنافعها وجميع مايتعلق بامور الدين والدنيا ، وهذا القول ، هو الحديث المنقول عن الصادق عليه السلام الذى ذكره العياشي ؛ و في كيفيّة تعليم الله ، آدم الاسماء ، فقيل علّمه بان اودع قلبه معرفة الاسماء والمسمّيات ، وفتق لسانه بها ، وعرّفه خواص الاشياء وهوان الفرس يصلح لماذا ، والحمار لماذا ، فكان آدم يتكلّم بتلك الاسماء ، ويعرف المعانى واللغات ، و كان ذلك معجزة له ، لكونه خارقا للعادة ، واختلف فى كيفيّة العرض على الملائكة ، فقيل انما عرضها بان خلق معانى الاسماء التى علّمها آدم ، حتى شاهدتها الملائكة ، و قيل صوّرفى قلوبهم هذه الاشياء ، فصارت كانّهم شاهدوها ، وقيل عرض عليهم من كل جنس واحداً نموزجا يتعرّف منه احوال البقية .

« **فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين** » : اظهارا لعجزهم ، وبيانا بأنّ آدم عليه السلام اصلح لامارة الارض ، وعمارتها ، الى ما يهتدى الملائكة اليه وتبكيتالهم عن اقامة ماعلّقوا به رجائهم ، من امر الخلافة ، فان التصرف والتدبير ، بغير وقوف على مراتب الاستعدادات و مقادير الحقوق ، بما لايكاد يتحقّق ويمكن .

« **ان كنتم صادقين** » : اى في زعمكم انكم احقاء بالخلافة ممّن استخلفته ، فانّ ادنى مراتب الاستحقاق ، هو الوقوف على العلم باسماء مافي الارض ، وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام : اى ان كنتم صادقين فيما ظننتم ، فاخبروا بهذه الاسماء ، وذلك لانّه خطر ببالهم انّه لم يخلق الله خلقاً الاّ وهم اعلم منه ، وافضل في سائر انواع العلم ، فخوطبوا بهذا الخطاب ، فان قيل ، كيف امرهم الله و كلّفهم بان يخبروا بمالا يعلمون ، فالجواب انّ الامر مشروط بالعلم لا مطلقا ، كما يقول العالم للمتعلم ما تقول في كذا ، و يعلم انّه لايحسن الجواب ، وليس غرضه الجواب بل غرضه ، ان ينبّهه على عدم علمه ، فاذاتنبه المتعلّم ، على انّه لا يمكنه الجواب ، اجابه حينئذ ، فيكون جوابه بهذا الترتيب اوقع في قلبه واثبت ، فالامر بقوله انبئونى : للتنبيه لاللتكليف .

« **قالوا سبحانك لا علم لنا الاّ ما علّمتنا انّك انت العليم الحكيم** »

استيناف واقع موقع الجواب، كانّه قيل فماذاقالت الملائكة حينئذ، هل خرجوا من عهدة ما كلّفوه، فقالوا سبحانك لاعلم لنا، قيل، سبحان، علم للتسبيح، ولا يكاد يستعمل الاّ مضافا، وقد يجيء غير مضاف على الشذود، وغير منصرف للتعريف، والالف والنون، المزيدتين، وقيل مصدر منكر، لااسم، كغفران، ومعناه على الاول: نسبّحك عمّا لايليق، وعلى الثانى: تنزهت عن ذلك تنزها، وهى كلمة تقدم على التوبة، والمراد الاعتذار، قال موسى ﷺ سبحانك تبت اليك، و قال يونس ﷺ سبحانك انى كنت من الظالمين.

«**لاعلم لنا الاّ ماعلّمتنا**»: اشعاراًبانّ سئوالهم، لم يكن اعتراضا، ولاقدرة لنا على ماهو خارج عن دائرة استعدادنا، وانّما علمنا، ماعلّمتناه، «**انك انت العليم**» الذى لايخفى عليه خافية «**الحكيم**»: المحكم في مبتدعاته؛ سئل ابو يوسف القاضى عن مسئلة، فقال لاادرى، فقالوا له ترتزق من بيت المال كل يوم كذا و كذا، ثم تقول لا ادرى، فقال انّما ارتزق بقدرعلمى، ولواعطيت بقدرجهلى، لم يسعنى مال الدنيا؛ وحكى انّ رجلاً عالما، سئل عن مسئلة، و هو فوق المنبر، فقال لا ادرى، فقيل له ليس المنبر موضع الجهّال، فقال انّما علوت بقدرعلمى، ولو علوت بقدر جهلى لبلغت السماء.

«**قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلمّا انباهم باسمائهم قال الم اقل لكم انّى اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون**».

ثمّ خاطب الله سبحانه، فقال يا آدم، اخبر الملائكة باسمائهم، يعنى اسمائهم الذى عرضهم عليهم، وقدمضى بيانه، «**فلمّا انبأهم باسمائهم**» روى انّه رفع على منبروامران ينبئى الملائكة بالاسماء، فلما انبأهم بها وهم جلوس بين يديه وذكرمنفعة كلشىء وخواصّه «**قال**» اللهتعالى: «**الم اقل لكم انّى اعلم غيب السموات والارض**»، والاستفهام للتقرير اى قد قلت لكم انّى اعلم ما غاب فيهما «**واعلم ما تبدون**» و تظهرون من قولكم، حيث قلتم، اتجعل فيها من يفسد الآيه.

«**و ما كنتم تكتمون**»: تسترون حيث زعمتم ان يخلق الله خلقاا كرم عليه منّا، وهوتعريض

بمعاتبهم على ترك الأولى من السؤال، و في الآية ، دلالة صريحة ، بان العلم شرط في الخلافة ، بل العمدة فيها، و ان آدم . تفضّل على الملائكه بالعلم ، فالأعلم افضل ، لقوله هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون وليت شعرى ، كيف قدموا المفضول على الفاضل ، مع ذلك العلم الجم ، ولولم يكن لهمن الفضائل الاّ القضايا التى صدرت من احكامه التى لاتعدّ ، مثل صاحب الارغفة ،والحالف ان لا يفكّ قيد غلّ عبده الآن يتصدّق بوزنه فضّة ، ومثل جواب الاعرابى حين سئلة ، فقال انى رأيت شاة فاولدها كلب و لدا ، فما حكم ذلك في الحل، فقال ﷺ اعتبره في الأكل ، فان اكل لحما فكلب ، وان اكل علفا فشاة ، فقال الاعرابى ، رأيته يفعل تارة هذا ، وتارة هذا ، فقال ﷺ اعتبره في الشرب ، فان كرع فهوشاة ، وان ولغ فكلب ، فقال الاعرابى رايته يلغ مرة، ويكرع مرة فقال ﷺ في المشى مع الماشية ، فان تأخر عنها فكلب ، وان تقدّم اوتوسّط فهوشاة فقال الاعرابى : وجدته مرّةً هكذا ومرةً هكذا ، فقال ﷺ ، اعتبره فى الجلوس، فان برك ، فشاة وان اقعى فكلب ، قال انّه يفعل مرّة هكذا ومرّة هكذا ، فقال ﷺ اذبحه فان وجدت له كرشا فهوشاة وان وجدت له امعاء فكلاب ، فبهت الاعرابى و كيف لاوهم عيبة علم الله ووجهه .

روي في عدّة كتب كالقمى ، والعياشى ، و البرهان ، و نور الثقلين ، و غير ذلك في تفسير قوله تعالى « وان من شيء الاّ وعندنا خزائنه وما ننزله الاّ بقدر معلوم » : قال ﷺ انّ في العرش تمثال جميع ما خلقه الله في البرّ والبحر ، فتبصر في هذا الحديث كى تعلم ،احاطة مرتبتهم، صلوات الله عليهم، على العرش ، بل العرش المعنوى هو حقيقتهم المقدسة المحيطة ، على العرش الجسماني ، فهم ، مطلعون على تمثال جميع ماخلقه الله ولاشكّ، انّهم نقطة العلم السارية في جميع الحروف الامكانيّة وهو النقطة تحت الباء والف الابتداء في الآلاء .

في معانى الاخبار وغيره انّه جاء يهودى الى النبىّ ﷺ و قال مامعنى حروف الهجاء ، و ما فائدتها ، قال النبىّ ﷺ لعلّى عليه السلام اجبه ، فقال علىّ عليه السلام مامن حرف من حروف الهجاء الاّ وله اسم من اسماء الله تعالي، امّا الالف: فالله الذى لااله

الآ هو ، والباء : باق بعد فناء خلقه ، والتاء توّاب الّذى يقبل التوبة عن عباده ، والثاء : الثابت الكائن الذى ثبّت الذين امنوا بالقول الثابت ، الجيم : جلّ ثناؤه ، الحاء : حليم حكيم ، الخاء : خبير بافعال عباده ، الدال : ديّان يوم الدين ، الذال : ذو الجلال والاكرام الراء : رؤف بعباده ، الزاء : زين المعبودين ، السين : سميع بصير ، الشين : شاكر لعباده المؤمنين ، الصاد : صادق الوعد ، الضاد : الضار النافع ، الطاء : الطاهر ، الظاء : المظهر للايات ، العين : عالم بالامور ، الغين : غياث المستغيثين ، الفاء : فالق الحب والنوى ، القاف قادر على خلقه ؛ الكاف : كاف لم يكن له كفوء ، اللام : لطيف بعباده ، الميم : مالك الملك ، النون : نور السموات من نور عرشه ، الواو : واحد احد لم يلد ولم يولد ، الهاء : هاد لخلقه ، اللاّ : لا اله الّا هو ، الياء : يدالله باسطة بالعطاء .

قال الله تعالى « واشرقت الارض بنور ربّها » قال ابن عباس : رب الأرض امام الارض وفي الزيارة واشرقت الارض بنور كم ، وقوله ﷺ الصورة الانسانيّة هى اكبر حجج الله على خلقه ، اشارة الى مرتبة المظهريّة الجامعه ، وتعبير الربية بمعنى الواسطة في الفيوضات الرحمانية ، وليس المراد من ذلك الربّ الحقيقي ، بل الربّ هنا بمعنى الوليّ والهادى والمرشد والأب والمربى واطلاق ذلك كلّه على الوليّ المطلق صحيح من باب الاشتراك المعنوى وهم في الممكنات بمنزلة القطب من الرحى ، والماء الذى به حيوة كلّشيء ، وخزانة الجود ، وماء الوجود ، ومجرى الفيوضات ، قال عليه السلام بنا عرف الله ولو لانا ما عرف الله ، وبنا عبد الله ولولانا ما عبد الله ، واليه الاشارة بقوله ، كلّشيء هالك الاّ وجهه ؛ روى الصدوق في توحيده عنه قال نحن وجه الله الّذى لا يهلك وان كبر عليك هذا المقال فاقول انّ حقيقة نورانيّتهم محيطة بسائر الانوار الامكانيّة ، كاحاطة النفس والقلب في بدن الانسان واعلم انّ الاعتقاد باحاطة علومهم لجميع الممكنات ليس مستلزما للتشبيه المنافي للتنزيه والتقديس ، فانّ علمه تعالى ، قديم ، ازليّ سرمديّ ، متّحد مع ذاته تعالى ، وعلمهم صلوات الله عليهم حادث ، فقير ، الى الله ، حصلت بتعليم الله ايّاهم متّصف بجميع لوازم الامكان : محتاج في وجوده وبقائه الى الواجب ، والنسبة بين الواجب والممكن تباين ؛ وعلى هذا البيان فالقول بالعلم الحضورى للنبيّ والائمة

في مقامهم النورانيّة وباعتبار حقائقهم المقدّسة ليس مستلزما لشيء من الشرك والتشبيه لكن جماعة من الشيعة فصّلوا بين مرتبتهم النورانية والجسمانية ، فقالوا بالعلم الحضوري في الاولى ، والحصولي في الثانية ، واهل النظر والتحقيق من العلماء قالوا انّ علمهم حصولي ، يعنى انّما يعلمون الممكنات كلّها بتعليم الله ايّاهم ، واحاطة علومهم بالجميع على ترتيب الحصول ، وليس لازما لذواتهم المقدّسة ، وليس العلم متّحداً ، مع حقائقهم على سبيل الحضور حتى يكون حضوريّا ، واستدلّ القائلون ، بالعلم الحضوري ، ببراهين عديدة ،

احد ها : انّهم حقيقة الوجود الامكاني ، والعقل الأوّل ، و الفيض المقدّس ، وخزّان الله في ارضه وسمائه على علمه ، وهذه المراتب مساوقة لمفهوم العلم ، اذ العقل مقابل وضدّ للجهل حيثما يستفاد من الاحاديث الواردة في العقل ، فظلمة الجهل ضدّ لحقيقته ، والوجود المنبسط هو النّور لأنّه الظاهر في نفسه ، والوجود المنبسط هو الواسطة في جميع الفيوضات ، ومجرى للرحمة الواسعة الرحمانيّة والرحيميّة ؛

الثاني انّهم النور ونور الانوار الّذي نوّرت منه الانوار باعتبار العلل الثلثة المادّية والصوريّة والغايية ، والنور مساوق للعلم وليست حقيقتهم مركّبة من العلم والجهل ، كي تتركب من النّور والظلمة و ظلمة الجهل ضد لحقيقة النور ، فساحتهم منزّهة من الجهل .

الثالث انّهم الصادر الاوّل فمرتبتهم محيطة باللوح المحفوظ ، واحاطتهم على ذلك دليل على الاحاطة العلميّة اذ العالي مطلّع على ما دونه ، قال الله تعالى و انّه في امّ الكتاب لدينا لعلّي حكيم ، وهذا مفسّر بعلي ﷺ والكتاب كناية عن اللوح المحفوظ وقد صحّ تنزيههم عن السهو و النسيان فكلّما علّمهم الله في العالم الأوّل من العلوم الربانيّة ، والفيوضات السبحانيّة من علومهم واطلاعاتهم المحيطة باللوح المحفوظ فهي باسرها باقية في حقائقهم الى السرمد لا يغفلون ، ولا ينسون ، ولا يجهلون ، وهم عين الله الناظرة ، منزهون ، ومقدّسون عن شائبة العمى المستلزم للجهل المعنوي.

في الحديث : اول ماخلق الله نور نبيّك يا جابر فصح انّهم القلم الأعلى ، و

بحقيقتهم حصل الانتقاش في اللوح المحفوظ ، والاحاطة بالعالي يستلزم لاحاطته بمادونه وقد صحّ بالبرهان والسمع ، انّ لهم الولاية الكليّة ، الى كافّة الممكنات، وهذه الولاية محيطة بامّ الكتاب و اللوح مشتمل على تمام العلوم .

الحاصل فالعلم اشرف جوهر لكن بشرط العمل والانتفاع بثمرته ، في الحديث روى ابوذر حضور مجلس العلم افضل من صلوة الف ركعة ، وعيادة الف مريض، وشهود الف جنازة ، فقيل او من قراءة القرآن ، قال و هل ينفع القرآن الاّ بالعلم ، ويكفيك ما في هذا الحديث الشريف من فضيلة العلم والعالم ، قال ﷺ النظر الى وجه الوالد عبادة ، والنظر الى الكعبة المكرّمة عبادة ، والنظر في المصحف عبادة ، والنظر الى وجه العالم عبادة ، من زار عالماً فكانّما زارني ، ومن صافح عالماً فكانّما صافحني ، و من جالس عالماً فكانّما جالسني ، ومن جالسني في الدنيا ، اجلسه الله معي يوم القيمة ؛ و في الحديث من اراد ان ينظر الى عتقاء الله من النار، فلينظر الى المتعلّمين ، فوالّذي نفس محمّد ﷺ بيده مامن متعلّم يختلف الى باب العالم الاّ يكتب الله له بكلّ قدم عبادة سنة ، ويبنى له بكلّ قدم مدينة بالجنّة ، ويمشي على الارض ، والارض تستغفر له ، و يمسى ويصبح مغفوراً له ، وبالعكس في الخبر الصحيح حكاية عن الله ، من عادى لي وليّاً ، فقد بارزني بالحرب ، وانّي لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث لشبله ، وفي التاويلات النجميّة وانّما كان آدم مخصوصاً بعلم الاسماء ، لانّه خلاصة العالم ، وكان روحه بذر شجرة العالم وشخصه ثمرة شجرة العالم ، وكان في كلّ جزء من اجزاء الشجره له منفعة ، ومضرّة ومصلحة ، ومفسدة ، فسمّى كلّشيء من تلك الاجزاء باسم ملائم تلك المنفعة والمضرّة بعلم علّمه الله ، وهذا ماكان الله علّم آدم و الملائكة لا يعلمون ، اقول انّما صار روحه بذر شجرة العالم وفضّل بهذه الفضيلة الّتي ما فضّل بها الملائكة من تعليم الاسماء باعتبار ثمرة الّتي كان في علم الله ان تحصل من تلك الشجرة ، ومسمّيات حاصلة من تلك الاسماء ، وهي ثمرة المحمديّة المخاطبة بلولاك لما خلقت الافلاك ، ولذلك شرّفه بهذا التشريف فاتّصف بسبب ذلك النّور المستور في صلبه هذا المقام العالي ، وكان من كمال حال آدم انّ تمام اسماء الله او اكثرها جاءت على منفعته فضلاً عن

اسماء غيره تعالى، و بيان ذلك انّه لمّا كان مخلوقاً ، كان الله خالقاً له ، ولمّا كان مرزوقاً كان الله رازقاً ، ولمّا كان عبداً كان الله معبوداً ، ولمّا كان عاصياً كان الله غفّاراً ، و لما كان تائباً كان الله توّاباً ، ولمّا كان منتفعاً كان الله نافعاً ، ولمّا كان متضرّراً كان الله ضاراً، ولمّا كان ظالموماً كان الله منتقماً فعليهذا اقس البواقي؛ قال السيّد المرتضى ان قيل من اين علمت الملائكة صحّة قول آدم ، ومطابقة الاسماء المسمّيات وهي لم تكن عالمة بذلك من قبل والكلام يقتضي انّهم لمّا انبأهم آدم بالاسماء علموا صحّتها ، فالجواب انّه جعل الله العلم الضروري بصحّة الاسماء ومطابقاتها للمسمّيات امّا عن طريق الى العلم ، او ابتداء بلا طريق، فعلموا بذلك صحّة قوله لهم ، وامّا علم الملائكة بانّه نبيّ فذلك ليس بالعلم الضروريّ ، حصل لهم ، بل حصل لهم بالاستدلال ،

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ »

ثم بيّن تعالى: ما اتاه آدم من الاجلال فقال واذكر يا محمّد ﷺ وقت قولنا « للملائكة لجميعهم لقوله فسجد الملائكة كلّهم اجمعون « اسجدوا لادم » اى خرّوا له ، والسجود في الاصل تذلّل مع تطامن ، فالمسجود له في الحقيقة ، هو الله ، فجعل الله آدم قبلة سجودهم تفخيما لشأنه ، وهو المرويّ عن ائمّتنا وجماعة مثل قتادة ، وعليّ ابن عيسى وعيسى بن الرماني ،

واستدلّوا بهذه الاية على انّ الانبياء افضل من الملائكة ، لانّه لايجوز تقديم المفضول على الفاضل ، وقال الجبائي، وابو القاسم البلخي، وجماعة انّه تعالى جعله قبلةً للملائكة فامرهم بالسجود الى قبلتهم ، واختلف في انّ الأمر ، للملائكة بالسجود : قيل : كان بخطاب من الله للملائكة ولابليس وقيل بوحي من الله الى من بعثه من رسل الملائكة وهل كان لجميع الملائكة حيثما ذكر وقال قوم : انّ الأمر كان خاصّا لطائفة من الملائكة كانوا مع ابليس ، اولئك الّذين طهّر الله الارض من الجانّ، ثم اختلف في ابليس ، هل كان من الملائكة ام من الجنّ ، فذهب قوم انّه كان من الملائكه ، و هو المرويّ عن ابن عبّاس ، وابن مسعود ، وقتاده ، واختاره الشيخ السعيد ابو جعفر الطوسي، قال و

هوالمروى عن ابيعبدالله والظاهر فى تفسيرنا ، ثم اختلف من قال انه من الملائكة ، فمنهم من قال انه كان سلطان سماءالدنيا ، و سلطان الارض ، و منهم من قال انه كان خازنا على الجنان ، ومنهم من قال انه يتردد ما بين السماء والارض ، وقال الشيخ المفيد ابوعبدالله محمدبن محمدبن نعمان انه كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة ، قال وقدجاءت الاخبار متواترة ، عن ائمة الهدى ، وهومذهب الامامية ، وهو المروى عن الحسن البصرى وعلى بن عيسى الرمانى والبلخى وجماعة واحتجوا على صحة هذا القول بوجوه .

الاول قوله الا ابليس كان من الجن ، ومن اطلق لفظ الجن ، لم يجزله ان يعنى به الا الجن المعروف ، وكل ما في القرآن من ذكر الجن مع الانس يدل عليه ، والثانى قوله لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون مايؤمرون فنفى المعصية عنهم نفياً عاماً ، والثالث ان ابليس له نسل وذرية ، قال الله افتتخذونه وذريته اولياء من دونى وهم لكم عدو والملائكة روحانيون ، خلقوا من الريح على قول ، ومن النور على قول بعض ، لا يتناسلون ولا يطعمون ، ولا يشربون ، وقالوا ان استثناء الله منهم لانه كان مامورا بالسجود معهم ، فلما دخل معهم فى الأمر ، جاز اخراجه بالاستثناء ، و قيل ان الاستثناء هنا منقطع ، وعن جميل ابن دراج عن ابيعبد الله ، قال سئلته عن ابليس اكان من الملائكة او كان يلى شيئا من امر السماء ، فقال لم يكن من الملائكة ، و لم يكن يلى شيئا من امر السماء ، و كان من الجن ، و كانت الملائكة ترى انه منها ، و كان الله يعلم به و يأمره ، فلما امر بالسجود لآدم كان منه الذى كان ، كذا رواه العياشى فى تفسيره واما من قال انه من الملائكة فانه احتج بانه لو كان من غير الملائكة ، لما كان ملوما بترك السجود ، فان الأمر انما يتناول الملائكة ، دون غيرهم ، فالجواب انه يمكن ان يكون مامورا بالسجود وما كان من الملائكة ، و يزيد هذا القول بياناً قوله « **مامنعك ان لا تسجد اذا امرتك** » ولاملازمة بين كونه ملكا ومامورا بالسجود فما كان ملكا ، لكنه كان مورا بالسجود ، و كان مخاطباً ولم يكن في جملتهم ، والدليل على كونه مخاطباً قوله « **مامنعك ان لاتسجد** » ولما اجاب بقوله خلقتنى من نار و خلقته من طين ، بل كان يجيب انك ماامرتنى بالسجود ، والخطاب في الآية للملائكة وخصو

بالذكر لانّهم اكثر ، واجاب القائلون بانّه من الملائكة عن الاحتجاج الأول بانّ قوله من الجنّ بانّ الجنّ جنس من الملائكة لاجتنانهم عن العيون ، وعن الثانى وهو قوله لا يعصون الله ما امرهم بانّه صفة لخزنة النيران لا لجميع الملائكة ، ولا يوجب عصمة لغيرهم ، وعن الثالث بانّه يجوز ان يكون الله ركّب في ابليس شهوة النكاح تغليظا عليه في التكليف وان لم يكن لسائر الملائكة ، او بعد ان اهبطه الله الى الارض تغيّرت بنيته ، وأمّا أنّ الملائكة خلقوا من النور ، والجنّ من النار ، والنار والنور سواء «**فسجدوا الا ابليس**» أبى واستكبر اللعين عن السجود ، وابليس ، قيل اسم اعجمّى ، لا ينصرف للعلمية والعجمة ، وقيل انه عربىّ مشتق من الابلاس ، و وزنه افعيل ، وله نظائر فى لغة العرب كاذميل للشفرة و اعريض للطلع ، واضريح اصبغ احمر ، وسيف اصليب ، ماض كثير الفرند ، وثوب اضريج مشبع الصبغ ، وقيل انّه اسم كان اعجمّى فعرّب وسبيله سبيل انجيل في انّه معرّب غير مشتق ومنصوب على الاستثناء المتّصل من الكلام الموجب ، او المنقطع على اختلاف القول في المسئلة .

الاستثناء من المحسّنات البديعيّة لكن ليس كلّ استثناء بل يشترط فيه اشتماله على معنى يزيد على المعنى الاستثناء اللغوى و الاّ لم يكن من البديع ، مثل قوله تعالى فسجد الملائكة ، فان فى هذا الكلام معنى زائد على معنى الاستثناء اللغوى وهو تعظيم امر الكبيرة الّتى ارتكبها اللعين ، من خرق اجماع الملائكة المؤكّدين بلفظ كلّ واجمع وذلك مثل قولك امر الامير بالمثول بين يديه فامتثل امره جميع الناس من وزير وامير الاّ فلانا ، فانت ترى ما في هذا التعبير معصية هذا العاصى ، و ليس كذلك قولك امر الامير بكذا فعصى فلان .

قال صلّى الله عليه وآله و سلّم : خلقت الملائكة من نور و من شان النور الانقياد و الطاعة ، واوّل من سجد جبرئيل ، فاكرم بانزال الوحى على النبيّين ، ثمّ ميكائيل ، ثم اسرافيل ثمّ عزرائيل ، ثمّ ساير الملائكة ، وقيل اوّل من سجد اسرافيل فرفع رأسه ، وقد ظهر كلّ القرآن مكتوباً على جبهته كرامة له على سبقه الى الائتمار ، والفاء في قوله «**فسجدوا**» لافادة مسارعتهم الى الامتثال الّا ابليس مرّ شرحه فما سجد

وانقادطبعه الناري ، وعن الحافظ انّ الجن والملائكة جنس واحد ، فمن طهر منهم فهو ملك ، ومن خبث فهو شيطان و من كان بين بين فهو جنّ ؛

« **ابى و استكبر** » : اي تعظّم واظهر كبره ، والتكبّر ان يرى الرجل نفسه اكبر من غيره ، و الاستكبار طلب ذلك بالتتبّع وبالتزيّن بالباطل وبماليس له ، فامتنع اللعين ، ولم يتوجّه الى آدم ، بل ولّاه ظهره وانتصب هكذا الى ان سجدوا وبقوا في السجود مائة سنة ، وقيل خمسمائة سنة ورفعوا رؤسهم وهوقائم معرض لم يندم من الامتناع ولم يعزم على الأتباع فلمّا راوه عدل وامتنع ولم يسجد ، وهم وُفّقوا للسجود . سجدوالله تعالى ، فصارلهم سجدتان ، سجدة الامر ، وسجدة لله شكرا ،وابليس ينظر مافعلوه ، قيل غيّر الله خلقه وهيئته ، فصار اقبح من كل قبيح ، وقيل جعل ممسوخا على مثال الخنازير ،ووجهه كالقردة ؛

والممسوخ وان كان لا يكون له نسل ولايبقى ، لكنّه لمّا سئل النظرة وانظر صار له نسل ، و في الخبر ، قيل له من قبل الحق اسجد لقبرا دم ، اقبل توبتك ، و اغفر معصيتك ، فقال ما سجدت لجثته وقالبه ، فكيف اسجد لقبره ، و في الخبر قال الحقي في تفسيره انّ الله تعالى يخرجه على رأس مائة الف سنة من النار ، ويخرج ادم من الجنّة ويامره بالسجود لآدم ، فيابى ثم يردّ الى النار ،

« **وكان من الكافرين** » : في علم الله او صار منهم باستقباحه امر الله ايّاه بالسجود لآدم وانّما قال سبحانه من الكافرين ولم يكن حينئذ كافر غيره لانّه كان في علم الله ان يكون بعده كفّارا وانّ الذى علم الله من حاله انّه يتوفّى على الكفر هو الكافر على الحقيقة اذا لعبرة بالخواتم و ان كان بحكم الحال مؤمناً ،

في العيون عن امير المومنين ﷺ انّه اوّل من كفروانشأ الكفر ؛ وعن الصادق ﷺ الاستكبار هو اوّل المعصية عصى الله به ، قال ﷺ فقال ابليس رب اعفنى عن السجود لادم وانا اعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ، فقال عزّ وجل لاحاجة لي في عبادتك ، انّما عبادتى من حيث اريد لامن حيث تريد ،

في الصافي قال على ابن الحسين ﷺ حدّثني ابى عن ابيه عن رسول الله قال يا عباد الله انّ آدم لمّا رأى النور ساطعا من صلبه اذ كان الله قد نقل اشباحنا من

ذروة العرش الى ظهره راى النور ولم يتبيّن الاشباح . فقال يا ربّ ما هذه الانوار ، فقال تعالى انوار اشباح نقلتهم من اشرف بقاع عرشي الى ظهرك و لذلك امرت الملائكة بالسجود لك اذ كنت وعاء لتلك الاشباح ، فقال آدم لو بينتها لى ، فقال الله انظر الى ذروة العرش فنظر آدم و وقع نور اشباحنا من ظهر آدم على ذروة العرش فانطبع فيه صور انوار اشباحنا التّى في ظهره كما ينطبع وجه الانسان في المرآت الصافية فرآى اشباحنا ، فقال ما هذه الاشباح يارب ، قال : يا آدم افضل خلائقى و بريّاتى هذا محمد و انا الحميد المحمود في فعالى ، شققت له اسماً من اسمى ، و هذا علىّ وانا العلىّ العظيم شققت له اسما من اسمى ، و هذه فاطمة وانا فاطر السموات والارض فاطم اعدائى من رحمتى يوم فصل قضائى و فاطم اوليائى عمّا يضرّهم ويشينهم ، فشققت لها اسما من اسمى ، وهذا الحسن والحسين ، وانا المحسن والمجمل ، شققت اسميهما من اسمى ، هؤلاء ، خيار خليقتى ، و كرام بريّتى ، بهم أخذو بهم اعطى ، وبهم اعاقب ، وبهم اثيب ، فتوسل يا آدم بهم الىّ ، واذا د هتك داهية ، فاجعلهم الىّ شفعائك . فانّى اليت على نفسى قسما حقّا ان لااخيّب بهم آملا ، و لا اردّ بهم سائلا انتهى الحديث . فحقيقة الفيض والسعادة من اوّل وجود الممكنات وايجادهم: طاعتهم ؛ وحقيقة الشقاوة مخالفتهم ، فهم اصل الشجرة الطيّبة ، وسدرة المنتهى ، ومرجع الكلّ اليهم ، والهداية ، بهم ، و فيهم ، ومنهم ، واليهم ، و عنهم ، و هذا معنى الزيارة ، ن ذكر الخير كنتم اوّله واصله ومعدنه ، و كلّما كثرت الاطاعة قربت منهم ، وبالعكس .

قال صدر الدين الباغنوى : يا هذا اجعل دنياك وقاية لاخرتك ؛ ولاتجعل اخرتك و قاية لدنياك ، يا هذا كلّ محنة الى زوال ، و كلّ نعمة الى انتقال ، مال لا ينفعك وبال ، وعلم لا يصلحك ضلال .

قال يحيى الرازى : الليل طويل فلا تقصره بالنوم ، و النهار مضيىء فلا تظلمه بالذنوب ، قيل لبشر الحافي لم لاتنام بالليل ، قال انّى سليم ، والسليم لا ينام وما دمت مطيعا لهواك لا تحتاج الى ازر فلو كانت في الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ففى صدرك اكثر ، والنفس هى الصنم الأكبر ،

مادر بتهابت نفس شما است ٥ زانكه آن بت مار واين بت اژدهااست

ولا اقول لك قم الليل الّا قليلا ، بل نم الليل الاّ قليلا ، ما هذه النسبة الكاذبة تدعّي انّك شيعة علّي ولا تتاسىّ به مطلقا ، وان كان لو بذلت جهدك كلّ المجهود لا تحتذى حذ وعبيده فضلاً عن ذاته الشريفة ، فانّه الامام المبين الّذى باحرفه يظهر المضمر ، وهو مظهر الاسماء فانّ حروف الهجاء الّتي خزانة الكلمة والاسم صفاته ﷺ

فاوّل الحروف ، الألف : هو الامر عن الله بالعدل والاحسان ، والباء : هو الباقر لعلوم الدين ، والتاء : التالى لسور القرآن ، والثاء ، الثاقب لحجاب الشيطان والباطل ، والجيم : الجامع لاحكام القرآن ، والحاء : الحاكم بين الخلق من الانس والجانّ والخاء : الخلى من المعصية والعيب والنقصان ، والدال : الدليل لاهل الايمان ، والذال : الذاكر ربّه في السّر والاعلان ، والراء : الراهب ربّه في الليالى اذا اشتدّت الظلمان ، والزاء : الزاهد في الفضل بلا نقصان ، والسين : الساتر لعورات العريان ، والشين : الشاكر لمنّ الواحد المنّان ، والصاد : الصابر يوم الضرب والطعان ، و الضاد : الضارب بحسامه رؤس اهل الشرك والطغيان ، والطاء : الطالب بحق الله غير متوان ، والظاء : الظاهر كلمة الحق على اهل الخسران ، والعين : العالى علمه على اهل الزمان ، والغين : الغالب بنصر الله للشجعان ، والفاء : الفارق بين اهل الحق والبطلان ، والقاف : القوى الأركان والكاف : الكامل بلا نقصان ، واللام : اللازم لا وامر الرحمن ، والميم : المتزوّج بخير النسوان ، والنون : النامى ذكره في القرآن ، والواو : الولّى لمن والاه بالايمان ، والهاء الهادى الى الحق لمن طلب البيان ، والياء : اليسر السهل لمن طلب منه الاحسان

وبالجملة فالحق احقّ ان يتّبع ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله ، وقد جعل الله الهداية في متابعته كما انّ الغواية في مخالفته ، ولا تنقص الكيل والميزان من عبادتك ، فانّ بعض الناس استحوذ عليهم الهوى ، فوقع في خاطرهم من الشبهات الفاسدة مثل ان يقول انّ الله غنى عن العالمين ، ولا يتفاوت بشأنه تعالى الطاعة و المعصية ، فلم نتكلّف مشقّة الطاعة ، وهذه الخاطرة غلط محض ، نعم انّ الله غنىّ عن الطاعة والمعصية ، لكنّى محتاج الى الطاعة ، وعن الاحتراز عن المعصية ، قال الله سبحانه ومن تزكّى فانّما

يتزكّى لنفسه ، وقال ومن عمل صالحاً فلنفسه ؛ فمثل هذا الاحمق مثل المريض الّذى يأمره الطبيب بالدواء والاحتماء ، و المريض يتكاهل في الدواء ولا يحتمى ، ويقول اذا لم اشرب الدواء ولااحتمى لايترتب على الطبيب ضرّ ، ولا يحصل له نفع ، نعم لايترتّب على الطبيب امر لكنّك تموت من مرضك ؛

وايضاً طائفة اخرى من الحمقاء يتجاوزون من حدود الله ؛ معتمدين بقولهم ان الله كريم رحيم ، هلّا يقول انّ الله شديد العقاب ، اما يرى انّ الخلق مادام لا يزرعون ولا يحصدون ، ولا يتعبون ، لايأكلون فانّ الله كريم ، فلم لايعطيهم من غير حصاد ، و بذر ، وتعب ؛ وايضاً طائفة اخرى من الحمقاء اغترّوا بالتقدير في الأزل ، وعطّلوا العمل ويقولون السعيد سعيد في بطن امّه والشقّى شقىّ في بطن امّه فاذن لايتغيّر الحال بالطاعة والمعصية ، اماسمعوا انّ النّبى صلى الله عليه وآله وسلم قال اعملوا و كلّ ميسّر لما خلق له ، و كلّ هذه الترهات من حبائل الشيطان ، وطلب الراحة من النفس الخبيثة ، والنفاق ، الكامن في القلب ، قال الله لعيسى ليكن لسانك وقلبك واحدا في السرّ والعلانية ، قال الصادق عليه السلام قال رسول الله ، ما زاد خشوع الجسد على ما فى القلب فهو عندنا نفاق ، فاستسلم مخلصا للامر ، فانّه العلم النافع ، و اعمل خالصا ، ودع هذه الفضوليّات والتصرفات فربّ علوم لاتنفع ، واعمال لاترفع ، ليس لاهلها منها الّا الكدّ القرائح و كدح الجوارح ، و ذلك لعدم الخلوص ، لن ينال الله اعطاف تتهافت ، ولا اطراف تتماوت ، و ليكن نياله قلب مشفق من النار يتلظّى ، وشوق الى الجنّة يتشظّى ؛ وعمل بالخلوص والامتثال مشفوع ، وعن النقائص مدفوع ، والمرء باكبريه ، عمله وايمانه ، ربّ معروف بالمكارم والمساعى وهو عند الله اهل المكاره والمساوى ، و موصوف بالحلم الراسى والعلم الراسخ وهو منها على اميال وفراسخ ، لانّه يملأ عينه من زينة الحيوة الدنيا ، وتقرّ عينه برؤيتها واقبالها ، والعبادة فيها حكم و مصالح لا يعلمها الاّ من امر بها ، منها انّها طهرة للقلوب عن احداث الذنوب واشتغال النفس بها عمّا فيه ضرر في الدين والنظم ، وبها يكمل صلاح المعاد ، ومعرفتك لخالقك بالوحدانية ، وبنبيّك بالرسالة ، ووصيّه بالخلافة ، كل هذه نافعة لك ، لانّ العبد اذا لم يعرف مولاه واسمه ورسمه ، ممّن يطلب رزقه ومسكنه ،

والاسم مادلّ على الذات الموصوفة بصفة معيّنة سواء كان لفظاً او حقيقة من الحقايق الموجودة في الاعيان فانّ الدلالة كماتكون بالالفاظ ، كذلك تكون بالذوات ، من غير فرق بينهما بل كلّ موجود من الاعيان بمنزلة كلام ، ودليل صادر عنه تعالى ، دالّ على معرفته بالربوبيّة ، ولسان ناطق بواحدنيّته ، كما انّ احتياجك شاهد ، دالّ ، ناطق بعبوديتك ، ولما كانت النفوس جاهلة وقاصرة عن درك هذا المعنى ، خلق في عالم الانوار ابتداء نفوساً وذوات مقدسة عن الجهل ، كانوا يسبّحون الله و يقدّسونه ، فجعلهم سبلا للخلق لمعرفته ، ثم ادرجهم في عالم الهيكل النورانى العلوى ، كي يعرفون الخلق خالقهم بسببهم ، لانّ الله لايعرّف من نحو ذاته لاحد ، والّالكان مدركا ، و محاطا ، وهو علامة الحدوث وانّما تعرّف الى عباده ، بماوصف به نفسه ، ولذا قال امير المؤمنين عليه السلام معرفتى بالنورانيّة ، معرفة الله ، ومعرفة الله معرفتى بالنورانيّة ، فحصر عليه السلام معرفة الله ، في معرفته ، و كما انّ لفظ كلمة لااله الاّ الله ، يدلّ على التّوحيد باللفظ ، كذلك ذلك الهيكل النورانى ، دالّ على توحيده تعالى بالعين ، وهذا التقرير معنى حديث حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ياحذيفة انّ حجّة الله عليكم بعدى على ابن ابيطالب ، الكفر به كفر بالله ، والشرك به شرك بالله والشك فيه شك في الله ، والالحاد عنه الحاد في الله ، الحديث على مافى الامالى لشيخ الصدوق قال : فى شرح قوله صلى الله عليه وآله وسلم الكفر به كفر بالله الخ ماهذا لفظه كانّى بالمتكلّفين يرتكبون المجاز فى توجيهه لانّهم يثبتون كفرين ، احدهما غير الاخر ، و ليس كذلك بل الكفر واحد ، والحاصل ، افهم معنى قوله عليه السلام ، معرفتى بالنّورانية معرفة الله ، ليس المراد انّك تعرفه انّه عليه السلام ختن رسول الله ، اوانّه قلع باب خيبر ، او انّه كان يصلّى بالليل الف ركعة بل انّه من الله خليفة على الخلق ، فاذاخالفت ذرّة من امره ، فقد خالفت الله ، تامّل كيف نصحك بكلمه جامعة لجميع الخير مانعة من جميع الشر ، وهى الزهد فى الدنيا لانّ العبادة والعبوديّة ، لا تحصل الاّ بالفراغة ، فلو يتصوّر انسان ، انّه يتمكّن من الجمع بينهما ، هيهات ، فقد ضرب فى حديد بارد ، ويكون مثاله مثال العابد الذى تعبّد تحت شجرة ، خضرة ، عظيمة ، كثيرة الاغصان ، كلّما توجّه فى محرابه للصّلوة ، وقد اجتمعت عصافير كثيرة ، و بلابل وصوّتت ، وشوّشت صلوته ، وهو يطردها بعصاه ، فيطردها

ويرجع الى محرابه ، فترجع العصافير ، الى ان اخذ مارسا فقطعها ، فاستراح ، وهكذا حال الدنيا، فاقلع شجرة محبة الدنيا حتّى تتمكّن من اقامة وظيفة عبوديّتك ، والّا فلا ، واذا استولت بك السلامة ، فجدّد ذكر العطب، وإذا اطمئن بك الأمن استشعر الخوف ، واذا احببت نفسك فلا تجعلنّ لها في الأسائة اليها سبيلا ، والتزم بكلمة التقوى حتّى يصبك من عمل قليل خير كثير ، اما سمعت حديثا رواه الكفعمي عن النبي ﷺ انّه قال لعليّ ؑ ما فعلت البارحه ، فقال ؑ صلّيت الف ركعة قبل ان انام ، فقال النبيّ ﷺ و كيف ذاك ، فقال علي ؑ سمعتك يارسول الله تقول : من قال عند منامه ثلاثاً « يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم مايريد بعزّته » فقد صلّى الف ركعة ، فقال النبي ﷺ صدقت يا على ؛ اقول : بشرط الولاية ، وجميع الطاعات مرهونة تحت نطاق الولاية .

في الوافي عن الصادق ؑ قال : انّ الله تعالى خلقنا من علّيين ، و خلق ارواحنا من فوق ذلك ؛ وخلق ارواح شيعتنا من علّيين ، وخلق اجسادهم من دون ذلك ، فمن اجل تلك القرابة بيننا وبينهم تحنّ قلوبهم الينا .

في امالي الطوسي عن الباقر ؑ : ماثبت الله حبّ على ابن ابيطالب في قلب احد فزلّت له قدم الّا ثبتت له قدم اخرى ، اقول انّ كلّنا يزعم انّه يحبّ عليّاً لكنّ الامر ليس بالدعوى ولكل امر حقيقة ، وعلامة محبّته صادقا ، ان يكون المحبّ متطهّراً بطهارات الثلاث : صغيرة ، و كبيرة ، و وسطى ، فالصغرى : غسل البدن الشهادي بالماء العنصري عن الخبث والحدث ، والوسطى : غسل الخاطر واللسان بماء الذكر التلقيني من خبث الشرك الخفيّ ، وحدث الظلمة الطبيعي ، والكبرى : عبارة عن غسل القلب عن التعلق من تلويثات الدنيا ، فهذه المراتب الثلاث ، اداب غسل المحبّ ، كما انّه ينبغي ان يتوضّأ خمسة وضوء . الأول ، وضوء القلب عن المكر والخدعة والحسد والكبر والعداوة ، والثاني ، وضوء اللسان عن الكذب والغيبة والزور والبهتان ، والثالث ، وضوء البطن عن الحرام والشبهة ، قال الله كلوا من الطيّبات ، والرابع ، وضوء الظهر عن لبس الحرام قال الله وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ، والخامس : وضوء الظاهر قال الله اذاقمتم الى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق ، فحينئذ وقيت نفسك عما يضرّك ، ودخلت في

حزب التقوى ، و صرت من تبعة علي ﷺ ، والزمتك كلمة التقوى ، ولا تصلح النفس ، ولا ينجلي عنها غشوات العمى ، الاّ بهذه الاداب والتكاليف ، وما من شيء يقرّب العبد من الله ، ويبعّد من الطاغوت الاّ وقد امر كم به الشرع ، ونهاكم عنه حتّى آداب بطنك و اكلك ، قال ﷺ : كلوا انصاف البطون ، قال علماء الاخلاق لاتطعم و لا تشرب حتّى تشتاق النفس اليهما ، وان تناولت منهما شيئا فلتبق من شهوتك لهما ، وادّب لسانك ان تصمت عن كلّ كلمة لايعنيك ، ولاتتكلّم بكلمة الّا ان تقطع بعدم ضرر تلك الكلمة ، و بدّل كلامك بذكر الله ، ولاتنساه ، فانّك ان ذكرته ذكرك ، ومن ذكره لايذلّ ولايخزى و كن عند امره ونهيه كالميّت بين يدى المغسل؛ هذا فى الحال واما المال ان لاترى لنفسك بما خوّلك الله ملكا فانّك لو صرت كذلك ، هان عليك الدنيا بمافيها ، وعامل الناس كما تحبّ ان يعاملوك ، وقلّل معاريفك بل تنكّر ما عرفت فانّ اعلم طبقات الناس ذئاب فى ثياب ، واوّل المفاسد المخالطة انّ اغلب طبقات الناس ابناء الدنيا الّا القليل من الاقلّ من الالف و احد ، فاذا خالطت معهم تستكسب من طباعهم ، والطبع مكتسب من كلّ مصحوب، فتنهمك شيئاً فشيئاً فى الدنيا فيضيع دينك ، ولو تصوّرت انّك تقدر ان تجمع راحة الدنيا ، ولذّت النفس مع سعادة الاخرة ، فهذا امر لم يخلقه الله والجمع غير ممكن ، و لعلّك بحمقك زعمت ان ايّام ظهور الحجّة تستريح من التعب ويطيب عيشك ، فتستلذّ يومئذ من الدنيا لانّك سمعت الحديث انّ فى دولة الحقّة يحملون الزكوة فى القرى على رؤسهم فلايجدون من يستحقّه وماعرفت معنى الحديث فذلك لالأجل اقبال الدنيا عليهم قال المحدّث النورى فى النجم الثاقب ، انّ السبب كثرة قناعة المؤمنين ، والاقتصاد على قدر الضرورة ، من المأكول ، والملبوس ، والمسكن والنكاح ، فلايحتاجون الى الزائد عن قدر الحاجة، فلايشتغلون فى تحصيل كثرة المال والعقار ، وذلك لانّه مناف مع الغرض من ظهوره ﷺ لانّه انّما يأتي ليدعوا الناس الى الله ، فيكمل علمهم ، وعملهم ، وحاشاه غير الزهد ، كما فى غيبة النعمانى عن الصادق ﷺ قال تطلبون خروج القائم ، فوالله اذا خرج لا يلبس الاّ الخشن ، ولا يأكل الاّ الجشب او من غير ادام و ليس له شغل الاّ السيف ، و فى رواية اخرى : ذكر عند الرضا عليه السلام

خروج الحجّة ، فقال ﷺ : اليوم انتم فى الراحة ، واذا خرج ليس الاّ الدّم والعرق والقوم على متون الخيل ؛ وفى رواية اخرى عن معلى بن خنيس ، قال قلت للصادق ﷺ ان كان يتمّ هذا الأمر لكم كنّا فى الراحـة معكم ، قال ﷺ : لو كان الامر يردّ الينا ، ما كان عيشنا الاّ عيش رسول الله وعلىّ صلوات الله عليهما ؛ فكن من اهل الهداية بان ترشد ضالاّ ، او من اهل الاهتداء بان تقبل نصح ناصح فى دينك ، تكن من اهل الحكمة ومن اهل القبول ، قال الله ومن يؤتى الحكـمة فقد اوتى خيرا كثيرا ، و مقرّ الحكمة ، قلب فارغ من محبّة الدنيا ، ولاتسكن فى بطن مملوّ من الحرام ، ولاتكن من الذين قضوا بالغفلة اعمارهم وشهورهم ونبذوا الحق وراء ظهورهم ، اذا وجدوا زخارف الدنيا نشطوا وتحلّوا ، واذا تلوت لهم آية من القرآن ولّوا ، فانتبه يانائم ، انسيت تاريخ عمرك ، اماترى فى المرآت وجهك وقد جفّت غصون المورقات ، ازعمت ان يعود العمر ، و كيف للانسان راحة وفرح وهو لايدرى انّ يوم القيمة حيث يقول الله هؤلاء فى الجنّة وهؤلاء فى النار وهو لا يدرى من ايّ الفريقين ، او حين يقال ، و امتازوا اليوم ايّها المجرمون ؛ فلا تحملك القدرة اليوم على تناول ما ليس لك ، و الشهوة فى ارتكاب باطل ، والراحة فى العدول عن حقّ ، فاخرج الفضل من مالك ، ليوم لاينفع مال ولابنون وامسك الفضل من قولك ، قال الصادق ﷺ قال رسول الله ﷺ من لم يحسب كلامه من عمله كثرت خطاياه ، وحضر عذابه ، وذلك لأنّ اللسان له تصرّف فى كلّ موجود و موهوم ومعدوم ولهيد ، فى العقليّات ، والخيالات ، والمسموعات ، والمشمومات ، والمبصرات ، والمذوقات و الملموسات فيجتمع عليه من كلّ وجه خطيئة فتكثر خطاياه ، و امّا غير اللسان فخطاياه محصورة قليلة مثل انّ السمع فقط خطيئته من المسموعات ، والبصر من المبصرات ، قال امير المؤمنين ﷺ من كثر كلامه ، كثر خطاءه ومن كثر خطاءه ، قلّ حياءه ومن قلّ حياءه ، قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه ، مات قلبه : و من مات قلبه ، دخل النار ؛ اماتعلم انّ اوّل منازل الاخرة ، القبر ، وهولك بمنزلة المهد للطفل ، وهو روضة دار ، اوحفرة نار ، فماتلقاه من الكرامة فيه بواسطة الايمان والعمل ، و ما يلقاه من العقاب بواسطة التقصير فى العبادات والحقوق ، فاوثق نفسك بقيد التقـوى ، و لا تغتر بكثرة

الاسباب وطول الأمل ، و كل رزقك باسنانك قبل ان تضرس ، وادر بالحق لسانك قبل ان تخرس ، واستقم قبل ان يصير الطهر حينه والمنية منيّة .

رجعنا الى التفسير - فلذلك حين زلّت منه الزّلة دعاالله تعالى بهم فيتب عليه و غفرت له ، وهذا كان سبب فضيلة آدم على الملك ، وسجودهم ايّاه ، فاعترفوا بالعجز و القصور ، وقالوا سبحانك لاعلم لنا ألا ماعلّمتنا لمّا قد بان لهم من فضل آدم وعلمه وما اودع فيه من الحكمة والانوار الطّيبة ، فصغر حالهم عند انفسم ، فغرقوا في بحر العجز وفوضّوا العلم الى الله ، وقالوا انّك انت العليم الحكيم ،

قال الفيض : وانّمالم يعرفوا حقائق الاشياء كلّها لاختلافها وتباينها وهم وحدانيّة الصفه اذ ليس فى جبلّتهم خلط وتركيب ولهذا لايفعل كلّ صنف منهم الاّ فعلاً واحداً ، فالراكع منهم ، راكع ابداً ، و الساجد منهم ساجد أبداً ، و القائم منهم كذلك ، كما حكى الله عنهم بقوله : وما منّا الاّ له مقام معلوم ، ولهذا ليس لهم تنافس وتباغض الى امثالهم مثال الحواس ، فانّ البصر لايزاحم السمع فى ادراك الاصوات ، ولاالشّم يزاحمهما ، ولا هما يزاحمان الشّم ، و الذوق ، فلاجرم مجبولون على الطاعة ، يسبّحون الليل والنهار لايفترون ، فكلّ صنف منهم ،مظهر لاسم واحد من الاسماء الالهيّة لا يتعدّاه و فاقهم آدم بمظهريّته الشاملة . انتهى كلامه .

«وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» قيل : أنّ الله تعالى اخرج ابليس ، عند كفره ، وابعده عن الجنّه ، وبعد اخراجه قال يا آدم اسكن ، أى لازم الاقامة ، واتخذها سكنا ، واستقرّ الجنّة وزوجك حوّاء ، يقال للمرء الزوج ، والزوجة ، والزوج افصح ، وانّما لم يخاطبها اوّلاً تنبيها على انّه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تبع له .

«الجنة» هى دار الثواب ، خلافاً لبعض المعتزلة حيث قالوا المراد بالجنّة هنا بستان كان في ارض فلسطين : او بين فارس و كرمان خلقه الله امتحانالادم ، واوّلوا الهبوط بالانتقال منه الى ارض الهند ، كما في قوله تعالى مصرا ، وقال ابوهاشم هى جنّة من جنان السّماء ،غيرجنّة الخلد ، لأن جنّة الخلدا كلها دائم ، ولاتكليف فيها ، واستدل

بعضهم على انّها لم تكن جنّة الخلد ، فقوله حكاية عن ابليس هل ادلّك على شجرة الخلد فلو كانت جنّة الخلد لكان آدم عالماً بذلك ولم يحتج الى دلالته ، ولم يخرج منها ، و هذا الكلام ليس بمحكم لانّ ذلك انّما يكون اذا استقرّ اهل الجنّة فيها للثواب لا يخرج منها ، فامّا قبل ذلك فمانبت وانّما كان وسوسة ابليس لعلّ من خارج الجنّة من حيث يسمعان كلامه ، واختلفوا في خلقة حواء ، هل كانت قبل دخول الجنّة او بعده ، ويدلّ على الاوّل ما روى عن ابن عباس انّه بعث الله جنداً من الملائكة ، فحملوا آدم وحوّاء على سرير من الذهب مكلّل بالياقوت واللؤلؤ و الزمرّد وعلى آدم منطقة مكلّلة بالدرّ والياقوت حتّى ادخلوهما الجنّة ، ويدلّ على الثاني ما روى عن ابن مسعود : انّه لمّا خلق الله الجنّة واسكن آدم فيها ، بقي فيها وحده ، فالقى الله عليه النوم ، ثم اخذ ضلعا من اضلاعه ،من الجانب الايسر ، ووضع مكانه لحماً ، وخلق منه حوّاء ، ومن الناس من يقول لا يجوز هذا ، لانّه يكون نقصاناً منه ولا يجوز ينقص الانبياء ، لكن هذا الكلام ليس بشيء ، لو كان واقعاً لانّه جعلها سكنه ، و ازال بها وحشته و حزنه ، فلمّا استيقظ آدم من نومه ، وجدها عند رأسه قاعدة ، فسألها من انت ، فقالت انّي امرأة ، فقال ولم خلقت ، قالت لتسكن اليّ واسكن اليك ، فقالت الملائكة يا آدم ما اسمها ،قال : حوّاء ،قالوا : ولم ، قال : لانّها خلقت من حيّ ،اولانّها اصل حيّ اولأنّها كانت في ذقنها حوّة ،اى حمرة مائلة الى السواد،وسمّيت مرأة لانّها خلقت من المرء ، كما ان آدم سمّي بآدم لأنّه خلق من اديم الارض ، وعاشت بعد آدم سبع سنين وسبعة أشهر ، وعمرها تسع مائة سنة ، وسبع وتسعون سنة ، واعلم ان الله خلق واحداً من اصل دون امّ وهو حوّاء ، وآخر من امّ دون اب وهو عيسى ، وآخر من اب وامّ وهو اولاد آدم ، وآخر من غير اب وامّ وهو آدم.

سبحان من اظهر من عجائب صنعه ما يتحيّر العقول ، في كتاب السماء والعالم قال سيّد ابن طاوس وجدت في صحف ادريس من نسخة عتيقة في حديث المشهور ، وهو خلق الله آدم على صورته ماهذا لفظه من حديث طويل وهو فخلق الله آدم على صورته التي صوّرها في اللوح المحفوظ ، قال سيّد بن طاوس: فاسقط بعض المسلمين ، بعض هذا الكلام وقال انّ الله خلق آدم على صورته ، فاعتقد التجسّم ، فاحتاج المسلمون الى التأويلات في

الحديث ، ولو نقله بتمام الحديث استغنى عن التاويل ؛ وانّ الله خلق حواء لامر يقتضيه الحكمة ، ليدفع آدم وحشته بها لكونها من جنسه ، وليبقى الذريّة على مرّ الأزمان ، الى ساعة القيام ، فانّ بقائها سبب لبعثه الانبياء ، وتشريع الشرائع ، ونتيجة الامر معرفة الله، وفي الزوجيّة منافع كثيرة دينيّة ودنيويّة واخرويّة ، قيل فضل المتأهّل على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وقالوا انّ يحيى قد تزوّج لنيل الفضل ، و اقامة السنّة ، و لكن لم يجامع لكون ذلك عزيمة في تلك الشريعة ، ولذلك مدحه الله بكونه حصوراً .

وفي الحديث ركعة من المتأهّل ، أفضل من سبعين ركعة من عزب ؛ قال الحقيّ في روح البيان : هذا كلّه لكون التزوّج سبباً لبقاء النسل ، وحفظاً من الزنى ، والترغيب في النكاح يجرى الى مايجاوز المائة الاولى من الالف الثانى ، كما قال ﷺ اذا اتى على امّتى مائه و ثمانون سنة بعد الالف ، فقد حلّت العزوبة والعزلة ، والترهّب على رؤس الجبال وذلك لأنّ الخلق في المأتين اهل الحرب والقتل فتربية جرد حينئذ خير من تربية ولدو ان تلد المرأة حيّة ، خير من ان تلد الولد .

«و كلا منها» اى : من ثمار الجنّة اكلاً «رغداً» واسعاً را فهاً من غير تقدير و لا تقتير ، والامر امر اباحة ، وقيل امر تكليف قاله قتادة .

«حيث شئتما» : اى مكان من الجنّة اردتما ؛ «ولا تقربا هذه الشجرة» بالأكل ، والشجرة منصوب على انّه بدل من اسم الاشارة اونعت له بتاويلها بمشتق : اى هذه الحاضرة من الشجر ، و علّق النهى بالقربان منها ، مبالغة في المنع عن الأكل ، و لزوم الاجتناب عنها ، والمراد بها البرّ والسنبلة عن ابن عباس ؛ وقيل هى الكرمة عن ابن مسعود ، وقيل هي التينة ، و قيل هى شجرة الكافور ، و قيل غير ذلك ، و المراد بالسنبلة ، الحنطة ، وهو اقرب عند الصوفية ، لأنّ النوع الانسانىّ ظهر في دور السنبلة و كان عليها من كلّ لون ، وثمرها احلى من العسل ، والين من الزبد ، و اشدّ بياضا من الثلج ، كلّ حبّة من حنطتها مثل كلية البقر : وقد جعلها الله رزق اولاده في الدنيا فلمّا تناول هو السنبلة ، ابتلى اولاده بحرث السنبلة .

قال الرازى : قوله ولا تقربا ، انّ هذا نهى تحريم ، او نهى تنزيه ، فيه خلاف ،

فقال قائلون هذه الصيغة لنهى التنزيه ، وذلك لأنّ هذه الصيغة وردت تارة في التنزيه واخرى فى التحريم والاصل عدم الاشتراك ، فلا بدّ من جعل اللفظ حقيقة فى القدر المشترك بين القسمين ، وما ذلك الّا ان يجعل حقيقة فى ترجيح جانب الترك على جانب الفعل من غير ان يكون دلالة على المنع من الفعل ، او على الاطلاق فيه ، لكنّ الاطلاق فيه كان ثابتا بحكم الاصل فانّ الأصل فى المنافع ، الاباحة ، فاذا ضممنا مدلول اللفظ الى هذا الاصل صار المجموع دليلا على التنزيه ، قالوا وهذا هو الاولى بالمقام لأنّه حينئذ يرجع امر آدم الى ترك الاولى ، ومعلوم انّ كلّ مذهب يفضى الى عصمة الانبياء كان اولى بالقبول ،

وقال بعض : انّ هذا النهى تحريم ، واحتجّوا بدلائل ضعيفة ، مثل ان قالوا انّ قوله ولا تقربا هذه الشجرة ، مثل قوله ولاتقربوهنّ حتّى يطهرن ، وقوله فتكونا من الظالمين و قالوا : لو انّ هذا النهى نهى تنزيه لما استحقّ آدم بفعله الاخراج من الجنّة ، والجواب عن الأوّل انّ النهى وان كان فى الاصل للتنزيه ، ولكنّه قد يحمل على التحريم لدلالة منفصلة ، و عن الثانى انّ قوله « فتكونا من الظالمين » اى فتظلما انفسكما بفعل ما الاولى بكما تركه ، لأنّكما اذا فعلتما ذلك ، اخرجتما من الجنّة الّتى لو كنتما فيها لا تظمأن ولا تجوعان ، و عن الثالث انّه : لانسلّم انّ الاخراج كان لهذا السبب ،

اقول : انّ جملة من الناس بسبب فرعونيّتهم و كفرهم ، يحسدون ذوى النعمة حيث انّهم فاقدوا تلك النعم ، فيريدوا ان يستروا قبائحهم وهى لاتستر فينسبون قبيحة الى غيرهم حتّى اذا ارادوا ان يشاركوهم في الرتبة لايكون قبائحهم مانعة عن المشاركة ويابى الله الّا ان يتمّ نوره ؛ فمنهم الحشويّة الذين يجوّزون الكبائر ، على جهة العمد للانبياء ، ومنهم من لايجوّز عليهم الكبائر ، لكنّه يتجوّز عليهم الصغائر ، على جهة العمد ، الّا ما ينفر كالكذب والتطفيف وامثالها وهذا قول اكثر المعتزلة ، و قال بعضهم انّه لايقع منهم الذنب ، الّا على السهو والخطاء ولكنّهم مأخوذون بما يقع منهم على هذه الجهة ، وان كان ذلك موضوعا عن امّتهم ، و ذلك لانّ معرفتهم اقوى و دلائلهم

اكثر وانّهم يقدرون من التحفّظ على مالايقدرعليه غيرهم ، وهذه الاقوال كلّهاسخيفة ، والقول الصحيح والمذهب الحقّ انّه لايقع منهم الذنب ، لاالكبيرة ولا الصغيرة لاعلى سبيل القصد ، ولا على سبيل السهو والخطاء ولا على سبيل التأويل ، لأنّه لو صدر الذنب عنهم ، لكانوا اقلّ درجة من الامّة ، الا ترى الى قوله تعالى «يانساء النبىّ من يات منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لهاالعذاب ضعفين» وبتقدير اقدامه على المعصية والفسق وجب حينئذان لايكون النبىّ مقبول الشهادة لقوله « إن جاءكم فاسق بنباء فتبيّنوا » لكنّه مقبول الشهادة ، والا ّكان اقلّ حالاً من عدول الامّة ، ولامعنى للنبوّة والرسالة ، الّا انّه يشهد على الله بانّه شرع هذا الحكم وذاك ، وايضافهو يوم القيمة شاهد على الكلّ لقوله «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » وايضافبتقدير اقدامه على المعصية يجب زجره عنها ، فلم يكن ايذاءه محرّما ، لكنّه محرّم لقوله «انّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنياوالاخرة» والدليل الاقوى من الكلّ انّ محمّداً صلّى الله عليه وآله لواتى بالمعصية ، لوجب علينا الاقتداء به فيها لقوله فاتّبعونى ، فيفضى الى الجمع ، بين الحرمة والوجوب ، وهو محال ، واذا ثبت ذلك في حقّ محمّد صلّى الله عليه وآله ، ثبت ايضا فى سائر الانبياء ضرورة أنّه لاقائل بالفرق ، ثمّ انّه وقع الاختلاف في وقت العصمة فمنهم من قال انّ وقت عصمتهم ، وقت بلوغهم ، ولم يجوّزوا ارتكاب الكفر والمعصية منهم قبل النبوّة ، وهوقول اكثر المعتزلة ، ومنهم من ذهب الى انّ ذلك لايجوزوقت النبوّة وامّا قبل النبوّة فجائز وهو قول اكثر اصحاب السنّة والجماعة ، وهذين القولين فاسد و الصحيح انّهم مهذّبون معصومون من وقت مولدهم و هو قول الاماميّة ، و كيف يجوزان يكون صلّى الله عليه وآله معصوما من حين بعثته ونبوّته ، وامّا قبل ذلك فلا وهويقول : كنت نبيّا وآدم بين الماء والطين ، ولانّ الله تعالى قال فى حقّهم «وانّهم عندنا لمن المصطفين الاخيار » و قال : الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس » فهذه الايات دالّة على كونهم موصوفين بالخيريّة والاصطفاء ، وهو تعالى لا يختار من هو شانه المعصية ، و لا يصطفى الّا الماحض الخير ، وذلك ينافي صدور الذنب انتهى .

« فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » اى : ان تقربا هذه الشجرة تكونا من الظالمين ،

قيل استحقاق اللوم بالنهي التنزيهي ، من قبيل حسنات الابرار سيّئات المقرّبين .

« فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » «فازلهما الشيطان عنها» اى : اذهب آدم و حوّاء، و ابعدهما عن الجنّة ، والازلال : الازلاق ، والزّلّة بالفتح : الخطاء والزوال عن الصواب و قد حصلت الزلّة لهما بالوسوسة والغرور وفي كيفيّة وصول ابليس الى آدم حتّى وسوس لهما بعد ان اخرج من الجنّة ، قيل انّه لم يكن ممنوعا من الدّنومنهما ، بل منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة ، ولم يمنع من الدخول للوسوسة ، ابتلاء لادم و حوّاء و قيل انّه يكلّمهما من الارض بكلام عرفاه وفهماه منه ، وقيل انّه دخل جانب الشدق من الحيّة ، والقول الاوّل اصح لانّه لويقدران يدخل في شدق الحيّة و يدخل الجنّة يقدران يصيرحيّة ، و كذلك الوسوسة كلام خفيّ ، والخطاب من الارض بحيث سمعاه مناف مع معنى الوسوسة.

« **فاخرجهما ممّا كانا فيه** » : من النعيم والكرامة ، وطريق وسوسته ، بقوله ما نها كما ربّكما عن هذه الشجرة الّا ان تكونا ملكين ، اوتكونا من الخالدين فصدّقه هو وزوجته ، وسئل ابومدين عن خروج آدم من الجنّة على وجه الارض ، ولم تغذّى باكل الشجرة بعدالنهي ، فقال لو كان ابونا يعلم انّه يخرج من صلبه مثل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لكان يأكل عرق الشجرة فكيف ثمرها ليسارع في الخروج على وجه الارض ليظهر الكمال المحمّدي والجمال الأحمدي صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وفي صدور الزلّة قال جماعة : انّها صدرت عنه ناسياً ، لاعامداً ، واحتجّوا عليه بقوله تعالى « فنسى ولم نجد له عزما » ومثّلوه بالصائم ، فيشتغل بامر يستغرقه ، فيصير ساهياًعن الصوم ، ويأكل في اثناء ذلك السهو ، قال الرازى : وهذا باطل لانّ قوله تعالى: مانها كما ربكما عن هذه الشجرة الّا ان تكونا ملكين ، وقوله : وقاسمهما انّى لكما لمن الناصحين ، يدلّ على انّه كان ذاكراً حال الاقدام ، ورواية ابن عباس يدلّ على انّ آدم تعمّد لانّه قال لمّا اكلا منها فبدت لهما سواتهما ، خرج آدم ، فتعلّقت بآدم شجرة من شجر الجنّة فحبسته ، فناداه الله : افرارمنّى ، فقال : بل حياء منك ، فقال له اما كان فيما

منحتك من الجنّة مندوحة عمّا حرّمت عليك ، قال بلى ولكنّي وعزّتك ماكنت ارى انّ احدا يحلف بك كاذبا ، فقال و عزّتي لأهبطنّك منها ثمّ لاتنال العيش الّا كدّا ، و ردّ بعض تعمّد آدم في الأكل ، و قال كان على وجه النسيان كما في الاية فنسى و لم نجد له عزما ، وقالوا وماروى عن ابن عباس في الحديث المذكورفهو مروىّ بالاحاد فكيف يعارض القرآن ، وكيف نسلّم انّ آدم وحوّاء قبلا من ابليس ذاك الكلام ، لأنّ اللعين القى اليهما سوءالظّن بالله ، ودعاهما الى ترك التسليم لامره ، و مثول الامر بان يعتقدا فيه كون ابليس ناصحالهما ، وانّ الله قد غشّهما ، ولا شكّ مثل هذا الاشياء اقبح من اكل الشجرة ، ثمّ انّ آدم كان عالماً ببغضه ايّاه لمسئلة السجود والحسد له ، فكيف يقبل من مثل هذا العدوّ فان قيل اذا كان الامر كذلك كيف مثل هذا العتاب قالوا انّما حصل على ترك التحفّظ من اسباب النسيان ، ولعلّ هذا الضرب من السهو موضوع عن الامّة ، وقد كان يجوز انّه يؤاخذوا به ولايكون بموضوع عن الانبياء لعظم خطرهم ، و مثّلوه بقوله : «يانساء النبيّ لستنّ كاحدمن النساء الايه » واشدّ الناس بلاءً الانبياء ثمّ ، الاولياء ، ثمّ الامثل ، فالامثل ، قالواولقد كان على النّبي ﷺ من التشديدات في التكليف مالم يكن على غيره (انتهى كلامهم)

والحاصل انّ الجواب في الكلمات من اهل الطبقات ، انّ النهى في الآية محمولة الى التنزيه ، والامور المترتّبة بعد الأكل من مقتضيات الحكمة ؛ والّا لايسع هذا المختصر بيان مختلفات الكلام واسئلتهم واجوبتهم .

«**وقلنا اهبطوا**» : من قال انّ جنّة آدم في السماء فسرّ الهبوط بالنزول ، من العلو الى السفل ، ومن قال انّها كانت في الارض فسرّه بالتحوّل من موضع الى غيره كقوله : اهبطوا مصرا ، والخطاب بالجمع ، خاطب آدم و حوّاء وابليس ، لأنّ ابليس ولو كان قبل ذلك مخرجا من الجنّة ، لكن ماكان ابليس ممنوعاً من الدنّو الى آدم امتحاناً ، فالخطاب شملهم جميعا اولأنّهم قداجتمعوا في الهبوط ، وان كانت اوقاتهم متفرّقة ، و قيل انّه اراد آدم ، وحوّاء ، و ذريّتهما ، لأنّهما لمّا كانا اصل الذريّة ، جعلا كانّهم الانس كلّهم ، والحكم عمّهم و ان لم تكن الذريّة موجودين ، وقيل اقلّ الجمع اثنان ، فخوطبا

بالجمع ، قال الطبرسي ولم يكن اهباطهما الى الارض على وجه العقوبة ، لأنّ الدليل قد دلّ على انّ الانبياء لايجوز عليهم القبائح على حال و من اجاز العقاب على الانبياء فقد اساء عليهم الثناء ، و اعظم الفرية على الله ، وانّما اهبطه ليكون خليفة الله في ارضه ، وهذه منقبة عظيمة ، و انّ المصلحة قد تغيّرت بتناوله الشجرة ، فاقتضت حكمته ابتلاء آدم بالتكليف والمشقّة ، و سلبه ايّاه من ثياب الجنّة ، لأنّ انعامه عليه بذلك ابتداء كان على وجه التفضل ، فله ان يمنع ذلك بتشديد الامتحان والبلوى ، وهو تعالى بحسب المصلحة ، يسقم بعد الصّحة ، ويفقر بعد الأغناء ، و يعقّب المحنة بعد المنحة ، و له ان يفعل ما يشاء ، ثمّ انّه تعالى اذا سلبه ثياب النعمة من الجنّة ، البسه خلعة الخلافة الالهيّة .

«**بعضكم لبعض عدوّ**» يعني : آدم وذرّيته ، وابليس وذرّيته ، فعداوة آدم له ايمان ، وعداوة ابليس له كفر ، و قوله بعضكم لبعض عدوّ حال استغنى فيها عن الواو بالضمير ، اى متعادين بعضكم لبعض ، وليس في الاية امر بالتعادى ، بل امر بالهبوط واخبار بحصول العداوة ، و انّما اسّس ابليس العداوة حيث استكبر وحسد آدم ، فالعداوة حصلت بفعله اللعين ، ولو انّ آدم امر بعداوته بعد عداوة ابليس ايّاه ، حيث قال سبحانه « انّ الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا » والعدوّ يصلح للواحد والجمع .

« **ولكم في الارض مستقرّ ومتاع الى حين**» اى : موضع قرار ، و استمتاع الى حين ، قيل الى فناء الاجال ، و حصول الموت ، او المراد مدّة الحيوة ، والقبر ، الى يوم القيمة . و قوله الى حين ، ليعلم آدم انّه غير باق فيها ، ولمّا هبطوا وقع آدم بارض الهند على جبل سرانديب ، و لذلك طابت رائحة اشجار تلك الاودية لمامعه من علاقة الجنّة ، ووقعت حوّاء بجدّه ، وبينهما سبعمائة فرسخ ، والحيّة بسجستان او باصفهان ، بناءً على صحّة الحيّة ، والطاوس بمرج الهند ، وابليس بسدّ يأجوج ومأجوج فبعد الهبوط ابتلى آدم بالحرث والكسب ، وحوّاء بالحيض والحبل و الطلق و نقصان العقل ، وجعل الله قوائم الحيّة في جوفها وجعل قوتها التراب ، وقبح رجلي الطاوس ، و جعل ابليس با قبح صورة ، وافضح حالة ، وكان مكث آدم وحوّاء في الجنّة من وقت الظهر الى وقت العصر من يوم من ايّام الاخرة ، وكلّ يوم من ايّام الاخرة كالف سنة من ايّام الدنيا .

« فتلقىٰ آدمُ من ربّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ إنّهُ هوَ التوّابُ الرّحيمُ »

التلقّى نظير التلقّن، تلقّنت منه اى اخذت وقبلت منه، واصله من اقيت خيرا، اى قبل واخذ وتناول آدم على سبيل الطاعة من ربّه كلمات واستقبلها بالقبول، و على قرائة من قرء فتلقّى آدم كلمات لا يكون معنى التلقّى، القبول، بل معناه انّ الكلمات تدار كته بالنجاة والرحمة ، واختلف فى الكلمات ماهى، فقيل هى قوله تعالى ربّنا ظلمنا انفسنا الآية.

وفى الكافى عن احد هما عليهما السلام انّ الكلمات لا اله الّا انت سبحانك اللّهم وبحمدك عملت سوء وظلمت نفسى فاغفرلي وانت خير الغافرين ، لا اله الّا انت سبحانك اللّهم وبحمدك عملت سوءً وظلمت نفسي فتب عليّ انّك انت التوّاب الرحيم ، وفى رواية بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ، وفي رواية آخر بحقّ محمّد وآل محمّد صلوة الله عليهم اجمعين ، و في تفسير الامام لمّا زلّت من آدم ، الخطيئة واعتذر الى ربّه قال يارب تب علىّ ، واقبل معذرتى واعدنى الى مرتبتى ، وارفع لديك درجتى ، فلقد تبيّن نقص الخطيئة وذلّها باعضائى وسائر بدنى ، قال الله يا آدم اما تذكر امرى ايّاك بان تدعونى بمحمّد و آله ﷺ عند شدائدك و دواهيك وفي النوازل بتهظك ، قال آدم بلي ، قال الله : فبهم اي بمحمّد وعليّ وفاطمة والحسن و الحسين خصوصاً فادعني اجبك الى ملتمسك وازدك فوق مرادك ، فقال آدم : يارب وقد بلغ عندك من محلّهم انّك بالتوسّل بهم تقبل توبتى و تغفر خطيئتي و انا الّذى اسجدت له ملائكتك ، و ابحته جنّتك ، و زوّجته حوّا امتك ، و اخدمته كرام ملائكتك ، قال الله : يا آدم انّما امرت الملائكة بتعظيمك بالسجود لك ، اذ كنت وعاءً لهذه الانوار ولو كنت سئلتنى بهم قبل خطيئتك ان اعصمك منها و ان افطنك لدواعي عدوّك ابليس حتّى تحترز منه ، لكنت قد جعلت ذلك ولكنّ المعلوم فى سابق علمى يجرى موافقا لعلمى ، و لكنّ فالان فبهم ادعنى لأجبك ، فعند ذلك قال آدم : اللّهم بجاه محمّد و عليّ و فاطمة والحسن والحسين والطيّبين من آلهم لمّا تفضّلت بقبول توبتى وغفران ذنوبى وزلّتى ، واعادتى من كراماتك الى مرتبتى ، فقال الله : قد قبلت توبتك ، واقبلت برضوانى

عليك، وصرفت آلائي ونعمائي اليك، واعدتك الى مرتبتك من كراماتي، و وفّرت نصيبك من رحماتي فذلك قوله: فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه انّه هو التوّاب الرحيم انتهى. وقد صحّ بالبرهان والقرآن، افضليّة وجود محمّد واوصيائه صلوات الله عليهم وانّهم هم العلّة الغائية لجميع المخلوقات، وتقدّم وجودهم في العوالم الستّة من الأنوار و العقول والارواح والذّر والطينة وهذا العالم الدنيوى؛ قال امير المؤمنين عليه السلام انا الّذى ولايتى ولاية الله، وقال عليه السلام: معرفتي بالنورانية معرفة الله، ومعرفة الله معرفتى، فهم احقّ بوسائط الفيض من الله على العباد من كلّ خلق خلقه الله تعالى، فاحتاج آدم عليه السلام الى التوّسل بانوارهم فانّ حقائقهم المقدّسة جامعة للمراتب النورانيّة والبشريّة، واوّل الدرجات الامكانيّة، وفاق فضلهم فضل العالمين؛

وعن ابن مسعود: انّ احبّ الكلام الى الله تعالى، ما قال ابونا آدم عليه السلام حين اقترف الخطيئة سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك لااله الّا انت ظلمت نفسى فاغفر لى انّه لايغفر الذنوب الّا انت.

قال الحقّى في روح البيان: وعن النبيّ صلى الله عليه وآله انّ آدم قال بحقّ محمّد ان تغفر لى، قال الله وكيف عرفت محمّدا، قال لمّا خلقتنى، ونفخت فىّ الروح، فتحت عينى، فرأيت على ساق العرش، لااله الّا الله، محمّد رسول الله، فعلمت انّه اكرم الخلق عليك حتّى قرنت اسمه باسمك، فقال الله نعم و غفر له بشفاعته، او الكلمات هى قول آدم عليه السلام عند هبوطه من الجنّة: يا ربّ الم تخلقنى بيدك من غير واسطة، قال بلى، قال يا ربّ الم تسكنّى جنّتك، قال بلى، قال الم تسبق رحمتك غضبك، قال بلى، قال ارايت ان اصلحت و رجعت وتبت، اراجعنى انت الى الجنّة، قال نعم؛ فالكلمات هى العهود الانسانيّة والمواثيق الآدميّة، والمناجاة الربّانية، من الخليفة الى حضرت الحقّ تعالى، فتاب آدم الى الله بالرجوع والاعتراف بذنبه وخطاه وسهوه، وقيل الكلمات: سبحان الله، والحمد لله ولا اله الّا الله، والله اكبر.

«**فتاب عليه**»: اى فرجع الربّ عليه بالرحمة وقبول التوبة؛ «**انّه هو التوّاب الرحيم**»: اى كثير القبول للتوبة. يقبل مرّة بعد اخرى، ومعنى فتاب عليه: فتاب عليهما

وانما لم يقل عليهما للتغليب كقوله «والله ورسوله احق ان يرضوه».

ومعنى التوبة: الرجوع فاذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية الى الطاعة، واذا وصف به البارى اريد به الرجوع عن العقوبة الى المغفرة؛ قال ابن عباس: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة، ولم يأكلا ولم يشربا، اربعين يوما ولم يقترب آدم حواء مائة سنة، قال شهر ابن حوشب: بلغنى ان آدم لما هبط الى الارض مكث ثلاثمائة سنة، لا يرفع رأسه، حياء من الله تعالى، قالوا لوان دموع اهل الارض جمعت، لكانت دموع داود اكثر حيث اصاب الخطيئة، والمراد بالخطيئة ترك الأولى، ولوان دموع داود و دموع اهل الارض جمعت لكانت دموع ادم اكثر، فاذا كان حال من اقترف دون صغيرة وهو ترك الأولى، فكيف حال من انغمس في بحر العصيان والكبائر، ومع ذلك فقد جعل الله برحمته لهذا الدرن والوسخ صابوناً يزيله بشرط الرجوع والاصلاح بالعمل الصالح فانه يمحو الخطيئات و انه تعالى يجيب المضطر اذا دعاه و يكشف السوء.

قال الغزالى: التوبة يتحقق في ثلاثة امور، علم، وحال، وعمل، اما العلم: فهو معرفة ما في الذنب من الضرر وكونه حجابا بين العبد ورحمة الرب فاذا عرف ذلك معرفة محققة حصل له من هذه المعرفة تالم القلب بسبب فوات هذا المحبوب، فاذا كان فواته بفعل من جهته تأسف، فذلك التأسف يسمى ندما، وذلك التأسف والندم له تعلق بالماضى والحال والمستقبل، اما تعلقه بالحال فيترك الذنب الذى كان ملا بساله، واما بالمستقبل فالعزم على ترك ذلك الفعل المفوت للمحبوب الى اخر العمر، واما بالماضى فيتلافي مافات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال، وتدارك مافات بالقضاء والجبران معان مترتبة في الحصول ويصدق اسم التوبة على مجموعها، وقد يطلق اسم التوبه على معنى الندم وحده، و يجعل العلم السابق كالمقدمة، والترك كالثمرة، وبهذا الاعتبار قال ﷺ الندم توبة اذلا ينفك الندم عن علم اوجبه، وعن عزم يتبعه، وقيل، لابد في التوبة من ترك ذلك الذنب، و من الندم على ماسبق، ومن العزم على عدم العود الى مثله، ومن الاشفاق فيما بين ذلك كله

لانّه مأمور بالتوبة، ولا سبيل له الى القطع بانّه اتى بالتوبة كما لزمه فيكون خائفاً، قال الله تعالى: يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربّه، في البحار قال النبي صلى الله عليه وآله: الا اخبركم بدائكم ودوائكم، دائكم الذنوب، ودوائكم الاستغفار، لكن اعلم انّ المرض اذا لم يعالج سريعاً، يصعب دفعه عن البدن ولعلّ اذا طال لم يقبل العلاج، ولا ينفع الدرياق كذلك الذنوب اذا كثرت يمرض الروح ولا يقبل العلاج ويهلك صاحبه وان سمعت امر التوبة وقبولها لكن تسامح فيها و تؤخّرها وقد اغتررت برجاء كاذب، فانّ من رجى شيئاً تقدّم اليه لاان يتأخّر ويقول انا راج، فما اشبه حالك بالمدّاح السكران، نعم كما يحصل للبدن امراض تارة وتدفعها بالادوية، يحصل ايضاً من الذنوب للروح امراض فعالجها سريعاً كي لايفسد، قال امير المؤمنين عليه السلام: التوبة اسم جامع لمعان ستّة، اوّلهنّ الندم على مامضى، الثاني، العزم على الترك في المستقبل، الثالث، اداء كلّ فريضة ضيّعتها فيما بينك وبين الله، الرابع، اداء المظالم الى المخلوقين في اموالهم واعراضهم، الخامس، اذابة كلّ لحم ودم نبت من الحرام، السادس، اذاقة البدن الم الطاعات، كما ذاق حلاوة المعصية فانّ هذه التوبة اجمع المسلمون على سقوط العقاب عندها واختلفوا فيما عداها، وكلّ معصية الله فانّه يجب التوبة منها لكونها قبيحة، وعند الاماميّة يصحّ التوبة اذا كانت عن ترك المندوب ويكون ذلك على وجه الرجوع الى فعله وعلى هذا يحمل توبة الانبياء في جميع مانطق به القرآن، قال الطبرسي واسقاط العقاب عند التوبة تفضّل من الله، غير واجب عليه عندنا، لكن عند جميع المعتزله واجب، وقد وعد الله بذلك، وان كان تفضّلا، علمنا انّه لا يخلف الميعاد، وامّا التوبة عن قبيح مع الاقامة على قبيح اخر يعلم او يعتقد قبحه، فعند اكثر المتكلّمين هي صحيحة، وعند ابى هاشم واصحابه لا يصحّ و اختلفوا في التوبة عند ظهور اشراط الساعة وعلاماتها هل تصحّ ام لا، فقال الاكثرون يحجب عنها عند الايات كما روى عن النبي صلى الله عليه وآله انّه قال بادروا بالاعمال ستّاً، طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، والدخان، ودابّة الارض وخويصة احدكم يعنى الموت، وامر العامّة يعنى القيامة، فالعبد لابُدّ وان يكون مشتغلا بالتوبة في كلّ حين و اوان، روى انّ رجلا سئل امير المؤمنين عليّا عليه السلام عن الرجل يذنب ثمّ يستغفر، ثمّ يذنب ثمّ يستغفر، ثمّ يذنب ثمّ يستغفر، فقال

امير المؤمنين ، يستغفر ابداً حتى يكون الشيطان هو الخاسر ، فيقول لاطاقة لى معه ، قال ﷺ توبوا الى ربكم فاني اتوب اليه في كل يوم مائة مرة ، وقال ﷺ انه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم ماة مرة و تاب و آب بمعنى رجع ، والغين شيئ يغشى القلب فيغطيه بعض التغطية وهو كالغيم الرقيق الذى يعرض في الجو فلا يحجب عين الشمس ولكن يمنع كمال ضوءها وذكروا لهذا الحديث تاويلات .

قال الرازى: احدها ان الله اطلع نبيه على مايكون في امته من بعده من الخلاف وما يصيبهم فكان اذا ذكر ذلك وجد غيناً في قلبه فاستغفر لامته ، وثانيها انه ﷺ كان ينتقل من حالة الى حالة ارفع من الاولى فكان الاستغفار لذلك ، وثالثها ان الغين عبارة عن السكر الذى كان يلحقه فى طريق المعرفة والمحبة حتى يصير فانيا عن نفسه بالكلية فاذا عاد الى الصحو، كان الاستغفار من ذلك الصحو، و هذا المعنى تأويل اهل الحقيقة ، و رابعها وهو معنى اهل الظاهر ان القلب لاينفك عن الخطرات و الخواطر وانواع الميل و الارادات فكان يستعين بالرب فى دفع تلك الخواطر انتهى.

وسئل ابن مسعود عن توبة النصوح قال : هوان يهجر الذنب ، ويعزم على ان لا يعود اليه ابدا ؛

روى ان جبرئيل سمع ابراهيم وهو يقول ، ياكريم العفو، فقال جبرئيل اوتدرى ماكريم العفو ، فقال لاياجبرئيل ، قال ان يعفو عن السيئة ويكتبها حسنة ، اقول و هذا البيان مشروط بالتوبة عن السيئة لا مطلقا ، وفى المفاتيح عن ابى سعيد الخدرى قال، قال النبي ﷺ كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن اعلم اهل الارض فدل على راهب ، فاتاه ، فقال انه قتل تسعه وتسعين نفسا ، فهل للقاتل من توبة ، فقال لا ، فقتله ، فكمل المائة ، ثم سئل عن اعلم اهل الارض ، فدل على رجل عالم فأتاه فقال انه قتل مائة نفس ، فهل لي من توبة ، فقال نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق الى ارض كذا وكذا ، فان بهاناسا يعبدون الله ، فاعبده معهم ، ولا ترجع الى ارضك فانها ارض سوء فانطلق حتى اتى نصف الطريق ، فاتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ؛ فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله ، وقالت

ملائكة العذاب انّه لم يعمل خيراً قط . فاتاه ملك في صورة ادمي وتوسط بينهم ، فقال قيسوا ما بين الارضين فالى ايّهما كان ادنى فهوله ، فقاسوه فوجدوه ادنى الى الارض التّي ارادوقصد فقبضته ملائكة الرحمة ، رواه مسلم انتهى .

قوله تعالى : « **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** » :

استيناف مبنّي عن سؤال ينصحب عليه الكلام كانّه قيل فما وقع بعد قبول توبته فقيل «**قلنا اهبطوا منها**» من الجنّة «**جميعا**» وفي تكرير الهبوط فقيل الهبوط الأوّل، من الجنّة الي السماء و هذا الهبوط من السماء الى الارض ، و قيل : التكرير للتأكيد والخطاب لآدم وحوّا وذريّتهما باعتبار مايكون ، وقيل: الخطاب لآدم وحوّاء ، وابليس والحيّة ، والطاوس ، والمراد اهبطوا انتم اجمعون ، و لذلك لايستدعي اجتماعهم على الهبوط في زمان واحد ، و كرّر الامر بالهبوط ايذاناً بتحقّقه لامحالة و دفعاً لما وقع في امنيّته ﷺ من استتباع قبول التوبة للعفو عن الهبوط و لانّ الامر الثاني بالهبوط مشعر بالتكليف والابتلاء بالعبادة ، والثواب ، والعقاب ولذلك اقترن الهبوط الثاني بايتاء الهدى المؤدّي الى النجاة ، وما فيه من و عيد العقاب ، فليس بمقصود من التكليف قصداً اوّليا بل انّما هو دائر على سوء اختيار المكلّفين ، قوله « **فامّا ياتينّكم** » : الفاء لترتيب ما بعد الهبوط ، وان ، شرطيّة ، و دخلت ، ما ، ليصحّ دخول نون التاكيد في الفعل ، ولو اسقطت ، ما ، لم يجز دخول النون ، كقولك زيد لياتينّك ولوقلت بغير لام لم يجز ،فدخول ، ما ، هنا ، كدخول اللام هناك ،والمعنى أن ياتينّكم « **منّي هدى**» فيدخل في الهدى كلّ دلالة وبيان ، فيشمل دليل العقل وكلّ كلام ينزل من الله ، والحقّ انّ المراد من الهدى ، الانبياء ، فحينئذ المخاطب آدم وذريّته ، اى ان اتاكم رشد وبيان شريعة برسول ابعثه اليكم ، وكتاب انزله عليكم وجواب الشرط هوالشرط مع جوابه ؛

«**فمن تبع هداى**» اقتدى بشريعتي ، و كرّر لفظ الهدى ولم يات بالضمير بان يقول فمن تبعه لانّه اراد بالثاني اعمّ من الاوّل ، وهو ما اتى به الرسل واقتضاه العقل السليم بمتابعة الرسل من الادلّة الافاقيّة والانفسيّة «**فلاخوف عليهم**» : في الاخرة

« ولاهم يحزنون » امنين عن الفزع الاكبر .

من آيات الدالة على عدم التفويض المطلق ، وعلى عدم الجبر قوله تعالى « وامّا ياتينّكم منّى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون » وكذلك قوله تعالى : هدى للمتّقين الّذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة الايه ، وكلّ هذه العبارات قاضية ببطلان الجبر والتفويض ، واثبات الامر بين الامرين فانّ قوله هدى يدلّ على بطلان التفويض المطلق ، اذ مع كون الهداية من الله ، مفتقرة الى الواجب في وجودها و بقائها والممكن يحتاج الى المؤثر كما قال ﷺ لولا انّا نزداد لانفدنا اوابنفد ماعندنا ، والحاصل انّ ايصال الفيض من خزانة الامر وعالم المشّية ، و هذا البيان مبطل للتفويض .

وامّا مايبطل الجبر فهو قوله : للمتّقين ، اذالتقوى لايتحقّق الّا بالاختيار والمدح المستفاد من الاية ايضاً لايصدق على التقوى الغير الاختيارى لانّ نسبة الفعل الى المتّقين يدلّ على اختيار هم في ذلك ، والّا لم يصحّ استناد الايمان بالعباد ، و مع ملاحظة مجموع ذلك يستنبط معنى الامر بين الامرين ، ومعرفة ذلك يتوقّف على معرفة حقيقة المشّية والارادة ، والاذن ، والاجل ، والقضاء والقدر ، والاستطاعة ، والتوفيق والخذلان والسعادة والشقاوة ، وغير ذلك مما يتعلّق بهاتين المسئلتين .

تحقيق شريف - وهو انّه قدثبت بالبراهين انّ الائمّة كانوا عالمين بجميع ماكان ومايكون و انّهم بمنزلة الزّيت في المشية ، ولايجوز عليهم السهو والنسيان ، وقد صحّ ايضاً انّ القاء النفس الى التهلكة غير جائز عقلاً و شرعاً ، فكيف اقدموا على اهلاك انفسهم ، ولدفع هذا الاشكال وجوه : الأول انّ القاء النفس الى التهلكة ، حكم ظاهرىّ و ليس من المستقلات العقلّية الغير القابليّة للتخصيص ، ولذا ترى انّ الجهاد والدفاع واجبان وان استلزما الضرر ، وذلك من جهة الرعاية المصلحة القويّة الراجحة على مفسدة اهلاك النفس ، كما انّ التمكين من القصاص والحدّ واجب شرعاً والعقل لايحيط بالمصالح الواقعيّة ، وانّما الملازمة بين حكمى الشرع والعقل ظاهريّة فالوجوب والتحريم ظاهريّان ثابتان ما لم يحكم الشرع بخلافهما فحينئذ مع علمهم بقضاء الحكمة البالغة

المتعلّقة بالشهادة وتعلّق القضاء الحتميّ الموجب للمصلحة لا مناص لهم من تحمّله كى تجرى تقادير الله .

الثانى : انّ تلك القواعد مثل حرمة القاء النفس الى التهلكة او الضرر و ماشبه ذلك من القواعد القابلة للتخصيص و هى من قبيل المقتضى فلوزاحمها المصلحة القويّة الراجحة على ذلك يقتضى التكليف ملاحظة الرجحان كما هو القاعدة في جريان قاعدة التزاحم في سائر المقامات .

الثالث : انّ رضاهم وتكليفهم تابع لرضى الله ، ولايشاؤن الّا ان يشاء الله ، فعلمهم ليس مانعاً من جريان قضاء الله ، و ارادته ، واجله ، و كتابه ، عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بامره يعملون ، الاترى انّهم كانوا يحفظون انفسهم عن الضرر والهلكة في عامّة المقامات و ربما دعوا الله سبحانه في دفعه و يدفعه عنهم لما علموا انّ ذلك ليس محتوماً عليهم ، وربمايسعون في سلوك مسالك الضرر لعلمهم بانّ الله قد كان قدّر ذلك عليهم ، وقضاه ، ولابدّ ان يجرى ، وعلموا انّ ذلك التقدير مبنّى على الحكم والمصالح .

الرابع : انّ ذلك ليس ضررا ، بل بمنزلة المعاوضة الرابحة ، قال الله : ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم و اموالهم بأنّ لهم الجنّة ، وانّما هى تبديل الفانى بالحيوة الباقية الاترى انّ اداء الخمس والزكوة و اشباههما ليس ضررا ، بل تبديل بنفع عظيم ، و الى هذا المعنى اشار عليّ ﷺ بقوله : فزت وربّ الكعبة ، وقال ﷺ : ليس هذا موضع الصبر انّما هو موضع البشرى انتهى . رجعنا الى التفسير .

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

« **و الذين كفروا** » ذكر سبحانه قسيم فمن تبع هداى اى : ومن لم يتبع وايراد الموصول بصيغة الجمع للاشعار بكثرة الكفرة اى : والذين كفروا برسلنا المرسلة اليهم « **و كذّبوا باياتنا** » المنزلة عليهم ، و كفروا جناناً ، و كذّبوا لساناً ، « **اولئك** » اشارة الى الموصول « **اصحاب النار** » ملازموها ، و ملابسوها ، فسمّوا بالاصحاب لاتصالهم بها وبقائهم فيها « **هم فيها** » اى فى النار « **خالدون** » دائمون ، والجملة في حيّز النصب على الحاليّة و في هاتين الآيتين دلالة على انّ الجنّة في جهة عالية ،

دلّ عليه اهبطوا منها ، و انّ متبّع الهدى مأمون العاقبة ، لقوله فلا خوف ، وانّ عذاب النار دائم ، و الكافر مخلّد فيه ، وانّ غيره لايخلّد فيه ، بمفهوم قولة تعالى « هم فيها خالدون » فانّه يفيد الحصر .

حكى انّ مالك ابن دينار مرّ يوما على صبيّ و هو يلعب بالتراب يضحك تارة و يبكي اخرى ، قال مالك فهممت ان اسلّم عليه ، فامتنعت نفسي تكبّراً ، فقلت يا نفس كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يسلّم على الصغار والكبار ، فسلّمت عليه ، فقال وعليك السلام يامالك ، فقلت من اين عرفتني ولم تكن رأيتني ، فقال حيث التقت روحي بروحك في عالم الملكوت ، عرّف بيني وبينك الحيّ الّذي لايموت ، فقلت ماالفرق بين العقل والنفس ، قال نفسك الّتي منعتك عن السلام ، وعقلك الّذي بعثك عليه ، فقلت ما بالك تلعب بهذا التراب ، فقال لانّا منه خلقنا واليه نعود ، فقلت اراك تضحك تارة و تبكي اخرى ، قال نعم : اذا ذكرت عذاب ربّي بكيت ، واذا ذكرت رحمته ضحكت ، فقلت يا ولدي ايّ ذنب لك حتى تبكي ، فقال يا مالك لاتقل هذا فانّي رأيت امّي لاتوقد الحطب الكبار الّا ومعه الحطب الصّغار ، ونقل مثل هذه الحكاية يعني فقرة الاخيرة منها عن يحيى بن زكريّا .

قوله تعالى : « **يٰا بَني اِسْرٰائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدي اُوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَ اِيّٰايَ فَارْهَبُونِ** » :

« **يا بني اسرائيل** » الابن ، والولد ، والنسل ، والذريّة متقاربة المعاني ، الّا انّ الابن للذكر ، والولد يقع على الذكر والأنثى ، والنسل والذريّة يقع على الجميع ، والابن اصله من البناء ، وهو وضع الشيء على الشيء والابن مبنيّ على الأب ، لأنّ الابن فرع الاب ، فبني عليه ، والبنوّة مصدر الابن و ان كان من الياء كالفتوّة مصدر الفتى ؛

واسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل ، واسرا معناه العبد ، وايل : الله ، بلغة العبرانيّة ، فمعناه عبدالله ، وكذلك جبرئيل وميكائيل ، و لمّا ذكر انعاماته العامّة بذكر دلائل التوحيد وما شرّف به آدم عليه السلام عقّبها بذكر الانعامات الخاصّة على اسلاف اليهود الذين في عهد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم والخطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب وحولها من بني قريضة والنضير وهم كانوا من اولاد يعقوب و

تخصيص هذه الطائفة بالذكر لما انهّم اكثر الناس كفراً بنعمة الله

« **اذكروا نعمتى** » : الذكر بضم الذال بالقلب خاصّة بمعنى الحفظ الّذى يضادّ النسيان، والذكر بكسر الذال ، يقع على الذكر باللسان ، اى احفظوا بالجنان ، واشكروا باللسان نعمتى ، والنعمة اسم جنس بمعنى الجمع « **الّتى انعمت** » بها « **عليكم** » وفيه اشعار بانّهم قد نسوها بالكلّية ولم يخطروها بالبال ، واهملوا اشكرها « **واوفوا** » اتمّوا ولا تتركوا « **بعهدى** » الّذى قبلتم : وهو ما عهده اليهم فى التورية من اتباع محمد ﷺ ، والعهد حفظ الشىء ومراعاته حالاً فحالاً ؛ « **اوف بعهدكم** » : اتمّ جزائكم بحسن الاثابة ودخول الجنّة ، والعهد يضاف الى المعاهِد والمعاهَد ، و هو هنا مضاف الى المفعول ، كما انّ العهد الاوّل مضاف الى الفاعل ، فانّ الله قد عهد اليهم والينا بالايمان والعمل الصالح ، بنصب الدلائل و ارسال الرسل ووعد للكلّ بالثواب على الحسنات ، فاوّل مراتب العهد منّا ، هو الاتيان بكلمتى الشهادة ، وآخرها الاستغراق فى بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا ، فضلا عن غيرنا ، ومنه تعالى حقن المال والدم فى الدنيا ، والفوز باللقاء الدائم فى الآخرة ؛

« **وايّاى فارهبون** » : اى ارهبونى فيما تأتون وتذرون خصوصاً فى نقض العهد وحذف الياء فى فارهبون تخفيفاً لموافقة رؤس الاى كانّه قيل : ان كنتم ترهبون شيئا فارهبونى ، والاية متضمّنة على وجوب الشكر ، والوفاء بالعهد ، وان لا يخاف العبد الاّ الله للحصر المستفاد من تقديم ايّاى ، والتضمّن للوعد بقوله : اوف ، والوعيد بقوله : وايّاى فارهبون ، والنعم الّتى انعمها على اسلافهم معلومة مثل انجائهم من فرعون ، و كثرة الانبياء منهم ، وانجائهم من الغرق ، وانزال المنّ والسلوى عليهم وكون الملك فيهم منهم فى زمن سليمان وغير ذلك ؛

« **وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ فَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** »

ثمّ قال مخاطباً لليهود « **وآمنوا** » يا بنى اسرائيل « **بما انزلت** » اى القران « **مصدّقاً لما معكم** » اى حال كون القرآن مصدّقاً للتوراة ، لأنّ القرآن نازل

حسبما نعت فى التوراة ، فانّ ايمانهم بما معهم ممّا يقتضي الايمان بالقرآن .

قال الرازى : قد اثبت فى التوراة و فى الكتب المتقدمة من وصف محمد صلى الله عليه وآله وسلم و كتابه ، والبشارة بمقدمه مثل ما جاء فى الفصل التاسع من السفر الاوّل من التوراة ، انّ هاجر لمّا عضبت عليها سارة ، تراءى لها ملك ، فقال لها يا هاجر ، انّى تريدين و من اين اقبلت ، قالت اهرب من سيّدتى سارة ، فقال لها : ارجعى الى سيّدتك ، و اخفضى لها ، فان الله سيكثر زرعك و ذرّيتك ، وستحبلين وتلدين ابناً وتسمّيه اسمعيل من اجل انّ الله سمع تبتّلك وخشوعك ، وهو يكون عين الناس ، ويكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة اليه بالخضوع ، ومعلوم انّ اسماعيل وولده لم يكونوا متصرّفين فى معظم الامم ، ولا كانوا مخالطين للكلّ على سبيل الاستيلاء بحيث يكون يده فوق الجميع ، وانّهم كانوا قبل الاسلام محصورين فى البادية ولا يتجاسرون على الدخول فى اوائل العراق واوائل الشام ، الّا على خوف ، وليس يجوز ايضاً للملك ان يبشّر من قبل الله بالظلم والجور بناء على انّ من اولاد اسماعيل من العرب كان فيهم مستولين بالغلبة والجاهليّة ، فلو لم يكن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ذلك المبشّر ، لكانت هذه المخالطة منهم للامم ، ومن الامم منهم معصيةً لله وخروجاً عن طاعة الله الى طاعة الشيطان ، والملك يتعالى من ان يبشّر بما هذا سبيله ، فتحقق انّ المراد من بشارة الملك وجود محمد صلى الله عليه وآله وسلم الّذى من نسل اسماعيل ، وايضاً جاء فى الفصل الحادى عشر من السفر الخامس : انّ الرّب الهكم يقيم لكم نبيّاً مثلى من بينكم ، و من اخوانكم ، و فى هذا الفصل : انّ الرب تعالى قال لموسى انّى مقيم لهم نبيّاً مثلك من بين اخوانهم ، وايّما رجل لم يسمع كلماتى الّتى يودّيها عنّى ذلك الرّجل باسمى أنا أنتقم منه ، وهذا الكلام يدلّ على انّ النّبى الّذى يقيمه الله ليس من بنى اسرائيل ، كما انّ من قال لبنى هاشم انّه سيكون من اخوانكم امام ، فهم من هذا الكلام انّه لا يكون من بنى هاشم ، ثمّ انّ يعقوب هو اسرائيل ولم يكن له اخ الّا العيص : ولم يكن للعيص ولد من الانبياء سوى ايّوب ، وانّه كان قبل موسى ، فلا يجوز ان يكون موسى مبشّراً به ، وامّا اسمعيل فانّه كان أخا لاسحق والد يعقوب ، ثم انّ كلّ نبىّ بعث بعد موسى ، كان من بنى اسرائيل ، فالنّبى صلى الله عليه وآله وسلم

ما كان منهم لكنّه كان من اخوانهم لانّه من ولد اسمعيل الّذى هو اخو اسحق ، فان قيل قوله من بينكم يمنع من ان يكون المراد محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم لانّه لم يقم من بين بنى اسرائيل ، قلنا بلى : قد قام من بينهم لانّه ظهر بالحجاز فبعث بمكّة ، وهاجر الى المدينة ، وبها تكامل امره ، وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر وبنى قينقاع والنضير وغيرهم والحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا ، اذذاك ، هناك ، فاذا قام محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم بالحجاز ، فقد قام من بينهم ، وايضا فانّه اذا كان من اخوانهم ، فقد قام من بينهم ، فانّه ليس ببعيد منهم ؛ وقال فى الفصل العشرين من هذا السفر : انّ الرّب تعالى جاء فى طور سيناء ، و وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران ، وصفّ عن يمينه عنوان القدّيسين ، فمنحهم العزّ ، وحبّبهم الى الشعوب، ودعا لجميع قدّيسيه بالبركة؛ ووجه الاستدلال انّ جبل فاران هو بالحجاز لانّه مذكور في التوراة : إنّ إسماعيل(ع) تعلّم الرومى في بريّة فاران ،ومعلوم انّه انّما سكن بمكّة ، إذا ثبت هذا فقوله فمنحهم العزّ لايجوز ان يكون المراد اسماعيل(ع) لانّه لم يحصل عقيب سكنى اسماعيل هناك عزّ ولا اجتمع هناك ربوات المقدّسين ، فوجب حمله على محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال الرازى : وفي كتاب حبقوق بيان ما قلنا ، و هو جاء الله من طورسيناء والقدس من جبل فاران ، لوانكشفت السماء من بهاء محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و امتلأت الارض من حمده ، يكون شعاع منظره مثل النور ، يحفظ بلده بعزّه ، تسير المنايا امامه ؛ ويصحب سباع الطير اجناده ، قام فمسح الارض ، و تامل الامم ، وبحث عنها ، فتضعضعت الجبال القديمة ، و اتضعت الروابى الدهريّة ، و تزعزعت ستور اهل مدين ، ركبت الخيول ، وعلوت مراكب الانقياد والغوث وستنزع في قسّيك اغراقاً و نزعاً ، وترتوى السهام بامرك يا محمّد ارتواءً و تخور الارض بالانهار و لقد راتك الجبال فارتاعت ، وانحرف عنك شوه بوب السبّل ؛ ونفرت المهارى نفيراً ورعباً ، ورفعت ايديها وجلاً وفرقاً ، وتوقّفت الشمس والقمر عن مجراهما ، وسارت العساكر في برق سهامك ولمعان بيانك ، تدوخ الارض غضباً ، وتدوس الامم زجراً ، لانّك ظهرت بخلاص امتّك وانقاذ تراب ابائك ، هكذا نقل عن ابن رزين الطبرى .

قال الرازى : وامّا النصارى فقال ابوالحسين في كتاب الغرر قد رايت في نقولها

وظهر من جبال فاران لقد تقطّعت السماء من بهاء محمّد المحمود ، وترتوى السهام بامرك المحمود ، لانّك ظهرت بخلاص امتّك ، وانقاذ مسيحك ، فظهر من هذا الكلام انّ قوله تعالى في التوراة : ظهر الرّب من جبال فاران ليس معناه ظهور النار منه ، كما زعمه اليهود لانّهم يقولون انّ النار لمّا ظهرت من طورسيناء ظهرت ايضاً من ساعير نار ومن جبل فاران ، وهم لا يقاع الشكوك في محمّد صلى الله عليه وآله اوّلوا هذه العبارة بظهور النار في جبل فاران ، فظهر ممّا نقل ابوالحسين عن نقول النصارى انّه ليس معناه ظهور النار منه و لو كان ظهر منه النار على قول اليهود ؛ بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات ، و ما ذاك الّا رسولنا محمّد صلى الله عليه وآله لانّه كيف يوصف الله بانّه يركب الخيول ، و جاء في كتاب اشعياء في الفصل الثاني والعشرين منه قومى فازهرى مصاحبك يريد مكّة ، فقد دنا وقتك ، و كرامة الله طالعة عليك ، فقد تجلّل الارض الظلام ، و غطى على الأمم ، الضباب ، والربّ يشرق عليك اشراقا و يظهر كرامته عليك ، تسير الامم الى نورك والملوك الى ضوء طلوعك ، و ارفعى بصرك الى ما حولك ، و تاملّى فانّهم مستجمعون عندك ، ويحجّونك و يأتيك ولدك من بلاد بعيدة لانّك امّ القرى فأولاد ساير البلاد كانّهم اولاد مكّة ، يميل اليک ذخاير البحر ، ويحجّ اليک عساكر الامم ، ويساق اليك كباش مدين ، ويأتيک اهل سبا ، ويتحدّثون بنعم الله ، و تسير اليک اغنام فاران ، و يرفع الى مذبحى ما يرضينى ، واحدث حينئذ لبيت محمد تى حمداً ، و وجه الاستدلال انّ هذه الصفات كلّها موجودة لمكّة ، فانّه قد حجّ اليها عساكر الامم ، و مال اليها ذخاير البحر ، وقوله واحدث لبيت محمدتى حمداً : معناه انّ العرب كانت تلبّى قبل الاسلام فتقول لبّيک لا شريک لک الاّ شريک هو لک ، تملكه و ما ملک ، ثم صار في الاسلام لبّيک اللهم لبّيک لا شريك لك لبّيك ، فهذا هو الحمد الّذى حدّده الله لبيت محمد ته ؛

روى السمان في تفسيره في السفر الاول من التوراة : انّ الله تعالى اوحى الى ابراهيم(ع) قد اجبت دعاءك في اسماعيل(ع) ، وباركت عليه ، فكبّرته وعظّمته جدّاً ، وسيلد اثنى عشر عظيماً واجعله لامّة عظيمة ، والاستدلال به انّه لم يكن في ولد اسمعيل(ع) من

كان لأمّة عظيمة غير نبيّنا محمد ﷺ، وامّا دعاء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام فكان ارسوا لنا لمّا فرغا من بناء الكعبة ، فهو قوله ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم اياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم انّك انت العزيز الحكيم ، ولهذا كان يقول ﷺ انا دعوة ابراهيم (ع) وبشارة عيسى (ع)، وهو قوله ومبشّراً برسول ياتى من بعدى اسمه احمد ﷺ، قال المسيح للحواريّين : انا اذهب وسياتيكم الفارقليط روح الحقّ الّذى لايتكلّم من قبل نفسه والفارقليط معناه الّذى يميّز بين الحقّ والباطل وقيل : معناه الشافع المشفّع و هذه الكلمة فاروقليط وفاروق المميّز ، وليط معناه التحقيق في الامر .

(**فائدة**) ولو قيل لو كان الامر كما قلتم ، فكيف يجوز من جماعتهم جحدهذا الامر ، فالجواب انّ هذا العلم كان نصّاً خفيّاً لا جليّاً في اغلب آياته ، فجاز ايقاع الشكوك والشبهات فيه ، ودواعى ايقاع الشبهات كانت لأهلها كثيرة ، وايضاً انّ هذا العلم كان حاصلاً عند العلماء بكتبهم ، لكن لم يكن لهم العدد الكثير ، فجاز منهم كتمانه انتهى .

قوله : و « **آمنوا** » يا بنى اسرائيل « **بما انزلت مصدّقاً لما معكم** » من كتاب و رسول تجدونه مكتوباً فى التوراة والانجيل ، اى حال كون القرآن مصدّقاً للتوراة ، ومذكوراً فى القرآن انّ موسى وعيسى حقّ ، و انّ التوراة و الانجيل حقّ ، فكان الايمان بالقرآن مؤكّداً للايمان بالتوراة والانجيل ، هذا احد الوجهين في تفسير مصدّقاً لما معكم ، والوجه الثانى : انّه حصلت البشارة بمحمّد ﷺ وبالقرآن فى التوراة والانجيل ، فالايمان بمحمّد ﷺ والقرآن ، ايمان وتصديق للتوراة و الانجيل ، وتكذيب محمد ﷺ والقرآن ، تكذيباً للتوراة والانجيل ، والوجه الثانى انسب .

« **ولا تكونوا اوّل كافر به** » : اى بالقرآن ، فانّ وزر المقتدى يكون على المبتدى ، فان قيل كيف قال اوّل كافر وقد سبقهم مشركو العرب : اى لاتكونوا اوّل كافر به من اهل الكتاب ، وقيل وجه آخر وهو انّ هذا تعريض لهم بانّه كان يجب ان يكونوا اوّل من يؤمن ، لمعرفتهم بخبر نزول القرآن ، لانّهم كانوا هم المبشّرون بمحمّد ﷺ وبكتابه ، فلمّا بعث كان امرهم على العكس ، لقوله : فلمّا جائهم ماعرفوا كفروا وقيل ولا تكونوا مثل اوّل كافر به ، وقيل الضمير راجع الى كتابهم ، يعنى لا تكونوا

اوّل من كذّب كتابه ، لانّ تكذيب محمد ﷺ تكذيب التوراة ، لانّ فيه بشارة محمد ﷺ فتكذيبه تكذيب كتابهم ، و قيل وجه آخر : اى لاتكونوا اوّل من جحد مع المعرفة ، لانّ كفر قريش وغيره في الغالب مع الجهل ، لامع المعرفة ، بخلاف اهل الكتاب ، فانّ فيهم علماء ، نحارير ، احبار ، وفيهم من يستفتح بمقدمه الشريف ، و يبشّر بزمانه .

« **ولا تشتروا بآياتى** » : اى لا تأخذوا لانفسكم بدلاً منها « **ثمناً قليلاً** » من الحظوظ الدنيويّة ، وكانت عامتّهم يعطون الاحبار وعلمائهم ، من زروعهم و ثمارهم ويهدون اليهم الهدايا والرشى على تحريفهم الكلم ، و تسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرايع والحدود ، وكان ملوكهم يجرون عليهم الرواتب والاموال ليكتموا ويحرّفوا حكى انّ كعب ابن الاشرف قال لاحبار اليهود و هم جماعة ، ما تقولون في محمد ﷺ قالوا انّه نبىّ ، قال لهم كان لكم عندى صلة وعطيّة لوقلتم غيرهذا ، قالوا اجبناك من غير تفكّر ، فامهلنا نتفكّر وننظر في التوراة ، فخرجوا وبدّلوا نعت النبىّ ، ثم رجعوا و قالوا غير قول الأوّل ، فاعطى كلّ واحد منهم صاعاً شعيراً واربعة اذرع من الكرباس ، فهو القليل الّذى ذكره الله فى هذه الآية .

« **وايّاى فاتّقون** » : بالايمان والاعراض عن حطام الدنيا ، و اعاده لانّ معنى الاوّل اخشونى في نقض العهد ، وهذا معناه في كتمان نعت النبىّ ﷺ .

وفي الآية دلالة على تحريم اخذ الرشى في الدين ، لانّه لا يخلو امّا ان يكون امراً يجب اظهاره اويحرم اظهاره ، فالأخذ علـى مخالفة كلا الوجهين حرام ، و هذا الخطاب يتوجّه ايضاً على علماء السوء من هذه الامّة اذا اختاروا الدنيا على الدين ، فتدخل فيه الشهادات ، والقضايا ، والفتاوى ، وغير ذلك ؛

« **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** »

« **ولا تلبسوا الحقّ بالباطل** » : اى لا تخلطوا الحقّ المنزل ، بالباطل الّذى تخترعونه ، وتكتبونه ، حتّى لايميّز بينهما ، وتجعلوا الحقّ ملتبساً بسبب الباطل الذى تكتبونه في خلاله ، وتأوّلونه بغير ما هو صحيح ؛

« **و تكتموا الحقّ** » : باضمار ، لا ، وهونهى عن الكتمان ، في اظهار الحقّ ؛

« **وانتم تعلمون**» : حالكونكم عالمين بانّكم ، لابسون ، كاتمون ، والخطاب وان كانت خاصّة ببنى اسرائيل ، فهى تتناول من فعل فعلهم ، من تغيير حقّ وابطاله ؛

فمن اخذ رشوة ، على تغيير حق وابطاله ، اوامتنع من تعليم ما وجب عليه ، او اداء ماعلمه ، وقدتعيّن ووجب عليه ادائه ، حتّى يأخذعليه اجراً ، فقد دخل في مقتضى الآية ، قال رسول الله ﷺ لا يمنعنّ احدكم هيبة احد ، ان يقول ، او يقوم بالحقّ حيث كان ،

وقيل : معنى قوله « وانتم تعلمون » . اى و انتم تعلمون ما نزّل ببنى اسرائيل ، حين عصوا ، من المسخ وغيره ، مثل كفّار اهل المائدة ، و لعنهم عيسى ﷺ ، فمسخوا خنازير ، و كانوا خمسة الاف رجل ، ما فيهم ، امراة ، ولاصبّى ، وعمدة السبب ، انّهم اصطلحوا على الكفّ عن نهى المنكر ، كما قال الله : كانوا لايتناهون عن منكرفعلوه ، اى : لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح يعلمونه ،

فى الحديث : قال النبى ﷺ يحشر يوم القيمة ، اناس من امّتى ، من قبورهم الى الله ، على صورة القردة ، والخنازير ، و ذلك بما داهنوا اهل المعاصى ، و كفوّا عن نهيهم ، وهم يستطيعون ، او ، وانتم تعلمون البعث والجزاء .

قوله تعالى : « **وَاَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**

الصلوة عند اكثر اهل اللغة ، الدعاء ، وقيل ، اصلها اللزوم ، فكان معنى الصلوة في الاصل ملازمة العبادة على وجه امرالله به ، وفي اصطلاح الشرع ، اسم لهذه الهيئة المخصوصة بادابها ؛

«**واقيموا الصلوة**» : خطاب لبنى اسرائيل ، اى ، ادّوها ، واقبلوها ، واعتقدوا وجوبها ، وافعلوها كصلوة المسلمين ، فانّ غيرها ، كلا صلوة ،

« **وآتوا الزكوة** » : كزكوة المسلمين ، على مابيّنه النبىّ ﷺ لكم ، وهذا حكم جميع ما ورد في القرآن من الاحكام مجملاً ، فانّ بيانه موكول الى النبىّ ، كما قال : وما آتيكم الرسول فخذوه و ما نهيكم عنه فانتهوا ، فلذلك امرهم بالصلوة ، و الزكوة ، على طريق الاجمال ، واحال في التفصيل الى بيانه ،

« **واركعوا مع الراكعين** » : وانّما خصّ الركوع بالذكر ، و هو من افعال الصلوة بعد قوله واقيموا الصلوة لاحد وجوه ، الأوّل : انّ الخطاب اليهود ، ولم يكن في صلوتهم ركوع ، وكان الاحسن ذكر المختصّ ، دون المشترك ؛

وثانيها : انّه عبّر بالركوع عن الصلوة بقول القائل فرغت من ركوعي ، اي صلوتي ، وانّما قيل للركوع ، الصلوة ، لأنّ الركوع اوّل ما يشاهد من الافعال التي يستدلّ بها على انّ الانسان يصلّي فكأنّه كرّر ذكر الصلوة والامر بها تاكيداً ، و اشارة الي الصلوة الشرعيّة اي صلّوا مع هؤلاء المسلمين ، الراكعين ، حتّى تكون الصلوة متخصّصة بالصلوة المتقرّرة في شرع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، لاصلوتهم ،

وثالثها : انّه حثّ على صلوة الجماعة ، فانّ صلوة الجماعة ، تفضل صلوة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس في التعبّد ، فانّ الصلوة ، كالغزو ، و المحراب كمحلّ الحرب ، ولابدّ للقتال مع العدوّ ، من صفوف الجماعة ، فالجماعة قوّة قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما اجتمع من المسلمين في جماعة ، اربعون رجلا ، الّا وفيهم رجل ، مغفور له ، فالله تعالى اكرم من ان يغفر له ، ويردّ الباقي خائبين ،

و **في الحديث** : ما افرض الله على خلقه ، بعد التوحيد ، فرضاً احبّ اليه من الصلوة ، ولو كان شيء احبّ اليه من الصلوة ، لتعبّد به ملائكته ، فمنهم راكع، وساجد وقائم ، فكان من شأن المصلي ، ان يبالغ في الحضور ، فكان السلف ، لو شغلهم في الصلوة ذكر مال ، يتصدّقون به تكفيراً ، ولا ينظر الله تعالى ، الى صلوة ، لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه ، وبعد قبول العبد ، التوحيد ، و هو الركن الاعظم ، كلّف بالصلوة ، ثمّ بالزكوة ؛ لانّ فيها اصلاح النفس ، بازالة شحّها ، و اصلاح الغير ، بقوام معيشته ، و ايصال حقّه اليه :

والصلوة : قربان كلّ تقيّ ، و خير موضوع ، فاجتهد في هذا العمل ، و دع الكسالة ، حتّى توثّق نفسك بقيد التقوى ، فان تكن رأيت احوال السابقين المتدار كين ايومهم الاتي ، كيف تحمّلوا المشقّات ، خوفاً من التقصير ، والحرمان ، من ذخيرة المعاد فقد سمعت باحوالهم ، قال محمّد التستري : رأيت كهلا اجهد به العبادة في الطواف ، و

اصفر لونه ، وبيده عصا ، وهو يطوف معتمداً بعصاه ، قال : فسئلت عنه ، من اين انت ، قال : من اقصى بلاد خراسان ، من نواحي المشرق ، فقلت له ، في كم قطعت هذه المسافة، قال خرجت من بلدى ، و لم يكن في رأسي و لحيتي شيب ، فقلت هذه والله الطاعة ، فضحك ، وانشاء يقول : زرمن هويت وان شطّت بك الدار ٭ انّ المحب لمن يهواه زوّار .

واعلم انّ خراب الدين ، بشهوتين الفرج و البطن ، و الاولى هي الكبرى ، فان كنت تحبّ الدين ، فاحكم الحصنين ، ومعلوم انّ الدنيا والاخرة ، ضرّتان ، ولك اليهما كرّتان ، لكن احداهما ، حرّة خريدة ، والاخرى امة مريدة ، فاجعل للحرّة يومين ، فانّ لها قسمين وللامة قسماً ، فاضعف نصيبك من العقبي ، ولا تنس ان لم تقدر ، نصيبك من الدنيا ، واحفظ القسمة العادلة ، ولا تكن ممّن يحبّون العاجلة ، فالويل ثم الويل ، ان تميلوا كل الميل ، والآخرة خير لك من الاولى ، وانت عنها مسؤلا ، فان خفت على دينك ، فطلق الدنيا ، فانّها زائدة ، و ان خفتم ان لاتعدلوا فواحدة .

رجعنا الى التفسير « اقيموا الصلوة » : و هى عبادة عن الافعال المخصوصة ، بناء على ثبوت الحقيقة الشرعيّة ، اوالحقيقة المتشرّعة ، اوالمجاز المشهور ، والمراد خصوص الصحيح ، اذ الفاسد لا يخرج عن عهدة التكليف ، و لا مدح له ، و هى بعد التوحيد اصل العبادة والعبوديّة ، وبوجه اخر تنطبق الصلوة ، مع حقيقة الولاية ، من وجوه كثيرة ، **منها** : انّ الصلوة ، كمال العبودية ، و تمام مراتب العبوديّة ، مندرجة فى الولاية ، بل لاتتحقّق الاّ بها ، **ومنها** : انّ الصلوة ذكر الله ، قال الله تعالى : اقم الصلوة لذكرى ، وهم اهل الذكر ، ومذكر ، وذاكر ، **ومنها** : انّ الصلوة ، تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وولايتهم ، تنهى عن الكفر والشرك ، و عن المعاصى ، بل عن مطلق الذنب ، لأنّها كفّارة للذنوب كما في الحديث : حبّ عليّ حسنة لايضرّ معها سيئة ، **ومنها** : انّ الصلوة ، بمعنى الرحمة ، وهم معدنها ، واصل الرّحمة ، **ومنها** : انّ الصلوة ، قربان كلّ تقيّ ، وهم الوسيلة بين الله ، وبين عباده الأتقياء ، في مقام القرب ، لأنّهم أبواب الله التّي لايؤتى إلّامنها ، وبهم يسلك إلى الله ، **ومنها** : انّ الصلوة ، تشتمل على أسرار التوحيد ، والمعارف الربّانية ، وفي الزيارة وأحكمتم توحيده ، **ومنها** : انّ الصلوة ،

أفضل من سائر العبادات ، وولاية محمد وآله أفضل الولايات ، ومنها : انّ الصلوة ، عمود الدّين ، إن قبلت قبل ماسواها ، و الولاية أيضاً كذلك ، ومنها : انّ الصلوة ، شافعة للمصلّين يوم القيمة ، والوليّ أيضاً شفيع الخلائق ؛

والحاصل : انّ تمام الفضائل ، المأثورة الثابتة ، للصلوة ، فهي بعينها جارية ، وثابتة للامام والولاية ، ولهذا اوّلوا الصلاة ، اهل التفسير ، بأمير المؤمنين ، و المتّقين مفسّر بشيعتهم ، فانّهم الّذين أقاموا امر الولاية ، وبالجملة ، فكلّ خير خلقه الله ، انّما يفيض إليهم أوّلاً ، ثمّ بهم ، وعنهم إلى من سواهم ، لأنّهم مساكن بركة الله حتّى الارزاق ، ولهم الولاية على ميكائيل الّذي هو الواسطة في قسمة الأرزاق ، وفي قوله تعالى : والسماء والطارق : ففي الحديث ، السّماء ، أمير المؤمنين ، والطارق ، ما يطرق فيه من العلوم البدائيّة ، وبهذا الاعتبار ، انّ الرزق نزل بواسطة ، لأنّه الواسطة في كافّة الفيوضات ، والرزق من الفيوضات ، لكن خالق الرزق ، والفيض ، و مقدّره ، هو الله ، ولا رازق ، ولا معطى إلّا الله ، الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ»
«تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»

« **أتامرون الناس** » : الهمزة للتوبيخ والتعجيب ، والخطاب لعلماء اليهود ، والمراد بالناس سفلتهم « **بالبر وتنسون أنفسكم** » : والبرّ التوسّع في الخير ، من البرّ الّذي هو الفضاء الواسع ، والمراد في الآية ، الإيمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، و ذلك لأنّهم كانوا يقولون لفقرائهم ، وأقربائهم من المسلمين ، اثبتوا ماأنتم عليه من الايمان بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم لا يؤمنون ، وبخّهم الله على ماكانوا يفعلون من امر الناس بالايمان بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وترك أنفسهم عنه وقال أبومسلم كانوا يأمرون العرب بالايمان به إذا بعث ، فلمّا بعث أنكروا ، وقال قتادة كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وهم يخالفونه .

وروى أنس بن مالك قال : قال رسول الله مررت ليلة أسري بي على أُناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت من هؤلاء ، ياجبرئيل ؟ قال : هم خطباء من أهل الدنيا ، ممّن كانوا يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم ؛

وقال بعضهم : المراد أتأمرون الناس بالصدقة ، و تتركونها أنتم ، و إذا أتتكم الصدقة لتفرّقوها على المساكين خنتم فيها « **وأنتم تتلون الكتاب** » : و الحال أنتم تتلون وتقرؤن التوراة ، الناطقة بنعوته صلّى الله عليه و آله وسلّم ، اوالامتناع عن مثل هذه القبائح ؛

الكتاب وعاء ملىء علماً ، وظرف حشي ظرفاً ، إن شئت كان اعي من باقل ولو أردت أبلغ من سحبان وائل ، والكتاب نعم الظهر والعدّة ، ونعم الكنز والعقدة ، وهو الانيس في الوحدة ، والجليس الّذي لايغويك ، والصديق الّذي لايغريك ، ومتى رأيت يافتى بستاناً تجمّل في ردن ، وروضة تقلّب في حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم كلام الأحياء ، ناسك ، فاتك وساكت ، ناطق ، طبيب اعرابيّ ، فارسيّ ، يونانيّ ، قديم ، مولدّ ميّت ، حيّ ، ولولاه لبطل العلم والفكر ، وغاب سلطان النسيان على جنود الذكر ، الكتاب معقل العقلاء ، إليه يلجئون وبستانهم فيها يتنزّهون ؛

« **أفلا تعقلون** » وتعرفون بعقلكم انّه قبيح منكم ، والعقل في الأصل ، المنع والامساك ، ومنه العقال الّذي يشدّ به وظيف البعير إلى ذراعيه ، لحبسه عن الحراك سمّي به النور الروحاني الّذي به تدرك النفس الإنسانيّ ، العلوم الضروريّة والنظريّة ، لأنّه يحبس عن تعاطي مايقبح ، ويعقل على مايحسن ، ومحلّه الدماغ عند بعض ، وعند البعض محلّه القلب ، وعند البعض هو نور منبسط في بدن الآدميّ ؛

قال المولى إسماعيل الحقّي ، في تفسيره « روح البيان » : إنّ هذا التوبيخ والإنكار في قوله تعالى : أتأمرون ، ليس على أمر الناس بالبرّ ، بل الترك العمل به ، فمدار الإنكار ، جملة تنسون أنفسكم ، دون أتأمرون الناس ، فلا يستقيم قول من لا يجوز الأمر بالمعروف ، لمن لايعمل به ، لهذه الآية ، بل يجب العمل به ، ويجب الامر به ، وهذا لأنّه إذا أمر به مع أنّه لايعمل به ، فقد ترك واجباً ، وإذا لم يأمر به فقد ترك واجبين ، فالأمر بالمعروف ، معروف ، ولكن قلّما نفعت موعظة من لم يعظ نفسه ، ومن نهى غيره ، فليكن أشدّ الناس انتهاءً عنه ، وهذه الآية ناعية على من يعظ غيره ، و لايعظ نفسه ، سوء صنيعه ، و عدم تأثره ، و المراد ، حثّ الواعظ على تزكية النفس و

الإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحقّ، وتقيم غيرها، لانّ الفاسق ممنوع عن الأمر بالمعروف والمواعظ الشافية، فانّ الإخلال بأحد المأمورين، لايوجب الاخلال بالآخر؛

حكى انّه كان عالم من العلماء، قوىّ التصرف في القلوب، مؤثّر الكلام، وربّما يموت من اهل مجلسه واحد واثنان، من شدة تاثير وعظه، و كان في بلده، عجوز لها ابن صالح رقيق القلب، سريع الانفعال، و كانت تحرزعليه، وتمنعه من حضور مجلس ـ الواعظ، فحضره على حين غفلة منها، فوقع من امر الله ماوقع، ثم انّ العجوز لقيت الواعظ يوماً في الطريق، فقالت:

اتهدى الانام و لا تهتدى ☆ الا انّ ذلك لا ينفـع
فيا حجر الشحذ حتّى متى ☆ تسنّ الحديد و لا تقطع

فلمّا سمعها الواعظ، شهق شهقةً، فخرّ مغشيّاً عليه، فحملوه الى بيته فتوفّى !!
قال الاوزاعى: شكت النواويس الى الله، ما تجده من جيف الكفّار، فاوحى الله اليها، بطون العلماء السوء، انتن ممّا انتم فيه ـ انتهى؛

اقول: انّ الواعظ سواء كان عاملاً، اوغير عامل، لابدّ منه إن يلاحظ هذه النكتة الدقيقة، وهى انّه يثبت للمستعين جهلاً، ولنفسه فضلاً عليهم، وهو محض كبر و عجب وحيل النفس والشيطان كثيرة، وهذا الامر يهلكه.

قوله تعالى: « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ وَاِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ اِلاَّ عَلى الْخَاشِعِينَ »

قيل: الخطاب لليهود، و كان حبّ الرياسة واخذ الاموال يمنعهم عن اتّباع النبيّ، فامرهم الله بان استعينوا على الوفاء بعهدى الّذى عاهدتكم عليه من طاعتى، بالصبر على ما انتم عليه من ضيق المعاش، الّذى كنتم تأخذون عن عوامكم بسببه، وروى عن ائمتنا عليهم السلام انّ المراد بالصبر، الصوم، فيكون فائدة الاستعانة، كسر سورة النفس والشره، كما قال ﷺ: الصوم وجاء، وفائدة الاستعانة.

«**واستعينوا بالصبر والصلوة**» الاستعانة بالصلوة، انّه يتلى فيها مايرغب فيما عند الله، ويزهد في الدنيا وحبّ المال والجاه، كما قال: انّ الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر، و كان النبى ﷺ اذا حزنه امر، استعان بالصلوة والصوم.

حكى ان ابن عباس نعي له بنت ، وهو في سفر فاسترجع ، وقال عورة سترها الله ، ومؤنة كفاها الله ، واجرا ساقه الله ، ثم تنحى عن الطريق ، وصلّى ثم اتى راحلته ، وهو يقرء واستعينوا بالصبر والصلوة ؛ ومن قال ان الخطاب للمسلمين : قال : المراد : استعينوا على مشقة التكليف بالصبر ؛ اى بحبس النفس على الطاعات وبالصلوة ، وليس في افعال القلوب اعظم من الصبر ، ولا في افعال الجوارح اعظم من الصلوة ، فامر الله سبحانه بالاستعانة والاستمداد بهما ،

وروى عن الصادق عليه السلام انه قال : مايمنع احدكم اذا ورد عليه غم من غموم الدنيا ان يتوضأ ثم يدخل المسجد ، فيركع ركعتين ، يدعو الله فيهما ، اماسمعت ، الله يقول واستعينوا بالصبر والصلوة .

« **وانها لكبيرة الا على الخاشعين** »: اى ان الاستعانة بهما لكبيرة ثقيلة كقوله كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الا على الخائفين والخاشعين ، والخشوع بالجوارح ، والخضوع بالقلب ، وقيل الخشوع بالبصر ، والخضوع بسائر الاعضاء ، وانما لم يستثقل عليهم لانهم يستغرقون فى مناجاة ربهم ، فلايدركون مايجري عليهم من المشاق والتعب ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله : وقرة عيني الصلوة ، اوفى الصلوة ، لأن اشتغاله بالصلوة ، كان راحة له ، وبعض قال : الضمير راجع الى الصلوة ، لانها الاغلب ، الافضل ، و قيل : ان المراد الاثنان ، وان كان اللفظ واحد ، مثل قوله : والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله .

« **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** »

الظن ، يكون بمعنى اليقين وبمعنى الشك الراجح ، فهو من الاضداد ، كالرجاء ، يكون امناً وخوفاً ، و هنا بمعنى اليقين ، والظن ماقوى عند الظان كون المظنون على ما ظنه ، مع احتماله على خلافه ، وبالاحتمال ينفصل عن العلم ، وبالقوة ينفصل عن الشك ،

« **الذين يظنون** » فى موضع الجر ، صفة للخاشعين ،

« **انهم ملاقوا ربهم** » اى الخاشعين يوقنون انهم ملاقوا ماوعدهم ربهم ؛ وقيل : ان الظن فى الاية ، بمعنى الظن غير اليقين ، والمعنى انهم يظنون انقضاء آجالهم ، وسرعة

موتهم ، وملاقوا ربّهم بذنوبهم ، ولشدّة اشفاقهم من ذنوبهم ، يكونون على وجل و حذر ، ولايركنون الى الدنيا ؛ والمراد من اللقاء ليس لقاء الرؤية ، بل لقاء مايسرّه ويضرّه .

«وانّهم اليه راجعون» : فان قيل انّهم ماكانوا قطّ في الاخرة، فيعودوا ويرجعوا اليها، فالمراد انّهم بالاعادة راجعون في الاخرة ، وقيل يرجعون بالموت كما كانوا في الحال المتقدّمة على حيوتهم لانّهم كانوا امواتاً واعداماً ابتداءً، فاحيوا ثمّ يموتون ، فيرجعون بحال الاوّل امواتاً كما كانوا ، اوالمعنى انّهم يرجعون الى موضع لايملك لهم احد ضرّاً و لا نفعاً ، لانّهم في حال حيوتهم قد يملك عليهم الامر والحكم ، و رجوعهم الى المحشر و حكمه رجوع اليه تعالى .

« يَا بَنِي اِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ اَنِّي فَضَّلْتُكُمْ »
« عَلَى الْعَالَمِينَ » :

«يابني اسرائيل اذكروا» : اى اشكروا **« نعمتي الّتي انعمت »** بها **«عليكم»** بانزال المنّ والسلوى ، وتظليل ـ الغمام ، و تفجير الماء من الحجر وغيرها ، وذكر النعم على الاباء الزام الشكر على الابناء ، فانّهم يشرّفون بشرفهم ، و لذلك خاطبهم بقوله

« و انّي فضّلتكم على العالمين » : اى فضّلت ايّاكم على عالمي زمانهم بما منحتهم من العلم والايمان ، والعمل الصالح ، و جعلتهم انبياء و ملوكاً مقسطين ، و هذا كما قال في حقّ مريم : واصطفاك على نساء العالمين ، اى نساء زمانك فالاستغراق في العالمين عرفيّ لاحقيقيّ

«وَ اتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ»
« يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ »

وكان اليهود يقولون نحن من اولاد الانبياء ، والله يقبل شفاعتهم فينا ، فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم ، فقال **« واتّقوا »** : و اخشوا يابني اسرائيل ، **« يوماً »** يوم القيمة اى حساب ذلك اليوم ، فهو من ذكر المحلّ ، وارادة الحالّ **«لاتجزى»** ولاتؤدّى ،ولاتغني والعائد محذوف **« نفس »** مؤمنة **«عن نفس»** كافرة **« شيئاً »** مامن الحقوق الّتي لزمت

عليها، وايراد، شيئا، منكراً مع تنكير النفس، للتعميم والاقناط الكلّي **«ولا يقبل منها»** اى من النفس الاولى المؤمنة **«شفاعة»** ان شفعت للنفس الثانية الكافرة عندالله، لتخليصها من عذابه، والشفاعة مصدر الشافع، والشفيع مأخوذ من الشفع، لانّه يشفع نفسه، بمن يشفع له في طلب مراده، ولا شفاعة في حقّ الكافر، بخلاف المؤمن؛

قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ادّخرت شفاعتى لاهل الكبائر من امّتى، فمن كذّب بها لم ينلها. والايات الواردة فى نفي الشفاعة، خاصّة بالكفّار

«ولا يؤخذ منها» اى من المشفوع لها، وهى النفس الثانية الكافرة **«عدل»** اى فداء من مال، او رجل مكانها، او توبة تنجو بها من النار، والعدل بالفتح مثل الشيىء من خلاف جنسه، وبالكسر مثله من جنسه، و سمّى به الفدية لانّها تماثله و تساويه **«ولاهم ينصرون»**: ولا يمنعون من عذاب الله، ومن ايدى المعذّبين، فلا نافع ولا دافع، ولا شافع.

«وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ»
«وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ»

«واذ نجّيناكم» اى اذكروا وقت تنجيتنا إيّاكم اى آبائكم، فانّ، تنجيتهم، تنجية لأعقابهم والنجو: المكان المرتفع من الأرض لانّ من صار إليه، يخلص، ثم سمّي كلّ فائز ناجياً بخروجه من ضيق إلى سعة **«من آل فرعون»**: واتباعه، و فرعون لقب من ملك العمالقة، ككسرى لملك الفرس، و قيصر لملك الروم، وتبّع لملك اليمن، والعمالقة، الجبابرة، و هم أولاد عمليق بن لاوذ ابن آدم بن سام بن نوح، سكّان الشام، سمّوا بالجبابرة، و ملوك مصر منهم سمّوا بالفراعنة ولقّبوه، يقال تفرعن الرّجل اذا عتا وتمرّد، وفرعون موسى هو الوليد بن مصعب بن الريّان، وكان من القبط، وعمّر أكثر من أربعمائة سنة، و قيل انّه كان عطّاراً اصفهانيّاً، ركبته الديون، فأفلس فاضطرّ إلى الخروج، فدخل مصر فرأى في ظاهرها حملاً من البطّيخ بدرهم، فتوجّه إلى السوق، فرأى يبيعون بطّيخة بدرهم، فقال في نفسه ان تيسّر لي أداء الديون فهذا طريقه، فخرج إلى السواد فاشترى حملاً

بدرهم فتوجّه به إلى السوق ، فكلّ من لقيه من المكاسين أخذبطيخة فدخل السوق و مامعه إلّا بطيخة فباعها بدرهم ، ومضى بوجهه ، ورأى أهل البلد متروكين سدى ، لا يتعاطى أحد سياستهم ، وكان قد وقع بمصر وباء عظيم ، فتوجّه نحو المقابر ، فرأى ميّتاً يدفن فتعرّض لأوليائه ، فقال : أنا أمير المقابر ، فلادعكم تدفنونه حتّى تعطوني خمسة دراهم ، فدفعوها إليه و مضى لآخر وآخر حتّى احرز في مقدار ثلاثة أشهر مالاً عظيماً ، ولم يتعرّض له أحد قطّ ، إلى أن تعرّض يوماً لأولياء ميت ، فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم ، فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذاالمنصب ، فذهبوا به إلى فرعون فقال : من أنت ، و من اقامك بهذا المقام ، قال لم يقمني أحد و إنّما فعلت ما فعلت ، ليحضرني أحد إلى مجلسك ، فانبّهك على اختلال حال ملكك ، وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار العظيم من المال ، فأحضره ودفعه إلى فرعون ، فقال : ولّني امورك ترني أميناً كافياً ، فولّاه إيّاها ، فسار بهم سيرة حسنة ، فانتظمت مصالح العسكر ، و استقامت أحوال الرعيّة ، ولبث فيهم دهراً طويلاً ، وترأى امره في العدل و الصلاح ، فلمّا مات فرعون أقاموه مقامه ، فكان من امره ما كان ، و كان فرعون يوسف اسمه الرّيان ، وبينهما أكثرمن أربعمائة سنة ؛

« **يسومونكم سوء العذاب** » : اى يبغونكم و يكلّفونكم ، وقيل يؤلونكم سوء العذاب وسامه خسفاً إذا أولاه ذلّاً ، وقيل معناه يعذّبونكم ، وأصل الباب السوم الّذي هو إرسال الإبل في الرعي ، أومن سام السلعة إذا طلبها ، فمعناه الطلب ، وتقدير الكلام تجيّناكم مسوّمين منهم أقبح العذاب كقولك رأيت زيداً يضربه عمرو ، اى رأيته حالكونه مضروباً لعمرو ؛

قال وهب بن منبه : كانوا أصنافاً في أعمال فرعون ، فصنف يبنون ، وصنف يحرثون وصنف يخدمون ، فذو القوة ينحتون السواري من الجبال ، حتّى قرحت أيديهم و أعناقهم ودبّرت ظهورهم من قطعها ونقلها ، و طائفة يضربون اللبن و يطبخونها للآجر و كذلك والضعفة من الناس يضرب عليهم الخراج ضريبة ، ويؤدّونها كل يوم ، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدّي ضريبته ، غلّت يمينه إلى عنقه شهراً ، والنساء يغزلن الكتّان وينسجن

وقيل : يفسّر قوله يسومونكم سوء العذاب ، قوله : « **يذّبحون أبناءكم** » : كأنّه قيل ماحقيقة سوء العذاب الّذي يبغونه لهم ، فاجيب بأنّه يذبحون أبناءكم ، و التشديد للتكثير ، كما يقال فتّحت الأبواب ، والمراد من الأبناء ، الذكور خاصّةً ، و إن كان الإسم يقع عليهما في غير هذا الموضع ، كالبنين في قوله : يا بني إسرائيل ، و كانوا يذبّحون الغلمان لاغير ، و كذا الصغار دون الكبار .

« **و يستحيون نساءكم** » : ويستبقون بناتكم ، وذلك انّ فرعون راى في منامه كانّ ناراً اقبلت من بيت المقدّس ، فاحاطت بمصر ، وأخرجت كلّ قبطّي بها ، ولم تتعرّض لبنى اسرائيل ، فهاله ذلك ، وسأل الكهنة والسحرة عن الرؤيا ، فقالوا يولد في بنى اسرائيل غلام يكون على يده هلاكك ، وزوال ملكك ، فامر فرعون بقتل كلّ غلام يولد في بنى اسرائيل ، وجمع القوابل فقال لهنّ ، لايسقط على ايديكنّ غلام يولد في بني اسرائيل الّا قتل ، فكنّ يفعلن ذلك ، حتّى قتل فى طلب موسى اثنى عشر الف صبّي ، وتسعون الف وليد ، ثمّ اسرع الموت في مشيخة بنى اسرائيل ، فدخل رؤس القبط على فرعون ، و قالوا انّ الموت وقع في بني اسرائيل ، فتذبح صغارهم ، ويموت كبارهم ، فيوشك ان يقع العمل بنا ، فامر فرعون ان يذبحوا سنة ، ويتركوا سنة ، فولد هرون فى السنة التى لا يذبح فيها ، وولد موسى في السنة الّتى يذبحون فيها ، وقدشمر فرعون عن ساق الاجتهاد وحسر عن ذراع العناد ، فاراد ان يسبق القضاء ، هيهات ويابى الله الاّ ان يتمّ نوره .

«**وفي ذلكم**» : اشارة الى التذبيح و الاستحياء ، « **بلاء** » : محنة و بليّة ، لانّ الاعمال الشاقّة وذبح الاولاد والاسترقاق ممّا يشقّ على الانسان ، غايةً ، لاسيّما بعد ذبح الولد« **من ربكم عظيم** » : يحتمل ان يكون من الله هذا الامتحان ، بان خلّى بينكم وبين فرعون ، حتى فعل هذه الافاعيل ، فيكون هذا الامتحان لمحنته لكم ، ويحتمل ان يكون الاشارة في قوله وفي ذلكم ، الى التخلّص من فرعون ، فيكون نعمة ومنحة عظيمة من الله عليكم لامحنة ، والبلاء ، الاختبار ،

والله تعالى يختبر عباده ، تارة بالمنافع ، وتارة بالمضارّ ، ليشكروا ويصبروا ، كما قال ونبلوكم بالشرّ والخير ، وسنّة الله تعالى استدعاء العباد بعبادته ، بسعة الارزاق ، ودوام

المعافاة ليرجعوا اليه بنعمته ، ويشكروه بالطاعة ولزوم الايمان ، فان لم يفعلوا ابتلاهم بالسرّاء والضرّاء لعلّهم يرجعون .

« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ »

« واذ فرقنا بكم » : واذكروا يا بني اسرائيل وقت تفريقنا وتفصيلنا بسبب انجائكم ، فالباء للسببيّة ، وقيل بمعنى اللام لقوله تعالى ذلك بأنّ الله هو الحقّ ، أي لأنّ الله ؛

« البحر » : هو بحر القلزم من بحار فارس ، او بحر يقال له اساف ، حتّى حصل اثنى عشر مسلكا بعدد اسباط بني اسرائيل ، والسبط ولد الولد ، وهم اولاد يعقوب ، **« فانجيناكم »** : من الغرق ، باخراجكم الى الساحل ، وفرقنا بين المائين ، فوقع بين كلّ فريقين من البحر ، سبط من الاسباط يسلكون طريقا يابسا ، بسبب هبوب الريح دفعة ؛ **« واغرقنا آل فرعون »** : يريد فرعون وقومه للعلم بدخوله فيهم ، و كونه اولى به منهم ، **« وانتم تنظرون »** : بابصاركم انفراق البحر لكم ، وانطباقه على آل فرعون حين رمى موتاهم البحر الى الساحل .

روى انّه لمّا دنا هلاك فرعون ، أمر الله موسى ان يسرى ببني اسرائيل من مصر ليلاً ، فأمرهم ان يخرجوا و ان يستعيروا الحلي من القبط ، وأمر ان لا يناد احد صاحبه ، وان يسرجوا في بيوتهم الى الصبح ، ومن خرج لطخ بابه بكف من دم ، ليعلم انّه قد خرج ، فخرجوا ليلا ، وهم ستمائة الف وعشرون الف مقاتل ، لا يعدون فيهم ابن العشرين لصغره ، ولا ابن الستّين لكبره ، والقبط لا يعلمون بذلك ، وكان قد وقع في القبط موت فجعلوا يدفنونهم ، وشغلوا عن طلبهم ، فلمّا ارادبنو اسرائيل السير ، ضرب عليهم التيه ، فلم يدروا اين يذهبون ، فدعا موسى مشيخة بني اسرائيل ، وسألهم عن ذلك ، فقالوا ان يوسف لمّا حضره الموت ، اخذ على اخوته عهدا ان لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم ، فلذلك انسدّ عليهم الطريق ، فسألهم عن موضع قبره ، فلم يعلمه أحد غير عجوز ، قالت لودللت على قبره اتعطيني كلّما سألتك ، فأبى عليها موسى وقال حتى اسئل ربّي ، فامره الله بايتاء سؤلها ، فقالت اني عجوز كبيرة ، لا استطيع

المشي ، فاحملني واخرجني من مصر ، هذا في الدنيا واما في الآخرة فأسئلك ان لا تنزل غرفة إلا نزلتها معك ، قال موسى نعم ، قالت انه في جوف الماء في النيل ، فادع الله ان يجيزعنه الماء ، فدعا الله ان يؤخرطلوع الفجرالى ان يفرغ موسى من امر يوسف فحفر ذلك الموضع ، واستخرجه في صندوق من صنوبر ، و سبب ان قبره كان جوف النيل لامر يطول شرحه ، والمجمل منه استبراك اهل مصر بماء النيل ، بمجاورة الماء قبره ، حتى تعم البركة ، الفقير والغنى ، والقريب والبعيد من صعيد مصر ، فاستخرج تابوت يوسف من قعر النيل ، وحمله ودفنه في أرض الشام ، ففتح لهم الطريق ، ثم ساروا ، فكان هرون أمام بني اسرائيل ، وموسى على ساقتهم ، فلما علم بذلك فرعون جمع قومه ، وخرج في طلب بنى اسرائيل ، وعلى مقدمته هامان في الف الف وسبعمائة الف جواد ذكر ليس فيها رمكة ، على راس كل واحد منهم بيضة ، وفي يده حربة ، فسارت بنو اسرائيل حتى وصلوا الى البحر ، فادركهم فرعون حين اشرقت الشمس ، فقال فرعون في اصحاب موسى ، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، فلما نظر اصحاب موسى اليهم ، بقوا متحيرين ، فقالوا لموسى أنا لمدركون يا موسى اوذينا من قبل ان تأتينا و من بعد ما جئتنا اليوم نهلك ، فان البحر أمامنا ، ان دخلناه غرقنا ، وفرعون خلفنا ، ان ادركنا قتلنا ، كيف نصنع ، واين ماوعدتنا ، قال موسى كلا ان معى ربي سيهدينى ، فأوحي الله الى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فلم يطعه ، واوحى الله اليه ان كنه فضربه ، وقال انفلق يا ابا خالد ، فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقا ، كل طريق كالجبل العظيم ، فكان لكل سبط طريق يأخذون فيه ، فخاضت بنو اسرائيل البحر ، ولا يرى بعضهم بعضا ، فقالوا ما لنا لا نرى اخواننا ، وقال كل سبط قد قتل اخواننا ، قال موسى سيروا فانهم على طريق مثل طريقكم ، قالوا لا نرضى حتى نراهم ، فقال موسى اللهم أعني على أخلاقهم السيئة ، فأوحى الله الى موسى اشر بعصاك يمنة ويسرة فصار فيها كوى ينظر بعضهم بعضا ، و يسمع بعضهم بعضا ، فساروا حتى خرجوا من البحر .

فلما جاز آخر قوم موسى ، هجم فرعون على البحر ، فرآه منفلقاً ، قال لقومه

انظروا الى البحر ، انفلق من هيبتى حتى ادرك عبيدى الّذين ابقوا ، فهاب قومه ان يدخلوه وقيل له ان كنت صادقاً فادخل البحر كما دخل موسى ، وكان فرعون على حصان أدهم ، ولم يكن في قوم فرعون فرس انثى ، فجاء جبرئيل على انثى وديق ، و هي التي تشتهى الفحل وتقدمه الى البحر ، فاقتحم ادهم فرعون خلفها البحر ودخله ولم يتملك فرعون من أمره شيئاً ، وهو لا يرى فرس جبرئيل وتبعته الخيول ، وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يسوقهم حتى لا يشذّ رجل منهم ، حتّى خاضوا كلّهم البحر ، و دخل آخر قوم فرعون ، وجاز آخر قوم موسى ، وهمّ اولهم بالخروج ، فأمر الله البحر أن يأخذهم ، فانطبق البحر على قوم فرعون فاغرقوا ، فنادى فرعون ، لا اله الّا الذي آمنَتْ به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، القصة ؛ وقالت بنو اسرائيل الآن يدركنا فرعون ، فيقتلنا ، فلقط منهم البحر ستمائة وعشر الفاً الذين عليهم الحديد ، ولفظ البحر جثّة فرعون ، فذلك قوله تعالى فاليوم ننجيك ببدنك ، وهو كأنّه ثور أحمر فبعد هذه المعجزة العظيمة ، ما مضى وقت حتى اتخذوا العجل إلهاً بعد الانجاء ، ثم صار أمرهم الى ان قتلوا انبيائهم ، فهذه معاملتهم مع ربّهم ، ثم بدلوا التورية وافتروا على الله و كتبوا التحريفات واشتروا به ثمناً قليلا وكفروا بنبوّة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم مع علمهم بصدقه ، فيالها من عصابة ما اعصاها وطائفة ما أطغاها .

وكان يوم الانجاء والاغراق ، يوم عاشورا و لذا كان اليهود يصومونه و يتّخذونه عيدا ، وقيل : وكان رسول الله يصومه ، فلمّا فرض صوم رمضان في المدينة ، ترك صيام يوم عاشوراء .

«وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ»

واذكروا يا بني اسرائيل ، وقت وعدنا ، وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثي ، أو على اصلها ، فانّ الوعد وان كان من الله تعالى ، فقبوله كان من موسى ، فقبول الوعد ، شبه الوعد ، أو ان الله تعالى وعده الوحي وموسى وعد المجيء للميقات إلى الطور ؛

« **موسى** » : مفعول اول لواعدنا ، مو ، بالعبرانية ، الماء ، وشى ، بمعنى الشجر فقبلت شين المعجمة ، سينا في العربيّة وانّما سمّي به لأنّ امّه جعله في التّابوت ،

حين خافت عليه ، وألقته في البحر ، فدفعته أمواج البحر ، حتى ادخلته بين أشجار ، عند بيت فرعون ، فخرجت جوارى آسية ، امرأة فرعون يغسلن ، فوجدن التابوت ، فأخذنه ، فسمي باسم المكان الذي اصيب به وهو الماء والشجر ، ونسبه موسى بن عمران ابن يصهر بن فاهث ابن لاوى ابن يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق بن ابراهيم الخليل عليه السلام ؛

« اربعين ليلة » : على حذف المضاف ، امره الله تعالى بصوم ثلثين و هو ذو ـ القعدة ثم زاد عليه عشراً من ذى الحجة وعبّرعنها بالليالى، لانّها غرر الشهور ، وشهور العرب ، وضعت عليها سير القمر و لذلك وقع التاريخ بها ، فالليالى ، اوّل الشهور ، والايّام تبع لها ، أو لانّ الظلمة اقدم من الضوء ؛

« ثم اتّخذتم العجل » : وهوولد البقرة ، بتسويل السامرى ، إلّهاً ومعبودا

« من بعده » : اى من بعد مضيّه من الميقات ؛

« وأنتم ظالمون » : باشراككم ووضع عبادة الله ، في غير موضعها ، قال ابن عباس : كان السامرى رجلا صائغا من اهل باجرمى ، اسمه ميحا وقيل موسى بن ظفر وكان من قوم يعبدون البقر ، وكان حبّ عبادة البقر في نفسه ، وكان اظهر الاسلام في بني اسرائيل ، فلمّا قصد موسى عليه السلام الى الميقات خلّف هرون في بني اسرائيل ، قال هرون لقومه ، قد حملتم اوزاراً من زينة القوم ، يعنى آل فرعون ، فتطهروا منها ، فانّها نجس وكانوا استعاروا من القبط حليّا ، فقال هارون : طهّروا انفسكم منها ، فانّها نجسة واوقد لهم نارا ، فقال اقذفوا بما كان معكم فيها ، فجعلوا يأتون بما كان معهم ، من تلك الامتعة و الحليّ ، فيقذفون به فيها ، قال : وكان السامريّ ، رأى اثر فرس جبرئيل ، فأخذ تراباً من تراب حافره ، ثم اقبل على النار وقال لهارون : يا نبى الله القى ما فى يدى ، قال نعم وهو لا يدرى ما في يده ، ويظنّ انّ ما فى يده ممّا يجيىء به غيره من الحليّ والامتعة ، فقذف فيها وقال : كن عجلا جسداً له خوار ! فكان البلاء والفتنة ! فقال : هذا إلهكم وإله موسى ، فعكفوا عليه ! فاحبّوه حبّاً لم يحبّوا مثله شيئاً قطّ ! ! ؛

قال ابن عباس : فكان البلاء ولم يزد على هذا ؛

قال الحسن : صار العجل لحماً ودماً ، وقال غيره : لا يجوز ذلك ، لأنّه من معجزات الانبياء ، ومن وافق الحسن ، قال : انّ القبضة من اثر الملك ، كان الله قد جرى العادة بأنّها اذا طرحت على ايّ صورة ، كانت حيّيت ، فليس ذلك بمعجزة أ اذ سبيل السامرى فيه سبيل غيره ومن لم يجز انقلابه حيّاً ، تاوّل الخوار ، على ان السامرى صاغ عجلا وجعل فيه خروقا ، يدخل فيه الريح ، فيخرج منه صوت كالخوار ، ودعاهم الى عبادته ، فاجابوه ! وعبدوه ! عن على الجبائى .

« ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » :

اى : محونا جريمتكم ، حين تبتم من بعد الاتخاذ ، الذى هو متناه فى القبح ولم نعاجلكم بالعذاب والاهلاك ، بل امهلناكم الى مجيىء موسى ، فينبّهكم بكفّارة ذنوبكم ؛

«لعلّكم تشكرون»: لكى تشكروا نعمة العفو وتستمرّوا بعد ذلك على الطاعة.

« وَاِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »

اى : واذكروا وقت اعطائنا موسى ، الكتاب ، وهو التوراة والفرقان ، قال ابن عباس : انّ المراد به التوراة ايضاً ، وانّما عطف عليه لاختلاف اللفظين ، مثل قولهم : والفى قولها كذبا ومينا : والمين هو الكذب - وقيل : الكتاب ، التوراة ، والفرقان ، انفراق البحر ، اوالفرق بين موسى وأصحابه المؤمنين ، وبين فرعون واصحابه الكافرين ، أو الفرقان : بعض التوراة ، الذى فيه الحلال والحرام ، وذلك انّه لمّا رجع موسى ووجدهم على عبادة العجل ، ألقى الألواح ، فرفع من جملتها ستة اجزاء ، وبقى جزء واحد ، وهو الحلال والحرام وما يحتاجون واحرق العجل وذراه فى البحر ، فشربوا من مائه حبّاً للعجل ، فظهرت على شفاههم صفرة ، ورمث بطونهم ، فتابوا ، ولم تقبل توبتهم ، دون ان يقتلوا انفسهم ، وذلك قوله :

« وَاِذْ قَالَ مُوسٰى لِقَوْمِهٖ يَاقَوْمِ اِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ اَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا اِلٰى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا اَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ اِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » :

واذكروا يا بني اسرائيل« **اذ قال موسى** » وقت قوله لقومه الذين عبدوا العجل « **يا قوم** » : اى : يا قومي والاضافة للشفقة ؛

« **انكم ظلمتم أنفسكم** » و ضررتم انفسكم بايجاب العقوبة عليها بسبب « **اتخاذكم العجل** » معبودا ، قالوا اى شيء نصنع ، قال (**فتوبوا الى بارئكم**) فاعزموا على التوبة ، والفاء للسببيّة ، لانّ الظلم سبب للتوبة ، فارجعوا الى خالقكم ومن خلقكم بريئاً من العيوب والنقصان وانتم من الجهالة والغباوة ، بحيث تركتم عبادة مثل هذا الخالق وعبدتم البقر ، الذي هو مثل في الغباوة وانّ من لم يعرف حقوق منعمه ، حقيق بأن تستردّ النعمة منه ولذلك امروا بالقتل وفكّ التركيب وانفصال نعمة الحيوة ؛

فقالوا كيف نتوب ؛ قال : « **فاقتلوا انفسكم** » اى : ليقتل البريء ، المجرم ، فأوحى الله الى موسى انّ توبة المرتد لا تتم إلّا بالقتل « **ذلكم** » اى : التوبة والقتل « **خيرلكم** » انفع لكم عند الله ، لأنّ القتل وصلة الى الحيوة الأبديّة وطهرة من الشّرك .

انفصالى اتصالش در عقب ❊ اتصال منفصل باشد تعب

« **فتاب عليكم** » اى : ففعلتم ما امرتم به ، فتاب عليكم وقبل توبتكم وانّما قال عليكم مع ان الضمير لاسلافهم ، لما انّ هذا الامر من النعم العظيمة واريد التذكير بها للمخاطبين بانّ هذه النعمة شملتكم ، لانّه رفع ذلك الامر عنهم قبل فنائهم بالكلّية فلولم يرفع القتل عن آبائهم ، لما وجد الابناء ، فحسن الخطاب ؛

ومعنى اقتلوا انفسكم : لانّ المؤمنين كنفس واحدة ، أو يكون معناه استسلموا للقتل وجعل استسلامهم للقتل ، قتلا منهم لانفسهم ، على وجه التوسع ؛

روي انّ موسى ، امرهم ان يقوموا صفّين ، فاغتسلوا ولبسوا اكفانهم وجاء هرون باثنى عشر الفا ممّن لم يعبدوا العجل ومعهم الشفار المرهفة وكانوا يقتلونهم ، فلمّا قتلوا سبعين الف قتيل وكان موسى وهارون ، واقفين ، يدعوان الله ويتضرّعان اليه ـ وهم يقتل بعضهم بعضا ، حتى نزل الوحى ، برفع القتل وقبلت توبة من بقى ؛

قال ابن جريح : السبب في امرهم بقتل انفسهم ، انّ الله علم انّ ناساً منهم ، ممّن لم يعبد العجل ، لم ينكروا عليهم ، مع علمهم بانّ العجل باطل ، فلذلك ابتلاهم بأن يقتل بعضهم ، بعضاً ، وإنّما امتحنهم الله ، بهذه المحنة ، لكفرهم بعد الآيات العظام ؛

« **انّه هو التّواب الرّحيم** » اى : قابل التوبة عن عباده ، مرّة بعد اخرى ، أو معناه : قابل التوبة عن الذنوب العظام ، « **الرّحيم** » : اذا تبتم وفي هذه الآية دلالة ، على انّه ، يجوز ان يشترط في التوبة سوى النّدم ما لا يصحّ التوبة ، إلّا به ، كما امروا بالقتل ؛

أقول : لما وصلت الى نقل بيان هذه الآية ، رأيت جماعة ضالّة ، من امّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم عدلوا عن دينه وهم اشقى من اولئك اليهود ، لأنّهم رضوا بقتل انفسهم ، في قبول توبتهم ، وبذلوا بأعز ما عندهم وهو النفس ؛ ولا يرغب الواحد منّا ، في التوبة بما هو اسهل من توبتهم بدرجات ، فهم اقدموا وتابعوا مع هذا الحكم الشديد . ونحن ولينا مدبرين وجسرنا معرضين ، مع هذه السهولة ، في حكم توبتنا ، فان قلت انهّم كفروا ، فرضوا في توبتهم ، بقتل أنفسهم ، ليتخلّصوا من العذاب الدائم ، بخلاف الامّة المرحومة ، فالجواب : أنّ القرآن مشحون بما اوعد الله فيه على الكبائر ، بالنّار ، هب ، ان لم تكفر ، لم تكن مخلّداً ، لكن كيف تتحمل عذاب احقاب من الزمان ، على أنّ ملكات بعض المعاصي الخبيثة ، يوجب ذهاب الايمان ، وليس ايماني وايمانك سدّ اسكندر ومآرب ومعذلك ، فقد خرب سدّ مآرب فارة وانّما يكفى في ذهاب ايماني وايمانك خطرة ، واحدة ، مع الثبات والترديد ، على تلك الواحدة ، وهذا كلّه اذا كانت المعاصي ، من جنس الفسوق ، امّا اذا كانت المعصية ، مستلزمة لذهاب الايمان

والاسلام وتشييد الكفر، بل يكون ذلك الامر وتلك المعصية، علّة موجبة، لتعطيل احكام القرآن ودروسها، المُقدِم على مثـل هذه الامور، يقال له فاسق، ام يقال له مضلّ، ويرتدّ عن الاسلام، ثمّ انّه ،هل يكفي، في حقّه، مجرّد الندم، ام عليه ردّ ما افسده باقدامه، ومعلوم انّ تكليف الاصلاح والرد، متوقف على القدرة والامكان وهو لا يمكنه فالجواب: راجع الى مسئلة الامتناع بالاختيار، لا ينافي الاختيار وعلى كلّ التقادير، فلابدّ وان المرتكب في مثل هذه الامور، لا اقلّ أن يرجع عن هذه المسالك الخبيثة ولا يكفيه الرجوع، باستنكاره في القلب، بل لابدّ وان يظهر انكاره ويبيّن قبحه، حتى يكون متداركاً في الجملة ويصحّ عليه صحّة السلب، في دخوله في العنوان وإلّا لماكان تائبا، لأنّ التدارك، لابدّ منه في التوبة، ثم انّ الرد والاصلاح فى مثل هذه الامور، التي وجود نسخ القرآن وضعف الاسلام، بل نفى الاسلام مسبب عنها، هل يشترط فيه الامن، من الضرر، للذي احدث مثل هذه الامور، أم لا، كما اشترط هذا الشرط في المعارف والمنكرات مطلقا، ثم لو سلّمنا، انّ الامن من الضرر، في مثل هـذه الامور، التي توجب نسخ القرآن، او الزام النّاس، بالعمل بغيره، كالمشروطيّة مثلا، هل هو، جار، فى تمام طبقات الناس، من غير فرق، بين الجاهل والعالم، بحيث لا يجب على العالم انكاره، حيث لم يأمن الضرر على نفسه، لم يخصص هذا العالم وامثاله، بتخصيصات فى الحكم، لمقتضيات مصالح الاسلام، فالمسئلة غامضة جدّاً، خصوصاً اذا كان العالم، مطاعاً فى الاسلام ومستبصراً فى الفساد، فاذا لم يأمن الضرر على نفسه، او قطع وجود الضرر على نفسه، فهل هذا الحكم يعمّه، بحيث تكون نفسه محفوظة، والقرآن ضائعاً ،ام انّ التخصيص، يخرجه عن هذا الحكم، اوعليه بأن يبذل مهجته في دين الله؛

وقد حيّرني سكوت بعض العارفين بامور المبتدعة ولا يمكن ان يتصوّر انّهم توقّفوا في ادلّة التعادل والتراجيح، بين حفظ نفوسهم والاسلام، مع انّ القاعدة فى التزاحم، ملاحظة الرجحان، فلابدّ ان أقول: ان السر فى هذا الامر، قد اختفى عليك ايّها الجاهل، فى حيرتك، الى ان يذهب جلّ القرآن ويضيع عنوان الاسلام، و **بالجملة**:

فتب الى ربك ، ايّها العاصي وايّها الكافر ، فانّك قد وقعت في زمان ، يسهل عليك التوبة ، هذا اذا كان المقدم على هذا الامر ، غيرعالم بفساده ويكون في دعواه صادقا ، بأن أراد ان يكون خلالاً ، فصار نباذاً ، لكن لوكان عالماً بمفسدته ، انّى يكون له التوبة ، وهيهات كما يفصح عن هذا الحكم ، حديث ذلك العالم الاسرائيلى ولا تكن شرّاً من اليهود ، فانّ اليهود لمّا امرهم ، موسى ، بالقتل قبلوا قوله وقالوا : نصبر لامر الله ، فجلسوا مختبين ، مذعنين ؛

وقيل لهم : من حلّ حيوته ، او مدّ طرفه الى قاتله ، او اتقاه بيده او رجله ، فهوملعون ، مردود توبته ، فقبلوا ، فاصلت القوم عليهم السيوف والخناجر وحملوا عليهم وضربوهم بها ؛

وكان الرجل ، يرى ابنه واباه واخاه وقرينه وجاره ، فلم يمكنهم المضيّ لأمر الله ، قالوا يا موسى ، كيف نفعل ؟ ؛ فأرسل الله سبحانه ، سوداء ، لا يبصر بعضهم بعضا ، فكانوا يقتلونهم الى المساء ، فلمّا كثر القتل دعا موسى وهارون وبكيا وقالا : يارب هلكت بنواسرائيل ، البقيّة البقيّة ، فكشف الله السحابة ونزلت التوبة وأمرهم أن يكفّوا عن القتل ، فقتل منهم ، سبعون الفاً ، فكان من قتل شهيداً ومن بقى ، مغفوراً .

وروى: انّ الامر بالقتل ، من الاغلال التى كانت عليهم وهي من التكاليف الشاقّة عليهم من لزوم الغلّ في اعناقهم ، كقطع الاعضاء الخاطئة ومثل عدم جواز صلوتهم في غيرالمساجد وعدم التطهير بغيرالماء ومنع الطيّبات عنهم بالذنوب وكون الزكوة ، ربع مالهم و كتابة ذنب الليل ، على ابوابهم بالصبح .

وقد روى : انّ بني اسرائيل ، اذاقاموا ، يصلّون ، لبسوا المسوخ وغلّوا أيديهم الى اعناقهم وربّما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة واوثقها الى سارية المسجد وحبس نفسه على العبادة ، فهذه الاغلال ، التي كانت عليهم وقدرفعها الله ، عن هذه الامّة تكريماً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم واعظم جميع نعم الله، على هذه الامّة المرحومة ، بعد نعمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، نعمة التوبة ، التي انعم الله بها ، عليهم ولها مراتب ، فأقلّ مرتبتها ترك المنهيات والقيام بالواجبات وقضاء الفوائت وردّ الحقوق و الاستحلال من المظالم والندم على ما

جرى والعزم على عدم العود ؛

قال اهل المعنى : انّ لكلّ قوم عجلا يعبدونه من دون الله ، فقوم يعبدون عجل الدراهم والدنانيروقوم يعبدون ، عجل الكبر والحسد وقوم يعبدون ، عجل اجاه وقوم يعبدون ، عجل الهوى وهذا القسم الاخير ، رئيس الاقسام الثلاثة الأول وكلها مندرجة في هذا الاخير .

قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ »

« **وإذ قلتم** » اى : واذكروا يابني اسرائيل ، وقت قول السبعين من اسلافكم الذين اختارهم موسى ، حين ذهبوا معه الى الطور ، للاعتذار عن عبادة العجل وهم غير السبعين الذين اختارهم موسى ، اول مرّة ، حين أراد الانطلاق الى الطور ، بعد غرق فرعون ، لاتيان التوراة و ذلك لانهم قالوا « **يا موسى لن نؤمن لك** » : و لن نصدّقك ، لاجل قولك ودعوتك ، على أنّ هذا كتاب الله وانك سمعت كلامه ؛

« **حتّى نرى الله جهرة** » اى : عيانا لاساتر بيننا وبينه ، كالجهر في الوضوح والانكشاف ، لأنّ الجهر في المسموعات والمعاينة في المبصرات ، ونصبها على المصدرية اى نرى الله مجاهَراً بفتح الهاء ، اونرى الله مجاهرين ، على انّه حال من الفاعل ،

« **فاخذتكم الصاعقة** » : هي نارمحرقة ، فيها صوت نازلة من السماء وهي امر هائل ، مميت اومزيل للعقل والفهم ، تكون صوتاً ، اوناراً و غيرذلك و انّما احدثت الصاعقه ، اسؤالهم ماهومستحيل على الله ، لفرط العناد والتعنت ،

« **وانتم تنظرون** » الصاعقة النازلة وقيل معنى جهرة ، صفة لخطابهم لموسى انّهم جهروا بهذه القول الفاسد واعلنوه والمعنى الأول أقوى .

« ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

وكانت تلك لهم ، كالسكتة لغيرهم ولماكانت تلك الموتة ، قبل انقضاء آجالهم ، احياهم ليستوفوا بقيّة آجالهم وارزاقهم ولوماتوا بآجالهم ، لم يبعثوا الى يوم القيمة

وذلك قوله « **ثم بعثناكم** » اىاحييناكم « **من بعد موتكم** » بتلك الصاعقة « **لعلّكم** تشكرون » نعمة الحيوة ، بالتوحيد والطاعة وتشكرون وقت مشاهدتكم باس الله بالصاعقة ، فلاتعودون الىاقتراح مثل هذه الامور ، بعد ظهور المعجزاتواصل القضيّة انّ موسى عليه السلام لمّا رجع من الطور الى قومه ورأى قومه ، ماهم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه والسامرى ماقال واحرق العجل وندم القوم على مافعلوا ،

امر الله موسى ان يأتيه في ناس من اسرائيل ، يعتذرون من عبادة العجل ، فاختار موسى سبعين من قومه ، من خيارهم ، فلمّا خرجوا الى الطور ، قالوا لموسى ، سَل ربّنا ، حتّى يسمعنا كلامه ، فسأل موسى ذلك فاجابه الله ، و لمّا دنا من الجبل ، وقع عليه عمود من الغمام و تغشّى الجبل كلّه ، ودنا من موسى ذلك الغمام ، حتى دخل فيه وقال للقوم ، ادخلوا ، فكلّم الله موسى ، يأمره و ينهاه و كلّما كلّمه تعالى، اوقع على جبهة موسى ، نورا ، ساطعاً ، لايستطيع احد من السبعين، النظر اليه و سمعوا كلامه تعالى ، مع موسى ، افعل ولا تفعل ، فعند ذلك طمعوا في الرؤية و قالوا ، ما قالوا ، فأخذتهم الصاعقة ، فخرّوا صعقين ، ميّتين ، يوماً و ليلة ، فلمّا ماتوا ، جعل موسى ، يبكى و يتضرّع ، رافعاً يديه ، يدعو ويقول : يا إلهي ، اخترت من بني اسرائيل ، سبعين رجلا ، ليكونوا شهودا ، بقبول توبتهم و ماذا اقول لهم ، اذا اتيتهم وقد اهلكت ، لو شئت اهلكتهم قبل هذا اليوم مع اصحاب العجل ، اتهلكنا بما فعل السفهاء منّا ؟ فلم يزل ، يناشد ربّه ، حتّىأحياهم الله ؛ وطلب توبة بني اسرائيل ، من عبادة العجل ، فقال الله ، لا ، الّا أن يقتلوا أنفسهم ، قالوا انّ موسى ، سأل الرؤية ، في المرّة الاولى ، في الطور ولم يمت ، لأنّ صعقته ، لم يكن موتاً ولكن غشيته غشية ، بدليل قوله تعالى : فلمّا أفاق ؛

وسئل قومه ، في المرّة الثانية ، حين خرجوا ، للاعتذار ، وماتوا وذلك لأنّ ، سؤالهم ، سؤال افتراء وتكذيب و سؤال موسى ، كان عن لسانهم ، أو عن اشتياق واسترشاد .

قوله : « **وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** » :

« **وظللنا عليكم الغمام** » اى: ومن أنعامنا عليكم ، يا بني إسرائيل ، ان ظللنا عليكم وجعلنا الغمام ، ظلّة عليكم وهذا جرى في التيه ، بين المصر والشّام ، فانّهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر ، وقعوا في صحراء ، لا أبنية فيها ، أمرالله بدخول مدينة الجبّارين وقتالهم ، فقبلوا ، فلمّا قربوا منها ، سمعوا ، بأنّ اهلها ، جبّارون ، أشدّاء ، قامة احدهم ، سبعمائة ذراع ، ونحوها ، فامتنعوا وقالوا لموسى : اذهب أنت وربّك فقاتلا انّا هيهنا قاعدون ، فعاقبهم الله ، بأن يتيهوا في الارض ، أربعين سنة وكانت المفازة والتيه ، اثنى عشر فرسخاً ، فأصابهم ، حرّ شديد وجوع مفرط ، فشكوا الى موسى ، فرحمهم الله ، فأنزل عليهم عموداً من نور ، يدلى لهم ، من السماء ، فيسير معهم بالليل يضيىء لهم ، مكان القمر ، اذا لم يكن قمر وارسل غماماً ابيض رقيقا ، اطيب من غمام المطر ، يظللّهم من حرّ الشمس ، في النهار وسمى السحاب غماما ، لأنّه يغمّ السماء ويسترها والغم ، حزن يستر القلب .

ثمّ سئلوا ، موسى ، الطّعام ، فدعا ربّه ، فاستجاب له وهو قوله : « **وأنزلنا عليكم المنّ** » اى : الترنجبين ، كان ابيض ، مثل الثلج ، كالشهد المعجون بالسمن و قيل : المنّ ، الذي يعرفه الناس ، يسقط على الشجرة ، عن ابن عباس ، وقيل : انّه الخبز المرقق ، عن وهب ، وقيل : المنّ جميع ما أنعم الله ومنّ به ، على عباده ، من غير تعب ولا زرع ومنه قوله الكماة من المنّ ، وماؤها شفاء للعين ؛

قالوا : يا موسى ، قتلنا هذا المنّ ، بحلاوته ، فادع لنا ربّك ، ان يطعمنا اللّحم ، فأنزل الله عليهم ، السّلوى ، وذلك قوله : « **والسلوى** » هو السمانى كانت تحشره عليهم ، الريح الجنوب ، وكانت الريح تقطع حلوقها وتشق بطونها وتملط شعورها و ريشها وكانت الشمس تنضجها ، فكانوا يأكلونها مع المنّ ، لكنّ أكثر المفسّرين ، على أنّهم يأخذونها ، فيذبحونها ، فكان ينزل عليهم المنّ ، نزول الثلج ، من طلوع الفجر الى طلوع

الشمس ، وتأتيهم السلوى فيأخذ كلّ انسان منهم كفايته الى الغد ، إلّا يوم الجمعة ، يأخذ ليومين ، لأنّه لم يكن ينزل يوم السبت ، لأنّه كان يوم عبادة ، فانّ اخذ اكثر من ذلك ، دود وفسد ؛ « **كلوا** » اى : قلنا لهم كلوا « **من طيبات** » : حلالات « **ما رزقناكم** » : من المنّ والسلوى ولا ترفعوا منه ، شيئا ، ادّخاراً ولا تعصوا امرى ، فرفعوا وجعلوا اللحم، قديداً ، مخافة ان ينفد ولولم يرفعوا ، لدام عليهم ذلك ، والطيب ما لا يعافه الطبع ولا يكرهه الشرع « **وما ظلمونا** » : وما بخسوا بحقّنا ؛

« **ولكن كانوا انفسهم يظلمون** » : بأن كفروا بالنعم الجليلة ، وباستيجابهم العذاب وقطع مادة الرزق ، الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ومشقّة ، في الدنيا ولا حساب في العقبى .

قال النبي ﷺ : لولا بنوا اسرائيل، لم يخبث الطعام ولم يخبز اللحم والحاصل: فبعد ان ادّبهم الله ، بسوط الغربة ، في وادى التيه ، ادركهم بالرحمة ، في وسط الكربة واكرمهم بالأنعام وظلّلهم بالغمام ومنّ عليهم بالمنّ وسلّاهم بالسلوى ، فلا شعورهم كانت تطول ولا اظفارهم كانت تنبت ولا ثيابهم كانت تخلق ، او تدرن ، بل كانت تنمو صغارها ، حسب نموّ الصغار والصبيان ولا شعاع الشمس ينبسط وكذلك سنّة الله تعالى ، بمن حال بينه وبين اختياره بكون ما اختاره خيراً له ، ممّا اختاره العبد ، لنفسه ومعذلك ، ما ازداد وابشئوم هواهم ، إلّاالوقوع في البلوى ، كما يحكى عنه ، قوله ، وما ظلمناهم الآية ؛

قال اهل التحقيق ، من علماء الاخلاق ، في كتاب التنوير وما ادخلك الله فيه ، تولى اعانتك عليه ، وما دخلت فيه بنفسك ، وكلك اليه والكاملون من أهل السلوك ، كانوا يخافون من النعمة ، حذراً من ان تكون نعمة الاستدراج ، او محنة ، فمن ذلك ، كان بعضهم ، يسير في البادية ، وقد اصابه العطش ، فانتهى الى بئر ، فارتفع الماء ، الى رأس البئر ، فرفع رأسه الى السماء وقال : اعلم انّك قادر ولكن لا اطيق هذا ، فلو قبضت لي بعض الاعراب ، يصفعني صفعات ويسقيني ، شربة ماء ، كان خيراً لي .

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

ذكر سبحانه في الآيات السابقة ، نعمة الدنيوية عليهم ، كتظليل الغمام ، وانزال المنّ والسلوى وذكر في هذه الآية ، نعمة الدينية عليهم ، فقال : واذكروا يابني اسرائيل « **اذ قلنا** » قولنا ، لآبائكم ، بعد ما انفذتم ، من التيه « **ادخلوا هذه القرية** » و اختلف في القرية ، قال جماعة ، مثل قتادة وابي مسلم ، والربيع انّها بيت المقدس و استدلّوا عليه ، بقوله في المائدة « ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم » وقيل انّها مصر وقال ابن عباس وجماعة : انّها اريحا وهي قرية قريبة من بيت المقدس وقالوا : لا يجوز ان تكون القرية ، بيت المقدس ، لأنّ الفاء في قوله : فبدّل الذين ظلموا قولا يقتضى التعقيب ، فوجب ان يكون ، ذلك التبديل ، وقع منهم عقيب الأمر بالدخول ، في حيوة موسى وموسى مات في التيه ولم يدخل بيت المقدس ، فحينئذ ليس المراد من هذه القرية ، بيت المقدس ، وأجاب الأوّلون بانّه ، ليس في هذه الآية ، انّما قلنا لهم ادخلوا هذه القرية ، على لسان موسى ، او على لسان يوشع ، فيمكن ان يكون على لسان يوشع ، فيزول الاشكال .

« **فكلوا منها حيث شئتم رغدا** » : الامر للاباحة ، اى اكلاً واسعاً هنيئا و ابحنا لكم ، فتعيشوا منها ، انّى شئتم بلا مشقّة ولا منع ودخولهم على وجه السكونة والدوام ، لقوله في سورة الاعراف : اسكنوا هذه ؛

« **وادخلوا الباب** » : اى باباً من أبواب القرية وكان لها ، سبعة ابواب والمراد من الباب الثاني ويعرف اليوم ، بباب حطّة ، اوباب القبّة ، التي يتعبّد موسى وهرون ويصليان مع بني اسرائيل ، اليها ؛

« **سجداً** » اى ركّعا منحنين ، ناكسي رؤسكم بالتواضع ، على ان يكون المراد به ، معناه الحقيقي وقيل : المراد من السجود ، نفس السجود ، الذى هو الصاق الوجه ، بالارض ، على ان يكون المراد به معناه الشرعى ، قال الرازى وهذا بعيد ، لانّ الظاهر ، يقتضى وجوب الدخول ، حال السجود ، فيمتنع ذلك ، والمعنى الأول ، أولى وأقرب ؛

« **وقولوا حطّة** » : قرء الحطة بالرفع ، خبر لمبتداء محذوف ، اى : مسئلتنا ، من الله ، حطّ ذنوبنا ومغفرتنا وقرء بالنصب ، اى : الهنا حطّ عنّا ، ذنوبنا ، حطّة وقيل: معناه ، اَمرُ نا حطّة ، اى : امرنا ، ان نحطّ رحالنا ، في هذه القرية ونقيم بها وقيل : اريد بالحطّة ، كلمة الشهادة ، اى : قولوها وهى الحاطّة للذنوب ، لكن الأكثرين ، على انّ ، معنى قوله ، وقولوا حطّة ، امر من الله ، بأن يستغفروا ويطلبوا من الله ، حطّ ذنوبهم وهذه المعاني ، كلّها يصحّ ، ان يترجم عنه ، بحطّة ، لأنّها دواعى المغفرة وحطّ الذنوب ، روي عن الباقر عليه السلام ، انّه قال ، نحن باب حطّتكم ، انّ عليّاً ، باب حطّة ، التي من دخل ، في ولايته ، أمن ونجى ، قال الصادق عليه السلام : نحن الأوّلون ونحن الآخرون وفي الحديث ، انّ عليّاً ، الاول والآخر ، اى : مرجع الأولياء بدءاً وختما وانّ له الولايه الكلّية ، في الدنيا والآخرة وانّه اول الخلق شرفاً و رتبة وإياب الخلق إليه ، لأنّه الواسطة في جميع الفيوضات وهذا معنى حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ياجابر أول ماخلق الله ، نور نبيّك وعليّ عليه السلام نفس الرسول ؛

قال علي عليه السلام : أنا الأول ، أنا الآخر ، أنا الظّاهر ، أنا الباطن وفى معنى هذا الحديث وجوه : الأوّل ـ انّه عليه السلام اوّل من آمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الغيب والشهادة من عالم الأنوار والمثال والارواح والنفوس وعالم الذرّ الاول والناسوت ، فانّه عليه السلام من دعي وأجاب واول من أجاب نداء جدّه ابراهيم حين اذّن للناس بالحج وايضاً اول الاولياء وآخرهم رتبةً ووجودا ؛ وتمام الانبياء والاولياء انّما خلقوا من أشعّة أنوار محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن الصادق عليه السلام عن آبائه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا علي انت منّي بمنزلة هبة الله من آدم وبمنزلة سام من نوح وبمنزلة اسحاق من ابراهيم وبمنزلة هرون من موسى وبمنزلة شمعون من عيسى ، الا انّه لا نبيّ بعدى ، يا على انت وصيي وخليفتى ، فمن جحد وصيّتك وخلافتك فليس منّي ولست منه وأنا خصمه يوم القيامة ، يا على أنت افضل امّتى فضلاً واقدمهم سلما ، واكثرهم علما واوفرهم حلما واشجعهم قلباً وأسخاهم كفّاً ، يا على انت الامام والامير بعدى والوزير ومالك في امّتى من نظير ، يا على أنت

قسيم الجنّة والنار ، بمحبتك يعرف الابرار من الفجّار ، و يميز بين الاخيار والأشرار وبين المؤمنين والكفّار .

قوله تعالى: « **نغفر لكم خطاياكم** » : اصله خطايى ، ابدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الالف ، فاجتمعت همزتان وابدلت الثانية ياءً ، ثم قلبت ألفاً ، وكانت الهمزة بين الفين ، فابدلت ياءً ، فصار خطايا مثل بقايا . مجزوم بجواب الامر . اى : ان فعلتم واتيتم بما امرتم به ، من الدعاء وطلب المغفرة والجود ، لانجازيكم بذنوبكم، ونعفوعنكم وهم الذين عبدوا العجل ثم تابوا .

« **وسنزيد المحسنين** » : ثواباً من فضلنا ، وهم الذين لم يعبدوا العجل . والمحسن من احسن لنفسه ولغيره .

« **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَاَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** »

« **فبدل الذين ظلموا** » : اى الذين ظلموا أنفسهم و غيّروا ما امروا به ، من التوبة والاستغفار « **قولا غير الذى قيل لهم** » : قولاً آخر بما لا خيرفيه . روى انّهم قالوا مكان حطة ، حنطة ، وقيل : قالوا بالنبطية ـ وهي لغتهم ـ حطاًسمقاثاً ، يعنون حنطة حمراء ، استخفافاً بأمر الله ، قال بعض اهل التفسير : طوطىء لهم الباب ليخفضوا رؤسهم فأبوا ان يدخلوه سجداً ، فدخلوا يزحفون على استاههم مدبرين ، مخالفة في الفعل ، كما بدّلوا القول ، و قالوا : ما شاء موسى ان يلعب بنا ، الّا لعب حطّة ٌ حطّة ، اىّ شيىء حطة .

قال ابن عباس : انّهم امروا بخصوص هذه اللفظة ، مع انّ هذه اللفظة عربيّة و هم ماكانوا يتكلّمون بالعربيّة . و قال الآخرون : المراد ان يقولوا قولاً دالّاً على الخضوع والذلّة والتوبة ، مثل هذه اللفظة ، حتى انّهم لو قالوا مكان قولهم : اللهمّ إنّا نستغفرك ونتوب اليك ، لكان المقصود حاصلاً ، لأنّ المقصود من التوبة بالقلب و باللسان ، فالقلب الندم واللسان فذكر لفظ يدلّ على حصول الندم في القلب وذلك

لا يتوقف على ذكر لفظة معيّنة .

« فانزلنا » عقيب ذلك « على الذين ظلموا » : وغيّروا ما امروا به ولم يقل عليهم لأنّ منهم المحسنين « رجزاً من السماء» اى عذاباً ، فويل للمبدّل، وقد بدّلت مصحفا بطنبور، وعسلاً بزنبور . اما سمعت قول ابن عباس حيث قال : ضمن الله لمن اتبع القرآن ان لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . اما سمعت قول الله : انّ هذا القرآن يهدي للّتي هي اقوم . فحينئذ كيف بدلت الجلدة ، بموجبات الحلاوة ، من كتاب الله في الزنا والخمر. ولِمَ بدلت المعروف بالمنكر والمنكر بالمعروف . فان قلت: لا ، فلِمَ تؤاخذني اذا وبّخت الزانية، ولا تؤاخذها.وهل التبديل غير هذا. فان تعذرت بالاقتضاء فذلك لو سلّم ، ففي ما لا يمكن غير المقتضى بمعنى المفعول و امّا فيما يمكن ، فليس ذلك إلّا خروجاً من الدين هذا في الحدود ؛ وامّا في الحقوق ، فعليك بمراجعة كتاب القضاء و الشهادات ، حتى تبيّن لك الأمر من فسادمحاكماتك . وأوّل فسادها، أنّ ما يؤخذ ويسترد من الحقوق بحكمك ، فكأنما أخذ بحكم الجبت والطاغوت ، إذا لم يقع التراضي بين المتخاصمين ، لأنّك لست اهلاً للحكم.واما مجلسك العالى ، فيالله والشورى. وقدجعلت اصله المتأصل وامّ كتابه ، الأكثريّة !! فهل كانت مادّة من امور الدين او الدنيا اهملها الله في كتابه و سنّته ، حتّى جعلت حكم تلك المادّة برأبي ورأيك وانّي استغفر الله ممّا طغى به القلم .

و الرجز في الأصل ما يعاف ويستكره ، وكذلك الرجس. والمراد في الآية ، الطّاعون .

روى انّه مات في ساعة واحدة،منهم أربعة وعشرون الفا، ودام حتّى بلغ سبعين الفا وفي الحديث : الطاعون رجز ، ارسل على بني اسرائيل ، اوعلى من بدّل ، فاذا سمعتم انّ الطاعون بارض، فلاتدخلوها، واذا وقع بارض وانتم بها ، فلا تخرجوا منها .

قال النبي ﷺ : الطاعون شهادة لأمّتي المؤمنين ، و رحمة لهم ، ورجس على الكافرين . ومن مات من الطاعون ، مات شهيداً ، و يأمن فتنة القبر ، و كذا المبطون والاستسقاء داخل في المبطون. وعقله لايزال حاضراً الى حين موته،و كذلك صاحب السلّ

و كذا الغريق، و كذا من يهدم عليه،وصاحب ذات الجنب والحرق والمرأة الجمعاء ، وهي من تموت حاملاً ، جامعاً ولدها .

و في الحديث : اذا بخس الكيل ، حبس القطر واذا كثر الزنى ، كثر الموت والقتل،واذا كثر الكذب ،كثر الهرج ؛

والحكمة،انّ الزنى اهلاك النفس ، لأنّ ولد الزناء هالك حكما ، فلذلك وقع الجزاء بالموت الذريع ، لأنّ الجزاء من جنس العمل ،كما انّ بخس المكيال ، يجازى بحبس القطر الذي هو سبب لنقص ارزاقهم . وكذلك الكذب سبب التفرق والعداوة بين الناس ولهذا يجازى بالهرج الذي هو الفتنه . وانما تعم البلاء اينما وقعت ، لتكون عقوبة على اخوان الشياطين ، و شهادة ورحمة للمؤمنين .

« وَاِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِينَ »

« **واذ استسقى موسى لقومه** » اى: اذكروا يا بني اسرائيل ، وقت الذي سأل موسى السقيا لأجل قومه . وكان ذلك في التيه ، حين استولى عليهم العطش الشديد ، فاستغاثوا بموسى، فدعا موسى ربّه ان يسقيهم « **فقلنا** » له بالوحى ان « **اضرب بعصاك** » وكانت من آس الجنّة ، طولها عشرة اذرع ، على طول موسى ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً . حملها آدم من الجنّة ، فتوارثها الأنبياء ، حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاها موسى .

« **الحجر** : اللّام للعهد، والأشارة الى معهود . فقد روى انّه كان حجرا طوريّا ، حمله معه . وكان خفيفا مربعا ، له اربعة اوجه ، في كلّ وجه ثلاث اعين او هو الحجر الذي فرّ بثوبه ، حين وضع ثوبه عليه ليغتسل وبرأه الله ممّا رموه به من الادرة ، فأشار اليه جبرئيل ان ارفعه ، فانّ الله فيه قدرة ولك فيه معجزة .

قال النبي ﷺ :كان بنو اسرائيل ينظر بعضهم الى سوأة بعض ، ولكن موسى

يغتسل وحده ، فوضع ثوبه على حجر ، ففرّ الحجر بثوبه ، فخرج موسى بأثره ، يقول ثوبي يا حجر ، حتى نظرت بنو اسرائيل إلى سوأة موسى ، فقالوا: والله مابموسى ادرة وهي بالضم ، نفخة بالخصية . وامّا للجنس ، اى اضرب الشيء الذى يقال له الحجر. وهو الاظهر في الحجّة،وابين على القدرة ، فانّ اخراج الماء ، بضرب من العصا من الحجر ايّ حجر كان ، ادلّ على ثبوت نبوّة موسى من اخراج الماء من حجر معهود ، لاحتمال ان يذهب الى تلك الخاصيّة ، في ذلك الحجر المعيّن ، كخاصيّة جذب الحديد في حجر المغناطيس .

« **فانفجرت** » : والانفجار ـ الانسكاب والانبجاس ـ الترشح « **منه** » اى : من ذلك الحجر « **اثنتا عشرة عيناً** » : ماء عذبا ، على عدد الاسباط ،لكلّ سبط عين.وكان يضربه بعصاه اذا نزل فيتفجر.ويضربه اذا ارتحل فييبس« **قد علم كل اناس** » أى كلّ سبط من الاسباط الاثنى عشر « **مشربهم** » اى عينهم الخاصّة بهم و المشرب ، المصدر و المكان . والحكمة في ذلك ، انّ الاسباط كانت بينهم عصبيّة و مباهاة . وكلّ سبط منهم لا يتزوّج من سبط آخر وكلّ سبط اراد تكثير نفسه ، فجعل الله لكلّ سبط مشربا لكيلا يقع بينهم جدال وخصومة. وكانوا ستمائة الف . وسعة المعسكر، اثنى عشر ميلا ، ومن انكر امثال هذه المعجزات ، فلغاية جهله بالله وقدرته ، فانّه لمّا امكن ان يكون من الاحجار ، ما يجذب الحديد ، لم يمنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الارض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويجعله ماءاً بقوة التبريد . ومعنى المعجزة ان تكون خارجة عن العاديّات والاسباب ، كما ظهر اعجب منها من انفجار الماء من يد نبيّنا ، من بين اصابعه ، من لحم ودم ؛

« **كلوا** » : اى قلنا لهم او قيل لهم « **كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين** » : العثى،اشدّ الفساد ، لأنّ الفساد قد يكون ظاهره فسادا لكن باطنه ليس بفساد،وأمّا العثى ، الفساد القبيح ظاهراً وباطناً . اى لا تتماد وافى الفساد ، حا لكونكم مفسدين .

و قد استسقى نبيّنا ﷺ روى عن جندب:انّ اعرابيّاً دخل عليه ﷺ يوم

الجمعة ، وقال : يا رسول الله ملكت الكراع والمواشي ، واجدبت الارض ، فادع الله ان يسقينا ، فرفع يديه ، ودعا متذللاً ، متواضعاً ، متخشعاً ؛ قال انس : والسماء كأنها زجاجة ، ليس فيها قزعة، فنشأت سحابة ومطرت الى الجمعة القابلة . وترك الدعاء لكشف الضر مذموم عند اهل الطريقة ، لأنه كالمقاومة مع الله، ودعوى التحمل لمشاقه . قال ابن الفارض :

ويحسن اظهار التجلد للعدى ✡ ويقبح غير العجز عند الأحبة

قال امير المؤمنين عليه السلام : للدعاء شروط ، الأول هم مجموع . والثاني اخلاص السريرة والثالث معرفة المسؤل والرابع الانصاف في المسألة .

روى ان موسى عليه السلام مر برجل ساجد يبكي ويتضرع ، فقال موسى يا رب ، لو كانت حاجة هذا العبد بيدي ، لقضيتها ، فاوحى الله اليه ، يا موسى انه يدعوني وقلبه متعلق ومشغول بغنمه ، فلو سجد حتى ينقطع صلبه و شق عيناه ، لم استجب له حتى يتحول عما ابغض الى ما احب .

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ان العبد ليرفع يديه الى الله ومطعمه حرام وملبسه حرام ، فكيف يستجاب له وهذه حاله ؛

قال امير المؤمنين عليه السلام : لو أن الناس اذا زالت عنهم النعم، وحلت بهم النقم ، فزعوا الى الله بصدق نياتهم، ووله من نفوسهم ، لرد عليهم كل شارد، ولأصلح لهم كل فاسد ولأصلح لهم كل فاسد ، ولكنهم اخلوا بشكر النعم ، فسلبوها وان الله يعطي بشرط الشكر لها والقيام فيها بحقوقها ، فاذا اخل بالشكر ، كان لله التغيير والتقتير . والله ما نزع الله من قوم نعماؤه ، إلا بذنوب اجترحوها ، فقيدوها بالطاعة واقرب الناس الى الاجابة ، الطائع المضطر ، الذى لابد له مما سئله ، خصوصاً عند نفاد الصبر .

واعلم، ان كرمه وجوده لا يتعديان حكمته ، قال الله : ولو اتبع الحق اهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، سبحان من عطائه كرم، ومنعه عدل وفضل، ولا ييأس العبد من تأخير الأجابة ، فيقصر في الدعاء. وقد كان بين اجابة موسى وهرون ، في فرعون ، اربعين سنة، من حين قال لهما : قد اجيبت دعوتكما .

قال الصادق ﷺ : آداب الدعاء : تبد، وتذكر نعمه عندك ، ثم تشكره ، ثم تصلى على النبي ﷺ ، ثم تذكر ذنوبك خائفا ، ثم تستغفروا الله منها ، ثمّ تطلب حاجتك .

قال تعالى : « **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** »

« **واذ قلتم** » : تذكير جناية اخرى لاسلافهم، وكفرانهم بنعمة الله . خاطبهم تنزيلا لهم مكان آبائهم، لما بينهم من الاتحاد في الطريقة . وكان هذا القول منهم في التيه ، حين سئموا من اكل المن والسلوى ، لأنّهم تذكروا عيشهم الأول بمصر ، لأنّهم كانوا اهل فلاحة، واشتاقت طباعهم الى ماجرت عادتهم ، فقالوا « **يا موسى لن نصبر على طعام واحد** » : وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد ، وهما اثنان ، لأنّهم كانوا يأكلون احدهما بالآخر ، فيصيران طعاما واحدا ، او اريد بالواحد ، نفى التبدّل والاختلاف. ولو كان على مائدة الوان عديده ، يداوم عليها ، فقال لا يأكل فلان الّا طعاما واحدا « **فادع لنا ربك** » اى سله « **يخرج لنا** » : ويظهر لأجلنا ، والجزم لجواب الامر اى ان تدع لنا ربّك، يخرج لنا « **مما تنبت الارض** » و - من - تبعيضية -وما- موصلة « **من بقلها** » والبقل ما نبت الارض،من الخضر. والمراد اصناف البقول،التى تأكلها الناس كالكراث والنعناع و الكرفس واشباهها و « **قثائها** » من انواع الخيار و « **فومها** » قيل : هو الحنطة ، لأنّ ذكر العدس ، يدلّ على انّه المراد ، لأنّه من جنسه ، وقيل هوالثوم ، لأنّ ذكر البصل يدلّ على انّه هوالمراد ، فانّه من جنسه . قال ابن التمجيد : وحمله على الثوم اوفق من الحنطة و« **عدسها** » : حبّ معروف يستوى كيله

ووزنه « و **بصلها** » : بقل معروف،تطيب به القدور ، **قال** » : استيناف وقع عن سؤال مقدّر ، كأنّه قيل : فماذا قال الله لهم او موسى ، فقيل انكاراً عليهم ، « **أتستبدلون** » اى اتأخذون وتختارون لأنفسكم ، « **الذى هو ادنى** » اى ادون مرتبة؛ اذا قرأ ادنأ مهموزا. واذا قرأنا قصا،اى اقرب واحط منزلة ؛ « **بالذى هو خير** » : اى بمقابلة ماهو خير ، كما انّ خيرية المن و السّلوى في اللذاذة وسقوط المشقّة بالنسبة الى العدس والبصل واضحة « **اهبطوا** » وانزلوا من التيه ، ان كنتم تريدون هذه الاشياء « **مصراً** » من الامصار ، لانّكم في البريّة ولا فيهاماتطلبون،وانّما يوجد ذلك في الامصار وليس المراد بمصر ، مصر فرعون ، لقوله : يا قوم ادخلوا الارض المقدسة و اذاً وجب عليهم دخول تلك الأرض ، لكن قال الحسن والربيع : اراد مصر فرعون،الّذى خرجوا منه قال ابومسلم : اراد بيت المقدس « **فان لكم ما سألتم** » : والمصر البلد العظيم ، من مصر الشيىء : اى قطعه ، سمّى به لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة وانّما صرف لسكون وسطه ، كهند ونوح ، او لتأويله بالبلد دون المدينة « **وضربت عليهم الذلة** » والهوان « **والمسكنة** » : اى الفقر : اى جعلنا محيطتين بهم، احاطة القبّة بمن ضربت عليه ، او المعنى بتعبير الضرب، انّه الصقنا بهم وجعلنا ضربة لازب لاتنفك عنهم،مجازاة على كفرانهم كما يضرب الطين على الحائط ، فهو استعارة بالكناية . فترى اكثر اليهود وان كانوا مياسير كأنّهم فقراء « **و باؤا** » : اى رجعوا « **بغضب** » عظيم كائن « **من الله** » استحقوه ولزمهم ذلك.واطلاق الغضب في حق الله ، المراد لازم الغضب ، وهو العقوبة « **ذلك** » اى البوء بالغضب العظيم « **بانهم** » بسبب انّ اليهود «**كانوا يكفرون** » على الاستمرار « **بآيات الله** » والمعجزات الساطعة على موسى،بما عدّا ولم يعدّ، وكذّبوا بالقرآن و بمحمّد ﷺ وانكروا صفته،وكفروا بعيسى والانجيل« **ويقتلون النبيين بغير الحق** » كشعيب وزكريّا ويحيى عليهم السلام.وفائدة التقييد مع انّ قتل الأنبياء يستحيل ان يكون بحق ، للايذان بانّ ذلك عندهم ايضاً بغير الحق .

قال ابن عباس : لم يقتل قطّ من الانبياء ، إلّا من لم يؤمر بقتال.وذلك القتل كرامة لهم وليس بخذلان لهم.وكلّ امر بقتال ، نصر . فظهر ان لاتعارض بين قوله : و يقتلون

النبيين بغير الحق، وقوله : إنّا لننصر رسلنا، وقوله : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انّهم لهم المنصورون ، مع انّه يجوز ان يراد ، به النصرة بالحجة والبرهان ، لا بالسيف والسنان« **ذلك** » : اي ماذكر من العذاب والبوء بالغضب والذلة ؛« **بما عصوا وكانوا يعتدون** » : اي فعلت لهم ما فعلت، بعصيانهم امري وتجاوزهم عن حدودي.وقوله ذلك بما عصوا،فهو تأكيد بتكرير الشيء، بغير اللفظ الأول،وبيان استمرارهم في العصيان .

وفي الآية الكريمة دليل وبيان على جواز اكل الطيّبات والمطاعم المستلذات وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحبّ الحلوى والعسل ويشرب الماء البارد . و العدس والزيت طعام الصالحين. في الحديث : عليكم بالعدس ، فانّه مبارك ، مقدس وانّه يرقق القلب ويكثر الدمعة،وبارك فيه سبعون نبيّاً ،آخرهم عيسى بن مريم عليه السلام .ولولم يكن فيه فضيلة غير انّ ضيافة ابراهيم الخليل من مأدبته لا تخلو منه ، لكان فيه كفاية وهو يخفف البدن فيخف للعبادة ، ولا تثور منه الشّهوات و لهذا السّبب كان رغبة الأنبياء فيه اكثر من غيره .

وكذلك في الآية دلالة على اباحة اكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة . في الحديث : من اكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا ، فانّ الملائكة تتأذى ممّا يتأذّى منه بنو آدم . والمراد بالملائكة ، الحاضرون مواضع العبادات ، لا الملازمون للانسان في جميع الاوقات . ويمكن ان الملازمين ايضاً يتأذّون ، فلا وجه للتخصيص قال صلى الله عليه وآله وسلم : ان كنتم لابدّ لكم من اكلها ، فاميتوها طبخاً - وانما كره النبي صلى الله عليه وآله وسلم اكل الثوم والبصل وغيره، لما انّه يأتيه الوحي ويناجي الله، ولكن رخص للسائر حتى قيل : آخر ما اكله النبي صلى الله عليه وآله وسلم البصل . ايذاناً لامتّه باباحته

رجعنا الى التفسير : التذييل يؤتى به لتأكيد معنى الجملة السّابقة ، مثل جاء الحق الآية ، على انّه اراد استمرار كفرهم ، قال الشاعر :

لله لذة عيش بالحبيب مضت ☆ فلم تدم لي وغير الله لم يدم

والتذييل،تكرار الشيء، بغير اللفظ الاول للتأكيد والثبوت ،كما انّ هذا المعنى في الاعتراض ، لكن في الاعتراض ثبوت تأكيد ومعان اخر، مثل التنزيه ، مثل ويجعلون

لله البنات ـ سبحانه ـ ولهم مايشتهون. والنكتة: تنزيه الله عن هذه النسبة القبيحة. وايضا فائدة الاعتراض، التنبيه كقوله : ووصّينا الانسان بوالديه حملته امّه وهناً على وهن وحمله وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك ، فقوله: حملته الى قوله في عامين . معترضة ايجابا و تأكيداً للوصيّة بالوالدين . ومن فائدة الاعتراض . الاستعطاف كقول المتنبي :

وخفوق قلبي لورأيت لهيبه ☆ ياجنّتي لرأيت فيه جهنّما

استعطاف في قوله يا جنتي ، وطباق .

« اِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هادُوا وَالنَّصارىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ»

« **ان الذين آمنوا** » : اختلفوا في هؤلاء المؤمنين في هذه الآية ، قيل : المراد منهم ، الذين آمنوا بعيسى ، ثم لم يتهودوا ولم يتنصروا ولم يصبأوا، وانتظروا خروج محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقيل: هم طلاب الدين، منهم حبيب النجار وقبس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل والبراء الشنّي وابوذر الغفاري وسلمان الفارسي واصحابه النصارى الذين كان قد تنصّر على ايديهم ، قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وكانوا قد اخبروه بانّه سيبعث، وانّهم يؤمنون به ان ادركوه . وقيل: هم مؤمنوا الامم الماضية . وقيل : المراد المنافقون الذين آمنوا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة ، و انّما عبّر عنهم بذلك، دون تصريح عنوان النفاق، للاشعار بانّ تلك المرتبة وان عبّر عنها بالايمان، لا تجديهم نفعا اصلا، فعليهذا يكون معنى الآية: انّ الذين آمنوا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم من المنافقين واليهود والنصارى ، اذا آمنوا بعد النفاق، واسلموا بعد العناد كان لهم اجرهم عند ربّهم ، كمن آمن في اول استدعائه الى الايمان من غير نفاق. و ذلك انّ قوماً من المسلمين قالوا : انّ من اسلم بعد نفاقه وعناده ، كان ثوابه انقص واجره اقلّ ، فأخبر الله بهذه الآية انّهم سواء في الاجر والثواب .

« **والذين هادوا** » : اى صاروا يهوديّا وبقوا على دين اليهودية. و اختلف في اشتقاق هذا الاسم ، قيل عربيٌّ ، من هاد ، اذا تاب ورجع. سمّوا بذلك حين تابوا عن عبادة

العجل وخصّوا به، لماكانت توبتهم توبة هائلة ـ وامّا لأنّهم سمّوا للنسبة الى يهودا اكبر اولاديعقوب. وقيل سمّوا بهذا الاسم، لانّهم اذا جائهم رسول اونبيّ، هادوا الى ملكهم، فدلوه عليه، فيقتلونه.

«والنصارى»: جمع نصران، مثل ندامى جمع ندمان، سمّوا بذلك لأنّهم نصروا المسيح، او لانّهم كانوا معه في قرية، يقال لها ناصرة، فسمّوا باسمها.

«والصابئين»: من صبأ، اذاخرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الكواكب والملائكة، فكانوا كعبدة الاصنام وان كانوا يقرؤن الزبور وفي روضة العلماء: انّه جاء اعرابي الى النبي، فقال: لم يسمّى الصابئون، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لأنّهم اذا جائهم رسول او نبيّ، اخذوه وعمدوا الى قدر عظيم فاغلوه، حتى اذا كان يحمى صبوه على راسه حتى ينفسخ.

«من آمن بالله واليوم الاخر»: اى من آمن منهم ايمانا خالصاً بالمبدء والمعاد، «وعمل» عملاً «صالحاً» مرضيّاً عند الله «فلهم» بمقابلة تلك. والفاء للسببيّة «اجرهم» الموعود لهم «عندربهم» اى مالك امرهم «ولا خوف عليهم» عطف على جملة فلهم اجرهم. اى لاخوف عليهم، حين يخاف الكفار، العقاب «ولاهم يحزنون» حين يحزن المقصّرون على تضييع العمر، لانّهم تداركوا ما فات منهم ونهوا النفس عن الهوى. اولئك على هدى من ربّهم وهذه الهداية من النعم التكوينيّة، اعنى الفطرى الذى فطر الناس عليها. و الفطرى الذى يتعلق به التكليف في العوالم الستة: ثلاثة منها في عالم الغيب، وهو عالم العقل والروح والمثال. وثلاثة في عالم الشهادة، وهو عالم الذرّ والطينة والخلق.

في الحديث: اذا اراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه، فلا يسمع بمعروف الّا عرفه ولا بمنكر الّا انكره. والمراد من ذلك مقام المعاينة ومرتبة الشهود القلبي، فانّ للانسان قوة درّاكة ينتقش فيها حقايق الاشياء، كما في المرآة، اذا كانت صافية، لكنّ القلب المتلبّس بالغواشي والعلائق، محروم عن عالم المشاهدة وهو في عماء. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. و النفس اذا فنت في الطاعة، تكون ارادتها تابعة لرضى الله

وترتبط بالفيض، ونورامامه وحجته، كماقال الله: وجعلنا له نورا يمشي به في الناس، كأنه يرى الامام بالعين القلبية ويستمد منه، وان غاب عنه في عالم الحس وهذا المقام اعلى المقامات، قريب من العلم اللدني. ولا يحصل الا للخواص من الشيعة ـ رزقنا الله بفضله ـ ولا يحصل هذا المقام، مع حب الدنيا؛ ويحصل لاهل الخوف والخشية.

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»

«**واذاخذ نا ميثاقكم**»: تذكير جناية اخرى، لاسلاف بني اسرائيل اى اذكروا يابني اسرائيل وقت اخذنا بعهد آبائكم، بالعمل على مافي التوراة وذلك قبل التيه، حين خرجوا مع موسى من مصر، ونجوا من الغرق «**ورفعنا فوقكم الطور**»: كأنه ظلة حتى قبلتم واعطيتم الميثاق. والطور الجبل بالسريانية. وذلك ان موسى جائهم بالألواح، فرؤا ما فيها من الاجبار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبرئيل، فقلع الجبل من اصله ورفعه وظلله فوقهم. وقال لهم موسى: ان قبلتم والا القى عليكم، فلما رأوا، ان لامهرب لهم منها، قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل ـ وهم سجود ـ لئلا ينزل عليهم. فصارت عادة في اليهود، لايسجدون الا هم على انصاف وجوههم. ويقولون بهذا السجود رفع عنا العذاب، ثم رفع الجبل، فالجئوا الى قبوله كارهين، الا من عصمه الله من العناد، فانه قبله طائعاً، مختاراً، ـ ومنهم آمنوا كرهاً وسجدوا وقلوبهم غير مطمئنة. وهذا الالجاء جائز، كالمحاربة مع الكفار؛ واما قوله لا اكراه في الدين وامثاله، فمنسوخ بآية السيف والقتال. ومن الميثاق الذى اخذ منهم، العمل بالتوراة، ومن احكام التوراة، بيان ما فيه من نبوة محمد ﷺ ووصية علي عليه السلام والطيبين من اولاده، وان يؤدوا هذا الامر الى اخلافهم قرناً بعد قرن، فأبوا قبول ذلك واستكبروا وذلك قوله: ثم توليتم من بعد ذلك الآية؛

«**خذوا ما آتيناكم بقوة**»: اى قلنا لهم خذوا ما آتيناكم من الكتاب بجد وعزيمة «**واذكروا ما فيه**»: واحفظوا ما في الكتاب، ولا تنسوه، ولا تغافلوا عنه

« **لعلكم تتقون** » : لكي تكونوا متقين .

« **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** »

« **ثم توليتم من بعد ذلك** » : اى ثم اعرضتم عن الميثاق والوفاء.قال القفال : تولّوا بامور كثيرة ، فحرّفوا التوراة ، و تركوا العمل بها ، وقتلوا الانبياء ، وكفروا بهم ، و عصوا امرهم . ولعل فيها ما اختص به بعضهم دون بعض ومنها ما عمله اوائلهم ومنها ما فعله متأخروهم. ولم يزالوا في التيه ، مع مشاهدتهم الاعاجيب ليلاً ونهارا ، يخالفون موسى ويعترضون عليه ويلقونه بكلّ اذى، ويجاهرون بالمعاصى في معسكرهم ذلك ، حتّى لقد خسف ببعضهم،واحرقت النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون. وكل هذا مذكور في تراجم التوراة ، ثم فعل متأخروهم ما لاخفاء به - وكفروا بالمسيح - وهمّوا بقتله والقرآن.والجملة معروفة ؛

« **فلولا فضل الله عليكم ورحمته** » : من امهالكم وتاخير العذاب عنكم ،

« **لكنتم من الخاسرين** » : لكنتم من الهالكين ، فدلّ هذا القول على انّهم خرجوا من هذا الخسران ، لأنّ الله تفضّل عليهم بالامهال حتى تابوا . وقيل في معنى الآية : انّ الكلام تمّ عند قوله : ثم توليتم من بعد ذلك ، ثم قيل : فلولا فضل الله رجوعاً بالكلام الى اوّله ، فيكون معنى الآية : لولا لطف الله بكم ، برفع الجبل فوقكم ، لدمتم على ردّكم وانكاركم قبول التوراة ، وكنتم كافرين ، فلطف بكم بذلك ، حتى تبتم وقبلتم وفزتم بسبب التفضل على التوبة والايمان .

مركب توبة عجائب مركب است ☼ برفلك تازد بيك لحظه زبست
چون برآرند از پشيمانى انين ☼ عرش لرزد از انين المذنبين
جمله ماضيها از اين نيكو شوند ☼ زهر پارينه از اين گردد چو قند

فان كنت في لباس الفسوق ، فبدّل لباسك بلباس التقوى،وكن من الطبقة الرابعة فانّ الناس على اربع طبقات: سعيد بالنفس والروح،وهم الأنبياء والمعصومون - والثانية شقىّ بالنفس و الروح، وهم الكفّار والمصرّون على الكبائر - والثالثة شقى بالنفس

في لباس السعادة، على سبيل العارية، مثل بلعم وبرصيصا وابراهيم وبعض ماتراه في عصرك والرابعة سعيد بالنفس في لباس الشقاوة كبلال وصهيب و التائبين الراجعين عن هوى النفس. ونهوا النفس عن الهوى ، فانّ الجنّة هي المأوى . والعبد المذنب شانه انّه مع التوبة لا يفارقه الخوف. ولو كان في اى طبقة ، فخوف المذنبين من العقوبات. وخوف العابدين من فوات الشروط وعدم القبول وخوف العالمين من الشرك الخفى في الطاعات وخوف العارفين من الهيبة والتعظيم. وهذا اشدّ الخوف لانّه لا يزول ابداً، وباقي الانواع اذا قوبلت بالرحمة سكنت في الجملة. ورأس مال المذنب ، الخوف، وهو سدّ محكم من معاصى الله ، اذا كان صادقا. ولمن خاف مقام ربّه جنّتان. واعلم انّ في جميع ما امرك المشرّع ﷺ فوائد لا تحصى ، حتى في كيفيّة مشيك ونومك واكلك ، مثل ان امرك بقلّة الأكل. ومن الفوائد منها، قلّة الحدث ودوام الطهارة وخفّة النفس للعبادة وقلّة التعب للمؤنة وصفاء القلب وتيقّظ الفطنة وذهاب التخمة وغنى عن الادوية وبقاء الصحّة وزيادة نور البصر وتقوية الكبد وطرد الكسل وتنقية الجسد وهكذا هلمّ جرّاً، مثل الجهر بالتكبيرة ورفع اليدين حتى ينتقل الى الصلوة . فلازم الخوف واليقين، تكن من المتقين. ولاتقنع فقط بالفريضة ، بل اتبعها بالسنّة . وافضل القرب ، الفريضة ، وبعدها سنّة مستفيضة. فكما لا تورق الجذل بدون الفنن ، لايكمل الفرض بدون السنن . ازدد لجوعة القيامة من رواتب الفرائض، واجعل ادامها وفاكتها النوافل ، فانّ الفرض كالقوت والنفل كالحلاوة. ونعم ذلك الحمل ونعمت هذه الحلاوة . ذلك حتم مقضيّ وهذا ادب مرضيّ ، فمن لزم جادة الفرض والنفل ، ملك حظائر الجنان او اكثرها، وورد سلسبيلها وكوثرها .

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » :

خطاب لمعاصرى النبى ﷺ من اليهود « **ولقد علمتم** » : وبالله قد عرفتم يابنى اسرائيل « **الذين اعتدوا** » وتجاوزا الحد ظلما منكم اى اسلافكم « **فى السبت** » في يوم السبت و جاوزوا ما حدّ لهم فيه من التجرّد للعبادة و اشتغلوا بالصيد . واصل السبت ، القطع ، لأنّ اليهود امروا بأن يقطعوا الأعمال ويشتغلوا بعبادة الله . ويسمّى

النوم سباتاً ، لأنّه يقطع الحركات الاختيارية . وحاصل الكلام: انكم تعملون ماأصابهم من العقوبة ، فاحذروا كيلا يصبكم مثل ما اصابهم . والقصة فيه : انّهم كانوا في زمن داود ﷺ بارض يقال لها ـ ايله ـ بين المدينة والشام ، على ساحل بحر القلزم ، حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت ، فكان اذا دخل السبت ، لم يبق حوت في البحر الّا اجتمع هناك ، امّا ابتلاءً لاولئك القوم، وامّا لزيارة السمكة التي كان في بطنها يونس، ففي كلّ سبت يجتمعن لزيارتها وتخرجن خراطيمهن من الماء ، بحيث لا يرى الماء من كثرتها. واذا مضى السبت، تفرقن ولزمن مقل البحر ، فعمد رجال من اهل تلك القرية فحفروا الحياض حول البحر ، وشرعوا منه اليها الأنهار ، فاذا كانت عشية الجمعة ، فتحوا تلك الانهار ، فاقبل الموج بالحيتان الى الحياض ، فلا يقدرون على الخروج ، لبعد عمقها وقلّة مائها ، فاذا كان يوم الأحد يصطادونها ، فأخذوا واكلوا وملحوا وباعوا ، فكثرت أموالهم ، ففعلوا ذلك زماناً ، اربعين سنة أو سبعين لم يزل عليهم عقوبة. وكانوا يتخوفون العقوبة ، فلمّا لم يعاقبوا ، استبشروا وتجرئوا على الذنب. وقالوا ما نرى الذنب إلّا قد احل لنا . ثم استنّ الابناء ، سنّة الآباء ، فلمّا فعلوا ذلك ، صار اهل القرية وكانوا نحوا من سبعين الفا ، ثلاثة اصناف ، صنف امسك ونهى وصنف امسك ولم ينه ، وصنف انتهك الحرمة . و كان الناهون اثنى عشر الفا ، فنهوهم عن ذلك ، و قالوا يا قوم انكم عصيتم ربّكم وخالفتم سنّة نبيّكم ، فانتهوا عن هذا العمل ، قبل ان ينزل عليكم البلاء ، فلم يتّعظوا و أبوا قبول نصحهم ، فعاقب الله بالمسخ الطائفتين الممسكة الغير النّاهية والعاصية .

« **فقلنا لهم كونوا قردة** » : جمع قردة ، كالديكة جمع ديك ، فحول الله صورهم الى صورة قردة ، من غير امتناع ولا لبث « **خاسئين** » : والخسىء ـ الصغار والطرد و ذلك انّ المجرمين لمّا ابوا قبول النصح ، قال الناهون : والله لا نساكنكم في قرية واحدة ، فقسموا القرية بجدار وصيّروها بذلك ثنتين ، فلعنهم داود ، فمسخوا ليلاً ، فلمّا اصبح الناهون ، اتوا ابوابها فاذا هي مغلقة ، لا يسمع منها صوت، ولا يعلو منها دخان ، فتسوروا الحيطان، ودخلوا فرؤهم ، قد صار الشبّان قردة، والشيوخ خنازير، لها

اذناب ، يتعاوون ، فعرفت القردة انسابهم من الانس ، ولم يعرف الانس انسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي نسيبها من الانس، فتشمّ ثيابه وتبكي فيقول : الم ننهكم من ذلك ، فكانوا يشيرون برؤسهم ان نعم. ولم يكن ابتداء القردة من هؤلاء ، بل كان جنس القردة قبلهم. وماتوا بعد ثلاثة أيّام، ولم يتوالدوا. والقردة التي في الدنيا ، هي نسل القردة التي كانت قبلهم .

« فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »

« **فجعلناها نكالا** » : اى صيّرنا مسخة تلك الامة ، عبرةً تنكل وتمنع من اعتبر بها « **لما بين يديها وما خلفها** » : من ان يقدم على مثل صنيعهم ، لما بين يديها وما بعدها من القرون ، لأنّ مسختهم ذكرت في كتب الأولين ، فاعبروا بها. و كذلك اعتبر من بلغته من الآخرين، فاستعبر ما بين يديها للزمان الحال وما خلفها للمستقبل « **وموعظة للمتقين** » : و موعظة لكلّ متقي سمعها . و معلوم انّ من لم يعرف قدر الاحسان و يكافيء المنعم بالكفران ، يردّ من عزّة الوصال ، الى ذلّ الهجران ولا ينبغي ان يغترّ من لايعاقب بمثل هذه العقوبات ، من الخسف والمسخ وامثالهما ، فان الاستدراج وعقوبة القلوب اشدّ، وأشدّ من عقوبات النفوس والاجساد . قال تعالى : ونقلّب افئدتهم وأبصارهم، الآية . ولا شكّ انّ مسخ القلب عين الحرمان . وعلامة مسخ القلب ، اكل مال الحرام ، وعدم المبالات به ، و ان لا يجد ممسوخ القلب حلاوة الطاعة ، ولا يخاف من المعصية ، ولا يعتبر بموت احد ، كذا ذكر في كتاب زهرة الرياض : قال عوف بن عبد الله : من عمل لآخرته كفاه الله امر دنياه . ومن أصلح ما بينه و بين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن أصلح سريرته ، اصلح الله علانيته . وصلاح اربعة في اربعة : الصبيان في المكاتب و حذمة الاساتيد للصنعة . وصلاح القطاع في السجن . وصلاح النساء في البيوت . وصلاح الكهول في المساجد .

« وَاِذْ قَالَ مُوسٰى لِقَوْمِهِ اِنَّ اللّٰهَ يَاْمُرُكُمْ اَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا اَتَتَّخِذُنَا » هُزُواً قَالَ اَعُوذُ بِاللّٰهِ اَنْ اَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »

« **واذ قال موسى لقومه** » : توبيخ آخر لاخلاف بنى اسرائيل، بتذكير جنايات صدرت من اسلافهم، حتى ينتهوا ، فقال: واذكروا قول موسى لاسلافكم واجدادكم « **ان الله يامركم أن تذبحوا بقرة** » : هى الانثى من نوع الثور ، او واحد البقر ، ذكراً كان او انثى ، واصله من الشقّ ، سميت به لانّها تبقر وتشق الارض للحراثة . قال صاحب تفسير روح البيان وذلك انّه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر ، فقتله بنو عمّه ، طمعاً فى ميراثه ، فطرحوه على باب المدينة ، او حملوه الى قرية اخرى والقوه بفنائها ، ثمّ جائوا يطالبون بديته، وجاؤا بناس يدّعون عليهم القتل ، فسألهم موسى فجحدوا ، فاشتبه امر القتيل على موسى. وكان ذلك قبل نزول الامامة فى التوراة ، فسألوا موسى ان يدعوا الله ليبيّن لهم بدعائه ، فدعا ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ، فيحيى ، فيخبرهم بقاتله ؛

قال أميرالمؤمنين عليه السلام : لا بأس بفكاهة يخرج بها الانسان من حدّ العبوس .

ثمّ انّ القوم علموا ذبح البقرة ، عزم وجد ، فاستوضعوها ؟

قال النبى صلى الله عليه وآله : ولو انّهم عمدوا الى ادنى بقرة فذبحوها ، لاجتزت عنهم .

« **قالوا أتتخذنا هزوا** » : اى قالوا لموسى : اتجعلنا مكان هزء وسخريّة وتستهزء بنا ، نسألك عن امر القتيل، فتأمرنا بذبح البقرة ، « **قال** » موسى « **اعوذ بالله أن اكون من الجاهلين** » : لأنّ الهزء فى تبليغ امر الله ، جهل وسفه واستهزاء بأمر الدين كبيرة . وصاحبه مستحق للوعيد وليس المزاح من الاستهزاء .

ولكنهّم استوضعوها ، فشدّد عليهم الأمر وكانت تحته حكمة وهى انّه كان فى بنى اسرائيل رجل صالح، له ابن طفل،وله عجلة اتى بها الى غيضة.وقال اللهم انّى استودعك هذه العجلة لابنى حتى يكبر . ومات الرجل ، فصارت العجلة فى الغيضة عوانا، اى بين المسنة و الشابّة . وكانت تهرب من كلّ من رآها ، فلمّا كبر الابن ، كان باراً بوالدته

وكان يقسم الليل أثلاثاً ، فيصلّي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس امّه ثلثاً ، فاذا اصبح انطلق ، فاحتطب على ظهره ، فيأتي به الى السوق ، فيبيعه بماشاء الله ، ثم يتصدّق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه ، فقالت له امّه يوماً : ان أباك قد ورّثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله ابراهيم واسماعيل واسحاق ان يردّها عليك ـ وعلامتها انّك اذا نظرت اليها يخيل اليك انّ شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تسمى البقرة المذهّبة لصفرتها ، فاتى الفتى الغيضة ، فرآها ترعى ، فصاح بها وقال اعزم عليك بإله ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ، فاقبلت تسعى حتى قامت بين يديه ، فقبض على عنقها يقودها ، فتكلّمت البقرة بـاذن الله ـ و قـالت : ايّها الفتى البارّ لوالدته اركبني فانّ ذلك اهون عليك ، فقال الفتى : انّ امّي لم تأمر بذلك ولكن قالت خذ بعنقها ، فقالت البقرة باله بنى اسرائيل لو ركبتني ماكنت تقدر عليّ ابدا ، فانطلق ، فانّك ان امرت بالجبل ، ان ينقلع من اصله وينطلق معـك لفعل لبرّك بامّك . فسار الفتى بها الى امّه . فقالت له امّه : انّك فقير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق ، فبع هذه البقرة . قال : بكم ابيعها ، قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي ـ وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير ـ فانطلق بها الى السوق ، فبعث الله ملكاً ليرى خلقه قدرته ، وليختبر الفتى ، كيف برّه بامّه وكان الله به خبيرا ، فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة ، قال بثلاثة دنانير واشترط عليك رضى والدتي ، فقال الملك لك ستّة دنانير ولا تستأمر والدتك ، فقال الفتى لو اعطيتني وزنها ذهبا ، لم آخذها الّا برضى امّي ، فردّها الى امّه و اخبرها بالثمن ، فقالت ارجع فبعها بستة على رضى مني ، فانطلق بها الى السوق ، فأتى الملك ، فقال الملك استأمرت امّك ، فقال الفتى : انّها امرتني ان لا انقصها من ستّة على ان استأمرها ، فقال الملك انّي اعطيك اثنى عشر على ان لا تستامرها ، فأبى الفتى ، ورجع الى امّه واخبرها بذلك ، فقالت انّ الذي يأتيك ، ملك بصورة آدميّ ليختبرك ، فاذا أتى ، فقل له ، أتامر ان نبيع هذه البقرة ام لا ، ففعل فقال له الملك : اذهب الى امّك وقل لها امسكي هـذه البقرة ، فانّ موسى بن عمران

يشتريها منك ، لقتيل يقتل في بنى اسرائيل ، فلا تبيعوها إلّا بملىء مسكها ذهباً ، فامسكوها و قدّر الله على بنى اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونها حتّى وصف لهم تلك البقرة بعينها مكافاة على برّه بوالدته .

قيل: والوجه في تعيين البقرة دون غيرها من البهائم ، انّهم كانوا يعبدون البقر و العجاجيل و حبّب ذلك لهم كما قال سبحانه : و اشربوا في قلوبهم العجل ، ثمّ تابوا وعادوا الى طاعة الله ، فاراد الله ان يمتحنهم بذبح ما حبّب اليهم ، ليظهر منهم حقيقة التوبة وانقلاع ماكان منهم في قلوبهم وكان افضل قرابينهم حينئذ البقر ، قيل : وقد مضى من اول هذا الأمر، الى الامتثال ، اربعون سنة ، لغلاء ثمنها ، وذلك قوله : وماكادوا يفعلون

وقال الفيض في الصافي : في قصّة القتل والبقرة ، انّهم لمّا قتلوا القتيل وطرحوا جثّته في محلّة سبط من اسباط بني اسرائيل ، الزم موسى اهل القبيلة بامر الله ، ان يحلف خمسون من اماثلهم ، بالله القويّ الشديد ، إله بني اسرائيل ، مفضّل محمد و آله الطيبين صلوات الله عليهم ، على البرايا اجمعين : انّا ماقتلناه ولا علمنا له قاتلاً ، فان حلفوا بذلك غرموا دية المقتول وان نكلوا نصبوا على القاتل ، او اقرّ القاتل ، فيقاد منه ، فإن لم يفعلوا حبسوا في مجلس ضنك إلى ان يحلفوا ويقرّوا او يشهدوا على القاتل ، فقالوا: يا نبيّ الله ، ما وقت أيماننا اموالنا ولا اموالنا أيماننا . قال موسى : لا هذا حكم الله وكان السبب ان امرأة حسناء ، ذات جمال وفضل بارع ونسب شريف كثر خطابها وكان لها بنو اعمام ثلثة فرضيت بافضلهم علما وارادت التزويج به ، فاشتدّ حسد ابنى عمّه الاخرين له وغبطاه عليها لايثارها إيّاه ، فعمدا الى ابن عمّه المرضى، فأخذاه الى دعوتها ، ثمّ قتلاه وحملاه الى محلّة تشتمل على أكثر قبيلة من بنى اسرائيل ، فألقياه بين أظهرهم ليلاً ، فلمّا اصبحوا وجدوا القتيل هناك ، فعرف حاله ، فجاء ابنا عمه القاتلان له فمزقا على انفسهما ثيابهما وحثيا التراب على رؤسهما واستعديا عليهم ، فاحضرهم موسى و سئلهم ، فأنكروا ان يكونوا قتلوه وعلموا قاتله ، فقال موسى حكم الله ما عرفتموه فالتزموه ، فقالوا يا موسى : ایّ نفع في أيماننا إذا لم تدرأ منّا الغرامة الثقيلة ، ام أیّ

نفع في غرامتنا اذا لم تدرأ عنّا الايمان ، فقال موسى كلّ النفع في طاعة الله والائتمار بأمره والانتهاء عمّا نهى عنه ، فقالوا يا نبي الله ، غرم ثقيل ولا جناية علينا وأيمان غليظة ولا حق في رقابنا. لو أنّ الله عرفنا قاتله بعينه و كفانا مؤنته ، فادع لنا ربّك ان يبيّن لنا هذا القاتل لينزل به ما يستحقّه من العذاب وينكشف امره ، فقال موسى انّ الله قد بيّن ما حكم به في هذا ، فليس لنا ان نقترح عليه غير ما حكم ، الا ترون انّه لمّا حرّم العمل يوم السبت وحرّم لحم الحمل ، لم يكن لنا ان نقترح عليه ، ان يغيّرما حكم به علينا ، فأوحى الله اليه يا موسى : اجبهم الى ما اقترحوه وسلني ان ابيّن لهم القاتل ليقتل ـ وسلم غيره من التهمة ، فانّي اريد باجابتهم الى ما اقترحوا توسعة الرزق على رجل من خيار امّتك ، دينه الصلوات على محمّد و آله الطيبين والتفضيل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام على سائر البرايا اغنيه في الدنيا ، في هذه القضيّة ليكون بعض ثوابه على تعظيمه لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وكيف لا وقد عظم عين العالم بل العوالم كما في تفسير الديلمي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين : قال العينان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واللسان امير المؤمنين عليه السلام والشفتان الحسن والحسين و بيان قوله : العينان رسول الله . أنّ فيه عين النبوّة و الولاية و العين الدنيويّة والاخرويّة ويرى من قدّامه وخلفه ، او يعاين الملك والملكوت ، اوالظاهر والباطن ومراتب الغيب و الشهادة وعالم الخلق والامر ، فينظر صلى الله عليه وآله وسلم باحدى عينيه المعنويّة الى الربّ لقبول الفيوضات وبعينه الاخرى الى الخلق للفيضان وبالجملة فمن توجه الى عين العالم فلابدّ من أن يظهر أثراته إمّا في الدنيا وإمّا في الاخرة أو كليهما اذا اقتضت المصلحة ـ وجميع آثار الخيريّة في العالم من هذه العين و كم صدرت المعجزات ، من ظاهر بدنه وجسده العنصري ، فضلاً عن عالمه النوري فمن جبهته كان النور ساطعاً في اللّيل وعيناه صلى الله عليه وآله وسلم يرى من خلف واذنه صلى الله عليه وآله وسلم تسمع الصوت في النوم كما في اليقظة ولسانه خاطب الضبّ : من انا ، فقال الضبّ : أنت رسول الله . أصابعه جريان الماء منها وشق القمر و جلاه . صبّ فضالة غسالتها في البئر وفيضان الماء حين اشتكى جابر ، لعاب فمه تفل في عين عليّ عليه السلام . عورته مختوناً ولد . بدنه ليس له ظلّ . نفث نفسه اشفاء المرضى . شعره لا يحترق بالنار .

الحاصل فقال موسى : يا ربّ بيّن لنا قاتله ، فأوحى الله الى موسى : قل لبني إسرائيل : ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة فيضربوا بعضها بالمقتول ، فيحيى ، أفتسلمون لربّ العالمين ذلك والّا فكفّوا المسئلة والتزموا ظاهر حكمي . فذلك ماحكى الله في قوله : و إذ قال موسى لقومه . و القميّ عن الصادق عليه السلام انّ رجلاً من بني اسرائيل وعلمائهم خطب امرأة منهم فأنعمت له وخطبها ابن عمّ لذلك الرجل و كان فاسقاً فردوه فحسد ابن عمّه الذي انعموا له ، فرصده وقتله غيلة ، ثمّ حمله الى موسى ، فقال يا نبي الله ـ هذا ابن عمّي قد قتل ، فقال من قتله ، فقال له لا ادري ـ و كان القتل في بني اسرائيل عظيماً جدّاً ، فعظم قتل ذلك الرجل على موسى ، فاجتمع اليه بنواسرائيل : فقالوا أما ترى يا نبي الله ـ و كان في بني اسرائيل رجل له بقرة ، وكان له ابن بارّ ، و كان عند ابنه سلعة . فجاء قوم يطلبون سلعته . و كان مفتاح بيته في تلك الحال تحت رأس أبيه و هو نائم . فكره ابنه ان ينغص عليه نومه ، فانصرف القوم و لم يشتروا سلعته ، فلمّا انتبه ابوه ، فقال يا بنيّ : ما صنعت في سلعتك . قال : هي قائمة لم ابعها ، لأن المفتاح كان تحت رأسك ، فكرهت ان ازعجك من رقدتك وانغص عليك نومك . فقال ابوه : قد جعلت هذه البقرة لك عوضاً عمّا فاتك من ربح سلعتك و شكراً لله للابن ما فعل بابيه ، فامر الله موسى ، ان يأمر بني اسرائيل بذبح تلك البقرة بعينها ، ليظهر قاتل ذلك الرجل الصالح ، فلمّا اجتمع بنو اسرائيل امرهم الله بذبح البقرة .

ايقاظ : فحيوة الروح بذبح بقرة النفس و شهواتها ، فارجع الى ربّك بالتوبة و الطاعة و لا تيأس ، يعود عليك بالرحمة ، فانّه غفور رحيم . انّ الخضر فارق موسى بان عاوده في السؤال ثلاث مرّات وقال له : هذا فراق بيني وبينك وانت عاودت الذنب اكثر من ثلاثين الف مرّة و الله سبحانه لم يقل لك هذا فراق بيني و بينك بشرط ان ترجع اليه حقيقةً . انّه تعالى نهى عن حبس المعسر في السجن لعجزه عن الاداء ، فقال : و ان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة . فكيف يحبس المذنب التائب في سجن النار ، فجاهد في سبيل ربّك بالرجوع والطاعة .

والعبد وان كان عاصياً اذا تقدم الى الحق شبراً ، تقدم الحق اليه ذراعاً ، وبذلك الشبر ينفتح في زاوية قلبه روزنة من النور ، ثمّ بالعمل يكثر ذلك النور شيئاً فشيئاً ، فينفتح عينا قلبه ، فلا يسمع بمعروف الّا عرفه و قبله ولا بمنكر الّا انكره الى ان يؤل امره بمرتبة الشهود القلبي الكشفي ، فانّ للانسان قوّة درّاكة ينتقش فيها حقايق الاشياء ، كما في المرآة اذا كانت صافية ـ و هذه القوّة في كلّ انسان و غير مختصّ بالمؤمن ، بل للفاسق ايضاً هذه القوّة مكمونة ، لكنّ القلب الملتبس بالغواشي والعلائق والشهوات محروم عن هذا المعنى و هو في عمى ، لكن اذا زالت هذه العوائق و فنيت النفس وهواها في الطاعة يرى الفيض بعين قلبه ، بل يرى الامام بالعين القلبيّة ويستمدّ منه ، كما قال الله : و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، بحيث يقرب من العلم اللدنى و هذا هو المقام الرابع من ترتيبات الهداية ، فانّ المقام الأوّل اعطاء القوى المدركة ، كما قال سبحانه : و اعطى كلشيء خلقه ثم هدى ، و المقام الثاني من الهداية ، نصب الدلائل و البراهين ، كما قال : وهديناه النجدين ؛ و المقام الثالث دعوة الناس الى ما ينفعهم من العلم و العمل بواسطة الرسل والكتب ، كما قال سبحانه : وجعلناهم ائمّة يهدون بامرنا ، والمقام الرابع كشف الاستار و الاسرار على الضمائر بواسطة الألهام والحدس والوحي وغيرها ، كما قال : والذين جاهدوا فينا لنهد ينّهم سبلنا .

قوله تعالى: « قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ »

فلمّا توجّهوا للامتثال « **قالوا** » ياموسى « **ادع لنا** » سل لأجلنا « **ربك يبين لنا** » ويوضح ويعرف من البين والفراق « **ماهى** » ماءبتداء وهي خبره وقدسألوا عن حالها وصفتها ، لأنّه قرع اسماعهم مالم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميتاً فيحيي ، كقولك : مازيدوشانه فيقال طبيب « **قال** » موسى بعدمادعاربّه و أتاه الوحي « **انه** » اى أنّ الله تعالى « **يقول انها** » اى البقرة المأمور بذبحها « **بقرة لا** » هي « **فارض** » اى مسنّة من الفرض وهو القطع كأنّها قطعت سنّها وبلغت آخره « **ولا بكر** » اى فتية صغيرة ولم يؤنث البكر و الفارض ، لأنّهما كالحائض في الاختصاص بالأنثى « **عوان** » اى نصف « **بين ذلك** » المذكور من الفارض والبكر « **فافعلوا** » امرمن جهة موسى « **ما تؤمرون** » به من ذبح البقرة .

« **قالوا** » كأنّه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان و الأمر المكرّر ، فقيل قالوا « **ادع لنا ربك يبين لنامالونها** » من الألوان حتّى تتبين لنا البقرة واللون عرض مشاهد يتعاقب على بعض الجواهر « **قال** » موسى بعدالمناجاة إلى الله ومجيىء الوحي « **انه** » الله تعالى « **يقول انها بقرة صفراء** » والصفرة لون بين البياض والسواد وهي الصفرة المعروفة وليس المراد هنا السواد كما في قوله : كأنّه جمالة صفر ، اى سود

والتعبير في قوله صفر وأراد به السواد لما انّها في مقدّماته « **فاقع لونها** » مبتداء و خبر والجملة صفة للبقرة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها وبريقها ، فيقال في التأكيد اصفر فاقع وأسود حالك أى صفراء شديدة الصفرة وخلوصها وبريقها :فيقال في التأكيد أصفر فاقع و أسود حالك أى صفراء شديدة الصفرة ، قيل: كانت صفراء الكل حتّى القرن والظلف « **تسر الناظرين** » إليها ، يعجبهم حسنها و صفاء لونها و يفرح قلوبهم للطافة شكلها ولونها .

قال أمير المؤمنين : من لبس نعلاصفراء قلّ همّه ، لأنّ الله يقول : تسر الناظرين ونهى جماعة عن لبس النعال السود ، لأنّها تهمّ ـ وقيل إنّ الخفّ الأحمر خفّ فرعون والخفّ الأبيض خفّ وزيره هامان .

« **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي** » : أسائمة هي ، أم عاملة ، تكرير للسؤال واستكشاف زائد ، ليزدادوا بيانا لوصفها ؛

وفي الحديث : أعظم الناس جرما من سئل عن شيىء لم يحرم ، فحرم لأجل مسألته .

« **ان البقر تشابه علينا** » : اى جنس البقر الموصوف والصفرة كثيرة ، فاشتبه علينا أيّها تذبح ، فذكر البقر لارادة الجنس ، أولأنّ كلّ جمع حروفه أقلّ من واحده ، جازتذكيره و تأنيثه ، « **وانّا انشاء الله لمهتدون** » : لذبح البقرة . وفي الحديث : لولم يستثنوا لما بيّنت لهم آخر الأبد « **قال** » موسى « **انه** » تعالى « **يقول انها بقرة لاذلول** » مذلّلة ذلّلها العمل بيّنة الذل من شدّة النصب والتعب ولم يقل ذلولة لأنّ فعولاً إذاكان وصفاً لم تدخله الهاء كصبور « **تثير الارض** » : أى تقلبها للزراعة وهي صفة ذلول : اى لم يذلّلها العمل باثارة الأرض بأظلافها « **ولاتسقى الحرث** » اى لم تكن بستانية يسقى عليها بالسواقى ، كأنّه قيل : لاذلول مثيرة وساقية . «**مسلمة**» اى سالمة وبريّة من العيوب وقيل مسلمة من الشبه ، ليس لها لون مخالف لونها وقيل سليمة من آثار العمل لأنّ ماكان من العوامل لايخلو من آثار العمل في قوائمه و

بدنه ، قال الحسن : انّهـا كانت وحشيّة **«لاشية فيها»** : ولا وضح فيهـا يخالف لون جلدهـا ، من وشي الثوب وهو استعمال ألوان الغزل في نسجـه **«قالوا»** : عندما سمعوا هذه النعوت **« الان »** : اى هذا الوقت بنى لتضمّنه معنى الاشارة **«جئت بالحق»** اى ظهر لنـا الحق الآن وما بقى في أمرهـا اشكال وهي بقرة فلان . قال بعض اهل التفسير ، مثل ابى منصور الحـازم : انّ البقرة كانت ذكـراً لأنّ إثارة الأرض وسقى الحرث من عمل الذكران . والضمائر الراجعة اليها على التأنيث ، فللفظها كما في قوله وقالت طائفة والتاء للتوحيد ، لا للتأنيث ويمكن أن يكون أهل ذلك الزمان يحرثون بالأنثى **«فذبحوها»** : الفاء فصيحة ، اى فحصلوا البقرة الموصوفة بأن وجدوها عند الفتى ، فاشتروها بملء مسكه ذهباً ، فذبحوهـا **« وما كادوا يفعلون »** و الجملة حال من فاعل ، ذبحوا اى فذبحوها ، والحال انّهم فى التوقّف والبطوء ، لثقل غرامة ثمن البقرة . واختلفوا فى البعض الذي ضرب به القتيل ، فقيل لسانها وقيل فخذها اليمنى وقيل ذنبها وقيل غيرها .

قوله تعالى : « **وَ إذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**»

« **واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها** » هذا مؤخّر لفظاً ، مقدّم معنى ، لأنّه أوّل القصّة ، اى : واذكروا وقت قتلكم النفس وهى عاميل بن شراحيل و أتيتم موسى وسئلتموه ، فقال لكم انّ الله يأمركم . الاية ، فقدّم المؤخّر وأخّر المقدّم ونحوذا كثير في القرآن والشعر ، مثل قوله ، الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً ، تقديره انزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً ، قال الشاعر : إنّ الفرزدق صخرة ملمومة ، طالت فليس ينالها الاوعالا ـ اى طالت الاوعال ـ وقيل : إنّ الاية قد تعلّقت بما هو متأخّر في الحقيقة وتقدير الكلام فذبحوها وما كادوا ولأجل

انّكم قتلتم نفساً فتدافعتم فيها امرناكم بأن تضربوه ببعضها ليكشف امره واضيف القتل الى اليهود المعاصرين لرسول الله على عادة العرب ، في خطاب الأبناء والأحفاد بخطاب الاسلاف والاجداد وخطاب العشيرة لواحد يقال فعلت بنو تميم وإن كان الفاعل واحدا وفيه وجه آخر وهو أن يكون الخطاب لمن كان في زمن موسى و تقديره و قلنا لهم : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها ، اى كلّ واحـد دفع قتل النفس عن نفسه و الضمير في قوله فيها ، راجع الى النفس ، او الى القتلة ، اى اختلفتم ، لأنّ قوله قتلتم ، تدلّ على المصدر ، لكن عودها الى النفس أولى .

« **والله مخرج ما كنتم تكتمون** » : اى مظهر ما كنتم تسترون من القتل او مخرج من غامض اسرار كم ومطلع ماكان آباؤكم يكتمونه وأنتم تكتمونه والخطاب لليهود في زمن النبي ﷺ و استعمل مخرج في الكلام مع انّـه في معنى الماضي لأنّه على سبيل الحكاية ، فحكى ما كان مستقبلا في وقت التدارؤ ، كما حكى الحاضر في قوله : باسط ذراعيه .

« **فقلنا اضربوه ببعضها** » : فضربوه فحيى ولعلّ السرّ في هذا الأمر بهذا الترتيب مع انّه قادر على أن يحييه بأقل من طرفة العين، لاغناء ذلك الفتى البار بوالده وأمر الله بتقديم هذه القربة تعليماً لكلّ من غمض عليه امر من الامور ، ان يتقدّم نوعاً من القرب ، قبل ان يسأل الله كشف ذلك عنه ، ليكون اقرب الى الاجابة .

« **كذلك يحيي الله الموتى** » على إرادة القول ، اى وقلنا كذلك ، فالخطاب في كذلك للحاضرين عند حياة القتيل ، اى مثل ذلك الاحياء العجيب ، يحيي الله الموتى يوم القيامة ، أو الخطاب لمنكرى البعث ، من مشركى العرب ، في زمان النبى ﷺ والحاضرين عند نزول الآية الكريمة ، فلا حاجة حينئذ على تقدير القول ، بل تنتهي الحكاية عند قوله ببعضها .

« **ويريكم آياته** » : اى دلائله الدالّة على أنّه على كل شيء قدير .

« **لعلكم تعقلون** » : اى لكى تكمل عقولكم وتعلموا انّ من قدر على احياء

نفس واحدة ، قدر على احياء الأنفس كلّها - وتعلمون انّ المؤثّر ، هوالله ، لا الاسباب فهو تعالى اذا اراد ، يجعل الأثر في الاسباب ، ولولم يكن لها تأثيرات أبدا ، فإنّ الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل ان يتولّد منهما حياة ، جلّت قدرته تعالى .

قال بعض اهل المعرفة : انّماجعل الله احياء المقتول في ذبح البقرة ، تنبيهاً لعبيده، انّ من اراد منهم احياء قلبه ، لم يتأتّ له الّابإماتة نفسه ، فمن ذبحها بانواع العبادات والرياضات المشروعة واعظمها الورع من المحرّمات و الشبهات ، احيى الله قلبه بانوار المشاهدات ، فمن مات بالطبيعة ، يحيي بالحقيقة و يجب علينا ان نتقيّد باحياء نفوسنا بالحيوة الحقيقيّة ، لا الحيوة البقريّة ، فانّ المنظر الالهى انّما هو القلوب والاعمال ، لا القصور و الاموال ، كما ورد في الحديث : إنّ الله لاينظر الى صوركم و أحوالكم ، بل الى قلوبكم واعمالكم والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وما يعقل ذلك الّا العالمون وايّاك ان تغترّ في دنياك بساعة سرور ادركته ، او بسرير ملكته ولو كان ذلك السرير و السرور ايّام عمرك ، فانّه بالنسبة الى عمرك . في الاخرة اقلّ من ساعة وقد مثّلوا للدنيا بالمياس ، امّا يكون ضيقاً حرجاً ، او و اسعاً منفرجاً ، ان ضاق فمرحباً بالحفا وان رحب فموجب الصقع على القفا ، الضيق يفرّج الكعوب والعرقوب والرحب يغيّر الذيول والجيوب ، انظر اليها بعين الاعتبار وطالعها فانّها صحيفة ابنائك وخالعها فهي حليلة آبائك واغتنم فؤادك الفاحم قبل ان يبيض و احذر من جدار يريد ان ينقض ، امنيّة جوفاء ، ووارمة عجفاء يؤذيك اعباؤها ولابدّ فيك عباؤها ، لايغرنك قطفها النضيج، فهو غيث اعجب الكفّار نباته ثمّ يهيج ، هب انّك صرفت عمرك في تحصيل الدنيا و ملكت الدنيا باسرها ، فهل تبقى لك او تبقى لها و بعد ان ملكتها ، مثلك معها ، مثل الفارة والجمل ، فاخذت الفارة بخطامها الى جحرها ، فلمّا وقف الجمل الى باب بيتها، نادى بلسان حالها : امّا ان تتّخذي داراً تليق بمحبوبك ، او محبوباً يليق بدارك ، فيا اقل من الطائر ، فانّ الانثى متى ما علمت انها حملت ، نقلت العيدان لبناء العش قبل الوضع و انت ما مهّدت لقبرك فراشاً وضيّعت ايّام فرصتك بالملاهى و المعاصى ، او بالمباحات التى لا طائل لك فيها ، اما سمعت قول الله تعالى : اعملوا ما شئتم انّه بما

تعملون بصير ، فيا ايّها المغرور ، من اين لك هذا الاطمينان ، كانّك ماعصيت الله قط !!
بلى ، التفرج الى هذه المتنزهات والسينمايات اذهب عن قلبك الخوف ، بدّلت زيارة
المقابر الموجبة للتنبّه ، بموجبات الغفلة و كان السلف اذا رجعوا من زيارة المقابر ،
يستعدّون للتزوّد وهم كالحيارى ؛ قال بعض السلف : رأيت شابّاً راجعاً من الجبانة
وصعد في سفح جبل وعليه آثار القلق ودموعه جارية ، فقلت من انت و من اين ، فقال
الشابّ : آبق من مولاه ، فقلت : يعود العبد الآبق فيعتذر ، فقال : العذر يحتاج الى
حجّة ـ و لا حجّة للمفرّط ، قلت : فيتعلّق بشفيع ، فقال : كلّ الشفعاء يخافون منه ،
قلت : من مولاك ، قال : ربّاني صغيراً فعصيته كبيراً ، فواسوأتاه من حسن صنيعه وقبح
فعلي ، ثم صاح ووقع فمات !! فخرجت عجوز ، فقلت لها : اقيم عندك اعينك على غسله
وتجهيزه ، فقالت : خلّه ذليلاً بين يدي قاتله ، عسى يراه بغير معين ، فيرحمه . والعجب
انّ واحدنا يصلّي خمسين سنة وهو يقول في كلّ يوم : اهدنا الصراط المستقيم وهو باق
على طريق الفساد ، مع انّ الصلوة صلة بين العبد والربّ وانت منقطع عنه ومالك من
هذه الصلة عائد و هاك نصيحة و هاك مثالاً آخر للدنيا ، فانّها نهر طالوت و انّ الله
مبتليكم به ، فمن شرب منه فليس منّي الّا من اغترف و قنع بكفّ عنه و اقتصر بسدّ
جوعته و ستر عورته ، ففاز و نجى و من لم يقنع فالأمر صعب جدّاً ، كما انّ جيش
طالوت ما قنعوا و هلكوا ، فانّ مراتب النفس اربعة : نفس النامية النباتية ـ و نفس
الحسيّة الحيوانيّة ـ ونفس الناطقة القدسيّة ـ ونفس الكليّة الالهيّة ـ وهذه الأخيرة
الكاملة و هي بقاء في فناء ـ ونعيم في شقاء ـ وعزّ في ذلّ ـ و صبر في بلاء ـ و فقر في
غناء ومعلوم انّ هذه الملكات صعب جدّاً وهيهات واين الثريا من يد المتناول !

قوله تعالى : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ اَوْ اَشَدُّ قَسْوَةً
وَاِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْاَنْهَارُ وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ
وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

« ثم قست قلوبكم » : خطاب لاهل عصر النبيّ من الاحبار واهل الكتاب وثم

في الآية لاستبعاد القسوة ، من بعد ذكرما يوجب لين القلوب ورقّتها - والقساوة ذهاب اللّين والرأفة عن القلب والصلابة في كلشيء . « من بعد ذلك » : اى من بعد سماع ما ذكرمماورد باسلافكم ، من احياء القتيل ومسخ القردة والخنازير ورفع الجبل والقوادع التي من عظمتها تميع الجبال والصخور ، « فهى » : اى القلوب ، « **كالحجارة** : في شدّتها وقسوتها والفاء لتفريع مشابهتها لها في القساوة ، كقولك : إحمرّخدّك فهو كالورد « **أو أشد** » منها « **قسوة** » : تميز . و « أو » يجوز أن يكون بمعنى التخيير : اى ان شئتم فاجعلوها اشدّ منها مثل الحديد ، فانتم مصيبون في ذلك وانّما لم تحمل على معنى اصلها وهو الترديد ، لما انّ ذلك على الله محال ، او يكون بمعنى بل ، قال الشاعر :

فوالله ما أدري أسلمى تغوّلت ☆ أم النّوم ام كلّ إليّ حبيب

اى : بل كلّ وانّما أتى بكلمة « اشد » مع انّ فعل القسوة ممّا يخرج منه افعل التفضيل وفعل التعجّب ، لكونه ابين على فرط القسوة من لفظ أقسى .

اعلم انّ اللّفظ كالصورة ، والمعنى كالروح ، فان اتّفقا وقع الكمال في الكلام ولذا قد يؤتى في شعرواحد بكلمة مكرّرة وهى حسنها وبالعكس، مثل قول المعرى: الرّسل احمد اوصافاً واحمدهم في الوصف احمدنا و في الآية صنعة الجمع مع التفريق .

« **وان من الحجارة** » : بيان لقساوة قلوبهم « **لما يتفجر** » واللام للتأكيد : اى الحجر يتفجّر ويتفتّح « **منه** » : راجع الى ما ، اى انّ بعض الاحجار يتفجّر منه « **الانهار** » جمع نهر وهو المجرى الواسع « **وان منها** » : من الحجارة « **لما يشقق** » ويتصدّع « **فيخرج منه الماء** » : والمراد بالشقوق ، العيون الّتى تخرج من الشقوق والاصداع ، دون الانهار « **و ان منها لما يهبط** » . اى يتردّى وينزل من اعلى الجبل الى اسفله « **من خشية الله** » : وهنا مجاز عن انقيادها لأمر الله و قلوب هؤلاء اليهود ومن سلك مسلكهم لاتنقاد ولا تلين ولا تخشع « **وما الله بغافل** » ، بساه وذاهل « **عما تعملون** » : قالت المعتزلة : خشية الحجر وجه المثل ، يعنى لو كان له عقل لفعل

ذلك ـ و مذهب اهل السنّة : انّ الحجر وان كان جماداً لكنّ الله يلهمه ، فيخشى بالهامه ، فانّ الله تعالى علماً في الجمادات وسائر الحيوانات ، سوى العقلاء لا يقف عليه غيره ، فلها صلاة وتسبيح وخشية ، كما قال سبحانه : وان من شيء إلّا يسبّح بحمده وقال : والطير صافّات كلّ قد علم صلوته وتسبيحه ، فيجب على المرء ، الايمان به ويجعل علمه الى الله ـ و يؤيّد هذا المعنى ان النبيّ ﷺ كان على ثبيرة والكفّار يطلبونه ، فقال الجبل : انزل عنّي فانّي اخاف ان تؤخذ عنّي ، فيعاقبني الله بذلك ، فقال له جبل حرّاء : اليّ يا رسول الله . وكان النبي ﷺ اذا خطب استند الى جذع نخلة من سوارى المسجد ، فلمّا صنع المنبر ، فاستوى عليه ، اضطربت تلك السارية من فراق رسول الله ﷺ وحنّت كحنين الناقة ، حتى سمعها اهل المسجد ، ونزل رسول الله ، فاعتنقها ، فسكنت .

لكنّه قال أبو مسلم : انّ الضمير في قوله : وانّ منها لما يهبط من خشية الله ـ راجع الى القلوب ، لا الى الحجارة ، لأنّ الهبوط من الخشية صفة الأحياء والعقلاء ـ والحجر جماد ـ وقد تقدم ذكر القلوب ، كما تقدّم ذكر الحجارة ، اقصى ما في الباب ، انّ الحجارة اقرب المذكورين ، الّا انّ هذا الوصف لمّا كان لائقا بالقلوب دون الحجارة وجب رجوع هذا الضمير الى القلوب دون الحجارة واعترضوا على ابى مسلم بأنّا لا نسلّم انّ الحجارة ليست حيّة عاقلة ولا نقول انّ الحجارة كلّها عاقلة والمراد من ذلك ، جبل موسى حين تجلّى له ربّه له وتقطّع وذلك لأنّ الله خلق فيه العقل والإدراك وهذا غير مستبعد من قدرة الله ونظيره قوله تعالى : وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء ـ و كذلك الجبل والحجر وصفه بالخشية ، فحينئذ الضمير راجع الى الحجارة ، ثمّ انّ الهبوط لائق بالحجارة لا بالقلوب ، فليس تأويل الهبوط ، اولى من تأويل الخشية ـ وقيل وجه آخر في معنى الاية وهو انّ معنى « وانّ منها لما يهبط من خشية الله » انّه يدعو المتفكّر والمتأمّل فيه الى خشية الله و يوجب الخشية لله ، فالحجارة من موجبات الخشية ، بدلالته على صانعه وخالقه واضاف الخشية اليها لأنّ التفكّر فيها هو الداعى الى الخشية ، كما قال جرير بن عطيّة :

واعور من نبهان امّا نهاره ☆ فأعمى و امّا ليلـه فبصير

فجعل الصفة للّيل والنهار وهو يريد صاحبه النبهانى الّذي يهجوه

(تنبيه) فاذا كانت الخشية في الحجارة ، كيف لا تخشى ولاتتوب من ذنوبك فمن لم يساعده نفسه بالرجوع والتوبة ، كيف يترك العزّ ويقبل الذلّ والغنى على الفقر مع انّ التوبة واجبة وفي فوريته فقد صرّح بها المعتزلة واصحابنا ، لكنّ المعتزلة يقولون حتى انّه لو اخّر توبته عن الكبيرة ساعة واحدة فقد فعل كبيرتين وساعتين فقد فعل اربع كبائر وهكذا . و اصحابنا سكتوا عن هذا التفصيل ودليل المعتزلة قوىّ ، لأنّ ترك الواجب كبيرة ثانية والخطب الأعظم انّ المعصية ليست عندنا عظيمة ومن كثرة ما اكتسبناه خفّت عقوبتها عندنا ولا نبالى باصلها فضلاً عن توبتها ، اما سمعت ماروا‌ه الشيخ في التهذيب عن الصادق ﷺ : انّ رجلاً جاء اليه وقال انّ لي جيراناً ولهم جوار يتغنين ويضربن بالعود ، فربّما دخلت المخرج فأطيل الجلوس استماعاً منّى لهنّ ، فقال لا تفعل ، فقال والله ما هو شيىء آتيه برجلى انّما هو استماع اسمعه باُذنى ، فقال ﷺ اما سمعت الله يقول : انّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اولئك كان عنه مسئولا ، فقال انّى تركتها واستغفر الله ، فقال الصادق ﷺ : قم فاغتسل وصلّ ما بدا لك ، فقد كنت مقيماً على امر عظيم ، ماكان اسوء حالك لو متّ على ذلك .

أقول : تجرّع مرارات النوائب في ايّام معدودة ، لحلاوة موعودة ، انّما هي محنة بائدة ، تتلوها فائدة ، وكربة نافدة ، بعدها نعمة خالدة - ومن عشق المعالى الف الغمّ ومن طلب اللئالى ، ركب اليمّ ، فلا تشربن و ردا يعقبك سقاماً . ولا تشمنّ ورداً يورثك زكاما . فمن طلب الجنّة ، زهد في الدنيا بفوته عنها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، قم واعمل ، قال رسول الله ﷺ : سيّد الأعمال ، انصاف الناس من نفسك ومؤاساة الأخ في الله وذكر الله على كلّ حال ، امّا لا اقول سبحان الله والحمد لله الخ وان كان هذا من ذكر الله ولكن ذكر الله في كلّ موطن على طاعة أو على معصية ، بمعنى انّك تكون متذكراً في جميع ما يخطر لك في قلبك ، فعله أو تركه ، هل هو في الطاعة فتأتى بها ، او في المعصية فتدعها وهذا هوالذكر الأكبر القلبى وامّا الذكر

اللساني من الأسماء والصفات، فتذكره سبحانه مع التوجّه الى معانيها مثل ان تقول يا رحيم، او مثلاً يا جواد، تكون تعرف معنى هذه النسبة اليه تعالى، فانّ معنى الجود بالنسبة اليه افادة ما ينبغي لا لغرض و كلّ احد غيره انّما يجود ويعطي، ليأخذ عوضاً لطلب الخدمة، او لطلب ثناء الجميل، او لطلب الاعانة، او لطلب الثواب، او لدفع الرقّة الجنسيّة من القلب، اوليزيل حبّ المال عن قلبه و كلّ هذه في الحقيقة معاوضة وتحصيل كمال، لكنّ الحق سبحانه كامل في ذاته، فاذا قلت يا جواد، اعرف ماتقول، حتى لا يكون ذكرك لقلقلة اللسان.

قوله تعالى: « **أَفَتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّٰهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** »

كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم شديد الحرص على الدعاء الى الحق وقبولهم الايمان منه و كان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمرّدهم، فقصّ الله سبحانه عليه اخبار بني اسرائيل في العناد العظيم مع مشاهدة الآيات الباهرة، تسلية لرسوله فيما يظهر من اليهود في زمانه من قلّة القبول و الاستجابة. والخطاب للنبيّ واصحابه.

و حاصل المعنى: أبعد ان علمتم تفاصيل شؤنهم المويسة « **أفتطمعون** »: في « **ان يؤمنوا** » جميع اليهود أو علمائهم فانّهم متماثلون في شدّة الشكيمة والاخلاق الذميمة ولا يتأتّى من اخلافهم الّا مثل ما اتى من اسلافهم، فلا تحزنوا على تكذيبهم « **لكم** » اى لأجل دعوتكم « **فقد كان فريق** » والحال قد كان فريق كائن « **منهم** » وطائفة ممّن سلف منهم ـ والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط « **يسمعون كلام الله** » وهو ما يتلونه في التوراة « **ثم يحرفونه** » ويغيّرون ما فيه من الأحكام، كتغييرهم لصفة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وآية الرجم وقيل: كان قوم من السبعين المختارين، سمعوا كلام الله، حين كلّم الله موسى بالطور، وما امر به وما نهى، ثمّ قالوا سمعنا الله يقول في آخره: ان استطعتم ان تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم ان لاتفعلوا فلا بأس. و هذه الامور من تحريفاتهم.

قال صاحب كتاب التيسير : والصحيح انّهم لم يسمعوا كلام الله بلا واسطة ، فانّ ذلك كان لموسى على الخصوص لم يشركه فيه غيره - ومعنى يسمعون كلام الله من التوارة ، من موسى بقرائته .

« **من بعد ما عقلوه** » و فهموه وضبطوه بعقولهم ولم يبق لهم شبهة في صحّته يقول : كيف يؤمن هؤلاء وهم يقلّدون اولئك الآباء ، فهم من اهل السوء الّذين مضوا بالعناد ، فلا تطمعوا في الايمان منهم .

« **وهم يعلمون** » : والحال انّهم يعلمون انّهم محرّفون ، كاذبون ، وقد نسب الله الى طائفة منهم المعاندة و ان كانوا باجمعهم كافرين وفي الاية دلالة على عظم الذنب في تحريف الشرع وهو عامّ في اظهار البدع في الفتاوى او القضايا وجميع تحريفات الدينيّة .

قوله تعالى « **وَاذا لَقوا الّذينَ آمَنوا قالُوا آمَنّا وَاذا خَلا بَعْضُهُمْ اِلى بَعْضٍ قالُوا اَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ اَفَلا تَعْقِلُونَ** »

النزول ، روى عن ابى جعفر عليه السلام انّه قال : كان قوم من اليهود ، ليسوا من المعاندين المتواطئين اذ المسلمين حدّثوهم بما فى التوراة من صفة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، فنهاهم كبرائهم عن ذلك وقالوا لا تخبروهم بما فى التوراة من صفة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، فيحاجّوكم به عند ربّكم ، فنزلت الاية .

وقيل : هؤلاء قوم من اليهود ، آمنوا ثمّ نافقوا ، فكانوا يحدّثون المسلمين من العرب ، بما عذّب به اسلافهم ، فقال بعضهم لهم : اتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليحاجّوكم به ، فيقولون نحن اكرم على الله منكم .

« **واذا لقوا** » اى اليهود « **الذين آمنوا** » من اصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم « **قالوا** » اى : منافقوهم « **آمنا** » كايمانكم وانّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم هو الرسول المبشّر به « **و اذا خلا بعضهم** » الذين لم ينافقوا « **الى بعض** » اى الى الذين نافقوا بحيث لم يبق معهم غيرهم « **قالوا** » اى الساكتون عاتبين لمنافقتهم على ما صنعوا « **اتحدثونهم** » و تخبرونهم والاستفهام

بمعنى النهى اى لاتحدثوا المسلمين « **بمافتح الله عليكم** » وبيّنه الله لكم خاصّة من نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى التوراة « **ليحاجوكم به** » اللاّم متعلّقة بالتحديث دون الفتح اى لتحتجّوا عليكم به ، فيقطعوكم بالحجّة « **عند ربكم** » اى فى حكمه و كتابه ، كما يقال : هو عند الله كذا ، اى في شرعه و كتابه كذا وحاصل المعنى انّكم لاتقرّوا بان محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نبي لأنّكم اذا اقررتم انّه نبيّ حقّ و هو مذكور في كتابكم فحينئذ يجادلكم المسلمون و تكون الحجّة عليكم « **أفلا تعقلون** » متّصل بكلامهم اى أفلا تفقهون ايّها القوم ، انّ اخباركم محمدا وأصحابه بما تخبرون من وجود نعت محمد في كتبكم ، حجّة عليكم عند ربكم ، يحتجون بها عليكم . وقيل معناه : افلا تعقلون أيّها المؤمنون فلا تطمعوا فى ذلك ، فيكون كلاماً مستأنفاً . و قيل انّه خطاب لليهود اى افلاتعقلون أيّها اليهود اذ تقبلون من رؤسائكم مثل هذه الكلمات السخيفة ، فيكون الكلام تحذيراً لهم عن اتباعهم لرؤسائهم .

فاطلب العلم حتى يكون عملك على المنهج المستقيم وتستفيد من العمل والمراد من العلم ، ما قاله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : إنّما العلم ثلاثة ، آية محكمة ، أو فريضة عادلة ، او سنّة قائمة وما عداها فضول .

و المراد من آية محكمة ، التى لم يكن للريب والشكّ مجال فيها والّا لم تكن محكمة كالأحكام مثل قوله : للذكر مثل حظّ الانثيين . والمراد من الفريضة العادلة : العلوم النفسانيّة المتعلّقة بالرذائل و الخصال المحمودة باعتبار التخلية و التحلية والتعبير بالعادلة: لانّها المتوسّطة المحفوظة من الافراط والتفريط . والمراد بالسنّة القائمة العادات المأخوذة من النبيّ والوصيّ ، مستقيمة منتصبة عن الاعوجاج ، تكفى مهامّ عاملها في الدنيا والآخرة وتكون قائمة بامور فاعلها ويستغنى بها في اموره .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : تركتكم على الحجّة البيضاء . فلاتغيّر السنّة بالتقليد من هيهنا وهيهنا فتفسد جميع امورك .

« اَوَلا يَعْلَمُونَ اَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ »

اى جميع ما يسرّونه وما يعلنونه،عالم به ومن ذلك اسرارهم الكفر و اعلانهم الايمان .

« وَمِنْهُمْ اُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ اِلّا اَمانِيَّ وَاِنْ هُمْ اِلّا يَظُنُّونَ »

« **ومنهم** » اى من اليهود « **اميون** » لايحسنون الكتب ولايقدرون على القرائة .

والامىّ منسوب الى امّة العرب وهي الامّة الخالية عن العلم والقرائة ، فاستعير لمن لا يعرف القرائة والكتابة « **لا يعلمون الكتاب** » : يعنى التوراة ليطالعوها ويتحقّقوا ما فيها من دلائل نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيؤمنوا « **الا امانى** » جمع امنيّة من التمنّى والاستثناء منقطع لانّ الامانىّ ليست من جنس الكتاب وهى الشهوات الباطلة الثابتة عندهم والمفتريات، من تغيير صفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبعض الأقاويل الفاسدة من زعمهم أنّهم لا يعذّبون في النّار الّا ايّاماً معدودة وأنّ آبائهم الأنبياء يشفعون لهم و أنّ الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ولا حجّة لهم في هذه الامور « **وان هم الا يظنون** » اى وماهم إلّا يظنّون ظنّاً من غير تيقّن بها وقصارى امرهم ، الظنّ والتقليد لآبائهم وأنىّ يرجى منهم الايمان واليقين .

والامنيّة لها معان مشتركة في اصل واحد ، احدها ما تخيّله الانسان فيقدّر في نفسه وقوعه و يحدّثها بوجوده و كونه . وثانيها ، الامانىّ : الاكاذيب المختلقة سمعوها من علمائهم ، فقبلوها على التقليد. قال اعرابى لابن دأب في كلام حدّث به: أهذا شيء رويته،ام تمنيته اى اختلقته. وثالثها بمعنى القرائة قال كعب بن مالك : تمنّى كتاب الله اوّل ليلة . وحمل معنى الآية على القرائة اليق وحينئذ الاستثناء متّصل ، فكأنّه قال : لايعلمون الكتاب، الّا بقدر ما يتلى عليهم ، فيسمعونه وبقدر ما يذكر لهم ، فيقبلونه لانّهم اميّون وكلّ هذه المعانى مناسب لحالهم .

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ »

الويل ، كلمة يقولها كلّ واقع في هلكة بمعنى الدّعاء على النّفس بالعذاب « **فويل للذين** » : اىعقوبة عظيمة، وهومبتداء، ومابعده خبره ، قال رسول الله ﷺ : الويل واد في جهنّم يهوى فيه الكافر اربعين خريفا ، قبل ان يبلغ قعره . و قال سعيد بن المسيّب عنه ﷺ : إنّه واد في جهنّم لو سيّرت فيه جبال الدنيا ، لماعت من شدّة حرّه .

« **يكتبون الكتاب** » المحرّف « **بايديهم** » تأكيد لدفع توهّم المجاز ، فقد يقول الانسان كتبت الىفلان اذاامرغيره ان يكتب عنه « **ثم يقولون** » لعوامهم وتابعيهم « **هذا** » المحرّف « **من عند الله** » في التوراة . روى انّ احبار اليهود ، خافوا ذهاب مأكلهم ورياستهم حين قدم النبي ﷺ المدينة ، فاحتالوا في تعويق عوام اليهود وسفلتهم عن الايمان ، فعمدوا الى نعوت النبىّ ﷺ في التوراة . و كانت هى مذكورة في التوراة حسن الوجه ، جعد الشعر ، اكحل العين ، ربعة ـ فغيّروها و كتبوا مكانه ، طوال ، ازرق ، سبط الشعر ، فاذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لصفته ، فيكذّبونه وانّما فعلوا ذلك « **ليشتروا به** » ، اى يأخذوا لانفسهم بمقابلة المحرّف « **ثمناً قليلا** » وهو ما أخذوه من الرشى ، بمقابلة التحريف و التأويل الزائغ . قليلا لا يعبأ به وقد وصفه بالقلّة ، لكونه حراماً ولا يربوا عند الله وهو فان ، قال الواحدى في الوسيط : وقيل المراد في الآية : كاتب كان يكتب للنبيّ ﷺ ، فيغيّر مايملى عليه ، ثمّ ارتدّ ومات ، فلفظته الأرض . والأوّل اوجه « **فويل لهم** » اى العقوبة العظيمة ثابتة لهم « **مما كتبت ايديهم** » من اجل كتابتهم ذلك المحرّف « **وويل لهم مما يكسبون** » من اخذهم الرشوة . واصل الكسب : الفعل لجرّ نفع ، او دفع ضرّ . والخطب الأعظم والبلاء الاطم ، العالم المحرّف ولو في مسألة و الجاهل المقلّد وهو متمكّن من العلم ، فانّ فساد الدنيا والدين من هذين . وقد حذر رسول الله ﷺ امّته لمّا علم مايكون

في آخر الزمان، فقال: الا انّ من قبلكم من اهل الكتاب، افترقوا على اثنتين وسبعين ملّة وانّ هذه الامّة ستفترق على ثلاث وسبعين، كلّها في النار الّا واحدة وحذّرهم ان يحدّثوا من تلقاء انفسهم في الدين، ما هو يخالف كتاب الله، أوسنّته، فيضلّوا به الناس. وقد وقع ماحذّره وشاع و كثروذاع، حتى أنّهم أرادوا ان يخرجوا عن دين الاسلام لميل طباعهم لحبّ دين النصارى، فموّهوا على ضعفاء الامّة بل حمقائهم واظهروا لهم العلم والاطّلاع بكتاب الله واسّسوا مواد مؤلفة بعضها يشبه بعض القرآن في الصورة لكن في المعنى يخالفه و بعضها يخالفه في الصورة والمعنى وبعضها القليل يوافقه وذلك لتمزيج الباطل بالحق ولإسكات بعض المتعالمين. وسمّوه قانونا وقد نسخوا القانون الالهى بهذا القانون الموصوف، فويل لهم ممّا كسبت ايديهم.

فأقول: واقسم بالله و صفاته و آياته انّ من يعرّف نفسه، انّه من اهل القرآن و يدّعي الاسلام ان يحترز من هذا القانون الموضوع، بل يجب على المسلم ردّه وانكاره، فلو وافقه واحبّه و ايّده، فهو من أهل الويل في الآية و من تأمّل في وجوب الانكار وحرمة القبول، إمّا ملحد ولكن يظهر التنسك وإمّا من الطبقة الثانية من المموّهين بصيغة المفعول لا الفاعل، كما ذكرنا قبيل هذا، ثمّ اقول: في وجوب الردّ لهذا الأمر الذي به نسخ اديان تمام الانبياء، كما امر الله في الحج واوجب ولله على الله الناس والتبرّى عن هذا الاساس انتهى.

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللّٰهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللّٰهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

« **وقالوا** » اى اليهود ـ زُعماً منهم ـ: « **لن تمسنا النار** » ولا تصل الينا في الآخرة « **الا اياماً معدودة** » قليلة محصورة، سبعة أيّام فانّهم كانوا يقولون: انّ ايّام الدنيا سبعة آلاف سنة، فنعذّب مكان كلّ الفسنة، يوماً؛ او يراد من ايّام معدودة: اربعون يوماً، مقدار عبادة آبائهم العجل و كانوا يقولون: نعذّب تعذيب الأب ابنه، ونحن أبناء الله واحبّائه ولا نعذّب ابداً، فكذّبوا تمام الكتب السماويّة وتمام رسله،

لأنّه بيّن الله في كتابه على السنة رسله : انّ عقوبة الكفر ابديّة .

« قل » يا محمّد تبكيتاً لهم « أتخذتم » بقطع همزة الاستفهام ، اى ءاتخذتم « عندالله عهدا » وخبراً ووعداً بما تقولون ؛ فانّ ما تقولون ، لا يكون الّا الى بناء وعهد محكم اخبر كم الله به ؛ وهل اخبر كم عن الله احد من الانبياء : انّكم لا تعذّبون ابداً ، بل تعذّبون أيّاماً قلائل ، فان كان لكم هذا « فلن يخلف الله عهده » الّذي عهده اليكم والفاء في فلن يخلف الله فصيحة معربة عن شرط محذوف ، مثل قول الشاعر:

قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا ☆ ثم القفول فقد جئنا خراسانا

« أم تقولون على الله ما لا تعلمون » : قيل : أم ، منقطعة على تقدير تمام الكلام قبله ، فيكون بمعنى بل. أو تكون متّصلة معادلة لهمزة الاستفهام ، كأنّه قال : أنتم على اىّ الحالتين: أتقولون على الله ما تعلمون أم تقولون عليه ما لا تعلمون وقد تمسّك نفاة القياس وخبر الواحد بهذه الآية قالوا لانّ القياس وخبر الواحد لا يفيد ان العلم ، فوجب ان لا يكون التمسّك بهما جائزاً لقوله : ام يقولون ، الآية .

قال الرازى : لمّا دلّت الدّلالة على وجوب العمل عند حصول الظنّ المستند الى القياس ، اوالى خبر الواحد كان وجوب العمل معلوماً ، فكان القول به قولاً بالمعلوم ، لا بغير المعلوم .

« بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

« بلى من كسب سيئة » : بلى جواب لقولهم: لن تمسّنا النّار . والفرق بين بلى ونعم ، انّ بلى، جواب النفى ونعم جواب الايجاب ، اى بلى تمسّكم ابداً ، بدليل قوله : هم فيها خالدون. والسيّئة تتناول جميع المعاصى ، فبيّن سبحانه انّ الّذي يستحق به الخلود ان يكون سيّئة محيطة به واختلف في السيّئة ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: السيّئة هيهنا الشرك ، وقال الحسن : هى الكبيرة الموجبة للنار. وقال السدىّ :

هي الذنوب التي اوعد الله عليها النار . والقول الأوّل يوافقنا الشيعة ، لأنّ ما عدا الشرك لا يستحق به الخلود في النار عندنا . « **واحاطت به خطيئته** » : اى احدقت به من كلّ جانب، اوالمعنى اهلكته «واحيط بثمره» اى اهلك وقال عكرمة ومقاتل : انّ الاحاطة ، الاصرار على الذنب « **فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » : اى دائمون في العـذاب . والاختلاف في تفسير هذه الآية من معنى السيّئة والخلود بين الوعيديّة والخوارج والمعتزلة والأشاعرة كثير .

قال الطبرسي: والذي يليق بمذهبنا، قول ابن عباس لأنّ اهل الايمان لايدخلون في حكم هذه الآية وقوله : واحاطت به خطيئته ، يقوّى ذلك ، لأنّ المعنى انّ خطاياه قد اشتملت عليه واحدقت به حتّى لايجد عنها مخلصاً ولامخرجاً ولو كان معه شيىء من الطاعات لم تكن السيّئة محيطة به من كلّ وجه وقد دلّ الدليل على بطلان التحابط ولأنّ قوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك اصحاب الجنّة هم فيها خالدون » فيه وعد لاهل التصديق والطاعة بالثواب الدائم ، فكيف يجتمع الثواب الدائم مع العقاب الدائم و يدلّ أيضاً على أنّ المراد بالسيّئة في الآية ، الشرك ، أنّ سيّئة واحدة ، لا تحبط جميع الأعمال ، فلا يمكن اجراء الآية على العموم ، فيجب ان يحمل على اعظم السيّئات واكبر الخطيئات وهو الشرك ليمكن الجمع بين الآيتين .

قال الرازى : اختلف اهل القبلة فى وعيد أصحاب الكبائر ، فمن الناس من قطع بوعيدهم وهم فريقان : منهم من اثبت الوعيد المؤبّد وهو جمهور المعتزلة و الخوارج و منهم من اثبت و عيداً منقطعاً و هو البشر و الخالدى . و من الناس من قطع بانّه لا وعيد لهم و هذا القول شاذّ ، ينسب الى مقاتل المعروف المفسّر . القول الآخر وهو انّا نقطع بانّه سبحانه يعفوا عن بعض العصاة وعن بعض المعاصي ولكنّا نتوقف في حقّ كلّ احد على التعيين انّه هل يعفو عنه ام لا و نقطع بانّه اذا عذّب أحداً منهم مدّة فانّه لا يعذّ به ابدا ، بل يقطع عذابه وهذا القول قول الصحابة والتابعين واهل السنّة والجماعة واكثر الاماميّة .

وأما دليل المعتزلة في الوعيد المؤبّد ، فانّهم عوّلوا على العمومات الواردة فى

هذا الباب وتلك العمومات على وجهين : بعضها وردت بصيغة «من» في معرض الشرط وبعضها وردت بصيغة الجمع ، امّا النوع الأوّل مثل قوله تعالى في آية المواريث : و من يعص الله ورسوله و يتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها . وقد علمنا انّ من ترك الصلوة والزكوة والصوم والحج والجهاد وارتكب شرب الخمر والزّنا وقتل النّفس المحرّمة ، فهو متعدّ لحدود الله ، فيجب أن يكون من أهل العقاب وذلك لأنّ من في معرض الشرط تفيد العموم على ما ثبت في اصول الفقه ، فمتى حمل الخصم هذه الآية على الكافر ، دون المؤمن ، كان ذلك على خلاف الدليل .

ومن الآيات التي تمسّكوا بها في المسئلة لاشتمالها على صيغة «من» في معرض الشرط و قالوا انّها تفيد العموم قوله تعالى في قاتل المؤمن عمداً : ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها . قالوا فدلّت الآية على أنّ ذلك جزاؤه ، فوجب ان يحصل له هذا الجزاء لقوله تعالى : من يعمل سوءاً يجز به . والآية الثالثة التي استدلّوا بها : يا أيّها الّذين آمنوا اذا لقيتم الّذين كفروا ، الى قوله : ومن يولّهم يومئذ دبره إلّا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير .

ومن الآيات أيضاً : فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره .

ومنها : يا أيّها الّذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الى قوله تعالى : ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً.

و منها قوله تعالى : انّه من يأت ربّه مجرماً فانّ له جهنّم لا يموت فيها ولا يحيى . و منها : وقد خاب من حمل ظلما . و هذا يوجب ان يكون الظالم من أهل الصلوة ، داخلاً تحت هذا الوعيد . و منها بعد تعداد المعاصي : ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . بيّن أنّ الفاسق كالكافر ، في أنّه من أهل الخلود ، الّا من تاب من الفساق ، أو آمن من الكفّار .

ومنها : فأمّا من طغى و آثر الحيوة الدنيا فانّ الجحيم هي المأوى . ومنها : من يعص الله ورسوله فانّ له نارجهنّم ، الآية . ولم يفصل بين الكافر والفاسق ومنها :

بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . فهذه هي الآيات التي تمسّك بها المعتزلة في المسئلة لاشتمالها على صيغة « من » في معرض الشرط واستدلّوا على انّ هذه اللّفظة تفيد العموم ، لأنّه لو كانت موضوعة للخصوص لما حسن من المتكلّم ان يعطى الجزاء لكلّ من أتى بالشرط لأنّهم اجمعوا على أنّه اذا قال : من دخل دارى اكرمته . يكون ان يكرم كلّ من دخل داره ، فعلمنا انّ هذه اللّفظة ليست للخصوص .

النوع الثاني من دلائل المعتزلة : التمسّك بالوعيد بصيغة الجمع المعرّف بالألف واللاّم وهي في آيات مثل قوله : وانّ الفجّار لفى جحيم ، لأنّ معناه : انّ الّذين فجروا في الجحيم وذلك يفيد العموم ، لكن أنكر ابوهاشم وأصحابه انّ الجمع المعرّف يفيد العموم وقال : اللاّم في قوله : وانّ الفجّار . ليست لام التعريف ، بل هى بمعنى الّذي . الآية الثانية من استدلال المعتزلة في انّ الجمع المعرّف يفيد العموم في الوعيد قوله : ونسوق المجرمين إلى جهنّم وردا . وثالثها : ونذر الظالمين فيها جثيّا .

النوع الثالث من العمومات : صيغ الجموع المقرونة بحرف «الذي» مثل قوله : ويل للمطفّفين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . ومثل قوله : انّ الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انّما يأكلون في بطونهم ناراً . ومثل قوله : انّ الذين تتوفّيهم الملائكة ظالمى انفسهم . ومثل: والذين كسبوا السيّئات جزاء سيّئة بمثلها وترهقهم ذلّة. ولم يفصل في الوعيد بين الكافر وغيره . وكذلك قوله : والذين يكنزون الذهب والفضة الآية . وكذلك قوله : وليست التوبة للذين يعملون السيّئات . ولو لم يكن الفاسق من اهل العذاب ، لم يكن لهذا القول معنى ، بل لم يكن له الى التوبة حاجة .

النوع الرابع من العمومات ، قوله : سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيمة . وعيد على منع الزكوة .

النوع الخامس من العمومات ، لفظة كلّ ، قوله : ولو انّ لكلّ نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ، فبيّن ما يستحق الظالم على ظلمه .

النوع السادس من أدلّة المعتزلة ، قوله : لا تختصموا لدىّ وقد قدّمت اليكم

بالوعيد ما يبدّل القول لديّ . وهذا صريح في انّه تعالى لابدّ وان يفعل ولا مخلص من عذابه ، فهذا مجموع ما تمسّكوا به من عمومات القرآن.

وأمّا عمومات الاخبار فكثيرة ، فالمذكور بصيغة من ، ما روى وقّاص ابن ربيعة ، قال : قال رسول الله : من اكل بأخيه أكلة ، اطعمه الله من نار جهنّم ومن أخذ بأخيه كسوة ، كساه الله من نار جهنّم ، ومن قام مقام رياء وسمعة ، اقامه الله يوم القيامة مقام رياء وسمعة . وهذا نصّ في عذاب الفاسق . وكذلك المذكور بصيغة من ، قوله ﷺ : من كان ذا لسانين وذا وجهين كان في النّار .ولم يفصل بين المؤمن و المنافق . و كذلك المذكور بصيغة من . قال ﷺ : من ظلم قيد شبر من ارض ، طوّقه يوم القيامة من سبع ارضين . و كذلك قال رسول الله ﷺ : كلّ مسكر خمر و كلّ خمر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة . وهو صريح في وعيد الفاسق وانّه من اهل الخلود ، لأنّه اذا لم يشربها لم يدخل الجنّة ، لأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين . عنه ﷺ : الصلوة من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيمة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاةً ولا ثواباً وكان يوم القيمة مع قارون وهامان وفرعون وابيّ بن خلف . وهذا نصّ في انّ ترك الصّلوة يحبط العمل ويوجب عذاب الأبد . وامثال هذه الاخبار كثيرة لا تحصى .

النوع الثّاني من العمومات : الاخبار الواردة لا بصيغة «من» . وهي كثيرة لا تحصى . عن نافع مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ لا يدخل الجنّة مسكين متكبّر ولا شيخ زان ولا منّان بعمله على الله . و من لم يدخل الجنّة من المكلّفين فهو من اهل النار . وامثال هذه الاخبار ايضاً كثيرة . هذا مجموع استدلال المعتزلة الوعيديّة بعمومات القرآن والاخبار .

واجاب الاشاعرة عنها من وجوه : اوّلها لا نسلّم انّ صيغة «من» في معرض الشرط للعموم . ولا نسلّم انّ صيغة الجمع اذا كانت معرّفة باللاّم للعموم .

الاول : انّه يصحّ ادخال لفظتي الكلّ والبعض على هاتين اللّفظتين ، فيقال كلّ من دخل داري اكرمته و بعض من دخل داري اكرمته و يقال كلّ الناس كذا و بعض

الناس كذا فلو كانت لفظة «من» للشرط ، يفيد الاستغراق ، لكان ادخال لفظ الكلّ عليه زائداً و كذلك في لفظ الجمع المعرّف ، فثبت انّ هذه الصيغ لا تفيد العموم . و كذلك الموصول ، مثل قوله تعالى : انّ الّذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . فظاهر الآية حكم على كلّ الذين كفروا انّهم لا يؤمنون ، ثمّ انّا شاهدنا قوماً منهم قد آمن، فعلمنا انّه لابدّ من احد الأمرين، إمّا لأنّ الصيغة ليست موضوعة للشمول ، او لأنّها وان كانت موضوعة لهذا المعنى الّا انّه قد وجدت قرينة انّ مراد الله من هذا العموم ، هو الخصوص ، فلمّا كان ذلك العموم يخصّص بسبب القرينة كذلك هيهنا ، فانّ عمومات الوعيد ، معارضة بعمومات الوعد ولابدّ من الترجيح وليس ترجيح، بل الترجيح معنا من وجوه : الأوّل : انّ الوفاء بالوعد ، ادخل في الكرم ، من الوفاء بالوعيد .

الثاني : انّه قد اشتهر في الاخبار انّ رحمة الله سابقة على غضبه ، فكان ترجيح عمومات الوعد أولى .

الثالث : انّ الوعيد حقّ الله والوعد حقّ العبد وهو اولى بالتحصيل من حقّ الله لاحتياجه . وقد رأينا انّ كثيراً من الألفاظ العامّة وردت في الاسباب الخاصّة ، بل قطع بعض انّ العذاب منفيّ عن أهل الكبائر واحتجّوا بقوله تعالى : انّ الخزي اليوم والسوء على الكافرين . وقوله: إنّا قد اوحي الينا انّ العذاب على من كذّب وتولّى قالوا : دلّت الآية على انّ ماهيّة الخزي والسوء و العذاب مختصّة بالكافرين . وقال الله : قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله انّ الله يغفر الذنوب جميعاً . حكم بأنّه تعالى يغفر كلّ الذنوب ولم يعتبر التوبة ولا غيرها وهذا الكلام . يفيد القطع بغفران كلّ الذنوب .

و الثالث من الآيات الدالّة على مرامنا : قوله تعالى : و انّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وكلمة «على» تفيد الحال ، كقولك رأيت الملك على أكله ، اي رأيته على اشتغاله بالأكل ، فكذا هيهنا وجب ان يغفر لهم الله حال اشتغالهم بالظلم وحال اشتغالهم بالظلم يستحيل وجود التوبة منهم ، فعلمنا انّه يحصل الغفران بدون التوبة.

الرابع : قوله : فانذرتكم ناراً تلظّى، لا يصليها الّا الاشقى الذى كذّب وتولّى. وكلّ نار متلظّية .

الخامس : انّ صاحب الكبيرة لا يخزى لأنّ صاحب الكبيرة مؤمن والمؤمن لايخزى لقوله : يوم لا يخزى الله النبيّ والذين آمنوا معه . وصاحب الكبيرة من الذين آمنوا بالغيب وليس بكافر . وحكم سبحانه بالفلاح على كلّ من آمن، بقوله : والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون اولئك على هدىً من ربّهم واولئك هم المفلحون. ومعلوم انّ صاحب الكبيرة ، قدآمن بما انزل الله وموقن بالاخرة لأنّه لو لم يؤمن فهو كافر ، و الكلام فى المؤمن العاصى . و بالجملة ، فالعمومات في الوعد والوعيد معارضة بعضها ببعض . والحقّ انّ العبد يكون يتوقّف عند هذهالمدلولات ويكون مضطرباً خائفاً من الوعيد وراجياً بالوعد ، لأنّه لايحصل القطع باحد الأمرين من العمومات .

وبالجملة،فاقصرعن الشهوات وتدارك لساعة لاانت الى دنياك عائدولا فى حسناتك بزائد ، معانقة الحسان والتفرّج في المنتزهات ، لا تنفع لظلمة القبروضيقه وانت لاتعلم مابقى من اجلك فازهد فى طول املك قبل الحسرة والندامة . نعوذ بالله من قسوة قلوبنا ، فانّ القلب اذا لم يكن قاسياً يتأثّر بكلمة ،كما اتّفق للشيخ جعفر المرتعش النيشابورى وكان اوّل امره ابن دهقان كثير المال ، فسئله رجل شيئاً ، فقال فى نفسه : شابٌ جلد ، صحيح البدن ، لا يأنف من هذا . قال فزعق فى وجهى زعقة افزعتنى ، ثمّ قال اعوذ بالله ممّا خامر في سرّك ، قال فغشى علىّ ، فلمّا افقت لم أر أحداً فندمت على ما كان منى فبتّ ليلة بغمّ شديد ، فرأيت فى الرؤيا على بن ابيطالب عليه السلام ومعه ذلك الشابّ وعلىّ عليه السلام يشير الىّ و يوبّخنى ويقول : إنّ الله لا يجيب سؤال مانع سائليه . فانتبهت وفرّقت جميع ماكان لى ولزمت مسجدا ببغداد . وكان وقت موته عليه من الدين بضع وعشرون درهما يعادل ما يملك . ونحن فى كلّ يوم نقره من القرآن ولا نجيب سائلا . قلوبنا مريضة ولا نحسّ حتى نعالجها ، فكما انّ البدن بعدم المراقبة في حفظ الصحّة يهزل

ويضعف، كذلك الروح و النفس بكثرة المعاصي يفسد بحيث لا يقبل العلاج، الا ترى انّ بعض الأمراض لايعالج، كذلك بعض المعاصي صعب العلاج، أو غير ممكن العلاج، فتشتغل خمسين سنة بالمعاصي برجاء التوبة وانّى لك التوبة، تشرب السم برجاء الترياق و الطبيب ولعل الترياق لا ينفع بعض الاوقات في بعض الأمزجة، كما شوهد مراراً والمعاصي اذا كثرت يغلظ الحجاب ولا يحصل لك نور، حتى تهتدى الى سبيل العبوديّة، فتكون خارجاً عن العبوديّة.

حكى عن ذى النون المصرى، قال: كنت في بعض الجبال فاذا بجارية مكشوفة الرأس والوجه وقد نحل جسمها وتغيّر لونها وتقول: الله الله. فقلت لها: اين الخمار ياجارية، فأجابتنى ما يصنع بالخمار وجه علاها الذلّ والصفار. فقلت لها لماذا علاها الصفار. فقالت: من الخمار. فقلت سبحان الله، تناولت شيئاً من الخمر. قالت: يا بطال شربت البارحة من كأس المعرفة، فاصبحت اليوم من الشوق مخموراً، فقلت: عظينى يا جارية. قالت: عليك بالسكوت حتّى يقال انّك مبهوت، وارض بالقوت حتّى يبنى لك في الجنّة بيت من الياقوت، تضرّع بالأسحار الى عالم الاسرار، وتب اليه توبة نصوحا، والبس مكان الحرير مسوحا، واقبل من ناصح امين، قبل ان تكون في عذاب مهين، وكلّ محنة الى زوال، وكلّ نعمة الى انتقال، ومال لا ينفعك في آخرتك وبال، وعلم لايصلحك ضلال، وليكن وجهك ازهر لااغبر، قال الله: وجوه يومئذ مسفرة. لابيضاضها في الدنيا بالتزكية وزوال كدورة المعاصي عنها. ضاحكة. لانّها بكت في الدنيا حتّى صارت عمياء عن رؤية غير الله والدنيا. مستبشرة. وهذه البشارة عوض خوفها في الدنيا، فافيقوا عن سكرتكم وانظروا بعين الافاقة.

رجعنا الى التفسير « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون** »: اى الّذين صدقوا بالله تعالى وبمحمد صلّى الله عليه وآله بقلوبهم وادّوا الفرائض وانتهوا عن المعاصي، مؤبّدون في الجنّة، لا يموتون ولا يخرجون منها أبداً.

جرت السّنة الالهيّة على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة في ارشاد العباد، من الترغيب تارةً والترهيب اخرى، والبشير مرّة والانذار اخرى. والعجب مع هذه

الآيات الصريحة في الخلود للكافر والمؤمن ، في الجنّة والنار ، انّ بعض المغرورين بالعقل من الفلاسفة والطبايعيّة لفرط غفلتهم كذّبوا هذه الآيات و ظنّوا انّ قبائح افعالهم واعمالهم ، لا تؤثّر في صفاء ارواحهم وقلّدوا اليهود وقالوا : اذا فارقت الارواح الاجساد ، يرجع كلشيء الى اصله ، فالاجساد ترجع الى العناصر والارواح الى حظائر القدس ولا يزاحمها شيء من نتائج الاعمال الّا ايّاماً معدودة . وهذا فاسد لانّ العاقل يشاهد حسّاً ان تتبّع الشهوات الحيوانيّة واستيفاء اللذّات النفسانيّة ، تورث الاخلاق الذميمة ، من الحرص والامل والحسد و البغض والبخل والكبر والكذب وغيرذلك وهذه من صفات النفس الامّارة بالسوء ، فتصير بالمجاورة ويتبدّل اخلاق الروح كاخلاق النفس الخبيثة فحكمه حكمها وما تستحق فيستحقّ فكلّما تدنّست الاجسام ، تدنست الارواح و كذّبهم الله تعالى بقوله : بلى من كسب سيّئة واحاطت به خطيئته . الاية .

« وَاِذْ اَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي اِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ اِلَّا اللّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ اِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً وَاَقِيمُوا الصَّلوةَ وَ آتُوا الزَّكوةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ اِلّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَاَنْتُمْ مُعْرِضُونَ »

« **واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله** » : واذكروا وقت اخذنا العهد من بني اسرائيل و الميثاق . قيل هو مواثيق الانبياء على اممهم ، والعهد لا يكون الّا بقول اى امرنا بلسان رسلنا و اكّدنا عليهم في التوراة بأن لا تعبدوا الّا الله وقيل: المراد من العهد من جهة السمع والعقل كليهما « **و بالوالدين** » يحسنون « **احساناً** » « **وذى القربى** » اى وتحسنون الى ذى قرابتكم .

في تفسير الامام قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : افضل والديكم و احقّهما بشكركم ، محمّد وعلي صلوات الله عليهما وقال امير المؤمنين عليه السلام : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول أنا وعلي عليه السلام ابوا هذه الامّة وحقنا عليهم اعظم من حق ابوى ولادتهم ، فانّا ننقذهم من النار ان اطاعونا .

قال الفيض : و لهذه الابوّة صار المؤمنون اخوة ، كما قال الله تعالى : انّما

المؤمنون اخوة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من رعى حق قرابات ابويه اعطى في الجنّة الف الف درجة ، ثمّ فسرّ الدرجات . ثمّ قال ومن رعى حق قربى محمد وعليّ صلوات الله عليهما اوتى من فضائل الدرجات وزيادة المثوبات على قدر زيادة فضل محمد وعليّ على ابوى نسبه . والقربى مصدر كالحسنى .

« واليتامى » : جمع يتيم وهو الصغير الّذي مات ابوه قبل البلوغ ومن الحيوانات: الصغير الذي ماتت امّه . في الحديث : ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فلا يقرب قصعتهم الشيطان . وقال النبي صلى الله عليه وآله : كافل اليتيم وانا كهاتين في الجنّة - و اشار بسبّابتيه - وسميت بسبّابة لأنّهم كانوا يسبّون بها في الجاهليّة ، فكرهوا ذلك و سمّوه بالمشيرة

قال الصادق عليه السلام : واشدّ من يتم هذا اليتيم ، يتيم عن امامه ، لايقدر على الوصول اليه ، ولا يدري كيف حكمه فما يبتلى به من شرائع دينه ، الا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا وهذا الجاهل بشريعتنا ، المنقطع عن مشاهدتنا ، يتيم في حجره ، الا فمن هداه وأرشده وعلّمه شريعتنا ، كان معنا في الرفيق الأعلى . حدّثني بذلك ابي عن آبائه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

« و المساكين » : المسكين من اسكنه الضرّ والفقر . عن الحراير ، التوصية بحسن القول وايصال الصدقة اليهم ، قال ايضاً عليه السلام الا ، فمن واساهم بحواشي ماله ، وسّع الله عليه جنانه وانا له غفرانه ورضوانه . ثمّ قال : انّ محبي محمّد صلى الله عليه وآله مساكين ، مواساتهم افضل من مواساة مساكين الفقراء وهم الذين سكنت جوارحهم وضعفت قواهم عن مقاتلة اعداء الله الذين يعيرونهم ويسفهون احلامهم . الا ، فمن قواهم بفقهه وعلمه حتى ازال مسكنتهم وجهلهم ، ثم سلّطهم على اعداء الله الظاهرين من النواصب وعلى الاعداء الباطنين ، ابليس ومردته ، حتى يهزموهم عن دين الله ويذودهم عن اولياء آل الرسول ، حوّل الله تلك المسكنة الى شياطينهم و اعجزهم عن اضلالهم - قضى الله بذلك قضاء حقّا على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله -

« وقولوا للناس » : اى و قولوا للناس قولاً « حسناً » : قرء بفتح الحاء والسين

وقرء بضمّ الحاء واسكان السين مبالغة لفرط حسنه . امر الله سبحانه بالاحسان بالمال في حقّ اقوام مخصوصين وهم الوالدان والاقرباء واليتامى والمساكين . وامّا كان المال لا يسع الكلّ ، امر بمعاملة الناس كلّهم بالقول الجميل الّذى لايعجز عنه كلّ احد،اى الينوا لهم القول بحسن المعاشرة وحسن الخلق وأمروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر قيل: المراد : قولوا للناس صدقاً و حقّاً في شأن محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فمن سألكم عنه فاصدقوا و بيّنوا صفته ولا تكتموا امره وقد امر الله الخلق في هذه الآية بما هو صلاح دينهم ودنياهم .

قال الصادق عليه السلام : قولوا للناس حسناً كلّهم ، مؤمنيهم ومخالفيهم ، امّا المؤمنون فيبسط لهم وجهه وبشره وامّا المخالفون فيكلّمهم بالمداراة لاجتذابهم الى الايمان ، فان يئس من ذلك يكف شرورهم عن نفسه واخوانه المؤمنين . قال : انّ مداراة اعداء الله من افضل الصدقة من المرء على نفسه واخوانه . كان رسول الله في منزله اذا استأذن عليه عبدالله بن اُبى بن سلول ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : بئس اخو العشيرة . ائذنوا له ، فلمّا دخل اجلسه وبشر في وجهه ، فلمّا خرج قالت له عائشة : يا رسول الله قلت فيه ما قلت وفعلت فيه من البشر ما فعلت . فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : يا عويش يا حميراء انّ شرّ الناس عند الله يوم القيامة من يكرم اتقاء شرّه . وفي الكافي والعياشيّ عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : قولوا للناس احسن ما تحبّون ان يقال لكم ، فانّ الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين المتفحش السائل الملحف ويحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفّف . وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : لا تقولوا الّا خيراً حتى تعلموا ما هو . و فى التهذيب و الخصال والعياشي عن الباقر عليه السلام : انّها نزلت في اهل الذمة ثم نسخها قوله : فاقتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهُمْ صاغرون . و القمي ، نزلت في اليهود ، ثمّ نسخت بقوله : اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، فان قيل : فما وجه التوفيق بين نسخها و بقاء حكمها ، فالجواب : انّها نسخت في حقّ اليهود وأهل الذمّة المأمور بقتالهم ومَن هو في حكمهم وبقى حكمها في سائر النّاس الى يوم القيامة.

« **وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة** » : كما فرضا عليهم ، ذكرهما تخصيصاً مع دخولهما في العبادة المذكورة. تلخيصه اخذنا عهدكم يابني اسرائيل بجميع المذكور فقبلتم « **ثم توليتم** » و رفضتم الميثاق « **الا قليلا منكم** » وهم من الاسلاف من ايّام اليهوديّة على وجهها ومن الاخلاف كعبد الله بن سلام واضرابه فهولاء مستثنون والباقون ضلّوا واضلّوا .

« **وانتم معرضون** » : جملة تذييليّة اى وأنتم قوم عادتكم العناد والاعراض عن الحق واصل الاعراض الذهاب عن المواجهة . والعبادة من وظيفة العبوديّة ولايحصل العبوديّة الّا بها وهى تفرّد العبد لاطاعة خالقه وتجرّده عن كلّ مقصود سواه ، فمن لاحظ خلقاً ، او استجلى ثناء ، او استجلب بطاعته الى نفسه حظّاً من حظوظ الدنيا مع قصده بها ، او داخله مزج او شوب ، فهو ساقط عن مرتبة الاخلاص ، واذا حصل هذا المقام للانسان يتمّ امره بساعة وينقلب الى أهله مسروراً ، كما وقع لجماعة كثيرة رجعوا الى الله وتجافوا عن دار الغرور بلحظة .

« **وَاِذْ اَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ اَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ اَقْرَرْتُمْ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** »

« **واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمائكم** » : واذكروا ايّها اليهود ، وقت أخذنا اقراركم وعهدكم في التوراة وقلنا لكم لا يريق بعضكم دم بعض . جعل غير الرجل نفسه ، لما بينهم من الاتصال القوىّ نسباً وديناً فاجرى كلّ واحد منهم مجرى انفسهم . و قيل : اذا قتل غيره فكأنّما قتل نفسه ، لأنّه يقتصّ منه وهو اخبار في معنى النهى .

« **ولا تخرجون أنفسكم من دياركم** » : اى لايخرج بعضكم بعضاً من دياره او لا تسبّوا ولا تؤذوا جيرانكم ، فتلجؤهم الى الخروج و فى اقتران الاخراج من الديار بالقتل ، ايذان بأنه بمنزلة القتل .

« **ثم اقررتم** » : بالميثاق وألزمتم على أنفسكم واعترفتم بوجوب المحافظة عليه « **وأنتم تشهدون** » : عليها ، تأكيد للاقرار ، مثل قولك : فلان مقرّ على نفسه بكذا ،

شاهد عليها، او المعنى وأنتم اليوم تشهدون على اقرار اسلافكم بهذا الميثاق. وتلخيص البيان: انّ هـذه الأحكام و الامور كلّها كانت عليكم مذكورة في التوراة. و أنتم كنتم محكومين بها ومتعاهدين على العمل بها.

« ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّٰهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

« **ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم** »: ثمّ أنتم هولاء، مبتداء و خبر و مناط الافادة اختلاف المنزل منزلة اختلاف الذات، اى أنتم بعد ذلك هولاء النّاقضون المتناقضون، اوالتقدير ثمّ انتم يا هولاء. ويجوز أن يكون هولاء تأكيداً لانتم والخبر تقتلون، او يكون بمعنى الذين و تقتلون صلته وفي موضع الرفع خبر للمبتداء: اى انتم الذين تقتلون انفسكم: اى يقتل بعضكم بعضاً وتتعرضون للقتل.

« **وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان** » الضمير في ديارهم راجع الى الفريق. والفريق: الطائفة، تظاهرون: بحذف احدى التائين حال من فاعل تخرجون: اى متعاونين عليهم في اخراجهم، ملتبسين بالاثم والمعصية والعدوان والتطاول، وتقوّون ظهوركم للغلبة عليهم. والاثم: الفعل الذى يستحقّ فاعله الذمّ واللوم. ودلت الآية على أنّ الظلم كما هو محرّم، فالتعاون عليه أيضاً كذلك، فان قيل: أليس الله لمّا أقدر الظالم على ظلمه فقد اعانه، فالجواب: انّه كما امكنه فقدزجره عن الظلم، بالتهديد والمنع: فلولم يمكّنه ويسلب عنه القوّة بحيث لم يقدر اتيانه، لقبح التكليف، لأنّه لايقال للاعمى لاتنظر ولايقال للعنين لاتزن.

وان يأتوكم اسارى: اى جاؤكم حالكونهم مأسورين و ظهروا لكم على

هذه الحالة . والأسارى جمع أسير وهو من يؤخذ قهراً بمعنى الأسر وهو الشدّ و الايثاق . و الفرق بين اُسارى و أسرى : انّهم اذا قيّدوا و اوثقوا فهم اُسارى و اذا حصلوا في يدهم وسلطتهم من غير قيد فهم اسرى .

« **تفادوهم** » : اى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء . و المفاداة تجري بين الفادى والمفتدي .

« **وهو محرم عليكم اخراجهم** » : الضمير مبتدأ مبهم يفسّره اخراجهم : اى الاخراج والقتل حرام عليكم واصل القصّة : انّ الله حكم على بني اسرائيل في التوراة : ان لايقتل بعضهم بعضاً ولايخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وارضهم و ايّما عبد او امة وجدتموه من بني اسرائيل ، فاشتروه و اعتقوه وكانت بنو قريظة حلفاء الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، حين كان بينهما أى بين الأوس و الخزرج من العداوة والحرب ، فكان كلّ فريق يقاتل مع حلفائه ، فاذا غلبوا ، خرّبوا ديارهم و أخرجوهم منها ، ثمّ اذا اسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً فيفدونهم ، فعيّرتهم العرب و قالت كيف تقاتلونهم ثمّ تفدونهم ، فيقولون امرنا في التوراة : ان نفديهم وحرّم علينا قتالهم ـ ولكنّ نستحيي أن نذل حلفائنا ، فذمّهم الله بأنّكم اذا وجدتم أسيراً في يد غيركم من اعدائكم تفدونهم وهذا الحكم قبلتموه وما تركتموه ، فكيف قتلكم واخراجكم اياهم ترتكبونه ، فكما انّ تركهم اسرى في أيدى عدوّكم حرام واعتاقهم عليكم واجب ، كذلك قتلهم واخراجهم حرام عليكم .

« **افتؤمنون ببعض الكتاب** » الّذي فرضت عليكم فيه فرائض و هو التوراة «و **تكفرون ببعض**» وقد علمتم انّ الكفرمنكم ببعضه نقض بعهدي وهو قبول التوراة و العمل بأحكامه .

« **فماجزاء من يفعل ذلك منكم الاخزى فى الحيوة الدنيا ويوم القيمة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون** » : اى ليس جزاء من يفعل ذلك اى الكفر بالبعض والايمان بالبعض منكم يامعشر اليهود الاذلّ وفضيحة في الدنيا وهو قتل بني قريظة واسرهم واجلاء بني النضير إلى اذرعات واريحا من الشام واخذ

الجزية والاستصغار . ويوم يقام فيه الاجزية ـ ولذا سميت القيامة ـ يردّون ويرجعون الى اشدّ العذاب وهو التعذيب في جهنّم ، لأنّ كلّ عذاب ينقطع وعذابهم لا ينقطع والله ليس بغافل عن اعمالكم .

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ »

« **اولئك الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالاخرة** » : اشارة الى الذين اخبر عنهم بأنّهم يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض : اى الموصوفون بهذه الصفة الذين استبدلوا الحيوة الفانية بالحيوة الباقية واعرضوا عنها لبعض منافعهم واغراضهم الفاسدة ؛ فاقطع علاقتك عمّا يفارقك بالموت والزم الاقتصار في الالتفات الى لازمك الذي لابدّ لك منه وهو الله . وقد أوحى الله إلى داود : ياداود انا بدّك اللازم فالزم بدّك . وهو الكمال الحقيقي والمال والبنون شهوات و زينة الحيوة الدنيا وهي كمالات وهميّة وليست الشهوة واحدة وعشرة . وقد يكون الإنسان قد قمع عن نفسه جميع الشهوات ، لكن لم يقمع عن طلب حسن الثناء والخلوص وهو قاتله ، فلو فرضنا انّ جميع اهل الأرض سجد لك ، أليس في مدّة قليلة لايبقى الساجد والمسجود فكيف تترك الجاه العريض الطويل عند الله وتختار هذا الكمال الوهميّ الزائل من قبول جماعة من الناس الذين لايملكون لك موتاً ولا حيوة ولا رزقاً ولا أجلاً وخطر الجاه أعظم من خطر المال ، لأنّ قليل الجاه يدعو إلى كثيره ، لأنّه الذّ من المال . ولايسلم من هذه الآفة إلّا خامل مجهول .

قال عيسى عليه السلام : ياطالب الدنيا للبر ، تركك لها أبرّ . اعلم ان المال كالدواء والنافع منه قدر مخصوص ، والإفراط منه قاتل ، والقرب من الافراط ممرض ، والعبد مسافر إلى الله ، والدنيا منزل من منازل سفره ، وبدنه راحلته ، ولايمكنه السفر إلّا بالرّاحلة ، والراحلة لابدّ لها من علوفة ، ولم يؤخذ من العلوفة إلّا قدر مسافة السفر ، والزائد ثقل ووبال ، فاقنع من الدنيا بزاد الراكب ، كماقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسلمان :

فليكن بلاغك من الدنيا كزاد الراكب والزائد يلهى عن ذكر الله ، قال الله تعالى : ألهيكم التكاثر. والخطب الاعظم انّه ما من غنى إلّا ويدّعى أنّ مافي يده مقدار كفايته وضرورته . ولم يعرف مقدار الضرورة لكثرة شهواته مع انّ الضرورة في المطعم والملبس والمسكن ، وقد عيّن الحذّاق من أطبّاء الدين مقدارها وهو أنّه إن تركت التجمّل في الملبس فيكفيك في السنة ديناران لشتائك وصيفك ، و كذلك انْ تركت التنعّم في مطعمك فيكفيك في كلّ يوم مُدّ ويكفيك لادامك ان اقتصرت على القليل في بعض الأوقات ثلاثة دنانير في السنة ، فإذاً مبلغ ضرورتك خمسة دنانير وخمسمائة رطل وإذا كنت معيلا فكذلك القياس ، لكن لما كان لايحتمل بعض الأشخاص القناعة بالقدر الذي قدّره الزاهدون ولا حرج في الدّين فلهم الضعف في هذا المقدار . ولا يخرج عن حزب أبناء الاخوة مادام يقصد بذلك دفع الألم الشاغل عن ذكر الله والعبادة ومعلوم ان فائدة البذل أعظم من فائدة الامساك ، لأنّ إمساك المال إن كان للتنعّم في الشهوات فتلك سجيّة البهائم وإن كان يتركه لولده ويحرم نفسه مع أنّه هو اولى به ، خصوصاً إذا كان الولد فاسقاً يستعين بذلك المال على المعصية فيكون معدّ الاسباب المعصية والكمال الحقيقي ، الحرّيّة وهو انقطاع علائق الدنيا ومايفارقك بالموت .

« **فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون** » : ولا يمنعون ولا ينصرون بدفعه عنهم بشفاعة وانتصار .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ اَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ »

« **ولقد آتينا** » : هذا نوع آخر من مقابلة النعم بالكفران من اليهود : اى بالله لقد أعطينا يابني إسرائيل « **موسى الكتاب** » : اى التوراة جملة واحدة ، قال ابن عباس : انّ التوراة لما نزلت ، أمر الله تعالى موسى بحملها ، فلم يطق ذلك ، فبعث

لكلّ آية منها ملكا ، فلم يطيقوا حملها ، فخفّفهاالله على موسى فحملها .

« وقفينا من بعده بالرسل » : قفاه به ، إذااتبعه إيّاه ، اىاتبعنا من بعدموسى رسولاً بعد رسول ، متفقّين اثره ، وهم: يوشع وشموئيل وداود وسليمان وشمعون وشعيا وارميا وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريّا ويحيى وغيرهم .

« وآتينا عيسى ابن مريم »: ومعنى عيسى بالسريانية:اليسوع.ومعناه: المبارك. و ابن باثبات الألف في الكتابة و إن كان واقعاً بين العلمين لندرة الاضافة إلى الام و مريم بالسريانيّة بمعنى العابدة والخادمة للمعبد . وقد جعلتها امّهامحرّرة لخدمة المسجد ولكمال عبادتها لربّهاسمّتهامريم .وصرّح باسمها في القرآن مع الانبياء سبع مرّات وخاطبها كما خاطب الانبياء ، كقوله : يامريم اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين . فشاركها مع الرجال ؛ ولوكانت النساء بمثل هذه لفضّلت النساء على الرّجال .

« البينات » : المعجزات الواضحات ، من أحياء الاموات وابراءالاكمه والابرص والأخبار بما يدّخرون والإنجيل .

« وأيدناه » : و قوّيناه « بروح القدس » من اضافة الموصوف إلى الصفة اى بالروح المقدّسة المطهّرة و هي روح عيسى ، وصفت بالقدس للكرامة ، لأنّ القدس هوالله . أو الروح جبرئيل و وصف بالطهارة لأنّه لم يقترف ذنباً . وسمّي روحاً لأنّه كان يأتي الأنبياء بما فيه حيوة القلوب . ومعنى تأييده وتقويته به : انّه عصمه من أوّل حاله إلى كبره ، فلم يدن منه الشيطان عند الولادة ورفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله . وكان بين موسى وعيسى أربعة آلاف نبيّ و قيل : سبعون الف نبيّ .

« افكلما جاءكم » : خاطب أهل عصر النبيّ بهذا وقد فعله أسلافهم لأنّهم يتولّونهم و يرضون بفعلهم . و الفاء للعطف علي مقدّر يناسب المقام و التقدير : ألم تطيعوهم فكلما جائكم « رسول بما لاتهوى » ولاتحبّ « انفسكم » ولا يوافق هواكم من الحق « استكبرتم » وتعظّمتم عن الاتّباع له « ففريقاً » منهم : اى من

الأنبياء كعيسى ﷺ ومحمد ﷺ « كذبتم » ونسبتم اليهم الكذب « وفريقاً تقتلون » وقال تقتلون ولم يقل قتلتم لشناعة هذا الأمر ولثبوت عارها عليهم وعلى من بعدهم من أخلافهم ، لأنّهم رضوا ، بل كانوا على هذه النيّة ، بل الفعل لأنّهم حاولوا قتل محمد ﷺ لولا ان عصمه الله وسمّوا الشاة حتّى قال ﷺ عند موته ما زالت أكلة جزر تواجعني ، فهذا اوان انقطاع ابهرى . وهو عرق منبسط في القلب اذا انقطع مات

واعلم : أنّ هوى النفس داء قتّال ، وللنفس صفات سبع كلّها مذمومة : العجب والكبر والرياء والغضب والحسد وحب المال وحبّ الجاه . ولجهنّم سبعة أبواب ؛ فمن زكّى نفسه عن هذه السبع فقد اغلق السبعة ودخل الجنّة . فياحملة الاوزار وحفظة المال المستعار الهيكم حب الرزق عن الرزّاق واشتغلت طول النهار في الصفق بالاسواق ، ياعمّار الخراب وياشرّاب السراب الى متى ؟ وقد قاربت الخمسين ! فاقتصر وقد وهنت ركبتاك وذابت اليتاك ولا عطر بعد عروس ، ماهي إلّا أنفاس تتردّد وستنقطع ، وقامات تتمدّد وتتقوس فتنقطع ، فارغم أنف الشيطان وخالف هواك ؛ الحرص فقابله بالقناعة ، والأمل فاكسر بمفاجاة الأجل ، والتمتّع باللذائذ فقابله بطول الحساب في الموقف الصعب الكبير ، والأنانيّة بالتواضع للفقراء من المؤمنين ، وحبّ المال والبخل فاكسره بالبذل والعطاء حتّى تكون من أهل الورع ، ولا أقلّ من أقلّ درجتهم ، فإنّ درجات الورع اربعة الاولى : من الحرام وهي الدّرجة العامّة . الثانية : ورع الصالحين وهي التي يتطرّق فيها الشبهة ، قال الله : الذين يستمعون القول فيتّبعون احسنه . الثالثة : ورع المتّقين يتورع عن الزينة وأكل اللّذائذ والشهوات مع انّها حلال خيفة ان يجمح النفس ويدعو الى الشهوات المحظورة كالنظر إلى تجمّل أهل الدنيا فانّه يحرّك دواعي الرغبة في الدنيا قال الله : ولاتمدّنّ عينيك الى مامتّعنا به ازواجاً . قال عيسى ﷺ لاتنظروا الى اموال اهل الدنيا فانّ بريق اموالهم يذهب بحلاوة ايمانكم وقد قيل من رقّ ثوبه رقّ دينه الرابعة : ورع الصدّيقين وهو الحذر عن كلّ مالا يراد بتناوله القوّة على طاعة الله او كان قد تطرّق إلى بعض أسبابها معصيته ومن ذلك انّ بشر الحافي كان لايشرب الماء من الأنهار التي حفرها الامراء والسلاطين .

تأمّل في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل : اوصيك بتقوي الله و صدق الحديث و خفض الجناح و الوفاء بالعهد و ترك الخيانة و صلة الارحام و رحمة الايتام ولين الكلام و بذل السلام و حسن العمل وقصر الأمل و التفقّه في الدين و تدبر القرآن و ذكر الآخرة و الحرج من الحساب و كثرة ذكر الموت و لا تسب مسلما ولا تطع آثما ولا ترض بقبيح تكن كفاعله واذكر الله عند كلّ شجر و مدر وبالاسحار وعلى كلّ حال، فان الله ذاكر من ذكره و شاكر من شكره و جدّد لكل ذنب توبةً : السرّ بالسرّ و العلانية بـالعلانية . و اعلم : انّ اصدق الحديث ، كتاب الله . واوثق العرى التقوى . واحسن القصص القرآن . وشرّ الامور محدثاتها . و اعمى العمى الضلالة بعد الهدى . و خير العلم ما نفع . و اليد العليا خـير من يدالسفلى . وما قلّ و كفى خير ممّا كثروالهى . و شرّ المعذرة عندالموت . و شرّ الندامة يوم القيامة . و من اعظم خطايا اللسان الكذب . و خيرالغنى غني النفس . و رأس الحكمة مخافةالله في السرّ والعلانية . و انّ جماع الاثم ، الكذب والارتياب . و النساء حبائل الشيطان . والشباب شعبة من الجنون . وشرّ الكسب كسب الربا . و شرّ المآثم اكل مال اليتيم . وليس لجسم نبت على الحرام الاّ النار . و من تغذّى بالحرام فالنّار اولى له ولا يستجاب له دعاء .

اقول : تأمّل في جوامع كلماته وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم ، جميع مراتب الحكمة النافعة لك في دينك و دنياك ، مثل انّه نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن الشرك الخفى ، وهذاالشرك و ان كان لا يذهب باصل الايمان بان يكون صاحبه مشركاً ويترتّب عليه احكام الكافر ، لكن يقع في حقيقة الايمان عيب و نقص كالذهب المخلوط بالحديد ، فيكون قليل القيمة و ان كان ذهباً . و خفايا معايب الشرك الخفّى كثيرة ، فيطلب صاحبه الشرف و التعزّز من هذا الفعل الشنيع من الناس ، فيعجب بمدح الناس ايّاه و يطلب النفع بسبب هذا الرياء من غيرالله . و يتوسل في دفع الضرر عن نفسه من غيرالله ، مع انّه لا معطى لما منع و لا مانع لما اعطى . و دقائق الرياء و الشرك الخفى خفية جداً ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : الشرك اخفى في امتى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء . فانّ النمل اذادبّ

على التراب ، يرى اثر دبيبه ، خصوصاً في النهار ؛ لكن في الليلة الظلماء لايرى اثر دبيبه على الحجر الاملس ، فانّ النمل اسود والليل اظلم ولا يسمع دبيبه ورؤية الشيء غالباً والعلم به من هاتين القوتين . فاذا عرفت هذا الامر فاينا غير مبتلي بهذه البليّة ولاناتي بهذا الامر الشنيع كلّ يوم مرّات . و لعلك تسمع كلامي فتبادر الى ملامي و تقول : فحينئذ عملنا هباء ؛ فانا اعذرك في ملامتي ، فانّ الفطام عن المعهود شديد والنزول عمّا تلقاه الفتى من آبائه و عاداته صعب جداً ، حقاً كان او باطلاً ، اما ترى هذه الكبيرة العظيمة المنهية في القرآن لمّا شاعت في عادات الناس لا يتخلّص منها الاّ الاقلّون ، بحيث لايعدّون الغيبة من المعاصي مع انها عظيمة وصارت عادة بحيث انّ المغتاب حين اغتيا به اذاراى منك قهقهة ، يعدّ ها قبيحة عظيمة و ينسبك الى الفسق و لايبالى بهذه العظيمة ، فجعلت دينك ما يوافق العادة و عندك الحسن ما وافق عادة الناس و القبيح ما تركته العادة ، لا ما حسّنه العقل ، فيكون معتزليّاً اماميّاً و لا ما حسّنه الشرع فتكون اشعريا بل هذا مسلك جديد خبيث .

« وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ »

« وقالو قلوبنا غلف» : اى اليهود الموجودون في عصر النبيّ ﷺ قالوا قلوبنا غلف ، مستعارمن الاغلف الذى لم يختن اى مغشاة بأغشية جبليّة لا يكاد يصل اليها ماجاء به محمد ﷺ و لا نفقهه ، فرد الله ان تكون قلوبهم مخلوقة كذلك ، لأنّها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ، فاضرب وقال : « بل لعنهم الله بكفرهم» اى خذلهم و طردهم وخلاّهم و شأنهم بسبب كفرهم العارض الّذى اقدموا عليه بسوء اختيارهم وابطالهم الاستعداد الفطرى الاسلامى .

«فقليلا ما يؤمنون» ما مزيدة للمبالغة اى فايمانا قليلا يؤمنون و هو ايمانهم ببعض الكتاب . و الفاء لسببيّة عدم الايمان الموجب للّعن . ثم انّ في القراءة اختلاف ، فقرء بعض ، غلف، بسكون اللام ، فالمعنى على ما بينّاه . وقرء بعض ، غُلُف ، بضم اللاّم كابى عمرو ، جمع غلاف ، فيكون معناه : انّ قلوبنا اوعية للعلم ونحن علماء

فلو كان ما تقوله شيئاً يفهم اوله طائل لفهمناه، اويكون المراد ليس في قلوبنا ماتذكره فلو كان علماً لكان فيها . و يجوز في معنى فقليلا ما يؤمنون : اى فافراد قليلة منهم يؤمنون، كعبدالله بن سلام واصحابه .

و فى الآية ردّ صريح على المجبرة، لأنّ هؤلاء اليهود ادّعوا انّ على قلوبهم، ما يمنع من الايمان ويحول بينها و بينه، فكذبهم في ذلك بان لعنهم و طردهم ولو كانوا صادقين بانّ الله خلق الكفر في قلوبهم و جعله المانع لهم، لما استحقّوا اللعن و الطرد و يلزم انّ الله كلّفهم مالايطاق ـ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً . و ربّك اعلم بمن هوا هدى سبيلا ـ والضلالة والهداية سبيلهما باختيار العبد. وانّ المادة المعبّرة عنها بالهيولى في نفسها خالية عن الحكم لها وعليها من حيث هى هى . و انمّا الاحكام تلحق الصورة، الاترى انّ القلم اذا اصاب مداداً فانّما يلحقه حكم ذلك من غير الحكم بالحسن والقبيح، فاذا كتبت بذلك المداد اسمى ذاتين مختلفين في الخير والشرّ، كان اسم الذات المقدسة حسناً و اسم الآخر سيئاً. وهاك مثالا آخر، وهى حروف الهجاء فانّ الالف لا تدلّ على غير نفسها وليس فيهامعنى غير وجودها، فاذا الّفت من ثلاثة او اربعة، يوجب معنى محدث لم يكن قبل ذلك، كذلك المادّة لا تجرى عليها الاحكام من حيث هى و انما تجرى عليها بالصورة و التأليف، الا ترى انّه اذا نزى حيوان محرم على حيوان محلّل، كان حكم التحليل و التحريم في نسلهما للاسم الذى هو خاصّة الصورة وظاهرها. وتلك الحقيقة تحقّقت وتميّزت بالصورة، فحقق بهذاالبيان معنى الحديث: السعيد سعيد في بطن امّه . والأمّ هى الصورة والمادّة هى الاب وبعبارة اخرى : المادّةهى الوجود والصورةهى الماهية، فالحسن انّماحسن في بطن امّه وكذلك القبيح والحكم لا يتعلق بالمادة و الاّ لتساوت الافراد من الجنس في الحكم، فيكون السرير و الصنم واحداً، لأنّ السرير والصنم من الخشب، فلو كانت الامّ هى المادة، لكان الصنم انّما قبح لكونه من الخشب و لم يقل به احد و كان يقال : السعيد سعيد في صلب ابيه . و من شأن العاقل ان ينتقد نفسه و يتأمّل انّ الشيطان من اىّ طريق افسده، مثل انّ بعض الحمقاء بسبب هذاالحديث قالوا : السعادة والشقاوة من المقدرات

و اذا كان كذلك ، فما الفائدة في العمل ؛ و عطّلوا العمل و هذا غلط، لأنّ الله امركم بالعمل ، قال : اعملوا و كل ميسّر لما خلق له . فاطع حتى تكون سعيداً ، و لا تعص حتى تكون شقيّاً . و بعض اخر من الحمقاء افسده الشيطان و يقول ان الله غنيّ عنّي وعن عبادتي وليس له حاجة الى عبادتنا . وهذا جهل ، نعم ان الله غنيّ عنك ، لكن انت تحتاج الى العبادة ، قال الله : ومن تزكّى فانّما يتزكّى لنفسه . و قال : ومن عمل صالحاً فلنفسه . وهذا الكلام يشبه مريضاً يصف له الطبيب دواء فيقول المريض ما ينفع الطبيب اذا ما شربت الدواء ! ، و طبقة اخرى من الناس يتجاوزون من حدود الشرع معتمدين على رحمة الله وكرمه ، مع انّه اذا جاع لا يشبع الا بالاكل . وكذا لا يبرء من مرضه الّا بعد شرب الدواء وهو كريم لكن لا تخرج حبّة من الحنطة الّا بعد مشقّة الحرث والسقى والمدة والعدة وهو كريم وشديد .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ »

« **ولما جاءهم كتاب** » كائن « **من عند الله** » وهو القرآن - ووصفه بقوله من عند الله ، للتشريف « **مصدق لما معهم** » : اى موافق للتوراة في التوحيد و النبوّات - والمصدق به مايدل عليها من العلامات من بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم - و ليس المراد انّ القرآن مصدق تمام احكام التوراة وشرائعها ، بل القرآن نسخ اكثرها « **وكانوا من قبل** » من قبل مجيء محمد صلى الله عليه وآله وسلم « **يستفتحون على الذين كفروا** » اى يستنصرون به على مشركي العرب و كفّار مكّة ويقولون : اللهمّ انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، الذي نجد نعته في التوراة . ويقولون لأعدائهم : ننتظر زمان نبيّ يخرج بتصديق ماقلنا ، فنقتلكم معه قتل عاد وارم .

« فلما جاءهم ماعرفوا » من الكتاب بمجيئه و نعوته « **كفروا به** » حسداً وحرصاً على الرياسة . وغيّروا صفته وهو جواب ، لما ، الاولى والثانية ، تكرير للاولى « **فلعنة الله على الكافرين** » : اى عليهم ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنّ

اللعنة لحتمتهم لكفرهم . والفاء للدلالة على ترتيب اللعنة على الكفر . واللعنة في حقّ الكافر: الطرد والابعاد من الرحمة والجنّة على الاطلاق وفي حقّ العاصين والمذنبين من المؤمنين ، الابعاد من الكرامـة التي وعد بها من لايكون في ذلك الذنب مثل لعنـة المحتكر وأمثاله .

«بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ»

ثمّ ذم الله تعالى اليهود بايثارهم الدنيا على الدين فقال « **بئسما** » اى بئس شيئا باعوابه انفسهم، ما ، نكرة منصوبة تميز ـ والمميز لايكون إلّا نكرة ، الا ترى انّ احداً لا يقول عشرون الدرهم، كقولك: نعم رجلا زيد ـ مفسرة لفاعل بئس وتقديره بئس الشيء شيئاً « **اشتروا** » بمعنى باعوا « **به** » اى بذلك الشيء « **انفسهم** » المراد ، الايمان وحاصل المعنى : انّهم باعوا ايمانهم بكفرهم ، لأنّ الذي حصلوه على منافع انفسهم لما كان هو الـكفر ، صاروا بائعين انفسهم بـذلك و بذلوا الانفس به . و المخصوص بالذمّ، قوله « **ان يكفروا بما انزل الله** » : فبيّـن سبحـانه تفسير ما اشتروا به انفسهم بقوله : ان يكفروا بمـا انزل الله ـ والمراد كفرهم بالقرآن ، لأنّ الخطاب الى اليهود و كانوا مؤمنين بالتوراة ، ثمّ بيّـن الوجه الذي اختاروا الكفر بما أنزل الله ، فقال : « بغياً » اى علّة كفرهم ، البغي والحسد ، لأجل « **ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده** » و ذلك لانّهم طمعوا انّ هـذا الفضل العظيم بالنبوّة المنتظرة يحصل لهم و لقومهم ، فلماّ و جدوه في العرب حملهم ذلك على البغي و الحسد ـ و الله اعلم حيث يجعل رسالته ـ

« **فباء وا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين** » : اى احتملوا بغضب على غضب مترادف و لعنة اثر لعنة حيثما اقترفوا كفراً على كفر ، مثل تكذيبهم عيسى عليه السلام وماانزل عليه ، وتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وآله و كذلك عبادتهم العجل . و قولهم : انّ الله فقير و نحن اغنياء. و قولهم : يدالله مغلولة ، فدخلوا في سبب بعد سبب . و

الكافرين :اي لهم عذاب مهين مقرون بالاهانة و الذلّ . وفيه اشعار بانّ عذاب المؤمنين ، تاديب وتطهير . و عذاب الكفّار، اهانة و تشديد . و ذلك كله لحبهم الدنيا لشهواتهم.

قال عيسى : عليه السلام لايستقيم حب الدنيا و الآخرة في قلب مؤمن ، كما لايستقيم الماء والنار في إناء واحد .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اتّقوا الدنيا فانّها اسحر من هاروت و ماروت ، ارضوا بدنىّ الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضى اهل الدنيا بدنىّ الدين مع سلامة الدنيا .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : انّ الله لم يخلق خلقاً ابغض اليه من الدنيا و انّه لم ينظر اليها منذخلقها . و القرآن مشحون من ذمّ الدنيا و ذمّ اهلها ، مثل قوله تعالى: فامّا من طغى و آثر الحيوة الدنيا . و مثل قوله تعالى : ذلك بانّهم استحبّوا الحيوة الدنيا على الآخرة .

مثال الخلق في الدنيا ، كمثال قوم ركبوا في السّفينة فانتهت بهم الى جزيرة ، فامرهم الملاّح الى الخروج لقضاء الحاجة و خوفهم المقام ليغرقوا فيها ، فبادر بعض و قضى حاجته ورجع الى السفينة ، فوجد مكاناً خالياً واسعاً ووقف بعضهم ينظر في ازهارها و نغمات طيورها ، فرجع الى السفينة ، فلم يجد الا مكاناً ضيّقاً واكبّ بعضهم على تلك الاصداف والاحجار اذا اعجبه حسنها ، فلم يقدر على رميها ولم يجد لها مكاناً ، فحملها على عنقه و هو ينوء تحت ثقلها . وولج بعضهم الرياض و نسى المركب واشتغل بالتفرّج في تلك الازهار و التناول من تلك الثمار و هى في تفرّجه غير ملتفت الى النكبات ، فلمّا رجع الى السفينة ، لم يصادفها ، فبقى على الساحل ، فافترسته السباع والهوام ، فهذه صورة مثال الخلق في الدنيافتأمّل .

«وَ اِذا قيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما اَنْزَلَ اللّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما اُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ» :

بيان لنوع آخرمن قبائح افعالهم « **و اذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله**» : اى و اذا قال اصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله : ليهود اهل المدينة و من حولها آمنوا بما انزل الله من الكتب الالهيّة جميعاً «**قالوا نومن**» : اى نستمرّ على الايمان «**بما انزل علينا**» : يعنى التوراة «**و يكفرون بماوراءه**» : يريد الانجيل و القرآن و ما سوى التوراة من الكتب المنزلة «**و هوالحق**» اى و الحال انّ ماوراء التوراة هو الحق ، يعنى القرآن «**مصدقا لما معهم**» اى حالكون القرآن موافقاً للتوراة و فيه ردّ لمقالتهم لانهم اذا كفروا بما يوافق التوراة ، فقد كفروا بالتوراة «**قل**» يامحمد تبكيتاً لهم من جهة الله لبيان التناقض ، بين اقوالهم و افعالهم «**فلم**» اصله لما ، لامه للتعليل دخلت على ، ما ، التىّ للاستفهام وسقطت الالف ، فرقاً بين الاستفهامية والخبريّة «**تقتلون انبياء الله من قبل**» : صيغة الاستقبال لحكاية حال الماضى وهوجواب شرط مقدر : اى قل لهم ان كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون ، فلاىّ شيئ تقتلون انبياءالله من قبل وهو فيها حرام و اسند فعل الاباء ، الى الابناء ، لرضا هم بفعل ابائهم و الآية دليلٌ على انّ من رضى بالمعصية : فكانّه فاعل لها ، لانّ اليهود كانوا راضين بقتل ابائهم ايّاهم ، فسمّاهم الله قاتلين «**ان كنتم مؤمنين**» : جواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه اى ان كنتم مؤمنين ، فلم تقتلونهم و هو تكرير للاعتراض وتشديد للتهديد .

(وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ اَنْتُمْ ظالِمُونَ)

من تمام التبكيت و التوبيخ واللام للقسم «**ولقد جاءكم موسى بالبينات**» اى بالله قد جاءكم موسى ، ملتبساً بالمعجزات الظاهرة ، من العصا واليدو فلق البحر و نحوه «**ثم اتخذتم العجل من بعده**» الها من بعدمجيئى موسى بها «**و انتم ظالمون**»

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »

« و اذ اخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور » التكرار في هذه البيانات و أمثالها لايجاب الحجّة على الخصم . و المعنى اذكروا وقت أخذنا العهد و رفعنا فوقكم الجبل قائلين لكم:

«خذوا ماآتيناكم بقوة واسمعوا» : اى اعملوا بما امرتم به في التوراة و اسمعوا مافيها سمع طاعة وقبول « قالوا» : استيناف مبنيّ على سؤال سائل كأنّه قيل فماذا قالوا ؟ فقيل قالوا : « سمعنا » قولك « وعصينا » امرك و لولا مخافة الجبل ما قبلنا في الظاهر ، فإذا كان حال اسلامهم هكذا ، فكيف يتصوّر من اخلافهم الايمان .

« و اشربوا في قلوبهم العجل » بيان لمكان الاشراب ، اى حلّ حبّ العجل محلّ الشراب و اختلط به كما خلط الصبغ بالثوب : اى جعلوا شاربين حبّ العجل ، نافذاً في قلوبهم نفوذ الماء « بكفرهم » اى بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل : كانوا مجسّمة و حلوليّة ولم يروا جسماً أعجب منه ، فتمكّن في قلوبهم ما سوّل لهم السامريّ . وفي القصص انّ موسى عليه السلام لما خرج إلى قومه ، أمر أن يبرد العجل بالمبرد ، ثمّ يذرى في النهر ، فلم يبق نهر يجري يومئذ إلّا وقع فيه منه شيء ، ثمّ قال لهم اشربوا منه ، فمن بقى في قلبه شيء من حبّ العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه .

« قل بئسما يامركم به » : اى بئس شيئاً يأمركم بذلك الشيء « ايمانكم » بما انزل اليكم من التوراة .

وحاصل المعنى أنّه قل يامحمّد صلى الله عليه و آله وسلم لهؤلاء اليهود ، بئس الشيء الذي يأمركم به ايمانكم من حبّ العجل وقتل انبياء الله والتكذيب بكتبه بزعمكم انكم مصدقون

بالتوراة وتدعون بقولكم : نؤمن بما انزل علينا . و ليس المعنى أنّهم اشربوا حبّ العجل ، جزاء على كفرهم ، لأنّ محبّة العجل كفر قبيح و الله تعالى لا يفعل الكفر في العبد ، لا ابتداءً ولا جزاءً ، بل دعاهم إلى حبّ العجل ، السامريّ ، و زيّنه في قلوبهم . وقول من قال : فعل الله ذلك لهم ، عقوبةً ومجازاةً على كفرهم ، غلط فاحش ـ تعالى الله عمّا نسبوا إليه من هذه الأمور وأمثالها ـ وفي اسناد الامر الى الايمان تهكم واضافة الايمان اليهم للايذان بأنّه ليس بايمان حقيقة كما ينبيء عنه قوله « **ان كنتم مؤمنين** » بالتوراة وإذا لا يسوغ الايمان بها مثل تلك القبائح ، فلستم بمؤمنين. وفي هذا نفي عن التّوراة ان يكون يأمر لشيء يكرهه الله و اعلام بأنّ الّذي يأمرهم بذلك اهواءهم .

إعلم : أنّ اعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن تظهر في الخارج على الجوارح بعضها معفوّة وبعضها غير معفوّة ، فأوّل ما يرد على القلب هو الخاطر ، فيخطر بباله الشيء وتهيج رغبته اليه ، فالأوّل حديث النفس ، والثاني هو رغبة النفس ، يسمّى الميل ثمّ يحكم القلب بانّ هذا ينبغي ان يفعل وهذه الدرجة الثالثة ، ثمّ يعزم على الفعل ، فهذه اربعة احوال قبل العمل بالجارحة ، فخاطر وميل و اعتقاد وعزم ، فالخاطر لا يؤاخذ به وكذلك الميل لأنّه لا يدخل تحت الاختيار وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : عفي عن امّتي ما حدّثت به انفسهم . والثالث وهو الاعتقاد ؛ فهذا يؤاخذ به اذا كان اختياريّاً وإلّا فلا . والعزم على الفعل فانّه يؤاخذ به ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المتقاتلين : انّ المقتول في النار ، لأنّه كان حريصاً على قتل صاحبه وهذا نصّ في أنّه من اهل النار بالعزم ، قال الله : انّ السمع و البصر و الفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا . وفي عبارات الشيخ البهائي والأنصاري في مبحث التجرّي بيانات في أهوائهم وقلوبهم . وارض القلب لا ينبغي افسادها واعظم اسباب فسادها التحريف ولو في الجملة ؛ فانّ الشرايع سنن موضوعة بين العباد فاذا تمسّك الخلق بها زال العدوان ولزم كلّ أحد شأنه فحقنت الدماء وضبطت الاموال وحفظت الفروج ، فكان ذلك صلاح الدنيا وصلاح القلوب . امّا اذا حرفت الشريعة اواهملت ، فيقدم كلّ احد على مايهواه ، فيظهر الفساد في البرّ و البحر ومن اعظم

اسباب فساد القلوب اظهار مقامات دينيّة بقول اوعمل ظاهري، اوتكلف حال لايوافقه القلب مظهراً له على صورته الواقعيّه، تلبيساً على نفسه، اوعلى الناس ومحدثون عادات غير موافقة للشريعة والطبيعة، مجبولة على التقليد و متابعة افعال ابناء نوعه وهذه مفسدة لاحوال القلب وهو لايحسّ بها كيف انقلبت قلبه النهاية وانّه يقتصر على امور ظاهرها عبادات وباطنها عادات ولايطلب حقائق الايمان والاخلاص والتوجّه التامّ في الأعمال الخفيّة التي لايطلع عليها إلّا الله.

« **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا** »

« **الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** »

« **قل** » لهم ياخير الأنبياء « **ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله** » ان صح قولكم ان لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً وانّ الجنّة لكم « **خالصة من دون الناس** »: خاصّة بكم من دون محمّد وأصحابه « **فتمنوا الموت** »: فاسئلوا الموت بالقلب واللسان، فانّ من ايقن بدخول الجنّة اشتاق اليها وتمنّى سرعة الوصول الى النعيم والتخلّص من دار الكدّ والتعب وقرارة الاكدار لأنّه لاسبيل الى دخولها الا بعد الموت، فاستعجلوه « **ان كنتم صادقين** » ومؤمنين والمؤمن ينبغي ان يكون فعله مصدّقا لقوله. وأصل الايمان افراد القديم عن الحدوث ونفي الشريك مطلقا، ثمّ الامتثال لأوامره تعالى، فاذا حصل هذا المعنى فقد تمّت السعادة.

قال رسول الله ﷺ: لما دخل على يعقوب ﵇، بشير يوسف ﵇ و بشّره بحياتة، قال له يعقوب ﵇: على ايّ دين تركته، قال: على دين الاسلام، قال يعقوب ﵇: قد تمّت النعمة على يعقوب.

واعلم يا أخي، انّ اصل الاصول ومناط القبول ومكفّر الخطايا و مستجلب العطايا، التوحيد. قال صاحب تفسير روح البيان، المولى اسماعيل الحقّي: حكى انّ رسول الله كان يحب اسلام دحية الكلبي، لأنّه كان تحت يده سبعمائة من أهل بيته و كان مطاعاً عندهم و كانوا يسلمون باسلامه ولذلك كان ﷺ حريصاً على اسلامه و كان

يقول : اللهمّ ارزق دحية الاسلام ، فلما اراد دحية الإسلام ، اوحى الله الى النبي ﷺ بعد صلوة الفجر ، ان: يامحمد انّ الله يقرؤك السلام ويقول : إنّ دحية يدخل عليك الآن. وكان في قلوب الأصحاب شيء من دحية ، من وقت الجاهليّة ، فلمّا سمعوا ذلك ، كرهوا ان يمكّنوا دحية فيما بينهم ، فلمّا علم ذلك الرسول ﷺ كره ان يقول لهم مكّنوا دحية ، و كره ان يدخل دحية ، فيوحّشوه ، فيبرد قلبه عن الإسلام ، فلمّا دخل دحية المسجد ، رفع النبيّ ﷺ ردائه عن ظهره و بسطه على الأرض بين يديه فقال لدحية: هيهنا ـ واشار الى ردائه ـ فبكى دحية من كرم رسول الله ﷺ ورفع ردائه وقبّله وو ضع على رأسه وعينيه وقال : ما شرائط الاسلام ، اعرضها عليّ . فقال ﷺ : ان تقول اوّلاً ، لااله الّا الله ، محمد رسول الله . فقال دحية ذلك ، ثمّ وقع البكاء على دحية . فقال ﷺ : ماهذا البكاء وقد رزقت الاسلام . فقال : انّي ارتكبت خطيئة وفاحشة كبيرةً ، فقل لربّك ، ماكفّارته ، ان امرني أن أقتل نفسي ، قتلتها وان امرني ان اخرج من جميع مالي ، خرجت ، فقال : ﷺ : وماذلك يادحية ، قال : كنت رجلا من ملوك العرب واستنكفت ان تكون لي بنات ، لهنّ ازواج ، فقتلت سبعاً من بناتي كلّهنّ بيدي ، فتحيّر النبيّ ﷺ في ذلك حتّى نزل جبرئيل ، فقال : يامحمّد انّ الله يقرؤك السلام ويقول : قل لدحية : و عزّتي وجلالي ، انّك لما قلت : لا إله إلّا الله غفرت لك كفر ستّين سنة وسيئات ستّين سنة ، فكيف لااغفر لك قتل البنات . فبكى ﷺ واصحابه . فقال ﷺ : إلهي غفرت لدحية قتل بناته بشهادة أن لا إله إلّا الله مرة واحدة ، فكيف لاتغفر للمؤمنين بشهادات كثيرة و بقول صادق و بفعل خالص .

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

« **ولن يتمنوه ابدا** »: لن ، تأييد للنفي، اى لايتمنّوا الموت، هؤلاء اليهود ،ابداً « **بماقدمت ايديهم** » : لحرصهم على الحيوة ، لأجل استدراك شهوات أنفسهم وبسبب كثرة معاصيهم ومخالفتهم في دينهم « **والله عليم بالظالمين** » : والله عالم بظلمهم في حقّ أنفسهم ومخالفتهم في كتابهم .

فيا مغرور لو نصحك ناصح ، لم ترتكب الكبائر وتعين على الظلم ، تعتل بالضرورة مع أنّ الضرورة لو كانت صادقة فبقدر الضرورة . ماأشبه عذرك بعذر الشارب المدّاح فما رعيت حقّ رعايتها وأدنى مراتب الرعاية أن يصون العبد نفسه من المخالفة عمّا كتب الله عليه من الأعمال و أعلاها أن يقف في سيره مع كلّ خطوة حتّى يصحّحه ويخرج عن عهدة ما عليه في تلك الخطوة من الآداب وينسب هذا التوفيق إلى الله لامن فعل نفسه ولايخلو من هذه الملكة ساعة واحدة ، قال الله سبحانه : ومن يعظّم حرمات الله فهوخيرله عند ربّه : والمراد من الحرمات التحرج والتجنّب عن المخالفات و الامتثال باتيان الأوامر ، على سبيل التعظيم و الرغبة و الميل ، لا على سبيل الكره ، فانّ العبد الكامل إذا عرف عظامة الله ، يعبده طوعاً ، ولا يعبده عبادة العبيد كرهاً ، إذ لولا خوفه من العقوبة ، لم يعبده ، ولولا طمعه المثوبة ، لم يعمل فهواجير ، يعمل للاجرة فهوعبدالاجرة ، لاعبد سيّده، فان الاجرة إنّماهي مطلوبة لمصلحة النفس و نفعها وراحتها ، فعبادته إنّماهي لنفع نفسه ، لكن لما كانت الطبقة العامّة لايقدرون ان يأتوا بمثل هذه العبادة ، فهم محكومون ان يعبدوا بالظاهر المتعارف ، من مفاد ظاهر الكتاب و السنّة وتلك العبادة الكاملة للأولياء الخاصّة ، كما قال امير المومنين عليه السلام : ماعبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً فى جنّتك ، بل وجدتك اهلاً للعبادة . لكن فليعلم الطبقة العامّة انّهم محكومون ان يعبدوا بالشروط المقرّرة في الكتاب والسنّة ، لاان يتسامحوا فيها من ادابها المفروضة واوّل ادب العبادة ، الأخلاص ، وهو تصفية العمل من كلّ شوب ولو من الألف جزء واحد ومن كمال الخلوص ان لايعتدّ بعمله ، بل يرى العامل ، عمله محض الموهبة ، أجراه الله على يده ولا يرى نفسه مستحقّاً للثواب ، فانّه لاحول ولا قوّة إلّا بالله و يكون خجلا من عمله ، ، مع بذل المجهود خوفاً من القصور بحقّ العبوديّة ، لأنّه عبدلسيّده ، مأمور بالاخلاص عن النقصان والشوائب واحتمال النقيصة والقصور كاف لخجله والعبد اذا ماهذّب عمله عن الشوب و النقصان ، يحرم الخير الكثير ولا يكون له استقامة في الخدمة ويحصل له تلوّن ، فيغلب الجسم

الروح و الهوى العقل و ينتكس الامر ولا ينبعث له ذوق في العبادة و الخدمة ، بـل يحصل له فتور .

قال النبي ﷺ : آفة العبادة ، الفترة يمرض القلب شيئاً فشيئاً ، إلى أن يكره العبادة ويزيد إلى أن يصل الى درجة المنافقين ، قال الله تعالى : وإذا قاموا إلى الصلوة قاموا كسالى . وهذا المرض بسبب التلوّن وعدم الاستقامة ولهذا شبّهوا الاستقامة بالرّوح الذي يتقوّى به البدن ، فاذافارق الروح البدن يتلاشى و يفنى . و الاستقامة على ما امر به من نهج السنة ولا يخترع من عند نفسه عبادة ، فيقع في الشيطنة ويحرم بركة المتابعة .

« وَ لَتَجِدَنَّهُمْ اَحْرَصَ النَّاسِ عَلٰى حَيٰوةٍ وَ مِنَ الَّذِيْنَ اَشْرَكُوا يَوَدُّ اَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ اَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ اَنْ يُعَمَّرَ وَ اللّٰهُ بَصِيْرٌ بِمَا يَعْمَلُوْنَ »

(ولتجد نهم) : و لتعلمنّ يا محمد ﷺ من الوجدان العقلى و هو جار مجرى العلم ، خلا انّـه مختص بما يقع بدالتجربة و نحوها عليه . واللام لام القسم ، اى والله تجدن اليهود يا محمد ﷺ **(احرص الناس على حيوة)** : لايتمنّون الموت . والتنكير للنوع و هى حياتهم التى هم فيها ، لأنّها نوع من مطلق الحيوة **(ومن الذين اشركوا)** اى انّ اليهود احرص على الحيوة من سائر الناس و من الـذين اشركوا ، قيل هم مشركو العرب و قيل هم المجوس ، لانّهم كانوا يحبّون ملكهم عش الف نيروز و الف مهرجان والمهرجان يوم الاعتدال الخريفى ، كماان النيروزيوم الاعتدال الربيعى و هذا كقولك : زيداسخى الناس و اسخى من هرم بن سنان .

(يود احد هم لو يعمر الف سنة) : بيان لزيادة حرصهم ، اى يريد و يتمنّى ويحبّ احد هؤلاء المشركين ان يعطى البقاء والعمر الف سنة. ولو، فيه معنى التمنّى والمجوس هم القائلون بيزدان واهرمن والنور والظلمة والخير والشر .

(و ما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر) ، اى ما احَد هم من يزحزحه من النار تعميره والزحزحة ، التبعيد . و ، با ، زائدة للتاكيد و ان يعمّر ، فاعل مزحزحه .

(والله بصير بما يعملون) البصير : العالم بكنه الشيء ، اى عليم بخفيّات اعمالهم .

قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : طوبى لمن طال عمره وحسن عمله و من احبّه للفساد فقد ضلّ ولاينجوممّا يخاف ، انتهى . ومعلوم ان الموت ينزل على كل نفس ، راضية كانت ، او كارهةً ، روى شارح الخطب عن وهب بن منبه انّه قال : مرّ دانيال ببرية ، فسمع يادانيال قف ترعجباً ، فوقف فلم يرشيئاً ، ثم نودى الثانية ، قال فوقفت فظهرلى بيت يدعوني الى نفسه ، فدخلت فاذا سرير مرصّع بالدر والياقوت ، فاذا النداء من السرير اصعد يا دانيال ترعجباً ، فارتقيت السرير ، فاذا فراش من ذهب مشحون بالمسك و العنبر ، فاذا رجل عليه ميت ، كانّه نائم و عليه من الحليّ و الحلل مالا يوصف و فى يده اليسرى خاتم من ذهب و درّ و فوق رأسه تاج وعلى منطقته سيف اشدّ خضرةً من البقل ، فاذاالنداء من السرير ، ان احمل هذا السيف واقرء ماعليه ، قال فاذا مكتوب عليه : سيف صمصام من عوج بن عنق بن عاد بن ارم و انّى عشت الف عـام وسبعمأة سنة و افتضضت اثنى عشر الف جارية وبنيت اربعين الف مدينة و خرجت بالجور و العنف عن حدّ الانصـاف و كان يحمل مفاتح الخزائن اربعمائة بغل و كان يحمل الى خراج الدنيا، فلم ينازعنى احد من اهل الدنيا ، فادعيت الربوبيّة ، فاصابني الجوع حتّى طلبت كفّا من ذرُة بالف قفيز من درّ فلم اقدر عليه ، فمتّ جوعاً ، يـا اهل الدنيا اذكروا الموت كثيراً واعتبروابي و لاتغرّنكم الدنيا كما غرّتنى ، فانّ اهلى لم يحملوامن وزرى شيئاً .

قيل لكعب الاحبار : يا كعب حدّ ثنا عن الموت . قال : هو كشجرة الشوك ، ادخلت فى جوف ابن آدم فاخذت كلّ شوكة بعرق ثمّ اجتذبها رجل قوى شديد

الجذب ، فقطع ما قطع وابقى ما ابقى. وفي الحديث : لوانّ شعرةً من وجع الميت وضعت على اهل السماوات والارضين ، لماتوا اجمعين . وان فى القيامة لسبعين هولاً وانّ ادنى هولها ليضعف على الموت سبعين ضعفاً . فعلى القلوب القاسية ان يعالجوا قلوبهم بحضور مجالس العلم و المواعظ و مشاهدة المحتضرين و ذكر الموت و شدائده .

فاستعد ليوم رجوعك و القلب القابل لان يكون عرش الرحمن ، لاتجعله للذّة الفانية عرش ابليس ومربع الشيطان. واعلم انّ كل ماخلق ، خلق لاجل حكمة ومامر به وما نهى عنه لبقاء تلك الحكمة و حصولها و هذا القانون المنزل فائدته بقاء تلك الحكمة و حصولها ، فلا تفتهم فيختلط امر المعاش و المعاد ، فاذا جاوزت ذرّةً من ذلك القانون ، فبقدر التجاوز فسدت و نقصت الحكمة وهلّم جرّا فكلّ ادب من ادابه من فعل تركته ، اوترك فعلته يوجب نقصاً فى حاشية دينك ، بل دين غيرك و غيّرت حكمة الله و لقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من اصحابه كذبةً فما ينجلى من صدره حتّى يعلم انّه احدث توبة منها و تطهّر من تلك القذرة الباطنية واستقصاء الانسان فى الطهارة الباطنية واجب كالنجاسات الظاهرة فانّك تنكر على الشخص لوداس الارض حافياً على فراشك ولاتبالى من مستقذرات باطنك و مهما لم ينقّ الانسان باطنه من الخبائث ، لم ينتفع من ايمانه و عباداته و لم يظهر اثرها ، فانّ الذى مشتغل بالبئر والبالوعة و هوملوّث كيف يتمكّن من الورود على الملك و يظهر هذه القذارات الباطنية على الجسم لمتابعة الهوى لامادة الهوى وقد جبّل عليه والنبى ﷺ ما استعاذ من الهوى ولكن استعاذ من متابعته فقال : اعوذبك من هوى متبّع و شحّ مطاع و لم يستعذ من وجود الشحّ ، فانّه طبيعة النفس ولكن استعاذ من طاعته . و معرفة دقائق متابعة الهوى ، على قدر صفاء القلب و قلّة التلوث ، فانّ كثير التلوث لايصل له هذه المعرفة ، فانّه قديكون ، يتبّع باستحلاء معاشرة الخلاّن ، اوالتجوز فى الامور المباحة كالاكل و النوم و النكاح و هولايشعر بانّه متبّع الهوى ، و لايعلم المسكين انّه مادام حبّ عليه ان ينزع نفسه عن متابعة الهوى ، فانّ النفس دائماً

يشتهى هواها و نافرة عن العبودية و العبادة بسبب طلب الراحة وهيهات من هذه الفراغة الا بعد الموت . قال الله تعالى : و نهى النفس عن الهوى. ولكن اين انت من نهى النفس و ما عرفت فى ايام عمرك الا اتعاب السن و النوم فى الظلال و الكن و قدبنى على الهوى طبعك و غرس على محبتها نبعك مع ان طارف الدنيا و تليد ها نسج العناكب وضوء الحباحب فاستقبل الموت قبل هجومه ، فلعله قرب ابان نجومه ، فان ضر الذنوب سموم قاتلة و حجاب بين العبد و الرب و الحجاب اذا غلظ لايرى من ورائه شئ و من شرب السم فليبا در فى القئ والايهلكه .

(قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجبرِيلَ فَانَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِاذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِمابَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤمِنِينَ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِلّهِ وَمَلائكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَميكالَ فَانَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ)

بيان اخر من قبائح اليهود و هذا الكلام لابد له من سبب و هو انه لما قدم صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ، اتاه عبد الله بن صوريا ، فقال يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : كيف نومك فقد اخبرنا عن نوم النبى الذى يجيء فى اخر الزمان ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : تنام عينى و لاينام قلبى . قال: صدقت يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاخبرنى عن الولد، اى عضو من الرجل و اى من المرأة ، فقال : اما العظام و العصب و العروق فمن الرجل واما اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة ، فقال : صدقت ، فمابال الرجل يشبه اعمامه دون اخواله ، اويشبه اخواله دون اعمامه ، فقال ، ايهماغلب ماؤه ماء صاحبه ، كان الشبه له ، قال : صدقت ، فقال : اخبرنى اى الطعام حرم اسرائيل على نفسه ففى التوراة ان النبى الامى يخبرعنه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : انشدكم بالله الذى انزل التوراة على موسى هل تعلمون ان اسرائيل مرض مرضا شديدا ، فطال سقمه ، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن على نفسه احب الطعام والشراب وهولحمان الابل والبانها ، فقالوا : نعم ، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم:

بقيت خصلة واحدة ان قلتها امنت بك : ای ّ ملك یاتیك بماتقول عن الله ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): جبرئیل ، قال انّ ذلك عدونا ، ینزل بالقتال والشدّة ورسولنا میکائیل ، یاتی بالبشر والرخاء ، فلو کان هوالّذی یأتیك ، امنّابك ، فقال عمر : وما مبدأ هذه العداوة ؟ فقال ابن صوريا : انّ اوّل هذه العداوة انّ الله تعالى ، انزل على نبيّنا ، انّ بيت المقدس سيخرب فی زمان رجل يقال له بختنصر ووصفه لنا ، فطلبناه فلّما وجدناه بعثنا لقتله رجالاً ، فدفع عنه جبرئيل وقال ان سلّطكم الله على قتله ، فهذا ليس هوذاك الّذی اخبر الله عنه : انّه سيخرب بيت المقدس ،فلافائدة فی قتله ، ثم انّه کبر و قوی وملك و غزانا وخرّب بيت المقدس وقتلنا ، فلذلك نتخذّه عدوّا وامّا ميكائيل فانّه عدوّ جبرئيل! فانزل الله هاتين الايتين .

(**قل من كان عدواً لجبريل**) و جواب « من » محذوف ، ای يكون عدوّاً لله: (**فانه**) يعنی جبرئيل(**نزله**) ای القر آن ، اضمره لوضوحه و كمال شهرته (**على قلبك**) بيان لمحلّ الوحی ، فانّه القابل الأوّل ومدارالحفظ والفهم ، وحقّ صورة الكلام ان يقال : على قلبی ، لكنّه جاء على حكاية قول الله (**باذن الله**) و امره و تيسيره (**مصدقاً لمابين يديه**) حال كون القرآن موافقاً لما قبله من الكتب الالهيّة من معارف التوحيد و بعض الشرايع (**وهدى**) الى دين الحقّ (**و بشرى**) ومبشّراً بالجنّة مصدر بمعنى الفاعل (**للمؤمنين**) فحينئذ لاوجه لمعاداته فلوانصفوا ، لاحبّوه و شكروا له صنيعه فی انزاله ما ينفعهم .

فالمؤمن يشكر والفاسق يكفر ، قال الجنيد : الشكران لاتستعين بنعمه على معاصيه ، فنعمة ادراكك تصرفها فی الدهاء وقواك فی المعاصی ومالك فی اللهو ، فمن لامك فی معصية و نهاك عنها ، فشكر هذه النعمة ان تحبّه لاان تبغضه .

(**من كان عدوالله**) و مخالفاً لامره (**وملائكته ورسله وجبريل و ميكال**) افردهما بالذكر لاظهار شرفهما ، قال عكرمه : جبر ، و ميك ، و اسراف ، هی العبد بالسريانيّة ـ وايل و آميل ، هوالله ومعناهاعبدالله وعبدالرحمن قال الرازی فی المفاتيح:

قرء ابن كثير ، جبرئيل بفتح الجيم و كسر الراء من غير همزة والكسائي وابو عمرعن عاصم بفتح الجيم والراء مهموزاً والباقون بكسر الجيم والراء ، غيرمهموز على وزن قنديل و فيه سبع لغات ، ثلاث منها ما ذكرناها و جرائل على وزن جراعل و جرائيل على وزن جراعيل و جرايل على وزن جراعل و جراين بالنون ومنع عن الصرف للتعريف والعجمة .

(فان الله) جواب الشرط ولم يقل فانّه ، لاحتمال ان يعود الى جبرئيل وميكائيل (عدو للكافرين) اى لهم ، جاء بالظاهر ليدلّ على انّ الله انّما عاداهم لكفرهم

(وَلَقَدْ اَنْزَلْنا اِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها اِلاَّ الْفاسِقُونَ)

فقال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد تلك السؤالات ، ما جئتنا بشيء نعرفه و ما انزل عليك من آية فنتّبعها ، فانزل هذه الايه : **(ولقد انزلنا اليك آيات بينات)** اى و بالله قد انزلنا اليك ايات و اضحة الدلالة على معانيها و على كونها من عندالله، **(وما يكفر بها الا الفاسقون)** : و ما يكفر بهذه الايات الّا المتمردون فى الكفر، الخارجون عن حدوده .

(اَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لايُومِنُونَ)

(**او**) الهمزة للانكار و الواو للعطف على مقدّر يقتضيه المقام اى اكفروا بالبيّنات و «**كلماعاهدوا عهداً**» اراد به العهد الّذى بلغهم الانبياء ، ان يؤمنوا بالنبىّ الامىّ ، اوالعهود التّى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين اليهود ، فنقضوها لفعل قريظة و النضير عاهدوا ان لايعينوا عليه احد ، فنقضوا ذلك و اعانوا عليه قريشاً يوم الخندق «**نبذه فريق منهم**» جماعة منهم «**بل اكثرهم**» اى اكثر المعاهدين «**لايومنون**» و لايعود الضمير الى فريق، لأنّ الفريق النابذة كلّهم غير مؤمنين، لكن من المعاهدين من آمن كعبد الله بن سلام و كعب الاحبار و غيرهما و قرء

ابو السمال او ، بسكون الواو على انّ الالف و اللام في الفاسقون بمعنى الّذين ، فيكون المعنى : و ما يكفر بها الّا الذين فسقوا او نقضوا عهدالله مراراً.

« وَلَمّا جاءَهُم رَسُولٌ مِنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُم نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ اُوتُوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِم كَاَنَّهُم لايَعلَمُونَ »

«ولما جائهم» : ولمّا جاء اليهود الّذين كانوا فى عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم **« رسول من عندالله »** يعنى محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن اكثر المفسّرين و قيل : اراد بالرسول ، الرسالة وهذا القول ضعيف **«مصدق لمامعهم»** اى هو معترف بنبوّة موسى عليه السلام و بصحّة توراة ، او معنا من حيث انّ التوراة بشرّت بمقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاذا اتى محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان مجيئه تصديقاً للتوراة **«نبذفريق من الذين اوتواالكتاب»** اى ترك والقى طائفة منهم و انّما قال : من الّذين و لم يقل : منهم . لأنّه اراد علماء اليهود **« كتاب الله »** يحتمل ان يريد به القرآن ، اوالتوراة **« وراءظهورهم »** كناية عن تركهم العمل به ، قال الشعبى : هوبين ايديهم يقرؤنه و لكن نبذو العمل به ، فحينئذ المراد : التوراة ، ادرجوه فى الحرير والديباج و حلّوه بالذهب و الفضة و لم يحلّوا حلاله و لم يحرّموا حرامه ، قال السدى : نبذوا التوراة و اخذوا بكتاب اصف و سحر هاروت و ماروت ، قال قتادة : النابذون جماعة معدودة من علمائهم ولذاذكر سبحانه : فريقاً لأنّ الجمع العظيم والجمّ الغفيروالعدد الكثير ، لايجوزعليهم كتمان ماعلموه ، لأنّه خلاف المألوف من العادات الّا اذاكانوا عدداً يجوز على مثلهم ، التواطؤعلى الكتمان **« كانهم لايعلمون »** انّه صدق وحقّ والمراد انّهم علموا و كتموا ، بغياً وطمعاً فى الرياسة ، اوالمراد كانّهم لايعلمون ما عليهم فى ذلك من العقاب .

« و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان و لكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت و ماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلاتكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه و ما هم بضارين به من احد الاباذن الله و يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم و لقد علموا لمن اشتراه ماله فى الاخرة من خلاق و لبئس ماشروا به انفسهم لو كانوا يعلمون »

واتبع اليهود ، عطف على ما تقدم من انه نبذ فريق من اليهود كتاب الله وراء ظهورهم و اختلف فى اليهود ، فقيل: المراد اليهود الذين كانوا على عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قيل : انهم اليهود الذين كانوا فى زمن سليمان عليه السلام و قيل : المراد به الجميع لان متبعى السحر لم يزالوا منذ عهد سليمان الى ان بعث محمد صلى الله عليه و آله و سلم اى اتبع اليهود ما يقرء الشياطين ، من السحر و النير نجات على عهد سليمان وزعموا بزعمهم الباطل ان سليمان عليه السلام كان كافراً ساحراً ماهراً به و نال ما نال وملك ماملك وقدر ماقدر و قالوا و نحن ايضاً نعمل به و نظهر العجائب حتى ينقاد الناس لنا و نستغنى عن الانقياد لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم .

القمى و العياشى عن الباقر عليه السلام قال : لما هلك سليمان عليه السلام وضع ابليس السحر و كتبه فى كتاب و طواه و كتب على ظهره : هذا ما وضعه اصف بن برخيا للملك سليمان بن داود ، من ذخائر كنوز العلم ، من اراد كذا و كذا ، فليفعل كذا و كذا ، ثم دفنه تحت سرير سليمان ، فدلهم عليه و قرأه عليهم ، فقال الكافرون : ما كان يغلبنا سليمان الا بهذه و قال المؤمنون : بل هو عبدالله و نبيه ، فقال الله « و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » اى على عهده ، اوفى عهده ،

فكذّبهم الله، وقال « و ما كفر سليمان » و لا استعمل السحر ، كما قال هؤلاء الكفرة « و لكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » قره، لكن ، مخففة و مشددة و على قرائة التخفيف ملغاة عن العمل و رفع اسم ما بعدها ، اى و لكن كفر الشياطين بتعليمهم الناس السحر الّذى نسبوه الى سليمان (وما انزل على الملكين) و بتعليمهم ايّاهم ما انزل على الملكين «ببابل هاروت و ماروت» : قال الصادق عليه السلام : وكان بعد نوح كثر السحرة و المموّهون فبعث الله ملكين الى نبيّ ذلك الزمان بذكر ما يسحر به السحرة و ذكر ما يبطل به سحرهم و يردّ به كيدهم ، فتلقّاه النّبى عن الملكين و ادّاه الى عبادالله بامرالله و امرهم ان يقفوا به على السحروان يبطلوه و نهاهم عن ان يسحروا به الناس وهذا كما يدلّ على كيفيّة السمّ وعلى مايدفع به غائلة السمّ ، ثمّ يقول لمتعلّم ذلك العلم هذا السمّ فمن رايته سم ، فادفع غائلته بكذا واياك ان تقتل بالسمّ احداً ، قال وذلك النبيّ امر الملكين ، ان يظهر اللناس بصورة بشرين ويعلماهم ماعلموا وذلك قوله «ومايعلمان من احد» ذلك السحر و ابطاله (حتى يقولا) للمتعلّم «انما نحن فتنه » امتحان للعباد ليطيعوا الله فيمايتعلّمون من هذا ويبطلوا به كيدالسحر ولاتسحروا « فلا تكفر » ايّها المتعلّم باستعمال هذا السحر و طلب الاضرار به ودعاء الناس الى ان يعتقدوا انّك تفعل ما لايقدر عليه الّا الله ، فانّ ذلك كفر « فيتعلمون» يعنى طالبى السحر « منهما» اى ممّا تتلوا الشياطين على عهد سليمان و ممّا انزل على الملكين ببابل من هذين الصنفين « ما يفرقون به بين المرء وزوجه» يتعلّمون للاضرار بالناس و التفريق بين الزوج و الزوجة و بين المتحابين ومايؤدّى عمله الى الفراق بينهما « و ما هم بضارين به من احد الا باذن الله » اى لايضرّون بذلك السحر الّا بتخلية الله، فانّه تعالى لوشاء لمنعهم بالقهر و قيل : معنى باذن الله بعلم الله .

قال صاحب كتاب نصاب الا حتساب : انّ الرجل اذا لم يقدر على مجامعة اهله و قدر على ما سواها ، فانّ المبتلى بذلك يأخذ حزمة من القصب و يطلب فأساً

ذافقارين و يضعه فى وسط تلك الحزمة ثمّ يؤجج ناراً فى تلك الحزمه حتّى اذا حمى الفأس استخرجه من النار و بال على حوّة فيبرء باذن الله.

« **و يتعلمون ما يضرهم و لاينفعهم** » لأنّهم اذا عملوا السحر و تعلّموا ليسحر و ابه، فقد تعلّمو اما يضرّهم فى دينهم، فانّهم ينسلخون عن دين الله بذلك « **و لقد علموا** » اى علم هؤلاء المتعلّمون « **لمن اشتراه** » قيل: اللام، فى لمن اشتراه، لام الابتداء، و قيل لام القسم، و «من» قيل شرطيّة و الجواب « **ماله فى الاخرة من خلاق** » و قيل: من، موصولة، اى و الله لقد علم الّذى اشترى السحر ماله فى الاخرة من نصيب فى الجنّة « **و لبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون** » اى بئس ما باعوابه حظّ انفسهم من نصيب الجنّة حيث اختاروا التكسب بالسحر لداعية الفرار من التكليف و حبّ الدنيا لو كانوا يعلمون كنه ما يصيرون اليه من العقاب الدائم.

فان قيل: كيف اثبت سبحانه لهم العلم فى قوله و لقد علموا، ثمّ نفاه عنهم فى قوله: لو كانوا يعلمون، فالجواب: انّ الّذين علموا، غير الّذين لم يعلموا، فالّذين علموا، هم الّذين علموا السحر و دعوا الناس الى تعلّمه وهم الّذين نبذوا كتاب الله و امّا الجهّال الذين يرغبون فى تعلّم السحر، فهم الّذين لايعلمون، او انّ القوم واحد ولكنّهم علموا شيئاً و جهلوا شيئاً اخر، علموا انّه ليس لهم فى الاخرة خلاق ولكن جهلوا ما حصل لهم لهذا الامر، من العقوبة و النكال.

ثمّ فى الآية قول آخر: وهو انّه قرأ، ملكين بكسر اللام، عن الضحّاك و ابن عبّاس، فقال الحسن: كانا علجين، اقلفين ببابل، يعلّمان الناس السحر و قيل: كانا رجلين، صالحين من الملوك، مستدلّا بأنّه لايليق بالملائكة تعليم الباطل، لكن يمكن الجواب بأنّه تعليم الباطل لأجل معرفة بطلانه، ليس فيه ضرر كما شرح اوّلاً، او انزلا وهما ملكان من الملائكة، انزلا لتعليم السحر، ابتلاءً و امتحاناً من الله للناس كما ابتلى قوم طالوت بالنهر، او انزلا تمييزاً بينه و بين المعجزة لئلّا يغترّ به الناس

و ذلك لأنّ السحرة كثرت فی ذلك الزمان و استنبطت ابواباً غريبةً فی السحر و كانوا بذلك يدّعون النبوّة و الناس يصدّقونهم بالنبوّة ، فبعث الله هذين الملكين ليعلّما الناس ابواب السحر ، حتّى يتشخّص السحر عن المعجزة ، فلهذه الحكمة انزل السحر على الملكين ، لأنّ التشخيص بين المعجزة و السحر متوقّف على العلم بما هيّة السحر ، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهيّة السحر وقد نهيا الناس عن اعماله بقولهما : انّما نحن فتنة ، فلا تكفر ايّها المتعلّم بعمله وهذا من احسن الاغراض و احسن الوجوه . وانكر ابو مسلم فی الملكين ان يكون السحر نازلاً عليهما و قال : انّ السحر لو كان نازلاً عليهما ، لكان منزله هو الله وذلك غير جائز لانّ السحر كفر و عبث ولايليق به انزال ذلك ، لأنّ قوله تعالى ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ، يدلّ على انّ تعليم السحر كفر ، فلو ثبت فی الملائكة انّهم يعلّمون السحر، لزمهم الكفر وذلك باطل والسحر لايضاف الّا الى الكفرة والفسقة والشياطين ، فكيف يضاف الى الله ماينهى عنه ويتوعّد عليه العذاب وقد اجيب عن قول ابی مسلم قبيل هذا.

وبالجملة فعلى كونهما من الملائكة قالوا فی سبب نزولهما واختلفت الروايات فی هذه القضيّة ، حتّى فی رواياتنا الخاصّة ، فبعض منها يدلّ على وقوعها و بعض على عدم وقوعها كما فی الصافی ، قال الراوی : قلت لابی محمّد الرضا عليه السلام فانّ قوماً عندنا يزعمون انّ هاروت و ماروت ، ملكان من الملائكة ، فانزلهما الله الى الدنيا و انّهما افتتنا بالزهرة وارادا الزنا بها و شربا الخمر و قتلا النفس المحرّمة و انّ الله يعذّبهما ببابل وانّ السحرة منهما يتعلّمون السحر و انّ الله مسخ تلك المرأة بهذا الكوكب الّذی هو الزهرة ، فقال الامام : معاذ الله من ذلك ، انّ ملائكة الله معصومون، محفوظون من الكفر و المعاصی بالطاف الله ، قال الله تعالى فيهم ، لايعصون الله ماامرهم و يفعلون مايؤمرون وقال الله تعالى ، بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول و هم بامره يعملون . و عن الرضا عليه السلام ، انّه سئل عمّا يرويه الناس من امر الزهرة وانّها كانت امرأة فتن بها هاروت وماروت وما يروونه من امر سهيل انّه كان عشّاراً باليمن ،

فقال ﷺ : كذبوا فی قولهم و ماكان الله ليمسخ اعدائه انواراً مضيئة ، ثمّ يبقيهامادامت السموات و الارض و انّ المسوخ لم يبق اكثر من ثلاثة ايّام و ما يتناسل منها شیء وما علی وجه الأرض ، اليوم مسخ و انّ التّی وقع عليها اسم المسوخيّة مثل القرد والخنزير والدّب واشباههم انّما هی مثل مامسخ الله علی صورها واما هاروت وماروت. فكانا ملكين ، علما الناس السحر ليحترزوابه سحر السحرة ويبطلوابه كيدهم وماعلّما احداً من ذلك شيئاً الّاقالاله : انّما نحن فتنة فلاتكفر، فكفرقوم باستعمالهم لما امروا بالاحتراز عنه و جعلوا يفرّقون بما تعلّموا بين المرء وزوجه ـ انتهی .

قال الفيض : اقول واماماكذّبوه عليهم السلام من امر هاروت و ماروت فقد ورد عنهم فی صحّتها ايضاً روايات ، القمّی و العياشی عن الباقر ﷺ : انه سئله عطا عن هاروت وماروت ، فقال : انّ الملائكة كانوا ينزلون من السماء الی الارض فی كلّ يوم وليلة يحفظون اعمال اوساط اهل الأرض من ولد آدم والجنّ و يعرجون بها الی السماء ، فضجّ اهل السماء من اعمال اوساط اهل الأرض فی المعاصی و الكذب علی الله وجرأتهم عليه سبحانه و نزّهوالله عمّا يقولون و يصفون ، فقالت طائفة من الملائكة : يا ربّنا اما تغضب ممّايعمل خلقك فی ارضك و ممّا يصفون فيك الكذب و عمّا يرتكبونه من المعاصی التّی نهيتهم عنها و هم فی قبضتك ، فاحبّ الله يری الملائكة سابق علمه فی جميع خلقه و يعرفهم ما منّ به عليهم ممّا طبعهم عليه من الطاعة و عدل به عنهم من الشهوات الانسانيّة ، فاوحی الله اليهم ان انتدبوا منكم ملكين حتّی اهبطهماالی الأرض وأجعل فيهما الطبايع البشريّة من الشهوة والحرص والأمل كما هو فی ولد آدم ، ثمّ اختبر هما فی الطاعة الیّ و مخالفة الهوی ، قال: فندبوا لذلك هاروت و ماروت و كانا من اشدّ الملائكة فی العيب لولدآدم واستيثار غضب الله عليهم ، فاوحی الله اليهما ان اهبطاالی الأرض ، فقد جعلت فيكما الشهوات ، كماجعلتها فی بنی آدم وانّی آمركما ان لاتشركابی شيئا ولاتقتلا النفس التّی حرّمتها ولاتزنيا ولاتشربا الخمر ، ثمّ اهبطا الی الأرض فی صورة البشر ولباسهم ، فهبطاناحية

بابل ، فرفع لهما بناء مشرف ، فاقبلا نحوه فاذا ببابه امرأة حسنة ، جميلة ، حسناء ، متزيّنة ، مستبشرة ، مسفرة نحوهما ؛ فلّما تأمّلا حسنها و جمالها و نا طقاها وقعت من قلبهما اشدّ موقع واشتدّت بهما الشهوة التّي جعلت فيهما، فما لا اليها ميل فتنة وخذلان و حادثاها وراوداها عن نفسها . فقالت لهما انّ لي ديناً ادين به و ليس في ديني أن اجيبكما الى ما تريدان ، الّا ان تدخلا في ديني ، فقالا : وما دينُك ، فقالت : انّ لي الهاً من عبده و سجدله فهو من ديني وانا مجيبه لما يسأل منّي ، فقالا : و ما الهك ، فقالت ، الهي هذا الصنم ، فنظر كلّ الى صاحبه ، فقالا : هاتان خصلتان ممّا نهينا عنه، الزّ نا و الشرك ، لانّا اذا سجدنا بهذا الصنم و عبد ناه ، اشر كنا بالله وهوذا ، نحن نطلب الزنا و لانقدر على مغالبة الشهوة فيه و لن يحصل بدون هذا ، قالالها : انّا نجيبك الى ماتريدين ، قالت : فدونكما هذه الخمر ، فا شر با ، فانّها قربان لكما منه و به تبلغا مرادكما ، فائتمرا بينهما ، و قالا : هذه ثلاث خصال نهينا عنها و انّا لانقد ر على الزنا الّا بها تين ، ما اعظم البلّية بك ، قد اجبناك ، قالت فدو نكما اشربا ، فشربا وسجدا ، ثمّ راوداها ، فلمّا تهيّأت لذلك ، دخل عليها سائل ، فرآهما على تلك الحالة، فذعرامنه ، فقال السائل و يلكما قد خلو تما بهذه المرأة العطرة الحسناء و قعد تما منها على مثل هذه الفاحشة ، انكمّا لرجلا سوء ، لافعلّن بكما و خرج على ذلك فنهضت وقالت : لاوالهي لاتصلان الان اليّ وقداطلّع هذا الرجل علينا وعرف مكانكما و هو لامحالة مخبر بخبر كما ، فبادرا واقتلاه قبل ان يفضحنا جميعاً ، ثمّ دو نكمافاقضيا و طر كما مطمئنين آمنين ، فاسرعا الى الرجل ، فادركاه ، فقتلاه ، ثمّ رجعا اليها فلم يرياها و بدت لهما سو آتهما و نزع عنهما رياشهما و سمعا هاتفاً : انكمّا اهبطتما الى الارض بين البشر من خلق الله ساعة من النهار ، فعصيتماه باربع من كبار المعاصي و قدنها كما ربّكما عنها فلم تراقباه ولااستحييتما منه و قد كنتما اشدّ من نقم و لام على اهل الارض المعاصي و لماجعل فيكما من طبع خلقة البشرى و كان قد عصمكم

من المعاصى ، كيف رأيتم موضع خذلانه فيكم ، قال ﷺ : و كان قلبهما من حبّ تلك المرأة ان و صفا و اسسا طرأيق من السحر ، ما تداوله اهل تلك الناحية . قال الامام ﷺ : فخيّر هما الله بين عذاب الدنيا و عذاب الاخرة ، فقال احد هما لصاحبه : نتمتّع من شهوات الدنيا الى ان نصير الى عذاب القيامة ، فقال الاخر : انّ عذاب الدنيا له انقطاع وعذاب الاخرة لا انقضاء له وليس حقيق بنا ان نختار عذاب الآخرة، الدائم الشديد ، على عذاب المنقطع ، قال ﷺ : فاختارا عذاب الدنيا و كانا يعلّمان الناس ، السحر ، بارض بابل ، فرفعا من الارض الى الهواء ، فهما معذّبان ، منكوسان، معلقّان في الهواء الى يوم القيامة و قيل : يضربان بسياط من حديد الى يوم القيامة وروى : انّه استشفع لهما ادريس فخيّرا بين العذابين ، فاختارا عذاب الدنيا ، قيل ، هما فى بئر بابل من نواحى الكوفة معلّقان بشعور هما ، او بار جلهما ، قال مجاهد : ملئ الجبّ ناراً فجعلا فيه وقيل : يعذّبان بالعطش ، لأنّه اذا قلّب الله بنيتهما بنية البشر ، خرجا عن الملكيّة ويحتاجان الى مايحتاج اليه البشر ، فحينئذ يندفع الاشكال ان صحّ هذا القول ولعلّ اختلاف الاقوال من المرموزات والّذى خوطب بالقرآن ، اعرف به ، قال رسول الله ﷺ : اتّقوا الدنيا ، فو الّذى نفس محمد بيده ، انّها لاسحر من هاروت و ماروت .

اياك ان تسحرك الدنيا بلّذاتها وعلاقتها ، فتبتّل الى الله و احترز عن النفس، فانّ اباك آدم اصبح محسود الشياطين و مسجود الملائكة و على راسه تاج الكرامة و على جسده لباس الوصلة و فى وسطه نطاق القربة و فى جيده قلادة الزلفى يتوالى عليه النداء كلّ لحظة ، ياآدم ، ياآدم ، فلم يمس حتّى نزع عنه لباسه و سلب منه استينامه فاذا كان شؤم زلّة ، او صغيرة واحدة كذلك ، فكيف بك . و لذلك كان المخلصون يحترزون من المباحات ، فاعرض عن ملاذ الدنيا و اعتزل عن ابنائها ، فطوبى لمن عوّد نفسه بالعزلة ، فتمّت له النعمة و يكون انسه بالله و بسبب العزلة لايتيسّر له اسباب المعاصى ، اما سمعت قضيّة ابى بكر الورّاق و

كان مشيّقاً منذزمان ان يرى الخضر و كان لهذا الامر قرب عشرين سنة ، كان يخرج كلّ صباح الى المقابر و يقرء جزواً من الكتاب الكريم ، ثمّ يرجع ، قال الى ان اتّفق يوماً فى الطريق ، رأيت شيخاً نورانياً ، فسلّم علىّ ، فقال : هل تحبّ ان اصاحبك الى المقابر ، فصاحبنى ، فاشتغلت بكلامه الى ان رجعت ، فلمّا و صلنا الى باب البلدة ، قال لى : كنت تشتاق ان ترى الخضر ، فنلت الى مرامك اليوم ، لكن بمصاحبتى فاتك قرائة الجزء، و هاك نصيحة ، فعليك بالاعتزال و غاب عنّى ، و ابوبكر هوالّذى مات ابنه لمّا سلّمه الى المعلّم لقرائة القرآن ، فلمّا وصل الى هذه الآية • يوم يجعل الولدان شيباً• غلب الخوف على هذا الطفل، بسبب قرائة هذه الآية الى ان مرض وتوفى .

و انت تسعى فى عمرك لدفع ضرّ او جلب نفع لئلا تحتاج لتمتّع من نيل مشتهياتك مع انّ ما هو سبب عزتك و نيلك الشهوات سبب ذلّتك فى الاخرة وطول الحساب ، فاخلع نعليك و فرّغ قلبك عن علائق الدنيا ، حتّى تصل الى واد المقدّس من القرب من غير مانع ، فانّ النعلين حاجبتان بين مساس رجليك وبساط القرب ولاتتجوهر النفس الّا بزوال الاعراض الفاسدة من الشهوات ، فاجهد فى العمل و لا تجحد ، لكن تستبعد هذا المعنى والحقّ معك لأنّك معصّب العين بعصابة حطام الدنيا و لذا همّتك ضعيفة، اين كثافة الكثيف والمقام الشريف واول ماعليك استماع الزواجر والآيات المخوّفة الرّادعة القرآنيّة ، هذا اذا كنت مبتدياً و ان كنت منتهياً ، فالوعديّة و التشويقيّة ، كما قيل : خوّفوا المبتدى و شوّقوا المنتهى ؛ فانّه لابدّ للجمل من حاد لقطع البوادى . انت ارضىّ والارض تحيى بوابل المطر، فتربو وتنبت ، ثمّ ان كنت كثير الأكل قلّل فى اكلك شيئاً فشيئاً ، فلو يصعب عليك هذا الامر لأنّ العادة طبيعة خامسة ، فزن اوّل يوم مأكلك بعود رطب ، فانقص كلّ يوم على قدر جفاف العود وا ذكر الحديث : اكثركم شبعاً فى الدنيا ، اطولكم جوعاً يوم القيامة ، فكن من اصحاب اليمين ان لم تكن من المقرّبين واعلم انّه ما بينك و بين القيامة الّا ايّاما ، فانّه جميع ما فى الكبرى ، فى الصغرى ، لكن فى الكبرى اشدّ ، فا جمع بين المقال والحال والعلم و العمل واتبع الراسخين فى العلم و علماء الآخرة الذين ليس لهم رغبة فى هواهم ولا يطلبون الدنيا

الّا بقدر الحاجة ، بل لاينا ظرون الّا لاظهار الحقّ لا الغلبة و لا صيقل كلام ولانقض في الحديث الصحيح و لا تأويل باطل في متن آية محكمة و لا مزاعقة ولامخاصمة ، بل على طريق الفائدة و الكشف ، لا المشتغلين لأجل الدنيا و الرياسة .

في الحديث : انّ العلم يهتف بالعمل فان اجابه والّا ارتحل. المحبوب من العلم هو العلم الّذى ينفعك في الاخرة ، فاطلبه و اعمل به و لاتطلب علماً ينفعك في دنياك و يضرّك في آخرتك ، ففي العلوم ما يضرّ مثل علم السحر وصبغ الصفر اذا قلبتها بالصناعة فضةً و كذلك بعض العلوم الّتي تشغلك عن امر دينك ، فكما انّ في المكاسب ، مكاسب خسيسة ، تأباها النفوس الشريفة ، كالحفر و الكناسة و الحجامة و كما في الرياح مورق و محرق ، كذلك العلوم ، فالعلم النافع ، هو الذىّ لو عملت به يجعلك في جنّات و نهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فاكتسب من جواهر الاعمال ، تشرّف بها عند عرض البضايع ، فمثالك في العمل و البطالة كجماعة سافروا في الظلمات ، فقال لهم الخبير بالمكان : احملوا من حصاها ، تغنموا ، فالمطيع و صاحب حسن الظّن حمل فاوقر و المتشكك البطّال ما حمل ، فلمّا خرجوا الى الضوء شاهدوا بضايعهم ، فاذا درّ و جواهر ، فندم البطّال ، فاقبل قول المتشرّع الصادق ، ودع كبرك وتوانيك و قلّل شبعك ومن النوم عينك واحفظ بطنك من الحرام ، فانت العاجز الّذى تؤذيك البقّة وتقتلك الشرقة ، قنعت من نعيم الجنّة بحلاوة في الدنيا من نحلة : بخبزة من تبنة وتعلم انّك غداً مستور بلبنة ، مع انّك مؤاخذ بنعيمك ' قال الله : لتسألنّ يومئذ عن النعيم . و كن موقناً بما امرك الشارع و لاتكن ضعيف اليقين في الدين و ضعف اليقين و الشك يوردك الهلكة ويورث الغفلة والبطالة .

قال رسول الله ﷺ : حبّك الشيء يعمى و يصمّ . مراده ﷺ انّ من الحبّ ما يعمى عن طريق الحقّ و يصمّك عن استماع الرشد و يعمى العين عن النظر الى مساويه .

قال الرازى : انّ لفظ السحر في عرف الشرع مختصّ بكل امر يخفى سببه و يتخيّل

على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع ومتى اطلق ولم يقيّد ، افادذم فاعله، قال الله تعالى . وسحروا اعين الناس اى موّهوا عليهم حتّى ظنّوا انّ حبالهم وعصيّهم تسعى . وقال : يخيّل اليه من سحرهم انّها تسعى . و قد يستعار لفظ السحر فيما يحمد و يمدح .

روى انّه قدم على رسول الله ﷺ ، زبرقان بن بدر و عمرو بن الاهتم ، فقال ﷺ ، لعمرو : خبّرنى عن زبرقان ، فقال : مطاع فى ناديه ، شديد العارضة، مانع لماوراء ظهره ، فقال زبرقان : هو والله يعلم انّى افضل منه ، فقال عمرو: انّه ذميم المروّة ، ضيق العطن ، احمق الأب ، لئيم الخال ، يارسول الله ، صدقت فيهما ، ارضانى فقلت احسن ما علمت و اسخطنى فقلت اسوء ما علمت ، فقال رسول الله ﷺ : انّ من البيان لسحراً ، فسمىّ ﷺ بعض البيان سحراً ، لانّ صاحبه يتصرّف فى الذهن بكلامه اللطيف و يوضح الشيء المشكل ، فاشبه السحر الّذى يستميل القلوب باعماله و يستنفر و لانّ المتكلّم يحسن ما يكون قبيحاً و يقبح ما هو حسن ، قال الشاعر : فى زخرف القول تزيين لباطله ۞ والحق قديعتريه سوء تعبير ۞ تقول هذاجنى النحل تمدحه ۞ و ان ذممت فقل قيىء الزنابير .

« وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »

«ولو انهم امنوا» : الضمير راجع الى اليهوداى امنوا بالقرآن والنبىّ **«واتقوا»** الشرك والسحر **« لمثوبة »** مفعلة من الثواب و ثاب اى رجع وسمىّ الجزاء ثواباً ، لانّه عوض عمل المحسن ، يرجع اليه ومثوبة ، مبتداء جواب « لو » والتنكير للتقليل، اى شيء قليل من الثواب **« من عند الله خير »** خير ، خبر المبتداء ، اصله: لأثيبوا مثوبة من عندالله خيرا ممّا شروا به انفسهم ، فحذف الفعل و غيّر السبك الى ما عليه المنظم الكريم ، للدلالة على اثبات المثوبة لهم والجزم بخيريّتها و حذف المفضّل عليه ،

اجلالاً للمفضّل من ان يكون طرف النسبة « **لو كانو ايعلمون** » انّ ثواب الله خير .

« **يا اَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا راعِنَا وَ قُولُوا اُنْظُرنا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكافِرينَ عَذابٌ اَليمٌ** »

« **ياايها الذين امنوا** » : خاطب الله المؤمنين فى القرآن بقوله : يا ايّها الذين امنوا ، فى ثمانية و ثمانين موضعاً ، قال ابن عباس : وكان تعالى يخاطب اليهود اوّلاً فى التوراة بقوله : يا ايّها المساكين و لمّا اعتدوا على انبيائه وخالفوا محمداً ﷺ ، انبت لهم المسكنة اخراً « **لاتقولوا** » لرسول الله «**راعنا**» : المراعاة المبالغة فى الرعى و هو حفظ الغير و تدارك مصالحه ، كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ اذا القى عليهم شيئاً من العلم : راعنا يا رسول الله ، اى تأنّ بنا وانتظرنا حتّى نفهم كلامك وكانت هذه الكلمة لليهود ، كلمة عبرانيّة اوسريانيّة يتسابّون بها فيما بينهم ، فلما سمعوا قول المؤمنين: راعنا ، يخاطبون الرسول افترصوه وخاطبوابه الرسول و هم يعنون به تلك المسبة ، فنهى الله تعالى المؤمنين عنهاقطعاً لالسنة اليهود عن التلبيس و امرو ابما هو فى معناها ولايحتمل التلبيس فقال «**وقولواانظرنا**» اى انتظرنا من نظره اذا انتظره «**واسمعوا**» بآذان واعية و اذهان حاضرة ، حتّى لاتحتاجوا الى الاستعادة «**وللكافرين عذاب اليم**» و للذين تهاونوا برسول الله ، عذاب موجع لما اجترؤا على الرسول من المسبّة . وفى الاية دلالة على تجنّب الالفاظ المحتملة التى فيها التعريض. والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

قال رسول الله ﷺ : لايبلغ العبدان يكون من المتّقين ، حتّى يدع ما لابأس به ، حذراً ممّا به البأس و قال: انّ من الكبائر، شتم الرجل اباه ، قالوا : يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه ، قال: نعم يسبّ ابا الرجل ، فيسبّ اباه وامّه ، قال الله تعالى : و لا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوالله عدواً بغير علم . فمنع من

سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك ، فالانسان لابدّ وان يحترز عن الذريعة و هى عبارة عن امـر غير ممنوع لنفسه ، يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع و هذا معنى التعريض .

« مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ اَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ »

« خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللّٰهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ »

« **ما يود الذين كفروا** » : كان فريق من اليهود يظهرون المحبّة للمؤمنين و يزعمون انّهم يودّون لهم الخير ، فنزلت الآية و نفى سبحانه عن قلوبهم الودّ والمراد من نفى الودّ ، الكراهة ، اى مايحبّ الذين كفروا «**من اهل الكتاب ولا المشركين**» و المعنى انّ الكفّار باجمعهم لم يحبّوا «**ان ينزل عليكم**» اى على نبيّكم ، لأنّ المنزل عليه ، منزل على امته « من خير » و « من » مزيدة لاستغراق الخير . والخير ، الوحى و القرآن و النصرة «**من ربكم**» اى انّهم يرون انفسهم احقّ بان يوحى اليهم ، فيحسدونكم بناءً على انّهم اهل الكتاب والوحى وابناء الانبياء ، الناشؤن فى مهابط الوحى و انتم اميّون . و امّا المشركون ، فادلالاً بما كان لهم من النجدة و الجاه زعماً منهم انّ رياسة الرسالة كساير الرياسات الدنيويّة و لذا قالوا لو لانزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . وهم كانوا يتمنّون ان يكون النبوّة فى احد الرجلين : نعيم بن مسعود الثقفى بالطائف و وليد بن مغيرة بمكّة ، فـاجاب الله بقوله «**والله يختص برحمته من يشاء**» و مفعول ، من يشاء ، محذوف . و المراد بالرحمة : النبوة والوحى والحكمة والنصرة وليس لاحد عليه حقّ « **والله ذو الفضل العظيم** » على من يختاره بالنبوّة والوحى ، فمن حسد بعبد من عباد الله بنعمة خصّه بها فقد بارز اوّلاً ، ربّه ، لانّه يتسخّط قسمته تعالى ، فكانّه يقول لـربّه : لـو قسمت هكـذا و الثانى : انّ فضل الله يؤتيه من يشاء و هو يبخل بفضله و الثالث : انّه يريد خذلان ولىّ الله و زوال النعمة عنه و الـرابع : انّه اعان عدوّ الله يعنى ابليس . ثم انّ حسدك

لاينفذ على عدوّك بل على نفسك. قال اميرالمؤمنين عليه السلام: قاتل الله الحسد ما أعدله، بدء بالحاسد قبل المحسود.

قال بكر بن عبدالله: كان رجل يأتي بعض الملوك و له مكانة عنده، فحسده رجل على تلك المكانة، فسعى به الى الملك و قال ان هذا الرجل يزعم انّ الملك ابخر، فقال الملك و كيف يصحّ ذلك عندى، قال: تدعو به اليك، فانظر فانّه اذا دنامنك يضع يده على انفه، ان لايشمّ ريح البخر، فخرج من عند الملك ودعا الرجل الى منزله، فاطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، فقام بحذاء الملك ويكلّم مع الملك على عادته، فقال الملك له: ادن منّى، فدنامنه، واضعاًيده على فيه، مخافة ان يشمّ الملك منه ريح الثوم، فلمّا رأى الملك ما فعل، صدّق في نفسه قول الساعى و كان عادة الملك ان لايكتب بخطّه الّا الجائزة، فكتب له بخطّه الى عامل له: اذا اتاك الرجل، فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به الىّ، فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الّذى سعى به، فاستوهب منه ذلك الكتاب و اخذه منه بانواع التضرع والامتنان زعماً منه انّه الأمر بالجائزة ومضى به الى العامل، فقال العامل: انّ في كتابك ان اذبحك واسلخك، قال: انّ الكتاب ليس هولى، الله الله في امرى حتّى اراجع الملك، قال له العامل: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه و سلخه وحشى جلده تبناً و بعث به الى الملك، ثمّ عاد الرجل كعادته، فتعجّب الملك من مجيء الرجل، فقال ما فعلت بالكتاب، قال لقيني فلان فاستوهبه منّى، فوهبته، قال الملك: انّه ذكر لى انّك تزعم انى ابخر، فقال كلّا، قال: فلم وضعت يدك على انفك، قال اطعمنى طعاماً فيه ثوم فكرهت ان تشمّه، قال: ارجع الى مكانك فقد كفى المسيء اسائته.

«مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ اَوْ نُنْسِهَا نَاْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا اَوْ مِثْلِهَا اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

طعن اليهود في الاسلام، فقالوا الاترون انّ محمّداً يأمر اصحابه بامر ثمّ ينهاهم عنه و يأمرهم بخلافه فنزلت الاية **«ما ننسخ من آية»**: النسخ في اللغة، الازالة و

النقل، يقال نسخت الريح الاثر، ازالته و نسخت الكتاب اى نقلته من نسخة الى نسخة و منه تناسخ الارواح، المراد: التحوّل من واحد الى واحد وقرء ننسخ بضمّ النون و و النسوهو التأخر و ننسها قرء بفتح النون و الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه وتمسّكوا بهذه الآية و آيات اخرى، مثل قوله: واذا بدّلنا آية مكان آية و مثل قوله: يمحو الله مايشاء و يثبت و عنده امّ الكتاب. وانكر بعض، النسخ و وقوعه فى القرآن، مثل ابى مسلم بن بحر و قال: انّ المراد من الآيات المنسوخة، هى الشرايع الّتي في الكتب المتقدّمة، من التوراة والانجيل، كالسبت و الصلوة الى المشرق والمغرب وحرمة لحم الأبل وامثالها، لكنّ القائلين بوقوع النسخ، دلائلهم كثيرة و حججهم قويّة، مثل ان قالوا بوقوع النسخ في القرآن، انّ الله امر المتوفّى عنها زوجها بالاعتداد حولاً كاملاً و ذلك فى قوله: والّذين يتوفّون منكم و يذرون ازواجاً وصيّةً لازواجهم متاعاً الى الحول. ثمّ نسخ ذلك باربعة اشهر و عشراً بقوله: والذين يتوفّون منكم ـ الآية ـ واجاب ابو مسلم: بانّ الاعتداد بالحول مانسخ بالكليّة، لأنّها لو كانت حاملاً و مدة حملها حولاً كاملاً، لكانت عدّتها حولاً كاملاً واذا بقى هذا الحكم فى بعض الصور، كان ذلك تخصيصاً لانا سخاً وهذا الجواب ضعيف وحجّة القائلين بوقوع النسخ، آية تقديم الصدقة عند نجوى الرسول و كذلك قوله: سيقول السفهاء ما ولّاهم عن قبلتهم الّتى كانوا عليها، ثمّ ازالهم عنها بقوله: فولّ وجهك شطر المسجد الحرام. واجاب ابو مسلم: انّ حكم تلك القبلة مازال بالكليّة لجواز التوجّه اليها عند الاشكال، اومع العلم اذا كان هناك عذر. وجوابه: انّ على الوصف الذى ذكره، لافرق بين بيت المقدّس و سائر الجهات و بالجملة فعمدة دليل ابى مسلم فى هذه المقولة، انّ الله وصف كتابه بانّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، فلو نسخ لكان قداتاه الباطل و هذا ليس بدليل، لانّ المراد انّ هذا القرآن لم يتقدّمه من كتب الله ما يبطله و لا يأتيه من بعده ايضاً ما يبطله ـ انتهى ـ

ثمّ انّ المنسوخ امّا ان يكون هو الحكم فقط، او التلاوة، او هما معاً، امّا الأول: مثل آية عدّة الوفاة و هى: و الذين يتوفّون ـ الاية ـ و امّا الثاني: فكآية

الرجم ، فكما روى انّ ممّا يتلى عليكم فى كتاب الشيخ و الشيخة اذا زنيافارجموهما، فهو منسوخ التلاوة ، دون الحكم و معنى النسخ فى مثلها ، انتهاء التكليف لقراأتها ، اى نسخ تلاوتها و بقى حكمها و امّا الثالث الّذى منسوخ الحكم و التلاوة : قالت عايشة : كان تتلى فى كتاب الله عشر رضعات يحرمن ، ثمّ نسخ بخمس رضعات يحرمن ، فهو منسوخ الحكم و التلاوة جميعاً ، ثمّ انّ النسخ يختصّ بالا وامر و النواهى ، لكنّ الخبر لايدخله النسخ ابداً ، لاستحالة الكذب على الله ، انتهى .

« **اوننسها** » او نتركها على حالها ، اونؤخّرها لوقت آخر لمصلحة والمعنى : انّ كلّ اية نذهب بها على مايقتضيه الحكمة « **نات بخير** » اى بآية وحكم هى خير « **منها** » للعباد فى النفع و الثواب و التفاضل فيها ، بحسب ما يحصل منها الخير « **اومثلها** » فى المنفعة و الثواب ، فكلّ ما نسخ الى الايسر ، فهو للسهولة للعباد و ما نسخ الى الاشقّ ، فهو فى الاجر اكثر ، فالايسر : كنسخ الاعتداد فى الوفاة والاشقّ كنسخ ترك القتال بايجابه و قد يكون النسخ بمثل الأوّل ، لا اخفّ ولااشقّ ، كنسخ القبلة ، فحينئذ طعن اليهود له صلى الله عليه وآله وسلم فيكون هذه الآية ردّاًعليهم .

و الانبياء هم المباشرون لاصلاح النفوس ، مثل اطبّاءالبدن للاجسام ، والنسخة كتاب الله و تغيير الاعمال الشرعيّة و الاحكام الخلقيّة الّتى هى منزلة عليهم للنفوس بمنزلة العقاقير ، فيغيّرها الشارع و هوالله على حسب مصالحها كما انّ الشيىء يكون دواء للبدن فى وقت ، ثمّ قد يكون داء فى وقت آخر لكن لمّا ختمت النبوّة بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، كذلك ختمت المعالجة بالقرآن الّذى هوشفاء و لايتغيّر بعده امر ابداً ما دامت السموات والأرض ، فمن حرّفه او بدّل فرعاً من فروعه ، فقد كفر به و خرج عن دين الاسلام ، سواء تعلّق نظره بالمصلحة ام لا .

« **الم تعلم ان الله على كلشيىء قدير** » فيقدر على النسخ و الاتيان بمثل المنسوخ و بما هو خير منه . انكه داندوخت اوداند دريد ☆ هر چه را بفروخت نيكوتر خريد .

«أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»

«**الم تعلم ان الله له ملك السموات والارض**» : ای هو المالك للسموات والارض، فيفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و هو كالدليل على قوله : انّ الله بكلشيء قدير . و تخصيص السموات والارض بالذكر ـ وان كان الله تعالى له ملك الدنيا والاخرة جميعاً ـ لكونهما اعظم المصنوعة «**ومالكم من دون الله**» من ، زائدة للاستغراق «**من ولی**» ناصر ، قيّم بالامور «**ولا نصير**» معين لكم ، فلايجوز الاعتماد على غيره و حسن منه الامر والنهی و التغيير والتبديل و النسخ لكونه مالكاً للخلق .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا عبادالله انتم كالمرضى وربّ العالمين كالطبيب ، فصلاح المرضى فيما يعمله الطبيب و يدبّره لافيما يشتهيه المريض، الافسلمّوا لله امره تكونوا من الفائزين .

«أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ»

«**ام تريدون ان تسئلوا رسولكم**» ام ، على قسمين ، متّصلة و منقطعة ، فالمتصلة بمعنى همزة الاستفهام و المنقطعة بمعنى بل ، و لايكون الّا بعد كلام تامّ و فی هذه الآية متصّلة واختلفوا فی المخاطب به ، قيل : انّهم المسلمون ، قالوا : كان المسلمون يسئلون رسول الله عن امور لاخير لهم فی البحث عنها ليعلموها ، كماسأل اليهود موسى و قيل : سأل قوم من المسلمين ان يجعل لهم النبی صلى الله عليه وآله وسلم ذات انواط كماكان للمشركين ذات انواط و هی شجرة كانوا يعبدونها و يعلقون عليها المأكول و المشروب ، كما سألوا موسى ان يجعل لهم إلٰهاكما لهم آلهة و القول الآخر : انّه خطاب لاهل مكّة و هو قول ابن عباس ومجاهد قال : انّ عبدالله بن امية المخزومی

اتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رهط من قريش؛ فقال يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ما او من بك حتى تفجر لنا ينبوعاً او تكون لك جنة من نخيل و عنب او يكون لك بيت من زخرف اوترقى في السماء و لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً من الله الى عبدالله بن امية ان محمداً رسول الله وقال له بقية الرهط فان لم تستطع ذلك فأتنا بكتاب من عندالله، جملة واحدة فيه الحلال و الحرام و الحدود و الفرائض، كما جاء موسى الى قومه بالالواح من عندالله فيها كل ذلك، فنؤمن لك عند ذلك، فانزل الله تعالى هذا الاية.

و القول الثالث: ان الخطاب لليهود، قال الرازي: و هو الاصح، لأن هذه السورة من اول قوله: يابني اسرائيل اذكروا نعمتي. حكاية عنهم و محاجة معهم و لأن هذه السورة مدنية وجرى ذكر اليهود و ما جرى ذكر غيرهم.

و بالجملة: فالمعنى اتريدون و تقترحون بالسؤال كما اقترحت بنوا اسرائيل سابقاً على موسى ان تسألوا رسلكم وهو في تلك الرتبة من علو الشأن «**كما سئل موسى**» مشبها بسؤال موسى «**من قبل**» محل متعلق بسئل، جيء به للتأكيد «**و من يتبدل الكفر**» ويأخذه لنفسه «**با لايمان**» بمقابلته بدلاً منه«**فقد ضل**» و عدل و جاز من حيث لايدرى «**سواء السبيل**» عن الطريق المستقيم و تاه في تيه الهوى و تردى في مهاوى الردى و سواء السبيل، وسط الطريق السوى الذى هو بين الغلو و التقصير و هوالحق. و ليس للمؤمن ان يحب مالا يرضيه الله اويكره مايرضى الله و متى مالم يراع هذه المرتبة، يسقط عن رتبة الايمان الكامل، قال في بستان العارفين: مثل الايمان مثل بلدة لها خمسة من الحصون: الأول من الذهب و الثاني من فضة و الثالث من حديد والرابع من حبوكل و الخامس من لبن، فمادام اهل الحصن يعاهدون الحصن الذى من اللبن، فالعدو لايبلغ فيهم، فاذا تركوا الحصن الأول، طمع العدو في الثاني، ثم في الثالث حتى خرب الحصون، فكذلك الايمان في خمسة من الحصون، اولها اليقين، ثم الاخلاص، ثم اداء الفرائض، ثم اتمام السنن، ثم حفظ الادب فمادام يحفظ الأدب و يتعاهده، فان الشيطان لايطمع فيه، فاذا ترك

الادب ، طمع اللعين فى السنن ، ثمّ فى الفرائض ، ثمّ فى الأخلاص ، ثمّ فى اليقين ، فينبغى ان يحفظ الادب فى جميع اموره ، حتّى فى المباحاة و انّما ارتدّ من ردّ لعدم رعاية الادب كابليس و غيره من المردودين.

اعلم انّه لايكفيك تزكية النفس عن البعض ، حتّى تزكّى عن جميعها ولوتركت واحداً من الاخلاق السيّئة غالباً عليك ، فذاك يدعوك الى البقيّة ، مثل انّ الحسن ، لايحصل بحسن بعض الاعضاء مالم يحسن جميع الاطراف ، فانّك لو كنت يوسفى الوجه وكنت اعور ، لست فى زمرة الملاح و الصباح ، فانّ الخَلق و هو الصورة الظاهرة بسبب عيب يكون ناقصاً ، فكذلك الخُلق و هو السيرة الباطنة ، يكون معيباً و ناقصاً ، فانّ الانسان مركّب من جسد يدرك بالبصر ومن روح و من نفس يدرك بالبصيرة و لكلّ واحد منهما هيئة ، امّا قبيحة او حسنة . و الروح و النفس اعظم قدراً و لذلك اضافه الله الى نفسه و اضاف الجسد الى الطين ، فقال : انّى خالق بشراً من طين و وصف الروح بانّه امر ربّانى ، فقال تعالى : قل الروح من امر ربّى و كما للبدن اركاناً كالعين و الاذن و الفم و . ولايوصف بالحَسن مالم يحسن جميعها ، كذلك الصورة الباطنة ، لها اركان لابدّ من حسن جميعها ، حتّى يحسن الخُلق و هى اربعة معان و قوى : قوّة العلم و قوّة الغضب وقوّة الشهوة و قوّة العدل بين هذه القوى الثلاث ، فاذا استوت هذه الاركان الاربعة ، حصل حسن الخلق ، امّا قوّة العلم ، فاعتدالها ان يصير بحيث يدرك بها الفرق بين الصدق و الكذب في الاقوال و الحقّ و الباطل فى الاعتقادات و بين الجميل والقبيح فى الاعمال ، فاذا حصلت هذه القوّة حصلت منها ثمرة الفضائل و الحكمة ، و من يؤتى الحكمة فقد اوتى خيراً كثيراً.

وامّا قوة الغضب والشهوة : فاعتدالها ان يقتصر انقباضها وانبساطها على موجب اشارة الحكمة والشرع .

و امّا قوّة العدل : فهى ضبط قوّة الغضب والشهوة ، تحت اشارة الدّين والشرع بالعقل الّذى هو بمنزلة الناصح ، ولابدّ فى قوّة الغضب ، الاعتدال ، لأنّها ان مالت الى طرف الزيادة سمّى تهوراً ، وان مالت الى النقصان سمّى جبناً ، و افراط الغضب

يحصل منه الصلف و البذخ و الاستطالة و الكبر و العجب ، و تفريطها يحصل منه الجبن و الذلّة و المهانة و عدم الغيرة و ضعف الحميّة على الاهل والمال و امّا فى اعتدالها يحصل الخلق الكريم والشهامة و الحلم و الثبات و كظم الغيظ ووو .

وامّا اعتدال الشهوة : فهو العفّة وافراطهايعبّر بالشره وعن تفريطها بالخمود ، فيصدر من العفّة ، السخاء و الحياء و المسامحة و القناعة و الورع و قلّة الطمع و يصدر عن افراطها ، الحرص و الوقاحة و التبذير والعجب والرياء و الهتكة والمجانة و والملق و الحسد و التذلل للاغنياء و الاستحقار للفقراء .

و امّا قوّة العقل : فيصدر من اعتدالها حسن التدبير و نقابة الرأى فى اصابة الظنّ و التفطّن لدقائق الاعمال وخفايا افات النفوس وامّا افراطه فيحصل منه المكر والدهاء والخداع و يحصل من تفريطه ، البله والغمارةوالحمق والبلادة والانخداع و حسن الخلق فى الجميع وسط بين الافراط و التفريط وكلا طرفيها ذميم و مهما مال واحد من هذه الجملة الى الافراط و التفريط ، فبعد لم يكمل حسن الخلق و العلاج الرياضة و المجاهدة و معنى الرياضة ان يكلّف الصفة المفرطة الغالبة ، خلاف مقتضاها و يعمل بنقيض موجبها ، مثلاً ان غلب البخل ، يتكلّف البذل مرّة بعد اخرى ، حتّى يسهل عليه البذل فى محلّه و هكذاالى ان ينقلب الطبع ، فانّ العادة طبيعة خامسة .

و اعلم انّ تفاوت الناس فى حسن الباطن ، كتفاوتهم فى حسن الظاهر و لم يسلّم الحسن المطلق الا على الندرة كما حصل له صلى الله عليه وآله وسلم و انك لعلى خلق عظيم .

اعلم : انّ اصول الاخلاق المحمودة عشرة : التوبة و الخوف و الزهد و الصبر و الشكر و الاخلاص والتوكّل والمحبّة و الرضا و ذكر الموت .

الاصل الأوّل ، التوبة و انّها مبدأ طريق السالكين و مفتاح سعادة المقبلين ـ و التائب محبوب الله ، قال الله تعالى : انّ الله يحبّ التوّابين ،وقال صلى الله عليه وآله وسلم : انّ الله افرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى فلاة مهلكة ، معه راحلته و عليها طعامه و شرابه ، فوضع راسه ، فنام نومة ، فاستيقظ و قد ذهبت راحلته ، فطلبها حتّى اشتدّ

الحرّ و العطش ، قال : ارجع الى مكانى الّذى كنت فيه ، فانام حتّى اموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ ، فاذاراحلته عنده ، عليها زاده و شرابه ، فالله اشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن ، من هذا براحلته.وهي واجبة على الفور مع الشرائط، على كلّ احد ، لأنّ الانسان مركبّ من صفات بهيميّةو سبعيّة و شيطانيّة وربوبيّة و قد عجنت فى طينته عجناً محكما و اوّل ما يظهر فيه ، البهيميّة فيغلب عليه الشهرة و الشره ، ثمّ السبعيّة فيغلب عايه المنافسة والمعاداة ، ثمّ الشيطانيّة فيغلب عليه المكرو الخداع ، ثمّ يظهر فيه بعد ذلك صفات الربوبيّة و هو الكبر و الاستعلاء ، فاذن لايستغنى احد عن التوبة و هى ارث ابيه و لو فرضنا انّه سلم من هذه الافات و خلا عن جميع ذلك ، فلا يخلو عن غفلة عن الله و ذلك طريق البعد ، قال الله : واذكر ربّك اذا نسيت . و توبة العوام من الذنوب الظاهرة وتوبة الصالحين عن الاخلاق الذميمة و توبة المتقّين من الغفلة المنسية للذكر و توبة العارفين عن الوقوف على مقام يكون ورائه مقام ، فتوبة العارفين لانهاية لها .

الاصل الثانى : الخوف : قال الله : هدى و رحمة للّذين هم لربهّم يرهبون . قال النبىّ ﷺ : رأس الحكمة مخافة الله ، قال الله تعالى فى الحديث القدسى : و عزتى لا اجمع على عبدى خوفين ولااجمع له امنين ـالحديث ـ والخوف سوط يسوق العبد الى السعادة و حقيقة الخوف : الم القلب و اضطرابه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال . اوحى الله الى داود ﷺ : خفنى كما تخاف السبع الضارى. والله تعالى كم اهلك من عباده و عرضهم لانواع العذاب و لم يأخذه رقّة و شفقة و اخوف الخلق الانبياء و آمن الخلق الاغبياء ، او ما سمعت انّ العبد يكون خوفه و رجاؤه متساوياً فذاك للمطيع المتجرّد لله . لكن مادام العبد مفارقاً للذنوب ينبعى ان يغلب الخوف على الرجاء .

قال بعض السالكين : لونودى ليدخلنّ الجنّة جميع الخلق الاّ واحداً ، لخفت ان اكون ذلك الرجل ، لكن اذا قارب الموت ينبغى ان يغلب الرجاء وحسن الظنّ ، قال ﷺ : لاتموتنّ احدكم الاّ وهو حسن الظنّ بربّهوالرجاء غيرالتمنى

والمتمنّى مغرور يحسب نفسه راجياً فمن رجا شيئاً طلبه و من خاف شيئاً هرب منه و مالا يحمل على ذلك فهو حديث نفس لا وزن له و الخوف يوجب الزهد لاالحرص

الأصل الثالث : الزهد ، قال ﷺ : ازهد فى الدنيا يحبك الله و ازهد عمّا فى ايدى الناس يحبك الناس . وقال اذا اراد بعبد خيراً زهّده فى الدنيا و رغّبه فى الاخرة و بصّره بعيوب نفسه. وبداية الزهد ، التزّهد ، لأن نفسه مائلة الى الدنيا لكنه يجاهدها و حقيقة الزهد ان ينزوى عن الدنيا طوعاً مع القدرة عليها و امّا ان تنزوى عنك و انت راغب فيها ، فذاك فقر و ليس بزهد .

الأصل الرابع : الصبر : قال الله تعالى : انمّا يوّفى الصابرون اجرهم بغير حساب . وذكرالله ، الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً ، قال ﷺ : الصبر كنز من كنوز الجنّة . و التخلية و التزكية لاتتم الاّ بالصبر لأنّ جملة اعمال الايمان على خلاف باعث الشهوة و لذلك قال ﷺ : الصبر نصف الايمان . و الانسان لايزال فى جميع الحالات يحتاج الى الصبر لأنّ جميع مايلقى العبد فى حيوته امّا ان يوافق هواه او يخالفه ، فان وافق كالثروة و كثرة الجاه و الصحة فما احوجه الى الصبر فانه ان لم يضبط نفسه طغى و افسد و امّا ما يخالف الهوى ففى الطاعات يحتاج الى مجاهدة النفس و تحمّل مشاقّ العبادة و تخليصها عن الرياء و مكائد النفس و كلّ طاعة تحتاج الى الصبر فى اوّله بتصحيح النيّة و الأخلاص وايضاً حين الاشتغال كيلايتكاسل عن ادابه و سننه و الحضور و نفى الوسواس و ايضاً بعد العمل ليصبر عن ذكره و افشائه تخلّصاً عن الرياء و السمعة ، كما انّ المعاصى لابدّ من تركها على الصبر و المجاهدة مع الهوى ، قال ﷺ : المجاهد من جاهد هواه و المهاجر من هجر السوء. والصبر عن المعاصى اشدّ لاسيّما عن معصية صارت عادة مألوفة كمعاصى اللسان كالكذب و الثناء على النفس .

قال بعض الاكابر : ما كنّا نعدّ ايمان الرجل ايماناً ، اذا لم يصبر على الاذى ، قال الله تعالى : ولنصبرنّ على ماآذيتمونا . قال النبى ﷺ : من اجلال الله ان لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك .

الاصل الخامس: الشكر: قال الله تعالى: و اشكروالي ولاتكفرون . و قال: ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم . والشكر من المقامات العالية وهو اعلى من الصبر و الخوف والزهد وجميع المقامات المذكورة لأنها ليست مقصودة في انفسها و انما يراد لغيرها، مثل أن الصبر يراد منه قمع الهوى و الخوف سوط يسوق الخائف الى المقامات المحمودة والزهد هرب من العلائق الشاغلة عن الله؛ لكن الشكر مقصود لنفسه و لذلك لا ينقطع في الجنة. قال الله تعالى: وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين. ولا يتحقق الشكر الا مع العلم بالنعمة والمنعم، فليعلم الشاكر ان النعمة من الله والوسائط كلهم مسخرون مقهورون. ومتى اعتقدت ان لغير الله دخلاً في النعمة الواصلة اليك، لم يصح حمدك وشكرك، بل ذلك اشراك في النعمة والمنعم ومعلوم بالضرورة ان الخازن والوكيل، مضطر ان الى العطاء بعد الامر فهما مسخر ان، لادخل لهما بانفسهما في النعمة وحكمهما حكم القلم والكاغذ والحبر في التوقيع و ان قلوب الخلق خزائن الله و مفاتيحها بيدالله و فتحها بان يسلط عليها دواعي جازمة حتى يعتقد ان خيرها في البذل مثلاً فعند ذلك لا يستطيع ترك البذل ومن لايعلم ان منفعته في انفاعك، فلا يعطيك شيئاً فاذا هو ليس منعما عليك، لانه يسعى لنفسه، انما المنعم من سخره بتسليط هذه الدواعي عليه ولابد للشاكر ان يستعمل نعمه تعالى في محابه لافي معاصيه، مثل ان يستعمل عينه في مطالعة كتاب الله وشواهد قدرته وفي مطالعة السماوات و الارض و يستعمل اذنه في سماع الذكر و ما ينفعه في الاخرة و يعرض عن الاصغاء الى الهجر و الفضول و هكذا؛ فحينئذ من شرح الله صدره تمكن من الشكر فهو على نور من ربه، فيرى من كلشيء حكمته و محبوب الله فيه و من لم ينكشف له ذلك ، فعليه باتباع السنة و حدود الشرع فليعلم انه مثلاً اذا نظر الى محرم فقد كفر نعمة العين و نعمة الشمس و كفر بكل نعمة لايتم النظر الا بها، فان الابصار انما يتم و يتحقق بالعين و نور الشمس انما يتم بالسموات فهو قد كفر انعم الله في السموات والارض. وقس على هذا كل معصية، فانها انما يمكن باسباب يستدعي وجود جميعها خلق السماوات و الارض. وهاك مثالاً آخر و هو: ان الله سبحانه

خلق الدراهم و الدنانير لتكون حاكمة فى الاموال والامور ويعدل بهم القيم والعوض و لولا هما لتعذرت المعاملات اذ لايمكن اشتراء مثقال من الزعفران بالجمل ، والفرس بالتمر ، فمن كنزهما او اتخذمنهما آنية ، كان كمن حبس حاكماً من حكام المسلمين حتىّ تعطلت الاحكام او استعمل حاكماً من حكاّم المسلمين فى الحياكة و الفلاحة و تعطل الحكم و كلّ ذلك ظلم وتغيير لحكمة الله فى خلقه وعباده ومعاداة الله فى محابته و من لاينكشف له بنور البصيرة هذه الاسرار لم يعرف صورة الشرع ومعناه ولم يعرف قوله : والذين يكنزون الذهب و الفضّة ولاينفقونها الى ان يقول فبشرهم بعذاب اليم . فلا يتصوّر الشكر الاّ لمن قام لله بنواميس الشرع و لا يتحقق الشكر الا مع العلم بالنعمة والمنعم فاعرف المنعم واشكره .

الاصل السادس و السابع : الأخلاص و التوكل : قال الله تعالى : و من يتوكل على الله فهو حسبه . قال النبي ﷺ : لوانكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً و تروح بطاناً ، قال ﷺ : من انقطع الى الله كفاه كل مؤنة و رزقه من حيث لا يحتسب و من انقطع الى الدنيا و كله الله اليها . و المتوكل من لايرى فاعلاً سوى الله و يترجمها قولك : لا اله الاّ الله وحده لاشريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير . فمن قال ذلك صادقاً مخلصاً فقدتم توحيده و ثبت فى قلبه الاصل الذى منه ينبعث حال التوكل ، فان زعمت أن من اعطاك طعاماً فتقول: انما يطعمنى باختياره ، ان شاء اعطى وان شاء منع ، فكيف لا اراه فاعلا . فهذا الزعم باطل لأنك ترى الكثير من الاسباب ، ولاترى ارتباط السلسله بمسبّبها ، مثل انّك رأيت المطر سبباً فى النبات ، فاعلم أن المطر مسخر بواسطة الغيم و الغيم مسخّر بواسطة الريح و كذلك الى ان ينتهى الى اوّل لامحالة. ولا يحصل التوكل للمتوكّل الاّ ان يعتقد جزماً او ان ينكشف له بالبصيرة بانهّ لو خلق الخلائق كلّهم على عقل اعقلهم ثمّ زادهم اضعاف ذلك علماً وحكمةً ، ثمّ كشف لهم عواقب الأمور واطلّعهم على اسرار الملك و الملكوت ، ثم امرهم ان يدبّروا الملك و الملكوت ، لما دبّروه باحسن ممّا هو عليه ولم يمكنهم ان يزيدوا او

ينقضوا جناح بعوضة ، بل شاهدوا جميع ذلك ، عدلاً محضاً و حقّاً صرفاً لانقص فيه و ان كلّ ما يرون فيه نقصاً فيرتبط به كمال آخر اعظم منه و ماظنّوه ضرراً فتحته نفع اعظم منه ، لا يتوصّل الى ذلك النفع الّابه ، فاذا حصل للانسان هذه المعرفة ، يحصل التوكّل و يطمئنّ قلبه بالتفويض وغير مستعين باحادالناس ، لعلمه بانّ وكيله كافيه و هو جواد كريم ، فيكون هذا المتوكل حكمه ، حكم الصبيّ فى ثقته بامه و فزعه اليها و قسم آخر و هو اعلى درجة بل يكون بين يدى الله ، كالميّت بين يدى الغاسل ، لا كالصبىّ يزعق بامه و يتعلّق بذيلها ، بل يعلم انه ان لم يطلب امه ، فامه تطلبه و تبتدى بارضاءه و ان لم يتعلق بذيلها. ولهذا فى بعض المقامات يأبون الدعاء و السؤال .

لكن اعلم : انّه ليس من شرط التوكل ترك الكسب و التداوى و الاستسلام للمهلكات و ذلك خطاء لان ارتباط هذه المسببات بهذه الاسباب من السنةالتى لاتجد لها تبديلا. ومثال التارك للكسب ، مثال من لايمدّ يده الى الطعام و هو جائع ويقول هذا سعى و انا متوكل ، او يريد الولد ولا يواقع اهله اويريدالحنطة ولا يبث البذر فانّ تعطيل الاسباب المقدرة من الخالق ، ابطال الحكمة و هو جهل ، ثم لا يتكل على اليدبافربما يفلج وعلى الطعام فربمّا يهلك و يفسد ، بل يتكل بقلبه على خالقهما و لاحول و لا قوّة الّا بالله ، فالحول هو الحركة و القوّة هى القدرة ، فاذا كان هذا حالك فانت متوكّل وان سعيت . وترك الادّخار محمود لمن غلب يقينه واما الضعيف الّذى يضطرب قلبه ، لو لم يدّخر ، لم يتفرّغ للعبادة ، فالا فضل له ان يدع طريق المتوكّلين ولا يحمل نفسه مالا يطيقه ؛ اذ فساد ذلك فى حقّه اكثر من صلاحه و كلّ على حسب قوّته وقد ينتهى القوّة الى ان يسافرفى البوادى من غيرزاد ، لكن الضعيف اذا فعل ذلك فهو عاص ملق نفسه الى التهلكة ولاشكّ انّ طول الأمل يناقض التوكّل ، فان قنع بقوت يومه و فرّق الباقى فهوتامّ التوكّل ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و مهما قلّت مدّة الادّخار كانت الرتبة اعظم ـ جعلنا الله من المتوكّلين ـ

الاصل الثامن : المحبّة ، قال الله تعالى : يحبهم ويحبّونه . قال النّبى صلى الله عليه وآله وسلم:

لايؤ من احدكم حتّى يكون الله ورسوله احبّ اليه ممّاسواهما . قال بعض الاكابر: من ذاق من خالص محبّة الله منعه ذلك من طلب الدنيا واوحشه من جميع البشر . واكثر المتكلّمين فسرّوا محبّة الله بامتثال اوامرالله وما لايشبه شيئا ولا يشبهه شيىء ولايناسب طباعنا بوجه من الوجوه ، فكيف نحبّه و انّما يتصوّر منّا ان نحبّ من هو من جنسنا وتحقيق المسئلة انّه كلّ لذيذ محبوب يميل النفس اليه واللذّة تتبع الادراك والادراك ادراكان: ظاهر و باطن. وادراك الظاهر بتوسط الحواس الخمس، لكن ادراك الباطن بتوسّط اللطيفة الّتي محلّها القلب ، تارة يعبّر عنها بالعقل وتارة بالنور وتارة بالحس السادس الّذى خاصيّة الانسان ونحن نرى ان الانسان يحبّ الملك الرؤف العادل العطوف على الرعيّة ، كما انّه يبغض الظالم الجاهل الغليظ و كذلك يحبّ الموصوفين بالكمال مثل الانبياء و الصلحاء ويجد الانسان فى نفسه هزّة و ارتياحاً و ميلا الى هذه الطبقة ، بل يوجبون على انفسهم الذبّ عنهم و بذل المال لهم و فى سبيلهم ، ثمّ اذا احببت هؤلاء لهذه الصفات الحسنة وعلمت انّ النبى صلّى الله عليه وآله وسلّم كان اجمع منهم لهذه الخصال ،كان حبّك له اشدّ بالضرورة ، فاذا رفعت نظرك الان من النبىّ الى مرسل النبىّ و خالقه والمتفضّل على الخلق ببعثته لعرفت انّ بعثة الانبياء حسنة من حسناته وقطرة من بحر علمه وقدرته تعالى، فانّ الانبياء مع هذه الاوصاف الحسنة مربوبون ، لاقوام لهم بانفسهم ولايملكون موتاً ولاحيوة و لارزقاً ولااجلا. والكلّ تحت قبضته فحينئذ كيف يمكنك ان لاتحبّ خالقك الذى محيط ومحسن على الذرّة والدرّة و تأمّل: هل لاحد فى العالم احسان اليك سوى الله ، و هل لك لذّة و تنعّم فى شيىء و ميل على نعمة الّا و الله خالقها و خالق الشهوة اليها والتلذذ بها ، فلا تكوننّ اقل من الكلب ، فانّه يحبّ صاحبه الّذي يحسن اليه فان لم تقدران تحبّه لجلاله و عظمته و جماله كما تحبّه الملائكة فانظر الى لطف صنعه فى اعضائك لحبّه باحسانه اليك ، فتكون اقلا من عوام الخلق و اعظم نعم الله علينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم «هو الّذى بعث فى الاميّين رسولا منهم» وبوجوده صلّى الله عليه وآله وسلّم تمت النعم و لو كنت تعرف حقيقة هذه النعمة العظيمة لكنت تبذل روحك بذكر اسمه مرّة واحدة وزادت درجة محبتك و القلب السليم غير غافل عن هذه المعرفة و كما انّ

اوفق الاشياء للابدان ، الاغذيةاللطيفة ، فكذلك اوفق الاشياء للقلوب ، المعرفة ؛ لكنّ الشهوات ونيلها ممرضة القلوب شيئاً فشيئاً حتّى لايقبل شهوة معرفة الله اصلا ، كما يفسد مزاج المريض ، فيسقط شهوته عن الغذاء وينعكس طبعه فيشتهى الطين و الاشياء المضرّة المهلكة وهو مقدّمات الموت .

و اعلم انّ مرض القلب ينتهى الى حدّ يستكره معرفة الله ويبغضها ويبغض اهلها، بل يبغض ويكره جميع الانبياء و الصلحاء و لا يدرك حينئذ الّا لذة المطعم و المنكح و الرياسة وذلك هوالقلب المنكوس و هو الميّت الّذى لايقبل العلاج ، فيكون اهل هذه الاية : انّا جعلنا على قلوبهم اكنّةً ان يفقهوه و فى آذانهم وقراً وان تدعوهم الى الهدى فلن يهتدوا اذاً ابداً اموات غير احياء و ما يشعرون .

و بالجملة فجميع الناس يدّعون محبّة الله لكن لها علامات و اعظم علاماتها تقديم امرالله على هوى النفس مطلقاً و الشوق الى الموت ، اوالخلوّعن كراهيّة الموت، الّا اذا تشوق الى زيادة المعرفة ، فلهذه الجهة لايحبّ الموت .

الاصل التاسع : الرضاء بالقضاء ، قال النبىّ ﷺ : اذا احبّ الله عبداً ابتلاه ، فان صبر اجتباه و ان رضى اصطفاه وقال ﷺ : اعبدوالله بالرضا ، فان لم تستطيعوا ففى الصبر على ماتكره خير كثير . و اعلم انّه قدانكر الرضا جماعة و قالوا: لايتصوّر الرضا بما يخالف الهوى و انّما يتصوّر الصبر فقط . وقال بعض: يمكن الرضا بمايخالف الطبع و الهوى ، لانّه ولويكره بالطبع ما يخالف هواه و لكن رضى به لعقله وايمانه بجزالة ثواب البلاء ، كما رضى المريض بالم الفصد و شرب الدواء ، لعلمه بانّه سبب الشفاء ، حتّى انّه يفرح ممّن ياتى له الدواء و الفصّاد .

روى : انّ نبيّا كان يتعبّد فى جبل و كان بالقرب منه عين فاجتازبها فارس و شرب و نسى عندها صرّة فيها الف دينار ، فجاء آخر و اخذ الصرّة ، ثمّ جاء رجل فقير و على ظهره حزمة حطب ، فشرب واستلقى ليستريح ، فرجع الفارس فى طلب الصرّة، فلم يرها ، فاخذ الفقير وطالبه و عذّبه فلم يجد عنده فقتله ، فقال النبىّ يا الهى ما هذا الامر ، اخذ الصرّة ظالم آخر و سلّطت هذا الظالم على هذا الفقير حتّى قتله ،

فاوحى الله اليه : اشتغل بعبادتـك ، فليس معرفـة اسرار الملك من شأنك ، انّ هذا الفقير كان قتل ابا لفارس ، فمكنّته من القصاص وانّ ابالفارس كان قداخذ الف دينار من آخذ الصّرة ، فرددته اليه من تركته . و من ايقن بسبب تفاصيل القضاء لم ينطو ضميره الّا على الرضا بكلّ مايجرى من الله .

و اعلم : انّه لاينبغى ان يظنّ ظانّ انّ معنى الرضابالقضاء ترك الدعاء والاسباب و تترك السهم الذى ارسل اليك حتّى يصيبك مع قدرتك على دفعه بـالترس و ترك الاسباب مخالفة لمحبوبه و مناقشة لرضاه ، اذ ليس من الرضا العطشان ان لايمدّ اليد الى الماء البارد زاعماً انّه رضى بالعطش الّذى من قضاء الله ، بل من قضاء الله و محبّته ان يزول العطش بالماء ؛ بل رعاية سنة الله هى الرضا بالقضاء .

الاصل العاشر : ذكر الموت و هو عظيم النفع ، اذبه يبغض الدنيا و ينقطع علاقة القلب عنها ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : اكثروا من ذكر هادم اللّذات و قال صلى الله عليه وآله وسلم : لو يعلم البهائم من الموت ، ما يعلم ابن آدم ، لما اكلتم منها سمينا . و اكرم الناس و اكيسهم اكثرهم للموت ذكراً و اشدّهم له استعداداً ، فانّ الموت عظيم هايل ، و ما بعده اعظم منه و فى ذكره منفعة ، فانّه ينقص الدنيا و يبغضها الى القلب و بغض الدنيا رأس كلّ حسنة ، كما انّ حبّها رأس كلّ خطيئة و لاسبب لأقبال الخلق على الدنيا الّا قلّة التفكّر فى الموت . و طريق الفكر فيه ان يفرغ الانسان قلبه ويجلس فى خلوة و يباشر ذكر الموت بصميم قلبه و يتفكّر فى اقرانه الّذين مضوا فيتذكّرهم واحداً و احداً ، وحرصهم واملهم ، ثمّ يتذكّر مصارعهم عند الموت و اجسادهم كيف تمزّقت فى التراب ، ثمّ يرجع الى نفسه ، فيعلم انّه كواحدمنهم ، امله كأملهم و اعضائه كأعضائهم كيف صاروا جيفةً . قال صلى الله عليه وآله وسلم لعبدالله : اذا اصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء و اذا امسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح و خذ من حيوتك لموتك و من صحّتك لسقمك ، فانّك يا عبدالله لاتدرى ما اسمك غداً . و اشترى اسامة و ليدةً الى شهرين بمائة ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : الاتعجبون من اسامة انّه لطويل الأمل و الّذى نفسى بيده ما طرفت عيناى الّا ظننت انّ شفريها لايلتقيان و لالقمت لقمةً الّا ظننت انّى لا اسيغها حتّى

اغصّ بها من الموت ، ثمّ قال ﷺ : يا بنى آدم ان كنتم تعقلون فعدّوا انفسكم من الموتى و الّذى نفسى بيده انّ ما توعدون لآت و ما انتم بمعجزين و قال ﷺ : نجا اوّل هذه الامّة باليقين و الزهد و يهلك آخرها بالبخل و الأمل .

و اعلم : انّ الروح الانسانى ، لايفنى و لايموت ، بل يتبدّل بالموت حالها فقط و يتبدّل منزلها فيرمى من منزل الى منزل و القبر فى حقّها امّا روضة اوحفرة .

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ اِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّى يَاْتِىَ اللّهُ بِاَمْرِهِ اِنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْىءٍ قَدِيرٌ »

روى انّ فنحاص بن عازوراء اليهودى و زيد بن اقيس و نفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمانى و عمّار بن ياسر بعد وقعة احد : الم تروا ما اصابكم ، و لوكنتم على الحقّ ما هزمتم ، فارجعوا الى ديننا ، فهوخير لكم و افضل ، ونحن اهدى منكم سبيلاً ، فقال عمّار كيف نقض العهد فيكم ، قالوا شديد ، قال فانّى قد عاهدت ان لا اكفر بمحمّد ﷺ ما عشت ، فقالت اليهود : امّا عمّار ، فقد صبا ، اى خرج عن ديننابحيث لايرجى منه الرجوع اليه ابداً ، فكيف انت ياحذيفة ، الاتبايعنا ، قال حذيفة: رضيت بالله ربّاً وبمحمّد ﷺ نبيّاً و بالاسلام ديناً و بالقرآن اماماً و بالكعبة قبلة و بالمؤمنين اخواناً ، فقالوا : و إله موسى لقد اشرب فى قلوبكما حبّ محمّد ﷺ ، ثمّ اتيا رسول الله ﷺ و اخبراه ، فقال ﷺ ، اصبحتما خيراً وافلحتما .

الحاصل « **و دّ كثيرمن اهل الكتاب** » اى احبّ و ودّ كثير من اليهود « **لو يردو نكم** » اى ان يردوكم ، فانّ «لو» من الحروف المصدريّة اذا جائت بعد فعل ، يفهم منه معنى التمنّى ، قوله : و دّوا لوتدهن ، اى احبّوا ان يصرفوكم عن التوحيد «**من بعدايمانكم**» يا معشر المؤمنين « **كفاراً** » مرتدين ، حال من ضمير

المخاطبين، او مفعولاً ثانياً ليرودّنكم على تضمينه معنى يصير: نكم «**حسداً**» علّة لقوله «ودّ» اى من اجل الحسد «**من عندانفسهم**» و من قبل ميلهم ومشتهياتهم، لا من قبل الميل الى الحقّ والتديّن بل منبعثاً من اصل الحسد «**من بعدماتبين لهم الحق**» و ظهر لهم انّ محمّداً قوله حقّ و رسول لأنّه مذكور فى كتابهم على ما رأوا منه المعجزات «**فاعفوا**» العفو ترك عقوبة المذنب، يقال: عفت الريح المنزل اى درسته. و من ترك عقوبة المذنب، فكانّه درس ذنبه، حيث انّه ترك المجازاة، و الفرق بين العفو والصفح، انّه قد يعفو الانسان المجازاة و لا يصفح، لأنّ الصفح ترك التقريع باللسان و الاستقصاء فى اللوم و لذا قال «**و اصفحوا**» و ليس المراد بالعفو والصفح فى الآية الرضا بمافعلوا بل المراد ترك المقاتلة والاعراض عن مساويهم «**حتى ياتى الله بامره**» و يحكم الله بحكمه الّذى هو الاذن فى قتالهم و ضرب الجزية عليهم «**ان الله على كلشيىء قدير**» فيقدر على الانتقام منهم اذا جاء اوانه.

«**وَ اَقيمُوا الصَّلٰوةَ وَ آتُوا الزَّكٰوةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِاَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ**»

«**و اقيموا الصلوة و آتوا الزكوة**» الآية عطف على قوله: فاعفوا، امرهم بالعبادة و البرّ من الواجبات باقامة الصلوة واداء الزكوة، عمّ بعد التخصيص، فامرهم بالتطّوعات بقرينة «**و ما تقدموا لانفسكم من خير**» فانّ الخير يتناول اعمال الخير كلّها، واجباً كان او نفلاً وقدّم الواجب لعظم شأنه، فالصلوة قربة بدنيّة و الزكوة قربة ماليّة و الصلوة شكر الاعضاء و الزكوة شكر الاغنياء و ما، فى قوله: وما تقدّموا، شرطيّة: اىّ شيىء من امور الخير تقدّموه وتسلفوه، فهو لمصلحة انفسكم و «**تجدوه**» اى ثوابه وجزائه، لا عينه، محفوظاً «**عند الله**» فى الاخرة، فتجدوا الثمرة و اللقمة مثل جبل احد، كما فى الحديث: اذامات العبد، قال الناس: ما خلف و قالت الملائكة: ماقدّم.

«**ان الله بماتعلمون بصير**» باعمالكم لا يخفى عليه القليل ولا الكثير وهو عامّ فى الخير و الشر و الانسان اذامات انقطع عمله، الّا ان يبقى بعده واحد من الاولاد

الثلاثة الّتي لاينقطع اجرها : الأوّل ـ مايتولّد من مال الانسان، كبناء المساجد و القناطر في طرق المسلمين للتسهيل عليهم و الرباط و الاوقاف و امثالها . و الثاني ـ ما يتولّد من عقله و علمه المنتفع به في الدين ، من استنباط حكم شرعيّ وتاليف و تصنيف كتب الحديث وما يحتاج اليه في امور الدين . و الثالث ـ ما يتولّدمن النفس، كالبنين والبنات ، بشرط الصلاح والتقوى ، لأنّ الاجرلايحصل من غيره . و لا يمكن هذا الامر .

« وَ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ اِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً اَوْ نَصَارى تِلْكَ اَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلى مَنْ اَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ اَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

« **وقالوالن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى** » : نزلت في وفد نجران و كانوا نصارى اجتمعوا في مجلس رسول‌اللهﷺ مع اليهود ، فكذّب بعضهم بعضاً ، فقالت اليهود لبني نجران : لن يدخل الجنّة الّا اليهود و قال‌بنو نجران‌لليهود: لن يدخلها الّا النصارى ، فحكى‌الله مقالتهم ولم يقل كانوا ، حملا على‌لفظ«من»وانّما جمع الخبر مع انّ‌المطابقة شرط في المبتداء والخبر ، فباعتبارمعنى «من » واليهود، جمع هائد : اى تائب ، لتوبتهم عن عبادة العجل . و النصارى جمع نصران ،كسكارى جمع سكران .

« **تلك امانيهم** » اى تلك الامانيّ الباطلة امانيّهم وهي امنيّتهم دخول‌الجنّة و ان يردّوكم كفاراً و ان لا ينزل عليكم الخير «**قل هاتوا برهانكم** » اصله آتوا، قلبت الهمزة هاءً ، اى أحضروا حجّتكم على اختصاصكم بدخول الجنّة ولم يقل براهينكم ، لانّ‌دعواهم كانت واحدة وهي نفي‌دخول غيرهم الجنّة . والجنّة على تلك الدعوة واحدة«**ان كنتم‌صادقين**» في دعواكم .

« **بلى من اسلم وجهه لله** » اثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنّة : بلى يدخلها من اخلص نفسه لله تعالى ولايشرك به شيئاً «**وهو محسن**» حال من ضمير اسلم و قد فسرّه النبى صلى الله عليه وآله بقوله : ان تعبدالله كانّك تراه و ان لم تكن تراه ، فانه يراك. و هذا المعنى حقيقة الايمان «**فله اجره**» و ثوابه ثابت «**عند ربه**» و العنديّة القرب و التشريف «**ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون**» اذا كانوا بهذه الصفات بنيّات صادقة خالصة عن مطلق الشوائب و لذا قال صلى الله عليه وآله : انّما الاعمال بالنيّات ، ونيّة المرء خير من عمله . لانّ المقصود من العمل ، الامتثال للاوامر ، حتى يحصل به تنوير القلب و معرفة الله و يطهّره عما سوى الله حتى يحصل العبوديّة و النيّة صفة القلب و تأثير صفة القلب اقوى من تاثير صفة الجوارح ، فانّ القلب اشرف الجوارح ، ففعله اشرف الافعال ، فكانت النيّة افضل من العمل و بكثرة النيّة ، تكثر الحسنة ، كمن قعد فى المسجد و ينوى فيه نيّات كثيرة ، مثل أن يعتقد انّه بيت الله و يقصد به زيارة مولاه ، كما قال صلى الله عليه وآله :من قعد فى المسجد ، فقد زارالله و حقّ على المزور اكرام زائره ، ثم ينتظر الصلوة بعد الصلوة ، فيكون حال الانتظار كمن هو فى الصلوة . و ثالثها اغضاء السمع و البصر وسائر الاعضاء عمّا لاينبغى ، فانّ الاعتكاف كفّ وهو فى معنى الصوم و هو نوع ترهّب ، كما قال صلى الله عليه وآله : رهبانيّة امّتى القعود فى المساجد . و رابعها ان يقصد افادة علم اوامر من الدين . وخامسها ان ترك الذنوب حياء من الله ، فهذا طريق تكثير النيّة وقس عليه سائر الطاعات والنية تغيّر الموضوع ، مثل انّ التطيب اذا اراد به التنعّم بلذّات الدنيا و اظهار التفاخر على الناس او ليتودّد به الى قلوب النساء ، فكلّ ذلك يجعل التطيّب معصيةً و جاء يوم القيامة و ريحه انتن من الجيفة ، كما ورد به الخبر وان كان قصد به الامتثال و تعظيم المسجد و دفع الروائح المؤذية عن عبادالله ، فهو عين الطاعة . والضابط ان يكون الفعل مشروعاً و يكون القصد الداعي الحق فقط . ثمّ ان الناوى اذا اشتهى امراً فيقول مثلاً عند تدريسه اوتجارته ان ادرّس لله ، او اتجر لله ، يظنّ ان ذلك نيّة و هيهات فذاك حديث نفس ، او حديث لسان و النية بمعزل عن ذلك ، انّما النيّة انبعاث النفس وميلها الى ما ظهرلها انّ فيه بوجه القربة وذلك

قد يتيسّر في بعض الاوقات و قد يتعذر وكذا الكلام في المطاعم والمناكح ولا يمكن هذا الامر الّا بعد تحسين الاخلاق و لعلّك تظنّ بنفسك حسن الخلق و انت عاطل عنه و ينبغي ان يحكم فيه غيرك و تسأل صديقاً بصيراً لايداهن، لأنّ اكثر الاخلاق يتعلّق بالغير، فبعدان تبيّن لك معائب اخلاقك، فتبدء بالاهم فالاهم و اوّل ما تدفعه عن نفسك حبّ الدنيا فانّ سائر المعاصي والاخلاق الذميمة تتبعه فاطلب خلوة خالية و تفكر في سبب اقبالك على الدنيا و اعراضك عن الآخرة، فلا تجد له سبباً الّا الشهوة الفانية و انّ اقصى عمرك في الشهوات مائة سنة و قد فاتك ملك لا آخر له و اذا كانت الدنيا مملوّة ذرة و قدّر طائرا في كلّ الف سنة و يلتقط في كلّ الف سنة حبّةً واحدةً، فيفنى الذرّه و لا يفنى الابد، لأنّ الباقي لا نهاية له و جملة عمرك بالاضافة الى بقائك في الاخرة اقصر من لحظة الى جميع عمرك و لعلّك تقول: انّما افعل ذلك على توقّع العفو، فانّه رحيم كريم فاقول: و لم لاتترك الحراثة والتجارة و طلب المال على توقّع العثور على كنز في خراب، فان الله كريم و توقّع العفو مع الحرص على الدنيا وخراب الاعمال، كتوقّع الكنز في الخراب، بل ابعد، مع انّ الله تعالى نبّهك، فقال: وان ليس للانسان الّا ما سعى. ثم رغّبك عن طلب المال فقال: و ما من دابّة في الارض الّا على الله رزقها. فما بالك تكذب بكرمه في الدنيا ولاتتكل عليه؛ ثمّ تخدع نفسك بالكرم في الآخرة وانت تعلم انّ ربّ الدنيا والآخرة واحد. و لعلّك تقول: انّ امور الدنيا قد انكشفت لي بالعيان و امّا امر الآخرة فلم اشاهده ولست اجد التصديق الحقيقي في قلبي فلذلك فترت رغبتي في ترك الدنيا نقداً، بما هو موعود نسيةً و لست اثق به. فحينئذ تفكّر في اقاويل اهل البصائر من صدر العالم والناس في امر الآخرة اصناف: صنف ـ وهم الاكمل و الاكثر ـ اثبتوا الجنّة و النار كما ورد به الكتب السماويّة و الاخبار من لدن آدم ﷺ الى نبيّنا ﷺ وقد سمعت انواع نعيمها و نكال جحيمها. و صنف لم يثبتوا اللذات والآلام الحسّية، بل اثبتوها على سبيل التخيّل كما في المنام حتى يكون كلّ واحد في جنّة اونار وحده و زعموا

انّ تأثير ذلك فيه كتأثير الحقيقة، لأنّ تألّم النائم كتألم اليقظان و انمّا يخلصه عنه التنبيه و ذلك فى الاخرة دائم لا انقطاع له . و صنف من الاطبّاء و المنجّمين ، اقتصر نظرهم على الطبايع الاربع و مزاجها ولم يدركوا الاالروح الجسمانى الذى هو بخار انضجته حرارة القلب ، ينتشر فى العروق الضوارب الى جميع البدن ويقوم به الحسّ والحركة و ظنّوا انّ الموت عدمه وانه يرجع الى فساد المزاج . والصنفان الاوّلان قائلون و متفقون على اثبات سعادة مؤبّدة و متفقون بان السعادة لاتنال الّا بالاطاعة و ترك الدنيا ، فانت فى حق هؤلاء اى الصنف الآخر امّا ان تجوز غلطهم ، او تعتقد صدقهم فان جوّزت خطاء هم لزمك الاعراض عن الدنيا بمجرّد الاحتمال ، فانّك لو كنت جايعا و ظفرت بطعام و هممت باكله فاخبرك صبىّ انّ فيه سمّا اوحيّة و لغت فيه فآسيت الجوع و تركت الأكل و تقول ان كان كاذباً فليس يفوتنى الّا الاكل وان كان صادقا ففيه الهلاك ، فحينئذ كيف يستجيز العاقل الهجوم على الدنيا ولا يحذر من هذا السم الّذى لم يخبر به الصبىّ ، بل اخبر به جميع الكتب السماوية و اهل الوحى .

وان قلت : انى اعلم ضرورة صدق قول الصنف الآخر و ان الموت عدم وانه لاعقاب و لاثواب و انّ الانبياء كلّهم مغرورون ملبّسون و انّما الحقّ ما اقول ، فمن كان هكذا لاريب فى فساد مزاجه و ركاكة عقله ولكن معهذا يقال له : ان كنت تطلب الراحة فى الدنيا فقط ، فانّ الراحة فى الحريّة و الخلاص عن قيد الشهوات و ما المستريح فى الدنيا الّا تاركها لكثرة عنائها وقيل فى حقهم قال الله تعالى : ذرهم يأكلو و يتمتّعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »

«وقالت اليهود ليست النصارى على شيء» بيان لتضليل كلّ فريق صاحبه اى ليست النصارى على امر يصح و يعتد به **« و قالت النصارى ليست اليهود على شيء »** اى قالوا ما قالوا **«و هم»** والحال انّ كلّ فريق منهم **«يتلون الكتاب »** و الكتاب للجنس و هذا الكلام توبيخ و منع لهم لأنّ حق من حمل التوراة او الانجيل اوغيرهما من كتب الله و آمن به ان لايكفر بالباقى ، لأنّ كلّ واحد من الكتابين مصدّق للثانى فانّ التوراة مصدّقة بعيسى و الانجيل مصدّق بموسى فاذا كانوا مع العلم والتلاوة والمعرفة يختلفون هذا الاختلاف ، فكيف حال من لايعلم **«كذلك قال الذين لايعلمون»** منهم **« مثل قولهم »** مثل قول العالمين و قيل : المراد من الذين لايعلمون ، كفار العرب ومشركيهم ، قالوا : انّ المسلمين ليسوا على شيء فالمراد انّ اليهود و النصارى الذين يقرؤن الكتب اذا قالوا كذلك ، فكيف بهؤلاء الاميّين « **فالله يحكم بينهم** » : بين الفريقين **« يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »** من امر الدين .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

«ومن اظلم ممن منع مساجد الله» « من » فى الاصل كلمة استفهام وهى هيهنا بمعنى النفى اي لااحد اظلم ممّن منع مساجد الله . و اختلف فى الذين منعوا و ذكروا

اقوالا : اوّلها - قال ابن عباس : انّ طنطيوس الرومي ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه و القى فيه الجيف و سبى ذرارى بنى اسرائيل و احرق التوراة و ذبح فيه الخنازير و حاصر اهله و قتلهم و سبى البقيّة ولم يزل بيت المقدس خراباً حتى بناه الاسلام في زمن عمر . وثانيها - قال الحسن و قتادة والسدّى : نزلت فى بخت النصر حيث خرب بيت المقدس مع بعض النصارى . قال ابوبكر الرازى فى كتاب احكام القرآن هذان الوجهان غلطان ، لأنّه لا خلاف بين اهل السير انّ عهد بخت نصر كان قبل مولد مسيح ﷺ بدهر طويل ، والنصارى كانوا بعد المسيح ، فكيف يكونون مع بخت النصر فى تخريب بيت المقدس و ايضاً فانّ النصارى يعتقدون فى تعظيم بيت المقدس ، مثل اعتقاد اليهود ، فكيف اعانوا على تخريبه . وثالثها - انّ الآية نزلت فى مشركى العرب الذين منعوا الرسول ﷺ عن الدعاء الى الله بمكّة والجئوه الى الهجرة فصاروا مانعين له ولاصحابه ان يذكروا الله فى المسجد الحرام و طرح ابوجهل الكثافات على ظهر رسول الله ﷺ ، فقيل : ومن اظلم ممّن منع - الاية - ورابعها - قال ابومسلم : المراد منه الذين صدّوه عن المسجد الحرام حين ذهب اليه من المدينة عام الحديبيّة واستشهد بقوله : هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام و بقوله : و مالهم الا يعذبهم الله و هم يصدّون عن المسجد الحرام . فان قيل كيف يجوز حمل لفظ المساجد على المسجد الحرام ، فهذا كمن يقول لمن اذى صالحاً واحداً : لم تؤذى الصالحين . او المسجد موضع السجود ، فالمسجد الحرام ، مساجد ولايكون مسجدا واحدا .

«**ان يذكر فيها اسمه**» ثانى مفعولى منع فانّه ممنوع ، اى من ان يسبّح ويقدّس و يصلّى له فيها «**وسعى**» و عمل «**فى خرابها**» بالهدم و التفريق ، و الخراب اسم للتخريب ، كالسلام بمعنى التسليم واصله التثليم و التفريق «**اولئك**» المانعون «**ماكان لهم ان يدخلوها الا خائفين**» اى ما كان لهم ان يدخلوها الّا بخشية و خضوع ، فضلاً عن الاجتراء على تخريبها اى حقهم الذلة وارتعاد الفرائص من المؤمنين اذا ارادوا ان يدخلوها ، فضلاً عن ايذاء المؤمنين لولا ظلم الكفرة و عتوّهم . و قيل ان المعنى بشارة من الله للمسلمين ، بانه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد

و انّه سيذلّ المشركون لهم ، حتى لا يدخلوها الّا بطريق الخوف فيعاقب او يقتل ، ان لم يسلم و قدانجزالله وعده وماكان يجترى احد من المشركين ان يحجّ و امرالنبىّ ﷺ باخراج اليهود من جزيرة العرب و قدوقع عليهم من الصغار و الذلّ بالجزية كما قال سبحانه : ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر .

و قال قتاده و السدّى : قوله « الّا خائفين » بمعنى انّ النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلّا خائفين ولا يوجد فيه نصراني الّا اوجع ضربا وهذا القول مردود، لأنّ بيت المقدس غزاه طنطيوس الرومى وصارفى ايدى النصارى اكثر من مائة سنة ، حتى استخلصه الملك الناصر صلاح الدين يوسف من آل ايّوب شاه الدوينى و قصّته مشهورة و قد وقع بيدالمسلمين ثانياً و كان فتح الملك الناصر سنة خمسمائة و خمس و ثمانين بعد الهجرة الى يومنا هذا و على ما اشتهرت انّه عاد اليهم ثالثة اوكاد و ذلك بشؤم العجوزالملعونة وهى الدنيا ، فاحتالت بانواع الدهى و المكر، فاشترت يوسف الصديق بدراهم مموّهة و استعبدها ، فالويل لمن باع الحرّ باسم الحرية ولم يعرف معناها و اخسف القمر باطماع البدرة و كان من باعه من تلامذة ابن المقنع بل استاذه وابن المقنع صاحب البدر المعروف بالتخشب و هذا الاستاد صاحب بدرة الذهب ، فيالها من صفقة ما اخسرها و اضرّها على الاسلام ؛ اللهم انّى ابرء ممّن باع و اشترى و خدع و افترى ، فاقسمك بكتابك المنزل - وفيه اسمك الاكبر و اسماؤك الحسنى - ان يؤيّد دين نبيك و تعزّ الاسلام و اهله و محلّه و ظهر بيتك للطائف و العاكف واجعل لى هذه البرائة وسيلة اليك لغفران ذنوبى و اجعلها حجة لى يوم القاك - انتهى -

قال بعض العلماء : تعطيل المسجدعن العبادة و الذكر، تخريب له ، لأنّ المقصود من بنائه ، هو الذكر و العبادة فيه ، فمادام لم يترتّب عليه هذاالمقصود ، صار كانّه هدم وخرب .

قال النبىّ ﷺ : اذا رأيتم الرّجل يعتادالمساجد ، فاشهد واله بالايمان لقوله

تعالى : انما يعمر مساجد الله من آمن بالله ، فجعل حضور المساجد عمارة لها .

قال اميرالمؤمنين ﷺ : ستّ من المروّة ، ثلاث في الحضر و ثلاث في السفر ، فامّا اللاتى فى الحضر : فتلاوة كتاب الله و عمارة مساجد الله و اتخاذ الاخوان فى الله . وامّا اللاتى فى السفر ، فبذل الزاد و حسن الخلق و المزاح فى غير معصية الله وعدّ من علامات الساعة : تطويل المنارات و تنقيش المساجد ـ وتخريبها تخليتها عن ذكر الله فتعطيل المساجد عن التلاوة و عن الصلوة و عن اظهار شعائر الاسلام اقبح سيئة .

و فى الحديث : من زاربيت المقدس محتسباً ، اعطاه الله ثواب الف شهيد و حرّم الله جسده على النار ، و من زار عالماً فكانما زار بيت المقدّس ـ كذا فى مشكوةالانوار ـ

و بالجملة : فظاهر قوله (ومن اظلم ممن منع مساجدالله ان يذكر فيها اسمهو سعى فى خرابها) يقتضي ان يكون الساعى فى تخريب المساجد و تعطيلها بسبب من الاسباب عن العبادة ، اسوء حالا من كلّ فاسق و هو فى اعظم درجات الفسق ، كما انّ الساعى فى عمارته بالعبادة فى اعظم درجات الايمان لقوله : انّما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الاخر لأنّ كامة « انّما » للحصر فالويل كلّ الويل لمن اغلق ابواب المساجد بتعطيلهاعن العبادة و فتح ابواب بيوت الخمر .

و فى الحديث عن ابى هريرة ، قال النبيّ ﷺ : احب البلاد الى الله ،المساجد و ابغضها اليه اسواقها و السرّ العقلى فى الحديث انّ المسجد مكان لذكر الله ، حتى اذا دخله الغافل اشتغل بالذكر والسوق على الضدّ من ذلك ، لأنّه موضع البيع والشراء والاقبال على الدنيا و ذلك ممّا يورث الغفلة عن الله ، حتّى انّ الذاكر اذا دخله فانّه يصير غافلاً فى الغالب .

و فى الحديث : من يطهّر في بيته ، ثمّ مشى الى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته احداها تحط خطيئةً والاخرى ترفع درجة ـ رواه مسلم ـ و عن ابى سعيد الخدرى : انّ هذه الاية (انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا و

آثارهم) نزلت فی حقّهم .

روی عقبة بن عامر الجهنی عن النبي ﷺ قال : اذا تطهّر الرجل ، ثمّ مرّ الی المسجد یراعی الصلوة ، کتب له کاتبة او کاتباه بکلّ خطوة یخطوها الی المسجد ، عشر حسنات و القاعد الّذی یرعی الصلوة ، کالقانت و یکتب من المصلّین من حین یخرج من بیته الی ان یرجع . فعلیك بالطهارتین ظاهرة و باطنة ، فالباطنة طهارة القلب عن کل شيء سواه وتخلیة النفس عن القذرات المعنویة کالحسد والکبر وامثالها و طهارة الظاهرة عن الاحداث والقذارات ، فاستقم کماامرت .

قال النبيّ ﷺ : من بنی لله مسجداً ولو کمفحص قطاة بنی الله له بیتاً فی الجنة

« وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَاَیْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ وَاسِعٌ عَلِیمٌ »

النزول ، لمّا حوّلت القبلة عن بیت المقدس ، انکر الیهود ذلك ، فنزلت الایة رداً علیهم ، « **ولله المشرق والمغرب** » : بین سبحانه انّ المشرق والمغرب لله و جمیع الجهات والاطراف له «**فاینما تولوا فثم وجه الله**» فاینما امرکم باستقباله فهو قبلة ، فکما انّ بیت المقدّس ، قبلة ، کذلك جعل الکعبة ، قبلة ، فلا تنکروا ذلك ، یدبر عباده بما یرید .

في کتاب التوحید ، عن السمك والعالم ، قال الرضا عليه السلام : المشیّة من صفات الافعال ، فمن زعم انّ الله لم یزل مریداً شائیاً ، فلیس بموحّد ، قال المجلسی : لعل الشرك باعتبار انّه اذا کانت الارادة و المشیّة ازلیّتین بکونهما دائماً معه سبحانه ، یوجب قدیمین آخرین . وعن عاصم بن حمید : قال سألت الصادق عليه السلام : لم یزل الله مریداً فقال عليه السلام : انّ المرید لا یکون الّا المراد معه ، بل لم یزل عالماً قادراً ، ثمّ اراد .

قال بعض مثل قتادة و ابن زید : انّ الله نسخ بیت المقدس بالتخییر الی ایّ جهة شاء بهذه الایة ، فکان للمسلمین ان یتوجهوا الی حیث شاؤا في الصلوة ، الّا انّ النبي ﷺ کان یختار التوجّه الی بیت المقدس مع انّه کان له ان یتوجّه حیث شاء ، ثم انّه نسخ ذلك بتعیین الکعبة و قیل انّ الآیة نزلت فی النوافل للمسافر ، حیث

تتوجّه به راحلته .

عن سعيد بن جبير ، قال : انما نزلت الاية في الرجل يصلي الى حيث توجهت به راحلته في السفر في التطوع ، وكان ﷺ اذا رجع من مكّة صلّى على راحلته تطوّعاً يؤمي برأسه نحو المدينة ، فيكون معنى الآية على هذا القول : فاينما تولّوا وجوهكم لنوافلكم فى اسفاركم فثم وجه الله و صادفتم المطلوب ، انّ الله واسع الفضل غنىّ ، فمن سعة غناه و فضله رخصّ لكم في ذلك ، لأنّه لو كلّفكم استقبال القبلة فى مثل هذه الحالة لزم احدى الضررين ، امّا ترك النوافل و امّا النزول عن الراحلة و التخلّف عن الرفقة ، بخلاف الفرائض ، فانّها صلوات مفروضة ، محصورة ، معيّنة والكل مكلّفون بالاداء ، فلا يلزم منه التخلّف عن الرفقة و الى الحرج . و المراد من قوله « فثمّ وجه الله » الحضور العلمى منه سبحانه ، فيكون الوجه مجازاً من قبيل اطلاق اسم الجزء على الكلّ ، اذليس سبحانه جوهراً و لاعرضاً حتّى يكون فى جانب و هذا معنى الحديث : لو انكم و ليتم بجبل الى الارض السفلى ، لهبط على الله . اى لهبط على علم الله والله منزه عن الحلول فى الاماكن ، لانّه كان قبل ان يحدث الاماكن « عليم » بمصالحهم و اعمالهم .

قيل : انّ امام الحرمين انّه نزل ببعض الاكابر ضيفاً فاجتمع عنده العلماء ، فقام واحد من اهل المجلس ، فقال : ما الدليل على تنزّهه عن المكان و هو قال : الرحمن على العرش استوى ، فقال الغزالى ، الدليل عليه قول يونس عليه السلام فى بطن الحوت «لااله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين» فتعجب الحاضرون من العلماء فى جوابه ، فالتمس صاحب الضيافة بيانه ، فقال الغزالى : هيهنا فقيرمديون بالف درهم، ادّعنه حتّى ابينّه ، فقبل صاحب الضيافة دينه ، فقال : انّ يونس لما ابتلى بالظلمات فى قعر البحر ببطن الحوت ، قال : لا اله الاّ انت و قال النبيّ ﷺ ليلة الاسرى : لا احصى ثناء عليك ، انت كما اثنيت على نفسك ، فكلّ منهما خاطبه بقوله انت و هو خطاب الحضور ، فلو كان في مكان لما كان ذلك بصحيح ، فدل ذلك على انّ الله تعالى ليس في مكان لانهما في السير -انتهى-

وأمّا قصّة القبلة، روى انّه ﷺ كان يصلّي بمكّة إلى الكعبة، فلمّا هاجر إلى المدينة أمره الله أن يصلّي نحو بيت المقدس ليكون اقرب الى تصديق اليهود، فصلّى نحوه ستّة عشر شهراً وكان يقع في روعه ويتوقّع من ربّه ان يحوّله الى الكعبة لانّها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام و اقدم القبلتين و ذلك قوله: «قد نرى تقلّب و جهك في السماء فلنولّينك قبلة ترضاها» وذلك في مسجد بني سلمه، فصلّي الظهر و لمّا صلّى الركعتين نزل «فولّ وجهك شطر المسجد الحرام» فتحوّل في الصلوة، فسمّى ذلك المسجد، مسجد القبلتين، فلمّا تحوّلت القبلة انكر من انكر، فكان هذا ابتلاء من الله كما قال «وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الّا لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه» فاتّبع الرسول واستقل في مبدء طريق السالكين.

«وَقالُوا اتَّخَذَاللّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ مافِي السَّماواتِ وَالأرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاِذا قَضَى أمْراً فَاِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»:

«**وقالوا اتخذ الله ولداً**»: والضمير راجع اما الى قوله «ومن أظلم ممّن منع مساجد الله» وفي المانعين اختلف الاقوال كما ذكرنا من اليهود، اومشركي العرب اوغيرهم وعلى كلّ الاقوال، الاية في اتخاذ الولد، يشملهم لانّ اليهود قالوا: عزير ابن الله ـ والنصارى قالوا: المسيح ابن الله ـ و مشركوا العرب قالوا: الملائكة بنات الله، فلاجرم صحّت هذه الحكاية على جميع التقادير، قال ابن عباس: انّها نزلت في كعب بن الاشرف و كعب بن اسد و وهب بن يهودا، فانّهم جعلوا عزيراً ابن الله، والاتخاذ أما بمعنى الصنع و العمل و يتعدّى الى مفعول واحد ـ و امّا بمعنى التصيّر، والمفعول الاوّل محذوف، اى صيّر بعض مخلوقاته ولداً وادعى انّه ولده، لاانّه ولده حقيقة، فكما يستحيل عليه تعالى ان يلد حقيقة، كذا يستحيل عليه التبنّي، فنزّه الله تعالى نفسه عما قالوا، بقوله «**سبحانه**» فهو كلمة تنزيه، ينزّه بها عمّا نسبوا اليه، كما قال في موضع آخر: سبحانه أن يكون له ولد فمرّة اظهره ومرّة اقتصر عليه لدلالة الكلام عليه واحتجّ على هذا التنزيه بقوله «**بل له مافي السماوات والارض**» لأنّ

السبب المقتضي لاتّخاذ الولد ، الاحتياج الى من يعينه في حياته ـ ويقوم مقامه بعد مماته و لابدّ أن يكون الولد من جنس والده ، فكيف يكون له ولد و هو لايشبهه شيء و منزّه عن التركيب و الاحتياج وهو تعالى خالق السماوات و الارض و ما فيهما جميعاً الذي يدخل فيه الملائكة وعزير والمسيح ، وكان المستفاد من الدليل ، امتناع أن يكون شيء ما ، ممّا في السماوات والارض ولداً ، سواء كان ذلك ممّا زعموا أم غيره .

«كل» أي كلّ مافيهما من اولى العلم وغيرهم ، في الخصال بحذف[1] الاسانيد ، عن الصادق عليه السلام قال : إن لله اثنى عشر الف عالم ، كلّ عالم منهم أكبر من سبع سماوات و سبع أرضين ، مايرى عـالم منهم ان لله عالما غير هم و انّي الحجّة عليهم . في كتاب التوحيد و الخصال ، عن جابر بن يزيد قال : سئلت أبـا جعفر الباقر ، عن قول الله : افعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ، فقال عليه السلام : ياجابر تاويل ذلك انّ الله اذا افنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن اهل الجنّة الجنّة و اهل النار النار جدّد الله عالماً غير هذا العالم وجدّد خلقاً من غير فحولة ولا اناث ، يعبدونه ويوحّدونه ويخلق لهم ارضاً غير هذه الارض تحملهم وسماءً غير هذه السماء تظلّهم ، لعلّك ترى أنّ الله انّما خلق هذا العالم الواحد ، اوترى انّ الله لم يخلق بشراً غيركم ، بلي والله لقد خلق الله الف الف عالم والف الف آدم وانت في آخر تلك العوالم واولئك الادميّين . وفي حديث آخر عنه عليه السلام :لعلّكم ترون انّه اذا كان يوم القيامة وصار اهل الجنّة الي الجنة واهل النار الي النار ، لايعبد بعده الله بلي ليخلقنّ الله (الحديث).

«له» تعالى «قانتون» : اي منقادون وعبر سبحانه ، اوّلا عن جميع الموجودات بقوله (كلّ) ثمّ عبّر ثانياً بما يختصّ بالعقلاء بقوله (قانتون) اشعاراً بانّ العالـي والداني سواء في هذا الحكم ـ و السبب في هذه النسبة وهي نسبة الولد الى الله : انّ ارباب الشرائع المتقدّمة كانوا يطلقون على ارباب الانواع اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الاله ، حتّى قالوا انّ الاب ، هو الربّ الاصغر ، و انّ الله هو الربّ الاكبر، وكانوا يريدون من هذا الاطلاق و المعنى : انّه تعالى هو السبب الأوّل في وجود الانسان و إنّ الأب هو السبب الآخر في وجوده ، فانّ الأب هو مخدوم الابن وكانّه موجده

(١) في المجلد الرابع عشر من بحار الانوار ص ٧٩ نقلا عن الخصال مع ذكر الاسانيد

من وجه ، ثمّ ظنّت الجهلة منهم انّ المراد به معنى الولادة الطبيعيّة ، فاعتقدوا ذلك تقليداً ، من غير فهم المراد ، و لذلك منع قائله مطلقا ، بل كفر ، سواء قصد به معنى السّببيّة ، اومعنى الولادة الطبيعيّة حسماً لمادّة الضلالة والفساد .

قال الرازى في تفسيره : ووجه الاستدلال بهذه الآية في ردّ قولهم وابطال عقيدتهم من وجوه، الأوّل : انّ كلّ ماسوى الموجود الواجب ، ممكن لذاته ، و كلّ ممكن لذاته ، محدث، و كل محدث فهو مخلوق للواجب ، امّا بيان أنّ ماسوى الموجود الواجب ممكن لذاته فلأنّه لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لاشتركا في وجوب الوجود ولامتاز كلّ واحد منهما عن الآخر بما به التعيّن ، ومابه المشاركة غير مابه الممايزة ، فيلزمهما قيد المشاركة وقيد الممايزة ، وحصل التركيب و كلّ مركّب مفتقر الى اجزائه ، فهو ممكن لذاته ، فكلّ واحد من ذينك الواجبين لذاتهما ممكن لذاته و هذا خلف .

و الوجه الثاني : انّ هذا الّذى اضيف إليه بأنّه ولده ، امّا ان يكون قديماً ازليّاً ، اومحدثاً ، فان كان ازليّاً لم يكن حكمنا بجعل احدهما ولداً والآخر والداً اولى من العكس ، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرّداً من غير دليل و ان كان الولد حادثاً ، كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له ، والعبد لا يكون ولداً ولا يستحق المعبوديّة .

قال الرضا عليه السلام : انّ الله قديم ، والقدم صفة دلّت على انّه لاشيء قبله ولاشيء معه في ديمومته وبطل قول من زعم أنّه كان قبله او كان معه شيء، وذلك أنّه لو كان معه شيء في بقائه لم يجز ان يكون خالقا له لأنّه لم يزل معه فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه ، و لو كان قبله شيء ، كان الأوّل ذلك الشيء ، لاهذا ، و كان الأوّل اولى بان يكون خالقاً للثاني .

وفي شرح نهج البلاغة للكيدرى ، ورد في الخبر : لمّا اراد الله خلق السماوات والارضين . خلق جوهراً خضراً فنظر اليها بعين الهيبة ، فذابت وصارماء مضطرباً ، ثمّ اخرج منه بخاراً كالدخان ، وخلق منه السماء ، كما قال : ثم استوى الى السماء وهى دخان ؛ ثم فتق تلك السماء ، فجعلها سبعاً ، ثمّ جعل من ذلك الماء زبداً ، فخلق منه

ارض مكّة ، ثمّ بسط الأرض كلّها من تحت الكعبة ، و لذا سمّيت امّ القرى ، ثمّ شقّت من تلك الأرض سبع ارضين وجعل بين كلّ سماء و سماء مسيرة خمسمائة عام وكذلك بين كلّ ارض وارض الخ .

« بَدِيعُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » :

اى اذا اراد شيئاً- واصل القضاء : الاحكام والقطع ، عبّر سبحانه تعالى الارادة بالقضاء لايجابها و وقوعها البتّة ، «**فانما يقول له كن فيكون**» ، فيحصل في الوجود سريعاً من غير توقّف و هذا التعبير عبارة عن سرعة حصول المخلوق بايجاده - والقضاء يستعمل بمعنى الخلق ، مثل قوله : فقضاهنّ سبع سماوات ، اى خلقهنّ - وبمعنى الأمر ، نحو : وقضى ربّك الّا تعبدوا الّا ايّاه - وبمعنى الإخبار ، مثل : وقضينا الى بنى اسرائيل في الكتاب ، اى اخبرناهم- وهذا المعنى لابدّ وان يأتى بالى-وبمعنى الفراغ من الشيئ، مثل قوله : فلمّا قضى وانّما فسّر كلمة كن بسرعة الحصول : لانه تعالى رتب تكوّن المخلوق على قوله كن بفاء التعقيب فيكون قوله : كن مقدماً على تكوّن المخلوق بزمان واحد والمتقدّم على المحدَث بزمان واحد محدَث ، فقوله : كن ، لايجوز ان يكون قديماً ولا يجوز ايضاً ان يكون قوله ، كن ، محدَثاً لأنّه لوافتقر كلّ محدث الى قوله ، كن وقوله ، كن ، ايضاً محدَث ، فيلزم افتقاره كن » الى كن آخر ويلزم امّا الدور او التسلسل وهما محالان ، فثبت انّه لا يجوز توقف إحداث الحوادث على قوله : كن ، ثمّ قالوا ان الاشياء المعدومة لا يصحّ ان يخاطب و يؤمر و اجيب عن هذا الا يراد انّ الاشياء المعدومة لمّا كانت معلومة عندالله ، صارت كالموجود ، فيصحّ خطابها والصحيح انّ المراد سرعة الحصول من الارادة ، والكلام نزل على لسان العرب ومثل هذه المعانى شايع لقولهم امتلأ الحوض و قال قطنى : قال ابوالهذيل : هذه الكلمة علامة يفعلها الله للملائكة ، اذا سمعوها علموا انّه احدث وخلق امراً ، و قيل : انه خاصّ بالّذين قال لهم : كونوا قردةً خاسئين ومن جرى مجراهم وهوقول الاصمّ -وقيل : المراد انّه امر للاحياء بالموت وللموتى بالحياة .

« وَقالَ الَّذينَ لايَعلَمونَ لَولايُكَلِّمُنا اللّهُ أَو تَأتينا آيةٌ كَذٰلِكَ قالَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم مِثلَ قَولِهِم تَشابَهَت قُلوبُهُم قَد بَيَّنَّا الآياتِ لِقَومٍ يوقِنونَ » :

لمّا بيّن سبحانه قبائح اقوالهم في التوحيد ونسبة اتّخاذ الولد اليه في الآية السابقة حكى قبايح اقوالهم في انكار النبوّة فقال : «**وقال الذين لايعلمون**» المراد : مشركوا العرب او النصارى او اليهود او كلّهم ' « **لولا** » اى هلاّ « **يكلمنا الله** » معاينة ، فيخبرنا بانّك نبيّ ، اوهلاّ يكلّمنا شفاهاً بكلامه ، كما كلّم موسى «**او تاتينا آية** » موافقة لدعوتنا كما جائت ايات موافقة لدعوتهم و لم تردانّه لم ياتهم آية ، لأنّه قدجائتهم الآيات والمعجزات .

« **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم** » قيل : هم اليهود ، حيث اقترحوا الايات على موسى ، حيث قالوا : ارنا الله جهرةً ـ ولن نصبر على طعام واحد ونحوه و كذلك النصارى قالوا لعيسى : هل يستطيع ربّك ان ينزل علينا مائدة من السّماء ، كذلك ـ أى مثل ذاك القول الشنيع قالوا قديماً ـ مثل قولهم تشبيه المقول بالمقول .

«**تشابهت قلوبهم** » : اى تماثلت قلوب اولئك هؤلاء في العمى والعناد والقسوة و تشابه مقالتهم بمقالة من قبلهم ، فانّ الألسنة ترجمان القلوب .

«**قد بينا الايات**» : و انزلنا ها بيّنةً «**لقوم يوقنون**»: و يطلبون اليقين و يريدون تحصيله .

«اِنّا أَرسَلناكَ بِالحَقِّ بَشيراً وَلاتُسئَلُ عَن أَصحابِ الجَحيمِ»

قرء بفتح التاء والجزم على النهى ، روى ذلك عن ابى جعفر عليه السلام و ابن عباس و قرء على لفظ الخبر ، على مالم يسمّ فاعله ، وعلى كون الجزم المراد النهى عن المسئلة و قيل : النهى ظاهراً و لفظاً ، لكنّ المراد تفخيم ما اعدّ الله لهم من العقاب ، لقول القائل : لاتسأل عن حال فلان ، فقد صار امره الى فوق ما تتصوّر .

«**انا ارسلناك**» يا محمّد « **بالحق بشيراً و نذيراً**» حال كونك مؤيّداً بالحجج

و القرآن و الآيات، لتكون مبشراً لمن اتبعك واهتدى بدينك و منذراً لمن كفر بك وضلّ عن دينك.

«**ولا تسئل عن اصحاب الجحيم**»: فعلى قراءة الرفع والخبر، اى أنت غير مسئول بهم، و معصيتهم لا تضرّك، فانّما عليك البلاغ و علينا الحساب ولاتغتم لكفرهم.

«**وَلَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارىٰ حَتّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ اِنَّ هُدَى اللّٰهِ هُوَ الْهُدىٰ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذى جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ**»

بيان حال الكفّار من تشدّدهم وثباتهم على كفرهم وقد بلغ من حالهم انّهم يريدون ان يتّبع ﷺ ملّتهم والموافقة لهم فيما هم عليه ـ و النزول، كانت اليهود والنصارى يسئلون النبي ﷺ الهدنة ويُرُونه انّه إن هادنهم وامهلهم اتبعوه، فآيسه الله من موافقتهم، فقال تعالى «**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى**» اى قل لهم يا محمّد: انّ دين الله الذى يرضاه، هو الهدى، اى القرآن و هو يهدى الى الجنة و هو الذى انت عليه و انت مهتديه، لا طريقة اليهود و النصارى ـ و قيل معناه: انّ دلالة الله هى الدلالة وهدى الله هو الهداية، كما يقال: طريقة فلان هى الطريقة.

«**ولئن اتبعت اهوائهم**» و مراداتهم، قال ابن عباس: معناه ان صلّيت على قبلتهم «**بعد الذى جائك من العلم**»: اى من البيان من الله، اومن الدّين «**مالك**» يا محمّد «**من الله من ولى**» و ناصر يحفظك من عقابه «**ولا نصير**» وظهير يعاونك و الخطاب للنبي ﷺ والمراد امّته، كقوله: لئن اشركت ليحبطنّ عملك، قال ابن عباس: جميع مثل هذه الخطابات فى القرآن، المراد منه الأُمّة، والذين قالوا: انّ الخطاب متوجّه الى الكلّ، له ﷺ و لامّته، قالوا لابأس بالخطاب اليه مع علمه سبحانه بعصمته، لانّ التكليف والتحذير مع وجود الآلات و القوى البشريّة حسن

و العلم بعدم الوقوع لاينافي الامكان الذاتي الّذي هومتعلّق التّكليف.

«اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ اُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَاُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»

«الذين اتيناهم الكتاب» : الذين آتيناهم مبتداء، واولئك مبتداء ثان، يؤمنون خبره، يريد عبد الله بن سلام و اصحابه الذين اسلموا من اليهود ـ و انّما خصّهم بذكر الايتاء مع ان الكلّ من اليهود مأتيّون بالكتاب، لانّهم هم الذين عملوا به «يتلونه حق تلاوته» : بمراعاة لفظه عن التحريف و بالتدبّر في معانيه و العمل به ـ و قيل : المراد من، الّذين آتيناهم، اهل السفينة الّذين قدموا مع جعفر بن ابي‌طالب عليه السلام من الحبشة وكانوا اربعين رجلاً، اثنان وثلاثون من الحبشة و ثمانية من رهبان الشام، عن ابن عباس قال : نزلت الآية فيهم وقيل : المراد اصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هذا فالمراد بالكتاب، القرآن «اولئك» الموصوفون «يؤمنون به» اى بالكتاب «ومن يكفر به» بالكتاب، سواء كان كفره بالتحريف، او بالانكار «فاولئك هم الخاسرون» الهالكون المغبونون.

«يَا بَنِي اِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ»

«يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم» . فمن جملة النعمة، التوراة وذكر النعمة انما يكون بشكرها وشكرها الايمان به ومن جملتها نعت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فمن ضرورة الايمان بالتوراة، الايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فاعرف منعمك، انّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بانفسهم، عن اصبغ ابن نباتة : قال امير المؤمنين عليه السلام : انّ السماوات و الأرض و ما فيهما، من مخلوق في جوف الكرسى، وله اربعة املاك يحملونه باذن الله فامّا ملك منهم ففى صورة

الآدميّين وهي اكرم الصور على الله وهو يدعوالله ويطلب الرزق لبني آدم ، الثاني في صورة الثور ، وهو يطلب الرزق والسعة للبهائم ، والثالث في صورة النسر و هو سيد الطيور، يطلب الرزق لجميع الطيور، والرابع في صورة الاسد وهو يطلب الرزق للسباع ، ولم يكن في هذه الصور احسن من الثور ولا اشدّ انتصاباً منه ، حتّى اتّخذ الملاءمن بني اسرائيل العجل فلمّا عكفوا عليه وعبدوه خفض الملك الذي بصورة الثور حياءً من الله ان عبد من دون الله شيء يشبهه وتخوّف ان ينزّل به العذاب ، ثمّ قال ﷺ : انّ الشجر لم يزل حصيداً مخضوداً حتّى دعى للرحمن ولد ، فعند ذلك اقشعر الشجر و صار له شوك حذاراً ان ينزل به العذاب ، فما بال قوم غيّروا سنّة رسول الله ﷺ ، و عدلوا عن وصيّه ﷺ لا يخافون ان ينزل بهم العذاب ، ثمّ تلا : الم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً واحلّوا قومهم دار البوار .

«**وانى فضلتكم على العالمين**» : اى عالمي زمانكم «**واتقوا يوماً**» : اى عذاب يوم «**لاتجزى**» : ولا تقضى في ذلك اليوم «**نفس**» من النفوس «**عن نفس**» اخرى «**شيئاً**» من الحقوق التي لزمتها ولا تؤخذ نفس بذنب اخرى ولا تدفع من اخرى واما اذا كان عليها شيء ، فانه يقتصّ منها بغير اختيارها ، بما لها من حسناتها ممّا عليها من الحقوق كما جاء في الحديث : انّ رسول الله ﷺ قال : من كانت عليه مظلمة لاخيه من عرض او غيره ، فليستحلل منه اليوم ، قبل ان لايكون دينار و لا درهم ان كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته و ان لم يكن له حسنات ، اخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه .

« **ولايقبل منها** » : من النفس العاصية «**عدل**» : اى فداء ، و الفدية ما يماثل الشيء قيمته و عوضه وان لم يكن من جنسه «**ولاتنفعها شفاعة**» ان شفعت للنفس الثانية «**ولاهم ينصرون**» : ولا يمنعون من عذاب الله ، ولا تقع الشفاعة للكافر ، ولا تنفع ابداً ، لامن الملائكة ولا من الانبياء .

وفي الحديث : من اتبع قوماً على اعمالهم حشر في زمرتهم وحوسب يوم القيامة بحسابهم و ان لم يعمل باعمالهم ، و ربما يكون للانسان شركة في اثم القتل و الزنا

وغيرهما اذا رضى به من عامل، ومال إلى ذاك الفعل : كما ان من حضر معصية فكرهها فكانما غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن حضرها .

و في الحديث : سيأتي على الناس زمان تخلق فيه سنتي و تتجدد البدعة فيه فمن اتبع سنتي يومئذ صار غريباً و بقي وحيداً و من اتبع بدع الناس و جد خمسين صاحباً واكثر .

« وَ اِذِابْتَلٰى اِبْرٰاهيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰاتٍ فَاَتَمَّهُنَّ قٰالَ اِنّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ اِمٰاماً قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتي قٰالَ لايَنٰالُ عَهْدِى الظّٰالِمينَ »

قال القرطبي : إبراهيم بالسريانية على ما ذكره الماوردى و في العربية على ما حكى ابن عطية : اب رحيم ، و كثيراً مايقع الاتفاق بين السرياني و العربي ، قيل : اسمه ، ابرايم ، فزيد : ها ، في اسمه والهاء في السريانية : للتفخيم والتعظيم ، وقرء ابراهام وانما حكى سبحانه في هذا المقام قصة ابراهيم ، لأنه كان معروف الفضل ، عندتمام الطوائف والملل ، فالمشركون كانوا معترفين بفضله ، متشرفين بانهم من اولاده و من ساكني حرمه ، واهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا ايضاً مقرين بفضله ، متشرفين بانهم من اولاده ، فحكى سبحانه اموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وآله و الاعتراف بدينه والانقياد لشرعه وذلك لأن ابراهيم عليه السلام مانال الى منصب النبوة والامامة الابقبول التوحيد وترك التمرد ، والانقياد لحكم الله وطلب الامامة لاولاده ، فقال الله : لاينال عهدي الظالمين ، فدل على ان منصب الامامة والرياسة في الدين ، لا يصل الى الظالم ، فهؤلاء متى ارادوا الخير وجب عليهم ترك اللجاج و الظلم وقبول الباطل و انكار اليهود و النصارى تحويل القبلة من غير وجه ، لأن هذا البيت قبلة ابراهيم عليه السلام الذى يعترفون بفضله و يفتخرون بنسبه .

«واذابتلى ابراهيم ربه»: الابتلاء[1] على ضربين ، احدهمايستحيل على الله والآخر جائز ، فالمستحيل هوان يختبره ليعلم ما يكشف له عنه و هذا ما لا يصح لأنه علام

(۱) وهذا مضمون الرواية التي المجلد الخامس من بحار الانوار ص ۱۳۰ نقلا عن الامالي .

الغيوب و الآخران يبتليه حتى يصبر فيما يبتليه به ، فيكون ما يعطيه من العطاء على سبيل الاستحقاق و لينظر الناظر اليه ، فيقتدي به ويكون ارشاداً للغير .

المعنى : واذكر وقت امتحان الله ابراهيم ، وهو مجاز وحقيقته انه امره و كلّفه وحقيقة الابتلاء من الله تشديد التكليف .

« **بكلمات** » وروى عن الصادق عليه السلام : اول ماابتلاه الله في نومه ، من ذبح ولده اسماعيل عليه السلام ابى العرب ، فعزم عليهاوسلم لامر الله ، فاتمه ، فقال الله ثواباً له لما صدق وعمل بما امره الله : انى جاعلك للناس اماماً ، ثم أنزل الله عليه الحنيفية ، و فسرت ، الكلمات بوجوه ، قال ابن عباس : هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وسنة في شرعنا خمس منها في الرأس وهى : المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس في البدن وهى : الختان وحلق العانة و نتف الابط وتقليم الأظفار و الاستنجاء بالماء ، اى غسل مكان الغايط والبول بالماء - والمراد من فرق الرأس تقسيمه الى نصفين ، وكان المشركون يفرقون شعور رؤسهم واهل الكتاب يرسلون شعورهم على الجبين ويتخذونها كالقصه وهى شعر الناصيه ، قيل : وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحب موافقة أهل الكتاب ثم نزل جبرئيل عليه السلام ، فامره بالفرق واكثر حال النبي كان الارسال وحلق الرأس منه معدود وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقص شاربه كل جمعة قبل ان يخرج الى صلوة الجمعة والقص في الشارب لابد و ان يبدواطراف الشفه ولايبقى فيه غمر الطعام و السنة تقصير الشارب وحلقه ، قيل: بدعة كحلق اللحية ، وفي الحديث : جزّوا الشوارب واعفوا اللحي والجز : القص والقطع : والاعفاء : التوفير والترك على حالها ، وحلق اللحية حرام وقبيح ومثلة : كما ان حلق شعر الرأس ، في حق المرأة مثلة ، منهي عنه وتشبه بالرجال وتفويت للزينة ، كذلك حلق اللحية ، تشبه بالنساء .

في وسائل الشيعة ، عن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حفوا الشوارب واعفوا اللحى ولاتشبهوا بالمجوس ، جزوا الحاهم ووفروا اشواربهم ، ونحن نجز الشوارب ونعفي اللحى و هي الفطرة وحديث آخر وفي تفسير على بن ابراهيم ، في قوله تعالى :

واذابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فاتمّهن ، قال : انّه ابتلاه في نومه بذبح اسمعيل ، فاتمّها ابراهيم وسلّم لامر الله ، قال الله ثوابا له : انى جاعلك للناس اماماً ، ثمّ انزل عليه الحنيفيّة وهى عشرة : خمسة في الرأس و خمسة في البدن ، امّا التى في الرأس : اخذ الشارب و اعفاء اللحى و طم الشعر من الرأس والسواك والخلال ولو لا هذه الاخبار ففى النهى التحريمى في مشاكلة اعداء الدين وسلوك طريقتهم وتشبّه الرجال بالنساء وحكم وجوب الدية الكاملة في حلق اللحية اذا لم تنبت واذا نبتت فثلث الدية لكفى دليلاً في حرمة حلق اللحية .

واعلم : انّ دية اعضاء الرجل والمرأة متساوية الى ان تبلغ الثلث من الدية الكاملة، فاذا بلغت الثلث فتضاعف دية اعضاء الرجل .

قال ابان ابن تغلب : قلت لابيعبدالله عليه السلام ماتقول في رجل قطع اصبعاً من اصابع المرئة ، كم فيها من الدية ، قال عليه السلام : عشرة من الابل ، قلت : قطع اثنتين ، قال عليه السلام عشرون ، قلت : قطع ثلاثاً، قال عليه السلام : ثلاثون ، قلت: اربعاً ، قال عليه السلام : عشرون ، قلت : سبحان الله ، يقطع ثلاثاً ، فيكون عليه ثلاثون ويقطع اربعاً وعليه عشرون ، قال عليه السلام مهلا هذا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله انّ المرأة تعادل الرجل الى ثلث الدية ، فاذا بلغت الثلث رجعت الى نصف دية الرجل .

في تفسير روح البيان : ومن تسبيح الملائكة : سبحان من زيّن الرجال باللحى وزيّن النساء بالذوائب .

وفي رواية اخرى عن ابن عباس ايضاً انّه تعالى ابتلاه بثلاثين خصلة من شرايع الاسلام ، فاقامها كلّها ابراهيم و اتمّهن فكتب له البراءة ، فقال سبحانه : و ابراهيم الذى وفى وهى عشرة في سورة براءة : التائبون العابدون الى اخرها وعشرة في الاحزاب : انّ المسلمين و المسلمات الى اخرها و عشرة في سورة المؤمنين : قدافلح المؤمنون الى قوله : اولئك هم الوارثون ، و روى و عشرة في سورة سأل سائل ، الى قوله : و الذين هم على صلوتهم يحافظون ، فجعلها اربعين وفي رواية عن ابن عباس انّه امره بمناسك

الحج وقيل ابتلاه الله بالكوكب والقمر والشمس والختان وبذبح الولد وبالنار وبالهجرة فكلّهنّ وفّاهن والآية يحتمله الجميع .

قال الشيخ ابوجعفر : يشمل الكلمات المقام اليقين الّذى اتى به و ذلك قوله : وليكون من الموقنين و المعرفة بالتنزيه عن التشبيه حين نظر إلى الكوكب و القمر و الشمس و ذلك قوله : فلمّا افل قال : انّى لااحبّ الآفلين ، و منها الشجاعة بدلالة قوله : فجعلهم جذاذاً الّا كبيراً منهم ، و مقاومته اعداء الله فريداً بنفسه ، و منها الحلم وذلك قوله : انّ ابراهيم لحليم اوّاه منيب ، ومنها السخاء و يدلّ عليه قوله : هل اتيك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، ثمّ العزلة عن العشيره وقدتضمّنه قوله : و اعتزلكم وما تدعون من دون الله ، ثمّ الامر بالمعروف والنهى عن المنكر و بيان ذلك في قوله : ياابت لم تعبد مالا يسمع ولايبصر ، ثمّ التوكّل وبيان ذلك في قوله : الذى خلقنى فهو يهدين ، ثمّ المحنة حين جعل في المنجنيق و قذف به الى النار ، ثمّ الصبر على سوء خلق سارة ، ثمّ الزلفة ، في قوله : ما كان ابراهيم يهوديّاً ولانصرانياً ، ثمّ الجمع لشروط الطاعات ، في قوله : انّ صلوتي ونسكي إلى قوله وانا اوّل المسلمين ، ثمّ استجابة دعوته ، حين قال : ربّ ارنى كيف تحيي الموتى ، ثمّ اصطفاؤه في قوله : ولقد اصطفيناه في الدنيا وانّه في الاخرة لمن الصالحين ، ثمّ اقتداء من بعده من الأنبياء به في قوله : و وصّى به ابراهيم بنيه و يعقوب يابنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدين الآية ، انتهى كلام الشيخ .

فاتّبع سنةمن قد خلق الله نوره قبل الظهور في عالم البشريّة بدهور و دع قياسات الفكريّة و الاستحسانات العقليّة ، فتكون تحرف النواميس بعقلك القاصر ، فانّ صاحب الناموس اعرف منك و لا تكن كبعض السفهاء الذين يدّعون العقل في زماننا ، فانّهم قاسوا بعقولهم انّ قسمة الانثى اذاكان بالعكس ، كان اقرب بالعدل ، لأنّ النساء اضعف في الاكتساب و ليس لهنّ تدبير و عقل كما في الرجال و هذا الكلام مع قطع النظرعن مخالفة الشريعة ، مخالف للعقل ، لأنّ الرجل افقر للمال منهنّ بسبب القيام بامورهنّ ، ثمّ انّ لهنّ من يقوم بامورهنّ

و اقلّ حاجة من الرجال بسبب الانوثة ، فان لم يقبّلها ذا ، يقبّلهاذاك ، فيقوم بامرها لكن الرجل ليس له هذه المنفعة ولا اقل من ان يقوم بامر نفسه ، فحاجته بالمال اكثر من حاجة المرأة ، ثمّ انّه في الغالب تتساوي المرأة مع الرجل في المال مع ما تأخذ نصف الرجل في الميراث ، مثل ان اذا اخذالرجل الف درهم و المرئة خمسمائة درهم ، فلمّا تزوّجت تأخذ من الصداق مثلا خمسمائة درهم فتساوى اخاها في المال و الاخ اذا ارادان يتزوّج فلا بدان يجعل و يعطى صداق زوجته خمسمائة درهم ، فيكون مساوياً لاخته في المال و امور اخر ، لا حاجة بالاطالة ، فاجعل عقلك تابعاً للشرع لا العكس ، تكن مؤمنا ولاتكن زنديقا ، اما قرأت القرآن ؛ الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض ، و فضل الرجال ، العقل و القوّة و الغزو و انّ منهم الانبياء والحكماء و فيهم الخلافة والامامة و الاقتداء بهم في الصلوات والاذان والخطبة و الاعتكاف و الشهادة وزيادة السهم وتحمل الدية في القتل الخطاء والولاية في النكاح والطلاق وعدد الازواج .

«فاتمهن» : اى وفّي بهنّ وعملها بالتمام وقيل : ضمير الفاعل في اتمهنّ راجع الى الله على قول ابي القاسم البلخي **«قال انى جاعلك للناس اماما»** : قل انى جاعلك لأجل الناس مقتدى يأتمّون بك في هذه الخصال ، فهو مقتدى الصالحين الى قيام الساعة وقد انجز الله وعده لأنّه امر نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله بقوله : ثمّ اوحينا اليك ان اتبع ملّة ابراهيم ، واجتمع اهل الاديان على تعظيمه ، كما انّ امّة محمد صلى الله عليه وآله يقولون في آخر صلواتهم : اللّهم صلى على محمد و آل محمد كما صليت على ابراهيم و آل ابراهيم انّك حميد مجيد وفي الخبر: انّ ابراهيم رأى في المنام جنّة عريضة مكتوب على اشجارها ، لااله الّاالله محمد رسول الله ، فسأل جبرئيل عليه السلام عنها فاخبره بالقصّة ، فقال : يارب أجر على لسان امّة محمد صلى الله عليه وآله ذكرى ، فاستجاب الله دعاءه **«قال ومن ذريتى»** عطف على الكاف في جاعلك و « من » تبعيضيّة ، اى واجعل بعض ذريّتي اماماً يقتدى به الناس ، لكنّه راعى الأدب بالاحتراز عن صورة الامر ولم يقل ، و اجعل ، و تخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة امامة الكلّ و ان كانوا على الحق ، والذريّة نسل الرجل وقد

يطلق على الآباء و الابناء من الذكور و الاناث ومنه قوله تعالى : انّا حملنا ذرّيتهم ، اراد اباءهم و تطلق الذريّة ايضاً على الواحد ، كقوله تعالى : رب هب لي من لدنك ذرية طيّبة : يعني ولداً صالحاً «قال» الله «لاينال» ولا يصيب «عهدى الظالمين» : اى ان اولادك منهم مسلمون ومنهم كافرون ، فلا يصل الامامة والنبوّة للظالم ، لانّ الامام انّما هو يمنع الظالم ، فمن استرعى الذئب للغنم ظلم وفي الآية دليل على انّ الفاسق لا يصلح للامامة ، بل لا يقدّم للصلوة ايضاً وقالت الاشاعرة : اريد بالظالم ، الكافر .

اقول : و في تعبير الظالم بخصوص الكافر ، تعنّت و تعسّف ، لأنّ كون الكافر ظالماً لا يخرج الظالم عن اطلاقه فلاينالهما فمن اين تعيّن التخصيص و في الآية أيضاً دليل علي عصمة الانبياء من المعاصى قبل البعثة و بعد البعثة ، لأنّه يصدّق عليه انّه كان ظالماً ولو و قتاما قال الطبرسى : فان قيل انّما نفى ان يناله ظالم في حالة ظلمه ، فاذا تاب لا يسمّى ظالماً فيصحّ ان يناله ، فالجواب انّ الظالم و ان تاب فلا يخرج من ان تكون الاية قد تناولته في حال كونه ظالماً فاذا نفى سبحانه ان يناله فقد حكم عليه بانّه لا يناله ، لأنّ الآية مطلقة غير مقيّدة بوقت دون وقت ، فيجب ان تكون محمولة على الاوقات كلّها ، فلاينالها الظالم وان تاب فيما بعد انتهى .

في كتاب السماء والعالم ، بعض الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال عيسى ابن مريم في الانجيل : يا معشر الحواريين ، خلق الله الليل لثلاث امور وخلق النهار لسبع خصال ، فمن مضى عليه الليل والنّهار وهو في غير هذه الخصال ، خاصماه يوم القيامة ؛ خلق الله الليل لتسكن فيه العروق الفاترة التي اتعبتها في نهارك و تستغفر لذنبك الذى كسبتها بالنهار ثمّ لا تعود فيه و تقنت فيه قنوت الصابرين ، فثلث تنام و ثلث تقوم بالعبادة و ثلث تضرّع الى ربّك و هذا ما خلق له الليل . وامّا النّهار لتؤدى الصلوة المفروضه التي عنها تسئل وان تبرّ بوالديك وان تضرب في الارض تبتغي لمعيشة يومك وان تعودوا فيه وليّاً لله وان تشيعوا جنازة كيما تنقلبوا مغفوراً لكم و ان تأمروا بمعروف وان تنهوا عن منكر فهو ذروة الايمان وقوام الدين و ان تجاهدوا في سبيل الله .

«وَ اِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَ اَمْنًا وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ اِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنَا اِلَى اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْمَاعِيلَ اَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ»

«و اذجعلنا البيت» : اي و اذكر يا محمد صلى الله عليه و آله وقت تصييرنا الكعبة «مثابة» معاذاً و ملجأ و مآباً و مباءة و مرجعاً يثوبون اليه في كل عام ـ و في الحديث: من خرج من مكة و هو ينوى الحج من قابل زيد في عمره و من خرج من مكّة وهو لا ينوي العود اليها فقد قرب اجله او المعنى يحجّون اليه فيثابون عليه.

«وامنا» : موضع امن ، لأنّ من اعاذ به لايخاف على نفسه مادام فيه ، فانّ المشركين كانوا لا يتعرّضون لسكّان الحرم و كان الرجل منهم يرى قاتل ابيه فيه فلا يتعرّض له وهذا شيء توارثوه من دين اسماعيل ، فبقوا عليه الى ايام النبي صلى الله عليه و آله او المعنى يأمن حاجّه من عذاب الاخرة من حيث انّ الحج يجبّ ويقطع ويمحو ما وجب قبله من حقوق الله الغير الماليّة ، مثل الزكوة و كفّارة اليمين وأما حقوق النّاس فلايجبّها الحج ؛ لكن نقل صاحب تفسير روح البيان رواية والله عالم بصحتها و فسادها ، قال : ولكن روى انّ الله استجاب دعاء النبي صلى الله عليه و آله ليلة المزدلفة ، في الدماء و المظالم و نقل عن كتابهم الكافي و تفسير الفاتحة للقونوى ؛ «و اتخذوا» : اى و قلنا : اتّخذوا على ارادة القول ، لئلاّ يلزم عطف الانشاء على الاخبار .

«من مقام ابراهيم مصلى» : اى موضع الصلوة و «من» : للتبعيض ومقام ابراهيم الحجر الذي فيه اثر قدميه او الموضع الذى كان فيه حين دعى الناس و قام عليه ، اوحين رفع بناء البيت .

قال ابن عباس : الحج كلّه مقام ابراهيم وقال عطاء : مقام ابراهيم ، عرفة والمزدلفة والجمار وقال مجاهد: الحرم كلّه مقام إبراهيم وقال قتادة والحسن والسّدى : هو الصلوة عند مقام ابراهيم ، امرنا بالصلوة عنده بعد الطواف وهو المروي عن الصادق عليه السلام و هذا هو الظاهر : لانّ مقام ابراهيم اذا اطلق ، لايفهم منه الّا المقام المعروف اليوم بمقام ابراهيم

الّذي هو في المسجد الحرام وفي المقام دلالة على نبوّة ابراهيم، فإنّ الله جعل الحجر تحت قدميه كالطين حتّى دخلت قدماه فيه؛ قال ابو جعفر عليه السلام: نزلت ثلاثة احجار من الجنّه، مقام ابراهيم عليه السلام و حجر بنى إسرائيل و الحجر الاسود، استودعه الله إبراهيم عليه السلام حجرا ابيضا وكان اشدّ بياضا من القراطيس فاسودّ من خطا يا بنى آدم، و في قصّة مهاجرة اسماعيل و هاجر: روى عن على بن إبراهيم بن هاشم عن ابيه عن النصر بن سويد، عن هشام، عن الصادق عليه السلام قال: إنّ إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام، فلمّا ولد له من هاجر، اسماعيل اغتمّت سارة من ذلك غمّاً شديداً، فكانت تؤذى إبراهيم في هاجر وتغمّه، فشكى إبراهيم عليه السلام إلى الله، فأوحى الله إليه: إنّما مثل المرئة مثل الضلع المعوج، ان تركته استمتعت به وان رمت ان تقيمه كسرته، قال الشاعر:

هى الضلع العوجاء لست تقيمها ✿ الا انّ تقويم الضلوع انكسارها

ثمّ امره الله ان يخرج اسماعيل عليه السلام وهاجر عنها، فقال: اى ربّ إلى اىّ مكان؟ قال: الى حرمي. وامنى واول بقعة خلقتها من ارضى وهى مكة وأنزل عليه جبرئيل بالبراق فحمل إبراهيم وهاجر. واسماعيل عليه السلام، فكان لايمر إبراهيم عليه السلام بموضع حسن فيه شجر و نخل وزرع، الّا قال إبراهيم عليه السلام الى ههنا، فيقول لا امض حتّى وافى مكّة، فوضعه في موضع البيت وقد كان عاهد إبراهيم عليه السلام سارة، ان لا ينزل حتّى يرجع إليها، فلمّا نزلا في ذلك المكان، كان فيه شجر، فالقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلّا تحته، فلمّا سرحهم إبراهيم عليه السلام و وضعهم واراد الانصراف عنهم إلى سارة، قالت له هاجر: لِمَ تَدَعُنا في هذا الموضع الّذي ليس فيه انيس ولاماء ولازرع، فقال إبراهيم عليه السلام: امرنى ربّى ان اضعكم في هذا المكان، ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ كدى و هو جبل بذى طوى، التفت إليهم إبراهيم عليه السلام فقال: ربّنا انّى اسكنت من ذرّيّتى بواد غير ذى زرع، الى قوله: لعلّهم يشكرون؛ ثم مضى و بقيت هاجر واسماعيل عليه السلام، فلمّا ارتفع النهار عطش اسماعيل عليه السلام، فقامت هاجر في الوادى، حتّى صارت في موضع المسعى، فنادت. هل في الوادى انيس، فغاب عنها اسماعيل عليه السلام، فصعدت على الصفا و لمع لها السراب في الوادى، فظنّت انّه ماء، فنزلت في بطن الوادى وسعت،

فلمّا بلغت المروة غاب عنها إسماعيل عليه السلام ، ثمّ لمع لها السراب في ناحية الصفا ، فهبطت إلى الوادي بطلب الماء ؛ فلمّا غاب عنها إسماعيل عليه السلام ، عادت حتّى بلغت الصفا ، فنظرت إلى إسماعيل عليه السلام حتّى فعلت ذلك سبع مرّات ، فلمّا كان في الشوط السابع وهي على المروة ، نظرت إلى إسماعيل عليه السلام وقد ظهر الماء من تحت رجليه فعدت حتّى جمعت حوله رملاً و إنّه كان سائلاً فزممته بما جعلت حوله الرمل ، فلذلك سمّيت زمزم .

و كانت جُرهم نازلة بذي المجاز وعرفات فلمّا ظهر الماء بمكّة ، عكفت الطيور والوحوش على الماء ، فنظرت جرهم إلى تعكّف الطير على ذلك المكان فاتّبعوها حتّى نظرت إلى امرأة وصبيّ نزلوا في ذلك المكان و قد استظلّوا الشجر وقد ظهر لهم الماء ، فقالت لهاجر : من أنت وما شأن هذا الصبيّ ؟ قالت : أنا اُمّ ولد إبراهيم خليل الرحمن وهذا ابنه ، أمره أن ينزلنا هذا الموضع ، فقالوا لها : أتأذنين أن نكون بالقرب منكم ؟ فقالت : حتّى أستأذن إبراهيم عليه السلام فزارهما إبراهيم عليه السلام يوم الثالث ، فاستأذنت هاجر من إبراهيم عليه السلام في الإذن لهم ، فأذن إبراهيم عليه السلام ، فنزلوا بالقرب منهم و ضربوا خيامهم و أنست و إسماعيل عليه السلام بهم .

فلمّا زارهم إبراهيم عليه السلام في المرّة الثالثة و نظر إلى كثرة الناس حولهم ، سرّ بذلك سروراً شديداً ، فلمّا تحرّك إسماعيل عليه السلام وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كلّ واحد منهم شاتاً وشاتين و كانت هاجر وإسماعيل عليه السلام يعيشان بها .

فلمّا بلغ إسماعيل عليه السلام مبلغ الرجال ، أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت ، فقال : يارب في أيّ بقعة ؟ فقال في البقعة الّتي اُنزلت على آدم عليه السلام القبّة ، فأضاءت الحرم ولم تزل القبّة الّتي أنزلها الله على آدم عليه السلام قائمة ، حتّى كان أيّام الطوفان زمن نوح عليه السلام ، فلمّا غرقت الدنيا رفع الله تلك القبّة وغرقت الدنيا ولم تغرق مكّة فسمّي البيت العتيق لأنّه اُعتق من الغرق .

وبعث الله جبرئيل عليه السلام على إبراهيم عليه السلام فخطّ له موضع البيت و كان الحجر الّذي أنزله الله على آدم عليه السلام أشدّ بياضاً من الثلج كما ذكرنا فبنى إبراهيم عليه السلام البيت

ونقل إسماعيل عليه السلام الحجر من ذي‌طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع .

ثمّ دلّه جبرئيل عليه السلام على موضع الحجر في الأرض ، فاستخرجه إبراهيم و وضعه في الموضع الّذي هو فيه وجعل له بابين ، باباً إلى المشرق وباباً إلى المغرب ، فالباب الّذي إلى المغرب يسمّى المستجار ، ثمّ ألقى عليه الشيح والأذخر .

فلمّا تمّ البناء نزل جبرئيل يوم التروية ، فقال : قم يا إبراهيم فادنوا من الماء لأنّه لم يكن بمنى وعرفات ماء ، فسمّيت التروية لذلك ، ثمّ أخرجه إلى منى ، فبات بها ، ففعل بها مافعل بآدم .

[وعهدنا إلى إبراهيم و إسماعيل] أي أمرناهما أمراً مؤكّداً و وصّينا إليهما ، فإنّ العهد قد يكون بمعنى الأمر والوصيّة ؛ يقال عهد إليه : أي أمره ووصّاه ، ومنه قوله تعالى : «ألم أعهد إليكم»[(١)] .

و قيل : سمّي إسماعيل لأنّ إبراهيم عليه السلام كان يدعو إلى الله أن يرزقه ولداً و يقول : اسمع يا إيل و «إيل» هو الله ، فلمّا رزق سمّاه به .

[أن طهّرا بيتي] بأن طهّراه عن الأوثان والأنجاس والمراد من «طهّرا» أي أقرّاه على طهارته واحفظاه من أن يصيب حوله شيء منها ، ويقرّبون إليه المشركون وهذا كقوله : «ولهم فيها أزواج مطهّرة»[(٢)] فإنّهنّ لم يطهّرن من نجس ، بل خلقهنّ طاهرات ، كقولك للخيّاط : وسّع كمّه ، والكمّ ماكان ضيّقاً حتّى يوسّعه ، بل المراد اصنعه ابتداءً واسع الكمّ .

[للطائفين] الزائرين حوله [و العاكفين] المجاورين الّذين عكفوا و أقاموا عنده ، وهذا في المتوطّنين والأوّل في القادمين للزيارة والطواف [والرّكّع السجود] أي المصلّين ؛ جمع راكع وساجد . ولتقارب الركوع والسجود ذاتاً وزماناً ترك العاطف بين موصوفيهما .

والجلوس في مسجد الحرام ناظراً إلى الكعبة من جملة العبادات المرضيّة .

---

(١) يس : ٦١ .

(٢) البقرة : ٢٤ .

قال النبيّ ﷺ: إنّ لله تعالى في كلّ يوم عشرين و مائة رحمة تنزل على هذا البيت ، ستّون للطائفين وأربعون للمصلّين وعشرون للناظرين.

واعلم : أنّه لمّا قال : «أن طهّرا بيتي » دخل فيه بالمعنى جميع بيوته ، فيكون حكمها حكمه في التطهير ، وخصّ الكعبة بالذكر لأنّه لم يكن في ذلك الوقت هناك غيره . وفي روح البيان : في الحديث : قال النبيّ ﷺ : أُوحي إليّ : يا أخا المنذرين ، يا أخا المرسلين ، أنذر قومك أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلّا بقلوب سليمة و ألسنة صادقة وأيدي نقيّة وفروج طاهرة ، ولايدخلوا بيتاً من بيوتي مادام لأحد عندهم مظلمة فإنّي ألعنه مادام قائماً بين يديّ حتّى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها ، فأكون سمعه الّذي يسمع به وبصره الّذي يبصر به و يكون من أوليائي و أصفيائي و يكون جاري مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

و كلّ أمر له ضدّ مثل أنّ المظلمة عظيمة ، وردّها أعظم منها .

ثمّ اسع في ردّ مظالم الخلق ؛ قال ﷺ : ياعليّ ردّ درهم مظلمة أفضل عندالله من أربعين حجّة مقبولة ، أو أربعين ألف .

و الانقطاع في الخلوة و دوام الذكر إلى أن ينخرق من روزنة الغيب نور ، وذلك نور اليقين ، فتكون بعدحصول ذلك النورمؤمناًحقّاً كما قال علي عليه السلام لحارث : كيف أصبحت ياحارث ؟ قال : أصبحت بالله مؤمناً حقّاً ، فقال عليه السلام : إنّ لكلّ حقّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عرفت عزّ الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها و كأنّي بأهل الجنّة في الجنّة يتزاورون ، وبأهل النار يتعاوون ، و كأنّي بعرش ربّي بارز ، فقال عليه السلام : مؤمن نوّرالله قلبه ، الآن عرفت فالزم . والقلب المؤمن عرش الرحمن فلا بدّ من تصفيته حتّى تعكف عنده الأنوار الإلهيّة و تنزل عليه السكينة والوقار؛ فعند وصول العبدإلى هذه الرتبة فهو من الركّع السجّد ، وناجى الله بسرّه فيكون من أهل اليقين .

وإذقال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الاخر قال و من كفر فامتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير (١٢٦) .

[و إذ قال إبراهيم] المراد من الآية دعاء إبراهيم عليه السلام للمؤمنين من سكّان مكّة بالأمن والسعة : [ربّ اجعل هذا] المكان وهو الحرم [بلداً] ذاأمن يأمن أهله من المخاوف و الزلازل والخسف والجنون ونحو ذلك من المثلات الّتي تحلّ بالبلاد ، و «آمن» من باب النسب ، مثل لابن وتامر ، وهذا الدعاء كان في أوّل ماقدم إبراهيم عليه السلام مكّة لمّا قالت له هاجر : إلى من تكلنا في هذا البلقع ؟

[آمناً] مأموناً ، قال ابن عبّاس : يريد محرّماً ، لايصاد طيره ولا يقطع شجره و لا يؤذى جاره ، وإلى هذا المعنى يؤول ما روي عن الصادق عليه السلام ، من قوله : من دخل المسجد مستجيراً بالله فهو آمن من سخط الله ، و من دخله من الوحش والطير كان آمناً من أن يهاج عليه حتّى يخرج من الحرم .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم فتح مكّة : إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحلّ لأحد قبلي ولا تحلّ لأحد بعدي ولم تحلّ لي إلّا ساعة من النهار .

وهذه الرواية و أمثالها يدلّ على أنّ الحرم كان آمناً قبل دعوة إبراهيم عليه السلام وقد تأكّدت حرمته بدعائه .

و قيل : إنّما صار حرماً بدعائه و كان قبل ذلك كسائر البلاد واستدلّ بصحّة هذا القول الثاني بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : إنّ إبراهيم عليه السلام حرّم مكّة و إنّي حرّمت المدينة .

وقيل : كانت مكّة حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الّذي صارت به حراماً بعد الدعوة ، فالأوّل بمنع الله إيّاها من الخسف والائتفاك ، كما لحق ذلك غيرها من البلاد . وبماجعل في النفوس لها من الهيبة والعظمة . والثاني بالأمر بتعظيمه على ألسنة الرسل وبالمناسك و آداب الحجّ ، فأجابه الله إلى ماسأل .

و قيل : إنّه سأل الأمرين على أن يديمها وإن كان أحدهما مستأنفاً و الآخر قدكان .

[وارزق أهله من الثمرات] والمأكولات ممّا يخرج من الأرض ، فاستجاب له في

ذلك [من آمن منهم بالله واليوم الآخر] بدل من «أهله» أي وارزق المؤمنين خاصّة [قال] الله: [ومن كفر] أي قال الله: فقد استجيب دعوتك فيمن آمن، و من كفر [فأمتّعه] أي أمدّه ليتناول من لذّات الدنيا [قليلاً] تمتيعاً قليلاً و زماناً قصيراً، وهو مدّة حياته.

[ثمّ أضطرّه إلى عذاب النار] ولا شيء أشدّ من عذاب النار، و اضطرارهم وقوعهم فيها بحيث يتعذّر عليهم التخلّص منه، لأنّهم ليسوا مختارين ولا يملكون الامتناع منه [وبئس المصير] والمخصوص بالذمّ محذوف أي بئس المرجع و المقام المصير إلى النار.

وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم(١٢٧).

[وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل] الرفع والإصعاد والإعلاء نظائر كما أنّ القواعد والأساس والأركان نظائر، وأصلها الثبوت والاستقرار، وقاعدة البناء أساسه الّذي بني عليه.

بيّن سبحانه بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت. واذكر يا محمّد صلى الله عليه وآله وقد رفع إبراهيم أساس البيت الّتي كانت قبل ذلك لأنّ أوّل من حجّ البيت آدم عليه السلام.

قال الصادق عليه السلام: وكانت البيت درّة بيضاء، فرفعه الله إلى السماء وبقي أساسه وكان يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك، لايرجعون إليه أبداً، قاله العيّاشيّ بإسناده.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ أوّل شيء نزل من السماء إلى الأرض لهو البيت الّذي بمكّة أنزله الله ياقوتة حمراء، ففسق قوم نوح في الأرض فرفعه الله.

و كان يرفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أساس الكعبة ويقولان: [ربّنا تقبّل منّا] وفي قراءة عبدالله بن مسعود بزيادة «ويقولان».

وقيل: إنّ إبراهيم عليه السلام وحده رفع القواعد وكان إسماعيل عليه السلام صغيراً في وقت رفعها، قال الطبرسيّ: وهو قول شاذّ غير مقبول و الصحيح: كان إبراهيم عليه السلام يبني وإسماعيل عليه السلام يناوله الحجر، وإنّما عبّر بالمستقبل إشعاراً في البيان بلفظ الحال،

كأنّه يراه المخاطب على وجه العيان والمشاهدة و المراد برفع الأساس البناء عليه، لأنّ البناء بنقله من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع.

و كان لإبراهيم عليه السلام أربعة بنين: إسماعيل وهوالمذكور وإسحاق و مدين و مدائن، وقيل: ثمانية: زمران ويقتان ويشبق ونوح؛ والبناء الّذي بنى إبراهيم عليه السلام كان على الأساس الأوّل حسبما ذكر في الحديث.

و كان البناء الأوّل، بناء آدم عليه السلام بإعانة الملائكة من خمسة أجبل: طور سيناء، طور زيتاء، طور لبنان، طور الجودي، طور حراء.

قال ابن عبّاس: حجّ آدم عليه السلام أربعين حجّة من الهند إلى مكّة على رجليه، فبقي البيت يطوف به هو والمؤمنون من ولده، إلى أيّام الطوفان، فرفعه الله في تلك الايّام إلى السماء الرابعة، يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك و بعث الله جبرئيل حتّى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس، صيانة له من الغرق.

و كان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام ثمّ إنّ الله أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت، فسأل الله ان يبين له موضعه، فبعث الله جبرئيل فخطّ له موضع البيت فرفع البيت ابراهيم و اسماعيل عليهما السلام حتّى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، فقال لابنه: يا بنيّ ائتني بحجر ابيض حسن يكون للناس علماً، فأتاه بحجر، فقال عليه السلام: ائتني بحجر احسن من هذا، فمضى اسماعيل عليه السلام يطلبه، فصاح ابوقبيس: يا إبراهيم إنّ لك عندي وديعة فخذها فإذا هو بحجر ابيض من ياقوت الجنّة، كان آدم عليه السلام قد نزل به من الجنّة، او انزله الله قبل ذلك، فأخذ ابراهيم عليه السلام الحجر، فوضعه مكانه.

فلما رفع القواعد جاءت سحابة مربّعة فيها رأس، فنادت: أن ارفعا على تربيعي، فهذا بناء إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام.

[ربّنا تقبّل منّا] قائلين: يا ربّ تقبّل منّا الطاعات والدعاء. والفرق بين التقبّل و القبول أنّ التقبّل على بناء التكلّف و يطلق حيث يكون العمل ناقصاً لايستحقّ أن يقبل إلّا على طريق التفضّل والكرم ولفظ القبول لادلالة فيه على هذا المعنى ولذلك قالا: «ربّنا تقبّل» اعترافاً منهما بالقصور في العمل خضوعاً [إنّك أنت السميع العليم] بجميع

المسموعات وكلّ المعلومات .

ربنا و اجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا امة مسلمة لك و ارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم (١٢٨) .

[ربّنا و اجعلنا مسلمين لك] أي مخلصين و منقادين بالرضاء لكلّ ما آمرت و قدّرت ، فإنّهما و إن كانا مستسلمين في زمان صدور هذا الدعاء ، لكنّهما طلبا الزيادة في الخلوص .

[ومن ذرّيّتنا اُمّة مسلمة لك] أي واجعل بعض ذرّيّتنا جماعة مسلمة و خصّا البعض من ذرّيّتهما لما علما أنّ منهم محسناً وظالماً ، وطريق علمهما قوله تعالى « لا ينال عهدي الظالمين »[١] .

[و أرنا مناسكنا] أي بصّرنا و أعلمنا مواضع نسكنا ، أوأعمال الحجّ من قبيل المواقيت والموقف وموضع الطواف والمسعى وغيرها . والنسك كلّ مايتعبّد به إلى الله ، لكنّه شاع في أعمال الحجّ ، وأصل النسيكة شاة كانوا يذبحونها في الجاهليّة .

[وتب علينا] أي ارجع الينا بالمغفرة والرحمة ، أوتكلّما بهذه الكلمة على وجه التسبيح والانقطاع و الخضوع إلى الله وقيل: إنّهما سألا التوبة على ظلمة ذرّيّتهما [إنّك أنت التوّاب الرحيم] القابل للتوبة والكثير القبول لها ، مرّة بعد اُخرى المنعم عليهم .

ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم(١٢٩) .

[ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم] الضمير في قوله « فيهم » راجع إلى الاُمّة المسلمة والمراد بقوله : «وابعث فيهم رسولاً منهم » هو نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله روي أنّه اُجيب بأنّه قد استجيب لك وهو في آخر الزمان ؛ وفي الحديث : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّي عندالله مكتوب خاتم النبيّين و إنّ آدم لمنجدل في طينته ـ أي لملقى على الأرض ـ وساُخبركم بأوّل أمري : أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام و بشارة عيسى عليه السلام و رؤيا اُمّي التي رأت

(١) البقرة : ١١٨ .

حين وضعتني وقد خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام.

[يتلو عليهم آياتك] و يبلّغهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد و الشرائع [و يعلّمهم الكتاب] القرآن [والحكمة] وما يكمل به نفوسهم ، و كلّ كلمة دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة [ويزكّيهم] ويطهّرهم عن دنس الشرك والمعاصي ، ثمّ بعد الدعاء ختم بالثناء على الله بقوله : [إنّك أنت العزيز] الغالب [الحكيم] الّذي لايفعل إلّا ماتقتضيه الحكمة .

ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا و انه فى الاخرة لمن الصالحين (١٣٠) اذقال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين (١٣١).

[و من يرغب عن ملّة إبراهيم] الرغبة : المحبّة والميل لما فيه للنفس منفعة «من» استفهاميّة ، قصد بها التقريع والإنكار ، ورغب في الشيء : إذا أراده ، ورغب عنه : إذا تركه .

أي لايترك دين إبراهيم عليه السلام أحد ولا يعرض عن شريعته وطريقته [إلّا من سفه نفسه] وجعلها ذليلاً و مهيناً ، قيل : إنّ عبدالله سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجر إلى الإسلام ، و قال لهما : قد علمتما أنّ الله تعالى قال في التوراة : إنّي باعث من ولد إسماعيل نبيّاً اسمه أحمد صلى الله عليه وآله ، فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة و مهاجر ، فأنزل الله الآية .

[ولقد اصطفيناه في الدنيا] من بين سائر الخلق بالنبوّة و الحكمة [و إنّه في الآخرة لمن الصالحين] من المشهود لهم بالثبات و الصلاح ، ومن كان كذلك كان حقيقاً بالاتّباع . ولايرغب عن ملّته إلّا سفيه يفعل أفعال السفهاء بسوء اختياره .

[إذقال] ظرف لاصطفيناه . في وقت قال [له ربّه أسلم] وأخلص دينك لربّك و استقم على الإسلام و ذلك حين خرج من الغار ونظر إلى الكوكب والقمر والشمس ، فألهمه الله الإخلاص [قال أسلمت لربّ العالمين] و أخلصت ديني له .

قال أهل التفسير : إنّ إبراهيم عليه السلام ولد في زمن النمرود بن كنعان ، و كان

النمرود أوّل من وضع التاج على رأسه و دعا الناس إلى عبادته ، و كان له كهّان و منجّمون ، فقالوا له : إنّه يولد في بلدك في هذه السنة غلام يغيّر دين أهل الأرض ويكون هلاكك و زوال ملكك على يديه ، قالوا : فأمر بذبح كلّ غلام يولد في ناحيته في تلك السنة ، فلمّا دنت ولادة اُمّ إبراهيم عليه السلام و أخذها المخاض خرجت هاربة ، مخافة أن يطّلع عليها فيقتل ولدها ، فولدته في نهر يابس ، ثمّ لفّته في خرقة ووضعته في حلفاء ، ثمّ رجعت و أخبرت زوجها بأنّها ولدت و أنّ الولد في موضع كذا ، فانطلق أبوه و أخذه من ذلك المكان و حفرله سرباً في الأرض كالمغارة ، فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع .

و كانت اُمّه يختلف إليه فترضعه . و كان اليوم على إبراهيم عليه السلام في الشباب و القوّة كالشهر في حقّ سائر الصبيان ، والشهر كالسنة ، فلم يمكث إبراهيم عليه السلام في المغارة إلّا خمسة عشر شهراً ، أوسبع سنين ، أوأكثر .

فلمّا شبّ إبراهيم عليه السلام في السرب ، قال لاُمّه : من ربّي ؟ قالت : أنا ، قال : فمن ربّك ؟ قالت : أبوك ، قال : فمن ربّ أبي ؟ قالت : اسكت ، فأتى إبراهيم عليه السلام أباه آزر وقال : يا أباه من ربّي ؟ و كان آزر ، عمّه ويطلق الأب على العمّ تغليباً ؛ لأنّ العمّ أب والخالة اُمّ ، لانخراطهما في سلك واحد و هو الاُخوّة ، لاتفاوت في أغلب الاُمور بينهما ، كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله : عمّ الرجل صنو أبيه و لا تفاوت بين صنوي النخلة .

و بالجملة ، لمّا قال إبراهيم عليه السلام لآزر : من ربّي ؟ قال آزر : اُمّك ، قال : فمن ربّ اُمّي ؟ قال : أنا ، قال : فمن ربّك ؟ قال : النمرود ، قال : فمن ربّ النمرود ؟ فلطمه لطمة و قال له : اسكت .

فلمّا جنّ عليه الليل ، دنا إبراهيم عليه السلام من السرب ، فنظر من خلال الصخرة ، فرأى السماء و ما فيها من الكواكب ، فتفكّر في خلق السماوات ، فقال : إنّ ربّي الّذي خلقني و رزقني و أطعمني و سقاني مالي إله غيره ، ثمّ نظر في السماء ، فرأى كوكباً ، قال : هذاربّي ، ثمّ أتبعه بصره ، ينظر إليه حتّى غاب ، فلمّا أفل قال : لا

أُحبّ الآفلين ، ثمّ رأى الشمس والقمر ، فقال فيهما كما قال في حقّ الكواكب .

و اختلف في هذا البيان ؛ فبعض أجراه على الظاهر و قالوا : كان إبراهيم عليه السلام في ذلك الوقت مسترشداً ، طالباً لمعرفة التوحيد و كان ذلك الأمر في حال طفوليّته قبل أن يجري عليه القلم ، فلم يكن كفراً ولم يضرّه ذلك في الاستدلال .

و أنكر الآخرون هذا القول و قالوا : كيف يتصوّر من مثله أن يرى كوكباً و يقول : هذا ربّي معتقداً ؛ و إنّما قال ذلك في مقام الاحتجاج على الخصم ، و لإثبات التوحيد و إلزام الطرف وكان مستسلماً لربّه الكريم وعلى الصراط المستقيم .

في كتاب السماء والعالم ، في النجوم ، بإسناده عن الكلينيّ - ره - في كتاب تعبير الرؤيا ، عن محمد بن منام ، قال : قال أبوعبدالله عليه السلام : قوم يقولون : النجوم أصحّ من الرؤيا ، و ذلك كان صحيحاً حتّى لم يردّ الشمس على يوشع بن نون وعليّ بن أبي طالب عليهما السلام فلمّا ردّ الله الشمس عليهما ، ضلّ فيها علماء النجوم .

في الكافي ، عن هشام الخفّاف ، قال : قال الصادق عليه السلام : يا هشام ، كيف نظرك بالنجوم ؟ قلت : ليس بالعراق أحد أبصر منّي في النجوم ، فقال عليه السلام : كيف دوران الفلك عندكم ؟ قال هشام : فأخذت قلنسوتي من رأسي فأدرتها ، فقال عليه السلام : إن كان كذلك ، فما بال بنات النعش والجدي والفرقدين لايرون يدورون يوماً من الدهر في القبلة ؟ .

ثمّ قال عليه السلام : يتقابلان ملكان للحرب و حاسبان لهما ، فيحسب هذا الصاحبه بالظفر ، ثمّ يلتقيان فيهزم أحدهما الآخر ، أو يجيء ملك آخر ، فيهزمهما ، فأين كانت النجوم ؟

ثمّ قال عليه السلام : إنّ أصل الحساب في النجوم حقّ ولكن لايعلم ذلك إلّا من علم مواليد الخلق كلّهم .

قال المجلسي : وبالجملة من أدلّ الدلائل على بطلان قول المنجّمين أنّا قد علمنا أنّ من جملة معجزات الأنبياء الإخبار عن الغيوب وعدّ ذلك خارقاً للعادات ، كإحياء الميّت وإبراء الأكمه و الأبرص ولوكان العلم بما يحدث طريقاً نجوميّاً ، لم

يكن ما ذكرناه معجزاً ولاخارقاً للعادة وكيف يشتبه على مسلم بطلان أحكام النجوم وقد أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تكذيب المنجّمين والشهادة بفساد مذاهبهم؟ و معلوم من دين الرسول صلى الله عليه وآله، ضرورة التكذيب بمايدّعيه المنجّمون. وفي الروايات عنه عليهم السلام في ذلك ما لايحصى فأمّا ما أصابتهم في الإخبار عن الكسوف والخسوف وأمثالهما فالفرق بينها وسائر مايخبرون به من تأثيرات الكواكب أنّ الكسوفات و الاقترانات والانفصالات طريقه الحساب وسير الكواكب، وله اُصول صحيحة وقواعد سديدة، و ليس كذلك ما يدّعونه من تأثيرات الكواكب في الخير والشرّ والنفع والضرر، فيقع فيها خطاء وكذب كثير.

قوله تعالى: «فنظر نظرة في النجوم وقال إنّي سقيم» استشكل بعض في هذه الآية بوجهين: أحدهما أنّه حكى عن بيّنة النظر في النجوم مع أنّه ممنوع، والآخر قوله: «إنّي سقيم» وذلك كذب.

وأجاب السيّد المرتضى في كتاب تنزيه الأنبياء بوجوه.

الأوّل أنّ إبراهيم عليه السلام كانت به علّة تأتيه في أوقات مخصوصة، فلمّا دعوه إلى عيدهم بالخروج معهم نظر إلى النجوم ليعرف نوبة علّته، فقال: إنّي سقيم، أي شارفت الدخول فيها والعرب تسمّي الشارف للشيء الداخل فيه، كما قال: «إنّك ميّت وإنّهم ميّتون»[1].

فلو قيل: على هذا يكون يقول: فنظر إلى النجوم لأنّ لفظة «في» لاتستعمل إلّا فيمن ينظر كما ينظر المنجّم؛ فالجواب: إنّ حروف الصفات يقوم و يستعمل بعضها مقام بعض، مثل قوله: «ولأصلّبنّكم في جذوع النخل»[2] وإنّما أراد: على جذوع النخل ويجوز أن يكون معناه: أنّه شخص ببصره إلى السماء، كما يفعل المتفكّر و المتأمّل استعانة على فكره وعذره في الجواب.

قال العلّامة المجلسيّ: ويمكن أن يقال: إنّ حرمة النظر في علم النجوم على

---

(١) الزمر: ٣١.

(٢) طه: ٧٤.

الأنبياء والأئمّة العالمين بها حقّ العلم غير مسلّم وإنّما يحرم على غيرهم لعدم إحاطتهم بهذا العلم .

ويؤيّد هذا الكلام ما في كتاب الاحتجاج عن أبان بن تغلب ، قال : كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أهل اليمن ، فسلّم عليه ، فردّ عليه ، فقال له : مرحباً ياسعد ، فقال له الرّجل : بهذا الاسم سمّتني أُمّي ، وما أقلّ من يعرفني به ! فقال عليه السلام : صدقت ياسعد المولى ، فقال له الرجل : بهذا كنت أُلقّب ، قال : لاخير في اللقب ؛ قال الله : « و لا تنابزوا بالألقاب » ثمّ قال عليه السلام : ماصناعتك يا سعد ، قال : أنا من أهل بيت ننظر في النجوم ولايقال: إنّ باليمن أحداً أعلم بالنجوم منّا .

فقال عليه السلام : فكم ضوء المشتري على ضوء القمر درجة ؟ فقال اليمانيّ : لاأدري .

فقال عليه السلام : فكم ضوء المشتري على ضوء عطارد درجة ؟ فقال اليمانيّ : لاأدري .

فقال الصادق عليه السلام : فما اسم النجم الّذي إذا طلع هاجت الأبل ؟ فقال اليمانيّ : لاأدري .

قال عليه السلام : فما اسم النجم الّذي إذا طلع هاجت البقر ؟ قال : لا أدري ، قال عليه السلام : فما اسم النجم الّذي إذا طلع هاجت الكلاب ؟ فقال لا أدري .

قال عليه السلام : فما زحل عندكم في النجوم ؟ قال اليمانيّ : نجم نحس ، فقال عليه السلام : لا تقل هذا ؛ فإنّه نجم أمير المؤمنين وهو نجم الأوصياء وهو النجم الثاقب الّذي ذكره الله في القرآن ، فقال اليمانيّ : فما معنى الثاقب ، فقال عليه السلام : إنّ مطلعه في السماء السابعة وإنّه ثقب بضوئه حتّى أضاء في السماء الدنيا .

والحديث طويل إلى أن يقول عليه السلام : وإنّ عالم المدينة - والمراد نفسه النفيسة - لايقفو الأثر ، أي لا يحتاج في علمه بالحوادث إلى تلك الأمور ، بل يعلم في لحظة واحدة بما أعطاه الله من العلم مايقع فيما يطلع عليه الشمس و تقطعه و اثناعشر عالماً من أصناف الخلق ومنها جابلقا و جابرسا ، يعنى إذا أراد يعلم ما يحدث في اللحظة الواحدة ، في جميع تلك العوالم .

وفي كتاب الاحتجاج عن سعيد بن جبير : قال : استقبل أمير المؤمنين دهقان من

دهاقين الفرس ، فقال له بعد التهنئة : ياأمير المؤمنين ، تناحست النجوم الطالعات وإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء ، و يومك هذا يوم صعب ، قد انقلب فيه كوكبان وانقدح من برجك النيران وليس لك الحرب بمكان ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : يا دهقان المنبىء بالآثار ؛ المحذّر من الأقدار ، ماقصّة صاحب الميزان وقصّة صاحب السرطان ؛ وكم بين السراري والذراري ؛ قال : الدهقان سأنظر ، وأومأ بيده إلى كمّ وأخرج اُسطرلاباً ، ينظر فيه ، فتبسّم عليه السلام ، فقال : أتدري ماحدث البارحة وقع بالصين وانفرج برج ماجين وسقط سور سرانديب وانهزم بطاريق الروم بأرمنيّة وفقد ديّان اليهود بايلة وهاج النمل بوادي النمل وهلك ملك إفريقيّة ، أكنت عالماً بهذا ؛ قال : لا ياأمير المؤمنين ، فقال عليه السلام : البارحة سعد سبعون ألف عالم وولد في كلّ عالم سبعون ألفاً ، والليلة يموت مثلهم وهذا منهم (و أو مأ بيده إلى سعد بن سعدة الحارثيّ وكان جاسوساً للخوارج في عسكره ـ عليه السلام ـ فظنّ الملعون أنّه يقول : خذوه ، فأخذ بنفسه ، فمات) فخرّ الدهقان ساجداً .

في كتاب الدرّ المنثور : قيل : السبب في كراهة علم النجوم لسبب الاختلاف الّذي وقع فيها ، كما نقله عطاء ، فحينئذ لا يمكنهم الحساب و الحكم الواقعيّ على الكواكب و حركاتها فيكذبون ؛ أو من جهة أنّه يصير سبباً لترك الاُمور الضروريّة بسبب علمهم بما يترتّب على حسابهم .

ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون(١٣٢).

[و وصّى] التوصية : تقديم مافيه خير و صلاح من قول أو فعل إلى الغير ، دينيّاً أو دنيويّاً [بها] أي بالملّة المذكورة في قوله تعالى : «ومن يرغب عن ملّة إبراهيم» [إبراهيم بنيه] أي أولاده المذكورين [ويعقوب] عطف على إبراهيم ، أي وصّى يعقوب أيضاً بنيه بهذه الوصيّة . ويعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم ، «بنيه» الاثني عشر : روبيل و شمعون ولاوي ويهودا ويستسوخور وزبولون ونوانا ونفتونا وكوزا واوشير وبنيامين ويوسف .

وعاش يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة بأرض مصر وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدسة ويدفن عند أبيه إسحاق، فحمله يوسف فدفنه عنده [يابنيّ] على إضمار القول عند البصريين، تقديره: وصّى و قال: يابنيّ وذلك جلة والجملة لايقع مفعولاً إلّا لأفعال القلوب أو فعل القول عندهم [إنّ الله اصطفى لكم الدين] أي دين الإسلام ولادين عنده غيره [فلاتموتنّ] أي لايكون يصادفكم الموت [إلّا وأنتم مسلمون] ومخلصون بالتوحيد وذلك حين دخل يعقوب مصر، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، فأوصى بنيه بأن يثبتوا على الإسلام، لأنّ الإنسان إذا أنس وعاشر بأهل الشرّ يخاف عليه أن يتخلّق بأخلاقهم.

كتب بعض العلماء إلى تلميذ له: أمّا بعد، فإنّك قد أصبحت تأمل الدنيا بطول عمرك وتتمنّى على الله الأماني بسوء فعلك، وإنّما تضرب حديداً بارداً، والسلام.

وحسن الظنّ بالله إنّما يعتبر بعد إصلاح الحال بالأخلاق والأعمال و اليقين.

والقائلون بالطبائع، هم الّذين يسندون الأفعال إلى مجرّد الطبائع وهو قول سخيف وكفر وباطل؛ فإنّ الطبيعة قوّة جسمانيّة، وكلّ جسم محدث؛ فكلّ قوّة جسمانيّة، وكلّ جسم محدث؛ فكلّ قوّة حالّة فهي محدثة تفتقر إلى محدث غير طبيعيّة وإلّا لزم التسلسل، فلا بدّ من القول بالصانع.

ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذقال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الهاً واحداً ونحن له مسلمون (١٣٣).

[أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذقال] نزلت الآية حين قالت اليهود للنبيّ ﷺ: ألست تعلم أنّ يعقوب أوصى بنيه باليهوديّة يوم مات؟ فأجاب الله هل كنتم حاضرين حين احتضر يعقوب و قال لبنيه ما قال؟ أي ما كنتم حضوراً وقت موته لمّا قال [لبنيه ما تعبدون من بعدي] أي أيّ شيء تعبدونه؟ فلا تدّعوا وتنسبوا إلى رسلي الأباطيل من اليهوديّة والنصرانيّة، فإنّي مابعثتهم إلّا بالحنيفيّة، وإنّما قال عليه السلام: «ما تعبدون» ولم يقل: «من تعبدون» لأنّ الناس كانوا يعبدون الأصنام.

[قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق] أي نعبد الإله المتّفق

على وجوده ، وجعل إسماعيل وهو عمّه من جملة الآباء ، تغليباً للأب والجدّ ، فثبت بهذا أنّ العمّ يطلق على الأب كما أشرنا إليه في قصّة آزر [إلهاً واحداً] بدل من «إله آبائك» [ونحن له مسلمون] حال من فاعل نعبد .

تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون(١٣٤).

[تلك اُمّة قدخلت] تلك إشارة إلى الاُمّة المذكورة الّتي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما ؛ أي جماعة قد مضت بالموت وأصله : صارت إلى الخلا وهي الأرض الّتي لا أنيس بها [لها ما كسبت] أي لها كسبها لاكسب غيرها [ولكم ما كسبتم] لا كسب غيركم [ولا تسألون عمّا كانوا يعلمون] أي لاتؤاخذون بسيّئات الاُمّة الماضية .

و حاصل المعنى أنّ اليهود لمّا كانوا مفتخرين بأوائلهم فردّهم الله بأنّهم لا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنّما ينفعهم اتّباعهم في الأعمال ، فانّ أحداً لاينفعه كسب غيره، كما قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

وما ينفع الأصل من هاشم ☆ إذا كانت النفس من باهلة

وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (١٣٥).

[وقالوا كونوا هوداً أونصارى] .

النزول : عن ابن عبّاس أنّ جماعة من اليهود وجماعة من النصارى من أهل نجران خاصموا المسلمين ، كلّ فرقة منهم تزعم أنّها أحقّ بدين الله من غيرها.فقالت اليهود : نبيّنا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب، و قالت النصارى : نبيّنا عيسى أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب ، و كلّ فريق منهما قالوا للمؤمنين : كونوا على ديننا ، فنزلت الآية .

[وقالوا]أي رؤساء اليهود ورؤساء النصارى للمسلمين : كونوا على ديننا[تهتدوا] جواب للأمر ، أي : إن تكونوا كذلك ، تجدوا الهداية [قل] يا محمّد صلّى الله عليه وآله لهم : [بل ملّة إبراهيم] أي أهل ملّته ودينه على حذف المضاف ؛ أي بل نتّبع ملّته [حنيفاً] أي مائلاً

عن كلّ دين باطل إلى دين الحقّ وهو حال من إبراهيم ، وتذكر «حنيفاً» بتأويل الملّة بالدين [وما كان من المشركين] تعريض بهم بالشرك ، بقولهم : «عزير ابن الله والمسيح ابن الله» .

قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم و اسماعيل و اسحق و يعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى و ما اوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون (١٣٦) .

[قولوا] أيّها المؤمنون : [آمنّا بالله] وحده [وما اُنزل إلينا] أي بالقرآن الّذي اُنزل على نبيّنا، والإنزال إليه إنزال إلى اُمّته [وما اُنزل إلى إبراهيم] من صحفه العشر، وما اُنزل إلى [إسماعيل وإسحاق ويعقوب] وإلى [الأسباط] والمراد هنا أولاد يعقوب ، والسبط : أصل شجرة واحدة لها أغصان كثيرة ، وسبط الرجل : ولد ولده ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ، والصحف وإن كانت نازلة إلى إبراهيم ، لكنّ من بعده حيث كانوا متعبّدين بتفاصيلها جعلت منزلة إليهم ، كما جعل القرآن منزلاً إلينا .

[وما اُوتي موسى وعيسى] من التوراة والإنجيل [وما اُوتي النبيّون] جملة المذكورين منهم وغير المذكورين [من ربّهم] في موضع الحال من العائد المحذوف والتقدير : وما اُوتيه النبيّون منزلاً عليهم من ربّهم .

[لانفرّق بين أحد منهم] كاليهود فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ؛ لأنّه اتّحدوا في الاُصول وكلّهم على كلمة واحدة في الاُصول [ونحن له مسلمون] أي والحال : أنّا مخلصون لله ومذعنون .

فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (١٣٧).

[فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به] أخبر الله أنّ هؤلاء الكفّار متى آمنوا على حدّ ما آمن المؤمنون به [فقد اهتدوا] إلى طريق الجنّة وسلكوا طريق الاستقامة و حصل بينكم الاتّفاق [وإن تولّوا] وأعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلّوا

بشيء من ذلك [فإنّما هم في شقاق] أي مستقرّون في خلاف عظيم ، بعيد عن الحقّ ، فقوله : «في شقاق» خبر لقوله : «هم» وجعل الشقاق اهم وهم مظروفون له مبالغة في الإخبار باستيلائه عليهم ، فكان كلّ واحد من الفريقين في شقّ غيرشقّ صاحبه .

ثمّ عقّب سبحانه بتسلية الرسول وضمان التأييد بقوله [فسيكفيكهم الله] أمر اليهود والنصارى ، ويدفع شرّهم عنك وينصرك عليهم ، وقد أنجز الله وعده له بالقتل والجزية والذلّة في نصارى نجران [و هو السميع العليم] يسمع ما تدعوبه و يعلم ما في قلبك .

صبغة الله ومن احسن من الله صبغة و نحن له عابدون (١٣٨) .

«الصبغة» من الصبغ ، كالجلسة من الجلوس وهي الحالة الّتي تقطع عليها الصبغ. عبّر بها عن الإيمان ومستعارة لفطرة الله التي فطر الناس عليها وتقدير الكلام : صبغنا الله صبغة وفطرنا و خلقنا على استعداد الإيمان ، أو ألزموا صبغة الله و تطهير الله ، لا صبغتكم وتطهيركم . وعبّر عن لفظ الإيمان والفطرة بلفظ الصبغة لوقوعه في صحبة صبغة النصارى ؛ إذ كانوا يصبغون أولادهم في سابع الولادة مكان الختان للمسلمين ، بغمسهم في الماء الأصفر الّذي يسمّونه المعموديّة، وهي اسم ماء غسل به عيسى فمزّجوه بماء آخر وكلّما يستعملوا منه جعلوا مكانه ماءً آخر وهو علامة تنصّرهم ولايتحقّق التنصّر إلّا بهذا الفعل .

[ومن أحسن من الله صبغة] والاستفهام بمعنى الجحد ، و«من أحسن» مبتدؤ وخبر ، والتقدير : ومن صبغته أحسن من صبغة الله ؟ وأيّ شخص تكون صبغته أحسن من صبغة الله ؟ فإنّه يصبغ ويميّز عباده بالإيمان ويطهّرهم به [ونحن له] أي لله ، أولانا تلك النعمة [عابدون] وتقدّم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنّا ، فإذا كان حرفة العبد العبادة فقد زيّن نفسه بصبغ حسن .

قال بعض العلماء : لايكمل التعبّد لأحد حتّى لايجزع من أربعة : من الجوع والعرى والفقر والذلّ ، وللعبد أوقات ، فإذا كان في الطاعة فعليه بتخليصها، وإذا كان في النعمة فعليه بشكرها وإذا كان في البليّة فعليه بالصبر عليها والرضى، وإذا كان في المعصية

فبتداركها سريعاً بالتوبة ولكلّ وقت منها سهم في العبوديّة يقتضيه الحقّ منك بحكم الربوبيّة ، فمن راقب الأوقات الأربع وصل إلى الدرجات .

نقل أنّ السريّ السقطيّ قال : مكثت عشرين سنة أُفيض خلق الله ، فلم يقع في شبكتي إلّا واحد كنت أتكلّم في المسجد الجامع ببغداد يوم الجمعة وقلت : عجبت من ضعيف عصى قويّاً ؛ فلمّا كان يوم السبت وصلّيت الغداة إذا أنا بشابّ قد وافى وخلفه غلمان وحاشية وهو راكب على دابّته ، فقال : أيّكم السريّ ، فأومأ جلسائي إليّ فسلّم عليّ وجلس وقال : سمعتك تقول : عجبت من ضعيف عصى قويّاً ، فما أردت به ؟ فقلت : ما ضعيف أضعف من بني آدم ، ولا قويّ أقوى من الله تعالى و قد تعرّض ابن آدم مع ضعفه إلى معصيته قال : فبكى الشابّ .

ثمّ قال : ياسريّ ، هل يقبل ربّك غريقاً مثلي ؟ قلت : و من ينقذ الغرقى إلّا الله ؟ قال ياسريّ إنّ عليّ مظالم كثيرة كيف أصنع؟ قال: إذا صحّحت الانقطاع إلى الله أرضى عنك الخصوم ، بلغنا عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : إذا كان يوم القيامة و اجتمع الخصوم على وليّ الله ، و كل لكلّ منهم ملكاً يقول : لا تروّعوا وليّ الله ، فإنّ حقّكم اليوم على الله ، فبكى الشابّ .

ثمّ قال : صف لي الطريق إلى الله ، فقلت : إن كنت تريد المقتصدين فعليك بالصيام والقيام وترك الآثام، وإن كنت تريد طريق الأولياء فاقطع العلائق واتّصل بخدمة الخالق فبكى حتّى بلّ منديلاً له ، وانصرف وكان من أمره كيت وكيت من ترك الدنيا والسكون في المقابر وتغيّر الحال حتّى توفّي على تلك الحالة ، قال السّريّ : فحلمت يوماً عيناي فإذا به يزمّل في السندس والإستبرق ويقول لي : جزاك الله خيراً ، فقلت له : مافعل الله بك ؟ قال : أدخلني الجنّة ولم يسألني عن ذنب . انتهى .

قل اتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم و نحن له مخلصون (١٣٩).

[قل] يا محمّد صلّى الله عليه وآله لليهود والنصارى : [أتحاجّوننا] أتخاصموننا [في الله] ؟ أي في دين الله ، و تدّعون أنّ دينه الحقّ هو اليهوديّة و النصرانيّة و تبنون دخول الجنّة

عليهما وتقولون تارة : لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أونصارى،وتارة تقولون : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا [و هو ربّنا و ربّكم] و الحال أنّه لاوجه للمجادلة ؛ لأنّه مالك أمرنا وأمركم[ولنا أعمالنا] الحسنة الموافقة لأمره[ولكم أعمالكم]السيّئة المخالفة لحكمه ، فكيف تدّعون أنّكم أولى بالله؟[ونحن له مخلصون] لانبتغي إلّاوجهه وأنتم به مشركون . والإخلاص تصفية العمل عن الشرك و الرياء والدنيا و ملاحظة المخلوقين.

ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق و يعقوب و الاسباط كانوا هوداً او نصارى قل ءأنتم اعلم امالله ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ومالله بغافل عماتعملون (١٤٠) .

[أم تقولون] «أم» معادلة للهمزة في قوله : «أتحاجّوننا»والمراد إنكار كلاالأمرين أي أتحاجّوننا في دين الله أم تقولون : إنّ الأنبياء كانوا على دينكم ؟ فبأيّ الحجّتين تتعلّقون في إقامة الحجّة على حقيّتهم و تدّعون [إنّ إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط] وهي حفدة يعقوب وهم أولاد أولاده الاثنى عشر[كانوا هوداًأو نصارى] وتقولون : نحن مقتدون بهم ؟ و كيف تقولون في حقّ الأنبياء الّذين بعثوا قبل نزول التوراة والإنجيل : إنّهم كانوا هوداً أو نصارى،ومن المحال أن يقتدي المتقدّم بالمتأخّر ويستنّ بسنّتـه ؟

[قل] يا محمّد [ءأنتم] والهمزة للإنكار [أعلم] بدينهم [أم الله] أعلم ؟ [ومن أظلم] والاستفهام في قوله «ومن» بمعنى النفي [ممّن كتم] وأخفى و ستر عن الناس [شهادة] ثابتة [عنده من الله] أي وما أحد أظلم ممّن يكون عنده شهادة من الله فيكتمها وادّعى أنّ الانبياء كانوا على دينهم،والمراد من هذا الكتمان أنّ الله بيّن في كتابه صحّة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله والبشارة .

وقيل:المراد بالشهادة في الآية وكتمانها أنّ إبراهيم وإسماعيل و إسحاق ويعقوب وأولاده كانوا حنفاء مسلمين فكتموا هذه الشهادة وادّعوا أنّهم كانوا على دينهم فهذه شهادة كانت من الله عندهم و كتموها .

وقيل في معنى الآية: إنّ المراد من أظلم في كتمان الشهادة من الله لو كتمها ، أي إنّه يلزمكم أنّه لا أحد أظلم من الله إذ كتم شهادة عنده وأوقع عباده في الضلال وهو الغنيّ عن ذلك ، ولو كانوا هوداً أو نصارى لأخبر بذلك .

[وما الله بغافل عمّا تعملون] ولا يخفى عليه شيء من المعلومات فكونوا على حذر من الجزاء من مفترياتكم في دين الله .

تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون كما كانوا يعملون (١٤١) .

قد مضى تفسيره ، والوجه في تكراره أنّه عنى بالأوّل إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء ، وبالثاني أسلاف اليهود : وإذا اختلف الأزمان والمواطن لم يكن التكرار معيباً بل يكون لازماً .

وحاصل آخر للآية وذكرها : وهو أنّه لو سلّم لكم ما ادّعيتم من أنّ الأنبياء كانوا على دين اليهوديّة والنصرانيّة فليس لكم فيه حجّة لأنّه لا يمتنع اختلاف الشرائع بالمصالح ؛ فله أن ينسخ من الشرائع ماشاء ويقرّ منها ماشاء على حسب مايقتضيه حكمته وأمره .

سيقول السفهاء من الناس ماولىهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم (١٤٢) .

[سيقول السفهاء من الناس] يريد المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين و اليهود و والنصارى والمشركين، وإنّما كانوا سفهاء لأنّهم رغبوا عن ملّة إبراهيم وقد قال سبحانه : «ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه» أي أذلّها بالجهل .

وحاصل المعنى أنّ الّذين ضعفت عقولهم من الناس : [ما ولّاهم عن قبلتهم الّتي كانوا عليها] «ما» استفهاميّة إنكاريّة مرفوعة المحلّ على الابتداء «و ولّاهم» خبره ، أي أيّ شيء صرفهم . والقبلة من المقابلة لأنّ المصلّي يقابلها وحوّ لهم عن قبلتهم و هي البيت المقدّس ، ثمّ انصرفوا منها إلى الكعبة لأنّ النبيّ ﷺ صلّى إلى البيت المقدّس بعد مقدمه المدينة نحواً من سبعة عشر شهراً تأليفاً لقلوب اليهود ثمّ صارت الكعبة قبلة المسلمين إلى نفخ الصور .

[قل] يا محمد ﷺ لهم : [لله المشرق والمغرب] أي الأمكنة بأسرها له ملكاً و تصرّفاً فلا يستحقّ شيء منها أن يكون لذاته قبلة حتّى يمتنع إقامة غيره مقامه ، فله أن يأمر في كلّ وقت بالتوجّه إلى جهة من تلك الجهات على حسب مشيئته ، فاللائق بالمخلوق أن يطيع خالقه فإنّ الطاعة ليست إلّا الامتثال وليس للعبد أن يتحرّى خصوصيّة في المامور به أمراً زائداً على الأمر وأنّ اليهود أحبّوا جهة المغرب حيث زعموا أنّ موسى عليه السلام كان في جانب المغرب ، فأكرمه الله بكلامه ووحيه ، و النصارى أحبّوا جهة المشرق حيث زعموا أنّ مريم حين خرجت من بلدها مالت إلى جهة المشرق كما قال الله : «واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً »[1] و المؤمنون استقبلوا الكعبة طاعة لله وامتثالاً لأمره ، لا ترجيحاً لبعض الجهات مع أنها قبلة إبراهيم ومولد نبيّهم .

[يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم] وهو التوجّه إلى بيت المقدس تارة والكعبة أخرى .

وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وماكان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم (١٤٣) .

[وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً] الكاف للتشبيه ، والمشبّه به الاصطفاء عن إبراهيم ، أي فكما اصطفينا إبراهيم في الدنيا فكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ، و المشبّه به الهداية أي كما أنعمنا عليكم بالهداية كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمّة وسطاً .

أو المعنى: كما هديناكم إلى أوسط القبل ، كذلك جعلناكم أمّة وسطاً ، والوسط هو العدل كما روي عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ قال : أمّة وسطاً أي عدلاً ، وخير الأمور أوسطها أي أعدلها ؛ قال زهير :

---

(١) مريم : ١٧ .

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم ✿ إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

فمدحهم الله بكونهم عدولاً ولذلك جعلهم شهوداً، كما قال: «كنتم خيراً مّة أُخرجت للناس»(١) وذلك لأنّهم متوسّطون في الدين بين المفرط والغالي؛ فلا قصّروا كتقصير اليهود حيث قتلوا أنبياءهم و حرّفوا التوراة، ولم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا له تعالى ابناً وإلهاً.

[لتكونوا شهداء على الناس] روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل بإسناده عن سليم بن قيس، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إيّانا عنى بقوله: «لتكونوا شهداء على الناس» بأعمالهم، فرسول الله صلى الله عليه وآله شاهد علينا و نحن شهداء الله على خلقه وحجّته في أرضه ونحن الّذين قال تعالى: «لتكونوا شهداء على الناس».

[ويكون الرسول] أي محمّد صلى الله عليه وآله [عليكم شهيداً] فلو قيل: إنّ الشهادة إذا كانت ضارّة تتعدّى بعلى وإذا كانت نافعة تتعدّى باللام، لأنّ المراد من كلمة «على» تضمّن معنى الرقيب والمطّلع، فحسن التعبير بعلى.

[وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها] وهي الكعبة، لأنّه صلى الله عليه وآله كان - وهو بمكّة - مأموراً بأن يصلّي إلى الكعبة، ثمّ لمّا هاجر إلى المدينة اُمر بالصلاة إلى بيت المقدس، ثمّ اُعيد إلى ما كان عليه. والمعنى: ما رددناك إلى ما كنت عليه وعلى استقباله [إلّا لنعلم من يتّبع الرسول] في التوجّه إلى ما اُمر به [ممّن ينقلب] وينصرف [على عقبيه] العقب مؤخّر القدم مستعار للارتداد والرجوع عن الدين والطريق.

أي ليتميّز الثابت على الإسلام من المتردّد، واللّازم من العلم التميز و تسمية الملزوم باسم اللازم وبالعكس شائع، وليس المراد أنّه تعالى لم يعلم حالهم ثمّ علم لأنّه كان عالماً في الأزل بهم و بكلّ حال من أحوالهم الّتي تقع في كلّ زمان من أزمنة وجودهم.

ونظيره في الإشكال قوله: «ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين»(٢)

---

(١) آل عمران: ١٠٦.
(٢) محمد: ٣٣.

وقوله: «الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً (١)» وقوله: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الّذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٢)» «وما كان له عليهم من سلطان إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة (٣)» وأمثال هذه الآيات.

وقيل: معنى العلم في مثل هذه الآيات الرؤية أي لنرى، والعرب تضع العلم مكان الرؤية، والرؤية مكان العلم كقوله: «ألم تر كيف فعل» وقال الفرّاء وجه آخر: وهو أنّ حدوث العلم في الآية راجع إلى المخاطبين، ومثاله أنّ جاهلاً وعاقلاً اجتمعا، فيقول الجاهل: الحطب يحرق النار، ويقول العاقل: النار يحرق الحطب، و سنجمع بينهما لنعلم أيّهما يحرق صاحبه، فكذلك قوله «إلّا لنعلم» أي إلّا لتعلموا، والغرض من هذا الجنس من الكلام الرفق في الخطاب لا يراد المعنى المراد كقوله: «وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى (٤)» فأضاف الكلام الموهم للشكّ ترقيقاً للكلام و رفقاً للمخاطب و الوجه الأوجه الوجه الأوّل انتهى.

[وإن كانت] القبلة المحوّلة [لكبيرة] أي شاقّة ثقيلة على من يألف التوجّه إلى القبلة المنسوخة و «إن» هي المخفّفة من المثقّلة واسمها محذوف وهو القبلة [إلّا على الّذين هدى الله] أي هداهم الله وتيقّنوا أنّ السعيد الفائز من أطاع أمر مولاه.

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم مثابون على الاتّباع فقال: [وما كان الله ليضيع إيمانكم] وثباتكم على التصديق بما جاءبه النبيّ [إنّ الله بالناس] متعلّق «برؤوف» [لرؤوف] وذو مرحمة [رحيم] يغفر ذنوبهم بالإيمان وإيصال الرزق.

روي أنّه أخذ بعض الاُمراء قاتلاً في زمن داود عليه السلام فصلب فوق الجبل عشاءً ورجع الناس إلى منازلهم و بقي على الخشبة وحده وتضرّع إلى آلهته ولمّا يمت فلم يغنوا عنه شيئاً، ثمّ رجع إلى الله وقال: أنت الله الحقّ أتيت إليك لتغيثني فأغثني برحمتك، قال الله: يا جبرئل إنّ هذا عبد آلهته طويلاً فلم ينتفع ففزع إليّ و دعاني،

---

(١) الانفال: ٦٨.
(٢) آل‌عمران: ١٣٦.
(٣) سبا: ٢٠.
(٤) سبا: ٢٣.

فاستجيب له فاهبط وضعه على الأرض في سلامة ففعل ، فلمّا أصبحوا رأوه وهي يصلّي لله فأخبروا داود عليه السلام بذلك ، فدعا الله فيه مستكشفاً سرّه فأوحى الله إليه : يا داود إنّي أرحم من آمن بي ودعاني فإن لم أفعل فأيّ فرق بيني و بين آلهته و من توجّه بقلبه إلى الله وادّعى المحبّة فليكن لا يكذّب فعله قوله ، وليكن البلوى عنده ألذّ من الحلوى فذلك صدق فيما ادّعى ، وليعدّ الالتفات إلى غيره من الاحتياط ولو بأكل لقمة مشوبة في عمره و تحسبها من الموانع في الارتقاء .

قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (١٤٤) .

[قد نرى] مستقبل معناه الماضي أي شاهدنا و علمنا [تقلّب وجهك في السماء] وتردّد نظرك في جهة السماء ، روي عن ابن عبّاس أنّه قال : ياجبرئيل وددت أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها ، فقال جبرئيل : أناعبد مثلك فاسأل ربّك ذلك و كان صلى الله عليه وآله يحبّ التغيير لكن لايتكلّم بذلك ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يديم النظر إلى السماء رجاء مجيء جبرئيل ، فأنزل الله الآية .

والسبب في أنّه صلى الله عليه وآله يحبّ تغيير القبلة أمور :

منها أنّ الكعبة كانت قبلة إبراهيم و كان اليهود يقولون : إنّه يخالفنا ثمّ يتبّع قبلتنا ولولا نحن لم يدر أين يستقبل .

ومنها أنّه صلى الله عليه وآله كان يقدّر أن يصير ذلك سبباً لاستمالة العرب و لدخولهم في الإسلام .

ومنها أنّه صلى الله عليه وآله أحبّ أن يحصل هذا الشرف للمسجد الّذي في بلدته و كان قد وعد صلى الله عليه وآله بتحويل القبلة عن بيت المقدس فكان ينقلب وجهه انتظاراً للوعد وتوقّعاً للموعود .

[فلنولّينّك قبلة ترضاها] أي فوالله لنعطينّكها ولنمكّننّك من استقبالها و والياً لها ترضاها وتحبّها وتتشوّق إليها لأنّك تحبّها لمقاصد دينيّة وافقت مشيّة الله .

[فولّ وجهك شطر المسجد الحرام] و المراد بالوجه ههنا جملة البدن، و تخصيص الوجه بالذكر للتنبيه على أنّه الأصل في التوجّه والاستقبال، والمراد بالشطر: النحو، قال الرازيّ: الشطر لفظ مشترك بين معنيين، النصف، والجانب؛ والمتبادر من لفظ «المسجد الحرام» هو المسجد الأكبر الّذي فيه الكعبة و«الحرام» أي المحرّم فيه القتال والممنوع من الظلمة أن يتعرّضوا له وسائر اُمور محرّم وقوعه فيه، وفي ذكر المسجد دون الكعبة إيذان بكفاية مراعاة جهة الكعبة، لأنّ استقبال عينها للبعيد متعذّر وفيه حرج عظيم بخلاف القريب.

[وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره] الخطاب الأوّل له ﷺ وهذا الخطاب لكافّة الناس أي في أيّ موضع كنتم و أردتم الصلاة فولّوا وجوهكم نحوه وطرفه، ولو اقتصر على الأوّل لظنّ ظانّ أنّ ذلك قبلته فحسبه فبيّن سبحانه أنّه قبلة لجميع المصلّين.

قال ابن عبّاس: البيت كلّه قبلة، وقبلة البيت الباب، والبيت قبلة أهل المسجد، و المسجد قبلة أهل الحرم، والحرم قبلة أهل الأرض كلّها، وهذا موافق لما قاله أصحابنا: إنّ الحرم قبلة من نأى عن الحرم من أهل الآفاق.

[و إنّ الذين اُوتوا الكتاب] أراد به علماء اليهود والنصارى [ليعلمون أنّه] أي التحويل إلى الكعبة [الحقّ] الثابت [من ربّهم] لما أنّ المسطور في كتبهم أنّه ﷺ يصلّي إلى القبلتين ومعنى «من ربّهم» أي من قبل ربّهم، لا شيء ابتدعه الرسول من قبل نفسه.

[وما الله بغافل عمّا تعملون] خطاب للمسلمين و أهل الكتاب جميعاً على التغليب فيكون وعداً للمسلمين بالإثابة و وعيداً للمخالفين بأوامر الله.

و لئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ماجاءك من العلم انك اذاً لمن الظالمين (١٤٥).

[ولئن أتيت الّذين اُوتوا الكتاب بكلّ آية] ولئن أتيت الّذين، في الكلام معنى

القسم أي والله لئن أتيت الّذين أُعطوا الكتاب من اليهود والنصارى بكلّ برهان قاطع على أنّ التوجّه إلى الكعبة هو الحقّ [ماتبعوا قبلتك] عناداً و مكابرة وهذا في حقّ قوم معيّنين علم الله أنّهم لايؤمنون فإنّ منهم من آمن وتبع القبلة.

[وما أنت بتابع قبلتهم] حسم لأطماعهم إذ كانوا تناجوا في ذلك وقالوا : لوثبت على قبلتنا لكنّا نرجوا أن يكون صاحبنا الّذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم.

[و ما بعضهم بتابع قبلة بعض] فإنّ اليهود يستقبل الصخرة و النصارى مطلع الشمس، لايرجى توافقهم كمالايرجى موافقتهم لك؛ لتصلّب كلّ فريق فيما هو فيه.

[ولئن اتبّعت أهواءهم] ووافقتهم في مراداتهم بأن صلّيت إلى قبلتهم مداراة لهم وطمعاً في إيمانهم [من بعدما جاءك من العلم] أي الوحي الّذي هو طريق العلم، أوالمعنى من بعد ماعلمت أنّ الحقّ ما أنت عليه من القبلة [إنّك إذاً لمن الظالمين] وهذا الكلام مثل قوله تعالى: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك» قال ابن عبّاس : إنّ أمثال هذه الخطابات في القرآن ولو أنّها إليه لكنّه المراد الأُمّة كقولهم : إيّاك أعني و اسمعي يا جارة.

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون (١٤٦).

[الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كمايعرفون أبناءهم] أخبرالله بأنّ أهل الفهم والدراسة من اليهود و النصارى يعرفون النبيّ و صحّة نبوّته بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم كمالايشتبه عليهم أبناؤهم [وإنّ فريقاًمنهم] وهم الّذين كابرو وعاندوا الحقّ [ليكتمون الحقّ وهم يعلمون] أنّ محمّداً ﷺ رسول الله وأنّ الكعبة قبلة الله، لأنّه مذكور في كتابهم : أنّ هذا النبيّ يصلّي على القبلتين، وإنّماقال : فريقاً منهم لأنّ بعضهم صدّقوا و آمنوا به كعبدالله بن سلام و أصحابه و كعب الأحبار وغيره وماكتموا و أمّا الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب و ماهم بصدد الإظهار ولا بصدد الكتم و إنّما كفرهم على وجه التقليد.

الحق من ربك فلاتكونن من الممترين (١٤٧).

[الحقّ من ربّك] «الحقّ» مبتدأ ، و«من ربّك» خبره . واللام للعهد والإشارة إلى ماعليه النبيّ أو إلى الحقّ الّذي يكتمونه أو للجنس ، و المعنى : أنّ الحقّ من الله لامن غيره وهو ماأنت عليه ، لاماهم عليه [فلا تكوننّ من الممترين] فلاتكوننّ من الشاكّين ، والمراد الاُمّة وإن توجّه الخطاب إليه كما ذكرنا سابقاً ، والصحيح في معنى الآية أنّ الّذي كتموه كتموه في قوله : «ليكتمون الحقّ» هو من ربّك .

ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات اين ماتكونوا يأت بكم الله جميعاً ان الله على كل شيء قدير (١٤٨) .

[و لكلّ وجهة هو مولّيها] و لكلّ مضاف وحذف المضاف إليه لوضوح المعنى أي : و لكلّ قوم ، قيل : الكلّ يعمّ الجميع من فرق المسلمين واليهود والنصارى والمشركين وقيل: إنّ المشركين غير داخلين في القوم ، والتنوين في «لكلّ» عوض عن المضاف إليه ، قال الرازيّ في المفاتيح : و قوله : «هو» راجع إلى اسم الله ، أي : الله مولّيها إيّاه و قيل : عائد إلى الكلّ ، فعلى هذا لايدخل المشركون في الكلّ ، بل يعمّ اليهود والنصارى و المسلمين ، فعلى القول الثاني و هو أن يكون الضمير راجعاً إليهم ، فتقدير الكلام أنّ لكلّ منكم وجهة من القبلة هو مستقبلها و متوجّه إليها لصلاته و كلّ يفرح بما هو عليه و لا يفارقه فلاسبيل إلى اتّفاقكم على قبلة واحدة ؛ فألزموا معاشر المسلمين قبلتكم .

[فاستبقوا الخيرات أين ماتكونوا يأت بكم الله جميعاً] فإنّكم على خيرات من ذلك في الدنيا والآخرة لانقيادكم لأمره ولشرفكم بقبلة إبراهيم ، وأمّا على كون الضمير عايداً إلى الله فتقدير الكلام على قسمين :

القسم الأوّل أنّ الله عرّفنا أنّ كلّ واحدة من هاتين القبلتين اللتين هما بيت المقدس والكعبة جهة يولّيها عباده على حسب مايعلمه صلاحاً فالجهتان منه تعالى في الحالتين وهو الّذي ولّى وجوه عباده إليهما فانقادوا أمره حسب ما أمركم فاستبقوا الخيرات بالانقياد ، ولاتلتفتوا إلى مطاعن هؤلاء الّذين يقولون : ماولّاهم عن قبلتهم ؟ فإنّ الله يجمعكم جميعاً في صعيد القيامة مع هؤلاء السفهاء فيفصل بينكم .

و القسم الثاني أنّ المعنى : ولكلّ قوم منكم معاشر المسلمين ناحية من الكعبة فاستبقوا الخيرات بالتوجّه إليها من جميع النواحي فإنّها وإن اختلفت بعد أن تؤدّي إلى الكعبة فهي كجهة واحدة ، ولايخفى على الله نيّاتهم ، فهو يحشرهم و يثيبهم على أعمالهم .

[إنّ الله على كلّ شيء قدير] بما أراد من الإماتة والإحياء والجمع .

ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام و انه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون(١٤٩) ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلاتخشوهم واخشوني ولاتم نعمتي عليكم و لعلكم تهتدون (١٥٠) .

قال الرازيّ : وجه التكرار في الآيات الثلاثة أنّ الأحوال ثلاثة :

أوّلها أن يكون الإنسان في المسجد الحرام .

و ثانيها أن يخرج عن المسجد الحرام و يكون في البلد .

و ثالثها أن يخرج للسفر إلى أقطار الأرض ، فالآية الاُولى محمولة على الحالة الاُولى ، والثانية على الثانية والثالثة على الثالثة ؛ لأنّه قد يتوهّم أنّ للقرب حرمة وحكماً لاتثبت فيها للبعد فلأجل هذا الأمر كرّرت .

وقيل وجوه اُخر .

وقيل : المراد من الآية الثانية وهي قوله : [ومن حيث خرجت] المراد في السفر ، أي من أيّ مكان وبلد خرجت إليه للسفر [فولّ وجهك] عند صلاتك [شطر المسجد الحرام] وتلقائه فإنّ وجوب التوجّه إلى الكعبة لايتغيّر بالسفر والحضر حالة الاختيار [و أنّه] أي هذا المأمور به [للحقّ من ربّك] الثابت الموافق للحكمة [و ما الله بغافل عمّا تعملون] من الإطاعة والمعصية .

[ومن حيث خرجت] في أسفارك و مغازيك بعيدةً كانت أوقريبة [فولّ وجهك شطر المسجد الحرام و حيث ماكنتم] أيّها الناس [فولّوا وجوهكم شطره] من محالّكم . وهذه الآية الثالثة كرّرها لما أنّ القبلة لها شأن خطير و النسخ من مظانّ

الشبهة و كان إنكار أهل الكتاب في هذا النسخ شديداً فبا لحري أن يؤكد.

[لئلّا يكون للناس عليكم حجّة] أي لأن لا يكون لأهل الكتاب عليكم حجّة إذا لم تصلّوا نحو المسجد الحرام بأن يقولوا: ليس هذا هو النبيّ المبشّر به إذ ذاك نبيّ يصلّي القبلتين، وذلك أنه كان مكتوباً في كتبهم أنّه يأتي و يصلّي بالقبلتين.

قال أبوذرق: إنّ حجّة اليهود أنّهم كانوا قد عرفوا أنّ النبيّ المبعوث في آخر الزمان قبلته الكعبة فلمّا رأوا محمّداً ﷺ يصلّي إلى الصخرة احتجّوا بذلك؛ فصرفت قبلته إلى الكعبة لئلّا يكون لهم عليه حجّة.

[إلّا الّذين ظلموا منهم] يريد إلّا الّذين يكتمون ما عرفوا من كتابهم من أنّه ﷺ يحول إلى الكعبة و تسمية هذه بالحجّة لأنّهم يوردونها موقعها، و يسوقونها مساقها فسمّيت مجازاً حجّة تهكّماً بهم [فلا تخشوهم] ولا تخافوهم في توجّهكم إلى الكعبة؛ فإنّ مطاعنهم لا تضرّكم شيئاً، وقيل: المراد بالّذين ظلموا قريش و اليهود، فأمّا قريش فقالوا: قد علم أنّنا على هدى فرجع ﷺ إلى قبلتنا و سيرجع إلى ديننا، و أمّا اليهود فقالوا: لم ينصرف عن قبلتنا عن علم و إنّما عمله برأيه، وقيل: المراد بالّذين ظلموا العموم يعني ظلموكم بالمخالفة وقلّة الاستماع [واخشوني] لمّا ذكرهم بالظلم و الخصومة طيّب نفوس المؤمنين فقال: لا تخافوا من مخالفتهم في القبلة واخشوا عقابي في ترك استقبالها فإنّي أحفظكم.

[ولأتمّ نعمتي عليكم] علّة لمحذوف تقديره أمر بكم بتولية الوجوه شطره لإتمامي النعمة عليكم، وأنصركم على أعدائكم، وأورّثكم أرضهم وديارهم في الدنيا و في الآخرة جنّتي و رحمتي [و لعلّكم تهتدون] و لكي تهتدوا. و «لعلّ» من الله واجب.

كما ارسلنا رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا و يزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون (١٥١).

[كما أرسلنا رسولاً منكم] الكلام متّصل بما قبله أي و لأتمّ نعمتي عليكم في أمر القبلة إتماماً كائناً كإتمامي لها بإرسال رسول كائن منكم وهو محمّد ﷺ فإنّ

إرسال الرسول لاسيّما منهم نعمة لم تكافئها نعمة [يتلو عليكم آياتنا] و هو القرآن العظيم [و يزكّيكم] و يحملكم على ماتصيرون به أزكياء طاهرين من دنس الشرك والذنوب المكدّرة لجوهر النفس .

[ويعلّمكم الكتاب] من معانيه و الشرائع والأحكام الّتي باعتبارها وصف بكونه هدى ونوراً [والحكمة] هي الإصابة في القول والعمل ، من أحكمت الشيء إذا رددته عمّا لايعنيه كأنّ الحكمة هي الّتي تردّ عن الجهل و الخطأ [و يعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون] ويعلّمكم العلوم الّتي في الكتاب ولا طريق إلى تحصيلها إلّا من جهة الوحي على ألسنة الأنبياء وبعدأن عملتم ماعلمتم يحصل لكم ملكة الاعتدال والسعادة ، ومعلوم أنّ ملكة الاعتدال في الأخلاق لاتحصل إلّا بالمواظبة على ترك الأفعال السيّئة و إتيان الفرائض والسنن حتّى يحصل التوفيق ومهما رأيت نفسك في كراهة و استثقال من الأخلاق الجميلة وصعب عليك ترك المحظورات فاعلم أنّك قاصر الباع في السعادة .

عن أبي حمزة الثماليّ قال : دعا حذيفة بن اليمان ابنه عند موته ، فأوصى إليه و قال : يا بنيّ أظهر اليأس عمّا في أيدي الناس فإنّ فيه الغنى ، وإيّاك و طلب الحاجات من الناس فإنّه فقر حاضر ، وكن اليوم خيراً من أمسك وإذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع للدنيا كأنّك لاترجع إليها ، وإيّاك وما يعتذر منه .

قال الصادق عليه السلام : ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النيّة .

قال علماء الأخلاق : إن تتمكّن أن يكون باطنك خيراً من ظاهرك فبها ونعمت ، وإلّا فليكن ظاهرك وباطنك وسرّك وعلنك واحداً .

قيل : إنّ شابّاً من الأنصار كان يأتي عبدالله بن عبّاس وكان ابن عبّاس يكرمه ويدنيه فقيل له : إنّك تكرم هذا الشابّ وهو شابّ سوء يأتي اللّيالي القبور وينبشها فقال عبدالله : إذا كان ذلك فأعلموني ، فخرج الشابّ في بعض الليالي يتخلّل القبور ، فأعلموا عبدالله ، فخرج لينظر ما يكون من أمره ووقف ناحية ينظر إليه من حيث لايراه الشابّ ، فدخل الشابّ قبراً قد حفر .

ثمّ اضطجع في اللحد ونادى بأعلى صوته : ياويحي إذا دخلت لحدي وحدي و

نطقت الأرض من تحتي و قالت: لا مرحباً بك و لا أهلاً قد كنت أبغضك و أنت على ظهري فكيف وقد صرت في بطني؟ بل ويحي إذا نظرت إلى الأنبياء وقوفاً و الملائكة صفوفاً، فمن عدلك مَن يخلّصني؟ ومن المظلومين من يستنقذني؟ ومن عذاب النار من يجيرني؟ قد عصيت من ليس بأهل أن يعصى، وجعل يردّد هذا الكلام و يبكي إلى الصباح، فلمّا خرج من القبر التزمه ابن عبّاس وعانقه، ثمّ قال: نعم النبّاش ما أنبشك للذنوب والخطايا! ثمّ تفرّقا.

وأمثال هذه الرياضات لاتحصل إلّا بالخشية وبرسوخ حبّ الله في القلب وخروج حبّ الدنيا عن القلب، فمزّق نفسك ضدّ عادتها وعوّدها بالعادات الجميلة، و العادات تقتضي في النفس عجائب، أما ترى أنّ اللاعب بالحمام لايحسّ طول النهار بحرّ الشمس قائماً على رجليه وهو ميّت من التعب ومع ذلك لايحسّ، وإذا كان الطبع يستلذّ من أكل الطين فكيف لايستلذّ من العسل؟ فروّض نفسك بمشقّات الطاعة حتّى يصير التطوّع طبعاً، لكن لمّا كانت اللذات أنسب إلى مشتهاها تميل النفس إليها والنفس قابلة لقبول العادتين.

لكنّ هذه الرياضة يكون لها مدّة طويلة، فإنّ عادة عشرين سنة لا تتبدّل بقيام ليلة ولا أقلّ من المقابلة وأنّ الترياق يلزم أن يكون مساوياً لوزن السمّ؛ فدُم في العمل حتّى تستدرك الفيض الأقدم والأولى في رياضتك، وتبديل أخلاقك علاج مرض القلب وأنت بزعمك ليس قلبك مريض، ومن عنده شيء أحبّ إليه من الله فقلبه مريض ولابدّ من علاجه وإلّا فيهلك؛ قال الله سبحانه: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم و أزواجكم ـ إلى قوله ـ أحبّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره» (١).

فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢).

[فاذكروني] بالطاعة لقوله ﷺ: من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وقراءته، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته و قراءته [أذكركم] بالثواب والإحسان و إفاضة الخير، و أطلق الذكر على طريق المشاكلة والمجاز لوقوعه

(١) التوبة: ٢٤.

في صحبة العبد، كقوله : «وجزاء سيئة سيئة» والله تعالى منزّه عن النسيان .

[واشكروا لي] على ما أنعمت عليكم من النعم فأمر سبحانه بتخصيص شكرهم له وأن لايشكروا غيره و يعرفوا أنّ النعمة منه تعالى و المراد : اذكروني بالقول و اشكروا لي بالعمل [ولاتكفرون] بإنكار النعم وعصيان الأمر وفي الآية إشعار على أنّ ترك الشكر كفران .

يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة ان الله مع الصابرين(١٥٣) .

[يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصبر] من الناس من حمل الصبر على الصوم و منهم من حمله على الجهاد ومنهم من حمله على الصبر عن المعاصي و اللذائذ و حظوظ النفس [والصلاة] الّتي هي أمّ العبادات ومعراج المؤمنين ، روي أنّه ﷺ إذا وقع له شديدة فزع واستعان بالصلاة . وقدّم سبحانه في الآية الترك على الفعل لأنّ التخلية قبل التحلية و لهذا قدّم النفي على الإثبات في كلمة التوحيد . وذكر الصلاة لأنّ الأمر بها مطلق لكلّ أفراد المكلّفين و أمّا غيرها فمختصّ بأصحاب دون أصحاب مثل الزكاة فمختصّة بأصحاب النصاب و مثل الحجّ فبأصحاب الاستطاعة .

[إنّ الله مع الصابرين] ومعنى المعيّة : الولاية الدائمة ، وإنّما قال : «مع الصابرين» ولم يقل : مع المصلّين لأنّ الصلاة لاتنفكّ عن الصبر ، فإذا كان مع الصابرين لاجرم كان مع المصلّين .

والصبر مبدؤ كلّ فضل ؛ فإنّ أوّل التوبة الصبر عن المعاصي وأوّل الزهد ، الصبر عن المباهات .

ولهذا قال ﷺ : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وقال ﷺ : الصبر خير كلّه ، فمن تحلّى بحلية الصبر سهل عليه ملابسة الطاعات والاجتناب عن المنكرات ، وكذلك الصلاة ، قال الله : « إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» .

و في الحديث : إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسرعون ويسيرون إلى الجنّة فتلقاهم الملائكة فيقولون : إنّا

نراكم سراعاً إلى الجنّة فمن أنتم ؟ قالوا : نحن أهل الفضل ، فيقولون : ما كان فضلكم ؟ قالوا : كنّا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أُسيء إلينا عفونا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين .

ثمّ ينادي مناد : أين أهل الصبر ؟ فيقوم ناس يصيرون سراعاً إلى الجنّة فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إنّا نراكم سراعاً إلى الجنّة فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر فيقولون : ماكان صبركم ؟ قالوا كنّا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معصية الله ، فيقال لهم : ادخلوا الجنّة .

ثمّ ينادي مناد : أين المتحابّون في الله ؟ فيقوم ناس يسيرون سراعاً إلى الجنّة فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن المتحابّون في الله ، فيقولون : وما كان تحابّكم في الله ؟ قالوا : كنّا نتحابّ في الله بطاعته .

قال رسول الله ﷺ : إنّ المؤمن قيّده القرآن عن كثير من هوى نفسه فالصيام جنّته والصدقة فكاكه والصلاة كهفه .

أقول : يعني كما أنّ الكهف يحفظ الإنسان عن أمور ، كذلك الصلاة تمنع وهي بمنزلة الناهي بالقول إذا قال لا يفعل الفحشاء والمنكر ، وذلك أنّ فيها التكبير والتهليل والتسبيح والوقوف بين يدي الله ، وكلّ ذلك يدعو إلى شكره ويصرف عن ضدّه ، فهي كالآمر والناهي بالقول وكلّ دليل مؤدٍ إلى أمر فهو داع إليه وصارف عن ضدّه .

قال النبيّ ﷺ : لا صلاة لمن لم يطع الصلاة و طاعة الصلاة أن ينتهي المصلّي عن المعاصي .

ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون (١٥٤) .

[ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء] وجه تعلّق الآية بماقبلها أنّه لمّا قال : استعينوا بالصبر والصلاة في إقامة ديني ، فإن احتجتم في تلك الإقامة إلى المجاهدة مع العدوّ بأموالكم وأنفسكم ففعلتم ذلك وتلفت نفوسكم ، فلا تحسبوا أنّكم ضيّعتم أنفسكم ، بل اعلموا أنّ قتلاكم أحياء ؛ قال ابن عبّاس : نزلت في شهداء بدر و كانوا

أربعة عشر رجلاً ، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان الناس يقولون لمن يقتل في سبيل الله : مات فلان و ذهب عنه نعيم الدنيا و لذّاتها ، فنزلت الآية أي هم أحياء .

و في كونهم أحياءً أقوال :

أحدها - وهو الصحيح - أنهم أحياء على الحقيقة إلى أن تقوم الساعة و هو قول جماعة كابن عبّاس وقتادة ومجاهد والحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطا والجبّائيّ والرمّانيّ وأكثر المفسّرين .

والقول الثاني - وهو بمعزل عن القبول - أنّهم يحيون يوم القيامة و يثابون ، وهذا القول المتروك عن البلخيّ وحده ولم يذكر غيره هذا المعنى ، وهذا المعنى سخيف بارد لأنّ هذا الأمر لكلّ من آمن بالله وليس فائدة في تخصيصهم بالذكر .

والثالث أنّ المعنى : لاتقولوا : هم أموات في الدين ، بل هم أحياء بالطاعة والهدى ، أي كالأحياء في الحكم لاينقطع ثواب أعمالهم لأنّهم قتلوا في نصرة دين الله ، فمادام الدين باقياً فلهم ثواب ذلك لأنّهم سنّوا هذه السنّة ، أو المراد : ذكرهم و شرفهم باق .

[ولكن لاتشعرون] كيف حالهم .

فإن قيل : على معنى القول الأوّل الّذي ذكرنا نحن نرى جثّة الشهداء مطروحة على الأرض لا تتصرّف ولايرى فيها شيء من علامات الأحياء .

فالجواب أنّ الله يجعل لهم أجساماً كأجسامهم في دار الدنيا يتنعّمون فيها دون أجسامهم الّتي في القبور ، وهذا على مذهب من يقول من أصحابنا في الإنسان : إنّه النفس الناطقة ، فإنّ النعيم والعذاب على هذا إنّما يحصل للنفس الّتي هي الإنسان المكلّف عنده دون الجثّة .

ويؤيّد هذا القول ما رواه الشيخ أبو جعفر في كتاب تهذيب الأحكام مسنداً إلى عليّ بن مهزيار عن يونس بن ظبيان ، قال : كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فقال عليه السلام : ما يقول الناس في أرواح المؤمنين ؟ قلت : يقولون في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش ، فقال عليه السلام : سبحان الله ! المؤمن أكرم على الله أن يجعل روحه في حوصلة

طائر أخضر ؛ يا يونس ، المؤمن إذا قبضه الله صيّر روحه في قالب كقالبه في الدنيا ، فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليه القادم ، عرفوه بتلك الصورة الّتي كانت في الدنيا .

وفي رواية اُخرى عن أبي بصير قال : سألت الصادق عليه السلام عن أرواح المؤمنين ، فقال عليه السلام : في الجنّة على صور أبدانهم لورأيته لقلت : فلان .

وأمّا على مذهب من قال : إنّ الإنسان هذه الجمل المشاهدة و إنّ الروح هو النفس المتردّد في مخارق الحيوان وهو أجزاء الجوّ الباطن فالقول أنّه يلطف أجزاء من الإنسان لايمكن أن يكون الحيّ حيّاً بأقلّ منها يوصل إليها النعيم وإن لم تكن تلك الجملة بكمالها ؛ لأنّه لايعتبر بالأطراف وأجزاء السمن في كون الحيّ حيّاً ؛ فإنّ الحيّ لايخرج بمفارقتها من كونه حيّاً .

و ربّما قيل بأنّ الجنّة يجوز أن يكون مطروحة في الصورة ولا تكون ميتة فتصل إليه اللذّات ، كما أنّ النائم حيّ و تصل إليه اللذّات مع أنّه لايحسّ ولايشعر بشيء من ذلك ، فيرى في النوم مايجد به السرور و الالتذاذ حتّى يودّ أن يطول نومه ولاينتبه .

وقد جاء في الحديث أنّه يفسح له مدّ بصره ، ويقال له : نم نومة العروس و قوله : «لاتشعرون» أي لاتعلمون أنّهم أحياء .

و في الآية دلالة على صحّة مذهبنا في سؤال القبر و إثابة المؤمن فيه و عقاب العصاة على ما تظاهرت و تظافرت الأخبار به . و إنّما حمل البلخيّ ذلك المعنى الّذي انفرد به و ذكرناه لإنكاره عذاب القبر ، فإن قلت : إن كان المراد في الآية هذا المعنى الآخر فما وجه تخصيص الشهداء بها وهو مشترك في الجميع من إدراك اللذّة والألم ؟ فالمراد اختصاصهم بمزيد البهجة والكرامة والقرب ، و لكنّ القول الصحيح هو الوجه الأوّل كما قال به جلّ العلماء كالشيخ والطبرسيّ .

واعلم : أنّ نفس الإنسان وذاته الّذي هو مخاطب مكلّف مأمور منهيّ جسمانيّ لطيف سار في هذا البدن المحسوس سريان النار في الفحم وماء الورد في الورد ، و هو الّذي يشير إليه كلّ أحد بقوله : أنا ، وهو الإنسان حقيقة ، وهو كان في صلب آدم حين

سجد له الملائكة و هو المسؤول بقوله : ألست بربّكم ؟ قالوا : بلى ، وهو الّذي يتوفّى في المنام و يخرج و يسرح و يرى الرؤيا فيسرّ بما يرى أو يحزن ، فإن أمسكه الله ولم يرجع جسده تبعه الروح والجسد الكثيف المعبّر عنه بالبدن .

و الروح الإنسانيّ محلّ تعيّنه هو القلب الصنوبريّ ، والروح الحيوانيّ محلّ تعيّنه هو الدماغ ويسري في جميع أعضاء البدن إلّا أنّ سلطانه قويّ في الدماغ والدماغ أقوى مظاهره و الروح الحيوانيّ إنّما حدث بعد تعلّق الروح السلطانيّ بهذا الهيكل فهو من انعكاس أنوار الروح السلطانيّ ليكون مبدأ الأفعال ، لأنّ الحياة أمر مغيب مستور في الحيّ ، لايعلم إلّا بآثارها كالحسّ والحركة والعلم والإرادة ، وهذا يدور على الروح الحيوانيّ ، فمادام هذا البخار باقياً على الوجه الّذي يصلح أن يكون علاقة بينهما ، فالحياة قائمة ، وعند انتفائه وخروجه تزول الحياة ، ويخرج الروح من البدن خروجاً اضطرارياً وهو الموت الحقيقيّ .

ومن هذا البيان ينكشف أحوال البرزخ ، و أنّ القبر روضة من رياض الجنان ، أو حفرة من حفر النيران ؛ فالشهداء أحياء بالحياة البرزخيّة و متنعّمون بالأبدان المثاليّة و الروح الإنسانيّ ، لكنّه إذا بعث و حشر ، فنعيمه و عذابه على النمط الّذي كان في الدنيا من روحه الإنسانيّ والحيوانيّ والجسميّ ، من جميع أجزائه الدنيويّ ، من اللحم والشحم والعظم ، و كلّ ما كان له في بدنه في الدنيا حتّى أنّ سنّه إذا كان كافراً كجبل اُحد .

قال معاذ بن جبل : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء و النجاة يوم الحشر والظلّ يوم الحرور و الهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن ، فإنّه كلام الرحمن وحرز من الشيطان و رجحان في الميزان .

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس و الثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) .

[ولنبلونّكم] اللام جواب قسم محذوف ، أي والله لنعاملنّكم معاملة المختبر ، هل تصبرون على البلاء و تستسلمون للقضاء ؟ إذ البلاء معيار كالمحك يظهر به جوهر

النفس ، وذلك الاختبار لانعلم شيئاً لم نكن عالمين به ، بل ليترتّب الجزاء على المطيع و العاصي ؛ لأنّ ترتّب الثواب و الجزاء لايصحّ إلّا بعد وقوع الفعل من المكلّف ولا يصحّ أن يترتّب بمجرّد العلم [بشيء من الخوف] أي بقليل من خوف الأعداء و اُمور اُخر ، و إنّما قلّله لأنّ ما وقاهم منه أكثر بالنسبة إلى ماأصابهم ، وما أعطاهم أكثر من مامنعهم [والجوع] أي من القحط والمجاعة ، و إنّما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطّنوا عليه نفوسهم و يسهل عليهم الصبر .

[ونقص من الأموال] بهلاك المواشي وذهاب بعض الأموال [والأنفس] بالموت والقتل في الجهاد و غيره [والثمرات] : بذهاب حمل الأشجار و ارتفاع البركات وموت الأولاد لأنّها ثمرات أيضاً وقيل : الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ، والنقص من الأموال الصدقات والزكاة ، ومن الأنفس الأمراض ، ومن الثمرات الأولاد ، والصحيح أنّه يعمّ الجميع [وبشّر] ياحمد صلى الله عليه وآله [الصابرين] على البلايا .

الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله و انا اليه راجعون (۱٥٦) .

[الّذين إذا أصابتهم مصيبة] و هي مايصيب الإنسان من مكروه ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : كلّ شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة ، وأصله من اصاب السهم المرمى [قالوا إنّا لله و إنّا إليه راجعون] أي نحن إلى حكمه نصير ، و هذا الكلام إقرار بالبعث والنشور .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّ قولنا « إنّا لله » إقرار على أنفسنا بالملك وقولنا : « وإنّا إليه راجعون » إقرار على أنفسنا بالهلك ، قال صلى الله عليه وآله : من اُصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً و إن تقادم عهدها ، كتب الله له من الأجر مثل يوم اُصيب .

قال الصادق عليه السلام : من كان فيه أربع كتبه من أهل الجنّة : من كانت عصمته شهادة أن لا إله إلّا الله ، و من إذا أنعم الله عليه النعمة قال : الحمد لله ، ومن إذا أصاب ذنباً قال : أستغفر الله ، ومن إذا أصابته مصيبة قال : إنّا لله و إنّا إليه راجعون .

اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون (۱٥۷) .

[اُولئك] إشارة إلى الّذين وصفهم من الصابرين [عليهم صلوات من ربّهم] أي

ثناء جميل من ربّهم و تزكية أو بركات و مغفرة [و رحمة و أولئك هم المهتدون] المصيبون طريق الحقّ والهداية، واستسلموا لقضاء الله، قال ابن مسعود: لأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أقول في شيء قضاه: ليته لم يكن.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: من ضرب بيده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره، أقول: إنّ الصبر يجب عليه إذا كان من جهة العدل الحكيم، فيجب الصبر عليها لعلمه بأنّه تعالى لا يقضي إلّا بالحقّ، و إن أصابته من جهة الظلمة فلا يجب عليه الصبر، بل جازله أن يمانعه.

ان الصفا و المروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلاجناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم (١٥١).

[إنّ الصفا و المروة] «صفا» علم لجبل بمكّة وسمّي الصفا لأنّه جلس عليه آدم صفيّ الله عليه السلام، والمروة علم لجبل في مكّة أيضاً وسمّي المروة لأنّها جلست عليها امرأة آدم حوّاء.

عن جعفر بن محمد عليهما السلام: والصفا في الأصل الحجر الأملس، مأخوذ من الصفو، واحده صفاة وكلّ حجر لا يخلطه غيره من طين أو تراب. وهو واويّ لأنّ تثنيته صفوان، والمرو نبت. وأصله الصلابة أيضاً، والألف واللّام للتعريف لا للجنس.

[من شعائر الله] و الشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، وشعائر الله معالمه الّتي جعلها معالم لعباده من موقف أو مسعى أو منحر، من شعرت به أي علمت.

قيل: إنّه كان على الصفا صنم على صورة رجل، يقال له: أساف وصنم على المروة على صورة امرأة يقال لها نائلة و إنّهما كانا زنيا في الكعبة، فمسخا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلمّا طالت المدّة عبدا من دون الله، و كان أهل الجاهليّة إذا سعوا بين الصفا و المروة سجدهما تعظيماً لهما، فلمّا جاء الإسلام و كسرت الأوثان كره المسلمون الطواف والسعي بينهما لأنّه فعل الجاهليّة فاُذن في السعي بينهما واُخبر أنّهما من شعائر الله.

والحكمة في شرعيّة السعي بينهما: أنّ هاجر لمّا ضاق عليها الأمر من العطش

وعطش إسماعيل سعت في هذا المكان إلى أن صعدت الجبل و دعت و طلبت من الله الماء فأنبع الله لها زمزم فجعلها طاعة للمكلّفين إلى يوم القيامة . و في الخبر : الصفا والمروة بابان من الجنّة و موضعان من مواضع الإجابة ، مابينهما قبر سبعين ألف نبيّ وسعيهما يعدل سبعين رقبة .

[فمن حجّ البيت أو اعتمر] الحجّ في اللغة هو القصد على وجه التكرار ، وفي الشرع عبارة عن قصد البيت بالأعمال المخصوصة من الإحرام والطواف والسعي والوقوف وغير ذلك ، والعمرة هي الزيارة ، مأخوذ من العمارة ، لأنّ الزائر يعمر المكان بزيارته وهي في الشرع عبارة عن زيارة البيت بالعمل ، فمن قصد البيت بالأعمال المخصوصة وزاره [فلا جناح عليه] ولا إثم [أن يطّوّف بهما] ويدور عليهما لأنّهم توهّموا أن يكون في ذلك جناح لأجل فعل الجاهليّة .

[ومن تطوّع خيراً] وأصل التطوّع الفعل طوعاً و ميلاً لا كرهاً ، كأنّه قيل : من تبرّع بما لم يفرض عليه من القربات مطلقاً ؛ فانتصاب «خيراً» بنزع الخافض ، أي من تطوّع تطوّعاً بخير [فإنّ الله شاكر له] مجاز بعمله ، فإنّ الشاكر في وصف الله بمعنى المجازيّ بالإثابة على الطاعة ، والشكر من الله ، الرضى عن العبد و لازم الرضى الإثابة [عليم] بطاعة المتطوّع ،

وفي كتاب زهرة الرياض : أنّ رجلاً من الزهّاد قال : حججت سنة وفي رأيي أن أنصرف من عرفات ولا أحجّ بعد هذا ، فنظرت في القوم فإذا أنا بشيخ متّكىء على عصا وهو ينظر إليّ مليّاً ، فقلت : السلام عليك ياشيخ ، فقال : وعليك السلام ارجع عمّا نويت ، فقلت : سبحان الله من أين تعلم نيّتي ؟ قال : ألهمني ربّي ، فوالله لقد حججت خمساً و ثلاثين حجّة و كنت واقفاً بعرفات ههنا في الحجّة الخامسة و الثلاثين أنظر إلى هذه الزحمة و أتفكّر في أمري و أمرهم أنّ الله هل يقبل حجّهم و حجّي ، فبقيت متفكّراً حتّى غربت الشمس وأفاض الناس من عرفات إلى مزدلفة ولم يبق أحد وجنّ اللّيل و تمّت تلك الليلة ، فرأيت في النوم كأنّ القيامة قد قامت وحشر الناس و تطائرت الكتب ونصبت الموازين والصراط وفتحت أبواب الجنان والنيران فسمعت النار تنادى وتقول:

اللّهمّ ذق الحجّاج حرّ بردي ، فنوديت النار : يانارسلي غيرهم ، فإنّهم ذاقوا عطش البادية وحرّ عرفات ووقوا عطش القيامة ورزقوا الشفاعة ، فإنّهم طلبوا رضاي بأنفسهم و أموالهم فأنبهت وصلّيت ركعتين ، ثمّ نمت ورأيت كذلك ، فقلت في نفسي : هذا من الرحمن أو من الشيطان ؟ فقيل لي : بل من الله ، مدّ يمينك ، فمددت فإذاً على كفّي مكتوب : من وقف بعرفة وزار البيت شفّعته سبعين من أهل بيته ، فلم تمرّ عليّ منذ حينئذ سنة إلّا وقد حججت حتّى تمّ لي ثلاث وسبعون حجّة . انتهى .

و يشمل قوله تعالى : «و من تطوّع خيراً» جميع مراتب الأخلاق الحسنة و المستحبّات الشرعيّة من البرّ و معاونة الضعفاء و المساكين ، فإنّ الله يشكر عمله بمزيد الثواب .

في ثواب الأعمال : عن جميل بن درّاج عن الصادق عليه السلام قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : إنّ الحاجّ إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً و لم يضعه إلّا كتب الله له عشر حسنات ومحى عنه عشر سيّئات و رفع له عشر درجات فإذا ركب بعيره لم يرفع خفّاً و لم يضعه إلّا كتب الله له مثل ذلك وإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه وإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه وإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه وإذا وقف بالمشعر خرج من ذنوبه وإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه ، وعدّ رسول الله صلى الله عليه وآله كذا و كذا موطناً كلّها يخرجه من ذنوبه ثمّ قال صلى الله عليه وآله : فأنّى لك أن تبلغ الحاجّ .

وعن أبي حمزة الثماليّ ، عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : قال رجل لعليّ بن الحسين : تركت الجهاد وخشونته ولزمت الحجّ ، قال : و كان عليه السلام متّكئاً فجلس وقال : ويحك ما بلغك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع ؟ إنّه لمّا همّت الشمس أن تغيب قال صلى الله عليه وآله : يا بلال ، قل للناس : فلينصتوا ، فلمّا أنصتوا ، قال : إنّ ربّكم تطوّل عليكم في هذا اليوم فغفر لمحسنكم وشفع لمحسنكم في مسيئكم فأفيضوا مغفوراً لكم وضمن لأهل التبعات من عنده الرضى .

وعن الصادق عليه السلام قال : لمّا أفاض رسول الله صلى الله عليه وآله فلقاه أعرابيّ في الأبطح ، فقال : يارسول الله إنّي خرجت أريد الحجّ فعاقني عائق وأنا رجل مليّ كثير المال مرني

ماأصنع في مالي أبلغ مابلغ الحاج ؟ قال فالتفت صلى الله عليه وآله إلى أبي قبيس فقال : لو أن أباقبيس لك زنته ذهباً حمراء أنفقته في سبيل الله مابلغت ما بلغ الحاجّ .

ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون (١٥٩) .

المعنيّ بالآية علماء اليهود والنصارى مثل كعب بن الأشرف و كعب بن أسيد وابن صوريا وزيد بن التانوج أو التابوه وغيرهم من علماء النصارى الّذين كتموا أمر النبيّ صلى الله عليه وآله ونبوّته وعلائم خاتميّته وهم وجدوها مكتوباً ومثبتاً في التوراة والإنجيل . والآية متناولة لكلّ من كتم ماأنزل الله ، لأنّه عامّ فيدخل فيه اُولئك وغيرهم .

فحثّ سبحانه في الآية على إظهار الحقّ ونهي عن إخفائه ، فقال : [إنّ الّذين يكتمون] ويخفون [ما أنزلنا من البيّنات والهدى] من الحجج المنزلة في الكتب من علوم الشرع . فعمّ بالوعيد في كتمان جميعها [من بعد مابيّنّاه] متعلّق بيكتمون أي أوضحناه [للناس] جميعاً [في الكتاب] أي التوراة و لعلّ المراد من قوله : ما أنزلنا ، الوحي ، ومن الهدى : الدلائل العقليّة [اُولئك] الموصوفون [يلعنهم الله] ويبعّدهم عن رحمته [ويلعنهم اللاعنون] أي الّذين يتأتّى منهم اللعن من الملائكة و مؤمني الثقلين . قال ابن مسعود : ماتلاعن اثنان إلّا ارتفعت اللعنة بينهما ، فإن استحقّ أحدهما وإلّا رجعت على اليهود الّذين كتموا صفة محمّد صلى الله عليه وآله ، وقيل : المراد من قوله : «اللاعنون» : البهائم والهوامّ تلعن العصاة ، تقول : اللّهم العن عصاة بني آدم ، فبشؤمهم منع عنّا القطر .

الاالذين تابوا واصلحوا وبينوا فاولئك اتوب عليهم و انا التواب الرحيم(١٦٠).

[إلّا الّذين تابوا] الاستثناء متّصل والمستثنى منه هو الضمير في «يلعنهم» أي إلّا الّذين تابوا من الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب منه [وأصلحوا] ما أفسدوا بالتدارك فإنّه يجب بعد التوبة مثلا لو أفسد على تغيير دينه بإيراد شبهة عليه ، يلزمه إزالة تلك الشبهة و يفعل اُموراً حند(؟) الكتمان و هو البيان و هو المراد بقوله [و بيّنوا] ما

بيّنه الله في كتابه، لتحصل وتتمّ توبتهم. فدلّت الآية على أنّ التوبة لا تحصل إلّا بترك كلّ ما لا ينبغي، وبفعل كلّ ماينبغي

[فأُولئك أتوب عليهم] و أقبل توبتهم، فإنّ التوبة إذا اُسندت إلى الله بأن قيل تاب: الله أو يتوب، تكون بمعنى القبول [وأنا التوّاب الرحيم] المبالغ في قبـول التـوبة.

عن الصادق عليه السلام قال: فيما وعظ الله عيسى بن مريم عليه السلام: يا عيسى أنا ربّك وربّ آبائك، اسمي واحد وأنا الأحد المتفرّد، أخلق كلّ شيء، و كلّ شيء من صنعي، وكلّ خلقي إليّ راجعون، فكن إليّ راغباً ومنّي راهباً فإنّك لن تجد منّي ملجأ إلّا إليّ، اجعل ذكري لمعادك وتقرّب إليّ بالنوافل ولا تولّ غيري فأخذلك يا ابن البكر البتول ابك على نفسك بكاء من قد ودع الأهل وقلى الدنيا وتركها لأهلها.

ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين(١٦١).

[وأنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار] أي الّذين استمرّوا على الكفر ويصرّون على كفرهم وما ارتدعوا عن حالتهم الكفريّة وماتوا عليه [اُولئك] مستقرّ [عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين] هم المخصوصون باللعنة الأبديّة، أحياءً و أمواتاً، أمّا في الدنيا فيلعنهم المؤمنون، و يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً و الله تعـالى يلعنهم يوم القيامة، ثمّ الملائكة، ثمّ الناس. ومن لعن الظالم وهو ظالم فقد لعن نفسه.

خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون(١٦٢).

استئناف لبيان كثرة عذابهم أي لايرفع عنهم ولا يهوّن عليهم ولا يمهلون للمعذرة وللتّخفيف بل يعذّبون على الدوام أو بمعنى النظر والرؤية، أي لاينظر إليهم نظر رحمة، وإنّما خلّدوا؛ لأنّ نيّاتهم البقاء على ماكانوا عليه من الكفر. وأمّا اختلاف الدركات فبتفاوت سوء الأحوال وشدّة الكفر ومراتبه.

واعلم أنّ الضلال والفساد في الطالبين من فساد مرشدهم؛ فما دام المرشد على الصراط المستقيم يحفظ الطالب من الضلال كما قال: إذا زلّ العالم زلّ بزلّته العالَم، ونزول

البلاء من فساد الرئيس ومتابعة العامّة إيّاه ؛ حكي أنّ اُمّنا حوّاء أكلت أوّلاً من الشجرة فلم يقع شيء ، فلمّا أكل منها آدم وقع الخروج من الجنّة ، فويل لأرباب الرياسة الّذين ظلموا أنفسهم وتجاوز ظلمهم إلى من عداهم .

والهكم اله واحد لااله الاهو الرحمن الرحيم (١٦٣) .

الواحد شيء لاينقسم ؛ عدداً كان أو غيره ، وهو الشيء الّذي لاينقسم من جهة الوحدة ، مثلاً الإنسان الواحد يستحيل أن ينقسم من حيث إنّه إنسان واحد إلى إنسانين ، بل قد ينقسم إلى الأبعاض والأجزاء لكنّه لم ينقسم من جهة ماقيل له : إنّه واحد بل من جهة اُخرى .

قال ابن عبّاس : إنّ كفّار قريش قالوا يا : محمّد صف لنا ربّك ، فقال الله : [وإلهكم] المستحقّ للعبادة [اله واحد] فرد في الإلهيّة لاشريك له فيها [لا إله إلّا هو] تقرير للوحدانيّة أي لا إله موجود في الوجود ـ و الخبر محذوف ـ إلّا الله . ومعنى «إله واحد» أنّه لايجوز الانقسام ولا يحتمل التجزئة وليس بذي إبعاض و كذلك واحد لانظير له ولا يشابهه شيء وواحد في صفاته الّتي يستحقّها لنفسه ، مثلاً وصفنا بأنّه قديم أنّه المختصّ بهذه الصفة لايشاركه فيها غيره ، و وصفنا بأنه قادر على أنّه المختصّ بهذه القدرة ، ففي كلّ صفة من صفاته واحد لا يقدر غيره تلك الصفة .

في كتاب ثواب الأعمال مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ قال : ثمن الجنّة لا إله إلّا الله. وفي حديث آخر قال النبيّ ﷺ : ليس شيء إلّا و له شيء يعد له إلّا الله فإنّه لا يعدله شيء ، و لا إله إلّا الله فإنّه لها يعدلها شيء .

وعن عبدالله بن الوليد رفعه قال : قال النبيّ ﷺ : من قال : لا إله إلّا الله غرست له شجرة في الجنّة من ياقوتة حمراء منبتها في مسك أبيض ، أحلى من العسل و أشدّ بياضاً من الثلج و أطيب من المسك . فيها ثمار أمثال أثداء الأبكار تفلق عن سبعين حلّة .

[الرحمن الرحيم] بيان لسبب استحقاق العبادة دون غيره ، وعن أسماء بنت يزيد أنّها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم وهما : «وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرّحمن الرحيم» الثانية : «الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم» .

ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون(١٦٤) .

قيل : كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً ، فلمّا سمعوا قوله تعالى : «وإلهكم إله واحد» تعجّبوا وقالوا : كيف يسع الناس إله واحد ؟ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ فإن كان محمد صادقاً في توحيد الإله فليأتنا بحجّة نعرف بها صدقه فنزلت الآية .

[إنّ في خلق السماوات والأرض]وإبداعهما على ماهما عليه مع بدائع الصنائع الّتي يعجز عن فهمها عقول البشر . وإنّما جمع السماوات وأفرد الأرض ؛ لأنّ كلّ سماء ليست من جنس الأخرى ، ، وفلك كلّ واحدة غير فلك الأخرى . والأرضون كلّها من جنس واحد وهو التراب ، وعند الحكماء محدّب كلّ سماء مماسّ لمقعّر مافوقه غير الفلك التاسع المسمّى بالعرش ؛ فإنّ محدّبه وسطحفوقه غير مماسّ لشيء من الأفلاك وهو المسمّى بلسانهم : الفلك الأطلس ومافوقه خلأ وبعد غير متناه عندنا وعند الحكماء لاخلأ فيه ولاملأ .

[واختلاف الليل و النهار] أي في تعاقبهما كالذهاب و المجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما جاء الآخر خلفه . وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور .

[والفلك الّتي تجري في البحر] لاترسب تحت الماء مع أنّها ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف . وتأنيث «الفلك» باعتبار الجماعة [بماينفع الناس] «ما» : اسم موصول ، و الجملة حاليّة ، حالكونهم ينتفعون بركوبها و الحمل فيها للتجارة .

[و ما أنزل الله من السماء] أي إنّ فيما أنزل الله من جهة السماء [من ماء] بيان للجنس ، فإنّ المنزل من السماء يعمّ الماء وغيره ، و «السماء» المراد المعنيّ المعروف أي الفلك ، ويحتمل جهة العلوّ سماءً كانت أوسحاباً ، فإنّ كلّ ماعلا الإنسان يسمّى يسمّى سماءً لكنّ الصحيح الأوّل [فأحيا به] أي بما أنزل [الأرض] بأنواع النباتات والأزهار والأشجار[بعد موتها] وبعد ذهاب زرعها و تناثر أوراقها و حسن إطلاق

الحياة و الموت للأرض باعتبار الحسن والنضارة والبهاء والنماء ، وباعتبار اليبوسة و التناشر [وبثّ فيها] أي فرّق و نشر في الأرض [من كلّ دابّة] ذي روح يدبّ على الأرض من العقلاء و غيرهم [و تصريف الرياح] في تقليبها في مهابّها قبولاً و دبوراً و شمالاً وجنوباً ، وفي كيفيّتها حارّة وباردة وعاصفة ولينة ، وفي آثارها عقماً ولواقحاً و في الغرض من إرسالها تارةً بالرحمة و تارةً بالعذاب .

قال ابن عبّاس : من أعظم جنود الله الريح والماء . وسمّيت الريح ريحاً لإنّها تريح النفوس ، قال وكيع : لولا الريح و الذباب لانتنت الدنيا ، قيل : ماهبّت الريح إلّا لشفاء سقيم أولسقم صحيح .

قال بكر بن عبّاس : لاتخرج من السحاب قطرة حتّى تعمل في السحاب هذه الرياح الأربع : فالقبول وهو المعروف بالصبا تهيّجه ، والجنوب تقدّره ، و الدبور تلقحه والشمال تفرّقه . وأصول الرياح هذه الأربع : فالشمال من ناحية الشام ، و الجنوب تقابلها ، و الصبا من المشرق تقابلها [١] و كلّ ريح جاءت بين مهبّ ريحين فهي نكباء لأنّها نكبت و عدلت عن مهابّ هذه الأربع .

و قيل : الرياح ثمان : أربع رحمة و أربع عذاب ؛ فالرحمة : الناشرات وهي الرياح الطيّبة ، والمبشّرات وهي الرياح الّتي تبشر بالغيث ، واللواقح وهي الّتي تلقح الأشجار في أوّل الربيع ، و الذاريات وهي التي تذروا التراب وغيره ؛ و أمّا العذاب : الصرصر والعقيم وهما في البرّ ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، والعقيم : هي الّتي لم تلقح سحاباً ولا شجراً ، والعاصف : الشديدة الهجوم الّتي تقلع الأشجار والخيام .

[والسحاب المسخّر] عطف على «تصريف» : أي الغيم المنقاد المذلّل الجاري على ما أجراه الله عليه وسمّي سحاب سحاباً لأنّه ينسحب في الجوّ أي يسير من سرعة كانّه يسحب ذيله ويجرّ [بين السماء والأرض] صفة للسحاب ، والسحاب اسم جنس و يوصف بالجمع باعتبار معناه بقوله : «سحاباً ثقالاً» و المراد من معنى بين السماء و الأرض أي لاينزل إلى الأرض و لا يصعد إلى السماء وهو بينهما مع أنّه لو كان خفيفاً لطيفاً كان ينبغي أن يصعد ولو كان كثيفاً ثقيلاً يقتضي أن ينزل و من طبعه يقتضي أحدهذين .

(١) كذا في الاصل .

[لآيات] اسم إنّ دخلته اللام لتأخّره عن خبرها ولو كان في موضعه لما جاز دخول اللام عليه ، والتنكير للتفخيم كمّاً وكيفاً : أي آيات كثيرة عظيمة دالّة على القدرة القاهرة [لقوم يعقلون] و يتفكّرون فيها بالعقول و القلوب فيستدلّون بها على موجدها فيوحّدونه ، وفيه تعريض للمشركين الّذين اقترحوا على الرسول آية تصدّقه في قوله : « و إلهكم إله واحد » إذ لو عقلوه لكفاهم بهذه التصاريف آية ، قال رسول الله ﷺ : ويل لمن قرأ هذه فمجّ بها . و معنى المجّ قذف الريق و نحوه ، استعير هنا لعدم التدبّر أي من تفكّر فيها فكانّه حفظها ولم يلقها من فيه .

و اعلم أنّ قوله : « و إلهكم إله واحد » هو توحيد الذات ، ولمّا دقّ هذا التوحيد عن مبالغ أفهام الخلق بيّن سبحانه توحيد الصفات بقوله : « الرحمن الرحيم » ثمّ بيّن في هذه الآية وهي أنّ في خلق السماوات و الأرض توحيد الأفعال ، يستدلّ به عليه و يتبيّن لهم أنّه الحقّ ، فالعالم - بمافيه - خلق للمعرفة ؛ فلو لم يكن لأجل معرفة الله خلق الإنسان العارف ماخلق العالم بمافيه ، كما قال سبحانه : « لولاك لما خلقت الكون » خطاباً للنبيّ العربيّ ﷺ ، فالعالم مرآة يظهر فيه قدرة الحقّ و جلاله ، و الإنسان هو المشاهد لتلك الآيات ، وهذا معنى قوله ﷺ : من عرف نفسه فقد عرف ربّه ؛ لأنّ نفسه مرآة بعض قدرته كما قال سبحانه : « سنريهم آياتنا » .

و ممّا يدلّ على أنّ خلق السماوات و الأرض تبع لخلق الإنسان الكامل قوله ﷺ : لاتقوم الساعة حتّى لايقال في الأرض : الله الله ؛ لأنّه إذا لم يبق المتبوع لم يبق التابع ، رزقنا الله عرفان الهدى و مجانبة الهوى .

إلى هنا تمّ الجزء الأوّل من الكتاب مشتملاً
على تمام سورة فاتحة الكتاب و
١٦٤ آية من سورة البقرة
ولله الحمد

الجزء الثاني

من كتاب التفسير

المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

أعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي

مدير

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطاني - طهران

مطبعة الحيدري بطهران

١٣٣٧ ه‍ ش

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى نزل القرآن نوراً وسراجاً وقمراً منيراً والصلاة والسلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس وهدى و موعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . ولعنة الله على اعدائهم اجمعين .

وبعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن وتبيين لغاته ومشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه و بينوا حقائقه من مجازه وجمع جمعوا احكامه و بينوا حلاله وحرامه ، وطائفة كشفوا عن تأويله قناعه وكيفما كان ماوصلوا الاالى مبلغ علمهم ومنتهى هممهم ؛ وانى لهم الوصول الى حقائق التنزيل ودقائق التاويل ؟ لان القرآن هو النور الذى انزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وآله . الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى المستضيئين بنور علمهم المأمورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قد اقترفوا من بحار علوم اهل بيت النبى غرفاً وغاصوا فيها واقتنوا منها درراً ؛ وها هى «مقتنيات الدرر» قد افناها علم من الاعلام ؛ ثمرة الشجرة الطيبة ، والنخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج المير سيد على الحائرى » تغمده الله بغفرانه ، واوتى كتابه هذا بيمينه ؛ قد اقتنى من الدرر اغلاها و من الغرر اسناها ؛ فحقيق ان يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

وقد وفق الله تلميذه المستضيء بنور علمه ، المقتفى اثره الحاج ميرزا عبد الحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم .

هذا ومنّ الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القساء و ارومة النضل الحاج محمود الكاشانى ؛ فانعم عليه وشرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين واتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ونشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد كاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل اوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل وتخريج الايات المنثورة فى ثناياه واسناد مايهم من رواياته وبعض الاصلاح فيه . و نسأل الله تعالى ان يوفقنا لاتمامه بمحمد وآله .

محمد الاخوندى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً وان الله شديد العقاب (١٦٨) .

أي وبعض الناس الّذين يتّخذون [من دون الله] «ودون» في الأصل ظرف مكان لكن يستعمل مجازاً بمعنى «غير» مثل هذه الآية [أنداداً] لله بحسب ظنونهم الفاسدة يجعلونها أمثالاً لله حيث كانوا يرجون من عندها النفع والضرر وقصدوها بالمسائل وقرّبوا لها القرابين فإرجاع الضمير للعقلاء في قوله : [يحبّونهم] على زعمهم الفاسد في شأنها من وصفهم بما لا يوصف به إلّا العقلاء [كحبّ الله] أي يسوّون بين الله وبين الأنداد في الطاعة والتعظيم . ولفظ المحبّة مأخوذ من الحبّ بالفتح كحبّة الحنطة والشعير ،شبّه حبّة القلب أي سويداء القلب بالحبّ المعروف ، ثمّ استعير اسم الحبّ لها و اشتقّ من الحبّ المستعار للقلب «الحبّ» بمعنى ميل القلب لأنّه رسخ فيها .

[والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله] من حبّ الكفرة للأنداد ففضّل محبّة المؤمنين لأنّه لاينقطع محبّتهم بخلاف محبّة الأنداد ؛ لأنّها الأغراض فاسدة موهومة كما أنّهم كانوا يعبدون الصنم زماناً ، فإذا رأوا صنماً آخر يعجبهم أخذوه وتركوا الأوّل حتّى قيل : إنّ باهلة عملت لها إلهاً من خيس فأكلوه عام المجاعة .

[ولو يرى الّذين ظلموا] أي لو يعلم هؤلاء الّذين أشركوا باتّخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود [إذ يرون العذاب] المعدّ لهم يوم القيامة و عاينوه [أنّ القوّة لله جميعاً وأنّ الله شديد العذاب] وجواب « لو » محذوف ، و التقدير : لوقعوا في الندامة والحسرة على عبادة الأنداد فيما لايكاد يوصف .

[إذ تبرّأ الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا] لمّا ذكر الّذين اتّخذوا الأنداد ذكر

سوء أحوالهم في المعاد . والعامل في الظرف في قوله : «إذ تبرّأ» قوله : «شديد العذاب» . إذ تبرّأ الّذين اتّبعوا وهم القادة والرؤساء من الإنس المضلّين أو المراد الشياطين الموسوسة المضلّة للإنس من الّذين اتّبعوا أي من السفلة والتابعين [ورأوا العذاب] أي رأى التابع والمتبوع حين دخول النار [وتقطّعت بهم الأسباب] وزال عنهم كلّ سبب يمكن أن يتعلّق به مثل العهود الّتي كانت بينهم يتوادّون عليها ، و الأرحام الّتي كانوا يتعاطفون بها ، والوصلات الّتي كانوا يتقوّون بها على اختلافها من المنزلة والشرف والقرابة والمودّة .

[وقال الّذين اتّبعوا] يعني الشياطين قالوا : [لو أنّ لنا كرّة] بسبب عودة إلى دار الدنيا وحال التكليف لنا [فنتبرّأ منهم] من متبوعينا [كما تبرّؤوا منّا] اليوم [كذلك] أي مثل ذلك الإبراء الفظيع ونزول العذاب عليهم [يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم] ندمات شديدة ؛ فإنّ الحسرة شدّة تألّم القلب من الندم والكمد بحيث يبقى النادم كالحسير من الدوابّ وهو الّذي انقطعت قوّته فصار بحيث لا ينتفع به .

وحاصل المعنى أنّ أعمالهم تنقلب عليهم حسرات مستولية لأنّ ما عملوه من الخيرات محبوطة بالكفر فيتحسّرون لِمَ صنعوها ، وترفع لهم الجنّة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها فيقال لهم : تلك مساكنكم لو أطعتم الله .

[وماهم بخارجين من النار] روي أنّه يساق أهل النار إلى النار لم يبق منهم عضو إلّا لزمه عذابٌ إمّا حيّة تنهشه أو ملك يضربه فإذا ضربه الملك هوي في النار مقدار أربعين يوماً لا يبلغ قرارها ثمّ يرفعه اللهب و يضربه الملك فيهوي فإذا بدا رأسه ضربه « كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب» فإذا عطش أحدهم طلب الشراب فيؤتى بالحميم فإذا دنى من وجهه سقط وجهه ثمّ يدخل في فيه فتسقط أضراسه ثمّ يدخل بطنه فيقطع أمعاءه وينضج جلده وهكذا يعذّبون في النار لا يموتون فيها ولا يخرجون .

قوله تعالى : يا ايها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (١٦٨) .

نزلت الآية في قوم حرّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس أي من بعض مافيها من أصناف المأكولات لأنّ كلّ مافيها لا يؤكل [حلالاً] حال من الموصول أي حال كونه

حلالاً وهوماانحلّ عنه عقد الحظر[طيّباً] طاهراً من الشبهات يستطيبه الشرع ويستطيبه الشهوة المستقيمة ويستلذّه الطبع .

[ولا تتّبعوا خطوات الشيطان] «الخطوة» بالفتح المرّة من نقل القدم وبالضمّ بعد مابين قدمي الماشي يقال : أتبع خطواته ووطىء على عقبه إذا اقتدى به واستنّ بسنّته أي لاتقتدوا بآثاره وطرقه في اتّباع الهوى ووساوسه فتحرّموا الحلال وتحلّلوا الحرام [إنّه لكم عدوٌّ مبين] تعليل للنهي أي ظاهرٌ و «مبين» بمعنى اللازم من «أبان» بمعنى «بان» لكنّ الواحديّ جعله بمعنى المتعدّي لأنّه قد أبان عداوته لكم بإبائه السجود لأبيكم آدم وأخرجه من الجنّة .

[إنّما يأمركم] ويوسوس لكم شبه تسلّطه عليكم بأمر مطاع [بالسوء] لأنّ كلّ ما يأمركم به ساءكم في العاقبة فيطلق على جميع المعاصي [والفحشاء] من عطف الخاصّ على العامّ أي أقبح أنواع المعاصي فالزنى فاحشة وكلّ فعلة قبيحة مجاوزة القدرة من كلّ شيء وأعظمها مساءة .

[وأن تقولوا] ويأمركم أن تفتروا [على الله] بأنّه حرّم هذا وحلّل هذا [مالاتعلمون] . قيل : هو دعواهم له الإشراك .

فإن قيل : كيف يأمرنا ونحن لانراه ولا نسمع منه ؟ فأمره لنا أنّ اللعين يحدّث النفس بالأفكار الرديئة الّتي تميل إليه النفوس والطمع ويدخل بذكر الإنسان وخاطره ذلك الميل ويعين النفس الأمّارة ويرغّبها فيه .

ووسوسة اللعين على مراتب :

الأولى : مرتبة الكفر والشرك ومعاداة الرسول وإنكار ماأنزل الله في كتابه واستكراه أوامره فإذا ظفر بذلك برد أنينه واستراح وهذا أوّل مايريده من العبد .

المرتبة الثانية : البدعة وهي أحبّ إليه من الفسوق والمعاصي ؛ لأنّ المعصية يتاب منها والبدعة لايتاب منها لأنّ صاحبها يظنّها حقيقة صحيحة فلا يتوب منها فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الثالثة وهي الكبائر على اختلاف أنواعها .

فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الرابعة وهي الصغائر الّتي إذا اجتمعت صارت

كبيرة ، والصغائر ربّما أهلكت صاحبها كما قال ﷺ : «إيّاكم ومحقّرات الذنوب» فإنّ مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلات من الأرض فجاء كلّ واحد بعود حطب حتّى أوقدوا ناراً عظيمة وطبخوا وشبعوا .

فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الخامسة وهي اشتغاله بالمباحات الّتي لاثواب فيها ولا عقاب بل عقابها فوات الثواب الّذي فات عليه باشتغاله بها .

فإن عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة السادسة وهي أن يشغله بالعمل المفضول عمّا هو أفضل منه لينزع عنه الفضيلة و يفوته ثواب العمل الفاضل فيجرّه من الفاضل إلى المفضول ومن الأفضل إلى الفاضل ليتمكّن من أن يجرّه من الفاضل إلى الشرور ، و ربّما يجرّه من الفاضل السهل إلى الأفضل الأشقّ كمائة ركعة بالنسبة إلى ركعتين ليصير إزدياد المشقّة سبباً لحصول النفرة عن الطاعة بالكلّيّة .

و إنّما خلق الله إبليس ليتميّز الخبيث من الطيّب و خلق الله الأنبياء ليقتدي بهم السعداء فإبليس دلّال وسمسارٌ على النار وبضاعته الدنيا .

قال بعض المفسّرين : الحلال الطيّب مالا سؤال فيه يوم القيامة و هو ما لابدّ فيه قال النبيّ ﷺ : إنّ الله يهب لابن آدم مالا بدّ منه ؛ ثوبٌ يواري به عورته ، خبز يردّ بهجوعته ، وبيت كعشّ الطير ؛ فقيل : يارسول الله فكيف الملح ؟ فقال : الملح ممّا يحاسب به .

وفي التأويلات النجميّة : الحلال ما أباح الله أكله والطيّب مالم يكن مشوباً بشبهة حقوق الخلق ولا بسرف حظوظ النفس و لهذا قال ﷺ : إنّ الله طيّب ولا يقبل إلّا الطيّب ، يعني غير مشوب بعيب أوشبهة . وأكل الحلال الطيّب يورث القيام بطاعة الله و الاجتناب عن خطوات الشيطان فالعمل الصالح نتيجة اللقمة الطيّبة وبالعكس .

وفي كسب الحلال فوائد كثيرة وهو سنّة الأنبياء : منها اشتغال المكتسب بالكسب عن البطالة واللهو . ومنها : كسر النفس عن الطغيان .

إنّ الفراغ والشباب والجدة[1] * مفسدةٌ للمرء أيّ مفسدة

و منها : أنّ الكسب واسطة الأمان من الفقر و لا يتحرّك الرجل للكسب لأجل نفقته

(١) الجدة : الثروة والمال .

وعياله إلّا قال له حافظاه : باركالله لك في حركاتك وجعل نفقاتك ذخراً لك في الجنّة و تؤمّن عليهما ملائكة السماوات والأرض .

قوله تعالى : واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفيناعليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون (١٧٠) .

نزلت في مشركي العرب و كفّار قريش أُمروا باتّباع القرآن فجنحوا للتقليد [اتّبعوا ما أنزل الله] في كتابه واعملوا بتحليل ما أحلّ الله وتحريم ماحرّم الله [قالوا بل نتّبعما ألفينا] وجدنا [عليه آباءنا] من اتّخاذ الأنداد وتحريم الطيّبات فقال اللهسبحانه ردّاً عليهم بهمزة الاستفهام و الإنكار والتعجيب مع واوالحال بعدها : [أولو كان آباؤهم] فاقتضت الهمزة صدر الكلام و الواو بعدها ، و بين الهمزة والواو جملة مقدّرة . و المعنى أيتّبعونهمولوكان آباؤهم لا يفهمون شيئاً [ولا يهتدون] للصواب والحقّ أي هذا الأمر و الرأي منهم منكر مستبعدٌ قبيح ؛ لأنّ الجاهل لايتّبع والحقّ أحقّ أن يتّبع .

ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بمالا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون(١٧١) .

«المثل» قول سائر يدلّ على أنّ سبيل الثاني سبيل الأوّل و يؤتى به لهذا الأمر أي ومثل الواعظ الّذي يعظ هؤلاء الكفّار والداعي لهم إلى الإيمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم الّتي لاتفهم ؛ يقال : نعق الراعي بالغنم إذا صاح بها زجراً ونعق الغراب إذا صوّت من غير أن يمدّ عنقه و يحرّكه فإذا مدّ عنقه وحرّكه ثمّ صاح يقال : نعب .

والمراد أنّ المنعوق به يسمع الصوت ولايفهم المعنى كذلك هؤلاء الكفّار لايحصل من دعائك لهم إلى الإيمان إلّاالسماع دون تفهّم المعنى لأنّهم ينصرفون عمداً عن تأمّله فيكونون بمنزلة من لم يعقله ولم يفهمه هذا أحد الأقوال في معنى الآية وهو قول ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن أبي جعفر .

والقول الثاني أن يكون المعنى «مثل الّذين كفروا» ومثلك يا محمّد «كمثل الّذي ينعق بما لايسمع إلّا دعاءً ونداء» ، فحذف المثل الثاني اكتفاءً بالأوّل كقوله تعالى :

«سرابيل تقيكم الحر»(١) قال أبوذؤيب :

دعاني إليها القلب إنّي لأمرها ❊ مطيع فما أدري أرشد طلابها ؟

أراد : أرشد أم غيّ ؟ فاكتفى بذكر الرشد لوضوح الأمر .

و ثالث الأقوال أنّ المعنى مثل الّذين كفروا في دعائهم الأصنام كمثل الراعي في دعائه الأنعام ؛ فكما أنّ من دعى البهائم يعدّ جاهلاً فداعي الجماد والحجارة أشدّ جهلاً منه ؛ لأنّ البهائم تسمع الدعاء وإن لم يفهم معناه والأصنام لا يحصل لها السماع [إلّا دعاءً ونداءً] أي صوتاً من الناعق وزجراً مجرّداً من غير فهم شيء آخر ، والفرق بين الدعاء والنداء أنّ الدعاء للقريب والنداء للبعيد .

[صمٌّ بكمٌ] أي هم صمٌّ كأنّهم يتصامون عن سماع الحقّ وهم بمنزلة الخرس في أن لم يستجيبوا لما دعوا إليه وهم [عميٌ] من حيث إعراضهم عن الدلائل كأنّهم لم يشاهدوها.

ثمّ إنّه تعالى لمّا شبّههم بفاقدي هذه القوى الثلاث فرّع على هذا التشبيه قوله : [فهم لا يعقلون] ولا يكتسبون الحقّ ممّا جبّلوا عليه من العقل الغريزيّ ولهذا قيل : من فقد حسّاً فقد فقد علماً،وليس المراد نفي أصل العقل لأنّ نفيه رأساً لا يصلح طريقاً للذمّ .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون (١٧٢) .

ظاهر الآية الأمر والمراد منه الإباحة ؛ لأنّ تناول المشتهى لا يدخل في التعبّد.و قيل : إنّه أمر على حقيقة وهو الأمر بالأكل الحلال وقت الحاجة دفعاً للضرر عن النفس؛ وردّه القاضي وقال : هذا ممّا يعرض في بعض الأوقات والآية عامّة غير مقصورة عليه فيحمل على الإباحة ، أي كلوا من مستلذّات الرزق وما تستطيبونه منه .

وفيه دلالةٌ على النهي عن أكل الخبائث لأنّه قيل : كلوا من الطيّب دون الخبيث كما أنّه لو قيل : كلوا من الحلال لكان دالّاً على حظر الحرام .

قال الطبرسيّ : وهذا صحيح فيما له ضدّ قبيح مفهوم فأمّا غير ذلك فلا يدلّ على قبح ضدّه لأنّ قول القائل : «كل من مال زيد» لا يدلّ على أنّه أراد تحريم ما عداه لأنّه قد

(١) النحل : ٨١ .

يكون الغرض البيان لهذا المورد خاصّة وما عداه موقوفٌ على بيان آخر وليس كذلك ما ضدّه قبيحٌ .

[واشكروا لله] الّذي أحلّها لكم وهذا الأمر ليس أمر إباحة لأنّ الإنعام يقتضي الشكر [إن كنتم إيّاه تعبدون] أي إن كنتم مؤمنين بالله ومخصّصين الله بالعبادة «فاشكروا له» باللسان وبسائر الجوارح ؛ قال النبيّ : يقول الله : إنّي والإنس والجنّ لفي نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري .

قوله تعالى : انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم (١٧٣) .

لمّا ذكر سبحانه إباحة الطيّبات عقّبه بتحريم المحرّمات فقال :

[إنّما حرّم عليكم الميتة] و قرىء مشدّدة في جميع القرآن والأجود التخفيف «والميتة» مايموت من الحيوان بغير ذكاة ممّا يذبح ، والسمك والجراد مستثنيان بدليل منفصل [والدم] الجاري [ولحم الخنزير] والخنزير كلّه حرامٌ وإنّما خصّ لحمه بالذكر لأنّه معظم ماينتفع به فهو الأصل وماعداه تبعٌ له،وقد انعقد الإجماع على حرمة جميع أجزائه .

[وما أُهلّ به لغير الله] أي وحرّم مارفع به الصوت عند ذبحه للصنم ومعنى «الإهلال» في الأصل رفع الصوت وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكر الأصنام ويقولون باسم اللات والعزّى؛ فقيل لكلّ ذابح وإن لم يجهر بالتسمية : مهلٌّ ، حتّى قيل : لو ذبح مسلم ذبيحة وقصد بها التقرّب إلى غير الله صار مرتدّاً وذبيحته ميتة .

[فمن اضطرّ] وأحوج وأُلجىء جوعاً إلى أكل شيء ممّا حرّم الله بأن لايجد غيرها ويخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف [غير باغ ولاعاد] منصوب على الحاليّة أي إذا وجد هذا المضطرّ الميتة حال كونه لم يكن متعدّ على مضطرّ آخر بأن حصل ذلك المضطرّ الآخر من الميتة مثلاً قدر مايسدّ رمقه وجوعته فأخذ منه و ظلمه و تفرّد بأكله و هلك الآخر جوعاً ، وهذا حرامٌ لأنّ موت الآخر جوعاً ليس أولى من موته جوعاً ، ولاعادٍ أي غير متعدّ و متجاوز لما حدّ له فيه إلى حدّ الشبع عند الأكل بالضرورة بأن يأكل قدر مايحصّل به سدّ الرمق والجوعة [فلا إثم عليه] في تناوله عند الضرورة [إنّ الله غفور]

لما أكل في حال الاضطرار [رحيم] بترخيصه ذلك .

ولم يذكر في هذه الآية سائر المحرّمات لأنّها ليست لحصر المحرّمات بل هذه الآية سيقت لنهيهم عن استحلال ما حرّم الله وهم كانوا يستحلّون هذه الأشياء فكانوا يأكلون الميتة ويقولون : تأكلون ما أمتّم ولا تأكلون ما أماته الله ، على قياسهم الفاسد وكذا يأكلون الدم ولحم الخنزير وذبح الأصنام وليس المراد قصر الحرمة .

وقيل في معنى « غير باغ ولا عاد » : أي غير باغ على إمام المسلمين ، وغير عاد بالمعصية طريق المحقّين وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله .

ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً اولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيمة ولا يزكيهم و لهم عذاب أليم (١٧٤) .

نزلت الآية في أحبار اليهود فإنّهم كانوا يرجون أن يكون النبيّ المبعوث في التوراة منهم فلمّا بعث الله نبيّنا محمّداً ﷺ من غيرهم غيّروا نعته حتّى إذا نظروا السفلة يجدونه مخالفاً لصفة محمّد ﷺ فلا يتّبعونه فلا تزول رياستهم .

[ويشترون به] بدل المنزل المكتوم عوضاً قليلاً من الدنيا وهو المأكل كانوا يصيبونها من سفلتهم .

[أُولئك ما يأكلون في بطونهم إلّا النار] أمّا في الآخرة فظاهر لأنّهم لا يأكلون يوم القيامة إلّا عين النار عقوبة لهم على أكل الرشوة في الدنيا وأمّا في الدنيا فبأكل سببها من قبيل إطلاق اسم المسبّب على السبب ومعنى «في بطونهم» ملء بطونهم يقال : فلان أكل في بطنه فلمّا لم يقل : يأكلون في بعض بطونهم علم امتلاؤها .

[ولا يكلّمهم الله يوم القيامة] بطريق الرحمة غضباً ونفي الكلام لازم للغضب ، وعادة الملوك أنّهم يعرضون عن المغضوب عليهم [ولا يزكّيهم] ولا يطهّرهم بالمغفرة من دنس الذنوب يوم يطهّر المؤمنين من ذنوبهم بالمغفرة [ولهم عذابٌ أليم] موجع .

اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار (١٧٥) .

[أولئك] إشارة إلى من تقدّم من المشترين الّذين [اشتروا الضلالة بالهدى] واستبدلوا الإيمان بالكفر فصاروا بمنزلة من يشتري السلعة بالثمن . والمراد بالضلالة كتمان أمره صلى الله عليه وآله مع علمهم به ، و بالهدى إظهاره ، أو المراد بالضلالة العذاب و بالهدى الثواب . والحاصل أنّهم استبدلوا النار بالجنّة .

وقوله : [والعذاب بالمغفرة] تأكيدٌ لما تقدّم لأنّهم لمّا عرفوا ما أعدّ الله لمن عصاه من العذاب ولمن أطاعه من الثواب ثمّ أقاموا على ما هم عليه من المعصية فكانوا اشتروا ما يوجب العذاب والنار .

[فما أصبرهم على النار] أي ما أجرأهم على النار أو ما أعملهم بأعمال أهل النار ! وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام وقيل : المعنى ما أبقاهم على النار كما يقال : ما أصبر فلاناً على الحبس ، وظاهر الكلام التعجّب والتعجّب لا يجوز على الله ؛ لأنّ التعجّب إنّما يكون ممّا لا يعرف سببه فالغرض من البيان أنّ الكفّار حلّوا محلّ من يتعجّب منه فهو تعجيب لنا منهم ، ويجوز أن يحمل الكلام على الاستفهام يعني أيّ شيء أصبرهم على النار كما قال ابن عبّاس ؛ فيكون المعنى : أيّ شيء أجرأهم على النار و أعملهم بأعمال أهل النار .

قوله تعالى : ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد (١٧٦) .

أي [ذلك] العذاب بالنار بسبب [أنّ الله نزّل الكتاب] أي جنس الكتاب حال كونه ملتبّساً [بالحقّ] فلا جرم من يرفضه بالتكذيب والكتمان يبتلي بمثل هذا العذاب الدائم [وأنّ الّذين اختلفوا في الكتاب] في جنس الكتاب الإلهيّ بأن آمنوا ببعضها و كفروا ببعضها أو المراد من الكتاب التوراة . و اللام للعهد أو القرآن بأن قالوا : إنّه شعرٌ أو سحرٌ [لفي شقاق بعيد] أي خلاف بعيد عن الصواب ومستوجب لأشدّ العذاب .

وفي هذه الآيات وعيدٌ عظيم لكلّ من يكتم أحكام الله أو يحرّفه لغرض فاسد فليحذر العلماء أن يكتموا الحقّ عن الملوك والأمراء و أرباب الدنيا خوفاً من اتّضاع مرتبتهم وطوح نظرهم إلى إحسانهم ورواتبهم فيكونوا حينئذ مداهنين في الدين .

قال النبي ﷺ : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . قال عليه السلام : إذا ظهرت البدع فليظهر العالم علمه وإلّا فعليه لعنة الله . قال الحسن : إنّ الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان فيقولون : ربّنا ما بالنا يتقدّمون إلينا فيقول الله : ليس من يعلم كمن لايعلم وذلك لأنّهم اشتروا الدنيا بالدين .

حُكي أنّ رجلاً قال لأبي مدين : ما يريد منّي الشيطان فقال الشيخ أبومدين : إنّه جاء قبلك وشكى منك وقال : اعلم يا شيخ أنّ الله ملّكني الدنيا فمن نازعني في ملكي لا أتسلّى عنه بدون إيمانه .

قوله تعالى : ليس البران تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين و فى الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذاعاهدوا والصابرين فى البأساء و الضراء و حين الباس اولئك الذين صدقوا و اولئك هم المتقون (١٧٧) .

[البرّ] كلّ فعل مرضيّ يفضي بصاحبه إلى الجنّة [أن تولّوا] أي أن تصرفوا [وجوهكم] ياأهل الكتابين في الصلاة [قبل المشرق والمغرب] أي ليس كلّ البرّ، وليس البرّ كلّه منحصراً في التوجّه إلى مقابلهما . وذلك أنّ اليهود والنصارى أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله ﷺ إلى الكعبة وزعم كلّ واحد من الفريقين أنّ البرّ هو التوجّه إلى قبلته فردّ سبحانه عليهم بأنّه ليس البرّ ما أنتم عليه فإنّه منسوخ خارجٌ من البرّ .

[ولكنّ البرّ] المعهود الّذي ينبغي أن يهتمّ بشانه برّ [من آمن بالله] وحذف المضاف و السبب في التقدير أنّ إسم « لكنّ » من أسماء المعاني و خبرها من أسماء الأعيان فامتنع الحمل لذلك و إنّما قدّم الإيمان بالله في الذكر لأنّه أصلٌ [واليوم الآخر] أي بالبعث الّذي فيه جزاء الأعمال لا كما يزعمون من أنّهم لا تمسّهم النار إلّا أيّاماً معدودة و أنّ آباءهم الأنبياء و يشفعون لهم فأصل البرّ هو التوجّه إلى المبدء

و المعاد اللّذين هما المشرق و المغرب في الحقيقة فهذان الأمران داعيان إلى الإنقياد بجميع ما أمرالله به ونهى عنه خوفاً وطمعاً [والملائكة] كلّهم بأنّهم عبادالله ليسوا بذكور ولا إناث ولا بشر و لا أولاد الله متوسّطون بينه وبين أنبيائه بإلقاء الوحي وإنزال الكتب واُمناء الله وسفراؤه ، وذلك لأنّ اليهود أخلّوا بذلك حيث أظهروا عداوة جبرئيل [والكتاب] أي بجنس الكتاب الإلهيّ الّذي من أفراده القرآن حيث إنّهم لم يقبلوه وردّوه [والنبيّين] جميعاً بأنّهم المبعوثون إلى خلقه من غير تفرقة بين أحد منهم ، واليهود أخلّوا بذلك حيث قتلوا الأنبياء و طعنوا في نبوّة خاتم النبيّين فهذه اُمورٌ يجب على كلّ مكلّف أن يعتقد بها.

[وآتى المال على حبّه] أي وأعطى الصدقة على حالة يحبّ المال قال ابن مسعود : هو أن تعطيه وأنت صحيح تأمل العيش وتخشى الفقر و لا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا . وقيل : الضمير في «حبّه» راجع إلى الله أي يعطون المال على محبّة الله و خالصاً لوجهه . قال المرتضى قدّس سرّه : هذا الوجه أوجه [ذوي القربى] مفعول أوّل لآتى ، أراد قرابة رسول ﷺ كما في قوله : «قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى»[1] وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله . وقيل : المراد القرابة من أهل بيت المتصدّق و كلّ فقير و قدّم «ذوي القربى» لأنّهم أحقّ بالصدقة لقوله ﷺ : صدقتك على المسلمين صدقة وعلى ذي رحمك اثنتان لأنّها صدقة وصلة لرحمك وقال ﷺ : أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح [واليتامى] الفقراء منهم وهو الّذي لا والد له وهو صغير [والمساكين] والمسكين ضربان : من يكفّ عن السؤال وهو المراد هنا ومن ينبسط ويسأل وهو قوله : «والسائلين» الّذين يسألون [وابن السبيل] أي المسافر البعيد عن ماله وسمّي به لملازمته له كما تقول للّصّ القاطع : ابن الطريق [والسائلين] الّذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال وفي الحديث : للسّائل حقّ ولو جاء على ظهر فرسه [وفي الرقاب] أي وفي تخليص الرقاب بمعاونة المكاتبين و قيل : المراد بهم الاُسارى .

[وأقام الصلاة] المفروضة عطف على الموصول [وآتى الزكاة] المفروضة على أنّ المراد بما مرّ من إيتاء المال التنفّل بالصدقة و قدّم في البيان على الفريضة مبالغة في الحثّ عليه

(١) الشورى : ٢٣ .

أو الأوّل لبيان المصارف والثاني لبيان وجوب الأداء .

[والموفون] عطف على الموصول [بعهدهم إذا عاهدوا] والّذين إذا عاهدوا عهداً أوفوا به كالعهود الّذي بينهم وبين الله والنذور والعقود الّتي بينهم و بين الناس و كلاهما يلزم الوفاء به .

[والصابرين في البأساء والضرّاء] يريد بالبأساء الفقر ، وبالضرّاء العلّة والمرض [و حين البأس] يريد وقت الحرب وجهاد العدوّ أي صابرين حين الشدّة في القتال خاصّة قال أمير المؤمنين : كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه .

[اُولئك الّذين صدقوا] أي صدقوا الله والتزموه علماً وعملاً [واُولئك هم المتّقون] أي اتّقوا بفعل هذه الخصال .

واتّفقت الإماميّة واستدلّت على أنّ المعنيّ بهذه الآية أمير المؤمنين لأنّه لا خلاف بين الاُمّة أنّه عليه السلام كان جامعاً لهذه الخصال فهو مرادٌ بها قطعاً ولا قطع على كون غيره جامعاً لها .

قال الزّجّاج والفرّاء : إنّها مخصوصة بالأنبياء المعصومين ، لأنّ هذه الأمور لا يؤدّيها بكلّيّتها إلّا الأنبياء .

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفى له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم (١٧٨) .

لمّا بيّن سبحانه أنّ البرّ لا يتمّ إلّا بالإيمان والتمسّك بالشرائع بيّن الشرائع وبدأ بالدماء لأنّه الأهمّ فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم] أي فرض و وجب و قيل : كتب عليكم في اُمّ الكتاب وهو اللوح المحفوظ على جهة الفرض ، وأصل الكتاب الخطّ الدالّ على معنى فسمّي به ما دلّ على الفرض ؛ قال الشاعر :

كتب القتل و القتال علينا * و على الغانيات جرّ الذيول

و القصاص والمقاصّة والمبادلة نظائر يقال : قصّ أثره أي تلاه شيئاً بعد شيء و منه القصاص لأنّه يتلو أصل الجناية ويتبعه وهو أن يفعل بالثاني مثل مافعله هو بالأوّل مع مراعاة المماثلة فإن لم تحصل المماثلة ولم يتمكّن منها فلايقع القصاص وأمّا من يتولّى القصاص فهو إمام المسلمين ومن يجري مجراه فيجب عليه استيفاء القصاص عند مطالبة الوليّ لأنّه حقّ الآدميّ ويجب على القاتل تسليم النفس .

[القصاص في القتلى] و «في» للسبب أي بسبب قتل القتلى كما في قوله ﷺ : إنّ امرأة دخلت النار في هرّة حبستها أي بسبب حبسها إيّاها وهذا الحكم يتوجّه إلى القاتل عمداً وأمّا في الخطاء المحض و شبه العمد فلايقع القصاص بل يجب الدية .

فإن قيل : كيف كتب عليكم القصاص في القتلى و الأولياء مخيّرون بين القصاص والعفو وأخذ الدية ؟

فالجواب أنّ الوجوب لاينافي التخيّر أي قد فُرض عليكم التمسّك بما حدّ لكم وترك مجاوزته إلى مالم يجعل لكم .

[الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد] مبتدأ وخبر أي الحرّ مأخوذ و مقتول بمثله ؛ قال الصادق عليه السلام : لايقتل الحرّ بعبد لكن يُضرب الحرّ بضرب شديد ويغرم دية العبد وهذا أيضاً مذهب الشافعيّ ومالك وهذا الشعر منسوب إليه :

خذوا بدمي ذاك الغزال فإنّه * رماني بسهمي مقلتيه على عمد

و لا تقتلوه إنّني أنا عبده * و في مذهبي لايقتل الحرّ بالعبد

و كذلك لايقتل المؤمن بالكافر ولكن عند الثوريّ وأبي حنيفه يقتل الحرّ بالعبد واستدلّا بعموم قوله تعالى : «و كتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس »[1] قالا : إنّ شريعة من قبلنا إذا قصّت علينا في القرآن من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب ، ولكن إذا صحّ أنّ الصادق عليه السلام قال : لايقتل فغيره كاذبٌ .

[والأنثى بالأنثى] فإن قتل رجل إمرأةً وأراد أولياء المقتول القصاص أدّوا نصف

(١) المائدة : ٤٨ .

دية الرجل القاتل إلى أهل الرجل وهذا هو حقيقة المساواة ؛ فإنّ نفس المرأة لا تساوي نفس الرجل بل هي على النصف منها فيجب إذا اُخذت النفس الكاملة بالنفس الناقصة أن يردّ فضل ما بينهما وكذلك رواه الطبريّ في تفسيره عن عليّ عليه‌السلام و يجوز قتل العبد بالحرّ والأنثى بالذكر إجماعاً .

ونزلت هذه الآية في حيّين من العرب لأحدهما طول[1] على الآخر وكانوا يتزوّجون نساءً بغير مهور وأقسموا : لنقتلنّ الحرّ منكم بالعبد منّا وبالمرأة منّا الرجل منكم وبالرجل منّا الرجلين منكم ، وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراحات اُولئك حتّى جاء الإسلام فأنزل الله هذه الآية .

قوله : [فمن عفي له من أخيه] «من» موصولة أو شرطيّة والضميران راجعان إلى «من» أي شيء من العفو قليل ، ومعنى العفو الترك وعفت الدار : تركت حتّى درست « فمن عُفي له» أي الجاني والقاتل إذا عُفي له من أخيه الّذي هو وليّ الدم وذكر بلفظ الأخوّة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من اُخوّة الإسلام فدلّت الآية على أنّ اُخوّة الإسلام بينهما لم تنقطع وأنّ القاتل لم يخرج عن الإيمان بقتله [شيء] وهو العفو من القصاص دون الدية وقوله : «شيء» يدلّ على أنّ بعض الأولياء إذا عفى يسقط القود و القصاص ؛ لأنّ شيئاً من الدم قد بطل بعفو البعض والله تعالى قال : «فمن عفي له من أخيه شيء » و هذا قول أكثر المفسّرين بأنّ العفو المراد في الآية أنّ وليّ الدم يعفو عن القصاص ؛ ويقبل الدية ، ولم يذكر سبحانه العافي لكنّه معلوم أنّ المراد به من له القصاص والمطالبة .

قال الطبرسيّ : وأمّا الّذي له العفو عن القصاص فكلّ من يرث الدية إلّا الزوج والزوجة عندنا وأمّا غير أصحابنا من العلماء فلا يستثنوهما .

قوله : [فاتّباع بالمعروف] خبر مبتدأ محذوف تقديره : وإذا حصل شيء من العفو وبطل القصاص فالأمر على وليّ المقتول بأن يطلب الدية بالمعروف ولا يظلم الجاني بالزيادة ولا يعنّفه ولا يشدّد عليه إن كان معسراً [وأداء إليه بإحسان] هذه وصيّة للجاني بأن لا

(١) السلطة و بسط اليد .

يماطل أولياء الدم ولا يبخس حقوقهم بل يشكرهم على عفوهم ويؤدّي حقوقهم إليهم .

[ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة] إشارة إلى الحكم المذكور من العفو والدية . تيسير وتوسعة لكم ورحمة منه حيث لم يجزم بالعفو وأخذ الدية بل خيّركم بين الثلاث: القصاص والدية والعفو مطلقاً وذلك لأنّ في شرع موسى عليه السلام القصاص فقط وهو العدل المحض وفي دين عيسى عليه السلام العفو و هو الفضل فحسب و في شرعنا القصاص للتشفّي والدية للترفّه والعفو للتكرّم .

[فمن اعتدى بعد ذلك] التخفيف و تجاوز ما شرّع له بأن قتل غير القاتل أو قتل القاتل بعد العفو وأخذ الدية فقد كان الوليّ في الجاهليّة يؤمن القاتل بقبول الدية ثمّ يظفر به فيقتله [فله] باعتدائه [عذاب أليم] موجع .

و لكم في القصاص حيوة ياولي الالباب لعلكم تتقون (١٧٩) .

بيان لوجه الحكمة في القصاص فقال :

[ولكم] أيّها الناس في إيجاب القصاص [حياة] لأنّ من همّ بالقتل فذكر القصاص ارتدع فكان ذلك سبباً للحياة وقيل : معناه : لكم في القصاص حياة لأنّه لا يقتل إلّا القاتل دون غيره بخلاف ما كان يفعله أهل الجاهليّة الّذين كانوا يتغابون بالطوائل و نظيره من من كلام العرب : «القتل أنفى للقتل» إلّا أنّ ما في القرآن أكثر فائدةً وأوجز في العبارة و أبعد من التكلّف بتكرير اللفظ وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة :

أمّا تكثير الفائدة فلأنّ فيه جميع ما في قولهم : القتل أنفى للقتل و زيادة معان منها إبانة العدل لذكره القصاص ؛ لأنّ القصاص عدل محض لكنّ القتل مطلقاً ليس بعدل ومنها إبانة الغرض المطلوب والمرغوب فيه وهو الحياة .

وأمّا الإيجاز في العبارة فإنّ الّذى هو نظير القتل أنفى للقتل قوله : «القصاص حياة» وهو عشرة أحرف وذلك أربعة عشر حرفاً .

وأمّا بعده من الكلفة فهو أنّ في قولهم : القتل أنفى للقتل تكريراً .

وأمّا الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فإنّه مدرك بالحسّ وموجود باللفظ ؛ فإنّ الخروج من الفاء إلى اللام في التلفظ أعدل من الخروج من الألف إلى الهمزة لبعد الهمزة إلى اللام

و كذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل في التلفّظ من الخروج من الألف إلى اللام .

فباجتماع هذه الأمور الّتي ذكرناها كان أحسن منه وأبلغ فتبيّن بين أعلى الطبقة من الكلام وأدناها مع أنّ قولهم : القتل أنفى للقتل أفصح كلام عندهم

[يا أُولي الألباب] أي ياذوي العقول والّذين يعرفون العواقب [لعلّكم تتّقون] أي لكي تتّقون القتل بالخوف من القصاص ، أو لكي تجتنبوا المعاصي .

قوله : كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين (١٨٠) .

ثمّ بيّن شريعة أُخرى وهو الوصيّة فقال :

فرض [عليكم إذا حضر] أسباب الموت وظهر أماراته وآثاره من العلل و الأمراض إذلا اقتدار على الوصيّة عند حضور نفس الموت أي هذا الحكم مكتوب عليكم في الأزل [إن ترك] واحدمنكم مالاً قليلاً أو كثيراً وقيل : المراد من « الخير » المال الكثير لا القليل قيل : من ألف درهم إلى خمسمائة درهم وقال ابن عبّاس : إلى ثمانمائة درهم وروي عن أمير المؤمنين أنّه دخل على مولى له في مرضه وله سبعمائة درهم أوستّمائة فقال : ألا أُوصي ؟ فقال عليه السلام : لا إنّ الله سبحانه قال : «إن ترك خيراً» وليس لك كثير مال وهذا هو المأخوذ به عندنا الإماميّة لأنّ قوله عليه السلام حجّة .

[الوصيّة للوالدين والأقربين] أي الوصيّة لوالديه وقرابته [بالمعروف] ممّن يرث وممّن لا يرث من الأقرباء بالشيء الّذي يعرف أهل التميز أنّه لاجور ولاحيف فيه و يحتمل أنّ المراد من «المعروف» قدر ما يوصى به لأنّ من يملك المال الكثير إذا أوصى بدرهم فلم يوص بالمعروف ويحتمل أن يكون أمرهم سبحانه بالطريقة الجميلة في الموصى لهم وتركاً للطريقة السيّئة فليس من المعروف أن يوصي للغنيّ وترك الفقير ويوصي للقريب وترك الأقرب كما كان يفعله أهل الجاهليّة و ذلك لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يوصون بمالهم للبعيد رياءً و سمعة وطلباً للفخر والشرف ويتركون أقاربهم الفقراء فشرّع الله في هذه الآية ماكان يصرف إلى الابعدين إلى الوالدين والأقربين فعمل بها حتّى نسختها آية المواريث في سورة النساء

فالآن لايجب على أحد أن يوصي لأحد قريب ولا بعيد [حقّاً على المتّقين] أي حقّ هذه الوصيّة حقّاً على المتّقين من المخالفة .

و اختلف في هذه الآية فقيل : إنّها منسوخة في الوارث ثابتة في غير الوارث . قال الطبرسيّ : و قيل : إنّها غير منسوخة أصلاً و هو الصحيح عند المحقّقين من أصحابنا لأنّ من قال : إنّها منسوخة بآية المواريث فقوله باطل بأنّ النسخ بين الخبرين إنّما يكون إذا تنافى العمل بموجبهما ولاتنافي بين آية المواريث وآية الوصيّة فكيف تكون هذه ناسخة بتلك مع فقد التنافي ؟ ومن قال : إنّها منسوخة بقوله صلى الله عليه وآله : «لاوصيّة لوارث» فقد أخطأ لأنّ الخبر لو سلم من كلّ قدح لكان يقتضي الظنّ ولايجوز أن ينسخ كتاب الله بما تقتضي الظنّ ، ولو سلّمنا الخبر مع ماورد من الطعن على رواته لخصّصنا عموم الآية و حملناها على أنّه لا وصيّة لوارث بما يزيد على الثلث كما في الكافي و العيّاشي عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن الوصيّة للوارث فقال : يجوز ثمّ تلا هذه الآية . ثمّ نسخ الوجوب لاينافي بقاء الجواز . العيّاشي عن الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممّن لايورث فقد ختم عمله بالمعصية .

فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم (١٨١) .

ثمّ أوعد على تغيير الوصيّة أي بدّل الوصيّة ، وذكر الضمير باعتبار الإيصاء كقوله «فمن جاءه موعظة من ربّه »[1] أي وعظ [بعد ماسمعه] من الموصي من الأوصياء أو الأولياء أو الشهود [فإنّما] إثم التبديل على من يبدّل الوصيّة [إنّ الله سميع] بالإيصاء و تغييره [عليمٌ] بما يفعله الوصيّ وغيره .

فمن خاف من موص جنفاً أو اثماً فاصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم(١٨٢) .

«الخوف» في الآية المراد منه العلم فهو من إطلاق اسم اللازم على الملزوم فإنّه إذا علم [خاف من موص جنفاً] ميلاً عن الحقّ بالخطاء في الوصيّة يعني أنّ الموصى إليه إن

(١) السورة : ٢٧٥ .

خشي أو علم ظلماً من الموصي فيما أوصى به إليه فيما لا يرضى الله به . القمي عن الصادق عليه السلام قال : إذا أوصى الرجل بوصيّة فلا يحلّ للوصيّ أن يغيّر وصيّته بل يمضيها على ما أوصى إلّا أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصيّة وجائز له أن يردّها إلى الحقّ مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كلّه لبعض ورثته ويحرم بعضها فللوصيّ أن يردّ الوصيّة إلى الحقّ وهو المراد بالجنف والإثم مثل أن يأمر مثلاً بعمارة بيوت النار واتّخاذ المسكر فيحلّ للوصيّ أن لا يعمل بشيء من ذلك .

[فأصلح بينهم] الظاهر أنّ المراد بالمصلح هو الوصيّ «بينهم» أي بين الموصى لهم ، و أجراه على طريق الشرع [فلا إثم عليه] ولا وزر على المغيّر في هذا التبديل لأنّه تبديل باطل إلى حقّ بخلاف الأوّل [إنّ الله غفور رحيم] غفور عن المعاصي لمن تاب ، رحيم للمحسنين .

قوله يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (١٨٣) .

أي فرض عليكم صيام شهر رمضان لقوله تعالى : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه[1]» بعد قوله : «شهر رمضان» والصيام في الشريعة هو الإمساك نهاراً عن المفطرات المعهودة و هذا صوم العوامّ ، وأمّا صوم الخواصّ فالإمساك عن المنهيّات دائماً كما قيل : من أراد السلامة فليصم الدهر كلّه وليكن إفطاره الموت ، وأمّا صوم أخصّ الخواصّ فالإمساك عمّا سوى الله .

[كما كتب على الّذين من قبلكم] من الأمم من لدن آدم ، وكان الصوم على آدم أيّام البيض وكان على قوم موسى صوم عاشوراء [لعلّكم تتّقون] المعاصي و ذلك لأنّ الصوم من موجبات التقوى ؛ فإنّ الصوم يكسّر الشهوة الّتي هي مبدء المعاصي وإنّه أغضّ للبصر و أحصن للفرج ، وتسكين الشهوة يحصل بالصيام والقيام [أيّاماً معدودات] أي موقّتات قليلات فإنّ القليل من المال يعدّ عدّاً ، وانتصاب «أيّاماً» على الظرفيّة بتقدير «صوموا» دلّ الكلام عليه .

واختلف في هذه الأيّام قيل : إنّها غير شهر رمضان و كانت ثلاثة أيّام من كلّ

---

(١) السورة : ١٨٥ .

شهر ثمّ نسخ . وقيل : ثلاثة أيّام من كلّ شهر وصوم يوم عاشوراء ثمّ قيل : إنّه كان تطوّعاً و قيل : كان واجباً ولكن على التقادير نسخ بصوم رمضان .

[فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام اُخر] مرضاً يضرّه الصوم أو على سفر أي راكب سفر وقاطع مسافة ، وهو ظرف عطف على قوله «مريضاً» و هو وإن كان ظرفاً فهو بمعنى الاسم أي مسافراً فالّذي ينوب مناب صومه عدّة من أيّام اُخر ، فعدّة من العدّ بمعنى المعدود ومنه يقال للجماعة المعدود من الناس : عدّة ، وحاصل الآية أنّ فرض الصوم في الأيّام المعدودات يلزم الأصحّاء وأمّا من كان مريضاً أو مسافراً فله تأخير الصوم عن هذه الأيّام إلى أيّام اُخر .

[وعلى الّذين يطيقونه] واختلف في المراد فقال بعض المفسّرين : إنّ المعنى أنّ الأصحّاء الّذين يتمكّنون من الصوم مخيّرون بين أمرين بين أن يصوموا وبين أن يفدوا و كان ذلك في بدء الإسلام ولم يكونوا متعوّدين بالصوم فخيّرهم سبحانه لئلاّ يشقّ عليهم ثمّ نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» .

[فدية طعام مسكين] أي إعطاء فدية وهي إطعام مسكين وهي نصف صاع على قول أهل العراق من كلّ يوم ، وعند الشافعيّ مدّ من كلّ يوم وهو ملء الكفّين وامتدادها ولذا سمّي بالمدّ أي ممدودتين ومبسوطتين . و عند الإماميّة إن كان قادراً فمدّان ، و إلاّ فمدّ واحد . وقيل : إنّ هذه الرخصة كانت للحوامل والمراضع والشيخ الفاني ، ثمّ نسخ من الآية الحامل والمرضع وبقي الشيخ الكبير على الحكم . وثالث الأقوال : أنّ باب الإفعال من معانيه السلب ، كما تقول : أكرمته أي سلبت عنه الكرامة ، فالمعنى : فعلى الّذين هم مسلوبين الطاقة من مرض أو عطاش أو كبر فعليهم بدل كلّ يوم مدّ . وعلى هذا المعنى فلا نسخ في الآية ، وروى عليّ بن إبراهيم بإسناده عن الصادق عليه السلام : أنّ المراد من قوله : «وعلى الّذين يطيقونه فدية» أي من مرض في رمضان فأفطر ثمّ صحّ فلم يقض مافاته حتّى جاء رمضان آخر فعليه أن يقضي ويتصدّق لكلّ يوم مدّاً من طعام .

[فمن تطوّع خيراً فهو خير له] أي من تطوّع بزيادة الإطعام بأن يعطي المسكين الواحد أكثر من قدر الكفاية حتّى يزيده من نصف صاع فهو عمل برّ وخير له وقيل : أن

يزيد على مسكين واحد ، مثل أن يطعم مكان كلّ يوم مسكينين مثلاً .

[وأن تصوموا خير لكم] أي وصومكم خير لكم من الإفطار والفدية وهذا الجواز كان قبل النسخ ، فأمّا بعد النسخ فلا يجوز أن يقال : الصوم خير من الفدية ؛ لأنّ الإفطار لا يجوز أصلاً ، و محكومون بالصوم [إن كنتم تعلمون] أنّ الصوم خير من الفدية وافترض الصوم بعد خمس عشرة سنة من النبوّة بعد الهجرة بثلاث سنين .

قيل : أوّل ما فرض الصوم على الأغنياء لأجل الفقراء في زمن الملك طهمورث ثالث ملوك بني آدم ، وقع القحط في زمانه فأمر الأغنياء بطعام واحد بعد الغروب وبإمساكهم بالنهار إيثاراً على الفقراء وشفقة لهم بطعام النهار وتواضعاً لله .

و الصوم سبب للولوج في ملكوت السماوات وواسطة الخروج عن رحم مضائق الجسمانيّات ، المعبّر عنه بالنشأة الثانية كما أُشير إليه بقول عيسى عليه السلام حيث قال : لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرّتين . و مجاهدة الصوم رابطة مشاهدة الصفاء وإليه يشير الحديث القدسيّ : الصوم لي وأنا أُجزى به ، يعني : أنا جزاؤه لا حوري ولا قصوري . وقال سبحانه في مخاطبة عيسى عليه السلام : تجوّع تراني . و إنّما يكون الله جزاء صومه إذا أمسك قلبه ولسانه وروحه وسرّه عمّا سواه ، وأهل التأويل أوّلوا «صوموا للرؤية وافطروا للرؤية » أي رؤية جلال الحقّ .

فينبغي أن يكون صوم العبد ظاهراً و باطناً أي أعضاؤه الظاهرة و الباطنة ، فصوم الأعضاء مثل اللسان عن الكذب والفحش والغيبة والنميمة واللغويّات وأمثالها ، والعين عن النظر في الغفلة والريبة ، وصوم السمع عن استماع الملاهي و المناهي وقس الباقي ، و صوم النفس عن الآمال والتمنّي والشهوات ، و صوم القلب عن حبّ الدنيا ، وصوم الروح عن نعيم الآخرة ولذّاتها ، وصوم السرّ عن رؤية وجود غير الله . وهذه المقامات تختلف على درجات المعرفة ؛ فمن كمال لطفه تعالى أن جعل صومكم في أيّام قلائل معدودات وثمرات صومكم إذا صمتم حسبما شرح في أيّام غير متناهية .

وأعلم أنّ الخلق في توجّههم إلى ماهو قبلتهم طائفتان : إحداهما العوامّ الّذين قصّروا نظرهم على العاجل من الدنيا والشهوات ومقتهم الرسول بقوله : ماذئبان ضاريان

في زريبة غنم بأكثر فساداً من حبّ المال والشرف في دين المرء المسلم . و آخرون الخواصّ وهم الّذين علموا أنّ كلّ شيء فوقه شيء آخر ، فهم من الأقلّين وتحقّقوا أنّ الدنيا من بعض مخلوقات الله وأعظم اُمورها الأجوفان : المطعم والمنكح وقد شاركهم في ذلك كلّ البهائم والدوابّ ، فأعرضوا عنها وتعرّضوا المرتبة سنيّة واشتغلوا بما يبقى وهو الإطاعة ، وقسم من هذا القسم الخواصّ صاروا أخصّ حيث كشف لهم معنى «والله خير و أبقى» و تحقّق عندهم حقيقة لا إله إلّا الله وأنّ كلّ من توجّه إلى ماسواه فهو غير خال من الشرك الخفيّ فجعلوا جميع الموجودات عندهم قسمين : الله وماسواه و اتّخذوا ذلك كفّتي ميزان و قلبهم لسان الميزان فكلّما رأوا قلوبهم مائلة إلى الكفّة الشريفة حكموا بثقل كفّة الحسنات و كلّما رأوها مائلة إلى الكفّة الخسيسة حكموا بثقل كفّة السيّئات وهذا شغلهم و سلوكهم إلى أن وصلوا إلى المرتبة العليا ، وهذا معنى الوصول إلى الحقّ لا كما توهّمه الطبقة الصوفيّة في مزخرفاتهم فتيقّظ من نومة الغفلة في يومك لغدك قبل أن يخرج الأمر من يدك .

شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه و من كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام اخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهدىكم و لعلكم تشكرون (١٨٥) .

[شهر رمضان الّذي اُنزل فيه القرآن] الشهر معروف وجمعه في القلّة أشهر وفي الكثرة شهور . شهرت الحديث أظهرته وشهرت السيف : انتضيته والمراد الظهور بسبب الهلال ، وإنّما سمّي برمضان لأنّ العرب سمّوا الشهور بمناسبة الأزمنة الّتي وقعت الشهور فيها ، فوافق رمضان أيّام رمض الحرّ وشدّته وقيل : سمّي رمضان لأنّه يرمض الذنوب ويحرقها كما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه . وارتفاع «شهر» على أنّه خبر مبتدأ محذوف يدلّ عليه أيّاماً والتقدير : هي شهر رمضان ، أو بدل من الصيام أي كتب عليكم شهر رمضان ، أو مرفوع على الابتداء ويكون خبره « الّذي اُنزل فيه القرآن» وقيل : «رمضان» اسم من اسماء الله ، أي شهر الله .

وعن النبيّ ﷺ : نزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان واُنزلت التوراة لستّ

مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين .

والقرآن من القرء ، وهو الجمع لأنّه مجمع علم الأوّلين والآخرين .

[هدىً للناس] أي أُنزل حال كونه هداية للناس إلى سواء الصراط [وبيّنات من الهدى والفرقان] وحال كونه آيات واضحات بما يهدي إلى الحقّ ويفرّق بين الحقّ والباطل والهدى على قسمين : ما يكون بيّناً جليّاً وما لا يكون ، فذكر الجنس أوّلاً ثمّ أردفه بأشرف نوعيه وبالغ فيه بنفس الهداية .

[فمن شهد منكم الشهر] الفاء للتفريع ؛ حضر موضع الإقامة من المصر أو القرية كائناً ذلك الحاضر في الشهر [فليصمه] أي فليصم فيه بحذف الجارّ .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : خطب رسول الله للناس في آخر جمعة من شعبان فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أيّها الناس إنّه قد أظلّكم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر وهو شهر رمضان ، فرض الله صيامه وجعل قيام ليلة فيه بتطوّع صلاة كمن تطوّع بصلاة سبعين ليلة فيما سواه من الشهور ، وجعل لمن تطوّع فيه بخصلة من خصال الخير والبرّ كأجر من أدّى فريضة من فرائض الله فيما سواه ، ومن أدّى فيه فريضة من فرائض الله كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور وهو شهر الصبر وإنّ الصبر ثوابه الجنّة وهو شهر المواساة وهو شهر يزيد الله فيه من رزق المؤمنين ، ومن أفطر فيه مؤمناً صائماً كان له بذلك عند الله عتق رقبة و مغفرة لذنوبه فيما مضى .

فقيل له : يا رسول الله ليس كلّنا نقدر على أن نفطر صائماً ، قال : فإنّ الله كريم يعطي هذا الثواب من لا يقدر منكم إلّا على مذقة من لبن يفطر بها صائماً أو شربة من ماء عذب أو تميرات لا يقدر على أكثر من ذلك ، ومن خفّف عن مملوكه خفّف الله عليه حسابه وهو شهر أوّله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره إجابة والعتق من النار ، ولا غنىً بكم فيه عن أربع خصال خصلتين ترضون الله بهما و خصلتين لا غنى بكم عنهما ، فأمّا اللتان ترضون الله بهما ، فشهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله وأمّا اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله فيه حوائجكم والجنّة ، وتسألون فيه العافية وتتعوّذون به من النار .

[ومن كان مريضاً] وإن كان مقيماً حاضراً فيه [أو على سفر] أي في سفر و إن كان

صحيحاً وحروف الصفات يقام بعضهامقام بعض [فعدّة من أيّام أُخر] فعليه صيام أيّام أُخر .

[يريدالله بكم اليسر] حيث أوجب الفطر بالسفر والمرض [ولا يريد بكم العسر] أي مشقّة بالصوم في السفر والمرض لغاية رأفته . قال الترمذيّ : اليسراسم الجنّة والعسر اسم جهنّم ، والتأويل : يريد الله بصومكم إدخالكم الجنّة ولا يريدبكم إدخال النار .

[ولتكملوا العدّة] وإنّما أمرناكم بتكميل العدّة بصوم أيّام رمضان لأنّه مع الطاقة وعدم العذر يسهل عليكم ، والمريض والمسافر يتعسّر عليهما ذلك فيكملان العدّة من وقت آخر وعليكم عدّ ما أفطرتم لتكملوا عدد قضاء ما أفطرتم .

[ولتكبّروا الله] و تعظّموه حامدين [على ما هداكم] إلى طريق الخروج عن عهدة التكليف ووفّقكم بتعليم هذه المثوبات والفيوضات [ولعلّكم تشكرون] لكي تشكروا الله على هذه النعمة باللسان والبدن والقلب .

وفي الحديث : من حافظ على ثلاث فهو وليّ الله حقّاً ومن ضيّعهنّ فهو عدوّ الله حقّاً الصلاة والصوم و الغسل من الجنابة . وفي بعض الخبر : الجنان يشتقن إلى أربعة نفر : صائمي رمضان وتالي القرآن وحافظي اللسان ومطعمي الجيران ؛ وإنّ الله يغفر للعبد المؤمن عند إفطاره ما مشت إليه رجلاه و ما قبضت عليه يداه وما نظرت إليه عيناه وما سمعته أُذناه وما نطق به لسانه وما حدث به قلبه .

أقول : إن صحّ الحديث فذلك بعد التوبة والصوم المستجمع للشرائط الّتي ذكرناه قبيل هذا . وفي الحديث : إذا كان يوم القيامة وبعث من في القبور ، أوحى الله إلى رضوان أنّي أخرجت الصائمين من قبورهم جائعين عاطشين في الدنيا ، فاستقبلهم بشهواتهم من الجنان فيصيح الرضوان : أيّها الغلمان والولدان عليكم بأطباق من نور ؛ فيجتمع أكثر من عدد الرمل وقطرات الأمطار و كواكب السماء وأوراق الأشجار بالفاكهة و الأشربة اللذيذة و الأطعمة الشهيئة فيطعم من لقي منهم ويقول : كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخالية .

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال : رأيت ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ملكاً لم أر مثله طولاً و عرضاً ، طوله مسيرة ألف ألف سنة و له سبعون ألف رأس ، في كلّ رأس

سبعون ألف وجه ، في كلّ وجه سبعون ألف لسان وعلى كلّ رأس ألف ذؤابة من نورو على كلّ ذؤابة ألف ألف لؤلؤة معلّقة بقدرة الله و في جوف كلّ لؤلؤة بحرمن نور و في ذلك البحر حيتان ، طول كلّ حوت مقدار مائتي عام ، مكتوب على ظهرهنّ : لاإله إلّا الله محمّد رسول الله ، وذلك الملك واضع إحدى يديه على رأسه والأُخرى على ظهره وهو في حظيرة القدس ، فإذا سبّح اهتزّ العرش بحسن صوته ، فسألت عنه جبرئيل ، فقال : هذا ملك خلقه الله قبل آدم بألفي عام ، فقلت أين كان هذا إلى هذه الغاية ؟ فقال عليه السلام : إنّ لله مرجاً في الجنّة عن يمين العرش فكان هذا الملك فيه ، فأمره الله في ذلك المكان أن يسبّح ويكون لك ولامّتك ثوابه بسبب صوم شهر رمضان فرأيت صندوقين بين يديه ، على كلّ صندوق ألف قفل من نور ، وسألت جبرئيل عن الصندوقين فقال سل منه ، فسألته ، فقال : إنّ فيهما براءة الصائمين من أُمّتك من عذاب النار طوبى لك ولأُمّتك انتهى .

واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون (١٨٦) .

سأل سائل من النبيّ صلى الله عليه وآله : أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت الآية فقال : [وإذا سألك عبادي عنّي] فقل [إنّي قريب] يدلّ بهذا على أنّه سبحانه لامكان له ، إذ لو كان له مكان لم يكن قريباً من كلّ من يناجيه وقيل معناه أنّي سريع الإجابة إلى دعاء الداعي لأنّ السريع والقريب متقاربان ولكن شرط الإجابة المشيّة وموافقة القضاء لأنّ هذه الآية مطلقة والمطلق محمول على المقيّد والمقيّد قوله تعالى : «بل إيّاه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء»[1] فيكون المعنى : أُجيب دعوة الداع اذا دعاني إن شئت [فليستجيبوا لي] الإجابة والاستجابة يطلقان بمعنى واحد ، قال الشاعر :

وداع دعانا من يجيب إلى النداء * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أي لم يجب ، و معنى الآية فليجيبوا إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، قال المبرّد والسرّاج : معناه : فليذعنوا للحقّ بطلب موافقة ما أمرتهم به ونهيتهم عنه ، وحاصل المعنى : فليجيبوني

---

(١) الانعام : ٤١ .

وليطيعوني . وقيل معناه : فليدعوني . قال النبي ﷺ : أعجز الناس من عجز من الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام [وليؤمنوا بي] أي وليتصدّقوا فإنّي قادر علي إعطائهم ما سألوه [لعلّهم يرشدون] إلى الحقّ ويهتدون إليه والداعي يجب أن يسأل ما فيه صلاح له في دينه فالله سبحانه يجيبه إذا اقتضت المصلحة إجابته أو يؤخّر الإجابة إن كانت المصلحة في التأخير .

فإن قيل : إنّ ما يقتضيه المصلحة لابدّ وأن يفعله فما معنى الدعاء وإجابته ؟

فالجواب : أنّ الدعاء عبادة في نفسها يعبدالله بها لما فيه من إظهار الخضوع والانقياد إليه ولا يمتنع أن يكون وقوع ما سأله إنّما صار مصلحة بعد الدعاء و لا يكون مصلحة قبل الدعاء .

روي عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ العبد ليدعو الله وهو سبحانه يحبّ العبد ، فيقول : يا جبرئيل لاتقض لعبدي هذا حاجته وأخّرها فإنّي اُحبّ لأزال أسمع صوته وأنّ العبد ليدعو الله و هو سبحانه يبغضه فيقول لجبرئيل : اقض لعبدي هذا حاجته وعجّلها فإنّي أكره أن أسمع صوته .

و قيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو الله فلا يستجيب لنا فقال : لأنّكم عرفتم الله فلم تطيعوه وعرفتم الرسول ولم تتّبعوا سنّته وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه وأكلتم نعمة الله فلم تؤدّوا شكرها وعرفتم الجنّة فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس انتهى .

قال خضر عليه السلام لموسى (وإسمه إلياس بن ملكان وقيل : اسمه بليا ، واختلفوا فيه ، قيل : إنّه نبيّ ، محتجّين بقوله تعالى : «وما فعلته عن أمري» وبأنّه أعلم من موسى) وبالجملة ممّا نقل من وصاياه لموسى لمّا أراد أن يفارقه : يا موسى اجعل همّك في معادك و لا تخض فيما لايعنيك ولا تترك الخوف في أمنك ولا تيأس من الأمن في خوفك ، ولا تضحك من غير عجب ، ولاتعيّر أحد الخاطئين بعد الندم وابك على خطيئتك ، ياموسى لاتطلب العلم لتحدّث به واطلب العلم لتعمل به ، وإيّاك والغضب إلّا في الله ولا ترض على أحد إلّا في الله ، و

لاتحبّ لدنيا ولا تبغض لدنيا فإنّ ذلك يخرج من الايمان ويدخل في الكفر انتهى .

اقول : و أحكم الأجوبة في هذا الباب أنّه شرط لهذه الإجابة لعبده إجابة العبد إيّاه فيما دعاه إليه لقوله : «فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي» فإذا لم يجب العبد ربّه بالإطاعة لايجيب المولى دعوته كما قال سبحانه : «وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم»[1] وقد قيل : إنّ الدعاء مفتاح باب السماء وأسبابه لقمة الحلال ، حكي أنّه كان بالكوفه اُناس يستجاب دعاؤهم كلّما دخل عليهم وال كانوا يدعون عليه فيهلك فلمّا ولّي الحجّاج الكوفة من ابن مروان دعاهم إلى مأدبته فلمّا أكلوا قال : أمنت من دعائهم فليدعوا عليّ ماشاؤوا . لكن مع ذلك كلّه فليكن العبد حريصاً على التضرّع والدعاء ، ويسعى في دفع موانع الاستجابة ويهيّء موجباتها كالخلوص والأزمنة والأمكنة .

قال ﷺ : قوام الدنيا بأربعة أشياء : بعلم العلماء وعدل الأمراء و سخاوة الأغنياء ودعوة الفقراء .

وينبغي أن يسأل الله تعالى باسمائه الحسنى والأدعية المأثورة و يتوسّل إلى الله بالأنبياء والأئمّة المعصومين ، وللدعاء أماكن يظنّ فيها الإجابة مثل عند رؤية الكعبة و في مسجد النبيّ صلّى الله عليه و آله و الأقصى و الكوفة و قبّة الحسينيّة عليه السلام و بين ذكر الجلالتين من سورة الأنعام في قوله تعالى : «وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتّى نؤتى مثل ما اُوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته»[2] وفي الطواف وفي البيت وعند زمزم وعند شرب مائه وعلى الصفا والمروة وفي السعي وخلف المقام و المزدلفة و منى وعند الجمرات وعند قبور الأنبياء .

قوله تعالى : احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم و عفا عنكم فالان باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم وكلوا و اشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل ولاتباشروهن و أنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (١٨٧) .

---

(١) السورة : ٤٠ .

(٢) الاية الـ : ١٢٤ .

بيّن سبحانه وقت الصيام وما يتعلّق به من الأحكام فقال : [أُحلّ لكم ليلة الصيام] أي اُبيح لكم في ليلة يوم الصوم [الرفث] أصل الرفث قول الفحش والتكلّم بالقبيح ، ثمّ جعل ذلك اسماً لما يتكلّم به عندالنساء من معاني الإفضاء ، ثمّ جعل كناية عن الجماع قال ابن عبّاس : «الرفث» كلمة جامعة لكلّ مايريده الرجل من المرأة كالغمز والتقبيل .

[إلى نسائكم] وكان الرجل في ابتداء الإسلام إذا أمسى في رمضان حلّ له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلّي العشاء الأخيرة أو يرقد ، فإذا صلاّها أورقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب و النساء إلى القابلة ، ثمّ إنّ بعض الأصحاب واقع أهله بعد صلاة الأخيرة فلمّا اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه ، وأتى النبيّ ﷺ وقال : إنّي أعتذر إلى الله و إليك من هذه الخاطئة فنزلت الآية .

[هنّ لباس لكم و أنتم لباس لهنّ] وعبّر باللباس و جعل كلّ من الرجل والمرأة لباساً للآخر لتجرّدهما عند النوم و اشتمال كلّ منهما على الآخر [علم الله] في الأزل [أنّكم تختانون أنفسكم] تخونونها بتعريضها للعقاب بمباشرة النساء في ليالي الصوم وقد ائتمن الله العباد على ما أمرهم ونهاهم ، فالتكليف أمانة ، فإذا عصوه في السرّ فقد خانوا وقد قال الله : «لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم[1]» [فتاب عليكم] عطف على «علم» أي قبل توبتكم [وعفا عنكم] أي محى أثره عنكم [فالآن] لمّا نسخ التحريم [باشروهنّ] والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة ، كنّي بها عن الجماع الّذي يستلزمها .

[وابتغوا ما كتب الله لكم] واطلبوا ماقدّره الله لكم من الولد وهو أن يجامع الرجل أهله رجاء أن يرزقه ولداً يعبده ، وقيل معناه : اطلبوا ما كتب الله لكم من الاُمور الّتي بيّنه في كتابه ، فإنّ الله يحبّ أن يؤخذ برخصه ، كما يحبّ أن يؤخذ بعزيمته .

[و كلوا واشربوا] إباحة للأكل والشرب [حتّى يتبيّن] ويتميّز [لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود] أي النهار من الليل ، فأوّل النهار طلوع الفجر الثاني وقيل: بياض الفجر من سوادالليل ، و إنّما شبّه و عبّر بالخيط لأنّ القدر الّذي يحرّم الإفطار من البياض يشبه الخيط وهو أوّل مايبدو من بياض النهار كالخيط الممدود دقيقاً ، ثمّ ينتشر .

(١) الانفال : ٢٧ .

و إنّما قال سبحانه : « من الخيط الأسود » لانّه إذا ظهر الخيط الأبيض فذلك الخيط الأبيض معه بقيّة من ظلمة الليل ، و يكون طرفه الملاصق له كأنّه خيط أسود في جنب خيط أبيض و نور الصبح ينشقّ في خلال ظلمة الليل ، فشبّها بخيطين أبيض و أسود [من الفجر] للتبيين لأنّه بيّن الخيط الأبيض الّذي هو الفجر .

و روي أنّ عديّ بن حاتم قال للنبيّ ﷺ : إنّي وضعت خيطين من شعر أبيض و أسود ، فكنت أنظر فيهما فلا يتبيّن لي فضحك رسول الله ﷺ حتّى بدت نواجذه (بالذال المعجمة وهي أقصى الأضراس الأربعة) ثمّ قال : ياابن حاتم إنّما ذلك بياض النهار و سواد الليل فابتدء الصوم من هذا الوقت .

[ثمّ أتمّوا الصيام] أي أديموا الإمساك في جميع أجزاء النهار [إلى الليل] أي ينتهي النهار إلى وقت دخول الليل وعلامة دخوله سقوط الحمرة من جانب المشرق و إقبال السواد منه .

[ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد] قيل : أراد من المباشرة الجماع . وقيل : أراد الجماع و كلّ مادونه من قبلة وغيرها وهو مذهبنا الإماميّة أي والحال أنتم معتكفون في المساجد ، قال الطبرسيّ : والاعتكاف لايصحّ عندنا إلّا في أحد المساجد الأربعة :المسجد الحرام ومسجد النبيّ ﷺ ومسجد الكوفة ومسجد البصرة ، وعند غيرنا يجوز في سائر المساجد إلّا أنّ مالكاً قال : إنّه يختصّ بالجامع ؛ قال الطبرسيّ : و لا يصحّ الاعتكاف عندنا إلّا بصوم وأيضاً عندنا لايكون إلّا في ثلاثة أيّام .

[تلك حدود الله] إشارة إلى الأحكام المذكورة في الآية [فلا تقربوها] أي فلاتأتوها وهو أبلغ من قوله : فلا تعتدوها لأنّه نهي عن قربها فضلاً عن تجاوزها [كذلك] أي بياناً مثل هذا البيان الوافي [يبيّن الله آياته للناس] ونصوص أحكامه [لعلّهم يتّقون] لكي يحترزوا المعاصي . وفي الآية دلالة على أنّ الله تعالى أراد التقوى عن جميع الناس .

وفي الدعاء : أعوذ بالله من الذنوب الّتي تهتك العصم ، قال الصادق ﷺ : هي شرب الخمر واللعب بالقمار وفعل مايضحك الناس من اللهو والمزاح وذكر عيوب الناس ومجالسة أهل الريب .

ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل و تدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم و انتم تعلمون (١٨٨) .

[و لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل] أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالغصب والظلم والوجوه الّتي لاتحلّ . وقيل : المرادمايؤخذ باللهو واللعب ، مثل ما يؤخذ بالقمار والملاهي . وروي عن أبي جعفر عليه السلام : أنّه يعني بالباطل اليمين الكاذبة تقتطع به الأموال . وروي عن الصادق عليه السلام قال : كانت قريش يقامر الرجل في أهله وماله فنهاهم الله .

والآية تشتمل الجميع مثل الرشى وحلوان الكاهن و المغنّي و النائحة والخبلة و وجوه الحرام بينهم كون الأكل بينهم وقوع التداول و التناول ، و ليس المراد نفس الأكل بل شاع في العرف أنواع التصرّفات في الإنفاق بالأكل ، ولأنّ معظم المقصود من المال الأكل وحاصل المعنى : أن لاتأكلوها بالسبب الباطل .

[وتدلوا بها إلى الحكّام]وتلقوا الأموال إلى القضاة ، عطف على المنهيّ عنه فيكون مجزوماً بلا الناهية المذكورة بواسطة العاطف ، قيل : إنّه الودائع ومالايقوم عليه بيّنة ، فتراجعون فيها إلى الحكّام ، فتحلفون كاذبين وتأكلون الوديعة . وقيل : إنّه مال اليتيم في يد الأوصياء وأنّهم يدفعونه إلى الحكّام إذا طولبوا به ليقطعوا بعضه وتقوم لهم في الظاهر حجّة . وقيل : مايؤخذ بشهادة الزور والأولى الجميع .

[لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم] : وذلك الأكل بسبب وسيلة التحاكم إليهم وتجعلون هذه الوسيلة سبباً لأن تأكلوا بعض أموال الناس بالباطل ، وبالفعل الّذي يوجب الإثم أو أن يحكم الحاكم بالظاهر وكان الأمر في الواقع بخلافه .

[وأنتم تعلمون] أنّ ذلك الفريق من المال ليس بحقّ لكم ، أو أن تراجعوا إلى حكّام مبطلين يأخذون منكم الرشى ويحكمون لكم ماليس لكم وأنتم تأخذونه وتأكلون ذلك المال .

قال أبوعبدالله عليه السلام علم الله أنّه سيكون في هذه الأمّة حكّام يحكمون بخلاف الحقّ ، فنهى سبحانه المؤمنين أن يتحاكموا إليهم وهم يعلمون أنّهم لايحكمون بالحقّ .

في عقاب الأعمال عن الصادق عليه السلام قال : قال علي عليه السلام : إنّ في جهنّم رحى تطحن

العلماء الفجرة والقرّاء الفسقة والجبابرة الظلمة والوزراء الخونة والعرفاء الكذبة و العلماء والقضاة الّذين خالف عملهم قولهم يمضغون ألسنتهم يوم القيامة قال النبيّ ﷺ : أبغضكم إليّ الثرثارون أي كثير الكلام من غير حاجة . قال ﷺ الّذين يجورون في الحكم يحشرون يوم القيامة عمياً .

قال النبيّ ﷺ يحشر أصناف من اُمّتي أشتاتاً ، ميّزهم الله وبدّل صورهم ، فبعضهم بصورة القردة وبعضهم بصورة الخنازير وبعضهم منكّسون أرجلهم فوق رؤوسهم يسحبون عليها و بعضهم عمي وبعضهم صم بكم وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلات على صدورهم ، يسيل القيح من أفواههم ، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف وبعضهم ملبّسون ثياباً سابغه[1] من قطران لازقة بجلودهم ، فأمّا الّذين بصورة القردة : القتّات ، والخنازير : أهل السحت ، والمنكّسون : أكلة الربا ، والعمي : الجائرون في الحكم ، والصمّ والبكم : المعجبون بأعمالهم ، والماضغون ألسنتهم : العلماء الّذين خالف عملهم قولهم ، والّذين قطعت أيديهم وأرجلهم : الّذين يؤذون الجيران ، وأمّا المصلّبون : السعاة بالناس إلى السلطان ، والّذين أشدّ نتناً من الجيف : الّذين يتّبعون الشهوات ويمنعون حقّ الله في أموالهم والّذين يلبسون ثياباً من نار : فأهل الكبر والخيلاء والفخر .

قوله : يسئلونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس و الحج وليس البر بأن تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من ابوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٨٩) .

«الأهلّة» جمع هلال واشتقاقه من استهلّ الصبيّ أو بكى وصاح حين يولد ، والهلال حين يرى يهلّ الناس و يرفعون أصواتهم بذكره و لذلك يسمّى الهلال هلالاً .

روي أنّ معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريّ قالا : يارسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثمّ يزيد حتّى يمتلىء ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود كما بدأ أو لا ؟ فأنزل الله الآية :

[قل هي] أي الأهلّة [مواقيت] جمع ميقات من الوقت والفرق بين الوقت وبين المدّة والزمان أنّ المدّة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها والزمان مدّة مقسومة

(١) كذا في الأصل .

إلى الماضي و الحال و المستقبل ، والوقت الزمان المفروض لأمر [للناس] أي لما يتعلّق بهم من اُمور معاملاتهم ومصالحهم [والحج] واُموره المتعلّقة بأوقات مخصوصة ودبّر هذا التدبير سبحانه في تغيّر القمر بهذه الكيفيّة لأنّه علّق به مواقيت اُمورهم فتعرف المواقيت ؛ بهذه الاختلافات لحاجة الناس إلى ذلك .

[وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها] لمّا بيّن سبحانه أنّ الأهلّة مواقيت للناس والحجّ وكان عادتهم أي الأنصار إذا أحرم الرجل منهم بالحجّ والعمرة لم يدخل حائطاً ولا داراً من بابه فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته يدخل منه ويخرج أو يتّخذ سلّماً فيصعد منه وإن كان من أهل الوبر خرج من ظهر الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتّى يحلّ من إحرامه فعطف سبحانه على ما قبله بأنّه كما أنّ اُمور كم مقدّرة بأوقات الأهلّة فليكن أفعالكم في الحجّ على الاستقامة بما أمركم الله به فقال : وليس البرّ هذا الأمر . و قيل في الآية معنى آخر و هو أنّ المراد ليس البرّ أن تأتوا الاُمور من غير جهاتها و ينبغي أن تأتوا الاُمور من جهاتها أيّ الاُمور كان و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

[ولكنّ البرّ من اتّقى وأتوا البيوت من أبوابها] مرّ معناه قال أبو جعفر عليه السلام : آل محمد صلى الله عليه وآله أبواب الله وسبيله والدعاة إلى الجنّة والقادة إليها والأدلّاء عليها إلى يوم القيامة قال النبيّ صلى الله عليه وآله : أنا مدينة العلم وعليّ بابها ولا يؤتى المدينة إلّا من بابها [واتّقوا الله] في تغيير أحكامه [لعلّكم تفلحون] لكي تظفروا بالبرّ والهدى فمدخل الوصول والورود إلى رضى الله باب التقوى .

قوله تعالى : وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين(١٩٠).

هذه الآية أوّل آية نزلت في القتال بالمدينة فلمّا نزلت كان صلى الله عليه وآله يقاتل من قاتله ويكفّ عمّن يكفّ عنه ، قال ابن عبّاس وجماعة : إنّ هذه الآية بعد الحديبية وذلك أنّ بعد ما وقع صلح الحديبية وكان العام المقبل يجهّز النبيّ وأصحابه إلى مكّة خافوا أن لا تفي قريش على معاهدتهم وأن يصدّوهم عن البيت كما صدّوهم عام الأوّل و يقاتلوهم و

كره النبيّ ﷺ قتالهم في الشهر الحرام فأنزل الله هذه الآية و بيّن أمر الجهاد فقال مخاطباً للمؤمنين :

[وقاتلوا] مع الكفّار [في سبيل الله] أي دين الله [الّذين يقاتلونكم] من الكفّار [ولا تعتدوا] ولا تجاوزوا من قتال من هو أهل القتال أو لا تعتدوا بقتال من لا يبدؤكم بقتال [إنّ الله لا يحبّ المعتدين] .

واختلف في الآية هل هي منسوخة أم لا ، قيل : منسوخة ، قال ابن عبّاس و مجاهد : غير منسوخة بل هي خاصّة في النساء والذراري . وقيل : الآية أمر بقتال أهل مكّة .

قوله تعالى : واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) .

بيّن كيفيّة القتال مع الكافرين فقال : [واقتلوهم حيث وجدتموهم] في الحلّ أو الحرم وفي الشهر الحرام وغيره لأنّهم هتكوا الحرمة أوّلاً وبدؤوكم فجازوهم بمثله . وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً وعملاً [وأخرجوهم من حيث أخرجوكم] أي أخرجوهم من مكّة كما أخرجوكم منها لأنّهم أخرجوا المسلمين منها أوّلاً فأخرج ﷺ منها ثانياً من لم يؤمن به منهم يوم الفتح [والفتنة أشدّ من القتل] أي شركهم بالله و برسوله أعظم من القتل في الشهر الحرام و سمّي الكفر فتنة لأنّه يؤدّي إلى الهلاك كما أنّ الفتنة يؤدّي إلى الهلاك .

[ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يقاتلوكم فيه] ويبدؤوكم بالقتال [فإن قاتلوكم] وبدؤوكم [فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين] أي مثل ذلك الجزاء جزاء الكافرين يفعل بهم [فإن انتهوا] عن القتال و كذا عن الكفر فإنّ الإنتهاء عن مجرّد القتال لا توجب استحقاق المغفرة فضلاً عن استحقاق الرحمة [فإنّ الله غفور رحيم] يغفر لهم ما قد سلف فتدارك ما قد سلف .

قال الطبرسيّ : وفي الآية دلالة على أنّه يقبل توبة القاتل عمداً لأنّه تعالى يقبل توبة المشرك والشرك أعظم من القتل .

قوله تعالى : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله فان انتهوا فلاعدوان الا على الظالمين(١٩٣) .

بيّن سبحانه فائدة وجوب القتال فقال : [وقاتلوهم حتّى لاتكون فتنة] أي شرك عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام «والدين» بمعنى الطاعة و بمعنى الإسلام وبمعنى العادة ، والشريعة يجب أن يجري فيها على عادة مستمرّة [فإن انتهوا] عن الكفر وصار الدين دين الإسلام [فلا عدوان إلّا على الظالمين] أي لاعقوبة عليهم و إنّما العقوبة على المقيمين على الكفر فسمّي القتل عدواناً من حيث كان عقوبة على العدوان والظلم .

وهذه الآية ناسخة للأُولى الّتي تضمّنت النهي عن القتال في المسجد الحرام حتّى يبدؤوا بالقتال فيه ؛ لأنّ فيها إيجاب قتالهم على كلّ حال حتّى يدخلوا في الإسلام . وقيل : المراد من هذه الآية أنّهم إذا ابتدؤوا بالقتال في الحرم يجب مقاتلتهم حتّى يزول الكفر . والأوّل أولى .

الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم فاتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين (١٩٤)

«الحرام» هو القبيح الممنوع من فعله و«الحلال» المطلق المأذون فيه ، و إنّما سمّي بالشهر الحرام لأنّه كان عندهم يحرم القتال في هذه الأشهر الأربع وهي ثلاثة سرد ذوالقعدة و ذوالحجّة ومحرّم وشهر فرد وهو رجب حتّى لو أنّ رجلاً لقى قاتل أبيه وأخيه لم يتعرّض له بسوء .

قوله : [الشهر الحرام] يقابل [بالشهر الحرام] في هتك الحرمة لأنّ المشركين صدّوا النبيّ صلّى الله عليه وآله والمسلمين عام الحديبيّة في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة وقد وقع بين القوم ترامي بسهام وحجارة واتّفق أيضاً عام المقبل خروج النبيّ وأصحابه لعمرة القضاء فيسنة سبع من الهجرة و كرهوا أن يقاتلوهم لحرمته فنزلت الآية هذا الشهر الحرام بذلك الشهر وهتكه بهتكه فلا تبالوا به إن وقع أمرٌ .

[والحرمات قصاص] أي من هتك حرمة أيّ حرمة كانت فلا يجوز إستحلالها إلّا على المقاصّة والمجازاة فإنّ مراعات الحرمات إنّما تجب في حقّ من يراعيها وأمّا هتكها

فإنّه يقتصّ منه . وعلى قول أنّ المراد «من الحرمات» تكون قصاص بالمراغمة بدخول البيت فجمع «الحرمات» باعتبار حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة الإحرام .

قال الحسن : إنّ مشركي العرب قالوا لرسول الله : أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام قال نعم ، وإنّما أراد المشركون أن يقاتلوه في الشهر الحرام إذ كان هو صلّى الله عليه وآله ممنوعاً عن القتال فأنزل الله الآية . وحاصل المعنى أنّهم لمّا هتكوا حرمة شهركم بالصدّ عام الحديبيّة وقصدهم التعرّض للقتال معكم فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فإن قتلوكم فاقتلوهم .

[فمن اعتدى عليكم] وتجاوز عن حدّه [فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم] أي بعقوبة مماثلة لجناية إعتدائه على سبيل المقاصّة وهو اعتداء مادون فيه لا على سبيل الابتداء فإنّه ظلم حرامٌ [واتّقوا الله] إذا انتصرتم بمن ظلمكم فلا تظلموهم بأخذ أكثر من حقكم ولا تعتدوا إلى مالم يرخّص لكم .

[واعلموا أنّ الله مع المتّقين] والمراد من «المعيّة» القرب المعنوي أي يصلح شؤونهم بالنصر والتمكين والمثوبات .

وانفقوا في سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة و احسنوا ان الله يحب المحسنين(١٩٥) .

أمر سبحانه في الآية السابقة بالجهاد وفي هذه الآية ببذل المال في سبيله ليظهر من يدّعي محبّة الله وإنّهما معيار المحبّة الإلهيّة لأنّ أحدهما بذل الوجود والآخر حبّ المال فامتحن الله عباده بهذين قطعاً لدعوى المدّعين وهذا هو السرّ في الجهاد و الزكاة فقال :

[وأنفقوا في سبيل الله] أي اصرفوا من أموالكم في وجوه مصالح الدين و في الطريق المؤدّي إلى ثواب الله ورحمته من إقامة الحجّ أو جهاد الكفّار وتقوية الضعفاء أو رعاية أهل الدين [ولا تلقوا] ولا تطرحوا أنفسكم إلى الهلاك والمراد من «الأيدي» الأنفس فإنّ اليد لازم للنفس و أكثر الأعمال يظهر بمباشرة اليد فكأنّها هي العمدة ، والباء زائدة في المفعول به وفي الأغلب مثل هذه المورد يؤتى بها قال الشاعر :

ولقد ملأت على نصيب جلده بمساءة إنّ الصديق يعاتب

و قيل : ليست الباء زائدة لأنّ معنى الآية لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم فكيف تكون زائدة .

قيل في معناه : وجوه أحدها لاتهلكوا أنفسكم بأيديكم بترك الإنفاق في سبيل الله فيغلب عليكم العدوّ عن ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين . والوجه الآخر أي لاتركبوا المعاصي باليأس عن المغفرة عن البراء بن عازب وعبيدة السلمانيّ . والوجه الآخر في معنى الآية لا تقتحموا الحرب من غير نكاية العدوّ ولا قدرة لكم على دفاعهم. والوجه الرابع ولا تسرفوا في الإنفاق الّذي يوجب هلاك النفس . ويقرب منه ماروي عن أبي عبدالله لو أنّ رجلاً أنفق ما في يده في سبيل الله ماكان أحسن ولا رفق لقوله تعالى : « و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكه»

[وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين] أي تفضّلوا على الفقراء .

قوله تعالى : واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى ولاتحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام او صدقة او نسك فاذا امنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب (١٩٦) .

بيّن سبحانه فرض الحجّ والعمرة على العباد بعد بيانه فريضة الجهاد فقال :

[وأتمّوا الحجّ والعمرة] أي أتمّوهما بحدودهما ومناسكهما ففرض على من استطاع وتمكّن والمعنى أقيموهما إلى آخر ما فيهما من الأحكام [لله] أي أقصدوا بهما التقرّب إلى الله ، والعمرة واجبة عندنا مثل الحجّ وعند الشافعيّ أيضاً واجبة خلافاً لأبي حنيفة فإنّها عنده سنّة .

وأركان أفعال الحجّ : النيّة والإحرام والوقوف بالمشعر وطواف الزيارة والسعي بين الصفا و المروة وأمّا الفرائض الّتي ليست بأركان : التلبية وركعتا الطواف له وطواف النساء وركعة الطواف له ، وأمّا المسنونات فمذكورة في كتب الفقه .

وأركان العمرة : النيّة والإحرام وطواف الزيارة والسعي و أمّا ما ليس بركن من فرائضها فالتلبية وركعة الطواف له وطواف النساء وركعة الطواف له . وأمّا المتمتّع بالحجّ هو أن يعمر في أشهر الحجّ ثمّ يحلّ وتمتّع بالإحلال بأن يفعل ما يفعل المحلّ ثمّ يحرم

بالحجّ من غير رجوع إلى الميقات فهو إحلال بين إحرامين . ويجب حجّ التمتّع على من هو ناء عن مكّة بستّ عشر فرسخاً ، وحجّ القران والإفراد يجب على من هو من أهل مكّة أو مكانه يكون أقلّ من المسافة المذكورة مثل أن يكون مكانه عشرة فراسخ إلى مكّة مثلاً مسافة .

قال صاحب تفسير روح البيان : و أمّا صورة القران أن يحرم بالحجّ و العمرة معاً بأن ينويهما بقلبه ويأتي بمناسك الحجّ أو يحرم بالعمرة ثمّ يدخل عليها الحجّ قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارناً ، وأمّا صورة الإفراد أن يحرم بالحجّ مفرداً ثمّ بعد الفراغ منه يعتمر من الحلّ أي الّذي بين المواقيت وبين الحرم إنتهى كلامه .

قوله تعالى : [فإن اُحصرتم فمااستيسر من الهدي] أي منعتم وصددتم عن الوصول إلى البيت من خوف أو مرض أو عدوّ فامتنعتم لذلك عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن أئمّتنا . و قيل : معناه إن منعكم قاهر عابس فعليكم ماسهل وتيسّر من الهدي إذا أردتم الإحلال .

«والهدي» ما يهدى إلى البيت تقرّباً إلى الله أيسره شاة وواسطه بقرة وأعلاه بدنة ويسمّى هدياً لأنّه جار مجرى الهديّة الّتي يهديها العبد إلى ربّه .

وحاصل المعنى أنّ المحرم إذا اُحصر ومنع و أراد أن يتحلّل ، يحلّل بذبح هدي تيسّر عليه في أيّ موضع اُحصر على قول مالك واستدلّ بأنّ النبيّ نحر هديه بالحديبيّة وأمر أصحابه كذلك وليست الحديبيّة من الحرم . وقيل : إنّ محلّ الهدي الحرم فإذا ذبح به يوم النحر أحلّ . لكن على مذهبنا الإماميّة أنّ المحصر إذا كان بالمرض فلا بدّ وأن يذبح بالحرم وإذا اُحصر بالعدوّ فأينما اُحصر ، ثمّ إن كان الإحرام بالحجّ فمحلّه منى يوم النحر و إن كان الإحرام بالعمرة محلّه مكّة .

[ولا تحلقوا رؤوسكم حتّى يبلغ الهدي محلّه] أي لا تتحلّوا من إحرامكم حتّى ينحر ويذبح هديكم في محلّه [فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه] **أي** من مرض منكم مرضاً محتاج فيه إلى الحلق أو تأذّى بهوامّ رأسه اُبيح له الحلق بشرط الفدية . نزلت في رجل يقال له كعب بن عجرة قد قمّل رأسه [ففدية] فحلق لذلك العذر فعليه بدل و جزاء يقوم مقام ذلك [من صيام أو صدقة أو نسك] المرويّ عن أئمّتنا أنّ الصيام ثلاثة أيّام والصدقة على ستّة

مساكين وروي على عشرة مساكين «والنسك» شاة وهومخيّر فيها .

[فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ فما استيسر من الهدي] أي استمتع و أدّى الفرض اللازم من العمرة ، والتمتّع بالعمرة إلى الحجّ هوأن ينشىء الإحرام في أشهر الحرم ثمّ يدخل إلى مكّة فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ويقصّر ويحلّ من إحرامه ثمّ ينشىء إحراماً آخر للحجّ من المسجد الحرام ويخرج إلى عرفات ثمّ يفيض إلى المشعر ويأتي بأفعال الحجّ على ما هومذكور في كتب الفقه ، وفي بعض ذلك خلاف في الجملة بين الفقهاء ليس ههنا موضع ذكره ، والهدي واجب على المتمتّع بلاخلاف لظاهر التنزيل لكنّ الخلاف في أنّه نسك أوجبران وعندنا أنّه نسك .

[فمن لم يجد] دماً وما تمكّن منه [فعليه صيام ثلاثة أيّام في الحجّ] و هذه الثلاثة يوم قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة و إن صام في أوّل العشرجاز رخصة و إن صام يوم التروية ويوم عرفة قضى يوماً آخر بعد إنقضاء أيّام التشريق وإن فاته صوم يوم التروية أيضاً صام الأيّام الثلاثة بعد أيّام التشريق متتابعات [وسبعة إذا رجعتم] أي وسبعة أيّام إذا رجعتم إلى بلدكم وأهاليكم . وقيل : إذا رجعتم من منى فصوموا في الطريق عن مجاهد ، والأوّل هو الصحيح عندنا .

[تلك عشرة كاملة] أي هذه العشرة إذا وقعت بدلاً من الهدي إستكملت ثوابه وهذا المعنى هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام . وقيل : المرادمن قوله : «كاملة» لإزالة الإبهام لئلا يتوهّم أنّ الواو في الآية بمعنى «أو» فيكون كأنّه قال : فصيام ثلاثة أيّام في الحجّ أو سبعة أيّام إذا رجعتم لأنّه إذا استعمل « أو » بمعنى الواو جاز أن يستعمل الواو بمعنى «أو» كما قال : «فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع[١]» قالوا : الواو ههنا بمعنى «أو» فذكر ذلك لإرتفاع اللبس . و قيل : إنّه إنّما قال : «كاملة» للتوكيد .

[ذلك لمن لم يكن أهله حاضر المسجد الحرام] أي هذا الحكم المذكور من التمتّع بالعمرة إلى الحجّ حسبما شرح ليس لأهل مكّة ومن يجري مجراهم وإنّما هو لمن لم يكن من حاضرى مكّة وأطرافها وهو من يكون بينه و بينها أكثر من اثني عشر ميلاً من كلّ

---

(١) النساء : ٣ .

جانب عندنا [واتّقوا الله] فيما يأمركم به وينهاكم عنه [واعلموا أنّ الله شديد العقاب] لمن عصاه .

الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولي الالباب (١٩٧) .

قرىء «رفث» و «فسوق» و«جدال» بالفتح . وقرأ أبوجعفر عليه السلام بالرفع والتنوين .

[الحجّ] بحذف المضاف أي وقت الحجّ لأنّ الحجّ فعل و الفعل لا يكون أشهراً أي لاحجّ إلّا في هذه الأشهر فوقته معيّنة لايجوز فيها التغيير والتبديل بالتقديم والتأخير اللذين كان يفعلهما النساة الّذين اُنزل فيهم « إنّما النسيء زيادة في الكفر[1] » .

وأشهر الحجّ ووقته شوّال وذوالقعدة وعشر من ذي الحجّة ولا يصحّ الإحرام بالحجّ إلا فيها وعندنا لايصحّ أيضاً الإحرام بالعمرة الّتي يتمتّع بها إلى الحجّ إلّا فيها والاثنين قد يقع عليه لفظ الجمع وأيضاً يضاف الفعل إلى الوقت وإن وقع في بعضه تقول : صلّوا يوم الجمعة ، والصلاة واقعة في بعضه .

[فمن فرض فيهنّ الحجّ] أي أحرم فيهنّ وشرع ودخل فيهنّ بالحجّ أو بالعمرة الّتي يتمتّع بها إلى الحجّ مثل التلبية أو تقليد الهدي مثلاً أو أمراً من اُموره [فلارفث] كنّي عن الرفث بالجماع، وقيل : المراد الجماع ومادونه كالقبلة والغمز والتعرّض لمثل هذه الاُمور بمداعبة أو مواعدة [ولافسوق] المراد الكذب وقيل : جميع معاصي الله وقيل : التنابز بالألقاب [ولا جدال] أي لجاج وخصومة ومراء لايكون إذا دخل المحرم في آداب الحجّ و العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ . والكلام وإن كان بصورة النفي والإخبار إلّا أنّ المراد منه النهي و الإنشاء لأنّ إيقاعها خبراً على ظاهرها يستلزم الخلف في خبر الله لأنّها يقع في خلال الحجّ ، وإنّما اُخرج الكلام على صورة الإخبار للمبالغة في وجوب الإنتهاء عنه كأنّ المكلّف مذعن بأنّها منهيّاً عنها فاجتنب عنها .

وإنّما أمر باجتناب الفسوق والجدال في الحجّ وهو واجب الإجتناب في كلّ حال

---

(١) التوبة : ٣٧ .

لأنّه مع الحجّ أقبح وأشنع كلبس الحرير في الصلاة والتطريب في قراءة القرآن .

[وما تفعلوا من خير يعلمه الله] كناية عن إثابته عليه وحثّ على فعل الخير .

[وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى] أي اجعلوا زاد كم لمعاد كم إتّقاء القبائح لاما يتّخذ من الطعام وذلك لأنّ زاد الدنيا يخلصك من إحتياج الدنيا وعذاب منقطع وزاد الآخرة ينجّيك من عذاب دائم ، وقيل في معنى الآية : وجه آخر وهو أنّ أهل اليمن كانوا لايتزوّدون ويخرجون إلى الحجّ بغير زاد ويقولون : نحن متوكّلون ونحن نحجّ البيت أفلا يطعمنا فيكونون كلاً على الناس وإذا قدموا مكّة سألوا الناس وربّما يفضي بهم الحال إلى التطاول والنهب و الغصب فأمر الله تزوّدوا ما تبتلغون به وتكفّون به وجوهكم من الكعك والزيت والسويق و التمر ونحوها واتّقوا الاستطعام و إبرام الناس والتثقيل عليهم [فإنّ خير الزاد التقوى] من السؤال والنهب .

[واتّقون يا أُولي الألباب] فإنّ اقتضاء اللبّ والعقل خشية الله وعدم عصيانه .

قوله تعالى : ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هديكم وان كنتم من قبله لمن الضالين (١٩٨) .

«الجناح» الحرج في الدين وهو الميل عن الطريق المستقيم أي ليس عليكم إثم ولا بأس في أن تقصدوا وتطلبوا رزقاً وربحاً بالتجارة في الحجّ وكانوا يتأثّمون بالتجارة في الحجّ فنزلت أنّه لا إثم في هذا الأمر بشرط أن لاتكون التجارة منافية للإخلاص لقوله : «وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» [1].

[فإذا أفضتم من عرفات] الهمزة في أفضتم للتعدية والمفعول محذوف أي دفعتم أنفسكم منها ودفعتم من عرفات إلى المزدلفة بالاجتماع والكثرة ، والإفاضة لاتكون إلّا عن تفرّق عن كثرة .

و «عرفات» إسم للمكان المعروف بحسب الوقوف بها في الحجّ وسمّيت بها لأنّ آدم وحوّا اجتمعا فيها فتعارفا بعد أن كانا افترقا . وقيل : سمّيت بعرفات لإرتفاعها وعلوّها و

---

(١) البينة : ٥ .

منه عرف الديك . وقيل : في وجه التسمية بعرفة لأنّ إبراهيم لمّا رأى في المنام أنّه أُمر بذبح ولده فأصبح يروّي يومه أجمع ويفكّر أهو أمرٌ من الله أم لا؟ فسمّي يوم التروية ثمّ رأى في الليلة الثانية فلمّا أصبح عرف أنّه من الله فسمّي عرفة . وقيل : إنّ جبرئيل قال لآدم : هناك اعترف بذنبك واعرف مناسكك فقال : «ربّنا ظلمنا أنفسنا[1]» الآية فلذلك سمّيت عرفة ، والمشعر الحرام هو المزدلفة سمّيت مشعراً لأنّه معلم للحجّ والصلاة والمبيت به .

«والشعائر» العلامات من الشعار وهو العلامة وإنّما سمّي المشعر مزدلفة ؛ لأنّ جبرئيل قال لإبراهيم بعرفات : ازدلف إلى المشعر الحرام .

[فاذكروا الله عند المشعر الحرام] وفي هذا دلالة على أنّ الوقوف بالمشعر فريضة لأنّ ظاهر الأمر على الوجوب وقد أوجب الله الذكر فيه ولا يجوز أن يوجب الذكر فيه إلاّ وقد أوجب الكون فيه وحاصل الكلام: إذا أفضتم من عرفات فكونوا بالمشعر واذكروا الله فيه بالتلبية والتهليل والتسبيح والتحميد والثناء والدعوات ، ووصفه بالحرام لحرمته فلا يفعل فيه ما نهي عنه .

[واذكروه كما هداكم] كما علّمكم كيف تذكرونه على وجه التضرّع والخيفة والطمع . و المقصود من الكاف التقييد لا التشبيه أي اذكروه على الوجه الّذي هداكم إليه ولا تعدلوا عمّا هديتم إليه كما تقول : افعل كما علّمتك . وليس هذا تكراراً لقوله : « فاذكروا الله عند المشعر الحرام » لأنّ الأوّل لبيان محلّ الذكر والوقوف وتعليم النسك لذلك المحلّ .

[وإن كنتم من قبله] و«إن» مخفّفة واللام هي المفارقة ، من قبل هدايته إيّاكم وقيل : أي من قبل محمّد ﷺ فتكون الهاء كناية عن غير مذكور [لمن الضالّين] عن الدين و الشريعة فهداكم إليه .

ثم افيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم(١٩٩)

قيل : إنّ المراد به الإفاضة من عرفات وإنّه أمر لقريش و حلفائها و هم الخمس لأنّهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفة ولا يفيضون منها ويقولون : نحن أهل حرم الله فلا

---

(١) الاعراف : ٢٣ .

نخرج منه و كانوا يقفون بالمزدلفة ويفيضون منها فأمرالله بالوقوف بالعرفة والإفاضة منها كما يفيض الناس والمراد بالناس سائر العرب وهو المروي عن الباقر عليه السلام وجماعة مثل ابن عبّاس وعطاوانّه تعالى أمر لجميع الحاجّ أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم ولمّا كان إبراهيم قدوة وإماماً للناس كان بمنزلة الأمّة فسمّاه الله ناساً وحده . والقول الثاني في معنى الآية أنّ المراد به الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمي والنحر وقيل أقوال أُخر في معنى الناس ؛ قالوا : المراد آدم و قيل : المراد أهل اليمن و قيل : العلماء الّذين يعلّمون الناس .

[واستغفروا الله] واطلبوا المغفرة منه [إنّ الله غفور رحيم] كثير المغفرة والرحمة وينبغي أن يجتهد الحاجّ بعد رجوعه إلى وطنه وبعد أن نظفت صحيفة عمله من الذنوب بالغفران أن لا يدرن ثوبه بوسخ المعاصي .

في تفسير روح البيان : وفي الحديث إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلاّ الوقوف بعرفات . وفي الحديث : أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظنّ أنّ الله لا يغفر له .

فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا و ماله فى الاخرة من خلاق (٢٠٠) .

أي إذا أدّيتم وفرغتم من أداء أفعال الحجّ وأتممتم عباداتكم الّتي اُمرتم بها [فاذكروا الله كذكركم آباءكم] واختلف في «الذكر» على قولين أحدهما أنّ المراد التكبير المختصّ بأيّام منى لأنّه الذكر المرغّب فيه المندوب في هذه الأيّام و الآخر أنّ المراد مطلق الأدعية مثل [ذكركم آباءكم] وذلك لأنّهم كانوا في الجاهليّة إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد والجبل وهو قزح اسم جبل بالمشعر ويذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيّامهم القديمة فأمرهم الله أن يذكروه مكان ذكرهم آباءهم في هذا الموضع .

[أو أشدّ ذكراً] ويزيدون على ذلك بأن يذكروا نعم الله ويعدّوا آلاءه ويشكروا نعماءه لأنّه تعالى هو المنعم حقيقة بتلك المآثر وقيل : معناه فاستغيثوا بالله والتجئوا إليه كما يفزع الصبيّ إلى أبيه في جميع أوقاته و اُموره ويلهج بذكره فيقول : يا أبتاه الأوّل أصحّ .

[فمن الناس من يقول ربّنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق] بيّن سبحانه

أنّ الناس في تلك المواطن أصناف فمنهم من يسأل نعيم الآخرة لأنّه غير مؤمن بالبعث والنشور وماله في الآخرة من نصيب .

ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الاخرة حسنة و قنا عذاب النار (٢٠١) .

ومن الناس أي المؤمنين يطلبون نعيم الدنيا والآخرة وروي عن الصادق عليه السلام أنّها السعة في الرزق والمعاش وحسن الخلق في الدنيا ورضوان الله والجنّة في الآخرة . وقيل : العلم والعبادة في الدنيا والجنّة في الآخرة . وقيل : هي المال في الدنيا والجنّة في الآخرة . وقيل : هي المرأة الصالحة في الدنيا وفي الآخرة الجنّة . قال النبيّ صلى الله عليه وآله : من اُوتي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجةً مؤمنةً تعينه على أمر دنياه وآخرته فقد اُوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [وقنا عذاب النار] ويطلبون الوقاية عن عذاب جهنّم .

اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب (٢٠٢) .

إشارة إلى الفريق الثاني وهم الداعون بالحسنيين لهم حظّ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة أو من أجل ما كسبوا بسبب أعمالهم فيكون « من » ابتدائيّة [والله سريع الحساب] و«الحساب» يراد به الجزاء على الأعمال فإنّ الحساب سبب الأخذ والإعطاء وإطلاق اسم السبب على المسبّب شايع أي يحاسب العباد على كثرة أعمالهم في لمحة واحدة لعدم احتياجه إلى نظر وفكر فليحذر الإنسان من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته ويوشك أن تقوم القيامة ويحاسب بعمله .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف المؤونة ذو حظّ من الصلاة ، أحسن عبادة ربّه وأطاعه في البرّ ، وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ثمّ نقر بيده فقال : هكذا عجلت منيّته قلّت بواكيه و قلّ تراثه .

قوله تعالى : و اذكروا الله في ايام معدودات فمن تعجل في يومين فلاائم عليه و من تاخر فلاائم عليه لمن اتقى واتقوا الله و اعلموا انكم اليه تحشرون (٢٠٣) .

هذا أمرٌ من الله للمكلّفين أن يذكروه في أيّام معدودات وهي أيّام التشريق ثلاثة أيّام بعد النحر . والأيّام المعلومات عشر ذي الحجّة ، عن ابن عبّاس وأكثر أهل التفسير وهو المرويّ عن أئمّتنا لكنّ الفرّاء قال بالعكس .

والذكر المأمور به في الآية هو أن يقول : عقيب خمس عشر صلاة : « الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله و الله أكبر الله أكبر ولله الحمد الله أكبر على ما هدانا و الحمد لله على ما أولانا والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام» وأوّل التكبير عندنا عقيب الظهر من يوم النحر وآخره عقيب صلاة الفجر من اليوم الرابع من النحر هذا لمن كان بمنى ، ومن كان بغير منى من الأمصار يكبّر عقيب عشر صلاة أوّلها صلاة الظهر من يوم النحر أيضاً هذا هو المرويّ عن الصادق عليه السلام وفي ذلك اختلاف بين الفقهاء .

[فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه] أي استعجل وطلب الخروج من منى في تمام يومين بعد يوم النحر ، وفي الآية بيان الرخصة في جواز النفر في اليوم الثاني من أيّام التشريق والأفضل أن يقيم إلى النفر الأخير وهو الثالث من التشريق وإذا نفر في الأوّل نفر بعد الزوال إلى غروب الشمس ؛ فإن غربت فليس له أن ينفر إلى اليوم الثالث « فلا إثم عليه» فيه قولان :

احدهما أنّ معناه لا إثم عليه بعد إعمال هذه الأعمال ؛ لأنّ سيّئاته صارت مكفّرة بما كان من حجّه المبرور وهو قول ابن مسعود .

والثاني أنّ معناه لا إثم عليه في التعجيل والتأخير وإنّما نفى الإثم لئلّا يتوهّم أنّ في التعجيل إثماً .

[لمن اتّقى] فيه قولان أحدهما أنّ الحجّ يقع مبروراً يكفّر السيّئات إذا اتّقى مانهى الله عنه ، والآخر مارواه أصحابنا أن قوله : « لمن اتّقى » متعلّق بالتعجيل في يومين وتقديره : فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه لمن اتّقى الصيد و المناهي إلى انقضاء النفر الأخير وما بقي من إحرامه و من لم يتّق المناهي فلا يجوز له النفر في الأوّل وقد روي أيضاً عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله : « فمن تعجّل في يومين» أي من مات في هذين اليومين فقد كفّر عنه كلّ ذنب ومن تأخّر أجله فلا إثم عليه إذا اتّقى الكبائر [واتّقوا الله] أي اجتنبوا المعاصي [واعلموا أنّكم إليه تحشرون] وبعد موتكم تجمعون إلى الموضع الّذي يحكم الله فيه بينكم فينبغي أنّكم حال الاشتغال بأعمال الحجّ وبعده تحترزون عن معاصي الله ليعتدّ بأعمالكم فإنّ المعاصي يأكل الحسنات عند الموازنة فإن علم بالحشر

و المحاسبة كان ذلك من أقوى الدواعي إلى ملازمة التقوى وكانوا إذا رجعوا من الحجّ يجترئون على الله بالمعاصي فشدّد في تحذيرهم.

قال أبو العالية : يجيء الحاجّ يوم القيامة ولا إثم عليه إذا اتّقى فيما بقي من عمره فلم يرتكب ذنباً بعد ماغفرله في الحجّ لكنّ المذنب المصرّ إذا حجّ فلايقبل منه لعوده إلى ما كان عليه فعلامة الحجّ المبرور أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة كماحجّ إبراهيم أدهم مع رفيقه الصالح من بلخ ولمّا رجع من حجّه زاهداً في الدنيا راغباً في الآخره وخرج عن ملكه و ماله وأهله وعشيرته و بلاده وقطع العلائق واختار بلادالغربة وقنع بالأكل من عمل يده إمّا من الحصاد أو من بطارة البساتين ، وكيف لاوالحرّ الكريم لاينقض العهد القديم ؟ وممّا يجب على الحاجّ اتّقاؤه المحارم وأن يجعل نفقته من كسب الحرام فإنّ الله لايقبل إلّا الطيّب إذا حججت بمال أصله دنسٌ فما حججت ولكن حجّت العير .

وفي الحديث من حجّ بيت الله من كسب الحلال لم يخطّ خطوة إلّا كتب الله له بها سبعين حسنة وحطّ عنه سبعين خطيئة و رفع له سبعين درجة .

و حكي بعض من حجّ أنّه توفّي في الطريق في رجوعه فدفنه أصحابه و نسوا الفأس في قبره فنبشوه ليأخذوا الفأس فإذاً عنقه و يداه قد جمعتا في حلقة الفأس فردّوا عليه التراب ثمّ رجعوا إلى أهله فسألوهم عن حاله فقالوا : صحب رجلاً فأخذ ماله فكان يحجّ منه .

والأولى له أنّه إذا أراد أن يحجّ بعد تصفية أمواله من حقوق الله وحقوق الخلق وإصلاح أُمور دينه بالتدارك والتوبة أن يستدين للحجّ نفقته ثمّ يقضي دينه من ماله كما كان يفعله بعض أهل التوبة والمعذرة وأصل الكلمة من العذرة وهي النجاسة تقول : عذرت الصبيّ إذا طهرته عن النجاسة ولايقاوم غير الغضب و الغلبة بدل الاعتذار .

ومن الناس من يعجبك قوله فى الحيوة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه و هو الد الخصام(٢٠٤) و اذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث و النسل والله لايحب الفساد (٢٠٥) .

قيل : نزلت الآية في الأخنس بن شريق كان يظهر الجميل بالنبيّ والمحبّة له والرغبة

في دينه ويبطن خلاف ذلك والآية تعمّ كلّ منافق ومرائي أي وبعض الناس تستحسن ظاهر قوله، وتعدّه حسناً مقبولاً يقال : أعجبني كذا أي ظهرلي ظهوراً لم أعرف سببه [في الحياة الدنيا] بحلاوة كلامه وعذوبة لفظه وفصاحته لا في الآخرة لأنّه في الآخرة يظهر كذبه [ويشهد الله على مافي قلبه] أي يقول الله : شاهد ومطّلع على قلبي من المودّة لك والإسلام [وهو ألدّ الخصام] أي أشد في العداوة والخصومة للمسلمين على أنّ «الخصام» مصدر كالقتال والجدال وإضافة « الألدّ» إليه بمعنى « في » واللدد شدّة الخصومة ؛ تقول : لدّ يلدّ لدوداً ولدّه يلدّه إذا غلبه في الخصومة . وقيل : « الخصام » جمع الخصم أي أشدّ الخصماء .

[وإذا تولّى] أي ملك الأمر وصار والياً وتولّى سلطنة جارو [سعى في الأرض] و أسرع في المشي للفساد وسفك الدماء وقطع الرحم وبعمل المعاصي [ويهلك الحرث والنسل] الزرع والأولاد وقيل : الحرث النساء والنسل الأولاد قال الصادق : الحرث في الآية ههنا الدين والنسل الناس وقيل : معنى قوله : « وإذا تولّى » أي إذا أدبروانصرف عن حضورك ومجلسك [والله لا يحبّ الفساد] أي لايحبّ عمل الفساد وأهل الفساد ولايرتضيه ويغضب على من يعاطاه كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيّتهم أي أتاهم ليلاً و أهلك مواشيهم وذرعهم لأنّه كان بينه وبينهم عداوة أو كما يفعله الولاة بالقتل والظلم والإتلاف حتّى يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل .

وفي الحديث : يجاء بالوالي يوم القيامة فينبذبه على جسر جهنّم فيرتج به الجسر ارتجاجة لايبقى منه مفصل إلّا زال عن مكانه فإن كان مطيعاً لله في عمله مضى و إن كان عاصياً انخرق به الجسر فيهوي به في جهنّم مقدار خمسين عاماً .

وفي قوله تعالى : « والله لايحبّ الفساد » صراحة على بطلان قول المجبرة بأنّ الله يريد القبائح لأنّه نفي عن نفسه محبّة الفساد والمحبّة هي الإرادة لأنّ كلّ ما أحبّ أن يكون فقد أراد أن يكون .

قوله : و اذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم و لبئس المهاد (٢٠٦) .

قوله : و اذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم و لبئس المهاد (٢٠٦) .

بيّن صفة المفسدين والمنافقين [وإذا قيل له] خف الله في صنعك السوء واترك ما تباشره في الفساد والنفاق [أخذته العزّة بالإثم] وحملته الأنفة الّتي فيه وحميّته الجاهليّة والعناد على الإثم و الذنب الّذي نهي [فحسبه جهنّم] مبتدأ وخبر أي كافيه دخول النار والخلود فيها [ولبئس المهاد] اللاّم موطّئة للقسم أي والله بئس الفراش جهنّم قال ابن مسعود : إنّ من الذنوب الّتي لاتغفر أن يقال للعبد : « اتّق الله» فيقول : عليك نفسك . وفي نسخة من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد : « اتّق الله » وهو يقول : عليك نفسك .

و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله و الله رءوف بالعباد (٢٠٧) .

«الشراء» من الأضداد ؛ شرى باع وشرى إذا اشترى كقوله : «وشروه بثمن بخس» أي باعوه. أي ومن الناس من يبيع نفسه ويبذلها في طاعة الله في الجهاد والصلاة والزكاة والحجّ وتوصل بذلك إلى ثواب الله [ابتغاء مرضات الله] طلباً لرضاه [والله رؤوف بالعباد] ومن جملة رأفته بعباده أنّ ما اشتراه منهم من أنفسهم وأموالهم إنّما هو خالص ملكه وحقّه فيشتري منهم ملكه الخاصّ المحصور بما لايعدّ ولايحصى من ثوابه وفضله .

روى السدّي عن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب حين خرج النبيّ ﷺ من مكّة إلى الغار ونام عليّ على فراش النبيّ ﷺ ونزلت الآية بين مكّة والمدينة وإنّه عليه السلام لمّا نام على فراشه قام جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل ينادي بخ بخ من مثلك يابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة .

وقال عكرمة : نزلت الآية في أبي ذرّ الغفاريّ وجندب بن السكن وصهيب بن سنان لأنّ أهل أبي ذر أخذوا أباذر فانفلت منهم فقدم على النبيّ وأمّا صهيب بن سنان الروميّ خرج من مكّة يريد الهجرة إلى النبيّ ﷺ بالمدينة وهو ابن مائة سنة أتبعه نفر من مشركي قريش وقتلوا نفراً كانوا معه وكان معه كنانة فيها سهامه وكان رامياً مصيباً فقال : يا معشر قريش لقد علمتم أنّي من أرماكم رجلاً والله لا أضع سهمي إلاّ في قلب رجل وأيم الله لا تصلون إليّ حتّى أرمي بكلّ سهم في كنانتي ثمّ أضرب بسيفي ما بقي في يدي ثمّ افعلوا ماشئتم ولن ينفعكم كوني فيكم فإنّي شيخ كبير ولي مال في داري بمكّة فارجعوا وخذوه

وخلّوني وما أنا عليه من الإسلام ففعلوا وسار هو إلى المدينة وقدم على النبيّ صلى الله عليه وآله.

وقيل : إنّ المراد بالآية الرجل الّذي يقتل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والآية تعمّ لكلّ مجاهد في سبيل الله.

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافه و لا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (٢٠٨).

[يا أيّها الّذين آمنوا] بألسنتهم على أنّ الخطاب للمنافقين [ادخلوا في السلم كافّة] واستسلموا لله ظاهراً وباطناً و«كافّة» حالٌ من ضمير ادخلوا يؤكّد معنى العموم في حيّز الجمع ؛ فإنّ قولك : جاء القوم كافّة أي كلّهم . وتاء كافّة وعامّة وقاطبة ليست للتأنيث و إن كانت تدلّ على التأنيث باعتبار الجماعة بل إنّما دخلت لمجرّد كون الكلمة منقولة إلى معنى كلّ وجميع.

وقيل : إنّ الخطاب ليس للمنافقين والخطاب لمؤمني أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه لأنّهم كانوا يتمسّكون ببعض شرائع التوراة مثل تعظيم البيت وتحريم لحم الإبل وألبانها وأشياء كانوا يرون الكفّ عن ذلك مباحاً في الإسلام وإن كان واجباً في شريعتهم فثبتوا على ذلك مع اعتقادهم حلّها استيحاشاً من مفارقة العادة وقالوا : يارسول الله إنّ التوراة كتاب الله فدعنا نقرء منها في صلاتنا بالليل فقال صلى الله عليه وآله : لا تتمسّكوا بشيء ممّا نسخ ودعوا ما ألفتموه ولا تستوحشوا من النزوع عنه فإنّه لاوحشة مع الحقّ وإنّما هو من تزيين الشيطان.

[ولا تتّبعوا خطوات الشيطان] ولاتسلكوا مسالكه [إنّه لكم عدوّ مبين] ظاهر العداوة يريد أن يفسد عليكم بهذه الوساوس إسلامكم.

قوله تعالى : فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم (٢٠٩).

« الزلل » يستعمل في العدول عن الاعتقاد الحقّ والعمل الصائب أي أخطأ تم الحقّ علماً أو عملاً من بعد الحجج والشواهد على ما ادّعيتم إلى الدخول فيه هو الحقّ [فاعلموا أنّ الله] غالب في الانتقام [حكيم] فيما شرّع من الأحكام وفيما يفعله بكم من العقاب بعد إقامة الحجّة عليكم.

هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام و الملائكة وقضي الامر والى الله ترجع الامور (٢١٠) .

استفهام في معنى النفي و « نظر » بمعنى انتظر أي ينتظر من يترك الدخول في السلم إلّا إتيان الله على حذف المضاف أي أمر الله وعذابه لأنّه منزّه عن المجيء والذهاب المستلزمين للحركة والسكون أي ينتظر هؤلاء أن يأتيهم ما توعّدهم به على معصيته في ستر وقطع من السحاب « والغمام » السحاب الأبيض الرقيق سمّي غماماً لأنّه يستر و « الظلل » عبارة عن قطع متكاثفة عظيمة متراكمة و [الملائكة] أي و يأتيهم الملائكة فإنّهم وسائط أمره وهم الآتون ببأسه . وحاصل المعنى أن قد قامت الحجّة فلم يبق إلّا نزول العذاب .

[وقضي الأمر] أي أتمّ أمر إهلاكهم وهو عطف على « يأتيهم » داخل في حيّز الانتظار وإنّما عبّر بصيغة الماضي دلالةً على الحقيقة فكأنّه قد كان [وإلى الله ترجع الأمور] أمور الخلق وأعمالهم ، هو الحاكم بينهم يوم القيامة لاغيره .

وعن النبيّ ﷺ قال : إنّ الله أظهر الشكاية من أُمّتي وقال : إنّي طردت الشيطان لأجلهم فهم يعصونني ويطيعون الشيطان فمن أعظم الطاعات طرد الشيطان وأن يتّهم الإنسان نفسه دائماً كما روي أنّ رجلاً صام أربعين سنة في سالف الزمان ثمّ دعا الحاجة ومع ذلك لم تجب دعوته فذمّ نفسه فقال : يامأوى الشرّ ذلك من شؤمك وشرّك فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزمان قل له : إنّ مقتك لنفسك أحبّ إليّ من صيام أربعين سنة .

قوله : سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فان الله شديد العقاب (٢١١) .

[سل] يا محمّد أولاد يعقوب وهم اليهود الّذين كانوا حول المدينة والمراد علماؤهم وهو سؤال تقرير لتاكيد الحجّة عليهم [كم آتينا] آباءهم و أسلافهم من معجزة ظاهرة على أيدي أنبيائهم كالعصا و البيضاء وإنزال المنّ والسلوى و كم من حجّة واضحة في كتابهم لمحمّد في صدق نبوّته .

وفي الكلام حذف وتقديره فبدّلوا نعمة الله و كفروا بآياته وخالفوه فضلّوا وأضلّوا و من يبدّل الشكر عليها بالكفران و يصرف أدلّة الله و آياته عن وجوهها بالتأويلات و التحريفات الفاسدة بعدما وقفوا على تفاصيلها [فإنّ الله شديد العقاب] .

وفي الآية دليل على فساد قول المجبّرة حيث إنّه سبحانه أضاف التبديل إليهم و أوعدهم على التبديل بالعقوبة فلولم يكن فعلهم لمااستحقّوا العقوبة والمراد أنّ حالمنافقي قومك وتحريفهم كحالمن قبلك من المجرمين .

قوله : زين للذين كفروا الحيوة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا و الذين اتقوا فوقهم يوم القيمة والله يرزق من يشاء بغير حساب(٢١٢).

نزلت الآية في رؤساء قريش بسطت لهم الدنيا و كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين مثل عبدالله بن مسعود وعمّار وبلال ويقولون : لوكان محمّد ﷺ نبيّاً لاتّبعه أشرافنا.وقيل : نزلت في عبدالله بن اُبي وأصحابه يسخرون من ضعفاء المؤمنين . وقيل : نزلت في رؤساء اليهود سخروا من فقراء المهاجرين . ولامانع من نزولها في جميعهم فبيّن سبحانه أنّ عدول هؤلاء عن الإيمان إنّما هو لإيثارهم الحياة الدنيا فقال :

[زيّن للّذين كفروا الحياة الدنيا] وفيه قولان : أحدهما أنّ الشيطان زيّنها لهم و قوّى دواعيهم وحسّن لهم فعل القبيح ، وأمّا الله لايجوز أن يكون المزيّن لهم إيّاها لأنّه أمرهم بالزهد فيها وقال : إنّها متاع الغرور،وقال : متاع قليلٌ . والآخر أنّ المزيّن هو الله بأن خلق فيها الأشياء المحبوبة من حيث الخلق والإيجاد وبما خلق لهم من الشهوة؛وإنّما كان كذلك لأنّ التكليف لايتمّ إلّا مع الشهوة وما من شيء من القبائح إلّا وهو سبحانه منعه واستناده إلى الله يكون بهذا العنوان إذ لايكلّف الإنسان إلى شيء تتوق نفسه إليه ويدعى إلى شيء تنفر عنه نفسه ويزجر منه.وذكّر الفعل مع أنّ الحياة مؤنّث لأنّها غير حقيقيّ وهو بمعنى العيش والبقاء [ويسخرون من الّذين آمنوا] أي يستهزئون بالفقراء .

[والّذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة] أي الّذين اجتنبوا الكفر فوق الكفّار في الدرجات وتمتّعهم بنعيم الآخرة أكثر من استمتاع هؤلاء في الآخرة وحالهم فوق هؤلاء الكفّار لأنّهم في علّيّين وهؤلاء في سجّين كقوله : «أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّاً(١)» وقيل : المعنى أنّ حال المؤمنين في الإستهزاء بالكفّار والضحك منهم في الآخرة فوق حال هؤلاء في الدنيا مثل قوله : «فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون(٢)» لأنّهم في أوج الكرامة وهم في

---

(١) الفرقان : ٢٤ . (٢) المطففين : ٣٤ .

حضيض الذلّ والمهانة فتكون الفوقيّة مجازاً .

[والله يرزق من يشاء بغير حساب] لأنّه لا يخاف نفادما عنده . حكي أنّ عيسى سافر و معه يهوديّ فكان مع عيسى ثلاث أقراص فأعطاها اليهوديّ وقال له : احفظها ثمّ بعد ساعة أكل اليهوديّ واحداً منها فقال عيسى : هات الأقراص فقدّم القرصين فقال : أين ثالثها ؟ فقال اليهوديّ : لم تكن أكثر من هذا ، فمشيا حتّى شاهد من عيسى عجائب فأقسم عيسى لذلك حتّى يقرّ بالقرص الثالث فلم يقرّ فلحقا بثلاث لبنات من الذهب في الطريق فقال اليهوديّ : يا عيسى اقسم ذلك . فقال عيسى : واحدة لي وواحدة لك وواحدة لمن أكل القرص الثالث، فقال اليهوديّ : أنا أكلت القرص الثالث . فقال عيسى : ابعد عنّي فقد شاهدت قدرة الله ولم تقرّ به والآن قد أقررت بالدنيا فترك عيسى اللبنات عند اليهوديّ ومشى وجاء ثلاثة من اللصوص و قتلوا اليهوديّ و أخذوا اللبنات ثمّ بعثوا من جملتهم واحداً ليأتي لهم بالطعام فلمّا غاب عنهما تشاورا في قتله وقالا : إذا رجع قتلناه وأخذنا نصيبه . فذهب الرجل و اشترى سمّاً فطرحه في الطعام الّذي اشتراه حتّى يأكل ذلك الطعام صاحباه فيموتا و يأخذ اللبنات الثلاثة ، فلمّا قدم عليهما وأتى بالطعام قاما وقتلاه ثمّ أكلا الطعام فماتا ثمّ عبر عليهم عيسى عليه السلام فوجد اليهوديّ وهؤلاء الثلاثة مقتولين فتعجّب من ذلك فنزل جبرئيل وأخبره بالقصّة .

ومثل الحياة الدنيا والحرص عليها مثل اللبنات فلا تكن أيّها العاقل يهوديّاً ولا لصّاً ، بل كن عيسى زمانك فلحلا لها حساب ولحرامها عقاب ولمشبوهاتها عتاب ، واترك الدنيا وخالف نفسك الخبيثة ترزق بغير حساب .

كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم (٢١٣) .

بيّن سبحانه أحوال من تقدّم من الكفّار تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله .

أي [كان الناس] على دين واحد وجماعة واحدة متّفقين في الإيمان واتّباع الحقّ من

وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلّ قرن ثمانون سنة عند الأكثر (١) [فبعث الله النبيّين] وقال قوم : إنّهم كانوا على الكفر وهو المرويّ عن ابن عبّاس و جماعة ثمّ اختلفوا في أيّ وقت كانوا كفّاراً ؛ فقيل : كانوا كفّاراً بين آدم ونوح . وقيل : كانوا كفّاراً بعد نوح إلى أن بعث الله إبراهيم والنبيّين بعده .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون الناس كلّهم كفّاراً والله لا يجوز أن يخلي الأرض من حجّة له على خلقه ؟

فالجواب : يجوز أن يكون الحقّ في واحد أو جماعة قليلة لم يمكنهم إظهار الدين خوفاً فلم يعتدّ بهم إذ كانت الغلبة للكفّار .

قال الواقديّ و الكلبيّ : المؤمنون كانوا أهل السفينة حين غرق الله الخلق . قال مجاهد : المعنى كان آدم على الحقّ إماماً لذرّيّته فبعث الله النبيّين .

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال : كانوا قبل نوح اُمّة واحدة على فطرة الله لامهتدين ولا ضلالاً فبعث الله النبيّين (٢) فالمعنى على هذا أنّهم متعبّدين بما في عقولهم من غير نبوّة ولا شريعة .

ثمّ بعث الله النبيّين بالشرايع لما علم أنّ مصالحهم فيها فأرسل الله النبيّين [مبشّرين] لمن أطاعهم بالجنّة [ومنذرين] لمن عصاهم بالنار [وأنزل معهم الكتاب بالحقّ] أي أنزل مع كلّ واحد منهم الكتاب وأراد به مع بعضهم لأنّه لم ينزل مع كلّ نبيّ كتاب . وقيل : المراد به الكتب لأنّ الكتاب إسم الجنس فمعناه الجمع . بالحقّ والصدق والعدل أو بيان الحقّ .

[ليحكم بين الناس] الضمير في «يحكم» يرجع إلى الله أي ليحكم الله منزل الكتاب . و قيل : الضمير راجعٌ إلى الكتاب [فيما اختلفوا فيه] قبل إنزال الكتاب .

[وما اختلف فيه إلّا الّذين اُوتوه من بعدما جاءتهم البيّنات] أي وما اختلف في الحقّ إلّا الّذين اُعطوا العلم به كاليهود فإنّهم كتموا صفة النبيّ بعدما اُعطوا العلم بعلائمه

(١) والمعروف في اللغة : مائة سنة . وقال الراغب : هو القوم المقترنون في زمان واحد .
(٢) مجمع البيان ٢ : ٣٠٧ ومثله في البرهان ١ : ٢٠٩-٢١٠ باسانيد .

وبصفاته من بعد الأدلة والحجج الواضحة في التوراة والإنجيل . وقيل : معجزات محمد ﷺ

[بغياً بينهم] أي ظلماً وحسداً وطلباً للرياسة .

[فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه] لأنهم إختصوا بالإهتداء و معنى « بإذنه » بعلمه و قيل : أي بلطفه . فعلى هذا يكون في الكلام محذوف أي فاهتدوا بإذنه [والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم] فيه أقوال : أحدها أنّ المراد البيان والدلالة ، والصراط المستقيم هو الإسلام وخصّ به المكلّفين دون غيرهم ممّن لا يحتمل التكليف . وثانيها أنّ المراد به يهديهم باللطف فيكون خاصّاً بمن علم عن حاله أنّه يصلح به . وثالثها يهديهم إلى طريق الجنّة فيكون مخصوصاً بالمؤمنين لا يضلّ سالكه .

أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب (٢١٤) .

« أم » منقطعة معناه « بل » و الهمزة للإنكار أي بل حسبتم أن تدخلوا الجنّة أي لا ينبغي أن تظنّوا وتحسبوا ذلك [ولمّا يأتكم] والحال لم يجئكم [مثل الّذين من قبلكم] وصف الذين مضوا من قبلكم من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين ، أي ولم تبتلوا بعد بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة الّتي هي في شدّة والفظاعة صارت مثلاً [مسّتهم البأساء والضرّاء] كأنّه قيل : كيف كان مثلهم وحالهم العجيبة فقيل مسّتهم الفاقة والخوف و الضرّاء أي الآلام والأمراض .

[وزلزلوا] وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد .

[حتّى يقول الرسول والّذين آمنوا معه] أي انتهى أمرهم في الشدّة إلى حيث اضطرّهم الأمر الدعاء لله لقرب الفرج والنصر . ولا يجوز أن يكون المعنى على جهة الإستبطاء بأن يقولوا : [متى نصر الله] لأنّ الرسول يعلم أنّ الله لا يؤخّر وعده ، والمراد أنّكم ما امتحنتم بمثل ما امتحنوا فتصبروا كما صبروا . وفي الآية تسلية لنبيّه ولأصحابه فيما نالهم من المشركين وأمثالهم .

ثمّ أخبر الله سبحانه أنّه ناصر أوليائه لا محالة فقال : [ألا إنّ نصر الله قريب] وقيل

إنّ هذا من كلامهم بأنّهم قالوا : « متى نصرالله » ثمّ تفكّروا فعلموا أنّ الله منجز وعده فقالوا : «ألا إنّ نصرالله قريب» وقيل : إنّه ذكرجملة كلام الرسول والمؤمنين ثمّ فصّل قال المؤمنون : «متى نصرالله» وقال الرسول «ألا إنّ نصرالله قريب» كقوله : «جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله[1] » وهذا المعنى أنسب [2].

قوله : يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم (٢١٥) .

نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً كبيراً ذامال كثير فقال : يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ [يسألونك] يامحمّد أيّ شيء ينفقون والسؤال عن الإنفاق يتضمّن السؤال عن المنفق عليه [قل ما أنفقتم من خير] أي أيّ شيء أنفقتم من أيّ خير كان ، والمال يسمّى «خيراً» لأنّ حقّه أن يصرف إلى جهة الخير فصار بذلك كأنّه نفس الخير [فللوالدين] بيان المصرف [والأقربين واليتامى] والمراد «بالوالدين» الأب والأمّ والجدّ والجدّة وإن علوا لأنّهم يدخلون في إسم الوالدين و المراد « بالأقربين » أقارب المعطي «واليتامى» أي كلّ من لا أب له مع صغره المحتاجين [والمساكين وابن السبيل] المنقطع به .

واختلفوا في هذه النفقة قيل : المراد به نفقة التطوّع . و قيل : هي عامّة في الزكاة المفروضة والتطوّع وإنّما لم تتعرّض للسائلين والرقاب إمّا إكتفاءً بما ذكر في المواقع الآخر وإمّا بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالي [وما تفعلوا من خير] فإنّه شامل لكلّ خير واقع في أيّ مصرف كان [فإنّ الله به عليم] فيوفّي ثوابه .

قوله : كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون (٢١٦)

في الآية بيان لكون الجهاد مصلحة لمن اُمر به ، أي فرض عليكم قتال الكفرة و الجهاد في سبيل الله مع أعداء الدين وهو فرض على الكفاية مثل صلاة الجنازة [وهو كره لكم] والحال أنّه شاقّ عليكم طبعاً كالصوم في الصيف ، و كراهة الطبع لاتوجب الذمّ [وعسى أن

(١) القصص : ٧٣ . (٢) والاية نزلت في احد او الاحزاب على اختلاف . مجمع البيان .

تكرهوا شيئاً وهو خيرلكم] لأنّ في الغزو إحدى الحسنيين إمّا الظفر و الغنيمة وإمّا الشهادة والجنّة .

[وعسى أن تحبّوا شيئاً] «عسى» كلمة يجري مجرى لعلّ للترجّي ، ومن أمور الّتي تحبّونه مستلذّات النفس والشهوات والقعود عن الغزو [وهو شرّلكم] لمافيه من فوات الأجر وحصول غلبة الأعداء وضعف الدين وتخريب الديار [والله يعلم] ماهوخيرلكم ديناً ودنياً فلذايأمركم به [وأنتم لاتعلمون] ذلك ولذلك تكرهونه ، وإنّما كرهوا الأمور الخيريّة لأنّ أبدانهم رهينة لشهواتهم وضعفت نيّاتهم بعمل الآخرة ؛ فينبغي للعاقل أن يجاهد مع النفس والطبيعة ليرتفع الهوى والشهوات والبدعة ويتمكّن في قلبه حبّ العمل بالكتاب والسنّة .

قال إبراهيم الخوّاص : كنت أسيح في جبل لكام وفيه أشجار الرمّان البرّيّ فرأيت رمّانة إشتهيتها فقطعتها وشققتها فوجدتها حامضة فتركتها فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمع عليه الزنابير فقلت : السلام عليك . فقال : وعليك السلام يا إبراهيم فقلت : كيف عرفتني ولم ترني ؟ قال : من عرف الله لايخفى عليه شيء فقلت : أرى لك حالاً مع الله فلو سألته أن يحميك ويقيك الأذى والمرض من هذه الزنابير فقال : وأرى لك حالاً مع الله فلو سألته أن يقيك شهوة الرمّان فلدغ الرمّان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا .

يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عندالله و الفتنة اكبر من القتل ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم في الدنيا و الاخرة و اولئك اصحاب النارهم فيها خالدون (٢١٧) .

النزول : بعث رسول الله ﷺ سريّة من المسلمين وأمّر عليهم عبدالله بن جحش الأسديّ وهو ابن عمّة رسول الله ﷺ وذلك قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر من مقدمه الشريف بالمدينة فانطلقوا حتّى هبطوا نخلة فوجدوا بها عمرو بن الحضرميّ في عير تجارة لقريش في آخر يوم من جمادي الآخره وكانوا يرون أنّه من جمادي و هو رجب فاختصم المسلمون فقال قائل منهم : هذه غيرة من عدوّ وغنم رزقتموه ولا ندري أمن الشهر الحرام

هذا اليوم أم لا . وقال قائل منهم : لا نعلم هذا اليوم أمن الشهر الحرام أم لا و لا نرى أن تستحلّوه لطمع أشفيتم عليه ، فغلب على الأمر الّذي أراد الغنم فشدّوا على ابن الحضرميّ فقتلوه وغنموا عيره فبلغ كفّار قريش فركب وفد كفّار قريش حتّى قدموا على النبيّ فقالوا : أتحلّ القتال في الشهر الحرام فأنزل الله الآية .(١)

[يسألونك] يا محمّد السائلون أهل الشرك على جهة التوبيخ والعيب ، وقيل : السائلون أهل الإسلام سألوا ذلك ليعلموا كيف الحكم فيه [عن الشهر الحرام قتال فيه] أي عن القتال في الشهر الحرام و قتال بدل الاشتمال عن الشهر لأنّ الزمان يشتمل على ما يقع فيه ، وإنّهم كانوا ينزعون الأسنّة والنصال عند دخول رجب ، ويدعى رجب الأصمّ لأنّه لا يسمع فيه قعقعة السلاح فيه .

[قل] يا محمّد : [قتال فيه] ذنب [كبير] عظيم عند الله «وقتال» مبتدأ خبره «كبير» و جاز الابتداء بالنكرة ؛ لأنّها وصفت «بفيه» وعند الأكثر أنّ هذه الآية منسوخة بقوله : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم(٢)» [وصدّ عن سبيل الله] ومنع عن الإسلام و«صدّ» مبتدأ قد تخصّص بالعمل فيما بعد [و كفر به] بالله وصدّ أيضاً عن دخول [المسجد الحرام] وزيارة بيت الله [وإخراج أهله] أي أهل المسجد وهو النبيّ والمؤمنون [منه] أي من المسجد [أكبر عند الله] وأعظم وزراً يعني إخراجهم المسلمين من مكّة حين ضيّقوا عليهم وهاجروا إلى المدينة .

[والفتنة أكبر من القتل] أي الفتنة في الدين والكفر أعظم من القتل في الشهر الحرام يعني قتل ابن الحضرميّ أي هذه الأشياء المعدودة أكبر إثماً وعقوبة من قتل المسلمين ابن الحضرميّ في الشهر الحرام ولو أنّ القتال في الشهر الحرام حرام لأنّ القتال إثم والكفر أعظم ولأنّهم كانوا شاكّين في اليوم وأوّلوه ولا تأويل للكفّار في الكفر .

[ولا يزالون يقاتلونكم] بيان لاستحكام عداوتهم في الدين ، أي لا يزال الكفّار عن قتالكم أيّها المؤمنون [حتّى يردّوكم عن دينكم] و يصرفوكم عن دينكم الحقّ إلى دينهم الباطل [إن استطاعوا] إشارة إلى تصلّبهم مهما أمكن .

[ومن يرتدد منكم عن دينه] أي من يفعل ذلك بإغوائهم [فيمت وهو كافر] بأن

---

(١) ورواه القمي في تفسيره : ٦١ - ٦٢ مع اختلاف .
(٢) التوبة : ٥ .

لم يرجع إلى الإسلام ويموت على الكفر [فأُولئك] الباقون على الارتداد حين الموت [حبطت] وتلاشت وبطلت [أعمالهم] الّتي كانوا عملوها في حالة الإسلام حبوطاً كلّياً لاتلافي له [في الدنيا] وهو وجوب قتله عند الظفر به لارتداده وفوات موالاة المسلمين و زوال النكاح و حرمانه من مواريث المسلمين ونحوذلك ممّا يجري على المرتدّ وأهله وماله [والآخرة] وهو الجنّة لأنّ عبادتهم لم تصحّ لإخلال الوجه فلم يجازوا عليها في الآخرة [واُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] مؤبّدون فيها وحاصل الآية أنّ كلّ واحد من هذه الاُمور أعظم من القتال في الشهر الحرام .

ان الذين آمنوا و الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم (٢١٨) .

نزلت في السريّة المذكورة فإنّ الله لمّا فرج عنهم بالآية السابقة ما كانوا فيه من الغمّ الشديد بقتالهم في الشهر الحرام طمعوا فيما عندالله من ثوابه فقالوا : يارسول الله لاعقاب علينا فيما فعلنا فهل نعطى ثواباً ؟ فأنزل الله هذه الآية وكانوا مؤمنين مهاجرين [والّذين هاجروا] وفارقوا منازلهم [وجاهدوا] وحاربوا المشركين [في سبيل الله] لإعلاء دينه [اُولئك يرجون رحمة الله] وثوابه ولا يحبط أعمالهم كأعمال المرتدّين [والله غفور] لذنوبهم [رحيم] يرحمهم ومن الواجب على المؤمن أن لاييأس من رحمته وأن لايأمن من عذابه .

يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير و منافع للناس و اثمهما اكبر من نفعهما و يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون (٢١٩) في الدنيا والاخرة و يسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير و ان تخالطوهم فاخوانكم في الدين والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لاعنتكم ان الله عزيز حكيم (٢٢٠).

نزلت في جماعة من الصحابه أتوا رسول الله فقالوا : أفتنا في الخمر و الميسر فقال : [يسألونك عن الخمر] وهي كلّ شراب مسكر مخالط للعقل مغطى عليه ، وما أسكر كثيره فقليله خمر وحرام «والخمر» مصدر خمره أي ستره سمّي به لتغطيتها العقل والتميز كأنّها نفس الستر كماسمّيت سكراً لأنّها تسكر وتحجر العقل [و الميسر] مصدر ميميّ من يسر

كالموعد و المرجع يقال : يسرته إذا قمرته و إشتقاقه من اليسر لأنّه أخذ المال بيسير و حصوله لصاحبه بالسهولة و يدخل جميع أقسامه كالنرد و الشطرنج حتّى لعب الصبيان بالجوز والكعاب .

[قل فيهما] أي في تعاطي الخمر والميسر وإستعمالهما [إثم كبير] ـوقرأ كثير بالثاء المثلّثة ـ لما أنّ الأوّل مسلبة للعقول الّتي هي قطب الدين و الدنيا مع كون كلّ منهما متلفة للأموال [ومنافع للناس] من كسب اللذّة والمغالات بثمن الخمر و تقوية الضعيف و الإعانة على بائه و تسلية المحزون وتشجيع الجبان وتسخية البخيل وإنطاق الفتى العيّ وتهييج الهمّة،ومنافع الميسر إصابة المال من غير كدّ ولا تعب وإنتفاع الفقراء بلحم الجزور فإنّهم كانوا يفرّقونها على المحتاجين ؛ قال الواقديّ : وربّما قمر الواحد منهم في مجلس مائة بعير فيصيب مالاً عظيماً بلانصب ولاثمن ثمّ يعطيه المحتاجين فيكتسب المدح والثناء .

[وإثمهما أكبر من نفعهما] وفي الخمر إيقاع العداوة والبغضاء والصدّ عن ذكر الله و عن الصلاة وهي تسفّه الحكيم فكيف بغيره ويؤول أمر شاربها أحياناً بحيث يلعب ببوله وعذرته وقيئه كما ذكر ابن أبي الدنيا أنّه مرّ على سكران وهو يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضّىء ويقول : الحمدلله الّذي جعل الماء طهوراً والإسلام نوراً . وفي الميسر أنّه إذا ذهب ماله من غير عوض ساءه ذلك فعادى صاحبه وربّما قصده بالسوء .

قال المفسرّون : تواردت في الخمر أربع آيات نزلت بمكّة : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتّخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » (١) فكان المسلمون يشربونها وهى لهم حلالٌ يومئذ .

ثمّ إنّ معاذاً وعمر ونفراً من الصحابة قالوا : أفتنايا رسول الله في الخمر فإنّها مذهبةٌ للعقول فنزلت «يسألونك عن الخمر والميسر» فشربها قوم وقالوا : نأخذ نفعها ونترك إثمها وتركها آخرون وقالوا : لاحاجة لنا فيما إثمه كبير .

ثمّ إنّ عبد الرحمن بن عوف دعاناساً منهم فشربوا وسكروا فقام أحدهم للصلاة فقرأ «قل يا أيّها الكافرون أعبد ما تعبدون» إلى آخر السورة بدون «لا» في لاأعبد فنزلت «لاتقربوا

(١) النحل : ٦٧ .

الصلاة وأنتم سكارى ، الآية[١]» فقلّ من يشربها وقالوا : لاخير في شيء يحول بيننا و بين الصلاة وشربها قوم في غير حين الصلاة حتّى كان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر ويشرب بعد الصبح فيصحّوا إذا جاء وقت الظهر .

ثمّ اتّخذ عتبان بن مالك ضيافة ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقّاص و كان قد شوى لهم رأس بعير فأ كلوا منه وشربوا الخمر حتّى سكروا ثمّ إنّهم تناشدوا الأشعار وانتسبوا وافتخروا فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء الأنصار و فخر لقومه ، فاخذ رجل لحى البعير فضرب به رأس سعد فشجّه موضحة [٢] فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاريّ فنزل « إنّما الخمر والميسر» في المائدة إلى قوله : «فهل أنتم منتهون » فقالت الصحابه : إنتهينا يا ربّ.

وحرّمت الخمر في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة الأحزاب بأيّام . قال القفال المروزيّ :والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيت أنّه تعالى علم أنّ القوم كانوا ألفوا شرب الخمر وكان إنتفاعهم بها كثيراً فلومنعهم دفعة واحدة يشقّ عليهم فلاجرم استعمل في التحريم هذا الرفق [٣].

ثمّ لمّا نزل التحريم أُريقت الخمر قال ابن عمر : و لقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حينا كلّما مطرت إستبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها وحرمت ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها وماحرّم الله عليهم شيئاً أشدّ من الخمر .

وفي روح البيان : روي أنّ جبرئيل عليه‌السلام قال للنبيّ ﷺ : إنّ الله تعالى شكر لجعفر الطيّار أربع خصال كان عليها في الجاهليّة وهو عليها في الإسلام ، فسأل النبيّ ﷺ جعفراً عن ذلك فقال : يا رسول الله لولا أنّ الله اطّلعك عليها لما أخبرتك بها : ماشربت الخمر قطّ ، لأنّي رأيتها تزيل العقل وأنا إلى أن أزيد فيه أحوج منّي إلى أن أُزيله ، وما عبدت صنماً قطّ ؛ لأنّي رأيته لا يضرّ ولا ينفع ، وما زنيت قطّ لغيرتي على

---

(١) النساء : ٤٣ .

(٢) الموضحة من الشجاج مايوضح فيها عظم الرأس .

(٣) وبه رواية في الكافي . البرهان (١:٢١١-٢١٢) .

أهلي، وما كذبت قطّ؛ لأنّي رأيته دناءة.

قال عمرو بن الأدهم - وهو من أكابر سادة بني تميم - : لو كان العقل يشترى ما كان شيء أنفس منه فالعجب لمن يشتري الحمق بماله فيدخله في رأسه و يفيء في جيبه و يسلح في ذيله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام : لو وقعت قطرة في أرض فبنيت مكانها منارة لم أُؤذّن عليها ولو وقعت في بحر ثمّ جفّ فنبت فيه الكلاء ورعت الغنم منه لما أكلت من لحومها انتهى.

و أمّا الميسر فهو القمار، و الياسر القامر. و كان أصل الميسر في الجزور في العرب وذلك أنّ أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزوراً و يضمنون ثمنه ولا يؤدّونه ليظهر بالقمار أنّه على من يجب فينحرونها و يجزونها عشرة أجزاء ثمّ يسهمون عليها بعشرة قداح يقال للقداح الأزلام و الأقلام سبعة منها لها أنصباء : الفذّ وله نصيب واحد والتوأم وله نصيبان والرقيب وله ثلاثة والحلس وله أربعة والنافس وله خمسة و المسبل وله ستّة والمعلّى وله سبعة، وثلاثة منها لا نصيب لها وهي المنيح والسفيح والوغد ثمّ يجعلون القداح في خريطة تسمّى الربابة ويضعونها على يدي عدل عندهم يسمّى المجيل والمفيض ثمّ يحرّكها و يجلجلها ذلك الرجل العدل فيدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحاً قدحاً فمن خرج له قدح من ذات الأنصباء أخذ النصيب المعيّن له ومن خرج له قدحاً ممّا لا نصيب له وهو الثلاثة لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور وكانوا يدفعون تلك الأنصباء للفقراء ولا يأكلون منها أي من سهم الثلاثة المحرومة ويفتخرون بذلك ويذمّون من لا يدخل في هذا الأمر ويسمّونه البرم و معناه عديم المروّة و اللئيم فهذا كان أصل القمار عندهم (١) فالميسر بأقسامه حرام كما أنّ الخمر بأنواعها حرام. في الحديث : سيأتي على امّتي زمان يظهر فيه أقوام يسمّون الخمر بغير إسمها.

[ويسألونك ماذا ينفقون] سؤال عن كمّيته ومقداره فإنّه لمّا نزل قوله : «قل ما أنفقتم من خير فللوالدين» قال عمرو بن الجموح : وسأل عن مقدار الإنفاق فنزل [قل العفو] أي أنفقوا الميسور والسهولة أي ما سهل وتيسّر ولم يشقّ عليك إنفاقه؛ فالعفو من المال ما يسهل

(١) سيأتي له ذكر في الجزء الرابع من الكتاب في سورة المائدة آية ٩٠.

إنفاقه ، والجهد من المال ما يعسر إنفاقه والقدر السهل ماكان فاضلاً عن حاجة نفسه و عياله ومن عليه مؤونته ولكن بشرط الاقتصاد ، عن النبي عن ابن عباس . وقيل : إن العفو الوسط من غير إقتار ولا إسراف وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وثالث الأقوال أن العفو مافضل عن قوت السنة عن الباقر قال : ونسخ ذلك بآية الزكاة . والرابع من الأقوال أن العفو أفضل المال وأطيبه (١).

[كذلك] الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله و يدخل فيه الأمة و إفراد الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق بما هو مفرد اللفظ و مجموع المعنى أي مثل مابين أن العفو أصلح من الجهد [يبين الله لكم الآيات] الدالة على تفاصيل أمور كم لا بياناً أدنى منه بينة الفحوى واضحة المدلول [لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة] لكي تدبروا في أمور الدارين فتأخذوا بأصلحها لكم وأسهل في الدنيا وأنفع للعقبى .

وفي الآية ترغيب في التصدق بشرط أن يكون من فضل المال وعفوه وأطيبه وبشرط أن يكون عنده ما يتعيش به لا أنه ينفق ثم يقعد في بيته محتاجاً .

كماروي أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال : يارسول الله خذها مني صدقة فوالله لقد أصبحت ما أملك غيرها فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله فأتاه من جانب الأيمن فقال مثله ، فأعرض عنه ثم أتاه من جانب الأيسر فأعرض عنه فقال : هاتها مغضباً فأخذها منه فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه أو عقره ثم قال صلى الله عليه وآله: يجيء أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى خذها فلا حاجة لنا فيه انتهى .

وفي لفظ العفو إشارة إلى أن مايعطيه المرء في سبيل الله أن يعفو أثره عن قلبه لأن أصل العفو المحو والطمس وهذه الطريقة طريقة العوام وأما الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يقدم غيره على نفسه . ولما حث النبي صلى الله عليه وآله الناس على الصدقه وكان أبو أمامة الباهلي

---

(١) الاول : العياشى عن يوسف عنهما عليهما السلام . الثاني : الكليني عن ابن ابي عمير عن ابي عبدالله عليه السلام والعياشى عن جميل وعن عبدالرحمن عنه عليه السلام . الثالث : الطبرسي مرسلا . البرهان (٢١٢:١) .

جالساً بين يديه وهو يحرّك شفتيه فقال له النبيّ ﷺ : ماذا تقول حيث تحرّك شفتيك ؟ قال : إنّي أرى الناس يتصدّقون وليس معي شيء أتصدّق به فأقول في نفسي : سبحان الله والحمدلله ولا إله إلّا الله والله أكبر . فقال ﷺ : هؤلاء الكلمات خير لك من مدّ ذهباً تتصدّق به على المساكين .

[ويسألونك عن اليتامى] أي عن مخالطتهم وذلك بعد نزول قوله تعالى : «إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً» فتركوا مخالطتهم ومؤاكلتهم حتّى لوكان عند رجل يتيمٌ يجعل له بيتاً على حدة وطعاماً على حدة و عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم و كان يصنع لليتيم طعام فيفضل منه شيء فيتركونه ولا يأكلونه فيتركونه حتّى يفسد فاشتدّ ذلك عليهم وعلى اليتامى فقال عبدالله بن رواحة : يارسول الله ماكلّنا منازل يسكنها اليتامى ولا كلّنا نجد طعاماً وشراباً نفردهما لليتيم فنزلت الآية .

[قل إصلاحٌ لهم] أي مداخلتهم على وجه الإخلاص والإصلاح [خيرٌ] من مجانبتهم وترك خلطتهم [وإن تخالطوهم] وتعاشروهم على وجه ينفعهم [فإخوانكم] فهم إخوانكم [في الدين] الّذي هو أقوى من العلاقة النسبيّة فحينئذ حقّ الأخ أن يخالط الأخ بالإصلاح والنفع . قال ابن عبّاس : « المخالط » أن تأكل من تمره ولبنه وقصعته وهو يأكل من تمرك ولبنك وقصعتك . وبعضٌ حمل المخالطة على المصاهرة وهو أن يكون اليتيم بناً فيتزوّجه إبنته أوتكون بنتاً فيزوّجها إبنه إيناساً لوحشته وإزالة لوحدته .

[والله يعلم المفسد] لمال اليتم [من المصلح] لماله فيجازيه على حسب مداخلته ، وفي تقديم «المفسد» مزيد تهديد [ولوشاء الله] إعناتكم وحملكم على المكروه [لأعنتكم] وحملكم على المشقّة [إنّ الله عزيز] غالبٌ في أمره [حكيم] يحكم مايقتضيه الحكمة وتسع له الطاقة وهو دليل على مايفيده كلمة «لو» من إنتفاء مقدّمها أي لكنّه لم يشأ .

واعلم أنّ مخالطة الأيتام ومحبّتهم من أخلاق الكرام وفي الترحّم عليهم فوائد جمّة ؛ قال النبيّ : من وضع يده على رأس يتيم ترحّماً عليه كانت له بكلّ شعرة تمرّ عليها يده حسنة . قال الله : يا موسى كن لليتيم كالأب الرحيم و كن للأرامل كالزوج الشفيق و كن للغريب كالأخ الرفيق أكن لك كذلك .

قال النبي ﷺ : ثلاثة في ظل عرش الله يوم القيامة إمرأة مات عنها زوجها وترك عليها يتامى صغار فخطبت فلم تتزوّج وقالت أُقيم على اليتامى حتّى يغنيهم الله أو يموت اليتيم أوهي ، ورجل له مال وصنع طعاماً فأطاب صنيعه وأحسن نفقته فدعا إليه اليتيم والمساكين . والثالث واصل الرحم فيوسّع له في رزقه ويمتدّ له في أجله ويكون تحت ظلّ عرشه انتهى . فليحسن العاقل مخالطة اليتيم وليجتنب كلّ الاجتناب عن إخلال حقّ من حقوقه و أكل حبّة من ماله وعن ظلمه وقهره .

حكي أنّ رستم بن زال بارز إسفنديار فلم يقدر عليه مع زيادة قوّته وكان إسفنديار يجرحه في كلّ حملة دون رستم وكان بدن اسفنديار كجلد بعض السمك لا يعمل فيه شيء ، ثمّ إنّ رستم تشاور مع زال في ذلك فقال له أبوه : إنّك لا تقدر عليه إلّا أن تعمل سهماً من تلك الشجرة ذاقفارين وتصيب به عيني إسفنديار ففعل ذلك فرمى فأصاب فغلب عليه بذلك ، والسبب في ذلك أنّ إسفنديار كان قد ضرب في شيبته يتيماً بغصن ففقأ به عينه وأبكاه ثمّ إنّ اليتيم أخذ ذلك الغصن و غرسه فلمّا صار شجراً أخذ رستم غصناً من أغصانه و نحت منه سهمه الّذي أصاب به عيني إسفنديار انتهى .

وفي قوله : «وإن تخالطوهم فإخوانكم» إشارة إلى أنّ المرء ينبغي أن يتعوّد الأكل مع الناس فإنّ شرّ الناس من أكل وحده قال النبي ﷺ : إنّ من أحبّ الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي وفي المصابيح أنّ أصحاب النبي ﷺ قالوا : يارسول الله إنّا نأكل ولا نشبع قال : لعلّكم تفترقون قالوا نعم : قال : فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله

حكي أنّه قيل لجمين صاحب النوادر : أتغدّيت عند فلان ؟ قال : لا ولكن مررت ببابه وهو يتغدّى فقيل له : كيف علمت قال : رأيت غلمانه بأيديهم قسيّ البنادق يرمون الطير في الهواء . وفي الحديث من أضاف مؤمناً فكأنّما أضاف آدم ومن أضاف إثنين فكأنّما أضاف آدم وحوّاء .

قوله تعالى : ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم اولئك يدعون الى النار و الله يدعو الى الجنة و المغفرة باذنه ويبين اياته للناس لعلهم يتفكرون (٢٢١).

النزول : نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي بعثه رسول الله إلى مكّة ليخرج منها ناساً من المسلمين و كان قويّاً شجاعاً فدعته إمرأة يقال عناق إلى نفسها فأبى و كان يهواها في الجاهليّة و تهواه فقالت : ألا نخلو فقال : إنّ الإسلام حال بيننا فقالت : هل لك أن تتزوّج بي فقال : حتّى أستأذن رسول الله فلمّا رجع استأذن رسول الله في التزوّج بها فنزلت الآية فقال سبحانه :

[ولاتنكحوا المشركات] ولاتتزوّجوا النساء الكافرات [حتّى يؤمن] أي يصدّقن بالله وهي عامّة عندنا في تحريم مناكحة جميع الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم وليست بمنسوخة .

واختلف غيرنا فيه فقال بعضهم : لايقع إسم المشركات على أهل الكتاب وقد فصّل الله بينهما فقال : «لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين[1]» و كذلك «ومايودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين[2]» وعطف أحدهما على الآخر .

وقال بعضهم : الآية متناولة جميع الكفّار والشرك يطلق على الكلّ ومن جحد نبوّة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله فقد أنكر معجزته وأضافه إلى غير الله وهذا هو الشرك بعينه لأنّ المعجزة شهادة من الله له بالنبوّة .

ثمّ هولاء أيضاً اختلفوا فمنهم من قال : إنّ الآية منسوخة في الكتاب بالآية الّتي في المائدة «والمحصنات من الّذين اُوتوا الكتاب[3]» و منهم من قال : إنّها مخصوصة بغير الكتابيّات ، عن قتادة وسعيد بن جبير . ومنهم من قال : إنّها على ظاهرها في تحريم نكاح كلّ كافرة كتابيّة كانت أو مشركة ، عن ابن عمر وبعض الزيديّة وهو مذهبنا وسيأتي بيان آية المائدة في موضعها إن شاء الله .

[ولأمة مؤمنة] مع مابها من قلّة الخطر والقدر [خيرٌ من مشركة] مع مالها من شرف الحرّيّة والمال ورفعة الشأن [ولو أعجبتكم] تلك المشركة بجمالها و مالها ونسبها و بغير ذلك من مبادىء الإعجاب وموجبات الرغبة ، والواو للحال والتقدير : خير من مشركة في كلّ حال ولو في هذه الحالة . وقيل : «لو» هنا بمعنى «إن» كذا كلّ موضع وليها الفعل الماضي وكان جوابها مقدّماً عليها ؛ فيكون المعنى : وإن كانت المشركة تعجبكم و تحبّونها فإنّ المؤمنة خير لكم .

(١) البينة : ١ . (٢) البقرة : ١٠٥ . (٣) المائدة ٥ .

[ولا تنكحوا] بضمّ التاء من الإنكاح [المشركين] أي الكفّار أعمّ من الوثنيّ وغيره أي لاتزوّجوا منهم المؤمنات سواء كنّ حرائر أم إماء [حتّى يؤمنوا] ويتركوا ماهم عليه من الكفر ولايحلّ تزويج المؤمنة من الكافر على اختلاف أنواع الكفر ولاخلاف في هذا الحكم وهذا يؤيّد قول من قال : إنّ قوله : «ولا تنكحوا المشركات» يتناول جميع الكافرات .

[ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم] ماله أو جماله والفرق بين «ولو أعجبكم» وبين «وإن أعجبكم» أنّ «لو» للماضي و«إن» للمستقبل و كلاهما يصحّ في معنى الآية و «العجب» في الآية بمعنى الميل و الاستعظام وليس من التعجّب .

[اُولئك] المذكورون من المشركين والمشركات [يدعون] من يقارنهم و يعاشرهم [إلى النار والله] و أوليائه المؤمنون [يدعو إلى الجنّة و المغفره] و إلى الاعتقاد الحقّ [بإذنه] أي بأمره أي يدعو ملتبساً بتوفيقه [ويبيّن آياته] المشتملة على الأحكام [للناس لعلّهم يتذكّرون] لكي يتذكّروا فيفوزوا بما دعوا إليه من الجنّة والغفران و بئست الخصلة ميل الطبع إلى محسّنات أهل الكفر ويؤول هذا الميل إلى الكفر أو محبّة الدنيا والكافر .

قال الزمخشريّ : لاترض لمجالستك إلّا أهل مجانستك و يؤيّد هذا المعنى حديث الأرواح جنودٌ مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وماتنا كرمنها اختلف .

قوله تعالى : و يسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث امركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢٢٢) .

كانوا في الجاهليّة يتجنّبون مؤاكلة الحائض و مشاربتها و مجالستها فسألوا عن ذلك فنزلت الآية وقيل : كانوا يستجيزون إتيان النساء في أدبارهنّ أيّام الحيض فلمّا سألوا عنه بيّن تحريمه عن مجاهد . قال الطبرسيّ : والأوّل عندنا أقوى .

[ويسألونك] والسائل أبو الدحداح [عن المحيض] أي أحواله [قل] يا محمّد : [هو أذى] أي قذر . وقيل : أي دم . وقيل : المراد من الأذى مشقّتهنّ لهذه العارضة [فاعتزلوا النساء في المحيض] أي اجتنبوا مجامعتهنّ في الفرج «والمحيض» إسم مكان عن ابن عبّاس و جماعة . ويوافق هذا القول قول من لايحرّم منها غير موضع الدم فقط .

[ولاتقربوهنّ] بالجماع أومادون الإزارعلى الخلاف فيه [حتّى يطهرن] بالتخفيف حتّى ينقطع الدم عنهنّ ويطهرن من الحيض هذا إذاكان بالتخفيف ، و على قراءة التشديد فمعناه حتّى يغتسلن .

[فإذا تطهّرن] أي اغتسلن وقيل : توضّأن وقيل غسلن الفرج [فأتوهنّ] فجامعوهن وهو إباحة وإن كان صورته صورة الأمر كقوله : «وإذا حللتم فاصطادوا[١]» [من حيث أمركم الله] أي من حيث أمركم الله بتجنّبه في حال الحيض وهو الفرج، وقيل : المعنى من قبل الطهر دون الحيض ومعنى الأوّل أليق بالظاهر وقيل معناه من الجهات الّتي تحلّ فيها أن تقرب المرأة ولا تقربوهنّ من حيث لايجوز المقاربة مثل أن كنّ صائمات أو محرمات أومعتكفات . قال الفرّاء : ولو أراد الفرج لقال سبحانه : «في حيث أمركم الله» فلمّا قال : «من حيث » علمنا أنّه أراد من الجهة الّتي أمركم الله بها[٢] . وقيل : المراد من المأتيّ الّذي حلّله لكم وهو القبل وعلى هذا القول فالوطي في دبر المرأة حرام .

[إنّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين] المتنزّهين عن الأقذار والفواحش كجامعة الحائض والإتيان في غير المأتيّ بناء على القول في حرمة الدبر من المرأة .

نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لانفسكم واتقوا الله و اعلموا أنكم ملاقوه و بشر المؤمنين (٢٢٣).

«أنّى» في محلّ النصب على الظرفيّة ظرف مكان إذا كان بمعنى حيث أو أين و ظرف زمان إذاكان بمعنى متى والعامل فيه «فأتوا» .

النزول : نزلت ردّاً على اليهود إذقالوا : إنّ الرجل إذا أتى المرأة من خلفها في قبلها خرج الولد أحول فأكذبهم الله عن ابن عبّاس وجابر .[٣] وقيل : أنكرت اليهود إتيان المرأة قائمة وباركة فأنزل الله إباحته .

المعنى : لمّا بيّن الله أحوال النساء في الحيض عقّب ذلك بقوله : [نساؤكم حرث لكم] وذكر فيه وجوهاً : أحدها أنّ معناه مزرع ومحرث لكم عن ابن عبّاس والسدّي . والثاني

---

(١) المائدة : ٢ . (٢) معاني القرآن (١٤٣:١) .

(٣) الطبرسي عن الفراء، وانظر معاني القرآن (١٤٤:١) عن ميمون بن مهران عن ابن عباس .

أنّ معناه ذوات حرث لكم منهن تحرثون الولد واللذّة وهذا في المعنى مثل الأوّل و كنّي عن الجماع بالحرث . والثالث كحرث لكم فحذف حرف التشبيه كقولهم : الشعر مسك والوجوه دنانير [فأتوا حرثكم] أي موضع حرثكم نساءكم وقد سمّى العرب النساء حرثاً [أنّى شئتم] أي من أين شئتم عن قتادة والربيع . وقيل : المراد كيف شئتم. وقيل : متى شئتم. قال الطبرسيّ : و هذا خطأ عند أهل اللغة لأنّ «أنّى» لايكون إلّا بمعنى من أين كما قال : «أنّى لك هذا» ويجوز ان يكون بمعنى كيف .

واستدلّ مالك بقوله : «أنّى شئتم» على جواز إتيان المرأة في دبرها ، و رواه عن نافع عن ابن عمر وحكاه زيد بن أسلم عن محمّد بن المنكدر ، وبه قال بعض أصحابنا وخالف في ذلك جمع من الفقهاء وقالوا : إنّ الحرث لايكون إلّا بحيث النسل فيجب أن يكون الوطىء حيث يكون النسل .

[وقدّموا لأنفسكم] الأعمال الصالحة الّتي اُمرتم بها ورغّبتم فيها [واتّقوا الله] أي عقاب الله بترك مجاوزة الحدود ، وقيل : المراد من معنى التقديم هنا طلب الولد الصالح لقوله : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث : ولد صالح يدعوله وصدقة جارية وعلم ينتفع به بعد موته (١) .

وقيل : هو التسمية عند الجماع . وقيل : المراد من تقديم الخير هو التزوّج بالعفائف ليكون الولد طاهراً صالحاً .

[واعلموا أنّكم ملاقوه] أي ملاقو ثوابه إن أطعتموه وعقابه إن عصيتموه ، و إنّما أضافه إليه على ضرب من المجاز ولا يجوز حمل اللقاء على الرؤية [وبشّر المؤمنين] بالثواب والجنّة .

ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم(٢٢٤) .

روي أنّ بشير بن نعمان الأنصاريّ كان قد طلّق زوجته الّتي هي اُخت عبدالله بن رواحة وأراد أن يتزوّجها بعد ذلك و كان عبدالله قد حلف على أن لا يدخل على بشير و

(١) الخصال (١:٧٣) مثله في المعنى .

لايكلّمه ولايصلح بينه وبين اُخته فإذا قيل له في ذلك قال : حلفت بالله أن لاأفعل ولايحلّ لي إلّا أن أحفظ يميني وأبرأ فيه فأنزل الله هذه الآية .(١)

المعنى : لا تجعلوا ذكر الله و الحلف به مانعاً من أنواع الخير كالبرّ و الإتّقاء و الإصلاح في الاُمور الخيريّة فإنّ الحلف بالله لايمنع ذلك فيكون لفظ الأيمان مجازاً مرسلاً عن الخيرات المحلوف عليه . سمّي المحلوف عليه يميناً لتعلّق اليمين ، و اللام في «لأيمانكم» متعلّق بقوله : «عرضة » والعرضة فعلة بمعنى المعروض جعل اسماً لما يعرض دون الشيء أي يجعل قدّامه بحيث يكون حاجزاً وحائلاً عن أمر، وحاصل المعنى أن لا تجعلوا الحلف بالله عذراً ومانعاً عن إيتاء الخير والبرّ والتقوى و الصلاح في اُمور الناس [والله سميع] لأيمانكم [عليم] بنيّاتكم .

وقيل في معنى الآية وجه آخر : أي لاتجعلوا اليمين بالله عدّة مبتذلة في كلّ حقّ وباطل ولاتحلفوا به وإن بررتم ، وهو المرويّ عن أئمّتنا نحو مارواه عثمان بن عيسى عن أبي أيّوب قال : سمعت الصادق عليه السلام يقول : لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فإنّه سبحانه يقول : «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » .

قوله تعالى : لايؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم (٢٢٥) .

ثمّ بيّن أقسام اليمين [لايؤاخذكم الله] واختلفوا في يمين اللغو ، قيل : هو ما يجري على عادة اللسان من قول «لا والله » و «بلى والله» من غير عقد على يمين يقتطع بها مال ولا يظلم فيها أحد (٢) عن ابن عبّاس و عايشة و الشعبيّ و هو المرويّ عن الصادق عليه السلام . وقيل : هو أن يحلف وهو يرى أنّه صادق ثمّ تبيّن أنّه كاذب فلا إثم عليه ولا كفّارة . وقيل : المراد يمين الغضبان لايؤاخذكم الله بالحنث فيها إلّا أنّ الكفّارة واجبة فيها وبه قال سعيد بن جبير رحمه الله . «واللغو» ماسقط من الكلام عن درجة الاعتبار من لغا العصافير إذا

---

(١) الكليني عن عدة عن احمد بن محمد عن عثمان . البرهان .

(٢) « عن علي عن هارون عن مسعدة العياشي عن ابي الصباح عن الصادق عليه السلام . البرهان .

صوّتت ومنه اشتقاق اللغة لأنّها كلام لا فائدة فيه عند غير أهله .

[ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم] أي قصدتم ونويتم ؛ لأنّ كسب القلب هو العقد والنيّة ، وفي الكلام تقدير أي من أيمانكم [والله غفور رحيم] يمهل العقوبة ولا يعجل بها .

للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة اشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم (٢٢٦) وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم (٢٢٧) .

ثمّ بيّن حكم الإيلاء ، والإيلاء الحلف أي [للّذين] يبعدون [من نسائهم] مؤلين أي يكون الحلف على الامتناع من الجماع ويكون القسم بالله تعالى على وجه لا يقع موقع اللغو على وجه الغضب والضرار وهو المرويّ عن عليّ عليه السلام وابن عبّاس والحسن .(١)

وقيل : من غير تفاوت في حالة الغضب والرضاء [تربّص أربعة أشهر] قال سعيد بن المسيّب : كان ذلك من ضرار أهل الجاهليّة فكان الرجل لا يحبّ إمرأته ولا يحبّ أن يتزوّجها غيره فيحلف أن لا يقربها فيتركها لا أيّماً ولا ذات بعل ، وكانوا يفعلون في ابتداء الإسلام أيضاً فأزال الله سبحانه ذلك الضرر عنهنّ وضرب للزوج مدّة يتروّى فيها ويتأمّل فأمهله الله مدّة أربعة أشهر فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارّة فعله و إن رأى المصلحة في المفارقة طلّقها .

أي تنتظر المرأة أربعة أشهر ولا يطالبن الأزواج [فإن فاؤوا] ورجعوا إليهنّ [فإنّ الله غفور رحيم] يغفر للحالف و عليه الكفّارة وفيئته كتوبته [وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم] بضمائرهم .

القمّي عن الصادق عليه السلام : «الإيلاء» هو أن يحلف الرجل على إمرأته أن لا يجامعها فإن صبرت عليه فلها أن تصبر وإن رفعته إلى الإمام أنظره أربعة أشهر ثمّ يقول له بعد ذلك : إمّا أن ترجع إلى المناكحة و إمّا أن تطلق فإن أبى حبسه أبداً إلى أن يرضى بالحكم .(٢)

---

(١) الطبرسي مرسلا عنهما بهذا الذيل .

(٢) تفسيره : ٥٤ .

والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولايحل لهن ان يكتمن ماخلق الله في ارحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الاخر و بعولتهن احق بردهن في ذلك ان ارادوا اصلاحاً و لهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم (٢٢٨) .

«القروء» جمع قرء وجمعه القليل : أقرء ، والكثير : قروء و أقراء ؛ و صار بناء الكثير فيه أغلب في الاستعمال مثل ثلاثة شسوع أولأنّ القروء ولوأنّها ثلاثة إلّا أنّها كثيرة ثلاثة في ثلاثة في الأفراد من النساء فأتى بجمع الكثرة . بيّن سبحانه حكم المطلّقات أي المخلّيات من حبائل الأزواج بالطلاق ويعني المطلّقات المدخول بهنّ من ذوات الحيض غير الحوامل لأنّ في الآية بيان عدّتهنّ .

[يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء] أي ينتظرن بأنفسهنّ انقضاء ثلاثة قروء فلا يتزوّجن في هذه المدّة ولفظه خبرٌ ومعناه أمرٌ « والقرء » من الأضداد وأصل معنى القرء الاجتماع لاجتماع الدم في الرحم ؛ فعلى هذا فمعنى القرء الحيض و كذلك يجيء القرء بمعنى الطهر لأنّ في غير أوقات الحيض يجتمع ذلك الدم في سائر البدن والمراد من القرء في الآية الطهر عندنا و روي أيضاً عن عليّ عليه السلام أنّ القرء الحيض (١) . و استشهد القائلون بأنّ القرء المراد منه الحيض في الآية بقوله صلى الله عليه وآله للمستحاضة : دعي الصلاة أيّام أقرائك . والصلاة إنّما تترك في أيّام الحيض ، واستشهد من ذهب إلى أنّ القرء الطهر بقوله تعالى : «فطلّقوهنّ لعدّتهنّ » أي في طهر لم تجامع فيه .

[ولايحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ] أي لايجوز لهنّ أن يخفين ما بهنّ من الحبل والحيض لتبطيل حقّ الزوج من الولد والرجعة ؛ قال الصادق عليه السلام قد فوّض إلى النساء ثلاثة أشياء : الحيض والطهر والحبل .

[إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر] أي من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فهذه صفته يعني أنّ الإيمان يمنع من ارتكاب هذه المعصية كقولك : إن كنت مؤمناً فلا تظلم .

---

(١) ليست الرواية مضبوطة وانما كانت هى دائرة على السن اهل العراق و وردت بتكذيبه عدة روايات . انظر البرهان .

لأنّه إذا لم تكن المرأة مؤمنة يحلّ لها الكتمان فإنّ المؤمنة و الكافرة في هذا الحكم سواء.

[وبعولتهن أحقّ بردّهنّ] وأصل البعل المالك والسيّد سمّي الزوج بعلاً لقيامه بأمر زوجته كأنّه مالك لها ، والتاء في البعولة زائد لتأكيد التأنيث فإنّ الجمع باعتبار الجماعة في حكم المؤنّث ، وفي تسمية الزوج بعلاً مع طلاقها الصريح إشعار بأنّ النكاح بعد قائم والحلّ ثابت ، والضمير لبعض أفراد المطلّقات وشامل للمطلّقة بالرجعي لا البوائن [في ذلك] أي في زمان التربّص وأفعل هنا بمعنى الفاعل إذ لا معنى للتفضيل هنا فإنّ غير الأزواج لاحقّ لهم فيهنّ البتّة .

[إن أرادوا إصلاحاً] أي إن أراد الأزواج بالرجعة إصلاحاً بينهم وبينهنّ وإحساناً إليهنّ لا بقصد المضارّة كما كانوا يفعلونه أهل الجاهليّة كان الرجل يطلّق إمرأته فإذا قرب انقضاء عدّتها راجعها ثمّ يطلّقها ويقصد بذلك تطويل العدّة عليها ، لكن هذا الشرط ليس شرط في صحّة الرجعة فإنّ الرجعة صحيحة وإن كان قصد الزوج المضارّة بل المراد الزجر عن قصد الضرار .

[ولهنّ] عليهم من الحقوق [مثل الّذي] لهم [عليهنّ بالمعروف] أي استقرّ لهنّ بالوجه الّذي لا ينكر في الشرع من الاقتصاد فلا يكلّفهنّ ما ليس لهم ولا يعنّف أحد الزوجين صاحبه والمراد من المماثلة بين الحقّين الحقوق المقرّرة في الشرع بينهما من الوجوب مثل أنّ الانفاق واجب على الزوج للزوجة كما أنّ الامتثال من الزوجة للزوج في البضع واجب فالمماثلة في الوجوب لا في كلّ الأمور .

روي أنّ إمرأة معاذ قالت : يارسول الله ما حقّ الزوجة على الزوج ، قال ﷺ : أن لا يضرب على وجهها ولا يقبحها وأن يطعمها ممّا يأكل ويلبسها ممّا يلبس ولا يهجرها . وقال ﷺ في حديث : اتّقوا الله في النساء فإنّكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ومن حقكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرح ،(١) ولهنّ عليكم رزقهنّ و كسوتهنّ بالمعروف أي المتعارف في العادات المشروعة [وللرجال

(١) الطبرسي مرسلا وراجع فروع الكافي (٢ : ٦١-٦٢)

عليهن درجة] أي فضيلة منها الطاعة ومنها زيادة الميراث والجهاد وأمور . وقيل : معناه أن المرأة تنال اللذة من الرجل كما ينال الرجل منها وله الفضل بنفقته وقيامه عليها .

وفي كتاب من لا يحضره الفقيه عن الباقر عليه السلام قال : جاءت امرأة إلى رسول الله فقالت : يا رسول الله ما حق الزوج على الزوجة فقال : عليها أن تطيعه و لا تصدق من بيته إلا بإذنه ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها ؛ فقالت يا رسول الله : من أعظم الناس حقاً على المرأة قال : زوجها ، قالت : فما لي من الحق عليه مثل ماله من الحق علي ؟ قال : لا ولا من كل مائة واحدة ، فقالت : والذي بعثك بالحق لا يملك رقبتي رجل أبداً [١] . وقال : لو كنت أمرت أحداً يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . [٢]

[والله عزيز حكيم] قادر على ما يشاء فاعل ما تدعوا إليه الحكمة . والمطلقة قبل الدخول والمطلقة الحاملة نسختا عن هذه الآية بقوله تعالى: «فما لكم عليهن من عدة تعتدونها [٣]» «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن [٤]»

قوله تعالى: الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً الا أن يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله و من يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون (٢٢٩) .

النزول . روى هاشم بن عروة عن أبيه عن عائشة أن امرأة أتتها و شكت أن زوجها يطلقها ويسترجعها إضراراً لها بذلك وكان الرجل في الجاهلية إذا طلق امرأته ثم راجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة ولم يكن للطلاق عندهم حد فذكرت عايشة لرسول الله فنزلت :

[الطلاق مرتان] فجعل سبحانه حد الطلاق ثلاثاً والطلاق الثالث قوله : «فإن

---

(١) انظر البرهان . (٢) الطبرسي مرسلا .
(٣) الاحزاب : ٤٩ . (٤) الطلاق : ٤ .

طلّقها فلا تحلّ له من بعد حتّى تنكح زوجاً غيره[1] » « الطلاق » أي التطليق الرجعي المتقدّم ذكره الّذي كان حكمه « و بعولتهنّ أحقّ بردّهنّ » و يملك الزوج فيه الرجعة مرّتان وأمّا بعد الطلقتين بأن طلّق ثلاثاً فلا يثبت للزوج حقّ الرجعة البتّة و لا تحلّ له المرأة إلّا بعد زوج آخر .

[فإمساك بمعروف] أي فالواجب والحكم بعد هاتين التطليقتين إمساك على وجه المعروف لها جميل شائع في الشريعة لا على وجه الإضرار بهنّ بل بحسن المعاشرة والكلام وإن كان بصورة الخبر إلّا أن معناه الأمر .

[أو تسريح بإحسان] أي إذا تركها أدّى إليها حقوقها الماليّة ولا يذكرها بسوء بعد المفارقة ولا ينفّر الناس عنها وقيل : قوله : «تسريح بإحسان» المراد أنّه الطلقة الثالثة أو المعنى أنّه يترك المعتدّة حين تبيّن انقضاء العدّة من غير إضرار بها وهو المرويّ عن الصادقين عليهما السلام .

[ولا يحلّ لكم] خطاب للأزواج [أن تأخذوا] في حال الطلاق ممّا أعطيتموهنّ من المهر [شيئاً إلّا أن يخافا ألّا يقيما حدود الله] استثنى الخلع أي إلّا أن يغلب على ظنّهما أن لا يقيما حدود الله لما بينهما من أسباب التباعد مثل أن يظهر من المرأة النفرة والنشوز والتباعد بغضاً للزوج بأن تكرهه ، قال الصادق عليه السلام : مثل أن يقول المرأة : لا أغتسل لك من جنابة ولا أبرّ لك قسماً ولأُدخلنّ على فراشك بغير إذنك فحينئذ حلّ له أن يأخذ منها ما يأخذ وعلى الجملة إذا خاف الرجل أن تعصي الله فيه بارتكاب محظور وإخلال بواجب فيحلّ له أخذ . العوض بالطلاق .

[فإن خفتم ألّا يقيما حدود الله] وظننتم أن لا يكون بينهما صلاح في المقام [فلا جناح عليهما] ولا حرج ولا إثم عليهما وفي قوله : « عليهما » وإن كانت الإباحة للزوج و الفدية له فبيّن الإذن لهما في ذلك ليزول الإبهام أنّ هذا الأمر جائز لهما وقيل : المراد به الزوج وإنّما ذكر معه المرأة لاقترانهما مثل قوله : «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»[2] وإنّما هو من الملح دون العذب ومثل قوله : «نسيا حوتهما»[3] مجاز للاتّساع [فيما افتدت

(١) الآية الآتية : ٢٣٠ . (٢) الرحمن : ٢٢ . (٣) الكهف : ٦١ .

به] أي بذلت من المال واختلف في ذلك فعندنا الإمامية إن كانت الكراهة منها وحدها و خاف منها العصيان جاز أن يأخذ المهر وزيادة عليه ، وإن كان البغض والكراهة منهما فدون المهر . وقيل : إنّه يجوز الزيادة والنقصان من غير تفصيل . وقيل : المهر فقط ، رووه عن عليّ عليه السلام .

والخلع بالفدية على ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون المرأة عجوزة أو ذميمة فيضارّ بها الرجل لتفتدي نفسها فهذا القسم لا يحلّ للزوج أخذ الفدى كقوله : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، الآية [١] » . والثاني أن يرى الرجل إمرأته على فاحشة فيضارّ بها لتفتدي فهذا جائزٌ وهو معنى قوله : « ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة [٢] » . والثالث «أن يخافا ألّا يقيما حدود الله» فيجوز أخذ الفدية حينئذ .

[تلك حدود الله] أي أوامره ونواهيه من الطلاق والخلع والرجعة والعدّة [فلا تعتدوها] ولا تجاوزوها بالمخالفة [ومن يتعدّ حدود الله] وتجاوزها [فاُولئك هم الظالمون] .

واستدلّ أصحابنا الإماميّة بهذه الآية على أنّ الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع لأنّه قال سبحانه : « الطلاق مرّتان » ثمّ ذكر الثالث على الخلاف في أنّ ذكر الطلاق الثالث قوله : « أو تسريحٌ بإحسان » أو قوله : « فإن طلّقها » ومن طلّقها ثلاثاً بلفظ واحد لا يقع لأنّه قال : « الطلاق مرّتان » وهو لم يأت بالمرّتين ولا بالثالثة كما أنّه لو رمى في الجمار بسبع حصيات دفعة واحدة لم تجزء عنه بلا خلاف وأنّ من أعطى الرجل درهمين لم يجز أن يقال : أعطاه مرّتين حتّى يعطيه دفعتين فكذلك الطلاق .

قوله : فان طلقها فلاتحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله و تلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٠) .

بيّن سبحانه حكم التطليقة الثالثة على ما روي عن أبي جعفر عليه السلام وبه قال السدّي والضحّاك .

[فلا تحلّ له من بعد] أي هذه المرأة بعد التطليقة الثالثة لا تحلّ لهذا الرجل

(١) النساء : ٢٠ . (٢) النساء : ١٨ .

المطلّق ثلاثاً إلّا أن تتزوّج زوجاً آخر و يجامعها الزوج الثاني ، واختلف في ذلك قيل : العقد علم بالكتاب والوطىء بالسنّة . وقيل : بل كلاهما علم بالكتاب لأنّ لفظ النكاح يطلق عليهما ولأنّ العقد مستفاد بقوله : « زوجاً غيره » والنكاح مستفاد بقوله : « حتّى تنكح » وإنّما أوجب الله ذلك لعلمه بصعوبة تزوّج المرأة على الرجل حتّى لايعجّلوا بالطلاق وأن يتثبّتوا .

[فإن طلّقها] الزوج الثاني [فلاجناح عليهما أن يتراجعا] ويعقدا بينهما عقد النكاح ويعودا إلى الحالة الأُولى فذكر النكاح بلفظ التراجع [أن يقيما حدود الله] أي رجيا وظنّا ،وقيل : علما واعتقدا أن يتمكّنا من إقامة حدودالله في النكاح من حسن الصحبة والصلاح والمعاشرة المشروعة .

[وتلك] إشارة إلى الأحكام المذكورة [حدود الله] وأوامره ونواهيه [يبيّنها] بفضله [لقوم يعملون] لأنّهم المنتفعون ببيان الآيات .

وإذاطلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولاتتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم(٢٣١) .

ثمّ بيّن سبحانه مايفعل بعد الطلاق وهذاخطاب للأزواج [فبلغن أجلهنّ] البلوغ هنا بلوغ القرب أي قارين انقضاء العدّة لأنّ بعد انقضاء العدّة ليس للزوج الإمساك وهذا كقولك : بلغت البلد إذاقربت منه [فأمسكوهنّ بمعروف] أي راجعوهنّ بطريق الّذي تستحسنة النفوس شرعاً وعادةً ، والمراد حسن المعاشرة [أوسرّحوهنّ بمعروف] أي خلّوهنّ حتّى تنقضي عدّتهنّ من غير إيذاء [ولاتمسكوهنّ ضراراً] أي لاتراجعوهنّ بقصد الإضرار حالكونكم مضارّين لهنّ .

فإن قيل : ما الفائدة في ذكر قوله : «ولا تمسكوهنّ ضراراً» بعد قوله : «أمسكوهنّ بمعروف» لأنّ الأمر بالشيء نهي عن ضدّه ؛ فالجواب أنّ الأمر لايفيد التكرار ولا بدّ على كون امتثال المأموربه مطلوباً دائماً فقوله : «ولا تمسكوهنّ» دلّ على أنّ الإمساك المذكور مطلوب منه دائماً [لتعتدوا] أي لتظلموهنّ بالإلجاء إلى الافتداء .

[ومن يفعل ذلك] الإمساك المؤدّي إلى الظلم [فقد ظلم نفسه] في ضمن ظلمه لهنّ بتعريضها للعقاب [ولاتتّخذوا آيات الله هزواً] أي مهزوءاً بها بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها ، والنهي في الآية كناية عن الأمر بضدّه لأنّ المخاطبين مؤمنون ليس من شأنهم الهزء بآيات الله أي جدّوا في العمل بها .

ثمّ أكّد سبحانه ذلك الأمر بذكر نعمة الله بأن يشكروها ويقوموا بحقوقها بقوله: [واذكروا نعمة الله] كائنة [عليكم] حيث هداكم إلى ما فيه صلاح عامّتكم وأكمل هذه النعم من النكاح والطلاق والرجوع بأيديكم ولم يضيّق عليكم كما ضيّق على الأوّلين منكم حين أحلّ لهم إمراة واحدة ولم يجوّز لهم بعد موت المرأة نكاح اُخرى .

[وما أنزل عليكم من الكتاب] يعني العلوم الّتي دلّ بها لكم الشرائع والأحكام وبيّنها لكم في اُموركم [يعظكم به] وينبّهكم عليه [واتّقوا الله] في عصيانه أو من عقابه [واعلموا أنّ الله بكلّ شيء عليم] من أفعالكم وغيرها .

و اذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلو هن ان ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الاخر ذلكم ازكى لكم واطهر والله يعلم وانتم لاتعلمون (٢٣٢) .

نزلت في معقل بن يسار حين عضل وحبس اُخته جملاء أن ترجع إلى الزوج الأوّل وهو عاصم بن عديّ فإنّه كان طلّقها وخرجت من العدّة ثمّ أرادا أن يجتمعا بعقد آخر فمنعها من ذلك فنزلت الآية ، عن قتادة والحسن وجماعة . وقيل : نزلت في جابر بن عبدالله عضل بنت عمّ له والوجهان لايصحّان على مذهبنا ؛ لأنّه لا ولاية للأخ وابن العمّ عندنا ولا تأثير بعضلهما فالوجه في ذلك أن تحمل الآية على المطلّقين فكأنّه قال : لا تعضلوهنّ أي لاتحبسوهنّ بالمراجعة عند قرب انقضاء عدّتهنّ لأجل الإضرار لارغبةً فيهنّ فإنّ ذلك لايسوغ في الدين . ويجوز أن يكون العضل محمولاً على الجبر والحيلولة بينهنّ وبين التزويج دون ما يتعلّق بالولاية والحاصل أنّه إذا انقضت عدّتهنّ فلا تمنعوهنّ ظلماً عن الزوج وخلّوا سبيلهنّ . وقيل : الخطاب للأولياء ومنع لهم عن عضلهنّ إذا أردن المطلّقات بعد انقضاء العدّة أن يتزوّجن .

و[أن ينكحن أزواجهن] أي ممّن شئن أن يكونوا أزواجاً لهنّ ، والزوجيّة باعتبار مايكون و إن اُريد بهم المطلّقون فإطلاق الزوجيّة باعتبار ما كان [إذا تراضوا بينهم بالمعروف] أي الخطّاب والطالبين والنساء بينهم بما لايكون مستنكراً في الشرع والعادة بالنكاح الصحيح .

[ذلك يوعظ به] ـ إشارة إلى ماذكر ـ يزجر ويخوّف به [من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر] لأنّهم المنتفعون به ولأنّهم الأولى بالاتّعاظ به [ذلكم أزكى] أي الاتّعاظ والعمل بمقتضاه أنمى وأنفع لكم ، من زكا الزرع إذا نما وطهر من أدناس الآثام وأوضار الذنوب والمفضّل عليه محذوف للعلم به أي من العضل [والله يعلم] مافيه من النفع [وأنتم لاتعلمون] لقصور علمكم لأنّ المكلّف لايعلم وجه الصلاح على وجه التفصيل .

والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ولامولودله بولده وعلى الوارث مثل ذلك فان ارادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلاجناح عليهما وان اردتم أن تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير (٢٣٣) .

لمّا بيّن سبحانه حكم الطلاق بيّن حكم الرضاع والتربية فقال :

[والوالدات] الصيغة صيغة الخبر والمراد به الأمر أي ليرضعن أولادهنّ كقوله : «يتربّصن بأنفسهنّ» إذ لو كان خبراً لكان كذباً لجواز أن يرضعن أكثر من حولين أو أقلّ ، والأمر أمر استحباب لا أمر إيجاب أي إنّهنّ أحقّ برضاعهم من غيرهنّ بدليل قوله : « و إن تعاسرتم فسترضع له اُخرى» .[1]

ثمّ بيّن مدّة الرضاع [حولين كاملين] أربعة وعشرين شهراً و إنّما ذكر «كاملين» وإن كانت التثنية تأتي على معنى استيفاء العدّة .[2] والآية لبيان المندوب من الرضاع والمفروض منه: فالمندوب هو أن يجعل الرضاع تمام الحولين والمفروض هو أنّ المرضعة تستحقّ الاُجرة

---

(١) الطلاق : ٦ . (٢) كذا في الاصل .

في مدّة الحولين ولا تستحقّ فيما زاد عليه . واختلف في هذا الحال هل هو كلّ مولود أو للبعض فقال ابن عبّاس : ليس لكلّ مولود ولكن لمن ولد لستّة أشهر و إن ولد لسبعة أشهر فثلاثة وعشرون وإن ولدلتسعة أشهر فأحد وعشرون تطلب بذلك تكلمة ثلاثين شهراً في الحمل والفصال ، وعلى هذا يدلّ مارواه أصحابنا في هذا الباب ؛ لأنّهم رووا أنّ ماتقص عن أحد وعشرين شهراً فهو جورٌ على الصبيّ . والرضاع بعد الحولين لاحكم له عندنا في التحريم وبه قال ابن عبّاس وابن مسعود وأكثر العلماء .

وقوله : [لمن أراد أن يتمّ الرّضاعة] يدلّ على أنّ الرضاع غير واجب على الأمّ لأنّه علّقه بالإرادة وقال جماعة منهم قتادة : فرض الله على الوالدات أن يرضعن أولادهنّ حولين ثمّ أنزل الرخصة بعد ذلك فقال : « لمن أراد أن يتمّ الرضاعة » يعني أنّ هذا منتهى الرضاع وليس فيما دون ذلك حدٌّ محدودٌ وإنّما هو على مقدار صلاح الصبيّ و ما يعيش به .

[وعلى المولودله] يعني الأب [رزقهنّ و كسوتهنّ بالمعروف] والمراد نفقة الأمّ على الأب مادامت في الرضاعة اللازمة وذلك في المطلّقة على قدر اليسار و إنّما لم يقل : «وعلى الوالد» ليعلم أنّ الأولاد للآباء و ينسبون إليهم لا إلى الأمّهات و كذلك أجر الرضاع للأظئار على الآباء [لاتكلّف نفس إلّا وسعها] والتكليف الإلزام بأمر كأنّه قيل : لِمَ لم تجب مؤونة الأمّهات في الرضاع على أنفسهنّ فاُجيب بأنّهن غير قادرات على الكسب لضعف بنيتهنّ فلو أوجب مؤنهن على أنفسهنّ لزم تكليف العاجز ، و كذا لو أوجب تلك المؤن على الأزواج على خلاف المعروف [لا تضارّ والدة بولدها] نهي أصله لاتضارر بكسر الراء الأولى ؛ فتكون المرأة هي الفاعلة للضرار فيكون المعنى لاتترك الوالدة إرضاع ولدها غيظاً على أبيه لأنّ الوالدة أشفق على ولدها من الأجنبيّة ، وبفتح الراء الأولى فتكون المرأة هي المفعول لها الضرار فالمعنى لايفعل الأب الضرار بالأمّ بأن ينتزع الولد منها .

قوله : [ولا مولود له بولده] أي لا يأخذه من اُمّه طلباً للإضرار بها أو و لا تفعل الأمّ الضرار بالأب بأن تلقي الولد عليه وهو أن يغيظ أحدهما صاحبه بسبب الولد ، وإضافة الولد إلى كلّ منها لاستعطافهما إليه ولا ينبغي أن يضرّا به أو يتضارّا بسببه و إنّما

قال : «تضارّ» والفعل من واحد لأنّه لمّا كان معناه المبالغة كان بمنزلة أن يكون الفعل من اثنين كأنّه يقول : لاتضارّ والدة ولدها و لا والد ولده ؛ فالباء زائدة .

قال الصادقان عليهما السلام : «لاتضارّ والدة» بأن يترك جماعها خوف الحمل لأجل ولدها المرتضع «ولامولوده بولده» أي لاتمنع نفسها من الأب خوف الحمل فيضرّ ذلك بالأب[1] . و قيل : المراد من قوله : «لاتضارّ والدة بولدها» بأن ينتزع الولد منها و تسترضع امرأة غيرها مع إجابتها إلى الرضاع بأجرة المثل فعلى هذا يكون معنى «بولدها» بسبب ولدها «ولا مولود له» أي لاتمتنع هي من الإرضاع إذا أعطيت أجرة مثلها . قال الطبرسيّ : وليس بين هذه الأقوال تناف فالأولى حمل الآية على الجميع .

[وعلى الوارث] أي وارث الصبيّ وقيل : المراد وارث الوالد وهو الأقوى [مثل ذلك] أي مثل ما كان على الوالد من النفقة والرضاع أو مثل ما كان على الوالد من ترك المضارّة والمفهوم عند أهل التفسير الأمران معاً .

واختلفوا في أنّ النفقة على كلّ وارث أو على بعضهم فقيل : هي على العصبات دون أصحاب الفرائض من الأمّ والإخوة من الأمّ . وقيل : على وارث الصبيّ من الرجال والنساء على قدر النصيب من الميراث . وقيل : على الوارث ممّن كان ذارحم محرم دون ذي رحم ليس بمحرم كابن العمّ وابن الأخت فيجب على ابن الأخت ولم يجب على ابن العمّ وإن كان وارثه في تلك الحال . وقيل : على الوارث أي الباقي من أبويه وهو الصحيح عندنا وهو أيضاً مذهب الشافعيّ لأنّ عنده لايجبر على نفقة الرضاع إلّا الوالدان فقط . وقد روي في أخبارنا أنّ على الوارث ـ كائناً من كان ـ النفقة .

قوله تعالى : [فإن أرادا فصالاً] أي أراد الوالدان فطام الولد قبل الحولين وهو المرويّ عن أبي عبدالله وقيل : قبل الحولين وبعد الحولين فيكون الفصال صادراً [عن تراض منهما] من الأب والأمّ [وتشاور] في شأن الولد واتّفاق من الأبوين لامن أحدهما وإنّما اعتبر اتّفاقهما لما في الأب من الولاية وفي الأمّ من الشفقة وهي أعلم بحال الصبيّ [فلاجناح عليهما] في ذلك بعد استقرار رأيهما وتشاورهما في الصلاح وماهو خير للولد .

(١) منقول بالمعنى والاختصار . البرهان ١ : ٢٢٥ .

[وإن أردتم] أيّها الآباء [أن تسترضعوا] المراضع [أولادكم] أي لأولادكم و طلبتم أن تأخذوا ظئراً لإرضاع أولادكم [فلاجناح عليكم] ولاإثم في الاسترضاع ، وفيه دلالة على أنّ للأب أن يسترضع الولد غير اُمّهاتهم لامتناع اُمّهاتهم الرضاع أولعلّة بهنّ من انقطاع لبن أو غيره [إذا سلّمتم] إلى المراضع [ما آتيتم] أي ما أردتم إيتاءه [بالمعروف] بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً فإنّ المراضع إذا اُعطين ماقدّر لهنّ ناجزاً يداً بيدكان ذلك أدخل في إصلاح شؤون الأطفال .

وقيل : المراد من « المعروف » أن يكون الأجر من الحلال لأنّ المرضع إذا أكلت الحلال كان اللبن أنفع للصبيّ و أقرب إلى صلاحه و أنّ العادة جارية إنّ من ارتضع إمراة يغلب عليه أخلاقها من خير وشرّ وأنّ لبن الحمقاء يسري ، وقصّة الشيخ الجوينيّ و ابنه أبو المعالي ومايحصل له أحياناً كبوة في المناظرة معروفة .

[واتّقوا الله] في مراعاة الأحكام المذكورة [واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير] فيجازيكم بذلك . في الحديث حبّ الأولاد سترٌ من النار و كراماتهم جواز على الصراط و الأكل معهم براءة من النار . أقول : بشرط الصلاح أوعدم بروز الفساد منهم لا كبعض النفقات الّتي هي مسبّبة لوقوع الفساد في الدين كنفقات بعض الحمقاء من الآباء لأولادهم في مصارف تعلّم الألسنة الخارجة ويحسبون أنّهم يحسنون صنعاً فالمنفق لولده لتعلّم اللسان الخارجة فقد يرمي سهماً لتمزيق القرآن بل الصحف السماويّة قاطبة .

والعجب أنّ بعض الحمقاء يقصدون بهذا الإنفاق التبرّع لكنّ العقلاء منهم وهم إخوان الشياطين يقصدون بذلك استيصال الإسلام وقدظفروا بماقصدوا ويظهرون النصح والتربية « والله خير الماكرين » فالنفقات المستحسنة ماكانت فيها إطاعة لأوامر الله لاضارّة لدينه .

وفي الحديث أربع نفقات لايحاسب العبد بهنّ يوم القيامة : نفقة على أبويه ونفقة على على إفطاره ونفقة على سحوره ونفقة على عياله « والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله » ولا يجتمع الهوى وحبّ الله .

قوله تعالى : والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغن اجلهن فلاجناح عليكم في ما فعلن في انفسهن

بالمعروف والله بما تعملون خبير (٢٣٤) .

وقرء في الشواذ « يتوفّون » بفتح الياء .

ولمّا بيّن سبحانه عدّة المطلّقات بيّن في هذه الآية عدّة الوفاة فقال :

[والّذين يتوفّون] ويموتون ويتركون [أزواجاً] أي نساء [يتربّصن بأنفسهنّ] أي ينتظرن إنقضاء العدّة ويحبسن أنفسهنّ عن التزويج معتدّات [أربعة أشهر وعشراً] أي وعشر ليال وعشرة أيّام سواء كانت مدخولاً بها أو غير مدخول بها حرّة كانت أو أمة فإن كانت حبلى فعدّتها أبعد الأجلين من وضع الحمل أومضيّ أربعة أشهر وعشر فأيّهما أطول وأبعد فعدّتها ذلك ووافقنا في مسئلة عدّة الأمة الأصمّ من فقهاء الجماعة وخالف الباقون فقالوا : عدّتها شهران وخمسة أيّام وذهب إلى هذا القول قومٌ من أصحابنا أيضاً .

والّذي يجب على المعتدّة بعدّة الوفاة إجتنابها عن الزينة والكحل وترك النقلة من المنزل والإمتناع من التزوّج لاغير عند البعض لكن عندنا الإماميّة أنّ جميع ذلك واجبٌ .

[فإذا بلغن أجلهنّ] أي آخر العدّة بإنقضائها [فلاجناح عليكم] قيل : خطاب للأولياء .

وقيل : لجميع المسلمين لأنّه يلزمهم منعها عن التزوّج في العدّة .

وقيل : المعنى : لاجناح عليكم وعلى النساء [فيما فعلن في أنفسهنّ] من النكاح و إستعمال الزينة [بالمعروف] مايكون جايزاً من الزينة الجائزة والنكاح الحلال على وجه لاينكره الشرع [والله بما تعملون خبير] فيجازيكم عليه فلا تعملوا خلاف ماأمرتم به .

ولاجناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لاتواعدوهن سراً الاان تقولوا قولا معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب اجله واعلموا ان الله يعلم مافي انفسكم فاحذروه واعلموا ان الله غفور حليم (٢٣٥) .

«التعريض» ضدّ التصريح أي لاحرج ولاضيق عليكم يامعشر الرجال [فيما عرّضتم به من خطبة النساء] المعتدّات بعدّة الوفاة «والتعريض» إفهام المعنى دون التصريح بالشيء المحتمل له ولغيره ولمّا علم الله أنّ المرأة إذا مات زوجها قد يكون عليها مسحة من الجمال

أولها مالٌ يرغب الناس فيها فأذن للراغب أن يعرض ولا يصرّح بالخطبة في العدّة «والخطبة» بالكسر التماس النكاح وبالضمّ الكلام المشتمل على الوعظ يقال : خطب المرأة أي خاطبها في أمر النكاح وهذا الحكم لهنّ أي المعتدّات بالوفاة وأمّا النساء اللاتي لا تكون منكوحة الغير ولا معتدّة من طلاق رجعي فإنّ خطبتهنّ جائزة تصريحاً إلّا أن يخطبها رجل فيجاب بالرضى صريحاً فههنا لا يجوز لغيره أن يخطبها وإن لم يوجد صريح الإجابة ولا صريح الردّ ففيه خلافٌ .

ومثال التعريض مثل أن يقول للبخيل والممسك ما أقبح البخل ! وتقول للمرأة الّتي تطلب نكاحها وهي في العدّة : إنّي اُريد النكاح وإنّي اُحبّ امرأة من صفتها كذا كذا فتذكر بعض الصفات الّتي هي عليها .

[أوأ كننتم في أنفسكم] أي أضمرتم وأبرزتم من نكاحهنّ [علم الله أنّكم ستذكرونهنّ] برغبتكم فيهنّ خوفاً منكم أن يسبقكم إليهنّ غيركم فأباح لكم ذلك [ولكن لاتواعدوهنّ سرّاً] فيه أقوال : أحدها أنّ معناه لا تواعدوهنّ في السرّ لأنّها أجنبيّة والمواعدة في السرّ يدعو إلى مالا يحلّ .

وقيل : معناه الزنا عن الحسن وإبراهيم و قتادة و قالوا : كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزنا وهو معرض للنكاح فنهوا عن ذلك . و ثالثها أنّه العهد على الامتناع من تزويج غيره . ورابعها هو أن يقول لها : إنّي نا كحك فلا تفوتيني نفسك . وخامسها أنّ معنى السرّ هو الجماع أي لاتصفوا أنفسكم بكثرة الجماع . وتجمع هذه الأقوال ماروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : لاتصرّحوا لهنّ النكاح والتزويج قال عليه السلام : ومن السرّ أن تقول لها : موعدك بيت فلان .

[إلّا أن تقولوا قولاً معروفاً] يعني التعريض الّذي أباحه الله و «إلّا» في الآية بمعنى لكن لأنّ ماقبله هو المنهيّ عنه وما بعده هو المأذون فيه أي ولكن قولوا قولاً معروفاً ومواعدة غير منكرة .

[ولاتعزموا] العزم عبارة عن عقد القلب على فعل من الأفعال قال الراغب : إنّ دواعي الإنسان إلى الفعل لها مراتب : السانح ثمّ الخاطر ثمّ التفكّر فيه ثمّ الإرادة ثمّ الهمّة

ثمّ العزم والعقد على إمضائه [عقدة النكاح] أي على عقدة النكاح والمقصود النهي عن تزوّج المعتدّة في زمان عدّتها إلّا أنّه نهى عن العزم على عقدة النكاح و عزمه للمبالغة في النهي عن النكاح في زمان العدّة فإنّ العزم على الشيء متقدّم عليه والنهي عن مقدّمات الشيء يستلزم النهي عن ذلك الشيء بطريق أولى ولم يرد سبحانه عن العزم على النكاح بعد العدّة أي لاتحقّقوا ذلك ولاتنشئوه .

[حتّى يبلغ الكتاب أجله] أي تنقضي العدّة وقيل : الكتاب هو القرآن يعنى حتى يبلغ مافرض في القرآن من أجل العدّة وينقضي الأجل المضروب . وقيل : حتّى يبلغ الأجل المكتوب والكتب بمعنى الفرض كماقال : «كتب عليكم الصيام» أي فرض والمعاني يؤول إلى معنى واحد .

[واعلموا أنّ الله يعلم مافي أنفسكم] من العزم على ما لايجوز [فاحذروه] بالاجتناب عن العزم ابتداءً وإقلاعاً عنه بعد تحقّقه [واعلموا أنّ الله غفور رحيم] لايعاجلكم بالعقوبة فلاتستدلّوا بتأخيرها بعدم العقوبة .

قوله تعالى : لاجناح عليكم ان طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين (٢٣٦) .

أي لاتبعة عليكم من مهر أو وزر إن طلّقتم النساء المعقودات [مالم تمسّوهنّ] أي مالم تجامعوهنّ [أوتفرضوا] أي إلّا أن تفرضوا [لهنّ فريضة] أي تسمّوا لها مهراً و ذلك أنّ المطلّقة غير المدخول بها إن سمّي لها مهرٌ فلها نصف المسمّى كما في الآية وإن لم يسمّ لها مهرٌ فليس لها إلّا المتعة كما في هذه الآية والحكمان مرويّان أيضاً رواهما العيّاشيّ وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (١) .

ورفع الإثم عن الطلاق قبل الدخول لئلّا يتوهّم أحدٌ أنّ الطلاق في هذه الحالة لايجوز بل يجوز والمفروض صداقها داخلة في دلالة الآية وإن لم يذكر لأنّ التقدير: لابأس

(١) الكليني عن على عن ابيه عن ابن ابى عمير عن حفص والعياشى عن ابى الصباح عن الصادق عليه السلام . البرهان .

بالطلاق مالم تمسّوهن ممّن فرضتم لهنّ أولم تفرضوا ؛ لأنّ «أو» في قوله : «أوتفرضوا» تنبيء عن ذلك إذ لوكان على الجمع لكان بالواو .

وأيضاً في الآية خصّ سبحانه الّتي لم يدخل بها بالذكر في رفع الجناح لأنّه يجوز أن يطلّق الرجل الّتي لم يدخل بها أيّ وقت شاء بخلاف المدخول بها فإنّه لايجوز أن يطلّقها إلّا في طهر لم يجامعها فيه، وقال أهل الجماعة : رفع الجناح في الآية بمعنى نفي المهر أي لاتبعة من مهر بغير المسوسة وإنّهم لايشترطون أن يقع الطلاق في طهر غير المواقعة بل متى وقع صحّ عندهم .

[و متّعوهنّ] أي أعطوهنّ من مالكم ما يتمتّعن وينتفعن به واختلفوا في أنّ الأمر بالتمتيع لمن ؟ قيل : لمطلق المطلّقات إلّا المختلعة والمبارئة والملاعنة . وقيل : المتعة لكلّ مطلّقة سوى المطلّقة المفروض لها إذا طلّقت قبل الدخول فإنّما لها نصف الصداق ولامتعة لها وهو مذهب الشافعي وقد رووه أصحابنا أيضاً [١] ، وذلك محمول على الاستحباب .[٢]

[على الموسع قدره] أي الّذي له سعة إمكانه وطاقته والقدر والقدر لغتان أو أنّ الساكن مصدر والمتحرّك اسم كالعدّ والعدد والمدو والمدّ وبالتسكين الوسع يقال : هو ينفق على قدره أي على وسعه ، وبالتحريك المقدار [وعلى المقتر قدره] أقتر الرجل إذا صار ذا قترة و افتقر و القترة الغبار أي على الفقير الّذي هو في ضيق بقدر إمكانه من رزق و كسوة و خادم والمتعة معتبرة بحاله لا بحالها قيل : لاتنقص عن خمسة دراهم ولايزاد على نصف مهر المثل [متاعاً] اسمٌ لمصدر الفعل المذكور من قبيل « أنبتكم من الأرض نباتاً » [٣] فيكون متاعاً بعوض تمتيعاً ملتبساً [بالمعروف] بالوجه الّذي يستحسنه الشرع والمروءة [حقّاً] صفة « متاعاً » أي واجباً على الّذين يحسنون الطاعات، وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام أنّ متعة المطلّقة فريضة . هذا كلّه في المطلّقة فأمّا المتوفّى عنها زوجها إذا لم يفرض لها صداق فلها الميراث وعليها العدّة إجماعاً .

---

(١) الكليني عن ابن عيسى عن العلاء عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام : سألته عن الرجل يطلق امرأته قال : يمتعها قبل ان يطلق . البرهان .

(٢) ويشهد له رواية حفص المتقدمة .

(٣) نوح : ١٧ .

وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا ان يعفون او يعفوا الذى بيده عقدة النكاح وان تعفوا اقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير (٢٣٧) .

بيّن سبحانه حكم الطلاق قبل المسيس بعد الفرض أي إن طلّقتم أيّها الرجال النساء [من قبل أن تمسّوهن] أي قبل أن تجامعوهنّ [وقد فرضتم لهنّ فريضة] أي أوجبتم لهنّ صداقاً وعيّنتم مهراً [فنصف مافرضتم] أي عليكم نصف ماقدّرتم من المهر المسمّى .

[إلّا أن يعفون] يعني الحرائر البالغات غير المولّى عليهنّ لفساد عقولهنّ أي لا يطالبن الأزواج و يهبن [أو يعفو] و يترك ويهب [الّذي بيده عقدة النكاح] قيل : هو الوليّ عن مجاهد وجماعة وهو المرويّ عن الصادقين عليهما السلام وهو مذهب الشافعي غير أنّ عندنا الوليّ هو الأب والجدّ مع وجود الأب الأدنى على البكر غير البالغ فأمّا من عداهما فلاولاية له إلّا بتوليتها إيّاه[1].

[وأن تعفوا أقرب للتقوى] خطاب للزوج و المرأة أو للزوج وحده وإنّما جمع لأنّه خطاب لكلّ زوج والمراد من العفو أن يعطيها الصداق كاملاً النصف الّذي واجب عليه والنصف الساقط العائد إليه بالتنصيف بسبب الطلاق ، وتسمية الزياده على الحقّ عفواً لما كان الغالب عندهم أنّ الزوج كان يسوق إليها كلّ المهر عند التزوّج قبل المسيس فإذا طلّقها قبل الدخول فقد استحقّ أن يطالبها بنصف ما ساق إليها فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها .

[ولاتنسوا الفضل بينكم] أي لاتتركوا الفضل والإفضال فيما بينكم بإعطاء الرجل تمام الصداق وترك المرأة نصيبها فحثّهما على الإحسان والإفضال [إنّ الله بماتعملون بصير] ولايضيع ماعملتم من الإحسان « والبصر » في حقّه تعالى علمه وإحاطته المبصرات و المعلومات والحظّ الدينيّ من البصر للعبد أنّه ينظر إلى الآيات وعجائب الملكوت والملك بحيث يكون نظره عبرة ، والحظّ الدنيوي أن يرى المحسوسات .

---

(١) وفى بعض الروايات هوالاب والاخ والرجل يوصى اليه والذى يجوز امره فى مال المرأة الا ان الفتيا لم تبسط هذا البسط المشاه .

قوله تعالى : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين(٢٣٨) .

ومحافظة الصلوات أداؤها لوقتها والمداومة عليها والمراد الصلوات الخمس في كلّ يوم وليلة ثبت عددها بغيرها من الآيات والأحاديث المتواترة وبإشارة في هذه الآية وهو قوله : « الوسطى » تأنيث الأوسط وهو الشيء بين الشيئين على جهة الاعتدال وهي ما اكتنفه عددان متساويان و أقلّ ذلك خمسة لايقال : إنّ الثلاث بهذه الصفة لأنّ الثلاث لايكتنفها عددان فإنّ الّذي قبلها واحدٌ والّذي بعدها واحد وهو ليس بعدد فإنّ العدد ما إذا اجتمع طرفاه صار اضعفه وليس له طرفان فإنّه ليس قبله شيء .

وخصّ « الوسطى » بالذكر تفخيماً لشأنها كقوله « من كان عدوّاً لله وملائكته و كتبه ورسله وجبرئيل وميكال »[1] أي والصلاة الوسطى خاصّة فداوموا عليها .

ثمّ اختلفوا في الصلاة الوسطى قيل : إنّها صلاة الظهر عن زيد بن ثابت وابن عمر و أبي سعيد الخدريّ وأُسامة وعائشة وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام[2] وذكر بعض أئمّة الزيديّة أنّها الجمعة يوم الجمعة والظهر سائر الأيّام ورواه عن عليّ عليه السلام و يدلّ عليه أنّها وسط النهار . وأوّل صلاة فرضت الظهر .

وقيل : إنّها صلاة العصر عن ابن عبّاس والحسن وروي ذلك عن عليّ عليه السلام وابن مسعود وقتادة والضحّاك وروي مرفوعاً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قالوا : لأنّها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله : بكّروا بالصلاة في يوم الغيم فإنّه من فاتته صلاة العصر حبط عمله .

وقيل : إنّها المغرب لأنّها وسط في الطول والقصر من بين الصلوات ؛ روى الثعلبيّ بإسناده عن عائشة قالت : قال رسول الله : إنّ أفضل الصلوات عندالله المغرب لم يحطّها الله عن مسافر ولا مقيم فتح الله بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلّى المغرب وصلّى

---

(١) السورة : ٩٨ .

(٢) الفقيه : ابو بصير عن الصادق . العياشي : محمد بن مسلم عن الباقر عليهما السلام وفي معناها عدة روايات اخر . البرهان . علي بن ابراهيم : ٦٨ .

بعدها ركعتين بنى الله له قصراً في الجنّة ومن صلّى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنب عشرين أو أربعين سنة .

وقيل : إنّها صلاة العشاء الآخرة لأنّها بين صلاتين لاتقصران ؛ روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : من صلّى العشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلّى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة .

وقيل : صلاة العصر قال النبي صلى الله عليه وآله : الّذي تفوته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله وماله .

وقيل : إنّها صلاة الصبح عن معاذ وابن عبّاس وجابر بن عبدالله وعطا و عكرمة و مجاهد والشافعيّ قالوا : لأنّها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار و بين الظلام والضياء، وهي صلاة لاتجمع مع غيرها وهي منفردة بين مجتمعتين ويدلّ عليه قوله : «وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً» (١)

وفيه قول آخر : وهو أنّها إحدى الصلاة الخمس ولم يعيّنها وأخفاها في جملة الصلوات الخمس ليحافظوا على جميعها ولم يتركوا واحدة منها كما أخفى ليلة القدر واسمه الأعظم في الأسماء وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وأخفى وقت الموت في الأوقات ليكون المكلّف خائفاً من الموت في كلّ الأوقات فيكون آتياً بالتوبة في كلّ الأوقات كما سئل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى فقال : حافظ على الصلوات الخمس تصبها ، و كذلك سئل الربيع ابن خثيم عن صلاة الوسطى قال : حافظ على الكلّ تكن محافظاً على الوسطى ثمّ قال للسائل : ولو علمتها بعينها لكنت محافظاً عليها ومضيّعاً لسائرهنّ .

و قيل في تفسير الآية قول آخر و هو أنّ صلاة الوسطى مجموع صلوات الخمس لأنّها هي الوسطى من الطاعات حيث التفت وتقريره أنّ الإيمان بضع وسبعون درجة أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله وأدناها إماطة الأذى عن طريق المسلمين مثلاً والصلاة المكتوبة دون الإيمان وفوق إماطة الأذى فهي واسطة بين الطرفين .

[وقوموا لله قانتين] أي كونوا ذاكرين له في القيام قال ابن عبّاس : معناه داعين والقنوت هو الدعاء في الصلاة في حال القيام وهو المرويّ عن الباقرين عليهما السلام (٢) . وقيل :معناه

---

(١) الاسراء : ٧٨.
(٢) الطبرسي مرسلا .

طائعين.وقيل : خاشعين. نهوا عن العبث والالتفات في الصلاة «وقانتين» حال من فاعل «قوموا» وكانوا إذا قاموا إلى الصلاة هابوا الرحمن أن يمدّوا أبصارهم أو يلتفتوا أو يحدثوا أنفسهم بشيء من أمور الدنيا إلّا ناسياً .

فان خفتم فرجالا او ركبانا فاذا امنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون (٢٣٩).

«الرجال» مثل قيام جمع راجل وتجار جمع تاجر أي إن كان بكم خوف من عدوّ أو غير [فرجالاً] منصوب على الحال وعامله محذوف تقديره فصلّوا راجلين «والراجل» هو الكائن على رجله ماشياً كان أو واقفاً [أو ركباناً] أي راكبين على ظهور دوابّكم وعنى سبحانه صلاة الخوف وهي ركعتان في السفر إلّا في المغرب فإنّها ثلاث ركعات ويروى «فرجالاً» بضمّ الراء والتخفيف و«رجّال» بالتشديد وضمّ الراء و«رجّلاً» وشرح صلاة الخوف مبسوط في كتب الفقه وهي تختلف أيضاً في حال الحرب وفي غير حال الحرب وعن ابن عبّاس أنّ صلاة الخوف ركعة قال الرازيّ : وهو قول متروك والجمهور على خلافه .

[فإذا أمنتم] من الخوف وزال [فاذكروا الله كما علّمكم] أي صلّوا على الترتيب المبيّن لكم في الأوقات المتعارفة كما علّمكم في أمور صلاتكم ودينكم [مالم تكونوا تعلمون] قبل البيان .

وعن كعب الأحبار أنّه قال : قال الله لموسى في مناجاته : يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد واُمّته وهي صلاة الظهر أُعطيهم في أوّل ركعة منها المغفرة وفي الثانية أُثقّل ميزانهم وفي الثالثة أُوكّل بهم الملائكة يسبّحون ويستغفرون لهم لا يبقى ملك في السماء ولا في الأرض إلّا ويستغفر لهم ومن استغفرت له الملائكة لم أُعذّبه أبداً وفي الرابعة أفتح لهم أبواب السماء وتنظر إليهم الحور العين .

يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد واُمّته وهي صلاة العصر ما يسألون منّي حاجة إلّا قضيت لهم .

يا موسى ثلاث ركعات يصلّيها أحمد واُمّته وهي صلاة المغرب أفتح لهم أبواب السماء .

ياموسى أربع ركعات يصلّيها أحمد وأُمّته وهي صلاة العشاء خير لهم من الدنيا وما فيها ويخرجون من الدنيا كيوم ولدتهم أُمّهاتهم .

قوله تعالى والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لازواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج فان خرجن فلاجناح عليكم فيما فعلن في انفسهن من معروف والله عزيز حكيم(٢٤٠) .

أي يموتون يسمّي المشارف إلى الوفات متوفّياً تسميةً للشيء باسم ما يؤول إليه وقرينة المجاز امتناع الوصيّة بعد الوفات [ويذرون أزواجاً] أي يتركون نساءً من بعدهم [وصيّةً لأزواجهم] قرىء وصيّة بالنصب أي وصوا وصيّةً والقراءة على الرفع مبتدأ والظرف خبره وحسن الابتداء بالنكرة لأنّه موضع تخصيص كما في سلام عليكم فليوصوا وصيّةً لهنّ أوالمعنى وصيّة من الله لأزواجهم أو عليهم وصيّة لهنّ [متاعاً إلى الحول] يعني ماينتفعن به حولاً من النفقة وكان يجب على الّذين يتوفّون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم حولاً بالنفقة والكسوة والسكنى .

قيل : نزلت الآية في رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأة فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبي ﷺ والديه وأولاده من ميراثه ولم يعط إمرأته شيئاً وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولاً و كان عدّة الوفاة في بدو الإسلام حولاً وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول وكان نفقتها واجبة في مال زوجها ما لم تخرج ولم تكن لها ميراث فإن خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها وكان على الرجل أن يوصي بها فكان الحكم كذلك ثمّ نسخت بآية المواريث بعدو نسخ عدّة الحول بأربعة أشهر وعشر .

[غير إخراج] أي لايخرجن من بيوت الأزواج [فإن خرجن] بأنفسهنّ قبل الحول من غير أن يخرجهنّ الورثة [فلا جناح عليكم] يا معشر الأولياء [في مافعلن في أنفسهنّ من معروف] واختلفوا في رفع الجناح قيل : لاجناح في قطع النفقة و المسكن عنهنّ إن خرجن قبل الحول وبطل الحقّ الّذي لهنّ بالإقامة كان واجباً . وقيل : المعنى لا جناح عليكم في ترك منعهنّ من الخروج لأنّ مقامها سنة في البيت غير واجب لكن قد خيّرها الله في

ذلك وقيل : معنى الآية : لاجناح عليكم أن تزوّجن بعد انقضاء العدّة وعلى هذا فالمراد من قوله : «من معروف» التزويج و نكاح .

[والله عزيز] غالب على أمره يعاقب من خالفه [حكيم] يراعي في أحكامه مصالح عباده

و للمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين (٢٤١) كذلك يبين لكم آياته لعلكم تعقلون (٢٤٢) .

لمّا بيّن أحوال المعتدّات بيّن ما يجب لهنّ من المتعة واختلف فيه فقال سعيد بن جبير و أبو العالية والزهري : إنّ المراد بهذا متاع المتعة و أنّ المتعة حسب ما ذكرت قبل هذا واجبة لكلّ مطلّقة وقال أبو علي الجبّائي : المراد بها النفقة وهو المتاع المذكور في قوله : «متاع إلى الحول» وقال سعيد بن المسيّب : الآية منسوخة بقوله : «فنصف ما فرضتم» قال الطبرسيّ : وعندنا لا تجب المتعة إلّا للمطلّقة الّتي لم يدخل بها و لم يفرض لها مهر فأمّا المدخول بها فلها مهر مثلها وإن لم يسمّ لها مهرٌ وإن سمّي لها مهر فما سمّي لها وغير المدخول المفروض مهرها لها نصف المهر ولا متعة لها و لا بدّ من تخصيص هذه .

وقال صاحب تفسير روح البيان : معنى الآية : وللمطلّقات سواء كنّ مدخولاً بهنّ أم لا متاع أي مطلق المتعة الشاملة للمستحبّة والواجبة فإن كانت المطلّقة غير مدخولة وغير مفروضة الصداق وجبت المتعة لها وإن كانت غير ذلك يستحبّ لها ولفظ التمتّع المدلول عليه « بمتّعوهنّ » في الآية السابقة يحمل على الواجب و هذه في المستحبّ فلا منافاة في الآيتين .

[بالمعروف حقاً على المتّقين] أي متاع متلبّس بالمعروف شرعاً وعادةً ممّا ينبغي على من كان متّقياً .

[كذلك يبيّن الله لكم آياته] أي كما يبيّن الله لكم الأحكام والآداب الّتي مضت ممّا تحتاجون إلى معرفتها في دينكم بيّن لكم هذه الأحكام فشبّه البيان الّذي يأتي بالبيان الماضي [لعلّكم تعقلون] أي لكي تفهموا وتكمل عقولكم فإنّ العقل الغريزيّ يكمل بالعقل المكتسب و برؤية الآيات .

الم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذرالموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون (٢٤٣) .

لمّا ذكرالله قوله : «يبيّن الله لكم آياته» ذكر آية من آياته فقال : [ألم تر] أي ألم ينته علمك أيّها السامع [إلى] خبر هؤلاء [الّذين خرجوا من ديارهم] نزل سماعهم القصّة منزلة رؤيتهم تنبيهاً على ظهورها وتحقّقها ومعنى الرؤية ههنا رؤية القلب وهي بمعنى العلم و كلّ ماوقع في القرآن «ألم تر» ولم يعاينه النبي ﷺ فهو بمعنى العلم وحاصله اعلم ذلك لأنّ همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أوعلى الاستفهام صار إيجاباً وتقريراً .

والّذين خرجوا قيل : إنّهم قومٌ من بني إسرائيل فرّوا من الطاعون وقع بأرضهم وقيل : فرّوا من الجهاد وقد كتب عليهم عن الضحّاك ومقاتل واحتجّا بعقيب الآية بقوله : «وقاتلوا في سبيل الله» وقيل : هم قوم حزقيل وهو ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى وذلك أنّ القيّم بأمر بني إسرائيل بعد موسى يوشع بن نون ثمّ كالب بن يوحنّا ـ أو يوفنّا ـ ثمّ حزقيل وقدكان يقال له : ابن العجوز وذلك أنّ أمّه كانت عجوزاً فسألت الله الولد وقد كبرت و عقمت فوهبه الله لها . وقيل : هو ذوالكفل وإنّما سمّي حزقيل ذوالكفل لأنّه كفل سبعين نبيّاً نجاهم من القتل وقال لهم : اذهبوا فإنّي إن قتلت كان خيراً من أن تقتلوا جميعاً فلمّا جاء اليهود وسألوا حزقيل عن الأنبياء السبعين قال : لهم ذهبوا ولا أدري أين هم و منع الله ذاالكفل من أذاهم .

[وهم ألوف] أجمع أهل التفسير بأنّ المراد «بألوف» كثرة العدد إلّا ابن زيد فإنّه قال : معناه خرجوا مؤتلفي القلوب لم يخرجوا عن تباغض فجعله جمع الآلف مثل قاعد و قعود وشاهد وشهود . واختلف من قال : المراد به العدد الكثير ؛ فقيل : ثلاثة آلاف عن عطاء . وقيل : ثمانية آلاف . وقيل : عشرة آلاف . وقيل : تسعة وثلاثين ألف . وقيل : أربعين ألف عن ابن عبّاس . وقيل : سبعين ألف والّذي يقضي به الظاهر أنّهم كانوا أكثر من عشرة آلاف لأنّ بناء فعول للكثرة وهو مازاد على العشرة ومانقص عنها يقال : فيه آلاف يقال : عشرة آلاف ولايقال : عشرة ألوف .

[حذر الموت] أي من خوف الموت [فقال لهم الله موتوا ثمّ أحياهم] قيل في معناه قولان : أحدهما أنّ معناه فأماتهم الله مثل قولهم : قلت برأسي كذا يعني أمرت وأشرت كذا . وقيل معناه : بقول سمعته الملائكة لضرب من العبرة والحكمة ثمّ أحياهم الله بدعاء نبيّهم حزقيل أو شمعون . قيل : إنّ اسم القرية الّتي خرجوا منها هرباً من وبائها دواوردان وقيل : واسط .

قال الكلبيّ وجماعة من أهل التفسير : إنّ ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم فخرجوا وعسكروا ثمّ كرهوا الموت فاعتذروا وقالوا : إنّ الأرض الّتي يأتيها الوباء فلا نأتيها حتّى ينقطع منها الوباء وكان بها الوباء فأرسل الله عليهم الموت فلمّا رأوا أنّ الموت كثر فيهم أيضاً خرجوا من ديارهم فراراً من الموت حتّى نزلوا وادياً بين جبلين ناداهم ملك من أسفل الوادي وملك آخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعاً من غير علّة بأمر الله وماتت دوابّهم كموت رجل واحد فلمّا مرّ عليهم حزقيل وجعل يتفكّر فيهم متعجّباً فأوحى الله تعالى : ياحزقيل تريد أن أراك آية وأراك كيف اُحيي الموتى ؟ قال : نعم ، فأحياهم الله .

وقيل : إنّهم كانوا قوم حزقيل فأحياهم الله بعد ثمانية أيّام و ذلك أنّه لمّا أصابتهم الموتة خرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى فبكى ثمّ قال : يارب كنت في قوم يحمدونك ويقدّسونك ويسبّحونك فبقيت وحيداً لاقوم لي فأوحى الله إليه قد جعلت حياتهم إليك فقال حزقيل : أحيوا بإذن الله فعاشوا .

قال الباقر عليه السلام : ردّهم الله إلى الدنيا فسكنوا الدور وأكلوا الطعام ونكحوا النساء ومكثوا بذلك ماشاء الله ثمّ ماتوا بآجالهم .

[إنّ الله لذو فضل على الناس] بما أراهم من الآية العظيمة ليلتزموا سبيل الهدى و يجتنبوا طريق الردى [ولكن أكثر الناس] باقون على الكفران وليسوا بشاكرين .

قوله تعالى : وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم (٢٤٤) .

اختلف في توجيه الخطاب فقيل : إنّه خطابٌ للذين جرى ذكرهم على تقدير في الكلام وقيل لهم : قاتلوا في سبيل الله . وقيل : الخطاب لهذه الاُمّة وهو معطوفٌ على مقدّر تقديره : فأطيعوا وقاتلوا في سبيل الله لإعلاء دينه متيقّنين أنّ الفرار من الموت غير مخلّص وأنّ

القدر واقع فلا تحرموا إحدى النصرين : إمّا الفوز بالثواب وإمّا الموت في سبيل الله .

[واعلموا أنّ الله سميعٌ عليم] يسمع مقالة السابقين إلى الجهاد من ترغيب الغير فيه ومقالة المتخلّفين منه من تنفير الغير ، ويعلم أنّ خلف المتخلّف لأيّ جهة وأنّ جهاد المجاهد لأيّ سبب .

قوله : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون (٢٤٥) .

«القرض» في اللغة القطع و يسمّي الدين قرضاً لأنّه يقطع جزءاً من المال بالإعطاء على أن يردّ المقترض مثله بدلاً منه [من ذا الّذي] استفهام للتحريض على التصدّق مبتدأ «ذا» إشارة إلى المقترض خبر أي من هذا . «الّذي» صفة «ذا» أو بدل منه [يقرض الله] والمراد من إقراض الله تقديم العمل الّذي الّذي يطلب به ثوابه [قرضاً] مصدر ليقرض بمعنى إقراض كقوله : «أنبتكم من الأرض نباتاً[١]» [حسناً] أي مقروناً بطيب النفس والإخلاص يكون حالاً وقيل : القرض حسن المجاهدة والإنفاق في سبيل الله . قيل : من أنواع القرض قول الرجل: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر» .

[فيضاعفه له] ويزيده على أصله حتّى يصير مثلين أو أكثر إلى ماشاء الله [أضعافاً كثيرة] بيانٌ لقطع الأوهام عن مبلغ الحساب أي لا يعلم قدره إلّا الله الواحد بسبعمائة . قال البيهقي : إنّ التضعيفات فضل من الله يدخرها للعبد فضلاً منه .

[والله يقبض] يقتر على البعض [ويبسط] يوسّع على بعض أو يقتر تارة ويوسّع أُخرى مبنيّ على المصالح فإذا علمتم أنّه تعالى هو القابض والباسط فلا تبخلوا عليه وأقرضوه قال الصادق عليه السلام : لمّا نزلت «من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها[٢]» قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ياربّ زدني ، فنزلت «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها[٣]» فقال رسول الله : ربّ زدني فأنزل الله : «من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» والكثير عند الله لا يحصى .

[وإليه ترجعون] تأكيد للجزاء فرجوعكم إلى الله فيجازيكم بأحسن الجزاء .

قال الكلبي في سبب نزول هذه الآية : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : من تصدّق بصدقة فله

---

(١) نوح : ١٦ . (٢) النمل : ٩١ .
(٣) الانعام : ١٦١ .

مثلاها في الجنّة فقال أبو الدحداح الأنصاري ـ واسمه عمرو ـ : يا رسول الله إنّ لي حديقتين إن تصدّقت بإحداهما فإنّ لي مثليها في الجنّة؟ قال: نعم، قال: وأمّ الدحداح معي؟ قال: نعم قال: الصبيّة معي؟ قال ﷺ: نعم، فتصدّق بأفضل حديقتيه ودفعها إلى رسول الله فنزلت الآية فضاعف الله له صدقته، الحديث.

قوله تعالى: الم تر الى الملاء من بنى اسرائيل من بعد موسى اذقالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا ومالنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين (٢٤٦).

ألم ينته علمك إلى جماعة الأشراف من بني إسرائيل؟ ولمّا تقدّم ذكر الجهاد عقّب سبحانه بهذه الآية بقصّة مشهورة في بني إسرائيل تضمّنت شرح ما نالهم من قعودهم عن الجهاد تحذيراً للمسلمين من سلوك طريقة أُولئك فيه [من بعد موسى] أي بعد وفاة موسى [إذ قالوا لنبيّ لهم] اختلف في ذلك النبيّ قيل: إنّه إشموئيل ـ وهو بالعربيّة إسماعيل ـ عن أكثر المفسّرين وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وقيل: هو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف ابن يعقوب عليه السلام. وقيل: هو شمعون سمّته بذلك لأنّ أُمّه دعت إلى الله يرزقها غلاماً فسمع الله دعاءها فيه و بالعربيّة سمعون وإنّ السين عندهم الشين وأُمّه صفيّة من ولد لاوي بن يعقوب.

[ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله] وسؤالهم لذلك لاستعلاء الجبابرة عليهم و غلبوهم على كثير من ديارهم وسبوا كثيراً من ذراريهم بعد أن كانت الخطايا قد كثرت في بني إسرائيل ونسوا عهد الله وعظمت فيهم الأحداث فبعث الله إليهم إشموئيل نبيّاً قالوا: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل. وأرادوا قتال العمالقة وسألوا من النبيّ أميراً عليهم يقيم أُمورهم في جهاد عدوّهم قال أبو عبدالله عليه السلام: كان الملك في ذلك الزمان هو الّذي يسير بالجنود والنبيّ يقيم وينبّئه بالوحي من عند ربّه.

فقال النبيّ: لعلّكم إن فرض [عليكم القتال ألّا تقاتلوا] ولا تفوا بما تقولون ولا تقاتلوا، وإنّما سألهم عن ذلك ليعرف ما عندهم من الهمّة على القتال وهذا كأخذ العهد عليهم

ومعنى « عسيتم » قاربتم .

[قالوا] أي الملأ : [وما لنا ألّا نقاتل في سبيل الله] أي أيّ شيء لنا في ترك القتال ؟ أوليس لنا ترك القتال [وقد أُخرجنا] لفظه عامّ ومعناه خاصّ أي أُخرج بعضنا [من ديارنا] وأهالينا بالسبي والقهر أي إذا بلغ الأمر هذا المبلغ فلابدّ من الجهاد [فلمّا كتب عليهم القتال] في الكلام حذفٌ . فسأل النبيّ الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً يجاهدون معه أعداءهم فسمع الله دعوته فبعث لهم ملكاً و كتب عليهم القتال و [تولّوا] وأعرضوا عن القيام به وضيّعوا أمر الله [إلّا قليلاً منهم] وهم الّذين عبروا النهر، وهذه الآية تهديد لمن يتولّى عن القتال .

وقيل : لمّا كبر إشموئيل أسلموه لتعلّم التوراة في بيت المقدّس وكفّله شيخ من علمائهم وتبنّاه فلمّا بلغ الغلام أتاه جبرئيل وهو نائم بجنب الشيخ وكان الشيخ لا يأتمن عليه فدعاه جبرئيل بلحن الشيخ : يا إشموئيل فقام الغلام مسرعاً إلى الشيخ فقال : يا أبتاه دعوتني ؟ فكره الشيخ أن يقول : لا ، لئلّا ينفزع الغلام فقال : يابنيّ ارجع فنم ، فرجع الغلام فنام ثمّ دعاه الثانية فقال الغلام : دعوتني ؟ فقال الشيخ : ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني ؛ فلمّا كانت الثالثة ظهر له جبرئيل فقال له : اذهب إلى قومك فبلّغهم رسالة ربّك فإنّ الله قد بعثك فيهم نبيّاً فلمّا أتاهم كذّبوه وقالوا له : استعجلت بالنبوّة ولم تأن لك فإن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . وكانت الملوك يومئذ مطيعة للأنبياء .

قوله تعالى : وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم(٢٤٧) .

طالوت وجالوت وداود لاتنصرف لأنّها أسماء أعجميّة وفيها السببان : التعريف والعجمة .

[وقال لهم نبيّهم] وذلك أنّ إشموئيل لمّا سأل الله أن يبعث لهم ملكاً أُتي بعصا

وقرن فيه دهن القدس وقيل له : إنّ صاحبكم الّذي يكون ملكاً طوله طول هذه العصا ، وانظر القرن الّذي فيه الدهن فإذا دخل عليك رجل ونشّ الدهن الّذي في القرن فهوملك بني إسرائيل فدهّن به رأسه وملّكه على بني إسرائيل . قال وهب : ضلّت حمر لوالدطالوت فأرسل أبو طالوت طالوت وغلاماً له في طلبها فمرّ طالوت والغلام ببيت إشموئيل فقال الغلام : لو دخلنا على هذا النبيّ فسألنا عن الحمير ليرشدنا ويدعولنا بحاجتنا ، فدخلا عليه فبينماهماعنده يذكران لهشأن الحمر إذنشّ أي تحرّك الدهن الّذي في القرن فقام إشموئيل فقاس طالوت بالعصا فكان على طولها فقال النبيّ لطالوت : قرّب رأسك فقرّبه فدهّنه بدهن القدس وهودهن مقدّس مطيّب وقال له : أنت ملك بني إسرائيل الّذي أمرني الله أن اُملكه عليهم ؛ قال : بأيّ آية ؟ قال : بآية أنّك ترجع وقدوجد أبوك حمره فكان كذلك وسمّي طالوت لطول قامته .

ثمّ قال إشموئيل لبني إسرائيل : [إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً] فأطيعوه وقاتلوا عدوّكم معه [قالوا] متعجّبين ومنكرين : [أنّى يكون له الملك علينا] أي من أين يستأهل [ونحن أحقّ] وأولى بالرياسة عليه [منه] بالرياسة علينا [ولم يؤت سعة من المال] ولم يعط ثروة فيشرف بالمال فكيف يتملّك علينا وكان طالوت من ولد بنيامين ابن يعقوب عليه السلام .

قيل : إنّ طالوت كان سقّاء . وقيل : كان دبّاغاً . وقيل: مكارياً . وسبب هذا الاستبعاد منهم أنّ النبوّة كانت مخصوصة لسبط معيّن من أسباط بني إسرائيل وهو سبط لاوي بن يعقوب ومنه كان موسى وهارون ، وسبط المملكة و السلطنة سبط يهودا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل هو من ولد بنيامين بن يعقوب وكانوا قد عملوا ذنباً عظيماً ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً فغضب الله عليهم ونزع الملك والثروة منهم وكانوا يسمّونه سبط الإثم وكان طالوت يتحرّف بحرفة دنيئة .

[قال] لهم نبيّهم ردّاً عليهم : [إنّ الله اصطفاه عليكم] واختاره فإن لم يكن له نسب ومال فإنّ له حسباً و فضيلة وهو قوله : [وزاده بسطة] أي سعة وامتداداً [في العلم] المتعلّق بالملك [والجسم] وكان أطول وأقوى من غيره وأقوم على مقاومة الأعداء ومكابدة

الحروب [والله يؤتي ملكه من يشاء] لما أنّه المالك [والله واسع] يوسّع على الفقير ويغنيه إذا أراد [عليمٌ] بمن يليق بالملك .

قال الزمخشريّ : كم يحدث بين الخبيثين ابن لايعابن والفرث والدم يخرج من بينهما اللبن لأنّ اللبن يخرج من بين السرجين والدم وهما مع كونهما مستقذرين لايؤثران في اللبن بشيء من طعمهما ولونهما بل يحدث من بينهما لطيفاً سائغاً للشاربين مع أنّ الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخٌ من قدرة الله لايبغي أحدهما عليه بلون ولارائحة ولاطعم ، وإذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها (١) فكان أسفله فرثاً وأوسطه مادّة اللبن وأعلاه مادّة الدم وجعل الله الكبد مسلّطة على هذه الأصناف الثلاثة فقسّمها فتجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش .

فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تأمّل ! فيجعل من الحجر جوهراً ومن الشوك ريحاناً ووردا .

قوله تعالى : وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين (٢٤٨) .

[وقال لهم نبيّهم] طلبوا علامة من نبيّهم على كون طالوت ملكاً عليهم فقالوا : ما آية ملكه ؟ فقال : [إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت] من التوب وهو الرجوع وسمّي « تابوتاً » لأنّه ظرفٌ توضع فيه الأشياء وتودع فلايزال يرجع إليه مايخرج منه وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله بعد وفاة موسى لمّا عصوا واعتدوا سخط عليهم .

فلمّا طلب القوم من نبيّهم آية تدلّ على ملك طالوت ، قال لهم : إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف و القوم ينظرون إليه حتّى نزل عند طالوت ، وهذا قول ابن عبّاس .

وقال غيره من أرباب الأخبار : إنّ الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام تابوتاً أي صندوقاً فيه تماثيل الأنبياء من أولاده وكان التابوت من عود الشمشاد ونحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين

(١) هو لذي الخف والظلف بمنزلة المعدة للانسان .

فكان عند آدم عليه السلام إلى أن توفي فتوارثه أولاده واحداً بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ثم بقي في أيدي بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه وكان إذا قاتل قدمه فكانت تسكن إليه نفوس بني إسرائيل وكان عنده إلى أن توفي ثم تداولته أيدي بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فإذا سمعوا في التابوت صحية استيقنوا بالنصر فلما عصوا و فسدوا سلّط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه و جعلوه موضع البول والغائط فلما أراد الله أن يملّك طالوت سلّط الله عليهم البلاء حتّى أنّ كلّ من بال عنده ابتلي بالبواسير.

وهلكت من بلادهم خمس مدائن يعني أهلها فعلم الكفّار أنّ ذلك سبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه و جعلوه على عجلة و عقلوها على ثورين فأقبل الثوران يسيران و قد وكّل الله بهما أربعةً من الملائكة يسوقونهما حتّى أتيا منزل طالوت فلمّا وجدوه عنده أيقنوا بملكه ؛ فالإتيان على هذا مجاز لأنّه أتي به ولم يأت هو بنفسه فنسب الإتيان إليه توسّعاً كما يقال : ربحت التجارة . وعلى قول ابن عبّاس ـ وهو الوجه الأوّل ـ فالإتيان حقيقة .

[فيه] أي في إتيان التابوت [سكينةٌ من ربّكم] طمأنينة كاملة من الله لكم والضمير «للتابوت» .

قال المفسّرون : «السكينة» تطلق على ثلاثة أشياء بالاشتراك اللفظيّ :

اولها : ما أعطي بنو إسرائيل في التابوت كما قال تعالى : « إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربّكم» وهي ريح ساكنة طيّبة تخلع قلب العدوّ بصوتها رُعباً إذا التقى الصفّان وهي كانت معجزة لأنبيائهم و كرامة لملوكهم .

والثانية : شيء من لطائف صنع الله يلقي على لسان المحدّث الحكمة كما يلقي الملك الوحي على قلوب الأنبياء .

والثالثة : هي الّتي اُنزلت على قلب النبيّ صلى الله عليه وآله وقلوب المؤمنين يسكن إليه الخائف ويتسلّى به الحزين ويتمكّن لهم الثبات كما قال تعالى : «فأنزل الله سكينته على رسوله و

على المؤمنين[1]» أقول : ولعلّ القسم الثالث من سنخ القسم الثاني .

قوله تعالى [وبقيّة]كائنة [ممّا]من بعض ما[ترك آل موسى وآل هارون]وهي رضاض الألواح وعصا موسى من آس الجنّة وثيابه ونعلاه وعمامة هارون وخاتم سليمان وقفيزمن المنّ أي الترنجبين النازل عليهم

وعن أبي جعفر عليه السلام : إنّ التابوت كان الّذي أنزله الله على أمّ موسى فوضعت ابنها فيه وألقته في البحر وكان في بني إسرائيل معظّماً فلمّا حضر لموسى الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وماكان عنده من آثار النبوّة وأودعه عند وصيّه يوشع فلم يزل التابوت عندهم وهم في عزّ وشرف حتّى استخفّوا به وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات فانتزع من بين أيديهم إلى أن ردّه على طالوت . وقيل : إنّ السكينة كان لها وجه كوجه الإنسان وكان لها ريح هفهافة[2] وقال ابن عبّاس : هي صورة من زبرجد أو ياقوت ، لها رأس كرأس الهرّ وذنب كذنبه ، فإذا صاحت كصياح الهرّ ذهب التابوت نحو العدوّ وهم يمضون معه ، فإذا وقف وقفوا ونزل النصر .

[تحمله الملائكة] حال من «التابوت» أي حال كونه محمولاً للملائكة ولعلّ المراد من حمل الملائكة إيّاه حفظهم وكان ينزل هو بنفسه إلى الأرض أو بسوق الملائكة على رواية المذكورة ؛ لأنّ من حفظ شيئاً أو باشره جاز أن يضاف الحمل إليه .

[إنّ في ذلك لآية] أي في رجع التابوت إليكم علامة أنّ الله ملّك طالوت عليكم [إن كنتم مؤمنين] وقيل : لمّا غلب الأعداء على التابوت أدخلوه بيت الأصنام فأصبحت أصنامهم منكّبة فأخرجوه ووضعوه ناحية من المدينة فأخذهم وجع في أعناقهم وكلّ موضع وضعوه ظهر فيه بلاء وموت ووباء فأشير عليهم أن يخرجوا التابوت من عندهم فأجمع رأيهم أن يحملوه على عجلة ويشدّوها على ثورين ويبعدوه ففعلوا ذلك وأرسلوا الثورين فجاءت الملائكة وساقوا الثورين إلى بني إسرائيل فهذا معنى « تحمله الملائكة » .

قوله تعالى : فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ولم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا

---

(١) التوبة : ٤١ . (٢) اى باردة .

منه الاقليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين(٢٤٩) .

التقدير : [فلمّا فصل] نفسه ولمّا اتّحد فاعله ومفعوله شاع محذوف المفعول والمعنى : انفصل عن بلده مصاحباً لبني إسرائيل لقتال العمالقة «والجنود» جمع جند و هو الجيش الأشدّاء ، مأخوذ من الجند وهي الأرض الشديدة الصلبة .

روي أنّهم لمّا رأوا التابوت لم يشكّوا النصر فتسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت : لايخرج معي شيخ ولا مريض ولا رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دَين ولا رجل تزوّج امرأة ولم يبن بها ولا أبتغي إلّا الشابّ النشيط الفارغ فاجتمع إليه ممّن اختاره ثمانون ألفاً وكان الوقت قيظاً و سلكوا مفازة [١] فشكوا قلّة الماء وسألوا أن يجري لهم نهراً [قال] طالوت بإخبار من النبيّ إشموئيل : [إنّ الله مبتليكم بنهر] أي يعاملكم معاملة المختبر بما اقترحتموه ، وذلك الاختبار ليظهر عند طالوت من كان مخلصاً في نيّته من غيره ليميّزهم من العسكر لأنّ من لا يريد القتال إذا خالط عسكراً يدخل الضعف في العسكر فينهزمون بشؤمه .

[فمن شرب منه] أي من النهر بتسكين الهاء، وتحريكها لغتان و كلّ ثلاثيّ حشوه حرف من حروف الحلق فإنّه يجيء على هذين كقولك : صخر وصخر و بحر و بحر قال الشاعر :

كأنّما خلقت كفّاه من حجر	فليس بين يديه و الندى عمل
يرى التيمّم في برّ و في بحر	مخافةَ أن يُرى في كفّه بلل

وفي النهر قيل : إنّه نهر فلسطين . وقيل : نهر بين الأُردنّ وفلسطين . و قيل : جرى الله لهم نهراً باقتراحهم [فليس منّي] أي ليس من أهل طاعتي [ومن لم يطعمه] أي من لم يذق طعمه وهو يستعمل على الطعام والشراب وهو من الطعم .

[ومن لم يطعمه] ولم يذقه [فإنّه منّي] من حملتي وأشياعي وأهل ديني [إلّا من

(١) القيظ شدة الحر والمفازة الفلاة لاماء بها .

اغترف غرفةً بيده] قرىء «غرفة» بضمّ الغين الشيء القليل الّذي يحصل في الكفّ و بالفتح قرىء وهو الاغتراف مرّة واحدة ومثاله «الأُكلة والأَكلة» فإنّ الأُكلة بالضمّ أي الشيء القليل كاللقمة وأشباهها ولكنّ الأكله بالفتح أي مرّة واحدة يقال : فلان يأكل بالنهار أكلة واحدة يعني مرّة والمعنى الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع[١] استثناء من قوله : «فمن شرب منه فليس منّي» وإنّما أخبر في الذكر عن الجملة الثانية لكمال العناية بها أي إلّا من أخذ الماء مرّة واحدة باليد وهذا إذا كان بفتح الغين ، وإذا كان بالضمّ فمعناه إلّا من شرب منه مقدار ملء كفّه قال ابن عبّاس : كانت الغرفة يُشرب منها هو و دوابّه وخدمه ويحمل منها وهذا كان معجزة لنبيّ ذلك الزمان كما كان النبيّ ﷺ يروي الخلق الكثير من الماء القليل .

[فشربوا منه إلّا قليلاً] فالّذين شربوا القليل كانوا على عدد أهل بدر ثلاثمائة و بضعة عشر بدليل قوله ﷺ : لأصحابه يوم بدر : أنتم اليوم على عدّة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وكانوا يومئذ ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلاً . وقيل : إنّ الّذين لم يزيدوا على الاغتراف أربعة آلاف لكنّ المشهور الأوّل وأمّا الّذين شربوا كراعاً[٢] و خالفوا أمر الله فاسودّ شفاههم وغلبهم العطش ولم يرووا وبقوا على شطّ النهر وجبنوا عن لقاء العدوّ ، والمؤمنون القليلون عبروا النهر . وقرىء «إلّا قليل» بالرفع ميلاً إلى جانب المعنى ؛ لأنّ الكلام في قوّة أن يقال : لم يطيعوه إلّا قليل ، فحقّ المستثنى أن يكون مرفوعاً . نعم شرب الماء بغير إذنه تعالى حرام وسفك الدم بإذنه واجب .

[فلمّا جاوزه هو و الّذين آمنوا معه] أي فلمّا جاوز و عبر طالوت والمؤمنون النهر [قالوا] أي بعض من معه من المؤمنين لبعض آخر منهم ، و قد صار المؤمنون فرقتين فريقاً يحبّ الحياة ويكره الموت وغلب الخوف عليهم وفريقاً كان شجاعاً قويّ القلب لا يبالي في طاعة الله الموت .

فالقسم الأوّل هم الّذين قالوا : [لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] لما شاهد وامنهم من الكثرة والقوّة وكانوا مائة ألف مقاتل شاكي السلاح .

(١-٢) الكروع والكرع مد العنق لتناول الماء بالفم .

والقسم الثاني هم الّذين أجابوهم بقولهم : «كم من فئة ، الآية» [قال الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا الله] قيل في «يظنّون» معناه يستيقنون والظنّ استعملوه في اليقين . وقيل : إنّ معنى الظنّ في الآية : يحدّثون نفوسهم وهو أصل الظنّ لأنّ حديث النفس بالشيء قد يكون مع الشكّ وقد يكون مع العلم إلّا أنّه قد كثر على ماكان مع الشكّ [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة] أي كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة «والفئة» اسم للجماعة من الناس قلّت أو كثرت و الجمع : فئون وفئات [بإذن الله] وحكمه وتيسيره ؛ فمن نصره لا يذلّ وإن قلّ عدده ولا يعزّ من خذله وإن كثر استعداده [والله مع الصابرين] بالنصرة على العدوّ .

قال الراغب : في القصّة مثال للدنيا وأبنائها ، فإنّ من يتناول قدر ما يتبلّغ به اكتفى واستغنى وسلم منها و نجا ومن تناول منها فوق ذلك ازداد عطشاً ولهذا قيل : الدنيا كالملح من ازداد منها عطش . وفي الحديث لو أنّ لابن آدم واد بين جبلين من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً فلا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب .

وأوحى الله إلى داود يا داود تريد وأُريد فإن رضيت بما أُريد كفيتك ماتريد و إن لم ترض بما أُريد أُتعبك ثمّ لا يكون إلّا ما أُريد .

قال النبيّ ﷺ في وصيّته لأبي هريرة : **يا أبا هريرة كن بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا و إذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا . قال أبو هريرة : و من هم يا رسول الله ؟ قال : قوم من أُمّتي في آخر الزمان يحشرون محشر الأنبياء إذا نظر الناس إليهم ظنّوهم أنبياء ممّا يرون من حالهم حتّى أعرفهم أناقاً قول أُمّتي ، فيعرف الخلائق أنّهم ليسوا أنبياء فيمرّون مثل البرق أو الريح يغشى أبصار أهل الجمع من أنوارهم فقلت : يا رسول الله مرني بمثل عملهم لعلّي ألحق بهم فقال : يا أبا هريرة ركب القوم طريقاً صعباً آثروا الجوع بعدما أشبعهم الله ، والعري بعدما كساهم الله ، والعطش بعد ما أرواهم الله تركوا ذلك رجاء ماعند الله تركوا الحلال مخافة حسابه فصحبوا الدنيا بأبدانهم ولم يشتغلوا بشيء منها ، عجبت الملائكة والأنبياء من طاعتهم لربّهم طوبى لهم وددت أنّ الله جمع بيني وبينهم ثمّ بكى رسول الله ﷺ شوقاً إليهم .**

ثمّ قال عليه السلام : إذا أراد الله بأهل الأرض عذاباً فنظر إليهم صرف العذاب عنهم فعليك بطريقهم .

ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥٠) فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتيه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين (٢٥١) .

[ولمّا] ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين و صاروا إلى براز و فضاء من الأرض في موطن الحرب [لجالوت وجنوده] وشاهدوا من عليهم من العدد والعدّة و أيقنوا أنّهم غير مطيقين لهم عادة [قالوا] جميعاً متضرّعين إلى الله : [ربّنا] في ندائهم اعتراف منهم بالعبوديّة [أفرغ علينا] صُبّ علينا ، استعارة عن الإكمال والإكثار وإفراغ الإناء إخلاؤه ممّا فيه [صبراً] على مقاساة شدائد الحرب [وثبّت أقدامنا] في مداحض القتال ونزال النزال وعدم التزلزل [وانصرنا على القوم الكافرين] بقهرهم و هزمهم [فهزموهم بإذن الله] فكسروهم بتأييده وإجابة لدعائهم [و قتل داود جالوت] .

وفي تفسير روح البيان أنّ جالوت الجبّار كان رأس العمالقة وملكهم وكان من أولاد عمليق بن عاد و كان من أشدّ الناس و أقواهم و كان يهزم الجيوش وحده و كان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد و كان ظلّه ميلاً لطول قامته و كان إيشي أبو داود في جملة من عبر النهر مع طالوت و كان معه سبعة من أبنائه و كان داود أصغرهم سنّاً يرعى الغنم فأوحى الله إلى نبيّ العسكر وهو إشموئيل : إنّ داود بن إيشي هو الّذي يقتل جالوت فطلبه من الله فجاء به فقال له النبيّ : لقد جعل الله قتل جالوت على يدك فاخرج معنا لمحاربته فخرج معهم فمرّ داود في الطريق بحجر فناداه يا داود احملني فإنّي حجر هارون الّذي قتل بي ملك كذا فحمله في مخلاته ثمّ مرّ بحجر آخر فقال له : احملني فإنّي حجر موسى الّذي قتل بي كذا و كذا فحمله في مخلاته ثمّ مرّ بحجر آخر فقال له : احملني فإنّي حجرك الّذي تقتل بي جالوت فوضعه في مخلاته وكان داود من عادته رمي القذافة و كان لا يرمي بقذافته شيئاً من الذئب والأسد والنمر إلّا صرعه وأهلكه .

فلمّا تصافّ العسكران للقتال برزجالوت وسأل من يخرج إليه فلم يخرج إليه أحدٌ فقال : يابني إسرائيل لو كنتم على حقّ لبارزني بعضكم فقال داود لإخوته : من يخرج إلى هذا الأقلف ؟ فسكتوا فالتمس منه طالوت أن يخرج إليه و وعده أن يزوّجه ابنته و يعطيه نصف ملكه فلمّا توجّه داود نحوه أعطاه طالوت فرساً ودرعاً وسلاحاً فلبس الدرع و السلاح وركب الفرس فسار قريباً ثمّ انصرف إلى الملك فقال من حوله : جبن الغلام فجاء فوقف على الملك فقال : ماشأنك ؟ فقال : إنّ الله تعالى إن لم ينصرني لم يغن عنّي السلاح شيئاً فدعني اُقاتل كما اُريد ، قال : نعم ، فأخذ داود مخلاته فتقلّدها و أخذ المقلاع ومضى نحو جالوت .

ولمّا نظر جالوت إلى داود قذف في قلبه الرعب فقال : يافتى ارجع فإنّي أرحمك أن أقتلك قال داود : بل أنا أقتلك قال جالوت : لأقسمنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء قال داود : بل يقسّم الله لحمك فقال : باسم إله إبراهيم وأخرج حجراً ثمّ أخرج الآخر وقال : باسم إله إسحاق ثمّ أخرج الثالث وقال : باسم إله يعقوب فوضع الأحجار الثلاثة في مقلاعه وصارت كلّها حجراً واحداً ودوّر المقلاع ورمى به فسخّر الله له الريح حتّى أصاب الحجر أنف البيضة وخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً وهزم الله الجيش وخرّ جالوت قتيلاً ، فأخذ داود يجرّه حتّى ألقاه بين يدي طالوت ففرح المسلمون فرحاً شديداً وانصرفوا إلى المدينة سالمين فزوّجه طالوت ابنته وأجرى خاتمه في نصف مملكته .

فمال الناس إلى داود وأحبّوه فحسده ـ على ماقيل ـ طالوت وأراد قتله فتنبّه له داود وهرب منه فسلّط طالوت عليه العيون فلم تقدر عليه وانطلق داود الجبل مع المتعبّدين فتعبّد فيه دهراً طويلاً فأخذ العلماء والعبّاد ينهون طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحدٌ عن قتل داود إلّا قتله فأكثر في قتل العلماء الناصحين .

ثمّ ندم طالوت على ما فعله من المعاصي والمنكرات وأقبل على البكاء ليلاً و نهاراً حتى رحمه الناس وكان كلّ ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي : رحم الله عبداً يعلم أنّ لي توبةً إلّا أخبرني بها فلمّا أكثر التضرّع والإلحاح رقّ له بعض خواصّه فقال له : إن

دللتك أيها الملك لعلّك أن تقتله فقال :لاوالله بل اُكرمه أتمّ الإكرام وأنقاد إلى حكمه وأخذ مواثيق الملك وعهوده على ذلك فذهب به إلى باب امرأة تعلم اسم الله الأعظم فلمّا لقيها قبّل الأرض بين يديها وسألها هل له من توبة فقالت : لاوالله لاأعلم لك توبة ولكن هل تعلم قبر نبيّ قال : نعم فانطلق بها إلى قبر إشموئيل فصلّت ودعت ثمّ نادت صاحب القبر فخرج إشموئيل من القبر ينفض التراب عن رأسه فلمّا نظر إليهم سألهم وقال : مالكم أقامت القيامة ؟ قالت : لاولكن طالوت يسأل هل له من توبة ؟ قال إشموئيل : ياطالوت مافعلت بعدي ؟ قال : ماأدع من الشرّ شيئاً إلّا فعلته وجئت لطلب التوبة قال : كم لك من الولد ؟ قال : عشرة رجال قال : لاأعلم لك من التوبة إلّا أن تتخلّى من ملكك وتخرج أنت وولدك في سبيل الله ثمّ تقدّم ولدك حتّى يقتلوا بين يديك ثمّ تقاتل أنت فتقتل آخرهم ثمّ رجع إشموئيل إلى القبر و سقط ميّتاً ورجع طالوت ففعل ما اُمر به فجاء قاتله إلى داود ليبشّره وقال : قتلت عدوّك فقال داود : ما أنت بالّذي تحيى بعده فضرب عنقه فكان مدّة ملك طالوت إلى أن قُتل أربعين سنة وأتى بنو إسرائيل بداود وأعطوه خزائن طالوت وملّكوه على أنفسهم وملك داود بعد قتل طالوت سبعين سنة .

[وآتاه الله الملك] أي ملك بني إسرائيل في مشارق الأرض المقدّسة و مغاربها و لم يجتمعوا قبل داود على ملك [والحكمة] أي النبوّة ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوّة قبله إلّا له بل كان الملك في سبط والنبوّة في سبط آخر و أنزل عليه الزبور أربعمائة و عشرين سورة وهو أوّل من تكلّم «بأمّا بعد» وهو فصل الخطاب الّذي اُوتيه داود .

[وعلّمه مما يشاء] من صنعة الدروع بإلانة الحديد وكان يصنعها ويأكل ثمنها ولا يأكل من بيت المال وعلّمه منطق الطير وتسبيح و كلام النمل والحكل .(١) والصوت الطيّب و كان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتّى يؤخذ بأعناقها وتظلّه الطير وتسكن الريح ويركد الماء الجاري . ولعلّ ركود الماء وسكون الريح من معجزاته بل صوته وسائر الأمور .

[ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين] أي ولولا صرفه تعالى ، المصدر مضاف إلى فاعله « الناس » مفعول « الدفع » بعضهم الّذين

(١) بالضم كلام وصوت لايفهم .

يباشرون الفساد و هو بدل من « الناس » ببعض آخر منهم بردّهم عمّاهم عليه بماقدّرالله حسب ماهو الصلاح مثل القتل المذكور في القصّة المذكورة لفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطّلت مصالحها من الحرث والنسل .

وقيل : المعنى : ولولا دفع الله بالمؤمنين و الأبرار عن الكفّار والفجّار لهلكت الأرض ومن فيها ولكنّ الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر قال النبيّ ﷺ : إنّ الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت جيرانه البلاء ثم قرأ «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض» ولهذا قيل : الدين والملك توأمان ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر لأنّ الدين أساس والملك حارس و ما لا اُسّ له فمهدوم و ما لا حارس له فضائع والناس قد يكون لا ينقادون للرسل مع ظهور الحجج فاحتيج إلى المجاهدة بالسيف والسنان وسرّاس الخلق الأنبياء ثمّ الملوك ثمّ العلماء العاملين والوعّاظ العالمين .

«ولكنّ الله ذو فضل على العالمين» كافّة .

تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين(٢٥٢) .

[تلك] إشارة إلى ماسلف في الذكر من تمليك طالوت و تابوت السكينة وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت [آيات الله] المنزلة من عنده [نتلوها عليك] بواسطة جبرئيل [بالحقّ] حال من مفعول «نتلوها» أي كائنة بالوجه المطابق بالواقع [وإنّك لمن المرسلين] أي من جملة المرسلين الّذين اُرسلوا إلى الاُمم لتبليغ رسالاتنا و إجراء أوامرنا و إلّا لما اُخبرت بتلك الآيات من غير تعرّف و لااستماع و التأكيد لردّ قول المشركين : لست رسولاً .

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله و رفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد(٢٥٣) .

[تلك] إشارة إلى الجماعة الّذين من جملتهم النبيّ ﷺ و اللام للاستغراق في «الرُسل» [فضّلنا بعضهم على بعض] بأن خصّصناه بمنقبة ليست لغيره والأنبياء كلّهم متساوون

في النبوّة ؛ لأنّ النبوّة شيء واحد و التفاضل باعتبار الدرجات بلغ بعضهم درجة الخلّة كإبراهيم ولم يحصل ذلك لغيره وجمع لداود الملك والنبوّة وطيب النغمة ولم يحصل هذا لغيره وسخّر لسليمان الجنّ والإنس والطير والريح ولم يحصل هذا لأبيه داود على نبيّنا وآله وعليه السلام وخصّ محمّداً صلى الله عليه وآله بكونه مبعوثاً إلى الكلّ من الجنّ و الإنس و يكون شرعه ناسخاً لجميع الشرائع .

[منهم من كلّم الله] أي كلّمه الله من غير واسطة مثل موسى فهو مكالمه وقالت الأشاعرة : إنّ الكلام الّذي سمعه موسى وغيره هو الكلام القديم الأزليّ . و قال غيرهم : سماع ذلك الكلام محال وإنّما المسموع هو الحروف والأصوات وهو الحقّ .

[ورفع بعضهم درجات] أي على درجات قال مجاهد : أراد به محمّداً صلى الله عليه وآله فإنّه تعالى فضّله على جميع الأنبياء وأعطاه جميع الآيات الّتي أعطاها من قبله من الأنبياء وبأن خصّه بالقرآن الّذي لم يعطه غيره وهو المعجزة القائمة إلى يوم القيامة .

[وآتينا عيسى بن مريم البيّنات] كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والإخبار بما يأكلونه و يدخّرونه في بيوتهم و خلق الطير من الطين و الإنجيل وإنّما ذكر إيتاء «البيّنات» مع أنّها غير مختصّ بعيسى تقبيحاً لإفراط اليهود في تحقيره ولإفراط النصارى في تعظيمه حيث أخرجوه عن مرتبة الرسالة .

[و أيّدناه بروح القدس] أي الروح المطهّرة الّتي نفخها الله فيه فالقدس بمعنى «المقدّس» من قبيل رجل صدقٌ لأنّه لم يخلق من اجتماع نطفتي الذكر و الأنثى ولم تضمّه أصلاب الفحول و أرحام الطوامث أو القدس «هو الله» وروحه « جبرئيل » و الإضافة للتشريف مثل «بيت الله» وقد أعانه جبرئيل في أوّل أمره بنفخه الروح في كم أُمّها وفي وسط أمره بتعليمه العلوم وحفظه من الأعداء وفي آخر أمره حين أرادت اليهود قتله أعانه ورفعه إلى السماء .

ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٢٥٤) .

[ولوشاءالله ما اقتتل الّذين من بعد] الرسل بأن جعلهم متّفقين على اتّباع الرسل بحيث لم يتمكّنوا من المخالفة ويلجئهم إلى الموافقة ويمنعهم عن الكفر إلّا أنّه سبحانه لم يلجئهم إلى ذلك لأنّ التكليف لايحسن مع الضرورة والجزاء لايحسن إلّا مع التخلية والاختيار .

[ولكن اختلفوا فمنهم من آمن] بحسن اختياره [ومنهم من كفر] بسوء اختياره .

[ولوشاءالله] عدم اقتتالهم بعدهذه المرّة مع هذا الاختلاف والشقاق اللازم للاقتتال بحسب العادة [مااقتتلوا] ومانبض[1] منهم عرق التطاول والتعاون و منع وسلب عنهم قدرة القتال لما أنّ الكل تحت ملكوته .

[ولكنّ الله يفعل مايريد] مايقتضيه المصلحة قال أبوالسعود العلّامة : إنّ التكرار في الآية ليس للتأكيد كماظنّ بعضهم بل للتنبيه على اختلافهم ذلك ليس[2] موجباً لعدم مشيّته تعالى لعدم اقتتالهم بل هو سبحانه مختار في ذلك حتّى لوشاء بعد ذلك عدم اقتتالهم مااقتتلوا ويفصح عن هذا المعنى الاستدراك بقوله : «ولكنّه يفعل مايريد» من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانعٌ .

قوله تعالى : ياأيها آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخله ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٥) .

لمّا قدّم بيان القتال والجهاد بالأنفس ذكر في هذه الآية جهاد المال والإنفاق في سبيله بقوله : [ياأيّها الّذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم] المعتزلة احتجّوا بأنّ الرزق لايكون إلّا حلالاً لأنّه تعالى أمر في هذا الآية بالإنفاق وماكان حراماً لايجوز أن يؤمر بإنفاقه ؛ فهذا يفيد القطع بأنّ الرزق لايكون حراماً .

ثمّ اختلفوا بأنّ هذا الأمر هل مختصّ بالزكاة المفروضة أم يشمل المندوبة و مطلق الصدقات فقال جماعة : مختصّ بالمفروضة لأنّ قوله : «من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولا خلّة» وعيد والوعيد لايتوجّه على ترك المندوب ، والأكثرون على أنّه يتناول المفروض و المندوب و أنكروا مفاد الوعيد في الآية قالوا : مفاد الآية : أن حصّلوا منافع الآخرة حين كونكم في الدنيا فإنّكم إذا خرجتم من الدنيا لايمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة .

(١) نبض العرق : تحرك . (٢) كذا في الاصل .

وقرىء لابيع «بالفتح» والأكثرون بالرفع قالوا : في التقدير جواب «هل فيه بيع أوخلّة أو شفاعة » قال : «ليس فيه بيع» .

قوله : [ممّا رزقناكم] «من» تبعيضيّة أي بعض مارزقناكموه [من قبل أن يأتي يوم] يوم الجزاء [لابيعٌ فيه] يتدارك التقصير بالاستبدال [ولاخلّة] ومودّة حتّى يسامحكم أخلاّؤكم ويقال « للصديق » الخليل لأنّ المودّة تتخلّل الأعضاء ويدخل جوفها و خلالها و وسطها والخلّة منقطعة يوم القيامة إلّا بين المتّقين [ولاشفاعة] حتّى تتّكلوا على شفعاء تشفع لكم في حطّ مافي ذممكم والشفاعة المنفيّة هي الّتي يستقلّ فيها الشفيع ويأتي بها من غير إذن لأنّ الدلائل قائمة على ثبوت الشفاعة للمؤمنين بعدأن يؤذن لهم فيها .

[والكافرون هم الظالمون] لأنّهم عملوا بأنفسهم ما استحقّوا الحرمان من الجنّة و الخلود بالنار وظلم نفسه وضرّها بالكفر وبمنع الزكاة حتّى استحقّ العذاب .

الله لااله الاهو الحي القيوم هذا الاسم أعظم الأسماء لأنّه دالّ على الذات الجامعة لصفات الإلهيّة كلّها حتّى لايشذّ منها شيء وسائر الأسماء لا تدلّ آحادها إلّا على آحاد المعاني من علم أوقدرة أوفعل ، ولأنّه أخصّ الأسماء إذلايطلقه أحد على غيره لا حقيقةً ولا مجازاً وسائر الأسماء قد يسمّى بها غيره كالقادر والرحيم وينبغي أن يكون حظّ العبد من هذا الاسم التألّه واستغراق القلب و عدم الالتفات إلى ما سواه و لايرجو ولايخاف **إلّا إيّاه و كيف لايكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنّه الموجود الحقيقيّ الحقّ وغيره فان و هالك إلّابه .**

قال رسول الله : أصدق بيت قالته العرب قول لبيد :

ألا كلّ شيء ماخلاالله باطل ❊ وكلّ نعيم لا محالة زائل

حتّى أنّ هذه الكلمة خلاف الكلمات ؛ فإنّ كلّ كلمة إذا اُسقطت منها حرفاً يختلّ بالمعنى وهذه إن حذفت الألف يصير «لله» قال سبحانه : «لله مافي السماوات والأرض [(١)]» و إن حذفت اللام الاُولى أيضاً يبقى «له» قال سبحانه : «له ملك السماوات والأرض [(٢)]» وإن حذفت اللام

(١) النساء : ٦٩ .

(٢) البقرة : ١٠٧ .

الثانية أيضاً بقي الهاء، وهو ضمير راجع إلى الله تعالى قال سبحانه : «هو الله الّذي لا إله إلّا هو[1]»، وللأسماء تأثير بليغ خصوصاً للفظ الجلالة لكن بشرط أن يقع الذكر من أهله و الأهليّة لا تحصل إلّا بعد تزكية النفس وتبديل الأخلاق . و كلمة «هو» وإن كانت للإشارة المطلقة و مفتقرة في تعيين المراد بها إلى سبق الذكر أو إلى أن يعقّبها ما يفسّرها إلّا أنّ المستغرق الكامل يشير بها إلى الحقّ ولا يفتقر في تلك الإشارة إلى ما يميّز الذات المرادة عن غيرها لأنّ الافتقار إلى المميّز إنّما يحصل حيث وقع الإبهام والمستغرق المتوجّه لا يكون في قلبه وفي نظره غيره ويرى غيره هالكاً معدوماً وليس المراد من هذا البيان أنّه يرى كلّ شيء هو الله كما زعمه بعض الحمقاء من الّذين سمّوا أنفسهم عرفاء كما قال عليه السلام : ما رأيت شيئاً إلّا ورايت الله معه .

قوله : « لا إله إلّا هو » الجملة خبر للمبتدأ وهو لفظ الجلالة والمعنى : الله هو المستحقّ للعبادة لا غير [الحيّ] خبر ثان وهو في اللغة من له الحياة و صفة يخالف الموت و إذا وصف الباريء بها معناه الدائم الباقي الّذي لا سبيل عليه للفناء والموصوف بالحياة الأزليّة الأبديّة الفعّال الدرّاك كما شرح هذا المعنى في أسماء الحسنى حتّى لا يشذّ عن علمه مدرك [القيّوم] مبالغة القائم فإنّه تعالى دائم القيام على كلّ شيء بتدبير أمره في إنشائه وإيجاده .

قال الغزاليّ : إنّ الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محلّ كالأعراض و الأوصاف و إلى ما لا يحتاج إلى محلّ فيقال : إنّه قائم بنفسه كالجواهر إلّا أنّ الجوهر و إن قام بنفسه مستغنياً عن محلّ يقوم به فليس مستغنياً عن اُمور لابدّ منها لوجوده و تكون تلك الاُمور شرطاً في وجوده وإذا كان كذلك فلا يكون قائماً بنفسه لأنّه محتاج إلى غيره في قوام وجوده وإن كان لم يحتج إلى محلّ فإن كان في الوجود موجودٌ يكفي ذاته بذاته ولا قوام له بغيره ولا شرط في دوام وجوده وجود غيره فهو القائم بنفسه مطلقاً فإن كان مع ذلك يقوم به كلّ موجود حتّى لا يتصوّر للأشياء وجود ولا دوام وجود إلّا به فهو القيّوم و ليس ذلك إلّا الله » .

قيل : «الحيّ القيّوم» اسم الله الأعظم وكان عيسى عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى

(١) الحشر : ٢٢ .

يدعو بهذه الدعاء: ياحي ياقيوم ويقال: دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق . وعن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان يوم بدر جئت أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم مايصنع فإذا هو ساجد يقول : ياحي ياقيوم يردد مرات وهو على حاله لايزيد على ذلك إلى أن فتح الله له . وقال بعض : الاسم ليس له حد محدود ولكن فرغ قلبك عما سواه فإذا كنت كذلك فاذكره بأي اسم شئت من أسمائه الحسنى . وهذه الصفة استكملت في محمد صلى الله عليه وسلم ومن عرف حقيقة المحمدية عرف الاسم الأعظم .

قوله : لاتاخذه سنة ولانوم السنة ثقلة من النعاس و فتور يعتري المزاج قبل النوم و أوله ، والنوم حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس وتقديم السنة في الآية مع أن قياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود الخارجي فإن الموجود منها أولا هو السنة ثم النوم ، والمراد بيان انتفاء اعترائهما له سبحانه فإن من أخذه نعاس أو نوم كان مؤوف الحياة قاصراً في التدبير ، والنوم أخو الموت والموت ضد الحياة ، وهو الحي الحقيقي فلايلحقه ضد الحياة ومنزه عن صفة النقص .

روي أن موسى سأل الملائكة وكان ذلك في نومه : أينام ربنا ؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولايتركوه ينام ثم قال : خذ بيدك قارورتين مملوءتين فأخذه النوم فزالتا وانكسرتا ثم أوحى الله إليه أني أمسك السماوات والأرض بقدرتي فلو أخذني النوم أوالنعاس لزالتا كذا في الكشاف .

له ما فى السموات ومافى الارض فكل من فيهما و وما فيهما ملكه ولالأحد معه شركة فلا يجوز أن يعبد غيره كما ليس لعبد أحدكم أن يخدم غيره إلا بإذنه .

من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه [من] مبتدأ و [ذا] خبره [والذي] صفة ذا أو بدل منه ، ولفظ «من» وإن كان استفهاماً فمعناه النفي ولذلك دخلت إلا في قوله : [إلا بإذنه] والمعنى لا أحد يشفع عنده بأمر من الأمور إلا بإستعانة أمره و رخصته وكان المشركون يقولون : أصنامنا شركاء الله وهم شفعاؤنا عنده .

وفي تأويلات النجمية : هذا الاستثناء راجع إلى النبي لأن الله قد وعد له المقام

المحمود وهو الشفاعة فالمعنى : من ذا الّذي يشفع عنده يوم القيامة إلّا عبده محمد ﷺ فإنّه مأذونٌ موعودٌ وبعينه الأنبياء بالشفاعة .

وفي تفسير روح البيان : قال رسول الله ﷺ : أتاني آت من عند ربّي فخيّرني بين أن يدخل نصف اُمّتي الجنّة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فيأتي الناس إليه فيقول : أنا لها وهو المقام المحمود الّذي وعده الله به يوم القيامة فيأتي ويسجد ويحمد الله بمحامد يلهمه إيّاها في ذلك الوقت لم يكن يعلمها قبل ذلك ثمّ يشفع إلى ربّه أن يفتح الله باب الشفاعة للخلق فيفتح الله ذلك الباب فيأذن في الشفاعة للملائكة والرسل والأنبياء والمؤمنين قال ﷺ : أنا سيّد الناس وتأدّب ﷺ ولم يقل : سيّد الخلائق مع أنّه ظهر سلطانه على الجميع وذلك أنّ الجبروت الأعظم والقهر الإلهيّ بالنسبة إلى الكفّار والعصاة في ذلك اليوم قد أخرس الجميع فظهر عظم قدره ﷺ حيث أقدم على مناجاة الحقّ فيما سأل من الشفاعة في مثل ذلك الوقت فأجابه الحقّ وأذن له وهو ﷺ أوّل من يشفع في الخلق ثمّ الأنبياء والملائكة والأولياء والمؤمنون ثمّ رحمته الواسعة جلّ جلاله .

قوله : يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم استيناف لبيان إحاطة علمه بأحوال من يستحقّ الشفاعة ومن لا يستحقّها ويعلم ما كان قبلهم من اُمور الدنيا وما يكون بعدهم من أمر الآخرة أو المراد من قوله : « ما بين أيديهم » الآخرة لأنّهم يقدمون عليها « وما خلفهم » لدنيا لأنّهم خلّفوها وراء ظهورهم ، أو ما كان قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم وعالم بأحوال الشافع والمشفوع له .

ولا يحيطون بشيء من علمه أي لا يدركون من الملائكة والأنبياء وغيرهم من معلوماته **إلا بما شاء** أن يعلموه كأخبار الرسل وفسّر العلم بالمعلوم لانّ علمه تعالى عين ذاته وصفة قائمة بذاته لا يتبعّض ففسّر بالمعلوم ليصحّ دخول التبعيض والاستثناء عليه فلا يظهر على غيبه أحد إلّا من ارتضى من رسول .

وفي الرسالة الرحمانيّة : إنّ علم الأولياء عن علم الأنبياء بمنزلة قطرة من سبعة أبحر وعلم الأنبياء من علم محمد ﷺ بهذه المنزلة وعلم نبيّنا من علم الحقّ بهذه المنزلة قال في القصيدة البرديّة :

و كلّهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفون لديه عند حدّهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

حاصله أنّ علوم الكاينات و إن كثرت بالنسبة إلى علم الله بمنزلة نقطة من نقطت الكتاب نقطاً أو شكلة من شكلت الكتاب إذا قيّدته بالإعراب و مشرب النقطة و الشكلة بحر روحانيّة محمد صلى الله عليه وآله.

وسع كرسيه السموات والارض «الكرسيّ» ما يجلس عليه والمراد منه في الآية قيل : علمه تعالى عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن الباقرين عليهما السلام و يقال للعلماء : كراسيّ و قيل المراد العرش و قيل إنّ المراد منه الملك والسلطان والقدرة فيكون معناه : أحاط قدرته السماوات والأرض ومافيهما وقيل : إنّ الكرسيّ سرير دون العرش وقد روي عن الصادق عليه السلام وقريب منه ماروي عن عطا أنّه قال : ما السماوات والأرض عند الكرسيّ إلّا كحلقة في فلاة وما الكرسيّ عند العرش إلّا كحلقة في فلاة.

وروى الأصبغ بن نباتة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنّ السماوات والأرض ومافيهما من المخلوق في جوف الكرسيّ وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله ملك منهم بصورة الآدميّين وهي أكرم الصور على الله و هو يدعو الله ويتضرّع إليه و يطلب الشفاعة و الرزق للآدميّين والملك الثاني في صورة الثور وهو سيّد البهائم يدعو الله و يتضرّع إليه ويطلب الرزق للبهائم والملك الثالث في صورة النسر و هو سيّد الطيور و يدعو الله ويتضرّع إليه و يطلب الرزق للطيور والملك الرابع في صورة الأسد وهو سيّد السباع وهو يدعو الله ويطلب الرزق للسباع قال : ولم تكن في جميع صور الحيوان صورة أحسن من الثور ولا أشدّ انتصاباً منه حتّى اتّخذ الملأ من بني إسرائيل العجل وعبدوه فخفض الملك الّذي في صورة الثور رأسه استحياء من الله أن عبدوا من دون الله بشيء يشبهه وتخوّف أن ينزل به العذاب [١].

ولا يؤده حفظهما يقال : آده الشيء يؤده إذا أثقله و أتعبه و لحقه منه مشقّة مأخوذ من الأود وهو العوج. «حفظهما» أي حفظ السماوات والأرض إذ القليل والكثير و القريب والبعيد عنده سواء و كيف يتعب في خلق الذرّة و جميع الخلق خلقه عنده أسهل

(١) وروى نحوه العياشي عن الحسن المثنى عمن ذكره عن الصادق. البرهان.

من خلق الذرّة « إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» [١]

وهو العلي العظيم(٢٥٥) المتعالي بذاته عن الأنداد و الأشباه العظيم الّذي يستحقر كلّ شيء دونه و المراد من العلوّ علوّ القدر و هو منزّه عن التحيّز و كذا المراد من عظمته هي المهابة والكبرياء لابحسب الحجم والمقدار . و اعلم أنّ الّذين يفسّرون الآية بتأويلهم الفاسد على أنّ هذه الآية و أمثالها مجرّد التمثيل و لا كرسيّ في الحقيقة . و إنّما خاطب الخلق في تعريف ذاته و صفاته بما اعتادوه في ملوكهم و عظمائهم كما جعل الكعبة بيتاً له يطوف الناس به كما يطوفون بيوت ملوكهم و كذلك ماذكر في محاسبة العباد يوم القيامة من حضور الملائكة والنبيّين والشهداء ووضع الميزان .

وأمثال هذه الآيات أوّلوها وقالوا : المراد من هذه الألفاظ بيان العظمة ولا صورة لها ؛ فهذا القول غلطٌ فاسد بل تكذيب للكتاب والسنّة ولا يجوز إبطال الصورة والأعيان مطلقاً مثل الجنّة والنار والعرش والكرسيّ والشمس والقمر و كذلك من الحور والقصور و الأنهار والأشجار والثمار ولايؤوّل شيء منها على مجرّد المعنى بل لابدّ للمسلم أن يثبت ويعلم لها صوراً ومعان وحقائق و من سلك غيره سلك مسلك النار ، وأوّل باب التأويل في مثل هذه الأمور فتح باب الإلحاد نسأل الله أن يجيرنا من مضلاّت الفتن .

والأكثرون على أنّ آية الكرسيّ إلى قوله : «العليّ العظيم» وهذه الآية الكريمة منطويةٌ على مهمّات المسائل المتعلّقة بالذات العليّة والصفات الجليّة فإنّها ناطقةٌ بأنّه موجودٌ متفرّد بالإلهيّة متّصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجدٌ لغيره لما أنّ «القيّوم» هو القائم بذاته كما ذكرنا منزّه عن التحيّز و الحلول مبرّأ من التغيّر والفتور ، لامناسبة بينه وبين الأشباح ولا يعتريه مايعتري النفوس والأرواح ، مالك الملك و مبدع الأصول و الفروع ، ذو البطش الشديد ، العالم جميع الأشياء ، لايشغله شأن عن شأن ، لايشقّ عليه شاقٌ ، متعال عمّا تناله الأوهام ، عظيم لايحاط ؛ و لذلك قال ﷺ : إنّ أعظم آية في القرآن آية الكرسيّ و كذلك لعظم مقتضاها في الأوصاف .

---

(١) يس : ٨٢ .

واشتملت آية الكرسي على مالم تشتمل عليه آية في أسماء الله والإشارة إليه وذلك لأنها مشتملة على سبعة عشر موضعاً فيها اسم الله ظاهر أومضمر أوهي : الله ، هو الحي القيوم وضمير لاتأخذه وله وعنده ، وبإذنه ، ويعلم ، وعلمه ، وشاء ، وكرسيه ، ويؤوده ، وضمير «حفظ» المستتر الذي هو فاعل المصدر ، وهو العلي العظيم . ويكفي في استحقاق هذه السيادة أن فيها «الحي القيوم» وهو الاسم الأعظم كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله عند تذاكر الصحابة عن أفضل ما في القرآن فقال لهم أمير المؤمنين - وكان حاضراً - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : سيد البشر آدم وسيد العرب محمد صلى الله عليه وآله ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الشجر السدر وسيد الشهور الأشهر الحرم وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسي .

وعن أمير المؤمنين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ماقرئت هذه الآية في دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوماً ولايدخلها ساحر ولاساحرة أربعين ليلة ياعلي علمها ولدك وأهلك وجيرانك فمانزلت آية أعظم منها . وعنه عليه السلام قال : سمعت نبيكم على أعواد المنبر وهو يقول : من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صديق أوعابد ومن قرأها وهو أخذ في مضجعه أمنه على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله .

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : من قرأ آية الكرسي صرف عنه ألف مكروه من مكاره الدنيا وألف مكروه من مكاره الآخرة أيسر مكروه الدنيا الفقر وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر (١) قال عليه السلام : لكل شيء ذروة وذروة القرآن آية الكرسي . (٢)

عن محمد بن أبي بن كعب عن أبيه أن أباه أخبره أنه كان له جرن (٣) فيه خضر فكان يتعاهده فوجده ينقص فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة تشبه الغلام المحتلم قال : فسلّم فرددت عليها السلام وقلت : من أنت جن أم إنس ؟ قالت جن ، قلت : ناوليني يدك فناولتني يدها فإذا يد كلب فقلت : هكذا خلقة الجن ؟ قالت : لقد علمت مافيهم أشد مني ، قلت : ماحملك على

(١) الفقيه باسناده الى عمرو بن ابي المقدام عنه عليه السلام .
(٢) العياشي . عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام .
(٣) بالضم حجر منقور للماء وغيره .

ماصنعت ؟ قالت : بلغني أنّك رجل تحبّ الصدقه فأحببنا أن نصيب من طعامك فقال لها أُبيّ : فما الّذي يجير نا منكم ؟ قالت : آية الكرسيّ من قالها حين يصبح أُجير منّا حتّى يمسي ومن قالها حين يمسي أُجير منّا حتّى يصبح ، فلمّا أصبح أتى النبيّ ﷺ فأخبره فقال ﷺ : صدق الخبيث .

وحكي أنّ رجلاً أتى شجرة فسمع فيها حركةً وتكلّم فلم يجب فقرأ آية الكرسيّ فنزل إليه شيطان فقال : إنّ لنا مريضاً فبم نداويه ؟ قال : بالّذي أنزلتني به من الشجرة . و خرج زيد بن ثابت إلى بستان له فسمع فيه جلبة فقال : ماهذا ؟ قال : رجل من الجانّ أصابتنا السنة فأردنا أن نصيب من ثمار كم أفتطيبونها ؟ قال نعم ، فقال له زيد بن ثابت : ألا تخبرني ما الّذي يعيذنا منكم ؟ قال : آية الكرسيّ . وبالجملة فقد جرّب المجرّبون أنّ لها تأثيراً عظيماً في طرد الشيطان وعن المصروع وعن مطيعي الشياطين مثل أهل الشهوات والطرب وأهل الظلم إذا قرئت عليهم بصدق كما في آكام المرجان في أحكام الجانّ .

لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي قيل : نزلت في رجل من الأنصار كان له غلام أسود يقال له «صبيح» وكان يكرهه على الإسلام . وقيل : نزلت في رجل يدعى أبا الحصين وكان له ابنان فتنصّرا وذهبا إلى الشام فأخبر أبو الحصين رسول الله فنزلت الآية وكان هذا قبل أن يؤمر النبيّ ﷺ بقتال أهل الكتاب . قال ابن عبّاس وابن زيد : إنّها منسوخة بآية السيف . وقيل : نزلت في امرأة كانت مقلّه فيرضع أولاد اليهود ولمّا أُجليت بنو النضير إذاً فيهم أُناسٌ من الأنصار فقالوا : يارسول الله أبناؤنا وإخواننا فنزلت الآية فقال ﷺ : خيّروا أصحابكم فإن خيّروكم فهم منكم وإن اختاروهم فأجلوهم .

المعنى : قيل : إنّ حكم الآية في أهل الكتاب خاصّة الّذين يؤخذ منهم الجزية . وقيل : في جميع الكفّار ثمّ نسخ كما تقدّم ذكره أي لا إجبار في الدين بعد أن تبيّن ووضحت الحجّة لأنّ من حقّ العاقل أن لا يحتاج إلى الإلزام إلى أمر ينفعه بل يختار الدين الحقّ بعد وضوحه .

فقد [تبيّن الرشد] وهو لفظ جامع لكلّ خير و المراد من الرشد الإيمان الموصل إلى السعادة [من الغيّ] أي الكفر والجهل المؤدّي إلى الهلاك الأبديّ وزوال الجهل بالعلم

وزوال الغيّ بالرشد .

فمن يكفر بالطاغوت والطاغوت كلّ ماعبد من دون الله بما هومذموم في نفسه ومتمرّد كالإنس و الجنّ والشياطين **ويؤمن بالله** بالتوحيد و تصديق الرسل لأنّ الإيمان بالله إذا كان حقيقة يستلزم الإيمان بشرائعه المعلومه ، وتقديم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله لتقديم التخلية على التحلية **فقد استمسك بالعروة الوثقى** و بالغ في التمسّك بالحلقة الوكيدة و«الوثقى» تأنيث «الأوثق» مثل «فضلى» تأنيث « الأفضل »

لا انفصام لها وليس لهذه العروة المحكمة والتمسّك بها انقطاع أبداً ولمّا كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وصفها الله « بالعروة الوثقى » استعارة المحسوس للمعقول **و الله سميع** بالأقوال **عليم (٢٥٦)** بالعقائد والأعمال .

الله ولي الذين آمنوا أي محبّهم وناصرهم أو متولّي أمورهم ومراعي مصالحهم الباقية ـ مثل أن أظهر الجميل وستر القبيح ـ ديناً ودنياً ، وأوّل نصرته تعالى ستره على عبده أن جعل مقابح بدنه الّتي مستورة في باطنه مغطّاة بجمال ظاهره فكم بين باطن العبد وظاهره من النظافة والقذارة فانظر ما الّذي أظهره وما الّذي ستره ؟ الثاني أن جعل مستقرّ خواطره المذمومه وإرادته القبيحه سرّ قلبه حتّى لا يطّلع أحدٌ ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله ممّا ينطوي عليه ضميره من الغشّ والخيانة والخبث في النيّات لمقتوه بل قتلوه ؛ فانظر كيف ستر عن غيره أسراره . والثالث مغفرة ذنوبه الّتي كان يستحقّ الافتضاح بها ولعلّ أن يبدّل سيّئاته بالحسنات إذا مات على التوبة .

يخرجهم من الظلمات الّتي هي من الكفر والمعاصي والشكوك **الى النور** الّذي يعمّ الإيمان ونور اليقين ، وجمع الظلمات لأنّ فنون الضلالة متعدّدة والكفر ملل وإفراد النور لأنّ الإسلام دين واحد ، ويسمّى الكفر ظلمة لالتباس طريقه ويسمّى الإسلام نوراً لوضوح طريقه .

والذين كفروا وثبتوا على كفرهم **اولياؤهم الطاغوت** أي الشياطين وسائر المضلّين عن طريق الحقّ من قادة الشرّ والكهنة والأصنام ؛ فإذا كانت الأصنام فالمعنى لا يكون على الموالاة الحقيقيّة الّتي معناه المصادقة بل المعنى أنّ عبدتها يتوجّهون إليها و أنّها

جمادات والولاية واقعة منهم بالنسبة إليها « والطاغوت » تذكّر وتؤنّث وتوحّد وتجمع .

يخرجونهم بالوسائس وغيرها بالإغواء والضلالة **من النور** هو الإيمان الفطريّ الّذي جبلوا عليها **الى الظلمات** من الكفر والانهماك في الشهوات وإسناد الإخراج إلى الطاغوت مجازٌ لكونها سبباً له .

اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٢٥٧) إشارة إلى الموصول ومايتبعه من القبائح والكفر ملازمون النار ماكثون فيها أبداً .

الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان آتيه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا احيى واميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين (٢٥٨)

أي هل انتهت رؤيتك إلى من هذا صفته ؟ والبيان بهذا الترتيب ليدلّ على بعد وقوع مثله على التعجّب منه [حاجّ إبراهيم] وجادل وخاصم إبراهيم [في ربّه] في معارضة الربوبيّة ، والّذي حاجّ هو نمرود بن كنعان بن سام بن نوح وهو أوّل من وضع التاج على رأسه وتجبّر و ادّعى الربوبيّة [أن آتاه الله الملك] أي لأن آتاه الله الملك فهو مفعول لقوله : «حاجّ» ووضع المحاجّة موضع الشكر إذكان من حقّه أن يشكر في مقابلة إيتاء الملك وقد عكس اللعين ، أو المعنى أنّ إيتاء الملك حمله على ذلك وأورثه الكبر والبطر .

قال مجاهد : لم يملك الدنيا بأسرها إلّا أربعة : مسلمان وكافران ؛ فالمسلمان : سليمان و ذو القرنين إسكندر والكافران : نمرود وبخت نصّر [١] وهو المسمّى بشدّاد بن عاد الّذي بنى إرم في بعض صحاري عدن وإنّما ملّكه الله امتحاناً له ولعباده .

[إذ قال إبراهيم] ظرف «لحاجّ» [ربّي الّذي يحيي ويميت] روي أنّه عليه السلام لمّا كسر الأصنام سجنه ثمّ أخرجه ليحرقه فقال : من ربّك الّذي تدعونا إليه ؟ قال : «ربّي الّذي يحيي ويميت» أي يخلق الحياة والممات في الأجساد ، وجواب إبراهيم في غاية الصحّة لأنّه لاسبيل إلى معرفة الله إلّا بمعرفة صفاته وأفعاله الّتي لايشاركه فيها أحدٌ .

---

(١) وبه رواية في الخصال (١ : ١٢١) عن الصادق عليه السلام .

[قال] نمرود : [أنا أُحيي وأُميت] روي أنّه دعا برجلين قد حبسهما فقتل أحدهما و أطلق الآخر فقال : أحييت هذا و أمتّ هـذا فجعل ترك القتل إحياء و كان هـذا تلبيساً منه .

[قال إبراهيم فإنّ الله] جواب شرط مقدّر تقديره إذا ادّعيت الإحياء والإماتة و أتيت بمعارضة مموّهة و لم تعلم معنى الإحياء فالحجّة أنّ الله [يأتي بالشمس من المشرق] أي إن كنت قادراً على مقدوراته إنّه تعالى يأتي بها من المشرق [فأت] أنت [بها من المغرب] وإنّما عدل عن الحجّة الأوّليّة مع أنّ نمرود ما أتى بحجّة صحيحة لأنّ إبراهيم أراد أن يأتي بحجّة لايتمكّن نمرود من تدليس فيها بشبهة و تكون أوضح فعدل من حجّته الأوّليّة إلى ما هي أوضح لأنّ الأنبياء بعثوا للإيضاح والبيان .

[فبهت الّذي كفر] أي صار مبهوتاً ومتحيّراً مدهوشاً ، وفي الآية إشعار بأنّ المحاجّة في دين الحقّ بعد كونه معلوماً حقّاً كفرٌ [والله لايهدي القوم الظالمين] أي الّذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلّد بسبب إعراضهم عن الهداية ولم يقبلوها مع أنّ الأمر في غاية الوضوح فلا يهديهم طريق الجنّة في الآخرة بسبب كفرهم وجحودهم الحقّ في الدنيـا .

وفي تفسير ابن عبّاس أنّ نمرود لمّا عتا عتوّاً كبيراً وألقى إبراهيم في النار سلّط الله عليه بعوضة فعضّت شفته فأهوى إليها بيده ليأخذها فطارت في منخره فذهب ليستخرجها فطارت في دماغه فعذّبه الله بها أربعين ليلة ثمّ أهلكه .

وقيل : إنّ نمرود بعد هذه المحاجّة وإلقاء إبراهيم في النار سلّط الله على قومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلّا العظام ، والنمرود كما هو و لم يصبه شيء ثمّ بعث الله بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق فعذّبه الله أربعمائة سنة كما ملك أربعمائة سنة وهو الّذي بنى صرحاً إلى السماء ببابل «فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم[1]» وهو صاحب السهم المطوخ .

قوله : او كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال انى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبث قال لبثت يوماً او بعض

(١) النحل : ٢٦ .

يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير (٢٥٩) .

«أو» حرف عطف على الكلام الأول وهو قوله : «ألم تر» وتقديره : أرأيت الذي حاجّ إبراهيم ؟ أوهل رأيت [كالذي مرّ على قرية] وحاصل المعنى أنك ما رأيت مثل الذي مرّ على قرية و ينبغي أن تتعجّب فتعجب منه ، والمارّ هو عزير بن شرخيا و القرية بيت المقدس على الأشهر ، و اشتقاقها من القري وهو الجمع .

روي أنّ بني إسرائيل لمّا بالغوا في تعاطي الشرّ والفساد سلّط الله عليهم بخت نصّر البابليّ فسار إليهم في ستمائة ألف راية حتّى وطىء الشام وخرب بيت المقدس وجعل بني إسرائيل أثلاثا : ثلثاً منهم قتلهم وثلثاً منهم أقرّهم بالشام و ثلثاً منهم سباهم و كانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسّمهم بين الملوك الّذين كانوا معه فأصاب كلّ ملك منهم أربع غلمة وكان عزير من جملتهم ، فلمّا نجّاه الله منهم بعد حين مرّ بحماره على بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى وأوحش منظر وذلك قوله : [وهي خاوية على عروشها] أي خالية عن أهلها وساقطة على سقوفها ، والعرش السقف وما يستظلّ به أي على أبنيتها وحيطانها بأن سقطت العروش ثمّ الحيطان سقطت عليها ، من خوت المرأة إذا خلا جوفها عند الولادة .

[قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها] أي كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها و كيف يحيي الله أهلها بعد ما ماتوا وأطلق لفظ القرية وأراد أهلها ولم يقل ذلك إنكاراً وارتياباً بل أحبّ أن يريه الله إحياءها مشاهدة ليحصل له العلم ضرورة كما حصل له العلم دلالة وسأل مقصوده بحسن الطلب كقول إبراهيم : «ربّ أرني كيف تحيي الموتى»[1] ولأنّ العلم الاستدلاليّ ربّما اعتورته الشبهة .

[فأماته الله مائة عام] أي جعله ميّتاً ، روي أنه لمّا دخل القرية نزل تحت ظلّ شجرة وهو على حمار فربط حماره وطاف في القرية ولم ير بها أحداً وقال ما قال ، وكانت أشجارها قد

(١) السورة ٢ : ٢٦٠ .

أثمرت فتناول من فواكهها التين والعنب وشرب ونام فأماته الله في منامه وهو شابٌّ وكان معه من التين والعنب وعصير العنب شيء .

[ثمّ بعثه] أي أحياه [قال كم لبثت] في التفسير أنّه سمع نداء من السماء « كم لبثت » يعني في منامك . وقيل : إنّ القائل ملك . وقيل : إنّ القائل نبيّ . وقيل : بعض المعمّرين من شاهده عند موته وإحيائه و«البعث» من بعثت الناقة إذا أقمتها من مكانها .

[قال لبثت يوماً أو بعض يوم] لأنّ الله أماته في أوّل النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار فقال : يوماً ، ثم التفت فرأى بقيّة الشمس فقال : أو بعض يوم .

[قال] السائل : [بل لبثت مائة عام] أي مكثت في مكانك مائة عام [فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه] أي لم يغيّره السنون والأعوام وإنّما قال : «لم يتسنّه» على الواحد لأنّه أراد به جنس الطعام والشراب أو أراد به الشراب لأنّه أراد أقرب المذكورين إليه وكان زاده عصيراً وتيناً وعنباً كما ذكرنا وهذه الثلاثة أسرع الأشياء تغيّراً وفساداً فوجد العصير حلواً والتين والعنب كما جنيتا لم يتغيّرا .

[وانظر إلى حمارك] كيف تبدّد عظامه و تفرّق أجزاؤه و تمزّقت لتبيّن لك طول لبثك وتطمئنّ نفسك وإنّما قال له ذلك ليستدلّ بذلك على طول مماته [ولنجعلك آية للناس] فعلنا ذلك لتكون حجّة للناس في البعث .

[وانظر إلى العظام كيف ننشزها] ونرفعها ونحييها فنردّها إلى أماكنها من الجسد و نركب بعضها على بعض [ثم نكسوها لحماً] ونسترها به كما يستر الجسد باللباس ووحّد «اللحم» وجمع «العظام» لأنّ العظام متعدّدة صورة واللحم متّحد مشاهدة . روي أنّه سمع صوتاً من السماء أيّتها العظام البالية المتفرّقة إنّ الله يأمرك أن ينظمّ بعضك إلى بعض كما كان وتكتسي لحماً وجلداً ثم نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق .

[فلمّا تبيّن له] إحياء الميّت عياناً [قال أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير] لا يستعصي عليه أمرٌ من الأمور .

روي أنّه ركب حماره وأتى محلّته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتّى أتى منزله فإذا هو بعجوزة عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها

عزير : ياهذه هذا منزل عزير ؟ قالت نعم وأين ذكرى عزير ؟ وقد فقدناه منذ كذا و كذا فبكت بكاءً شديداً ، قال : فإنّي عزير ، قالت : سبحان الله أنّى يكون ذلك ؟ قال : قد أماتني الله مائة عام ثمّ بعثني قالت : إنّ عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة فادع الله أن يردّ بصري حتّى أراك فدعا ربّه ومسح بين عينيها فصحّتا فأخذ بيدها فقال : قومي بإذن الله فقامت صحيحة كأنّما نشطت من عقال فنظرت إليه فقالت : أشهد أنّك عزير فانطلقت إلى محلّة بني إسرائيل وهم في أنديتهم وكان في المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة و ثماني عشرة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذّبوها فقالت : أُنظروا إليّ فإنّي بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس وأقبلوا عليه فقال ابنه : كان لأبي شامة [1] سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فإذا هو كذلك .

وقد كان بخت نصّر خرب بيت المقدس وقتل من قرّاء بيت المقدس للتوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحدٌ يعرف التوراة فقرأها عليهم من ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفاً .

فقال رجل من أولاد المسبّيين ممّن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصّر : حدّثني أبي عن جدّي أنّه دفن التوراة يوم سبينا في خابية في كرم [2] فإن أريتموني كرم جدّي أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جدّه ففتّشوه فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير فما اختلفا في حرف واحد ، فعند ذلك قالوا : عزير ابن الله ، تعالى الله عن ذلك .

وفي الآية ردّ على منكري حشر الأجساد فضلاً من أنّ العقل يحكم بحشرها وأقرّوا بحشر الأرواح وقالوا : الأرواح كان تعلّقها بالأجساد لاستكمالها في عالم المحسوس كالصبيّ يبعث إلى المكتب ليتعلّم الأدب فلمّا حصل مقصوده من التعلّم بقدر استعداده ودخل محفل أهل الفضل وصاحبهم سنين كثيرة واستفاد منهم أنواع العلوم الّتي لم توجد في المكتب وصار فاضلاً في العلوم فما حاجته بعد أن كبر شأنه إلى أن يرجع في المكتب و حالة صباه ؟

قالوا : و كذا الأرواح لمّا خرجت من سجن الأجساد والأشباح واتّصلت المقدّسة

---

(١) الشامة : الخال وهو بثرة سوداء فى البدن حولها شعر .

(٢) أى فى حوض فى بستان عنب .

واستفادت من الأرواح العلويّة علم الكائنات الّتي لم توجد في عالم الحسّ فما حاجتها إلى أن ترجع إلى سجن الأجساد ؛ فكانت بنو إسرائيل تسوّل نفوسهم لهم هذه التسويلات و شياطين الجنّ والإنس يوسوسهم بمثل هذه الشبهات .

وهذه قياسات باطلة لأنّ بين المقيس والمقيس عليه فرقٌ وبون بعيد ، فالله سبحانه من فضله أمات عزيراً وحماره معه ثمّ أحياهم معاً ليستدلّ به العقلاء على أنّ الله مهما أحيا عزير الروح يحيي ويبعث جسده أيضاً بل جسد حماره .

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ عزيراً خرج من أهله وامرأته حامل وله خمسون سنة فأماته الله مائة سنة ثمّ بعثه ورجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة وله ابن وله مائة سنة وكان ذلك من آيات الله .

قوله تعالى : واذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحيي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم ان الله عزيز حكيم (٢٦٠) .

أي اذكر وقت قول إبراهيم ، و استعلم بإخبارنا إيّاك هذه القصّة ، و ذكر الوقت يوجب ذكر ما وقع في ذلك الوقت من الحوادث الواقعة . و قوله « ربّ » كلمة استعطاف قدّمت بين الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة عياناً وشرّفه الله بعين اليقين وحقّ اليقين [قال] ربّه : [أولم تؤمن] والسبب في سؤال إبراهيم هذا الأمر أنّ إبراهيم رأى جيفة تمزّقتها السباع ويأكل منها سباع الطير فسأل الله إبراهيم وقال : يارب قد علمت أنّك تجمعها من بطون السباع والطير فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام .[١]

وقيل وجه آخر في سبب السؤال وهو ماروي عن ابن عبّاس و سعيد بن جبير أنّ الملك بشّر إبراهيم بأنّ الله قد اتّخذه خليلاً وأنّه يجيب دعوته ويحيي الموتى بدعائه فسأل ذلك ليطمئنّ قلبه بأنّه قد أجاب دعوته و اتّخذه خليلاً .

وقيل : إنّ سبب السؤال منازعة نمرود إيّاه في الإحياء إذ قال : «أنا أُحيي وأُميت»

---

(١) على بن ابراهيم عن ابيه عن ابن ابي عمير عن ايوب عن ابي بصير عن الصادق عليه السلام . تفسيره : ٨١ .

وأطلق محبوساً وقتل إنساناً فقال إبراهيم : ليس هذا بإحياء وقال : «ربّ أرني كيف تحيي الموتى» ليعلم نمرود ذلك لأنّ نمرود يوعّده بالقتل إن لم يحي الله الميّت بحيث يشاهده فلذلك قال : « ليطمئنّ قلبي » عن توعّده إيّاي بالقتل بأن لايقتلني جبّار ، عن محمّد بن إسحاق بن يسار .

ورابع الأقوال أنّه عليه السلام أحبّ أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالماً بالاستدلال لتزول وساوس الشيطان .

[قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي] أي بلى أنا مؤمن و لكن سألت ذلك لأزداد يقيناً على يقين [قال] ربّه : إن أردت ذلك [فخذ أربعة من الطير] طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة وقيل : نسراً بدل الحمامة . وإنّما خصّ الطير لأنّه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواصّ الحيوان [فصرهنّ] من صاره يصوره وبكسر الصاد من صاره يصيره والمعنى واحد أي أجمعهنّ وضمّهنّ [إليك] لتتأمّلها وتعرف أشكالها مفصّلة حتّى تعلم بعد الإحياء أنّ جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأوّل أصلاً .

روي أنّه اُمر بأن يذبحها و ينتف ريشها ويفرّق أجزاءها ولحومها ويمسك رؤوسها ثمّ اُمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى : [ثمّ اجعل على كلّ جبل] من الجبال الّتي بحضرتك وكانت سبعة أو أربعة فجزّأها أربعة أجزاء فقال تعالى : ضع على كلّ جبل [منهنّ] أي من كلّ الطيور [جزءاً ثمّ ادعهنّ] قل لهنّ : تعالين بإذن الله تعالى [يأتينك سعياً] أي ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً ففعل كما أمره فجعل كلّ جزء يطير إلى آخر حتّى صارت جثثاً فانضمّت كلّ جثّة إلى رأسها وعادت كلّ واحدة إلى ماكانت عليه من الهيئة و إبراهيم ينظر و يتعجّب [و اعلم أنّ الله عزيز حكيم] غالب على أمره ذو حكمة بالغة .

مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٢٦١) .

مثل نفقات الّذين ينفقون في سبيل الله وفي وجوه الخيرات ، والمضاف وهو «نفقات» محذوف ؛ لأنّ الّذين ينفقون لايشبهون الحبّة ولايشبه الحيوان بالجماد بل نفقاتهم تشبه

الحبّة [كمثل حبّة] لزراع زرعها في أرض عامرة والحبّة واحدة الحبّ وهو ما يزرع للاقتيات وأكثر إطلاقه على البُرّ [أنبتت] أي أخرجت . وإسناد الإنبات إلى الحبّة مجاز [سبع سنابل] أي تتشعّب من ساقات النابتة من تلك الحبّة سبع شعب لكلّ واحدة منها سنبلة [في كلّ سنبلة مائة حبّة] كما شوهد ذلك في الذرّة والدخن في الأراضي المغلّة بل أكثر من ذلك .

[والله يضاعف] ويزيد على ذلك [لمن يشاء] بحسب حال المنفق من إخلاصه و تعبه [والله واسع عليم] لا يضيق عليه ما يتفضّل به ، والآية عامّة في النفقة والإنفاق في جميع أنواع الخير وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام(١) . وقيل : هي في الآية خاصّة بالإنفاق في الجهاد فأمّا غيره من الوجوه فإنّما بالواحد عشرة . وعليم بنيّة المنفق .

في الحديث : صدقة المؤمن تدفع عن صاحبها آفات الدنيا وفتنة القبر وعذاب يوم القيامة . وفي الحديث السخاوة شجرة أصلها في الجنّة وأغصانها متدلّيات في دار الدنيا فمن تعلّق بغصن منها يسوقه إلى الجنّة . والبخل شجرة أصلها في النار وأغصانها متدلّيات في دار الدنيا فمن تعلّق بغصن منها يسوقه إلى النار . وفي الحديث : الساعي على الأرملة و المسكين كالمجاهد في سبيل الله .

وينبغي للمؤمن أن يزكّي عمله ونفسه ويخلص نيّته إذا أراد أن يفعل خيراً ؛ لأنّ نيّة المؤمن خير من عمله ، وفسّر بعض معنى الحديث بأنّ مورده أنّ بعض الصحابة سمع رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه وعد بثواب عظيم على حفر بئر فنوى ذلك الصحابيّ بحفرها فسبق إليه كافرٌ فحفرها قال صلى الله عليه وآله : نيّة المؤمن خيرٌ من علمه أي من عمل الكافر . و قيل : معناه إنّ النيّة المجرّدة من المؤمن خير من عمله المجرّدة عن النيّة . وقيل : السبب في أنّ النيّة من المؤمن خيرٌ من عمله لأنّ النيّة في الغالب لا يشوبها رياء بخلاف العمل . وقيل : غير ذلك في معناه .

الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لايتبعون ما انفقوا منا ولاأذى لهم اجرهم عندربهم و لاخوف عليهم ولاهم يحزنون (٢٦٢) .

أي الّذين يضعون أموالهم في مواضعها [ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منّاً] العائد محذوف

(١) المحاسن و الشيخ والعياشي باسانيدهم عنه عليه السلام البرهان .

أي ما أنفقوه ولا يمنّون عليهم بما تصدّقوا [ولا أذى] وهو أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه مثل أن يقول له : إنّي أعطيتك فماشكرتني ، أو يقول له : كم تسأل ألا تستحيي و تجيئني دائماً بالإبرام باعدالله بيني وبينك ، و أمثال هذه الكلمات .

[لهم أجرهم عند ربّهم] ثوابهم في الآخرة عندالله مذخور ، وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة للسببيّة لوضوح معنى السببيّة في سياق الآية [ولا خوفٌ عليهم] من العذاب [ولاهم يحزنون] لفوت الأجر ونقصانه . وفي الآية دلالة على أنّه يصحّ الوعد بشرط ؛ لأنّه وعد بشرط عدم المنّ وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : المنّان بما يعطي لا يكلّمه الله ولا ينظر إليه ولايزكّيه وله عذاب أليم .

قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غني حليم (٢٦٣) .

أي كلامٌ حسنٌ جميل يردّ به السائل وقيل : دعاءٌ صالحٌ مثل أن يقول : أغناك الله عن المسألة وأوسع الله عليك الرزق [ومغفرة] أي ستر لما وقع من السائل من الإلحاف في المسألة و صفح عنه . وقيل : معنى « و مغفرة » المراد عفو السائل عن ظلم الّذي ظلم المسؤول بأن سأل في غير وقته أو أساء الأدب في سؤاله ولجّ و ألحف أو يدخل الدار بغير إذن المسؤول فالعفو عن ظلمه خير من أن يتصدّق عليه و يؤذيه بخشونة الكلام . قال النبيّ ﷺ : إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتّى يفرغ من كلامه ثم ردّوا عليه بوقار ولين إمّا بذل يسير أورد جميل فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنس ولاجانّ ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله .

[والله غنيّ] عمّا عندكم برزق الفقراء من جهة اُخرى [حليم] لايعاجل أصحاب المنّ والأذى بالعقوبة .

قال الشعبيّ : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته . وليتحرّز المنفق من الرياء فإنّه يذهب بثواب الإنفاق وقيل : إنّ الرياء في الصدقة يوجب أن ينقلب حيّة فإذا وضع في قبره يؤلم إيلام الحيّة كما أنّ البخل ينقلب بصورة العقرب ويؤذيه في القبر و لو أنّ الدنيا بأسرها لرجل واحد وأنفقها ساعة واحدة في سبيل

لايكون إنفاقه بالنسبة إلى مايعوّض عنه إلّا أقلّ من ذرّة من تراب الأرض أو قطرة من بحار الدنيا .

حكي عن بعض الملوك أنّه حبست الريح في بطنه حتّى قرب إلى الهلاك فقال : كلّ من يزيل عنّي هذ البلاء أعطيته ملكي فسمعه شخص من أهل الله فجاء و مسح يده على بطنه فخرجت منه ريح منتنة وتعافى الملك من ساعته فقال : ياسيّدي اجلس على سرير الملك أنا عزلت نفسي وعليّ شرطي فقال الرجل : لاحاجةلي إلى متاع قيمته ضرطة منتنة ولكن أنت اتّعظ من هذا فالشيء الّذي اغتررت به قيمته هذا .

قال أمير المؤمنين سيّد الأولياء عليه السلام : ألا وإنّ دنياكم هذه عندي كعفطة عنز .

وعن الحسن قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم على أصحابه فقال : هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً ألا إنّه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد في الدنيا وقصّر أمله أعطاه الله علماً بغير تعلّم وهدىً بغير هداية ألا إنّه سيكون بعدكم قومٌ لايستقيم لهم الملك إلّا بالقتل والتجبّر ولاالغنى إلّا بالبخل ولا المحبّة إلّا باتّباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر للفقر وهو يقدرعلى الغنى وصبرعلى البغضاء وهو يقدرعلى المحبّة وصبرعلى الذلّ وهو يقدرعلى العزّ لايريد بذلك إلّا وجه الله أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقاً انتهى .

يا ايها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الاخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين (٢٦٤) .

قد سبق معنى « المنّ » «والأذى» والمراد أن لا تحبطوا أجر صدقاتكم بسبب المنّ والأذى [كالّذي] المراد المنافق لأنّ الكافر غير مراء أي كإبطال المنافق الّذي ينفق لأجل أمر من الأمور الدنيا لالأجل الدين مثل أن يقال : منفق أو يقال له : كريم [ولايؤمن بالله واليوم الآخر] ولايريد بإنفاقه رضى الله ولاثواب الآخرة و رئاء من راى نحو قاتل قتالاً .

[فمثله] أي حالته العجيبة [كمثل صفوان] حجر صاف أملس و هو واحد وجمع فمن جعله جمعاً فواحده صفوانة ومن جعله واحداً فجمعه صفي [عليه تراب] أي شيء يسير منه [فأصابه وابل] مطر شديد الوقع كبير القطر [فتركه صلداً] أملس ليس عليه تراب وغبار [لايقدرون] كأنّه قيل : فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل : «لايقدرون» [على شيء مما كسبوا] ولا ينتفعون بما فعلوا أي حال المرائي كحال هذه الزارع ، على الصفوان لايجد له ثواباً قطعاً ، فإن قلت : كيف أتى بلفظ الجمع بعد قوله : «كالّذي ينفق» ؟ فالمراد بقوله : « كالّذي » الجنس والفريق الّذي ينفق فالجمع باعتبار المعنى . وروى ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ : إذا كان يوم القيامة نادى مناد يسمع الجمع أين الّذين كانوا يعبدون الناس قوموا خذوا اُجوركم ممّن عملتم له فإنّي لا أقبل عملاً خالطه شيء من الدنيا وأهلها .

[والله لايهدي القوم الكافرين] إلى الخير والرشاد وبالجملة تخليص العمل و الصدقة عن الرياء أمرٌ صعبٌ جدّاً ولذا بالغ السلف في إخفاء صدقتهم عن أعين الناس حتّى كان يطلب بعضهم فقيراً أعمى لئلّا يعلم أحد من المتصدّق ، وبعضهم كان في ثوب الفقير نائماً و بعضهم يلقي الصدقة في طريق الفقير ليأخذها كما أنّ الملامتيّه كانوا يظهرون اُموراً غير مشروعة حتّى يتّهمون فيخلصون من الرياء في العبادة لكن طريق الملامتيّه غير حسن أيضاً والمؤمن ينبغي أن يجاهد في تخليص عمله من الرياء بطريق المشروع حتّى تكون مجاهدته في هذا الأمر سبباً لكثرة ثوابه .

قال النبيّ ﷺ : إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : يارسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الّذين كنتم تراؤون لهم فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ وفي الحديث إذا كان يوم القيامة ويكون القضاء بينهم و كلّ اُمّة جاثية فأوّل من يدعى بهرجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال بقول .

فيقول الله : للقارىء ألم اُعلّمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى ياربّ قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقرأ آناء الليل واطراف النهار فيقول الله : كذبت و تقول

الملائكة : كذبت ، فيقول الله : بل أردت أن يقال : فلان قارىء ، فقد قيل .

ويؤتى بالّذي قتل في سبيل الله فيقول له : فيماذا قتلت ؟ فيقول : يارب أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتّى قتلت فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، فيقول الله : أردت أن يقال : فلان جريء شجاع فقد قيل ذلك .

ثم يؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسّع عليك حتّى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال : بلى يارب قال : فماذا عملت فيما آتيتك ، قال : كنت أصل الرحم وأتصدّق فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة : كذبت فيقول الله : أردت أن يقال : فلان جواد وقد قيل ذلك .

ثمّ قال النبيّ ﷺ : أُولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعّر بهم النار يوم القيامة (١) .

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير (٢٦٥) .

[ومثل] نفقات [الّذين ينفقون أموالهم] لطلب رضاه ويصرفونها في أعمال البرّ [وتثبيتاً من أنفسهم] و جعلوا أنفسهم ثابتاً على الإيمان و الطاعه ليزول بهذا التثبيت عن النفس رذيلة البخل وحبّ المال والإمسال فإنّ النفس وإن كانت مجبولة على حبّ المال واستثقال الطاعات البدنيّة إلّا أنّها ما عوّدتها تتعوّد .

قال صاحب البردة :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على ❊ حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فمتى أهملتها فقد تمرّنت واعتادت الكسل و البطالة وحيث كلّفتها و حملتها على مشاقّ العبادات البدنيّة والماليّة تنقاد لك وتتزكّى عن عاداتها الجبلّيّة .

وقيل : معنى « تثبيتاً من أنفسهم » أي يثبّتون أين يضعون صدقاتهم والتثبيت هنا هو التثبّت لأنّهم إذا ثبتوا أنفسهم فقد تثبّتوا ومن في قوله : « من أنفسهم » تبعيضيّة كقولهم : حرّك من نشاطه .

---

(١) وانظر الاصول من الكافي (٢ : ٢٩٣-٢٩٧)

فإن قلت : كيف يكون المال بعضاً من النفس حتى يكون الطاعة ببذله طاعة لبعض النفس وتثبيتاً لها على الثمرة الإيمانية . فالجواب أن النفس لشدة تعلقها بالمال كأنه بعض منها فالمال شقيق الروح ؛ فمن بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه و من بذل ماله وروحه فقد ثبتها كلها ويجوز أن يكون التثبيت بمعناه أي جعل الشيء محققاً ثابتاً فيكون « من » لابتداء الغاية كقوله : « حسداً من عند أنفسهم [1] » .

[كمثل جنة] بستان كائن [بربوة] مكان مرتفع مأمون من فساد الهواء فإن أشجار الربى تكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً وأما الأرض المنخفضة فقلما تسلم ثمارها لكثافة هوائها بركود الريح .

وقيل : المراد من « الربوة » الأرض اللينة الجيدة بحيث إذا نزل المطر عليها ربت و نمت وانتفخت فإن الأرض إذا كانت بهذه الصفة يكثر ريعها وتكمل أشجارها ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت [2] » والمراد من ربوها ما ذكر [أصابها وابل] ووصل إليها مطر كبير القطر شديد الوقع [فآتت] أي أعطت صاحبها [أكلها] غلتها وثمرتها وهو بضمتين الشيء المأكول [ضعفين] أي مثلي ما كانت تثمر في سائر الأوقات وحملت في سنة ما يحمل غيرها في سنتين [فإن لم يصبها وابل فطل] أي المطر الصغير القطر يكفيها لجودتها و كرم منبتها ، والطل إذا دام عمل عمل الوابل . وجاز الابتداء بالنكرة لوقوعها في جواب الشرط وهو من جملة المسوغات للابتداء بالنكرة مثل قولهم : إن ذهب العير فعير في الرباط .

وحاصل المعنى تشبيه نفقات المنفقين في سبيله بشروطها زاكية عند الله لاتضيع بحال والتشبيه من قبيل تشبيه المفرق بأن يشبه زلفاهم من الله بثمرة البستان وشبه نفقتهم الكثيرة و القليلة بالقوي من المطر و الضعيف منه من حيث إن كل واحد منهما سبب للزيادة لأن النفقتين تزيدان حسن حالهم كما أن المطرين يزيدان ثمر البستان و تختلف الزيادة .

[والله بما تعملون بصير] من عمل الإخلاص وغيره ؛ من يزرع الثوم لم يحصد ريحاناً .

---

(١) السورة : ٩ ١٠٩ . (٢) الحج : ٥ .

وعن أمير المؤمنين عن النبيّ ﷺ أنّ الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قبل أن يدخل في يد السائل تتكلّم بخمس كلمات أوّلها تقول : كنت قليلة فكثّرتني و كنت صغيرة فكبّرتني و كنت عدوّاً فأحببتني و كنت فانياً فأبقيتني و كنت محروساً فالآن صرت حارسك .

قال مكحول الشاميّ : إذا تصدّق المؤمن بصدقة رضي الله عنه فنادت جهنّم يا ربّ ائذن لي بالسجود شكراً لك قد أعتقت واحداً من اُمّة محمّد ﷺ من عذابي لأنّي أستحيي من محمّد ﷺ أن اُعذّب من اُمّته أحداً ولا بدّ لي من طاعتك .

قيل : ولفظ الصدقة أربعة أحرف و كلّ منها إشارة إلى معنى أمّا الصاد فالصدّ أي الصدقة تصدّ وتمنع عن صاحبها مكروه الدنيا والآخرة ، وأمّا الدال فالدليل لأنّها تدلّ صاحبها إلى الجنّة ، وأمّا القاف فقربة إلى الله ، وأمّا الهاء فهداية الله ؛ فمن ساعده المال فلينفق في سبيل الله ولا يقطع رجاء أحد . وفي الحديث من قطع رجاء من التجأ إليه قطع الله رجاءه .

حُكي أنّ بعض العلماء لمّا رأى هذا الحديث بكى بكاءً شديداً وتحيّر في رعاية فحواه فقام وذهب إلى واحد من الصلحاء ليستفسر معنى الحديث ويدفع شبهته فلمّا دخل عليه رأى ذلك الرجل الصالح يأخذ بيده خبزاً ويؤكله الكلب من يده فسلّم عليه فردّ عليه السلام ولم يقم له كما كان يفعل قبل فلمّا أكل الكلب الخبز بالتمام قام له ولاطفه وقال معتذراً : اقبل العذر منّي حيث لم أقم امتثالاً لقول النبيّ ﷺ : «من قطع رجاء ، الحديث» وهذا الكلب رجا منّي أكل الخبز و لم أقم خشية أن أقطع رجاءه فلمّا سمع هذا الكلام زاد تحيّراً ولم يستفسر وتعجّب من كرامته .

قوله : أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون (٢٦٦) .

الهمزة لإنكار الوقوع أي ما كان ينبغي أن يودّ رجل منكم [أن تكون له جنّة] كائنة [من نخيل وأعناب] والمراد من الجنّة البستان والأرض المشتملة على الأشجار الملتفّة وتجري الأنهار من تحت الأشجار [له فيها من كلّ الثمرات] الظرف الأوّل خبر والثاني حال و الثالث صفة للمبتدأ قائمة مقامه أي له رزق من كلّ الثمرات .

[وأصابه الكبر] والحال أنّه قد أصابه كبر السنّ الّذي هو مظنّة شدّة الحاجة إلى منافعها [وله ذرّيّة ضعفاء] أي مع الكبر يكون له ذرّيّة صغار لا يقدرون على الكسب [فأصابها] أي تلك الجنّة [إعصار] أي ريح عاصفة تستدير في الأرض ثمّ تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود وهي تهبّ من الأرض نحو السماء مثل العمود [فيه نار] أي يكون في ذلك الإعصار نار [فاحترقت] تلك الجنّة فصارت نعمها إلى الذهاب وأصلها إلى الخراب فبقي الرجل متحيّراً لا قوّة له أن يغرس مثلها ولا خير في ذرّيّته من الإعانة لكونهم ضعفاء عاجزين، وهذا تمثيل لحال من يفعل الأفعال الحسنة ويضمّ إليها ما يحبطها مثل الرياء ومن لم يكن له في الآخرة عمل صالح يوصله إلى الجنّة فحسرته مثل صاحب الجنّة محترقة .

[كذلك] أي مثل ذلك البيان الواضح الّذي بيّن فيما مرّ مثل قصّة عزير وإبراهيم والجهاد والإنفاق في سبيل الله [يبيّن الله لكم الآيات] والدلالات تحقيق التوحيد والدين .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : يا أباذر جدّد السفينة فإنّ البحر عميق ، وأكثر الزاد فإنّ السفر بعيد وأقلّ من الحمولة فإنّ الطريق مخوف ، وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير . والمراد من تجديد السفينة تكرير التوحيد والمعرفة بالله ومن البحر هو جهنّم .

والحاصل من الآية التحرّز عن الرياء [لعلّكم تتفكّرون] كي تتفكّروا فيها وتعتبروا بها .

يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد (٢٦٧) .

[يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا] من جياد ما حصّلتم وكسبتم لقوله : «لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون» (١) قال صاحب الكشّاف : إنّما فسّر الطيّب بالجيّد لأنّ الحلال استفيد من الأمر فإنّ الإنفاق بالحرام لا يؤمر به ولأنّ قوله بعده : «ولا تيمّموا الخبيث منه» والخبيث هو الرديء المستخبث [وممّا أخرجنا لكم من الأرض] أي ومن طيّبات

(١) آل عمران : ٩٢ .

ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن .

[ولا تيمّموا] أي لا تقصدوا [الخبيث] الرديء نقيض الطيّب فالطيّب الحلال والخبيث الحرام والطيّب الطاهر والخبيث النجس و الطيّب ما يستطيبه النفس و الطبع و الخبيث ما تستخبثه و تستكرهه [منه تنفقون] و الضمير راجع إلى الخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل «تيمّموا» قال ابن عبّاس : كانوا يتصدّقون بحشف التمر و شراره فنهوا عنه .

[ولستم بآخذيه] أي والحال أنّكم لا تأخذون الخبيث والرديء في معاملتكم بوجه من الوجوه [إلّا أن تغمضوا فيه] أي إلّا وقت إغماضكم مثل أن كان لكم حقّ على رجل فجاء برديء ماله بدل حقّكم الطيّب وتقبلونه بحكم التساهل مخافة فوت حقّكم وحاصل المعنى : لا تتصدّقوا بما لا تأخذونه من غيركم لكم إلّا بالمساهلة والمسامحة .

[واعلموا أنّ الله غنيّ حميد] وهو تعالى مستغن عن صدقاتكم وإنّما يأمركم بالإنفاق لمنفعتكم ، مستحقّ للحمد على نعمه العظام ، ومعلوم أنّ المتصدّق كالزارع والزارع لابدّ وأن يبالغ في جودة البذر لجودة الثمرة فكذلك المتصدّق وأنّه تعالى «إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً» (١) كما قال : « هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان» (٢) قال رسول الله : إنّ أطيب ما أكله الرجل من كسبه وأطيب الصدقات ما كانت من عمل اليد بقنطار .

روي أنّ رسول الله حثّ أصحابه على الصدقة فجعل الناس يتصدّقون وكان أبو أمامة الباهليّ جالساً بين يدي رسول الله ﷺ وهو يحرّك شفتيه فقال النبيّ ﷺ : إنّك تحرّك شفتيك فماذا تقول ؟ قال : إنّي أرى الناس يتصدّقون وليس معي شيء أتصدّق به فأقول في نفسي : «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر» فقال : هؤلاء الكلمات خير لك من مدّ ذهباً تتصدّق به على المساكين . وجلس الإسكندر يوماً مجلساً عامّاً فلم يسأل فيه حاجة فقال : والله ما أعدّ هذا اليوم من ملكي قيل : ولمَ أيّها الملك ؟ قال : لأنّه لا يوجد لذّة الملك إلّا بإسعاف الراغبين و إغاثة الملهوفين ومكافأة المحسنين .

(١) النساء : ٣٩ .
(٢) الرحمن : ٦٠ .

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم(٢٦٨) .

ثمّ حذّر سبحانه من الشيطان المانع من الصدقة فقال : [الشيطان] يخوّفكم بالفقر ويقول : أمسك مالك فإنّك إذا تصدّقت به افتقرت « و الوعد » هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر ويستعمل في الشرّ والخير قال الله : «النار وعدها الّذين كفروا[1]» [ويأمركم بالفحشاء] و يغريكم على الخصلة السيّئة وعلى البخل ومنع الصدقات ، والعرب تسمّي البخل فاحشاً .

[والله يعدكم] في الإنفاق [مغفرة] كائنة لذنوبكم [منه] عزّ وجلّ [وفضلاً] أي خلفاً ممّا أنفقتم زائداً عليه في الدنيا وثواباً للعقبى [والله واسع] قدره وفضله [عليم] مبالغ في العلم .

يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا ومايذكر الااولوا الالباب (٢٦٩) .

أي [يؤتي] الله [الحكمة من يشاء] قيل : المراد من « الحكمة » علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه ومقدّمه ومؤخّره عن ابن عبّاس وابن مسعود . وقيل : المراد الإصابة في القول والفصل أي العلم والعمل . وقيل : هو النبوّة . وقيل : هو المعرفة بالله . وقيل : المراد خشية الله .

روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : آتاني الله القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلّا كان خراباً ألا فتفقّهوا وتعلّموا فلا تموتوا جهّالاً .

[ومن يؤت الحكمة] أي العلم والعمل [فقد اُوتي خيراً كثيراً] لأنّه خيرٌ له وجمع خير الدارين [وما يذّكّر] ويتّعظ من الحكمة [إلّا اُولوا الألباب] وأهل العقول الخالصة من شوائب النفس والهوى ؛ لأنّ من لا يغلب عقله على هواه لا ينتفع به فكأنّه لا عقل له ولذا قيل : إنّ من اُعطي علم القرآن ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لأنّ ما اُعطيه خير كثير والدنيا متاع قليل قال النبيّ ﷺ : القرآن غنى لا غنى بعده . وسمّي العقل «لبّاً»

---

(١) الحج : ٧٢ .

لأنه أنفس ما في الإنسان كما أن لب الثمرة أنفس ما فيها .

قوله تعالى : وما أنفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من انصار (٢٧٠)

أي أي نفقة كانت في حق أو باطل في سر أو علانية قليلة أو كثيرة [أو نذرتم من نذر] أي نذر كان في طاعة أو معصية «والنذر» عقد الضمير على شيء والتزامه وهو في الشرع التزام بر وخير ولا يقع في أمر غير مشروع [فإن الله يعلمه] والضمير راجع إلى «ما» فإن الله يجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ؛ فهو ترغيب وترهيب ووعد ووعيد [وما للظالمين من أنصار] وأعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه ، وإيراد صيغة الجمع لمقابلة «الظالمين» أي وما للظالم من الظالمين من نصير من الأنصار .

ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢٧١) .

أي إن تظهروا الصدقات فنعم شيء إبداؤها بعد أن لم يكن رياء وسمعة ، وهذا في الصدقات المفروضة وأما في الصدقات المتطوعة فالإخفاء أفضل وهي التي أريد بقوله : [وإن تخفوها] أي تعطوها خفية [وتؤتوها الفقراء] ولعل التصريح بإيتائها الفقراء مع أنه واجب في الإبداء أيضاً لما أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فإن الغني ربما يدعي الفقر في صدقة السر ويقدم على أخذه لكن لا يفعل ذلك عند الإبداء في الناس [فهو خير لكم] فالإخفاء خير لكم من الإبداء ، وكل متقبل إذا صلحت النية وهذا في التطوع وأما في الواجب فبالعكس ليقتد به بشرط أن لم يكن القصد رياء كالصلاة الواجبة في الجماعة أفضل والنافلة في البيت ، ولنفي التهمة وسوء الظن حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل خوف الظلمة والطمعة . قال ابن عباس وجماعة : صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً . وقيل : الإخفاء في كل صدقة أفضل من إبدائها .

[ويكفر عنكم من سيئاتكم] ودخلت «من» للتبعيض ، قيل : المراد الصغائر من الذنوب . وقال الأخفش : إن «من» زائدة في الآية وقد يقال : كل من طعامي وخذ من مالي

ما شئت ؛ فيكون للتعميم . وقرىء بالنون في الآية «نكفّر عنكم من سيئاتكم» «ونعمّا هي» في الآية تقديره فنعم الشيء ونعم الأمر إبداء الصدقة و«ما» نكرة و كلمة «هي» يفسّر الفاعل المضمر في نعم و«الإبداء» هو المخصوص بالمدح فحذف المضاف الّذي هو الإبداء واُقيمت هي مقام المضاف وحذف لدلالة قوله : «وإن تخفوها» على المحذوف و لدلالة الفعل المتقدّم و هو «تبدوا» على مصدره وهو الإبداء .

وبالجملة فعلى قول الأخفش معنى الآية : يكفّر عنكم جميع ذنوبكم ، والقول الأوّل أقوى وأحكم . وبعضهم كانوا يبالغون في إخفاء الصدقة المندوبة جدّاً حتّى كان يشدّها في ثوب الفقير وهو نائم لقوله ﷺ : أفضل الصدقة جهد المقلّ إلى فقير في سرّ .

قال ﷺ : إنّ العبد يعمل عملاً في السرّ فيكتبه الله سرّاً فإن أظهره نقل من السرّ و كتب في العلانية فإن تحدّث به نقل من السرّ والعلانية و كتب في الرياء . وفي الحديث : صدقة السرّ تطفىء غضب الربّ وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ويدفع سبعين باباً من البلاء . وقال ﷺ : سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه : الإمام العدل والشابّ الّذي نشأ في العبادة ورجل قلبه متعلّق بالمسجد حتّى يعود إليه ورجلان تحابّا في الله واجتمعا عليه و تفرّقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنّي أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لم يعلم يمينه ما ينفق شماله ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

[والله بما تعملون خبير] عالم بأعمالكم في صدقاتكم وغيرها .

ليس عليك هداهم و لكن الله يهدي من يشاء و ما تنفقوا من خير فلأنفسكم و ما تنفقون الا ابتغاء وجه الله و ما تنفقوا من خير يوف اليكم و أنتم لا تظلمون (٢٧٢) .

نزلت الآية ، كان المسلمون يمتنعون عن الصدقة على غير أهل دينهم فنزلت الآية ، وقيل : نزلت في أسماء بنت أبي بكر كانت مع رسول الله ﷺ في عمرة القضاء فجاءتها اُمّها قتيلة وجدّتها تسألانها وهما مشركتان فقالت : لا اُعطيكم شيئاً حتّى أستأمر رسول الله فإنّكما لستما على ديني فأنزل الله هذه الآية ، عن الكلبيّ .

أي لا يجب عليك يا محمّد ﷺ أن تجعلهم مهديّين إلى الإتيان بما اُمروا به من المحاسن

والانتهاء عمّا نهوا عنه من القبائح وإنّما الواجب عليك الإرشاد . وقيل : إنّ معناه : [ليس عليك هداهم] بمنع الصدقة عنهم لتحملهم به على الإيمان ، و على هذا المعنى فصدقة التطوّع جائزة للكفّار . وقيل : معناه : «ليس عليك هداهم» بالحمل على النفقة في وجوه البرّ و سبل الخير .

[ولكنّ الله يهدي من يشاء] إنّما علّق الهداية بالمشيّة لمن كان المعلوم منه أنّه يصلح باللطف أي بلطف الله بزيادة التوفيق بحسن اختياره وطلبه ، وقبل الطاعة فشاء هدايته عن الزجّاج والبلخيّ وأكثر أهل العلم . وقيل : معناه إلى طريق الجنّة .

[وما تنفقوا من خير فلأنفسكم] خيره وثوابه والغرض الترغيب في الإنفاق والمنفعة في الإنفاق ترجع إلى العبد المنفق [وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله] «ما» نافية و هذا إخبار من الله عن صفة إنفاق المخلصين لله بأنّهم لا ينفقون ما ينفقون إلاّ لمرضاة الله . وقيل : معنى الآية النّهي وإن كان ظاهره الخبر أي لا تنفقوا إلاّ لرضى الله . وذكر لفظ «الوجه» لإزالة الشركة .

[وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم] أي يوفّر عليكم جزاؤه والتوفية إكمال الشيء وتضمّنت معنى التأدية أي تعطون جزاءه وافراً وافياً [و أنتم لا تظلمون] بثوابه بنقص أو منع .

للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم (٢٧٣) .

العامل في الظرف محذوف أي الإنفاق للفقراء . قال أبو جعفر عليه السلام : نزلت الآية في أصحاب الصفّة وهم نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة يأوون إليها يجعلون أنفسهم في المسجد قالوا : نخرج في كلّ سريّة بعثها رسول الله فحثّ الناس لهم بالصدقة فقال :

[للفقراء الّذين اُحصروا في سبيل الله] وحبسوا أنفسهم لطاعة الله و منعوا أنفسهم للمعاش والكسب للإقبال على العبادة أو للفقر أو لالزام أنفسهم الجهاد في سبيل الله فلا يقع

منهم التصرّف لغيره [لايستطيعون ضرباً في الأرض] أي ذهاباً فيها وسيراً في البلاد [يحسبهم الجاهل] بشأنهم ويظنّ أنّهم [أغنياء من التعفّف] من أجل عفّتهم عن السؤال [تعرفهم] أي تعرف اضطرارهم وفقرهم [بسيماهم] أي بما تعاين منهم من الضعف ورثاثة الحال و السيما والسيمياء العلامة الّتي تعرف بها الشيء.

[لايسألون الناس إلحافاً] مفعول له ففيه نفي السؤال والإلحاف جميعاً لا أنّهم يسألون و لكن من غير إلحاف بل لا يسألون الناس أصلاً فيكون إلحافاً ، و الإلحاف الإلزام والإلحاح و هو أن يلازم السائل المسؤول حتّى يعطيه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتي بحرقة حطب على ظهره فيكفّ بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أومنعوه. قال النبيّ صلى الله عليه وآله إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم المتعفّف ويبغض البذيء السائل الملحف.

[وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم] فيجازيكم بذلك أحسن جزاء.

ثمّ زاد سبحانه في التحريض على الإنفاق بقوله:

الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سراً و علانية فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون (٢٧٤).

النزول: قال ابن عبّاس: نزلت الآية في عليّ كانت معه أربعة دراهم فتصدّق بواحد نهاراً و بواحد ليلاً وبواحد سرّاً و بواحد علانيةً و هو المرويّ عن أبي عبدالله و أبي جعفر عليهما السلام. وقيل: هي عامّة في كلّ من أنفق ماله في طاعة الله على هذه الصفة ولاينافي أن تكون الآية نازلة في عليّ وحكمها سائر في كلّ من فعل مثل فعله وله فضل السبق.

بيّن سبحانه كيفيّة الإنفاق وثوابه فقال.

[الّذين ينفقون أموالهم] في هذه الحالات أي على الدوام [فلهم أجرهم عند ربّهم] أتى بالفاء ليدلّ على أنّ الجزاء إنّما هو من أجل الإنفاق في طاعة الله ولايجوز «زيدفله درهم» لأنّه ليس فيه معنى الجزاء [ولا خوف عليهم] من أهوال القيامة [ولاهم يحزنون] فيها و قيل: المعنى: لاخوف عليهم من فوت الأجر ونقصانه ولاهم يحزنون على ذلك.

قوله تعالى: الذين ياكلون الربوا لايقومون الا كمايقوم الذى يتخبطه

الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربوا واحل الله البيع وحرم الربوا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف و امره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النارهم فيها خالدون(٢٧٥) .

أصل «الرباء» الزيادة ربا الشيء إذا زاد و الربا هو الزيادة على رأس المال . لمّا حثّ الله على الإنفاق عقّبه بذكر الربا الّذي ظنّه الجاهل زيادة في المال و هو يمحق المال [الّذين يأكلون الربا] أي يأخذونه و عبّر عنه بالأكل لأنّه معظم المقصود من المال ، و الربا فضلٌ في الكيل و الوزن خال عن العوض , كتب بالواو تنبيهاً على أصله لأنّه من ربا يربو ، زيدت الألف تشبيهاً بواو الجمع [لايقومون] من قبورهم إذا بعثوا [إلّا كما يقوم] أي إلّا قياماً مثل قيام الّذي [يتخبّطه الشيطان من المسّ] أي يصرعه ويكون قيامهم مثل المصروع المختلّ فيكون ذلك إمارة لأهل الموقف على أنّهم آكلة الربا عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وجماعة .

وقيل : إنّ هذا على وجه التشبيه لأنّ الشيطان لا يصرع الإنسان على الحقيقة ولكن من غلب عليه المرّة السوداء وضعف عقله ربّما يخيّل الشيطان إليه اُموراً هائلة و يوسوس إليه فيقع الصرع عند ذلك من فعل الله ونسب ذلك إلى الشيطان مجازاً لما كان ذلك عند وسوسته .

وقيل : يجوز أن يكون الصرع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض عن أبي الهذيل وابن الأخشيد قالا : لأنّ الظاهر من القرآن يشهد به و ليس في العقل ما يمنع منه ولا يمنع الله الشيطان عنه امتحاناً لبعض الناس وعقوبة لبعضهم على ذنب ألمّ به ولم يتب منه كما يتسلّط بعض الناس على بعض فيظلمه ويأخذ ماله ولا يمنعه الله منه و لأن يكون هذا علامة لآكلي الربا يعرفون بها يوم القيامة كما أنّ على كلّ عاص من معصيته علامة يليق به فيعرف بها صاحبها وعلى كلّ مطيع من طاعته إمارة يليق به يعرف بها صاحبها وذلك معنى قوله : «فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنسٌ ولاجانٌ» (١)

وقال النبيّ ﷺ : في شهداء اُحد زمّلوهم بثيابهم ودمائهم . وقال ﷺ : يبعث

(١) الطبرسي مرسلا .

أمتّي يوم القيامة عن قبورهم غرّاً محجّلين من آثار الوضوء .

وقد قيل : الّذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلّا آكلة الربا فإنّهم ينهضون و يسقطون كالمصروعين لأنّهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتّى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض .

[ذلك بأنّهم قالوا] أي ذلك العذاب بسبب قولهم : [إنّما البيع مثل الربا] قال ابن عبّاس : كان الرجل منهم إذا حلّ دينه على غريمه فطالبه به قال المطلوب له : زدني في الأجل و أزيدك في المال فيتراضيان عليه و يعملان به فإذا قيل : لهم هذا رباً قالوا : هما سواء يعنون بذلك أنّ الزيادة في الثمن حال البيع والزيادة فيه بسبب الأجل عند حلول الأجل سواء .

فذمّهم الله وألحق الوعيد بهم وخطّأهم في ذلك بقوله : [وأحلّ الله البيع وحرّم الربا] أي أحلّ الله البيع الّذي حقيقة هو البيع و حرّم النوع الّذي فيه الربا وألحقتموه أنتم بالبيع .

[فمن جاءه موعظة] وانتهى بالوعظ عمّا نهاه الله [فله ماسلف] و مضى من ذنبه فلا يؤاخذ به لأنّه أخذ قبل نزول التحريم و له ماأخذ وأكل من الربا ولا يلزمه ردّه ؛ قال الباقر عليه السلام : من أدرك الإسلام وتاب ممّا كان عمله في الجاهليّة وضع الله له ماسلف . وهذا فيما قبض وأخذ وأمّا مالم يقبض فلا يجوز له أخذه و له رأس المال و هذا الحكم كان لأهل الجاهليّة ولكنّ المسلم إذا أخذ رباً ثمّ تنبّه فيجب عليه ردّ ما أخذه بعنوان الربا من دون كلام [وأمره إلى الله] يجازيه على انتهائه إن قبل الوعظ . وقيل : المراد يحكم في شأنه يوم القيامة وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبونه به .

[ومن عاد] إلى الربا مستحلاً بعد النهي كما استحلّ قبله من أنّ البيع مثل الربا [فاُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] لأنّ ذلك القول ؛ لا يصدر إلّا من كافر مستحلّ للربا فلهذا يعذّب بعذاب الأبد . وممّا جاء في الحديث في الربا عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة : آكله ومؤكّله وشاهديه وكاتبه والمحلّل له . و عنه عليه السلام إذا أراد الله بقرية هلاكاً ظهر فيهم الربا . وعنه عليه السلام قال : الرباء سبعون باباً أهونها عند الله

كالّذي ينكح أُمّه . وروى جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه السلام قال : درهم رباء أعظم عندالله من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت الله .

يمحق الله الربوا ويربي الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم (٢٧٦) .

أي ينقص الله الربا « والمحق » نقصان الشيء حالاً بعد حال حتّى يذهب كلّه كما في محاق الشهر وهو حال آخذ الربا فإنّ الله يذهب بركته و يهلك المال الّذي يدخل فيه ولا ينتفع به ولده بعده [ويربي الصدقات] يضاعف ثوابها ويزيد المال الّذي اُخرجت منه الصدقة . وعن النبيّ صلى الله عليه وآله ما نقصت زكاة من مال قطّ .

[والله لايحبّ كلّ كفّار] منهمك في ارتكاب المعاصي . والكفّار هو المقيم على الكفر المعتاد له باستحلال الربا وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : سيأتي زمان على الناس لايبقى أحدٌ إلّا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره .

ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلوة وآتوا الزكوة لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون (٢٧٧) .

المعنى ظاهر . وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر مع اندراجهما في الصالحات لإنافتهما على سائر الطاعات [لهم أجرهم] الموعود لهم حال كونه [عند ربّهم ولاخوف عليهم] من مكروهات [ولاهم يحزنون] من محبوب فات .

ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربوا ان كنتم مؤمنين (٢٧٨) فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله فان تبتم فلكم رءوس اموالكم لاتظلمون ولاتظلمون (٢٧٩) .

عن أبي جعفر عليه السلام في النزول قال : إنّ الوليد بن مغيرة كان يربي في الجاهليّة وقد بقي له بقايا على ثقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت الآية

وقيل : نزلت في بقيّة من الربا كانت للعبّاس و خالد بن وليد و كانا شريكين في الجاهليّة يسلفان في الربا ولهما أموال عظيمة على ثقيف فنزلت الآية فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : ألا إنّ كلّ ربىً من رباء الجاهليّة موضوع و أوّل ربىً أضعه ربى العبّاس بن عبدالمطّلب و كلّ دم من دم الجاهليّة موضوع وأوّل دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب كان

مرضعاً في بني ليث فقتله هذيل . وقال مقاتل : نزلت في أربعة إخوة من بني ثقيف عبد ياليل ومسعود وحبيب وربيعة وكانوا يداينون بني المغيرة وكانوا يربون فلمّا ظهر النبيّ صلى الله عليه وآله على الطائف وصالح ثقيفاً أسلم هؤلاء الإخوة الأربعة فطلبوا رباهم من بني المغيرة واختصموا إلى عتاب بن أسيد عامل رسول الله على مكّة فكتب عتاب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بالقصّة فأنزل الله الآية :

[يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله] في أمر الربا وفي جميع ما نهاكم عنه [وذروا ما بقي من الربا] واتركوا ما بقي لكم غير مقبوض من مال الربا على من عاملتموه به [إن كنتم مؤمنين] حقيقةً فإنّ ذلك مستلزم للامتثال [فإن لم تفعلوا] ما اُمرتم به من ترك البقايا [فأذنوا بحرب من الله ورسوله] أي فأيقنوا واعلموا من أذن بالأمر أو أعلم به أنّكم تستحقّون القتل في الدنيا والنار في الآخرة أي إعلموا أنّ في امتناعكم من وضع البقيّة في الربا حربٌ وعداوة من الله وقرىء «فآذنوا» بالمدّ وكسر الذال فالمعنى : أعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب من الله والمراد إعلام الممتنعين عن قبول الترك فإذا اُمروا بإعلام غيرهم فهم علموا أيضاً لا محالة وحرب الله حرب ناره أي بعذاب عظيم من عنده وتنكير الحرب للإشعار بعظمة العذاب .

[وإن تبتم] من الارتباء [فلكم رؤوس أموالكم] تأخذونها [لا تظلمون] غرماءكم بأخذ الزيادة [ولا تظلمون] بالنقصان من رأس المال .

و ان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة و ان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون (٢٨٠) .

أي إن وقع غريم من غرمائكم [ذو عسرة] من الإعدام أو كساد المتاع فالحكم [نظرة] والنظرة التأخير وهو إسمٌ قام مقام الإنظار [إلى ميسرة] أي إلى اليسار والسعة وقرىء «إلى ميسره» بإرجاع الضمير إلى المعسر واختلف في حدّ الإعسار فروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : هو إذا لم يقدر على ما يفضل من قوته وقوت عياله على الاقتصاد .

وأيضاً اختلف في وجوب إنظار المعسر على ثلاثة أقوال : أحدها أنّه واجب في كلّ دين عن ابن عبّاس والضحّاك والحسن وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام وثانيها أنّه واجب

في دين الربا خاصّة عن شريح وإبراهيم النخعيّ . و ثالثها أنّه واجب في دين الربا بالآية وفي كلّ دين بالقياس عليه . وقال الباقر عليه السلام : « إلى ميسرة » معناه إلى أن يبلغ خبره الإمام فيقضي عنه من سهم الغارمين إذا كان النفقة في المعروف .

[وأن تصدّقوا خير لكم] أي وأن تتصدّقوا على المعسر بما عليه من الدين خير لكم [إن كنتم تعلمون] الخير من الشر قال صلى الله عليه وآله : من إدّان ديناً وهو ينوي قضاءه وكلّ به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتّى يقضيه .

وفي تفسير روح البيان عن النبيّ صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عليه السلام الشهادة تكفّر كلّ شيء إلّا الدين يا محمد - ثلاثاً - فعلى العاقل أن يقضي ما عليه من الديون و من أدّى الفرض فإنّه يهوّن عليه أن يؤدّي القرض .

و اتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون(٢٨١) .

أي واتّقوا عذاب الله و احذروا [يوماً] تردّون جميعاً إلى جزاء الله و تصيرون فيه [إلى الله] لمحاسبة أعمالكم [ثمّ توفّى كلّ نفس] وتعطى جزاء [ما كسبت] و عملت من خير وشرّ [وهم لا يظلمون] ولا ينقصون من ثوابهم ولا يزدادون على عقابهم و عن ابن عبّاس هذه آخر آية نزلت ولقي رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه بعدها بسبعة أو تسعة أيّام أو أحد و عشرين أو أحد وثمانين يوماً أو ثلاث ساعات وقال له جبرئيل : ضعها على رأس مائتين و ثمانين آية من سورة البقرة فجعلت بعد آية « الّذين ينفقون » و آية الربا تأكيداً للزجر عن الربا .

روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين و قبض يوم الاثنين وكان مريضاً ثمانية عشر يوماً يعوده الناس وكان آخر ما يقول : الصلاة وما ملكت أيمانكم الصلاة فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ورثاه بعض الأنصار فقال :

الصبر يحمد في المواطن كلّها إلّا عليك فإنّه مذموم

واعلم أنّ الله سبحانه جمع في هذه الآية خلاصة ما أنزله في القرآن و جعلها خاتم الوحي والإنزال كما أنّه جمع خلاصة ما أنزل من الكتب على الأنبياء في القرآن وجعله خاتم الكتب كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء وبيان أنّ هذه الآية خلاصة ما أنزله في القرآن

لأنّ فائدة هذه الكتب بالنسبة إلى المكلّف نجاته من الدركات وفوزه بالدرجات والدركات أُصولها الشرك والجهل و المعاصي و الأخلاق المذمومة و الدرجات أُصولها التوحيد لله والعلم والطاعات والأخلاق الحميدة وهذه الآية شاملة في السعي إليها والتحرّز عنها لأنّ حقيقة التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله و مباشرة لا يقرّبك إليه فيندرج تحت كلمة التقوى الخروج عن الكفر و الشرك بالمعرفة و التوحيد و عن الجهل بالعلم وعن المعاصي بالطاعات وعن الأخلاق المذمومة بالأخلاق الممدوحة .

قال ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين : إنّه لمّا نزلت «إنّك ميّت وإنّهم ميّتون»[1]، قال رسول الله ﷺ : ليتني أعلم متى تكون ذلك فأنزل الله تعالى سورة « إذا جاء نصر الله والفتح» فكان رسول الله يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزول هذه السورة فيقول : سبحان الله ونحمده أستغفر الله وأتوب إليه فقيل له : إنّك لم تكن تقوله قبل هذا ، فقال : إنّ نفسي نعيت إليّ ثمّ بكى بكاءً شديداً .

فقيل يارسول الله : أتبكي من الموت وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ قال : فأين هول المطّلع وأين ضيق القبر وظلمة اللحد وأين القيامة والأهوال ؟ فعاش رسول الله بعد نزول هذه السورة عاماً تامّاً .

ثمّ نزلت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ، إلى آخر السورة»[2] فعاش رسول الله بعدها ستّة أشهر ثمّ نزل عليه في حجّة الوداع «اليوم أكملت لكم دينكم »[3] فعاش بعدها أحد وثمانين يوماً ثمّ نزلت آية الربا ، ثمّ نزلت بعدها : « و اتّقوا يوماً ترجعون فيه ، الآية » [3] وهي آخر آية نزلت من السماء .

يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه و ليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب و ليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئاً فان كان الذى عليه الحق

(١) الزمر : ٣٠ .
(٢) التوبة : ١٢٩ .
(٣) المائدة : ٤ .

سفيهاً أوضعيفاً أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل و استشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدىهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا مادعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا او كبيراً الى اجله ذلكم اقسط عندالله و اقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا الاان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ان لاتكتبوها وأشهدوا اذاتبايعتم ولايضار كاتب ولا شهيد فان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوالله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم(٢٨٢).

المعنى : إذا داين بعضكم بعضاً وعامله نسيئة معطياً أو آخذاً وإنّما قال : «بدين» لأنّ تداينتم قد يكون بمعنى تجازيتم من الدين الّذي هو الجزاء فقيّده بالدين لتخليص اللفظ من الاشتراك [إلى أجل مسمّى] أي وقت مذكور بالتسمية قال ابن عبّاس : إنّ الآية وردت في السلم خاصّة قال الطبرسيّ : وظاهر الآية يقع على دين مؤجّل سلماً كان أو غيره وعليه الفقهاء [فاكتبوه] أي اكتبوا الدين بأجله المعلوم مثل الأيّام أو الأشهر أو السنة بما يرفع الجهالة لا بالحصاد وقدوم الحاجّ مثل مالا يرفع الجهاله والجمهور على استحباب هذا الأمر لأنّه أدفع للنزاع .

[وليكتب بينكم كاتب] وقوله : «بينكم» للإشعار بأنّ الكاتب ينبغي أن يكون بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما [بالعدل] أي كاتب كائن بالعدل والمتصدّي للكتابة من شأنه أن يكتب بالتسوية من غير ميل إلى إحدى الجانبين .

[ولا يأب كاتب] أي لايمتنع أحد من الكتّاب [أن يكتب] كتاب الدين والصكّ على الوجه المأمور به بل يكتب على وجه الحقّ الواقع [كما علّمه الله] من الكتابة بالعدل [فليكتب] تأكيد للكتابة العادلة [وليملل الّذي عليه الحقّ] الإملال هو الإملاء وهو إلقاء المعنى على الكتّب أي ليكن المملل . ومورد المعنى على الكاتب ويقرّ المديون على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه فيكتب إقراره [وليتّق الله ربّه] أي الّذي عليه الحقّ في الإملاء [ولا يبخس] ولاينقص [من الحقّ شيئاً] لا من قدره ولا من صفته .

واختلف في الكتابة هل هي فرضٌ أم لا ؟ فقيل : هي فرضٌ على الكفاية كالجهاد و نحوه عن الشعبيّ وجماعة من المفسّرين والرمّانيّ و جوّز الجبّائيّ أن يأخذ الكاتب و

الشاهد الأُجرة على ذلك . قال الشيخ أبوجعفر الطوسي : وعندنا لايجوز ذلك . وأمّا الورق الّذي يكتب فيه على صاحب الدين دون من عليه الدين ويكون الكتاب في يده لأنّه له . وقيل : واجبٌ على الكاتب يكتب في حال فراغه . وقيل : واجبٌ عليه أن يكتب إذا اُمر . وقيل : إنّ ذلك في المواضع الّذي لايقدر فيه على كاتب غيره فيضرّ بصاحب الدين إن امتنع فإذا كان كذلك فهو فريضة وإن قدر على غيره فهو سعة إذا قام به غيره . وقيل : كان واجباً ثمّ نسخ بقوله : «ولا يضارّ كاتب ولا شهيد» انتهى .

ثمّ بيّن سبحانه حال من لا يصحّ منه الإملاء فقال : [فإن كان الّذي عليه الحقّ سفيهاً] ناقص العقل مبذّراً مجازفاً وقيل : صغيراً طفلاً . وقيل : عاجزاً أحمقاً [أو ضعيفاً] أي ضعيف المزاج مثل أن يكون شيخاً مختلاً أوخرفاً [أولايستطيع أن يملّ هو] بنفسه لخرس أو عمي أوجهل من العوارض [فليملل وليّه] الّذي يلي أمره أي يملل وليّ الّذي عليه الحقّ ويقوم مقامه الشرعيّ من وليّ أوقيّم [بالعدل] من غير نقص ولازيادة .

ثمّ أمر سبحانه بالإشهاد فقال : [واستشهدوا شهيدين من رجالكم] أي وأشهدوا على المكتوب رجلين من رجالكم أي من أهل دينكم و قيل : المراد من الأحرار البالغين المسلمين دون العبيد والكفّار ، لكنّ الحرّيّة ليست بشرط عندنا في قبول الشهاده وإنّما اشترط الإسلام مع العدالة .

[فإن لم يكونا رجلين] أي لم يكن الشهيدان رجلين فليكن [رجلٌ و امرأتان] فليشهد رجل وامرأتان [ممّن ترضون من الشهداء] وهو معروف بالستر و الصلاح والأمانة والدين [أن تضلّ إحداهما] أي تنسى إحدى المرأتين [فتذكّر إحداهما] الشهادة الاُخرى وهذا تعليلٌ لاعتبار العدد في النساء والعلّة في الحقيقة هي التذكير ولكنّ الضلال لمّا كان سبباً له نزّل منزلته كقولك : أعددت السلاح أن يجيء عدوّ فأدفعه ؛ فالإعداد للدفع لالمجيء العدوّ لكن قدّم عليه المجيء لأنّه سببه .

ثمّ حثّ الشهداء على إقامة الشهادة بقوله [ولايأب الشهداء إذا مادعوا] لأداء الشهادة و«ما» مزيدة أي إذا دعوا إلى إثبات الشهادة وإقامتها [ولا تسأموا] ولاتملّوا ولاتضجروا [أن تكتبوه] من أن تكتبوا الحقّ والدين والكتاب [صغيراً أو كبيراً] حال من الضمير ، صغيراً كان

الحقّ أو كبيراً قليلاً كان أو كثيراً مجملاً أو مفصّلاً [إلى أجله] إلى وقت حلوله الّذي أقرّ به المديون .

[ذلكم] أي كتب الحقّ والصكّ إلى أجله كاملاً [أقسط عندالله] أعدل في حكمه [وأقوم للشهادة] وأثبت لها وأعون على إقامتها [و أدنى ألّا ترتابوا] و أقرب إلى انتفاء شكّكم في الدين وقدره وأجله و شهادته [إلّا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم] استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أي لكن وقت كون مبايعتكم و مداينتكم حاضرة يداً بيد بحضور العدلين [تديرونها بينكم] نقداً لانسيئة [فليس عليكم جناح] حرجٌ وضيقٌ [أن لاتكتبوها] وليس عليكم إثمٌ في ترك كتابتها .

[وأشهدوا إذا تبايعتم] وأشهدوا الشهود على بيعكم وهذا أمر استحباب في هذا التبايع أو مطلقاً لأنّه أحوط وهذه الأوامر في الآية الكريمة للندب عند الفقهاء ، و قال أصحاب الظاهر : الإشهاد فرضٌ في التبايع .

[ولا يضارّ كاتب ولاشهيدٌ] أصله يضارر - بكسر الراء الأولى على قراءة كسر الراء - فيكون النهي متعلّقاً للكاتب والشاهد عن المضارّة فعلى هذا فمعنى المضارّة أن يكتب الكاتب مالم يملّ عليه ويشهد الشاهد بمالم يستشهد فيه أو بأن يمتنع من إقامة الشهادة ، وعلى قراءة فتح الراء الأولى عن ابن مسعود ومجاهد فيكون معناه : لايكلّف الكاتب والشاهد في حال عذر لا يتفرّغ إليها ولا يضيّق على الشاهد والكاتب إلى إثبات الشهادة و إقامتها في حال عذر ولا يعنّفان عليها إذا كانا مشغولين بما يهمّهما ولا يضارّان بإبطال شغلهما .

[وإن تفعلوا] ما نهيتم عنه من الضرار [فإنّه] فعلكم ذلك [فسوقٌ بكم] و خروج عن الطاعة أي حينئذ ملتبسين بالفسق [واتّقوا الله] في مخالفته ويعلّمكم الله ماتحتاجون إليه من اُمور دينكم [والله بكلّ شيء عليم] و ذكر علي بن إبراهيم بن هاشم أنّ في البقرة خمسمائة حكم وفي هذه الآية خاصّة خمسة عشر حكماً .

قوله : و ان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان امن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن امانته و ليتق الله ربه و لا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم (٢٨٣) .

وإن كنتم مسافرين ومتوجّهين إلى السفر [ولم تجدوا كاتباً] أيّها المتبايعون المتداينون كاتباً للصكّ ولا شهوداً تشهدونهم فالوثيقة رهن فيكون «رهان» خبر مبتدأ مقدّر وهو الوثيقة أو التقدير : [فرهان مقبوضة] يقوم مقام الصكّ والشهود ، والقبض شرطٌ في صحّة الرهن فإن لم يحصل القبض لم ينعقد الرهن بالإجماع .

[فإن أمن بعضكم بعضا] أي اطمأنّ بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنّه به واستغنى بأمانته عن الارتهان فلم يطلب منه الرهن [فليؤدّ الّذي اُؤتمن] وهو المديون و الايتمان الوثوق بأمانة الرجل [أمانته] أي فليقض المديون الأمين ما في ذمّته من الدين وسمّى الدين «أمانة» لتعلّقه بالذمّة كتعلّق الأمانة وأراد بقوله : «أمانته» ما اؤتمن فيه فهو مصدرٌ بمعنى المفعول [وليتّق الله ربّه] أي وليتّق المديون عقوبة الله ربّه بجحوده أو النقصان منه .

[ولا تكتموا الشهادة] أي بعد تحمّل الشهادة أيّها الشهود إذا دعيتم إلى الحاكم لأدائها على وجهها [ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه] و المعنى أنّ الكاتم يأثم قلبه ، وقلبه فاعل آثم .

فإن قيل : هلاّ اقتصر على قوله : « آثم » وما فائدة ذكر القلب والجملة الآثمة لا القلب وحده ؟

فالجواب أنّ كتمان الشهادة هو أن يضمرها ويسترها في قلبه ولا يتكلّم بها فلمّا كان الآثم مقترفاً بالقلب اُسند إليه وإسناد الفعل إلى الجارحة الّتي يعمل بها أبلغ وأصحّ تقول : أبصرته بعيني وسمعته باُذني إذا أردت التأكيد في أمر فكأنّه قيل : قد تمكّن الإثم في أصل نفسه و ملك أشرف مكان منه ، والقلب أصل متعلّقه ، ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيّئات الإيمان والكفر وهما من أفعال القلوب ، وعن ابن عبّاس: أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله : «فقد حرّم الله عليه الجنّة [١]» وشهادة الزور و كتمان الشهادة .

[والله بما تعملون عليم] فيجازيكم به وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : لا ينقضي كلام شاهد زور من بين يدي الحاكم حتّى يتبوّأ مقعده من النار و كذلك من كتم الشهادة .

(١) المائدة : ٧٥ .

قوله تعالى لله مافي السموات ومافي الارض وان تبدوا مافي انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير (٢٨٤) .

اللام لام الملك أي له تصريف السماوات والأرض ومابينهما لأنّه هو أبدعهما لاشركة لأحد لغيره في شيء منها فلاتعبدوا أحداً سواه ولاتعصوه فيمايأمركم به وينهاكم عنه ، وإن تظهروا مافي قلوبكم من الطاعة والمعصية أو تكتموه وتخفوه عن الناس ككتمان الشهادة و موالاة المشركين أو موالاة المؤمنين ،ولا يندرج فيه مالا يخلو البشر منه من الوساوس وأحاديث النفس الّتي لاعزيمة ولاعقد فيها إذ التكليف بحسب الوسع ودفع ذلك ممّا ليس في وسعه .

[يحاسبكم به الله] ويجازيكم به يوم القيامة [فيغفر لمن يشاء] منهم رحمةً وفضلاً [ويعذّب من يشاء] عدلاً حسبما تقتضيه مشيّته المبنيّة على الحكم والمصالح ، ولكن يعذّب الكافر لا محالة لأنّه لايغفر الشرك لقوله : « إنّ الله لايغفر أن يشرك به[1]» وتقديم المغفرة على التعذيب لسبقة رحمته على غضبه [والله على كلّ شيء قدير] فكمال قدرته على جميع الأشياء موجب لقدرته على محاسبتكم .

قوله تعالى : آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا اسمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير (٢٨٥) .

لمّا ذكر سبحانه فرض الصلاة والزكاة وبعض أحكامه في السورة ختم السورة بذكر تعظيمه وشهد بتصديق نبيّه صلى الله عليه وآله بجميع ذلك .

وفي الآية إشعار بترتيب العقائد الّتي لا يتحقّق الإيمان إلّابها من الأصول ثمّ العمل بالفروع حسب مانصّ به الشارع لابالقياس والرأي .

قال ابن شبرمة : دخلت أناوأبوحنيفة على الصادق عليه السلام فقلت : هذافقيه أهل العراق فقال عليه السلام : أهو النعمان بن ثابت؟فقال أبوحنيفة : نعم أنا ذلك،فقال الصادق عليه السلام : اتّق الله ولاتقس الدين برأيك؛فإنّ أولمن قاس برأيه إبليس إذ قال : « أنا خير منه » ثمّ سأله

(١) النساء ٤٧ .

عليه السلام عن بعض المسائل فعي فيها ثمّ سأله عليه السلام عن كلمة أوّلها الشرك وآخرها الإيمان قال : لا أدري ، قال الصادق عليه السلام : هي كلمة لا إله إلّا الله فلو قال : لا إله وسكت كان شركاً .

ثمّ قال عليه السلام : ويحك أيّما أعظم عندالله إثماً : قتل النفس الّتي حرّم الله أوالزنا ؟ قال : بل قتل النفس قال الصادق عليه السلام : إنّ الله قد قبل في قتل النفس شهادة شاهدين ولم يقبل في الزنا إلّا شهادة أربعة ، فأنّى يقوم لك القياس ؟ ثم قال عليه السلام : أيّما أعظم عندالله : الصوم أو الصلاة ؟ قال : الصلاة ، قال : فمابال الحائض تقضي الصوم ولاتقضي الصلاة؟ فاتّق الله ولا تقس الدين برأيك فإنّا نقف غداً ومن خالفنا بين يدي الله فنقول : قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وتقول أنت وأصحابك : سمعنا وقسنا ؛ فيفعل الله بنا وبكم مايشاء .

فقال : [آمن الرسول بما اُنزل إليه من ربّه] من الأحكام المذكورة [والمؤمنون] أي كلّ واحد منهم [آمن بالله] وصدّق به وبصفاته سبحانه ونفي التشبيه عنه وتنزيهه عمّا لايليق به [وملائكته] أي وصدّقوا بملائكته وبأنّهم مطهّرون ومعصومون [و كتبه] أي بجميع ما أنزل من الكتب وبالقرآن وأنّها حقٌ وصدقٌ من عندالله . وقرىء «و كتابه» [ورسله] أي بجميع أنبيائه [لانفرّق بين أحد من رسله] أي يقولون : لا نفرّق ولا نميّز بين الرسل بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما قال اليهود و النصارى ؛ لأنّ تمام الأنبياء اتّفقوا في اُصول الشرائع وما اختلفوا .

والمراد بقوله : « آمن الرسول » إيماناً تفصيليّاً متعلّقاً بالشرائع والكتب ولم يرد به حدوث الإيمان فيه لأنّه صلى الله عليه وآله كان مؤمناً بالله قبل الرسالة منه بل المعنى أنّه صلى الله عليه وآله آمن بالقرآن فإنّه قبل إنزاله إليه لم يكن عليه الإيمان به وهو معنى قوله : «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان[1]» أي ولاالإيمان بالكتاب،هذا إذاكان صلى الله عليه وآله هوالمخاطب وأمّا إذا كان المراد الأمّة والخطاب من باب إيّاك أعني واسمعي ياجارة ؛ فذلك بطريق أولى كما قال صلى الله عليه وآله : كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين .

قال العلّامة أبوالسعود العمادي : الوقف في الآية عند قوله : «من ربّه» وقال

(١) الشورى : ٥٢ .

بعضهم : عند قوله : « والمؤمنون » وهومبتدأ و « كلٌّ » مبتدأثان « آمن » خبره والجملة خبرٌ للمبتدء الأوّل والرابط بينهما الضمير الّذي ناب منابه التنوين ، وتوحيد الضمير في «آمن » مع رجوعه إلى كلّ المؤمنين لما أنّ المراد بيان إيمان كلّ فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع [و قالوا سمعنا] و الضمير راجع إلى الرسول و المؤمنين ، سمعناوفهمنا ماجاءنا من الحقّ [وأطعنا] مافيه من الأوامر والنواهي .

قيل : لمّا نزلت هذه الآية قال جبرئيل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وآله : إنّ الله قدأثنى عليك وعلى اُمّتك فسل تعط فقال الرسول : [غفرانك ربّنا] أي اغفرلنا غفرانك كما قال : « فضرب الرقاب [١] » أوالتقدير نسألكغفرانك ذنوبناوما لايخلو البشرمن التقصير في مراعاة حقوق الإلهيّة [وإليك المصير] أي الرجوع بالموت والبعث لاإلى غيرك .

لايكلف الله نفساً الاوسعها لهاما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أوأخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقه لنابه واعف عناواغفر لناوارحمنا انت مولنافانصرنا على القوم الكافرين (٢٨٦) .

إخبار من الله وليس من كلام المؤمنين ، روي أنّه لمّا نزلت « إن تبدواما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، الآية [٢] » اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأتوه ثمّ بر كوا على الركب فقالوا : يارسول الله كلّفنا من الأعمال مانطيق مثل الصلاةوالصوم والحجّ والجهادوقداُنزل إليكهذه الآية ولانطيقهافقال النبيّ صلى الله عليه وآله : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : « سمعنا وعصينا [٣] » ؟ قالوا : بل « سمعناوأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير » فأنزل الله : « لايكلّف الله ، الآية » تهويناً للخطب عليهم ببيان أنّ المراد «بمافيأنفسهم» ماعزمواعليه من السوء خاصّة لامايعمّ الخواطر الّتي لايستطاع الاحتراز عنها أي سنّة أن لا يكلّف نفساً من النفوس إلّا مايتّسع فيه طوقها رحمةً لهذه الاُمّة .

[لها ما كسبت] للنفس ثواب ماحصلت من الخير لا لغيرها [وعليها] لاعلى غيرها

---

(١) محمد : ٤ . (٢) السورة : ٢٨٤ .
(٣) السورة : ٩٣ .

[ما اكتسبت] من الشرّ والتعبير بالافتعال في جانب الشرّ لأنّ الشر لمّا كان مشتهى النفس يكون فيه السعي والاجتهاد طبعاً ولا بدّ فيه من المبالغة و التكلّف لإيجاب العمل .

[ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا] بيان دعوات المؤمنين يقولون : ربّنا لا تعذّبنا بما صدر عنّا من الأمور المؤدّية إلى النسيان والخطاء من تفريط وقلّة مبالاة ، ودل هذا على أنّ المؤاخذة جائزة في النسيان والخطاء ؛ وذلك لأنّ التحرّز عنها ممكن في الجملة وإلّا لم يكن للسؤال معنى وخفّف الله عن هذه الأُمّة ؛ قال النبيّ ﷺ : رفع عن اُمّتي الخطاء والنسيان وما استكرهوا عليه .

واختلف في المراد من النسيان والخطاء في الآية :

أحدها أنّ المراد من النسيان الترك أي تركنا كقوله تعالى : «نسوا الله فنسيهم[(١)]» أي تركوا طاعته فتركهم من ثوابه ولطفه وقوله : «وتنسون أنفسكم[(٢)]» قال الشاعر : «ولا كنت يوم الروع للطعن ناسياً» .

والمراد من « أخطأنا» أذنبنا لأنّ المعاصي توصف بالخطاء من حيث إنّها ضدّ الثواب وإن كان فاعلها متعمّداً فكأنّه أمرهم سبحانه بأن يستغفروا ممّا تركوه من الواجبات و ممّا فعلوه من القبائح .

والثاني أنّ المراد من قوله : « إن نسينا » إن تعرّضنا لأسباب يقع عندها النسيان والخطاء عن الأمر والغفلة عن الواجب وهذا هو المعنى الّذي ذكرأوّلاً في بيان الآية .

والثالث أن لا تؤاخذنا إن لم نفعل فعلاً يجب فعله على سبيل السهو أوأخطأنا أي فعلنا فعلاً يجب تركه من غير قصد ، ويحسن هذا في الدعاء على سبيل الانقطاع والتضرّع وإظهار الفقر إلى مسألته وإن كان مأموناً منه المؤاخذة بمثله مثل قوله : « احكم بالحقّ[(٣)]» ومثل قوله : « ولا تحمّلنا مالاطاقة لنابه » على سبيل التعبّد وإن كان تعالى لايكلّف أحداً مالايطيقه .

---

(١) التوبة : ٦٨ . (٢) البقرة : ٤٤ . (٣) الانبياء ١١٢ .

والرابع: كما فسّره ابن عبّاس و عطا أي لا تعاقبنا إن عصينا جاهلين أو متعمّدين .

[ربّنا ولا تحمل علينا إصراً]عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة . والإصر العبء والحمل الّذي يؤخذويحبس صاحبه مكانه لثقله و المراد التكاليف الشاقّة [كما حملته على الّذين من قبلنا] أي مثل ما حملت على من قبلناوهو ما كلّفه بنو إسرائيل من قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وعدم التطهير بغير الماءوخمسين صلاة في يوم وليلة وعدم جواز صلاتهم في غيرالمسجد وحرمة أكل الصائم بعد النوم و منع بعض الطيّبات عنهم بالذنوب و كون الزكاة ربع مالهم وقطع موضع النجاسة و كتابة ذنب الليل على الباب بالصبح وغير ذلك من التشديدات وقدعصم الله ورحم هذه الاُمّةمن أمثال ذلك وأنزل في شأنهم «ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم»[1] قال ﷺ : بعثت بالحنيفيّة السهلة السمحة . وعن العقوبات الّتي عوقب بها الأوّلون من المسخ و الخسف قال ﷺ : رُفع عن اُمّتي الخسف والمسخ والغرق .

[ربّنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به] عطف على ماقبله واستعفاء من العقوبات الّتي لاتطاق أي لا تكلّفنا ما يشقّ علينا الدوام عليها من التكاليف الشاقّة الّتي لا يكاد من كلّفها يخلو عن التفريط فيها فنعاقب بعدم محافظتنا عليها و عبّر عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار السببيّة وباعتبار ما يؤدّي إليها ولم يرد من الآيةعدم الطاقةأصلاً فإنّه لايكون وحاصل المعنى : لاتشدّد الأمر علينا فيصعب القيام بها فنعذّب كما حملت على الّذين من قبلنامن الأمم الماضية وقد مرّ بيانه .

[واعف عنّا] ذنوبنا [واغفرلنا] خطايانا أي استرهاوارحمنابإنعامك علينا في الدنيا والعفو عن عقوباتها في الآخرة [أنت مولانا] سيّدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أومتولّي أمرنا [فانصرنا على القوم الكافرين] أعنّا عليهم و ادفع عنّا شرّهم وحقّ العبد أن يستنصر من مولاه والنصرة على الكفّار تارةً بالظفر والسيف وتارةً بالحجّة .

روي أنّه لمّا اُسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى و هي في السماء

(١)الاعراف : ١٥٦ .

السادسة ـ إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها و إليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ـ أُعطي صلى الله عليه وآله ثلاثاً : الصلاة الخمس ، وغفر لمن لا يشرك بالله من اُمّته إلّا المقحمات ، وخواتيم سورة البقرة ، عن ابن مسعود. وعن ابن المكندر ، ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله قال : في آخر سورة البقرة آيات إنّهنّ قرآن وإنّهنّ دعاء وإنّهنّ يرضين الرحمن .

وفي تفسير الكلبي باسناده ذكر عن ابن عبّاس عن النبي صلى الله عليه وآله قال بينا رسول الله قاعداً إذ سمع نقيضاً يعني صوتاً فرفع رأسه فإذا باب من السماء قد فتح فنزل عليه ملك وقال : إنّ الله يبشّرك بنورين لم يعطهما نبيّاً قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرؤهما أحد إلّا أعطيته حاجته .

العيّاشي عن أحدهما عليهما السلام في آخر البقرة قال : لمّا دعوا اُجيبوا .

وفي الصافي : القمي عن الصادق عليه السلام إنّ هذه الآية مشافهة الله لنبيّه لمّا اُسري به إلى السماء قال النبي صلى الله عليه وآله : انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظل اُمّة من الاُمم فكنت من ربّي بعين من قرب ربّي كقاب قوسين أو أدنى كما حكى الله فناداني ربّي «آمن الرسول بما اُنزل إليه من ربّه» فقلت أنا مجيبه عنّي وعن اُمّتي : «والمؤمنون كلٌّ آمن بالله و ملائكته و كتبه ورسله» فقلت : «سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير» فقال الله سبحانه «لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » فقلت : «ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» فقال الله : لا اُؤاخذك فقلت : «ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا و اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» فقال الله : قد أعطيتك ، ذلك لك و لاُمّتك فقال الصادق عليه السلام : ما وفد إلى الله أحدٌ أكرم من رسول الله صلى الله عليه وآله حين سأل لاُمّته هذه الخصال .

والعيّاشي ما في معناه في حديث بدون قوله : «فقال الصادق» إلى آخر الحديث .

وفي الاحتجاج عن الكاظم عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه مناقب رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنّه اُسري به صلى الله عليه وآله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر وعرج به في ملكوت السماء مسيرة خمسين ألف عام في أقلّ من ثلث ليلة حتّى انتهى إلى ساق العرش فدنا بالعلم فتدلّى فدلّي له من الجنّة رفرف أخضر وغشي النور بصره فرأى عظمة

ربّه بفؤاده ولم يرها بعينه فكان كقاب قوسين بينهما وبينه أو أدنى فأوحى الله الى عبده ما أوحى فكان فيما أوحى إليه الآية الّتي في سورة البقرة «لله ما في السماوات والأرض و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كلّ شيء قدير» وكانت الآية قد عرضت على الأنبياء من لدن آدم إلى أن بعث الله محمّداً وعرضت على الأُمم فأبوا أن يقبلوها من ثقلها وقبلها رسول الله ﷺ وعرضها على اُمّته فقبلوها فلمّا رأى الله منهم القبول على أنّهم لايطيقونها فلمّا أن سار إلى ساق العرش كرّر عليه الكلام ليفهمه فقال الله تعالى : «آمن الرسول بما اُنزل إليه من ربّه» فأجاب ﷺ مجيباً عنه و عن اُمّته فقال : «والمؤمنون كلٌّ آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لانفرّق بين أحد من رسله» فقال تعالى : لهم الجنّة والمغفرة عليّ إن فعلوا ذلك .

فقال النبيّ ﷺ : أمّا إذا فعلت ذلك بنا فغفرانك ربّنا وإليك المصير فأجابه الله جلّ ثناؤه وقد فعلت ذلك بك وباُمّتك ثمّ قال عزّ وجلّ : «لايكلّف الله نفساً إلّاوسعها لها ما كسبت» من خير «وعليها ما اكتسبت» من شرّ .

فقال النبي لمّا سمع ذلك . أمّا إذا فعلت بي وباُمّتي فزدني قال : سل قال :«ربّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال الله : لست اُؤاخذ اُمّتك بالنسيان أوالخطاء لكرامتك وكانت الأمم السالفة إذا نسوا ما ذكّروا به فتحت عليهم أبواب العذاب وقد رفعت ذلك عن اُمّتك وكانت الأمم السالفة إذا أخطؤوا اُخذوا بالعذاب وعوقبوا عليه و قد رفعت ذلك عن اُمّتك لكرامتك عليّ .

فقال النبيّ ﷺ : إذا أعطيتني ذلك فزدني فقال الله : سل قال النبيّ : «ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا» فأجابه إلى ذلك وقال : قد رفعت الآصار الّتي كانت على الاُمم عنهم ، كنت لاأقبل صلاتهم إلّا في بقاع معلومة من الأرض وإن بعدت وقد جعلت الأرض كلّها لاُمّتك مسجداً وطهوراً .

و كانت الاُمم السالفة إذا أصابهم أذىً من نجاسة قرضوه و جعلت الماء لاُمّتك طهوراً .

وكانت الاُمم السالفة تحمل قرابينهم على أعناقهم إلى البيت المقدّس فمن قبلت

ذلك منه أرسلت إليه ناراً فأكلته فرجع مسروراً ومن لم أقبل ذلك منه رجع مثبوراً و قد جعلت قربان اُمّتك بطون فقرائها فمن قبلت ذلك منه أضعفت له أضعافاً مضاعفة ومن لم أقبل منه رفعت عنه عقوبات الدنيا .

وكانت الاُمم السالفة صلواتها مفروضة عليها في ظلم الليل وأنصاف النهار وهي من الشدائد الّتي كانت عليهم فرفعتها عن اُمّتك وفرضت عليهم صلواتهم في أطراف الليل والنهار وفي أوقات نشاطهم .

و كانت صلوات الاُمم خمسين صلاة في خمسين أوقات فرفعتها عن اُمّتك و جعلتها خمساً في خمسة أوقات .

وكانت الاُمم السالفة حسنتهم بحسنة وسيّئتهم بسيّئة فرفعتها عن اُمّتك و جعلت الحسنة بعشر والسيّئة بواحدة وهي من الآصار الّتي كانت عليهم .

وكانت الاُمم إذا نوى أحدهم حسنة ثمّ لم يعملها لم تكتب له وإن عملها كتب له حسنةً وإنّ اُمّتك إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة و إن عملها كتبت له عشراً وهي من الآصار الّتي كانت عليهم فرفعتها عن اُمّتك .

و كانت الاُمة السالفة إذا همّ أحدهم بسيّئة ثمّ لم يعملها لم تكتب عليه و إن عملها كتبت عليه سيّئة وإنّ اُمّتك إذا همّ أحدهم بسيّئة ثمّ لم يعملها كتبت له حسنة وهذه من الآصار الّتي كانت عليهم فرفعت ذلك عن اُمّتك .

وكانت الاُمم السالفة إذا أذنبوا كتبت ذنوبهم على أبوابهم وجعلت توبتهم من الذنوب أن حرّمت عليهم بعد التوبة أحبّ الطعام إليهم وقد رفعت ذلك عن اُمّتك وجعلت ذنوبهم فيما بينهم وبيني وجعلت عليهم ستوراً كثيفة و قبلت توبتهم بعد عقوبة و لا اُعاقبهم بأن اُحرّم عليهم أحبّ الطعام إليهم .

وكانت الاُمم السالفة يتوب أحدهم من الذنب الواحد مائة سنة أو ثمانين أو خمسين سنة ثمّ لا أقبل توبته دون أن اُعاقبه في الدنيا بعقوبة فرفعتها عن اُمّتك وإنّ الرجل من اُمّتك ليذنب عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو مائة سنة ثمّ يتوب ويندم طرفة عين فأغفر له ذلك كلّه .

فقال النبي ﷺ اللّهم إذا أعطيتني ذلك كلّه فزدني قال : سل قال« ربّنا و لا تحمّلنا مالا طاقة لنا به» قال : قد فعلت ذلك بك وبأُمّتك وقد رفعت عنهم عظيم بلايا الأُمم وذلك حكمي في جميع الأُمم أن لا أُكلّف خلقاً فوق طاقتهم.

فقال ﷺ : «واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا» قال تعالى : قد فعلت ذلك بتائبي أُمّتك.

قال ﷺ « فانصرنا على القوم الكافرين» قال الله : إنّ أُمّتك في الأرض كالشامة البيضاء في الثور الأسود هم القادرون وهم القاهرون يستخدمون ولا يُستخدمون لكرامتك عليّ وحقّ عليّ أن أُظهر دينك على الأديان حتّى لا يبقى في شرق الأرض وغربها دين إلّا دينك أو يؤدّون إلى أهل دينك الجزية ، انتهى.

في ثواب الأعمال عن السجّاد عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ أربع آيات من أوّل البقرة وآية الكرسيّ واثنين بعدها وثلاث آيات من آخر البقرة لم ير في نفسه وماله شيئاً يكرهه ولا يقربه الشيطان ولا ينسى القرآن.

وعن جابر عنه عليه السلام في حديث قال : قال الله : وأعطيت لك ولأُمّتك كنزاً من كنوز عرشي : فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة.

وروي عنه عليه السلام أُنزل آيتين من كنوز الجنّة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل. وفي رواية : من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه.

وفي ثواب الأعمال : من قرأ سورة البقرة وآل عمران جاءتا يوم القيامة تظلّانه على رأسه مثل الغمامتين أو مثل الغيابتين يعني المظلّتين.

وقال ﷺ : السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن أي مصره الجامع فتعلّموه فإنّ تعلّمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل : وما البطلة ؟ قال ﷺ : السحرة ، أي لا تستطيع السحرة أن تسحر قارئها ولا تقرء في دار ثلاث ليال فيقربه شيطان وكان معاذ إذا ختم سورة البقرة يقول : آمين.

وهذا الحديث حجّة لمن استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغي أن يقال : السورة

الّتي تذكر فيها البقرة لأنّه ﷺ عبّر في الحديث بهذه العبارة .

وعن أبي الأسلم الديلميّ قال قلت : لمعاذ بن جبل : أخبرني عن قصّة الشيطان حين أخذته فقال : جعلني رسول الله ﷺ على صدقة المسلمين فجعلت التمر في غرفة فوجدت فيه نقصاناً فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال : هذا الشيطان يأخذه فدخلت الغرفة وأغلقت الباب فجاءت ظلمةٌ عظيمة وغشيت الباب ثمّ تصوّر في صورة أُخرى فدخل من شقّ الباب فشددت إزاري عليّ فجعل يأكل من التمر فوثبت إليه وقبضته فقلت : ياعدوّ الله فقال : خلّ عنّي فإنّي كبيرٌ ذو عيال كثير وأنا فقير من جنّ نصيبين وكانت لنا هذه القرية قبل أن يبعث صاحبكم فلمّا بعث أُخرجنا منها فخلّ عنّي فلن أعود ، إليك فخلّيت سبيله وجاء جبرئيل فأخبر رسول الله بما كان فصلّى رسول الله فناداني مناديه فجئته وقال : مافعل أسيرك ؟ فأخبرته فقال ﷺ أما أنّه سيعود فعد قال : فدخلت الغرفة وأغلقت الباب عليّ فجاء فدخل من شقّ الباب فجعل يأكل من التمر فصنعت به كما صنعت في المرّة الأُولى فقال : خلّ عنّي فإنّي لن أعود إليك فقلت : ياعدوّ الله ألم تقل إنّك لن تعود ؟ قال : فإنّي لن أعود ، وإنّه إذا قرأ أحدكم خاتمة البقرة لايدخل منّا في بيته تلك الليلة .

تمّت السورة بعون الله في يوم الخامس عشر من الشهر الحرام

نسأل الله أن لايحرمنا ثواب تلاوتها بحرمة من

أنزلها الله عليه ﷺ ومن حنّ

له الجذع اليابس حنين

العشار

﴿سورة آل عمران﴾

(مدنية)

اُبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : من قرأ سورة آل عمران اُعطي بكلّ آية منها أماناً على حرّ جسر جهنم .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلّى الله عليه و ملائكته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) الله لا اله الا هو الحى القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التورية والانجيل (٣) من قبل هدى للناس وانزل الفرقان ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذوانتقام (٤) ان الله لايخفى عليه شىء فى الارض ولافى السماء (٥) .

[ألم] وقدمرّ شرحه في «ألم» سورة البقرة لاحاجة إلى الإطالة والمختصر : الألف إشارة إلى الله ، و اللام إلى اللطيف ، و الميم إلى المجيد [ألله] مبتدأ [لا إله إلّا هو] خبره أي هو المستحقّ للمعبوديّة لاغير وهذا التفسير معنى اللازم لامعنى نفس الكلام [الحيّ القيّوم] خبرٌ آخر له أي الباقي الّذي لاسبيل عليه للموت والفناء والقائم بتدبير الخلق وحفظه على الدوام .

روي عن النبيّ ﷺ اسم الله الأعظم في ثلاث سور في سورة البقرة « الله لاإله إلّا هو الحيّ القيّوم [1] » وفي آل عمران « الله لاإله إلّا هو الحيّ القيّوم » وفي طه « وعنت الوجوه للحيّ القيّوم [2]» .

ونزلت «ألم الله لاإله إلّاهو الحيّ القيّوم» إلي نيّف وثمانين آية ردّاً على وفد نجران ومن زعم أنّ عيسى كان ربّاً .

روي أنّ وفد نجران قدموا على رسول الله ﷺ وكانوا ستّين راكباً فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثةٌ منهم أكابر وإلى الثلاثة يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبدالمسيح وثانيهم السيّد واسمه الأيهم وثالثهم حبرهم واُسقفهم وصاحب مدارستهم أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرّفوه وموّلوه

(١) الاية : ٢٥٧ .
(٢) الاية : ١١١ .

وأكرموه لمّا شاهدوا من علمه واجتهاده في دينهم وبنوا له كنائس فلمّا خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينا بغلة أبي حارثه تسير إذ عثرت فقال كرز : تعساً للأبعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له أبو حارثة : بل تعست أمّك فقال كرز : ولم يا أخي ؟ قال : والله إنّه النبيّ الّذي كنّا ننتظره فقال له كرز : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : لأنّ هؤلاء الملوك أعطونا أموالاً كثيرة وأكرمونا فلو آمنّا به لأخذوها منّا فوقع في قلب كرز شيء إلى أن أسلم فكان يحدّث بذلك .

فأتوا المدينة ثمّ دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد صلاة العصر عليهم ثياب فاخرة يقول بعض ما يراهم : ما رأينا وفداً مثلهم ، وقد جاءت صلاتهم فقاموا ليصلّوا في المسجد فأراد بعض الأصحاب أن يمنعوهم فقال صلى الله عليه وآله : دعوهم ، فصلّوا إلى المشرق .

ثمّ تكلّم أولئك الثلاثة مع رسول الله فقالوا تارةً : عيسى هو الله لأنّه كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير ، وتارةً قالوا : هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم ، وتارةً أخرى إنّه ثالث ثلاثة لقوله تعالى : «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال : فعلت وقلت ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : أسلموا ، قالوا : أسلمنا قبلك قال صلى الله عليه وآله : كذبتم يمنعكم من الإسلام ادّعاؤكم لله تعالى شريكاً ؛ لأنّهم قالوا : إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه فقال صلى الله عليه وآله : ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويشبه أباه ؟ فقالوا : بلى . قال صلى الله عليه وآله : ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا بلى ، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّوم على كلّ شيء يحفظه ويرزقه ؟ قالوا: بلى ، قال عليه السلام : فهل تملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا ، فقال : ألستم تعلمون أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلّا ما علّم ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه وأنّ الله صوّر عيسى في الرحم كيف شاء وأنّ ربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أنّ عيسى غذا كما يتغذّى الصبيّ ثمّ كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف يكون هذا ربّاً كما زعمتم ؟ فسكتوا وأبوا إلّا جحوداً فأنزل من أوّل السورة إلى نيف وثمانين آية تقريراً لما احتجّ به صلى الله عليه وآله عليهم وأجاب بالآيات عن شبهاتهم

تحقيقاً للحق الذي فيه يمترون .

قوله : [نزّل عليك الكتاب] أي القرآن عبّر عنه باسم الجنس إيذاناً بكمال تفوّقه على بقيّة الأفراد في حيازة كمالات الجنس كأنّه هو الأحقّ بأن يطلق عليه اسم الكتاب [بالحقّ] ملتبساً ذلك الكتاب بالعدل في أحكامه وأخباره التي من جملتها التوحيد [مصدّقاً لما بين يديه] في حال كونه مصدّقاً للكتب قبله في التوحيد والنبوّات .

[وأنزل التوراة والإنجيل] اسمان أعجميّان الأوّل عبريّ والثاني سريانيّ ، والتوراة أصلها « تورية » على وزن تفعلة من ورى الزند إذا قدح وظهرت ناره وأصله وورية وأُبدلت الواو التي هي الفاء تاء كما قالوا في الوجاه : التجاه وفي الوراث : التراث فهي من ورى الزند إذا ظهرت ناره أي بها يظهر ويستخرج الحلال والحرام ويتبيّن التكليف . و « إنجيل » إفعيل من نجل ينجل إذا أثار واستخرج ، ومنه نجل الرجل يقال لولده لأنّه استخرجهم من صلبه ومن بطن امرأته وبهذا الكتاب المسمّى بإنجيل يستخرج معرفة الحلال والحرام والحقّ والباطل كما قيل للقرآن : « الفرقان » لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل .

وقال عليّ بن عيسى : النجل الأصل فكان الإنجيل أصلاً من أُصول العلم . وقال غيره : النجل الفرع كما يكون الولد فرع أبيه . وهو المعنى الأوّل فكأنّ الإنجيل فرع على التوراة يستخرج منها . وقال ابن فضّال : هو من النجل بمعنى السعة يقال : عين نجلاء . وسيعقوب كأنّه قد وسّع عليهم في الإنجيل ما ضيّق على أهل التوراة ، والكلّ محتملٌ .

[من قبل] أي أنزلهما جملةً قبل القرآن على موسى وعيسى على نبيّنا وعليه السلام [هدىً للناس] بيان العلّة للإنزال أي أنزلهما لهداية الناس ، وفي البيان لفّ بدون النشر بسبب معلوميّة زمان موسى عن زمان عيسى فلا يقع اللبس [وأنزل الفرقان] أي جنس كتب السماويّة لأنّ كلّها فارقة بين الحقّ و الباطل أو هو القرآن كرّر ذكره تعظيماً لشأنه .

[إنّ الذين كفروا بآيات الله] بالقرآن ومعجزات النبيّ ﷺ [لهم] بسبب كفرهم بها [عذاب شديد] لا يقادر قدره [والله عزيز ذوانتقام] غالب لا يتهيّأ لأحد منعه ، والانتقام مجازاة المسيء على إساءته .

[إنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء] أي مدرك الأشياء كلّها مطّلع على كفر من كفر به وإيمان من آمن به فيجازيهم يوم القيامة .

هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم (٦) .

«التصوير» جعل الشيء على صورة لم يكن عليها والصورة هيئة يكون عليها الشيء في التأليف من صاره إذا ماله أي هو الّذي يجعلكم على هيئة مخصوصة في أرحام اُمّهاتكم من ذكر واُنثى وأسود وأبيض وطويل وقصير وحسن وقبيح ، وهو ردّ على الّذين قالوا : عيسى الله أو ابن الله ؛ لأنّ من صوّر في الرحم يمتنع أن يكون إلهاً لكونه مركّباً أو حالاً في المركّب وهو في عرض الفناء .

[لا إله إلّا هو] منزّهٌ نفسه أن يكون عيسى ابناً له [العزيز الحكيم] المتناهي في القدرة والحكمة قال ﷺ : يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة فيقول : أشقي اُم سعيد؟ فيكتبان ، فيقول : أي ربّ أذكر اُم اُنثى؟ فيكتبان ، ويكتب عمله ورزقه وأجله ثمّ تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص ثمّ يقول الملك : يا ربّ ما أصنع بهذا الكتاب فيقول : علّقه في عنقه إلى قضائي عليه .

أقول : ولا ينافي هذا مع اختيار العبد الصلاح والفساد ولا يدلّ على الجبر في الشقاوة والسعادة ؛ لأنّ المراد بهذا الكتاب إظهار علمه للملك وليست هذه الكتابة من موجبات الفعل أبداً بل هو إظهار سابق علمه تعالى بأنّ هذا العبد يؤول أمره إلى هذا فمثاله مثال أنّك تعلم من ضمير السلطان أنّه يقتل غداً زيداً السارق فتخبر ابنك بأنّ زيداً غداً مقتول فيقتل غداً فهل القتل مسبّبٌ عن خبرك لابنك أو أنّ إخبارك له من موجبات قتله ؛ فالحال الحال والمثال المثال ، فأمر الله تعالى للملك بالكتابة لسابقة علمه لا أنّه قضى عليه بالسعادة أو الشقاوة .

نعم الجبر حاصل في التكوينيّات كالذكر والاُنثى والطول و القصر وأمثالها وذلك لمقتضى الحكمة لكنّ الأفعال الصادرة منك بحسب مشتهيات نفسك اختياريّةٌ وإنّما دواعيها ميل خاطرك ونفسك ، ودلّت الآية على كمال علمه وقدرته حيث صوّر الولد في رحم الاُمّ على

هذه الصورة وقد تقرّر في العقول على أنّ العالم لو اجتمعوا على أن يخلقوا بعوضةً ماقدروا ولو بذلوا جميع خزائن الأرض « فتبارك الله أحسن الخالقين [١] » .

هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر الا اولوا الالباب (٧) .

لمّا تقدّم بيان إنزال القرآن بيّن في هذه الآية كيفيّة القرآن فقال : [والّذي أنزل عليك الكتاب] أي القرآن [منه] أي من القرآن [آياتٌ محكمات] قطعيّة الدلالة على المعنى المراد ظاهرة العبارة محفوظة عن الاحتمال والاشتباه [هنّ أُمّ الكتاب] أي أصلٌ فيه وعمدةٌ ويردّ إليها غيرها بالتأويل ، والإضافة بمعنى « في » أي أُمّ في الكتاب .

[وأُخر] أي ومنه آياتٌ أُخر [متشابهاتٌ] أي محتملاتٌ لمعان متشابهة لايمتاز بعضها من بعض في استحقاق الإرادة به وليس بمتّضح إلّا بنظر الدقّة فالمتشابه في الحقيقة وصف للمعاني وصف بها الآيات على طريق وصف الدالّ بوصف المدلول .

واعلم أنّ اللفظ إمّا أن لايحتمل غير معنى واحد أو يحتمل والأوّل هو النصّ الصريح كقوله تعالى : « وإلهكم إله واحد [٢] » والثاني إمّا أن يكون دلالته على مدلوليه أو مدلولاته متساوية أولا فالأوّل هو المجمل كقوله : « ثلاثة قروء [٣] » وأمّا الثاني فهو بالنسبة إلى الراجح ظاهر وبالنسبة إلى المرجوع مؤوّل كقوله : « يدالله فوق أيديهم [٤] » والنصّ محكمٌ والمجمل والمؤوّل المتشابه كقوله : « فأينما تولّوا فثمّ وجه الله [٥] » فيردّ إلى قوله . « وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره [٦] » .

والحاصل أنّ المحكم مالايشتبه معانيه ، والمتشابه ما اشتبهت معانيه ويكون محتمل الوجوه في المراد ألاترى أنّ قوله : « ثمّ استوى على العرش [٧] » يحتمل في اللغة أن يكون

(١) المؤمنون : ١٤ . (٢) البقرة : ١٦٣ .
(٣) البقرة : ١٦٣ . (٤) الفتح : ١٠ .
(٥) البقرة : ١١٥ . (٦) البقرة : ١٤٤ .
(٧) الاعراف : ٥٣ .

معناه كاستواء الجالس على سريره وأن يكون بمعنى القهر والاستيلاء ؟ والوجه الأوّل لا يجوز عليه وهذا مثال المتشابه . وقيل : إنّ المحكم الناسخ والمتشابه المنسوخ عن ابن عبّاس . وقال ابن زيد : المحكم مالم يتكرّر لفظه والمتشابه ماتكرّر ألفاظه .

فلو قيل : لمَ وحّد «اُمّ الكتاب» وكلمة «هنّ» تقتضي اُمّهات الكتاب ؟ لأنّ الآيات بمجموعها أصل الكتاب وليست كلّ آية محكمة اُمّ الكتاب وأنّها جرت مجرى شيء واحد في البيان والحكمة مثل قوله : «وجعلنا ابن مريم واُمّه آيةً»[1] ، ولم يقل : آيتين ؛ لأنّ هذه الآية إنّما تحقّقت من كليهما في أنّها جاءت بهما من غير ذكر فلم تكن الآية إلّا به ولا له إلّا بها .

[فأمّا الّذين في قلوبهم زيغٌ] أي ميلٌ عن الحقّ إلى الأهواء الباطلة [فيتّبعون ما تشابه منه] معرضين عن المحكمات يتعلّقون بظاهر المتشابه من الكتاب وبتأويل باطل لا للتحرّي للحقّ [ابتغاء الفتنة] بل طلباً أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك في معنى الآية لحصول مقاصدهم ولمناقضة المحكم بالمتشابه [وابتغاء تأويله] أي طلب أن تأوّلوه حسبما يشتهونه من التأويلات الفاسدة والحال أنّهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله : [ومايعلم تأويله] أي تأويل المتشابه [إلّا الله والراسخون في العلم] أي الثابتون في العلم .

واختلف في نظم الآية على قولين : أحدهما أنّ الراسخون معطوف على الله فيكون المعنى أنّ تأويل المتشابه لا يعلمه إلّا الله وإلّا الراسخون في العلم مثل النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة فإنّهم يعلمونه [يقولون آمنّا به] وموضع «يقولون» النصب على الحال أي حال كونهم قائلين آمنّا بالله [كلٌّ من عند ربّنا] وهذا قول ابن عبّاس وأبي مسلم وجماعة من المفسّرين ، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام[2] فإنّه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل وماكان لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله ، وهو وأوصياؤه من بعد يعلمونه كلّه .

---

(١) المؤمنين : ٥٠ .

(٢) العياشي : بريد بن معاوية عنه عليه السلام . البرهان .

والقول الآخر أنّ الواو في قوله : «والراسخون» واو الاستيناف والوقف عند قوله : « إلّا الله » ويبتدأ بقوله : « والراسخون في العلم يقولون آمنّا به » فيكون مبتدءاً وخبراً وهذا قول عائشة و عروة بن الزبير والحسن ومالك واختيار الكسائي ّ والفرّاء والجبّائي ّ، وقالوا : إنّ الراسخين لايعلمونه ولكنّهم يؤمنون به فالآية راجعةٌ على هذا المعنى إلى عدم العلم بمدّة بقاء الدنيا و أكل هذه الأمّة و وقت قيام الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام وخروج الدجّال ونحو ذلك ممّا استأثر الله بعلمه .

قال أكثر أهل التفسير من أهل السنّة والجماعة والإماميّة رضوان الله عليهم : إنّ الوجه القول الأوّل ، لأنّ الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلّا لينتفع به عباده فلو كان المتشابه لايعلمه غيره للزمنا للطاعن مقالٌ ، ثمّ إنّا نرى أنّ الصحابة والتابعين اجتمعو على تفسير جميع آي القرآن ولم نرهم توقّفوا على شيء منه ، وكان ابن عبّاس يقول : أنا من الراسخين في العلم ؛ فعلى هذا يلزمنا أن نقول : إمّا تفسير الصحابة غلطٌ أو أنّهم أعلم من رسول الله و كلا القولين باطل .

[ومايذّكّر] حقّ التذكّر [إلّا أولو الألباب] أي العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء ، واختلف في الّذين قصدوا في الآية من مبتغي الفتنة فقيل : عني به وفد نجران لمّا حاجّوا رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر عيسى عليه السلام وسألوه صلى الله عليه وآله فقالوا : أليس عيسى كلمة الله وروحاًمنه ؟ فقال : بلى ، فقالوا : حسبنا ، فأنزل الله «فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه » يعني أنّهم قالوا : إنّ الروح مافيه بقاء البدن ؛ فأجروه على ظاهره ، وقدة مت الدلالة على أنّ القديم ليس بذي أجزاء وأعضاء وإنّما أضاف الروح تشريفاً للروح كما يضاف البيت إليه . وقيل : هم اليهود طلبوا علم بقاء هذه الأمّة واستخراجه بحساب الجمل . وقيل : هم المنافقون . وقيل : الآية عامّة في كلّ من احتجّ بالمتشابه لباطله .

قوله تعالى : ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب (٨) ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد (٩) .

هذه حكاية عن قول الراسخين الّذين ذكرهم الله في الآية أي لاتمنعنا لطفك الّذي

تستقيم به القلوب فيميل قلوبنا عن الإيمان بعد أن وفّقتنا بألطافك فاهتدينا . وهذا دعاء للتثبيت على الهداية كأنّهم قالوا : لاتخلّ بيننا وبين نفوسنا بمنعك الألطاف عنّا فتزيغ قلوبنا ، وإنّما يمنع ذلك بسبب ما يكتسبه العبد من المعصية وتأخير التوبة .

وقيل : معنى الآية . لاتكلّفنا من الشدائد ماتصعب علينا فعله فنتركه فتزيغ قلوبنا بعد الهداية ؛ فأضافوا مايقع من زيغ القلوب إليه سبحانه لأنّ ذلك يكون عند تشديده تعالى المحنة عليهم كما قال نوح : «ولم يزدهم دعائي إلّا فراراً[١]» وقال أبوعليّ الجبّائيّ : إنّ المراد لا تزغ قلوبنا من ثوابك و رحمتك وهو ماذكره الله من الشرح و السعة بقوله : «يشرح صدره للاسلام[٢]» وذكر أنّ ضدّ هذا الشرح هو الضيق و الزيغ اللذان يفعلان بالكفّار عقوبة ؛ فكأنّهم سألوا الله أن لايزيغ قلوبهم من هذا الثواب إلى ضدّه من العقاب ، أو المعنى أنّهم يقولون : لا تمل قلوبنا عن نهج الحقّ إلى اتّباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه .

[بعد إذ هديتنا] إلى الحقّ والمحكم [وهب لنا من لدنك] من عندك [رحمة] واسعة تقرّبنا إليك [إنّك أنت الوهّاب] وإطلاق صيغة المبالغة ليتناول كلّ موهوب .

[ربّنا إنّك جامع الناس] بعد الموت [ليوم] الجزاء يوم حسابه وهو يوم القيامة [لاريب فيه] من وقوعه [إنّ الله لا يخلف الميعاد] قيل : إنّ الكلام على الاستيناف فيكون إخباراً من الله . وقيل : بقيّة كلام دعاء الراسخين وإن خالف آخر الكلام أوّله في الخطاب و الغيبة فيكون مثل قوله : «حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم[٣]» والتقدير الخطاب .

ان الذين كفروا لن تغنى عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً و اولئك هم وقود النار (١٠) .

بيّن في الآية حال الّذين في قلوبهم زيغ فقال : [إنّ الّذين كفروا بآيات الله و رسله] و «من» في الآية بمعنى «عند» لا تدفع أموالهم ولا أولادهم عند الله شيئاً وقال المبرّد : «من» على أصلها والمعنى من عذاب الله شيئاً [وأولئك] الكافرون حطب النار وتتّقد النار أجسامهم

(١) نوح : ٦ .
(٢) الانعام : ١٢٥ .
(٣) يونس : ٢٢ .

كما قال في موضع آخر «حصب جهنّم»[١] .

كداب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فاخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب (١١) .

«الدأب» مصدر دأب إذا اجتهد في العمل و كدح فيه ونقل من هذا المعنى إلى العادة والتمرّن أي عادة هؤلاء في الكفر كعادة آل فرعون والّذين قبل فرعون من الاُمم الكافرة [كذّبوا بآياتنا] بيان لدأبهم كأنّه قيل : كيف كان دأبهم ؟ فقيل : كذّبوا بآياتنا و كتبنا و رسلنا . [فأخذهم الله بذنوبهم] فبسبب كفرهم عاقبهم الله بعذابه فحال هؤلاء كحال اُولئك ، و«الدأب» في الأصل التلو والتابع [والله شديد العقاب] لمن كفر بآياته .

قل للذين كفروا ستغلبون و تحشرون الى جهنم و بئس المهاد (١٢).

قال ابن عبّاس : إنّ يهود المدينة لمّا شاهدوا غلبة رسول الله ﷺ على المشركين يوم بدر قالوا : والله إنّه النبيّ الاُمّيّ الّذي بشّرنا به موسى وفي التوراة نعته و همّوا باتّباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتّى ننظر إلى وقعة له اُخرى ؛ فلمّا كان يوم اُحد شكّوا وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدّة فنقضوه وانطلق كعب بن الأشرف في ستّين راكباً إلى أهل مكّة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت :

[قل للّذين كفروا ستغلبون] البتّة عن قريب وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من شواهد النبوّة ، وقيل : المراد كفّار مكّة ومشركوهم [وتحشرون إلى جهنّم] وتجمعون إليها يوم القيامة ، وقرىء بالياء على الغياب فيمكن أن يكون المغلوبون و المحشورون غير المخاطبين و أنّهم قوم آخرون ، ويمكن أن يكونوا إيّاهم . قال الفرّاء : يقال : قل لعبدالله : إنّه قائم وإنّك قائم . [وبئس المهاد] أي بئس ما مهّدتم لأنفسكم وبئس القرار .

قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم راى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار (١٣) .

---

(١) الانبياء : ٩٨ .

نزلت في قصّة بدر وكان المسلمون ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلاً على عدّة أصحاب طالوت : سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستّة وثلاثون رجلاً من الأنصار ، وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وآله والمهاجرين عليّ بن أبي طالب وصاحب لواء الأنصار سعد بن عبادة ، وكانت الإبل في جيش رسول الله صلى الله عليه وآله سبعين بعيراً والخيل فرسين فرس للمقداد بن أسود و فرس لمرثد بن أبي مرثد و كان معهم من السلاح ستّة أدرع و ثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ أربعة عشر رجلاً من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

واختلف في عدّة المشركين فروي عن عليّ عليه السلام وابن مسعود أنّهم كانوا ألفاً ، وعن قتادة وعروة بن الزبير والربيع كانوا بين تسعمائة إلى ألف وكانت خيلهم مائة فرس ورأسهم عتبة ابن عبد شمس ، وكان حرب بدر أوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله .

المعنى : [قد كان لكم] جواب قسم محذوف أي والله قد كان لكم أيّها اليهود المغترّون بعددهم [آية] عظيمة دالّة على صدق ما أقول لكم : أنّكم ستغلبون [في فئتين] وجماعتين فإنّ المغلوبة منها كان مدلّة بكثرتها معجبة لغرّتها وقد لقاها ما لقاها فسيصيبكم ما يصيبكم [التقتا] و تلاقتا بالقتال يوم بدر [فئة] خبر مبتدء محذوف أي إحداهما فئة [تقاتل في سبيل الله] وهم لا كثرة فيهم ولا شوكة وهم أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله [وأُخرى] أي فئة أُخرى [كافرة] بالله ورسوله .

[يرونهم مثليهم] أي ترى الفئة الكافرة الفئة الأولى المؤمنة مثلي عدد الرائين وضعفهم [رأي العين] في ظاهر العين ، واختلف في معناه فقيل : معناه يرى المسلمون المشركين مثلي عدد أنفسهم قلّلهم الله في أعينهم حتّى رأوهم ستّمائة وستّ و عشرين رجلاً تقوية لقلوبهم ؛ وذلك أنّ المسلمين قيل لهم : فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين فأراهم الله عدوّهم حسب ما حدّ لهم من العدد الّذي يلزمهم أن يثبتوا لهم ولا يحجموا عنهم عن ابن مسعود و جماعة من المفسّرين . وقيل : إنّ الرؤية للمشركين يعني يرى المشركون المسلمين ضعفيهم فإنّ الله تعالى قلّل المسلمين في أعين المشركين قبل القتال ليجترئوا ولا ينصرفوا فلمّا أخذوا في القتال كثّرهم في أعينهم ليجبنوا و قلّل المشركين في أعين المسلمين ليجترئوا عليهم و تصديق ذلك قوله تعالى : «وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقلّلكم في أعينهم ، الآية[1]».

(١) الانفال : ٤٥ .

وذلك أحسن أسباب النصر للمسلمين والخذلان للكافرين. وهذا المعنى على قراءة الياء وأمّا من قرأ بالتاء فلا يحتمله إلّا القول الأوّل على أن يكون الخطاب لليهود المعنيّون بقوله: «قل للّذين كفروا ستغلبون و تحشرون» وهم يهود بني قينقاع فكأنّه قال: ترون أيّها اليهود المشركين مثلي المسلمين مع أنّ الله أظفرهم عليهم فأنتم كذلك فلاتغترّوا بكثرتكم، وهذا قول البلخيّ.

[والله يؤيّد بنصره من يشاء] أي يقوّي بإعانته من يريد نصره من غير توسيط الأسباب العاديّة [إنّ في ذلك] إشارة إلى ماذكر من رؤية القليل كثيراً و الكثير قليلاً [لعبرة] من العبور كالجلسة من الجلوس والمراد الاتّعاظ فإنّه نوع من العبور إلى فهم المعنى أي عظة عظيمة لذوي العقول والبصائر. فعلى العاقل أن يعتبر ولا يغترّ بكثرة الأعداد و الأموال فإنّ الله يمتّعه قليلاً ثمّ يضطرّه إلى عذاب غليظ.

قيل: إنّه قدم على الأستاذ أبي عليّ الدقّاق مؤمن فقير وعليه مسح (١) و قلنسوة فقال بعض أصحابه من المريدين للفقير على وجه المطايبة: بكم اشتريت هذا المسح؟ فقال اشتريته بالدنيا فطلب منّي الآخرة فلم أبعه.

قال أبوبكر الورّاق: طوبى للفقراء في الدنيا والآخرة لايطلب السلطان منه في الدنيا الخراج ولا الجبّار في الآخرة الحساب.

زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤).

أي حسّن لهم [حبّ الشهوات] والشهوة توقان النفس إلى المشتهى والمزيّن هو الله ولا يقدر عليها أحدٌ من البشر وهي ضرورة فينا، وإنّما جعلها فينا ليصحّ التكليف ولا يمكننا رفعها عن نفوسنا وذلك على سبيل الامتحان وتشديد التكليف كما قال: «إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً» (٢) وقيل: زيّن الله ما يحسن منه وزيّن

---

(١) نسيج الشعر.

(٢) الكهف: ٧.

الشيطان ما يقبح منه بالوسوسة ، عن أبي عليّ الجبّائي . وخلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة والبهائم ذات شهوات بلا عقول و جعلهما في الإنسان فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة ومن غلب عليه شهوته فهو أرذل من البهائم .

[من النساء] وقدّم ذكر النساء أي حال كونها من طائفة النساء لعراقتهنّ في معنى الشهوات فإنّهنّ حبائل الفتنة والشيطان [والبنين] ويقع الفتنة بسببهم على جمع المال و كسب الحرام ولأنّ العلاقة بهم يمنع الإنسان عن محافظة حدود الله ؛ قيل : أولادنا فتنة إن عاشوا فتنونا وإن ماتوا أحزنونا . وعدم التعريض للبنات لعدم الاطّراد في حبّهنّ مثل البنين .

[والقناطير المقنطرة] «القنطار» المال الكثير المجتمع ، قيل : «القنطار» مائة ألف دينار أوملأ مسك ثور قاله أبو جعفر عليه السلام (١) ، أو سبعون ألفاً أو أربعون ألف مثقال أو ثمانون ألفاً أو مائة رطل أو ألف ومائتا مثقال أو ألف دينار أو مائة منّ ومائة مثقال ومائة رطل ومائة درهم أو دية النفس . و في الكشّاف : المقنطرة مبنيّة من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم : ألوف مؤلّفة وبدرٌ مبدّرة . وقيل : «المقنطرة» المضاعفة قال الفرّاء : هي تسعة قناطير . وقيل : هي الأموال المنضد بعضها على بعض و جمع جميع الأقوال يرجع إلى الكثرة .

[والخيل المسوّمة] قيل : المراد الخيل الراعية . وقيل : هي الحسنة السيماء . وقيل : من السمة والعلامة أي المعلمة «والخيل» جمع لا واحد له من لفظه ، واحده فرس واشتقاقها من الخيلاء فإنّها لم يتخيّل في عين صاحبها أعظم منها ور كوبها فوجب الخيلاء لراكبها بعد أن تمكّن عليها [والأنعام والحرث] أي الإبل والبقر والغنم والزرع كلٌ منها فتنة للناس : أمّا النساء والبنون فتنة للجميع ، والذهب والفضّة فتنة لأهل الغنى والتجّار ، والخيل فتنة للملوك ، والأنعام لأهل البوادي ، والحرث لأهل الرساتيق .

[ذلك] إشارة إلى ما ذكر من الأشياء المعهودة [متاع الحياة الدنيا] ما يمتّع به في الحياة الدنيا أيّاماً قلائل فيفنى سريعاً [و الله عنده حسن المآب] وهو الجنّة لأنّ مرجع أهل الله إليها وفي الآية تزهيد في طيّبات الدنيا في الجملة و ترغيب فيما عند الله

(١) الطبرسي مرسلا .

فعلى العاقل أن يأخذ من الدنيا قدر البلغة ولا يستكثر بالاستكثار الّذي يورط صاحبه في المحظور .

قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها و أزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد (١٥) .

[قل] يا محمّد ، والهمزة للتقرير أي أُخبركم بما هو خير ممّا فصّل من تلك المستلذّات المزيّنة لكم [للّذين اتّقوا] والمراد أهل التّقوى «للّذين» خبر مبتدؤه «جنّات» والمراد من التقوى التحرّز عن المعاصي والتبتّل إلى الله بالإعراض عمّا سواه كما ينبىء عن هذا المعنى النعوت الآتية [عند ربّهم] نُصب على الحاليّة [جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهّرة] ومبرّءات من العيوب الظاهرة كالحيض والقذورات ومن العيوب الباطنة كالغضب والحسد ونحوه ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : شبرٌ من الجنّة خير من الدنيا ومافيها [ورضوان من الله] وإزاء هذه الجنّات رضوانه أي رضوان لايقادر قدره كائن منه تعالى .

قال أهل التحقيق : الجنّات في الآية إشارة إلى الجنّة الجسمانيّة ، و الرضوان إشارة إلى الجنّة الروحانيّة وهي عبارة عن تجلّي أنوار رضاء الله و جلاله لروح العبد و استغراق العبد في استدراك لذّة المعرفة فيصير العبد في مقام الأوّل راضياً عن الله وفي آخره مرضيّاً عنده تعالى وإليه الإشارة بقوله : «راضية مرضيّة [١]» .

[والله بصير بالعباد] وبأعمالهم فيعاقب ويثيب حسب مايليق .

الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار (١٦) الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار (١٧) .

ثمّ وصف المتّقين الّذين سبق ذكرهم بقوله : «للّذين اتّقوا» فقال : [الّذين يقولون] أي المتّقين يقولون : [ربّنا إنّنا] صدّقنا بك [فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار] أي استرها وادفع عنّا عذاب النّار [الصابرين] نصب على المدح بإضمار أعني الصابرين و هو وصف آخر «للّذين اتّقوا» والصبر التحمّل من مشاقّ الدنيا والطاعات [والصادقين] في نيّاتهم و

---

(١) الفجر : ٢٩ .

أقوالهم [والقانتين] المواظبين على الدعاء والعبادة [والمنفقين] [أموالهم في سبيل الله] [والمستغفرين بالأسحار] وتوسّط الواو بين الصفات مؤذن بأنّ كلّ صفة مستقلّة بالمدح .

وقيل : إنّ الصبر ثلاثة : الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية[1] . والصدق يجري في القول وهو مجانبة الكذب و في الفعل وهو إتيانه و عدم الانصراف عنه و في النيّة و هو العزم عليه حتّى يفعل ، والإنفاق يتناول على أقاربه ورحمه لله وفي الجهاد والصدقات على الفقراء وسائر وجوه البرّ .

«والاستغفار» سؤال المغفرة وتخصيص الأسحار لأنّ الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة والعبادة حينئذ أشقّ والنفس أصفى والروح أجمع لاسيّما للمجتهدين و أبعد للرياء ؛ قال يعقوب عليه السلام : « سأستغفر لكم » أخّره إلى وقت السحر قال النبيّ صلى الله عليه وآله ينزل الله إلى السماء الدنيا كلّ ليلة حتّى يبقى ثلث الليل فيقول : أنا الملك من ذا الّذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الّذي يسألني فأُعطيه من الّذي يستغفرني فأغفر له ؛ ومعنى ينزل الله ينزّل الله ملكاً من أمره فكأنّه ينزل تعالى وهو تعالى شأنه عن النزول والصعود . قال لقمان لابنه : يا بنيّ لاتكوننّ أعجز من هذا الديك يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك .

والحاصل إذا كان التسبيح من فعل الحيوانات العجم بل النباتات والجمادات كما يفصح عن هذا البيان قوله تعالى : «وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده[2]» فالإنسان الّذي هو العالم الكبير أولى بأن يشتغل بالتسبيح .

شهد الله انه لااله الا هو نزلت الآية حين جاء رجلان من أحبار الشام فقالا للنبيّ صلى الله عليه وآله : أنت محمّد؟ قال نعم ، قالا : أنت أحمد ؟ قال نعم ، قالا : أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله فأخبرهما . أي أثبت الله بالحجّة القطعيّة وأعلم سبحانه بمصنوعاته الدالّة على وحدانيّته في خلقة الأشياء إذ لا يقدر أحد أن ينشىء شيئاً منها قال ابن عبّاس : خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة و خلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد لنفسه قبل خلق الخلق حين كان و لم يكن سماء و لا أرض و لا برّ و لا بحر فقال :

---

(١) سقطت الثالثة .　(٢) الاسراء : ٤٤ .

شهد الله ، الآية **والملائكة** عطف على الاسم الجليل أى أقرّت الملائكة بذلك لمّا عاينت من عظم قدرته **واولوا العلم** آمنوا به واحتجّوا عليه بالأدلّة التكوينيّة والتشريعيّة وهم الأنبياء والمؤمنون العالمون ، قال الزجّاج : معنى «شهدالله» أي علم الله و أخبر بما يقوم مقام الشهادة على وحدانيّته من عجائب صنعته ؛ فإنّ الشاهد هو العالم الّذي يبيّن ماعلمه ، و من هذا المعنى شهد فلان عند القاضي أي بيّن علمه ، وقال الحسن : في الآية تقديم وتأخير والتقدير : شهدالله أنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط وشهدت الملائكة أنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط وشهد اُولو العلم أنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط . والقسط العدل الّذي قامت به السماوات .

وقيل : معنى قوله : **قائماً بالقسط** أنّه يقوم بتدبير الخلق وجزاء الأعمال بالعدل كما يقال : فلان قائم بالتدبير أي يجري أفعاله على الاستقامة .

وإنّما كرّر قوله : «لا إله إلّا هو» لأنّه بيّن بالأوّل أنّه المستحقّ للتوحيد و بالثاني أنّه القائم بتدبير الخلق من الأرزاق والآجال والإثابة والمعاقبة **العزيز الحكيم(١٨)** يفعل ما يشاء لامعقّب لحكمه وتضمّنت الآية الإبانة عن فضل أهل العلم والعلماء لأنّه قرن العلماء بالملائكة وشهادتهم بشهادة الملائكة .

وممّا جاء في فضل العلم والعلماء من الحديث ما رواه جابر بن عبدالله عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : ساعة من عالم يتّكيء على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً .

أقول : المراد من العلم علم الدين والشريعة .

«روى أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وآله قال : تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله حسنة و مدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وتذكّره لأهله قربة ؛ لأنّه معالم الحلال والحرام ومنار سبيل الجنّة والنار والأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدّث في الخلوة والدليل على السرّاء والضرّاء والسلاح على الأعداء والقرب عند الغرباء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة يقتدى بهم ويقتفي بآثارهم و ينتهي إلى رأيهم و ترغب الملائكة في خلّتهم وبأجنحتها تمسحهم وفي صلاتهم تستغفر لهم و كلّ رطب ويابس يستغفر لهم حتّى حيتان البحر وهوامّ الأرض وسباعها وأنعامها والسماء ونجومها ، ألا وإنّ العلم

حياة القلب ونور الأبصار وقوّة الأبدان يبلغ بالعبد منازل الآخرة ومجلس الملوك والفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، والعلم إمام العمل والعمل تابعه .

وروى أنس في فضل هذه الآية قال : من قرأ «شهدالله ، الآية» عند منامه خلق الله منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة .

وقال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً فلمّا نزلت «شهد الله ، الآية» خرّوا سجّداً .

وعن غالب القطّان قال : أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أحتلف إليه فلمّا كنت ذات ليلة أردت أن أصدر إلى البصرة قام من اللّيل فتهجّد فمرّ بهذه الآية «شهدالله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة واُولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحكيم» قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهدالله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عندالله وديعة «إنّ الدين عندالله الإسلام» قلت في نفسي : لقد سمع فيها شيئاً فصلّيت معه وودّعته ثمّ قلت : آية سمعتك تردّدها فما بلغك فيها ؟ قال والله : لا اُحدّثك بها إلى سنة فلبثت على بابه سنة فلمّا مضت السنة قلت : يا أبا محمّد قد مضت السنة قال : حدّثني أبووائل عن عبدالله (أقول : المراد عبدالله بن عمر) قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله : إنّ لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحقّ من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنّة .

وعن ابن مسعود أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : لأصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عندالله عهداً قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يقول كلّ صباح ومساء : «اللّهمّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وأنّ محمّداً عبدك ورسولك وأنّك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ وتباعدني من الخير وأنّي لا أثق إلّا برحمتك فاجعل لي عهداً توفّنيه يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد» فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الّذين لهم عندالله عهد فيدخلون الجنّة .

ان الدين عندالله الاسلام جملة مستأنفة مؤكّدة للأولى أي لا دين مرضيّاً عند

الله سوى الإسلام الّذي هو التوحيد والإطاعة والتسليم بالشريعة المقرّرة في أحكام الإسلام وهو القرآن ، ولاشكّ أنّ الإسلام شهادة التّوحيد قلباً ولساناً والقبول لما جاء من عند الله وهذا الحكم ثابت من زمن آدم إلى الخاتم وإنّما الاختلاف في الفروع الّتي هي الشرائع والشروط ويغيّر بما جاء به النبيّ في كلّ زمان ؛ فالحقيقة متّحدة والشروط مختلفة وهذا الاختلاف الصوريّ لاينافي الاتّحاد الأصليّ .

وما اختلف الذين اوتوا الكتاب نزلت في اليهود والنصارى حين أنكروا نبوّته صلى الله عليه وآله **الا من بعد ماجاءهم العلم** استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال والأوقات أي مااختلفوا في الإسلام والنبوّة لمحمّد صلى الله عليه وآله إلابعد أن علموا بأنّه الحقّ وعرفوا صحّة كلامه صلى الله عليه وآله بالحجج والآيات وأنّ الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة ممّا لايصدر عن العاقل **بغياً بينهم** مفعول له لقوله : «اختلف» أي حسداً كائناً بينهم وطلباً للرياسة .

ومن يكفر بايات الله الناطقة ولم يعمل بمقتضاها **فان الله سريع الحساب(١٩)** الجملة قائم مقام جواب الشرط ، و من يكفر بآياته فإنّه يجازيه ويعاقبه عن قريب لأنّه تعالى يحاسبهم في أقلّ من لمحة .

فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين ءاسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد (٢٠) .

فإن خاصموك ، وخاصمه وفد نصارى و هم نصارى نجران في كون الدين عند الله الإسلام [فقل أسلمت وجهي] وأخلصت قلبي وجملتي [لله] وحده لم أجعل فيها لغيره شريكاً بأن أعبده وأدعوه وهو القديم الّذي ثبتت اُلوهيّته عند كم وعندي و ما جئت بشيء بديع حتّى تجادلونني فيه [و من اتّبعن] عطف على الضمير في « أسلمت » أي و أسلم من اتّبعني .

[وقل للّذين اوُتوا الكتاب] من اليهود والنصارى [والاُمّيّين] الّذين لا كتاب لهم من مشركي العرب [ءأسلمتم] متّبعين لي كما فعل المؤمنون وصورة اللفظ الاستفهام ومعناه التهديد و متضمّن للأمر أي أسلموا فإنّه تعالى قد أزاح العلل « فهل أنتم مسلمون »

أم بعدُ باقون على كفركم ؟ ونظيره قوله : «فهل أنتم منتهون[١]»، أي انتهوا [فإن أسلموا فقد اهتدوا] كما هديتم أيّها المسلمون وفازوا بالحظّ الأوفر .

[وإن تولّوا] وأعرضوا عن الاتّباع [فإنّما عليك البلاغ] قائم مقام جواب الشرط أي لم يضرّوك شيئاً أو عليك التبليغ ولست ملتزماً بحصول هدايتهم . روي أنّ رسول الله لمّا قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا : أسلمنا ، فقال ﷺ لليهود : أتشهدون أنّ عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟ فقالوا : معاذ الله وقال للنصارى : أتشهدون أنّ عيسى عبد الله ورسوله؟ فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك قوله تعالى : «وإن تولّوا» .

[والله بصير بالعباد] عالم بأحوالهم وهو وعدٌ ووعيدٌ .

ان الذين يكفرون بآيات الله و يقتلون النبيين بغير حق و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم (٢١) .

أي الّذين يجحدون حجج الله وبيّناته [ويقتلون النبيّين] قيل : هم اليهود ، عن أبي عبيدة الجرّاح قال : قلت : يارسول الله أيّ الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة فقال : رجل قتل نبيّاً أو قتل رجلاً أمر بمعروف أو نهى عن منكر ثمّ قرأ ﷺ « ويقتلون النبيّين » الآية » ثمّ قال ﷺ : ياأبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّاً من أوّل النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار في ذلك اليوم وهو الّذي ذكره الله [فبشّرهم بعذاب أليم] وقوله «بغير حقّ» لايدلّ على أن قتل الأنبياء ما هو حقّ بل المراد أنّ قتلهم لايكون إلّا بغير حقّ كقوله : «ومن يدع مع الله إلهاً آخر[٢]»، و المراد تأكيد النفي فإنّ القتل يكون بوجوه من الحقّ وهم كانوا يقتلون بغير وجه من وجوه الحقّ .

اولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا و الاخرة و مالهم من ناصرين (٢٢) .

[أُولئك] المتّصفون بتلك الصفات القبيحة [الّذين] بطلت أعمالهم الّتي عملوها من البرّ ولم يبق لهم أثر في الدارين [ومالهم من ناصرين] ينصرونهم من بأس الله وعذابه .

---

(١) المائدة : ٩٤ . (٢) المؤمنون : ١١٨ .

ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون (٢٣) .

تعجيب للرسول ولكلّ من تتأتّى منه الرؤية في حال أهل الكتاب و سوء صنيعهم أي تنظر [إلى الّذين أُوتوا نصيباً] وحظّاً وافراً من التوراة وما اُوتوا من العلوم والأحكام الّتي من جملتها ما علموه من نعوت النبيّ ﷺ [يدعون إلى كتاب الله] قيل : المراد التوراة ، قال ابن عبّاس : دعا إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجّة لما فيه من الدلالات على صدق نبوّة محمد ﷺ وإنّما قال : «اُعطوا نصيباً من الكتاب» لأنّهم كانوا يعلمون بعض ما فيه . وقيل : المراد من «الكتاب» في الآية القرآن عن الحسن وقتادة . دعوا إلى القرآن لأنّ ما فيه موافقٌ لما في التوراة من اُصول الديانة .

[ليحكم بينهم] أي ليحكم ذلك الكتاب بينهم وأُضيف الحكم إليه لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل فهو الحاكم كما في صفة القرآن «بشيراً ونذيراً» وذلك أنّ رسول الله ﷺ دخل مدارس اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقال له رئيسهم نعيم بن عمر : على أيّ دين أنت ؟ قال ﷺ : على ملّة إبراهيم ، قال : إنّ إبراهيم كان يهوديّاً ، قال ﷺ : إنّ بيننا وبينكم التوراة فهاتوها فأبوا .

وقال الكلبيّ : نزلت الآية في قضيّة الرجم وهي أنّه فجر رجلٌ و إمرأة من أهل خيبر وكانا في شرف من قومهما وكان حكمهم في كتابهم الرجم فأتوا رسول الله رجاء رخصة عنده فحكم عليهم بالرجم فقالوا : جرت علينا في الحكم ليس عليهما الرجم ، فقال ﷺ : بيني وبينكم التوراة ؛ قالوا : قد أنصفتنا ، قال : فمن أعلمكم بالتوراة ؟ قالوا : ابن صوريا ؛ فأرسلوا إليه فدعا النبيّ بشيء من التوراة فيه الرجم دلّه على ذلك ابن سلام فقال ﷺ لابن صوريا : اقرأ فلمّا أتى على آية الرجم وضع كفّه عليها و قام ابن سلام و رفع إصبعه عنها ثمّ قرأ على رسول الله و على اليهود بأنّ المحصن و المحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البيّنة رجما وإن كانت المرأة حبلى تربّص حتّى تضع ما في بطنها و أمر رسول الله باليهوديّين فرجما فغضب اليهود لذلك ورجعوا كفّاراً فأنزل الله هذه الآية .

[ثمّ يتولّى فريق منهم وهم معرضون] عن الحقّ .

ذلك التولّي حاصل **بأنهم** بسبب أنّهم **قالوا لن تمسنا النار** باقتراف الذنوب وركوب المعاصي **إلا أياما معدودات** وهي الأيّام الّتي عبدوا فيها العجل أربعون يوماً وبسبب قصر المدّة سهّلوا وهوّنوا عليهم الخطوب . وقال الحسن : سبعة أيّام . وقيل : المراد أيّام قلائل منقطعة عن الجبّائي **وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون (٢٤)** من قولهم ذلك وأطمعهم هذه العقيدة الفاسدة وما أشبهه نحو قولهم : «نحن أبناء الله وأحبّاؤه [١]» وآباؤنا الأنبياء يشفعون لنا ، وأنّ الله وعد يعقوب أن لا يعذّب أولاده إلّا تحلّة القسم و لذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح .

قال ابن عبّاس : زعمت اليهود أنّهم وجدوا في التوراة أنّ ما بين طرفي جهنّم أعلاها وأسفلها أربعون سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقّوم ، وإنّما نعذّب حتّى تأتي على شجرة الزقّوم فتذهب جهنّم . وأصل الجحيم سقرو فيها شجرة الزقّوم فإذا اقتحموا من باب جهنّم و تبادروا في العذاب حتّى انتهوا إلى شجرة الزقّوم وملؤوا البطون قال لهم خازن سقر : زعمتم أنّ النار لن تمسّكم إلّا أيّاماً معدودات ؛ فدخلت أربعون سنة وأنتم مؤبّدون .

قوله : فكيف اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون (٢٥) .

حاصل المعنى : أيّ حال يكون حال من اغترّ بالدعاوي الباطلة حتّى أدّاه ذلك إلى الخلود في النار ونظير هذا الكلام قول القائل : أنا اُكرمك وإن لم تجئني فكيف إذا جئتني ؟ يريد عظم الإكرام أي كيف يصنعون [إذا جمعناهم ليوم] أي لجزاء يوم لاشكّ في وقوعه ووقوع ما فيه ؟ روي أنّ أوّل راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفرة راية اليهود فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد ثمّ يأمرهم إلى النار .

[ووفّيت كلّ نفس] جزاء [ما كسبت] من غير نقص أصلاً كما زعموا ، واللام في «ليوم» يدلّ على الجزاء ولو قال : «جمعناهم في يوم» لم يدلّ كما يقال : جئته ليوم الخميس يعني لما يكون يوم الخميس [وهم لايظلمون] أي كلّ الناس المدلول عليهم «بكلّ نفس» .

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء

(١) المائدة : ١٨ .

وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير (٢٦) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (٢٧) .

«اللّهم» أصله يا الله فالميم عوض عن حرف النداء و لذلك لايجتمعان وشدّدت الميم لقيامها مقام حرفين و هذا من خصائص الاسم الجليل . و قيل : أصله يا الله أمنا بخير أي اقصدنا بخير ، وخفّف بحذف حرف النداء و متعلّقات الفعل وهمزته الّتي هي فاء الفعل [مالك الملك] أي جنس الملك على الإطلاق هو مالكه حقيقيّاً يتصرّف فيه إيجاداً وإعداماً إحياءً وإماتة من غير مشارك [تؤتي الملك] بيانٌ لبعض وجوه التصرّف الّذي يستدعيه مالكيّة الملك والإيتاء إثبات مالكيّته على سبيل الحقيقة [من تشاء] إيتاءه [وتنزع الملك ممّن تشاء] نزعه منه ومن اُوتي الملك فالمأتي مالكيّته على سبيل المجاز [وتعزّ من تشاء] أن تعزّه في الدنيا أوفي الآخرة أوفيهما على سبيل الندرة واقتضاء الحكمة [و تذلّ من تشاء] أن تذلّه في أحدهما أوفيهما [بيدك الخير] وتعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أي بقدرتك الخير كلّه لابقدرة أحد من غيرك قبضاً وبسطاً ، و كلّ أفعال الله من نافع وضارّ صادر عن المصلحة فهو كلّه خيرٌ .

روي أنّ رسول الله ﷺ لمّا خطّ الخندق عام الأحزاب وقطع لكلّ عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعاً وجمع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف و أخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالفيل العظيم لم تعمل فيها المعاول فوجّهوا سلمان نحو رسول الله ﷺ فجاءه فأخبره فجاء ﷺ وأخذ المعول من يد سلمان فضربها ضربة صدعتها مقدار ثلثها و برق منها برق أضاء مابين لابتيها كأنّه مصباح في جوف بيت مظلم فكبّر و كبّر معه المسلمون و قال : أضاءت لي منها قصور الحيرة و مدائن كسرى كأنّها أنياب الكلاب ثمّ ضرب الثانية فكسرها وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها حتّى كان مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبّر النبيّ ﷺ و كبّر المسلمون فقال ﷺ : أضاءت لي قصور الحمر في أرض الشام ، ثمّ ضرب الثالثة وبرق منها برقٌ أضاءت قصور صنعاء فكبّر و كبّر المسلمون فقال ﷺ : أخبرني جبرئيل عليه السلام أنّ اُمّتي ظاهرةٌ على الاُمم كلّها فابشروا فقال

المنافقون : ألا تعجبون يمنّيكم ويعدكم الباطل و يخبركم أنّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنّها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا؟

[إنّك على كلّ شيء قدير] من الإعزاز و الإذلال ، وبعد أن قال المنافقون هذا الكلام نزلت «قل اللّهم ، الآية» وروى جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : لمّا أراد الله أن ينزّل فاتحة الكتاب و آية الكرسيّ و «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو ، الآية» و «قل اللّهم مالك الملك ، الآية» إلى قوله : «بغير حساب» تعلّقن بالعرش وليس بينهنّ وبين الله حجاب وقلن : يا ربّ تهبطنا إلى دار الذنوب وإلى من يعصيك و نحن معلّقات بالطهور وبالقدس ؟ فقال : وعزّتي وجلالي ما من عبد مؤمن قرأكنّ في دبر كلّ صلاة مكتوبة إلّا أسكنته حظيرة القدس على ما كان فيه و إلّا نظرت إليه بعيني المكنونة في كلّ يوم سبعين نظرة و إلّا قضيت له في كلّ يوم سبعين حاجة أدناها الفقر و إلّا أعذته من كلّ عدوّ و نصرته عليه ولا يمنعه دخول الجنّة إلّا أن يموت .

وقال معاذ بن جبل : احتبست عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً لم اُصلّ معه الجمعة فقال : يا معاذ ما يمنعك عن صلاة الجمعة ؟ قلت : يا رسول الله كان ليوحنّا اليهود عليّ أوقية من تبر وكان على بابي يرصدني فأشفقت أن يحبسني دونك ، قال : أتحبّ أن يقضي الله دينك ؟ قلت : نعم يا رسول الله صلى الله عليه وآله قال : قل : قل اللّهم مالك الملك إلى قوله : بغير حساب ، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما ما تشاء ، وتمنع منهما ما تشاء اقض عنّي ديني » فإن كان عليك ملء الأرض ذهباً لأدّاه الله ، انتهى .

[تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب] أي تنقص من الليل فيجعل ذلك النقصان زيادة في النهار وتنقص من النهار فيجعل ذلك النقصان زيادة في الليل على قدر طول النهار وقصره عن ابن عبّاس وعامّة المفسّرين . وقيل : معنى الآية : تدخل أحدهما في الآخر بإتيانه بدلاً منه في مكانه عن أبي علي الجبّائيّ

[وتخرج الحيّ من الميّت] أي من النطفة وهي ميّتة بدليل قوله : « و كنتم أمواتاً

فأحياكم [1]» [وتخرج الميّت من الحيّ] أي النطفة من الحيّ وكذلك الدجاجة من البيض والبيض من الدجاجة ، وقيل : إنّ معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن روي ذلك عن الصادقين عليهما السلام . وقرىء «الميّت» بالتشديد والتخفيف قال البصريّون : إنّهما سواء كقول الشاعر :

ليس من مات واستراح بميت * إنّما الميت ميّت الأحياء

فجمع بين اللغتين . وقيل : الميّت بالتشديد الّذي لم يمت بعد وبالتخفيف الّذي مات ، قال الطبرسيّ : والصحيح الأوّل .

[وترزق من تشاء بغير حساب] أي بغير تقتير لأنّ عادة المقتّر لا ينفق إلّا بحساب . قال أبو العبّاس المقرىء : ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه : بمعنى التعب ؛ قال تعالى : « وترزق من تشاء بغير حساب » وبمعنى العدد ؛ قال « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب [2]» وبمعنى المطالبة ؛ قال تعالى : « فامنن أو أمسك بغير حساب [3]» .

وفي الآية إشارة على أنّ من قدر على هاتيك الأفاعيل العظام المحيّرة للعقول فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلّهم ويؤتيه العرب ويعزّهم أهون عليه من كلّ هيّن .

وفي بعض الكتب : أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ؛ فإنّ العباد إن أطاعوني جعلتهم لهم رحمة وإن عصوني جعلتهم عليهم عقوبة . فلا تشتغلوا بسبّ الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم ، وهو معنى كما تكونون يولّى عليكم أي إن كنتم من أهل الطاعة يولّ عليكم أهل الرحمة وإن كنتم أهل المعصية يولّ عليكم أهل العقوبة .

وفي الحديث أنّ موسى عليه السلام ناجى ربّه فقال : يا ربّ ماعلامة سخطك من رضاك ؟ فأوحى الله إليه إذا استعملت على الناس خيارهم فهو علامة رضاي عنهم وإذا استعملت شرارهم فهو علامة سخطي عليهم . وفيه إشارة إلى أنّ الولاة يكونون على حسب أعمال الرعايا وأحوالهم صلاحاً وفساداً فعلى كلّ واحد من المسلمين التضرّع لله والإنابة إليه بالتوبة

---

(١) البقرة : ٢٨ . (٢) الزمر : ١٠ .
(٣) ص : ٣٩ .

والاستغفار عند فشوّ الظلم وشمول الجور من السلطان ويظهر جور الوالي وعدله في الضرع والزرع والأشجار والمكاسب والحرف بقلّها ونزوع البركة عنها وتكسّد معاملة أهل الحرف في الأمصار .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : سيأتي زمانٌ لأمّتي يكون أمراؤهم على الجور وعلماؤهم على الطمع وعبّادهم على الرياء وتجّارهم على أكل الرباء ونساؤهم على زينة الدنيا .

لايتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا ان تتقوا منهم تقة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير (٢٨) .

أي لايجوز ولا ينبغي للمؤمنين أن يتّخذوا الكافرين أولياء لنفوسهم فيصاحبوهم ويستغيثوا بهم في أمورهم ويظهروا المحبّة لهم كما قال في عدّة مواضع من القرآن : نحو قوله : « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ، الآية[١] » وقوله : « لاتتّخذوا اليهود والنصارى أولياء[٢] » وقوله تعالى : «لاتتّخذوا عدوي وعدوّكم أولياء[٣] » نهوا عن موالاتهم [من دون المؤمنين] إشارةٌ إلى أنّ المؤمنين هم الأحقّاء في الموالاة فلا تؤثروهم عليهم في الولاية .

[ومن يفعل ذلك] أي اتّخاذهم أولياء [فليس من الله] من ولايته تعالى [في شيء] يعني أنّه منسلخٌ عن ولاية الله وهذا أمرٌ معقول فإنّ موالاة الوليّ وموالاة عدوّه متنافيان قال الشاعر :

تودّ عدوّي ثمّ تزعم أنّني * صديقك ليس النوك عنك بعازب

والأعداء ثلاثة عدوّك وعدوّ صديقك وصديق عدوّك .

[إلّا أن تتّقوا] أي إلّا حال اتّقائكم من جهتهم [تقاةً] أي اتّقاءً مثل أن يكون المؤمن بينهم ويخاف منهم فإنّ الموالاة حينئذ مع اطمينان النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار

---

(١) المجادلة : ٢٢ .
(٢) المائدة : ٥١ .
(٣) الممتحنة : ١ .

زوال المانع فحينئذ لا بأس كماقال عيسى عليه السلام : كن وسطاً وامش جانباً أي كن فيمابينهم صورةً وتجنّب عنهم سيرةً ، وهذارخصة فلوصبر حتّى قتل كان أجره عظيماً .

[ويحذّركم الله نفسه] أي يخوّفكم الله ذاته المقدّسة كقوله : فاتّقون واخشون ، فلا تتعرّضوا لسخطه بموالاة أعدائه وهذا وعيد شديد [وإلى الله المصير] أي إلى جزاء الله مرجع الخلق .

قل ان تخفوا مافي صدوركم من الضمائر الّتي من جملتها ولاية الكفر **أو تبدوه** فيما بينكم **يعلمه الله** فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه **ويعلم مافي السموات وما في الارض** لايخفى عليه شيء منه وهو من باب إيراد العامّ بعد الخاص تأكيداً **والله على كل شيء قدير (٢٩)** فيقدر على عقوبتكم ولو علم بعض عبيد السلطان أنّ السلطان مطّلع على حال عبيده وقد بثّ السلطان من يتجسّس على بواطن أموره لأخذ حذره فما بال من علم أنّ الله يعلم السرّ وأخفى من السرّ فكيف يكون آمناً ؟ اللّهم إنّا نعوذبك من اغترارنا بسترك المرخى .

قال النبي صلى الله عليه وآله : أربعةٌ من الكبائر : لبس الصوف لطلب الدنيا ، وادّعاء محبّة الصالحين وترك فعلهم ، وذمّ الأغنياء والأخذ منهم ، ورجلٌ لايرى الكسب ويأكل من كسب الناس . واعلم أيّها العاقل أنّ الحبّ في الله والبغض في الله بابٌ عظيم وأصلٌ من أُصول الإيمان ؛ والمراودة الاختياريّة والتوافق المعنوي بين المؤمن والكافر لايمكن إلّا أن يكون الإيمان إيماناً صوريّاً بل موافقة المؤمن مع الفاسق و معاشرته إذا لم تكن عن ضرورة في هذا الحكم قال الشاعر :

عن المرء لاتسأل وأبصر قرينه ❊ فكلّ قرين بالمقارن يقتدي

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

فلاتصحب أخا الجهل و إيّاك و إيّاه ❊ فكم من جاهل أردى حليماً حين آخاه

فاصحب العاقل ، والعقل ما عقل به عن السيّئات ، و حضّ القلب على الحسنات ، ويكون معقلاً عن الدنيّات ونجاتاً من المهلكات ، والنظر في العواقب قبل حلول المصائب ، والوقوف مقادير الأشياء قولاً وفعلاً .

يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله بصير بالعباد (٣٠) .

« يوم » منصوب على الظرف متعلّق بقوله : «يحذّركم الله» [يوم تجد كلّ نفس] من النفوس [ماعملت] في الدنيا من طاعة و [خير محضراً] عندها بأمر الله و كذلك [ماعملت من سوء] تجد محضراً .

[تودّ] وتحبّ وتتمنّي يوم تجد صحائف الأعمال من الخير والشرّ أو أجزيتها حاضرةً ، وعن قريب يغلق الباب بغتةً ويؤخذ فلتة فليسارع العبد إلى دفع الموبقات وطلب المحسّنات قبل الإغلاق، وفي الحديث : أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من لادرهم له ولامتاع ، قال ﷺ : المفلس من اُمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا و قذف هذا و أكل مال هذا أو سفك دم هذا و ضرب هذا فيعطى هذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي اُخذ من خطاياهم و طرحت عليه ثمّ يطرح في النار [لو أنّ بينها وبينه] أي بين النفس وبين ذلك اليوم وهوله أو بين النفس والعمل السوء [أمداً بعيدا] أي مسافةً واسعةً كما بين المشرق والمغرب ولم يعمل ذلك السوء قطّ .

[ويحذّركم الله نفسه] أي ويقول الله : احذروا من سخطي ، تكرير لما سبق ليكون على بال منهم لايغفلون عنه [والله رؤوفٌ بالعباد] بتحذيره إيّاكم ؛ قال رسول الله ﷺ : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ماكانوا قطّ و أظمأ ماكانوا قطّ وأعرى ماكانوا قطّ وأنصب ماكانوا قطّ فمن أطعم الله أطعمه ومن سقى الله سقاه ومن كسى الله كساه ومن عمل لله كفاه .

قال النبيّ ﷺ : أيّها الناس لاتعجبوا بأنفسكم وبكثرة أعمالكم وبقلّة ذنوبكم ولا تعجبوا بأمر من الطاعة حتّى تعلموا بمَ يختم له فإنّ الأعمال بخواتيمها ولو أنّ أحدكم جاء يوم القيامة بعمل سبعين نبيّاً لتمنّى الزيادة لهول مايقدم عليه يوم القيامة وأقلّ مايلزمكم أن لاتستعينوا بنعمه على معاصيه .

قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (٣١) .

حذفت الياء في «أطيعون» و«في فاتّقون» لأنّه ختم آية ينوي بها الوقف وليس هذا الجهة

في « فاتّبعوني » ولهذا لم تسقط الياء .

نزلت الآية حين دعا رسول الله ﷺ كعب بن الأشرف ومن تابعه إلى الإيمان فقالوا : « نحن أبناء الله و أحبّاؤه » فنزلت الآية [قل] لهم يا محمّد ﷺ : إنّي رسول الله أدعوكم إلى من تحبّونه بزعمكم فإن كنتم تحبّونه [فاتّبعوني] على دينه وامتثلوا أمره [يحببكم الله] فإنّ المحبّ إذا كان صادقاً يقتضي أن يكون حريصاً على مطاوعة محبوبه ومحبوب محبوبه [ويغفر لكم ذنوبكم] فيقرّبكم من جنّات عزّه ويبوّئكم في جوار كرامته وعبّر عن هذا المعنى بالمحبّة بطريق الاستعارة أو المشاكلة [والله غفور رحيم] .

قل اطيعوا الله والرسول في جميع الأوامر والنواهي **فان تولوا** إمّا من تمام مقول القول فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التائين أي تتولّوا وتعرضوا ، وإمّا كلامٌ متفرّع مسوق من جهته تعالى فهي صيغة الماضي الغائب **فان الله لايحب الكافرين (٣٢)** نفي المحبّة كنايةٌ عن بغضه لهم وسخطه عليهم أي لا يرضى عنهم ، ودلّت الآية على شرف النبيّ ﷺ فإنّه جعل متابعته متابعة حبيبه ومن ادّعى محبّة الله وخالف سنّة نبيّه فهذا كذّابٌ بنصّ الآية ؛ قال النبيّ ﷺ : والّذي نفس محمّد بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه الحديث رواه البخاريّ عن عبدالله بن هشام .

واُمّة محمّد ﷺ على الحقيقة من اتّبعه وأطاعه ولا يتّبعه إلّا من أعرض عن الدنيا فإنّه ﷺ ما دعا إلّا إلى الله ، اليوم الآخر وما صرف إلّا عن الدنيا و الحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عنها وأقبلت على الله وصرفت الأوقات لأعمال الآخرة فقد سلكت سبيله الّذي يسلكه ، وبقدر ما اتّبعته صرت من اُمّته وحزبه ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله وأعرضت عن متابعته ولو خرجت عن مكمن الغرور وأنصفت من نفسك يا رجل و كلّنا ذلك الرجل لعلمت أنّك من حين تمسي لا تسعى إلّا في الحظوظ العاجلة ثمّ تطمع في أن تكون غداً من أتباعه ، ما أبعد ظنّنا وما أفحش طمعنا !

قوله تعالى : ان الله اصطفى آدم و نوحاً و آل ابراهيم و آل عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (٣٤) .

« الاصطفاء » أخذ ما صفي من الشيء أي اختار آدم بالكمالات القدسيّة للرسالة كما

في كافّة الرسل كلّ بحسبه أو اصطفاه بتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة إيّاه وإسكانه الجنّة و اصطفى نوحاً بما ذكر من الوجه الأوّل أو اصطفاه بكونه أوّل من نسخ الشرائع وبإطالة عمره وجعل ذرّيّته هم الباقين واستجابة دعوته في حقّ الكفرة والمؤمنين وحمله في السفينة .

[و] اصطفى [آل إبراهيم] وهو إسماعيل إسحاق والأنبياء من أولادهما الّذين من جملتهما النبيّ ﷺ ويفهم من اصطفائهم اصطفاء إبراهيم بطريق الأوليّة وبأمور أخرى .

[و] اصطفى [آل عمران] وهو عيسى وأمّه ابنة عمران بن ماثان بن العاذر بن أبي هود بن ربّ بن بابل بن ساليان بن يوحنّا بن ارشا بن او مود بن ميشك بن خارقا بن يونام بن غربا بن بوزان بن ساقط بن ايشا بن راجقيم بن سليمان بن داود بن ايشا بن عويل ابن سلمون بن ياعر بن ممشون بن عمياد بن دام بن خضروم بن مارش يهودا بن يعقوب عليه السلام وقيل : « آل عمران » هم موسى وهارون عليهما السلام ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى بالاندراج في آل إبراهيم والأوّل أظهر بدليل تعقيبه بقصّة مريم ، واصطفاء موسى وهارون بالانتظام في سلك آل إبراهيم انتظاماً ظاهراً .

ونظم الآية بما قبلها أنّه لمّا وقعت المنازعة في إبراهيم وعيسى عليهما السلام باختلاف أقوال اليهود والنصارى فيهما بيّن سبحانه بأنّهم مصطفون للرسالة وأنّ الناس مأمورون بمعرفتهم بالنبوّة والإطاعة ، أو أنّه لمّا أمر بطاعة محمّد ﷺ وأبى ذلك المشركون بيّن سبحانه أنّه كما اصطفاهم للرسالة من قبله اصطفى محمّداً للرسالة فلا وجه لإنكارهم رسالته ﷺ .

قوله : [على العالمين] جمع عالم وهو اسم لنوع من المخلوقين فيه علامة يمتاز بها عن غيره من الأنواع كالملك والجنّ والإنس يقال : عالم البرّ وعالم البحر وعالم السماء وعالم الأرض والمراد من «العالمين» أهل زمان كلّ واحد منهم وحاصل المعنى : اصطفى كلّ واحد منهم على عالمي زمانهم .

[ذرّيّة] منصوبة على البدليّة من الآلين ، والذرّ - بالفتح من الذال - البثّ والتفريق ، و سمّي نسل الثقلين ذرّيّة لأنّه تعالى بثّهم ونشرهم في الأرض أو لأنّه تعالى أخرج نسل

آدم من صلبه كهيئة الذرّ و هو جمع ذرّة وهي أصغر النمل ، والذرء معناه الخلق فهي خلقهم من العدم إلى الوجود وبثّهم [بعضها من بعض] فإنّ آل إبراهيم أعني إسماعيل. إسحاق متشعبان من إبراهيم المتشعّب من نوح المتشعّب من آدم إلى آخر الأنبياء إلى خاتم النبيّين ﷺ [والله سميع] لأقوال العباد[عليم] بأعمالهم البادية والخافية فيصطفي لخدمة دينه من يعلم استقامته كما قال : «الله أعلم حيث يجعل رسالته»(١) ولكنّ التفاضل واقع فيهم مثل أن يكون واحدهم خليلاً مثلاً والآخر حبيباً والآخر نجيّاً والآخر صفيّاً كما قال «تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض»(٢).

قال صاحب تفسير روح البيان : و الولادة قسمان صوريّة و معنويّة والأب أبٌ ولّدك وأب ربّاك وعلّمك ، والولادة التعليميّة تختلف باختلاف القوابل والاستعدادات وإلى هذه الولادة أشار عيسى عليه السلام بقوله : لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرّتين ، فالروح في الصفاء والكدورة يناسب الناسل ، والمزاج في القرب والاعتدال الحقيقيّ وعدمه ؛ إذ الفيض يصل بحسب القابليّة و المناسبة فتتفاوت الأرواح بحسب مراتبها في الصفوة والقرب والبعد عن الفيض الأقدس .

وبهذا البيان يتّضح أنّ كلّ نبيّ كان يتّبع نبيّاً قبله في التوحيد والمعرفة ومايتعلّق بأُصول الدين «ذرّية بعضها من بعض» وعلى هذا جعل الله المهديّ الموعود به من نسل محمّد ﷺ وبه يربّي العالم ويصلحه بعد فساده .

أقول : وهذا معنى «الولد سرّ أبيه» كما كان روحانيّة عيسى ببركة صدق مريم مع فضل نبوّته بكامليّته وقابليّته ، انتهى كلامه .

قوله : اذ قالت امراة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك انت السميع العليم(٣٥) .

«إذ» منصوب باذكر [قالت امرأة عمران] بن ماثان أُمّ مريم البتول جدّة عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاقوذا ولا يخفى أنّ عمران بن ماثان غير عمران يصهر و كان لعمران

---

(١) الانعام : ١٢٤ .

(٢) البقرة : ٢٥٣ .

ابن يصهر أيضاً بنت يقال لها : مريم ، لكن هي أكبر من موسى وهارون وهي غير مريم البتول أمّ عيسى عليه السلام وما كان العمرانان في عصر واحد . وبالجملة روي أنّ حنة زوجة عمران كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت فبينا هي في ظلّ شجرة أبصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسه للولد وتمنّته فقالت : يا ربّ إنّ لك عليّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدّق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم وهلك عمران و هي حامل وذلك قوله :

[ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني] و «النذر» مايوجبه الإنسان على نفسه وعبّر عن الولد «بما» لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء بعد [محرّراً] أي معتقاً لخدمة بيت المقدس لا أستخدمه ولا أشغله بأموري فيكون خالصاً لخدمة الله ولا يعمل عمل الدنيا ولا يتزوّج ليتفرّغ لعمل الآخرة ، وكان هذا النذر مشروعاً شايعاً عندهم ؛ لأنّ الأمر في دينهم ذلك الزمان أنّ الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع ويجعلونهم محرّرين لخدمة المسجد ولم يكن لأحد من الأنبياء إلّا ومن نسله محرّر لبيت المقدس ولم يكن يحرّر إلّا الغلمان و لا تصلح له الجارية لما يصيبها من الحيض فتحتاج إلى الخروج ولكن حرّرت ما في بطنها مطلقاً إمّا لأنّها بنت الأمر على تقدير الذكوريّة أو لأنّها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الولد الذكر .

[فتقبّل منّي] أي مانذرت ، والتقبّل أخذ الشيء على وجه الرضى [إنّك أنت السميع العليم] لجميع المسموعات العليم لكلّ المعلومات الّتي من جملتها مافي ضميري .

فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى و انى سميتها مريم و انى اعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم (٣٦) .

قالت حنة بعد أن وضعت و كانت ترجو أن يكون غلاماً فلمّا رأتها أنّ ما وضعت أُنثى خجلت وإستحيت وقالت منكّسةً رأسها : [ربّ إنّي وضعتها أُنثى] ومرادها الاعتذار من العدول عن النذر لأنّها أُنثى ، و الضمير المتّصل في «وضعتها» عائد إلى النسمة

«وأُنثى» حال منه وإنّما قالت هذا الكلام تحسّراً على ما رأته من خيبتها رجاءها وعكس تقديرها [والله أعلم بما وضعت] وهو كلام من الله وتعظيمٌ من جهته تعالى لما وضعت فإنّها لمّا تحسّرت وتحزّنت على أن ولدت أُنثى قال الله : إنّها لا تعلم قدر هذا الموهوب والله العالم بالشيء الّذي وضعت ، وفيه من العجائب وعظائم الأُمور فإنّه سيجعله و ولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم به .

[وليس الذكر كالأُنثى] مقول الله أيضاً مبيّن لتعظيم ما وضعت ورفع منزلته ، و اللام فيهما للعهد أي ليس الذكر الّذي كانت تطلبه وتتخيّل فيه كمالاً قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالأُنثى الّتي وهبت لها؛ فإنّ دائرة علمها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأُمور فهي أفضل من مطلوبها ، وهاتان الجملتان من مقول الله تعالى معترضتان بين قول أُمّ مريم : «إنّي وضعتها أُنثى» وقولها : «و إنّي سمّيتها مريم» و فائدتهما التسلية لنفس حنة و التعظيم لوضعها .

[وإنّي سمّيتها مريم] من مقول حنة عطف على قولها : «إنّي وضعتها أُنثى» أي جعلت اسمها مريم وغرضها من عرضها على الله استدعاء العصمة لها فإنّ مريم في لغتهم العابدة و خادم الربّ وأيضاً إظهار أنّها غير راجعة في نيّتها وإن كانت أُنثى وإنّها وإن كانت لا تصلح لسدانة البيت فلتكن من العابدات فيه،وظاهر هذا الكلام يدلّ على أنّ عمران كان قد مات قبل وضع حنة مريم و إلّا لما تولّت الأُمّ تسمية المولود ، وكانت مريم أجمل النساء وأفضلها في وقتها .

[وإنّي أُعيذها بك وذرّيّتها من الشيطان الرجيم] أي أُجيرها بحفظك وأُجير ذرّيّتها وأولادها من مسّ الشيطان المطرود . وعن النبيّ ﷺ ما من مولود يولد إلّا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّه إلّا مريم وابنها فوقاها الله وولدها عيسى منه بحجاب . أو استعاذت بالله لها من إغواء الشيطان .

فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم انى لك هذا قالت هو من عندالله ان الله يرزق من يشاء بغيرحساب (٣٧) .

أي تقبّلها الله مع أنّها أُنثى ورضي بها في النذر الّذي نذرته حنة للعبادة في بيت المقدّس ولم يقبل قبلها أُنثى وقبوله إيّاها أنّه ماعرتها علّة ساعة من ليل أونهار بتقبّل حسن مع صغرها فإنّ المعتاد في تلك الشريعة أن لايجوز التحرير إلّا في حقّ غلام عاقل قادر على خدمة المسجد فلمّا علم الله صدق نيّة حنة وتضرّعها تقبّل مريم مع أُنوثتها و صغرها .

[وأنبتها نباتاً حسناً] مجاز عن التربية الحسنة ما يصلح لها من جميع أحوالها وكان في ذلك الوقت أربعة آلاف محرّر في البيت لم يشتهر خبر أحد منهم اشتهار صلاحها .

قال علماء الأخلاق : من علامة من تولّاه الله أن لايقصّر في الطاعات ويشهد التقصير في إخلاصه دائماً والنقصان في عمله و تحترز عن العجب وعن الاتّكال بالعمل فإنّهما يهلكانه مثل أن يعمل الطاعة فيعجب لها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها فهذه حسنة أحاطت بها سيّئات ويذنب العبد الذنب فيلجأ إلى الله فيه و يلوم نفسه ويستصغرها ويستعظم من لم يفعل ذلك الذنب فهذه سيّئة أحاطت بها حسنات ؛ فينبغي للعبد أن يواظب على أصناف الطاعات و بعد أن عملها ينساها كيلا يبطلها العجب ؛ لأنّ حفظ الطاعة أشدّ من فعلها ومثلها مثل الزجاجة يسرع إليه الكسر ولايقبل الجبر ، وإنّ الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات فلمّا من فاته من الطاعات صنف أو أعوزه من الآداب جنس فقد فقد من النور بمقدار ذلك فلاتستغنوا ببعضها عن بعضها .

[و كفّلها زكريّا] الفعل لله بمعنى ونسبه الله إلى زكريّا وجعله كافلاً لها لصالحها قائماً بتدبير أُمورها ، وفي الحديث أنا وكافل اليتيم كهاتين وهو زكريّا بن اذن بن مسلم بن صدون من أولاد سليمان بن داود عليه السلام .

روي أنّ حنة حين ولدت مريم لفّتها في خرقة و حملتها إلى المسجد و وضعتها عند الأحبار أبناء هارون عليه السلام وهم في بيت المقدّس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنّها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فإنّ بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل ، فقال لهم زكريّا : أنا أحقّ بها عندي خالتها ؛ لأنّ أُخت حنة كانت زوجة زكريّا فقالوا : لاحتّى نقرع عليها ، فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر الأردنّ فألقوا

فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها الوحي على أن من ارتفع قلمه فهو الأولى بالتكفل فألقوا ثلاث مرات ففي كل مرة يرتفع قلم زكريا وكانت أقلامهم من حديد ورسبت أقلام الباقي فتكفلها .

[كلما دخل عليها زكريا المحراب] أي كل وقت دخل زكريا على مريم في المحراب ؛ قيل : بنى لها محراباً في المسجد أي غرفة تصعد إليها بسلم أو المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس أو كانت مساجدهم تسمى المحاريب لأنها مواضع محاربة العابد مع الشيطان وكان يدخل زكريا عليها وحده فإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب فكلما دخل عليها [وجد عندها رزقاً] نوعاً من الرزق غير معتاد إذ كان ينزل من الجنة وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ولم ترضع ثدياً قط .

[قال يامريم أنى لك هذا] أي من أين يجيء لك هذا الذي لايشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك لاسبيل للداخل عليك [قالت] مريم ، قيل تكلمت وهي صغيرة . وقيل : إن زكريا استرضع لها وضمها إلي خالتها أم يحيى حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى بها محراباً في المسجد [هو من عندالله] أي من الجنة وهذه تكرمة لها من الله وإن كان ذلك خارقاً للعادة فإن عندنا يجوز أن يظهر الآيات الخارقة للعادة على غير الأنبياء من الأولياء ومن منع ذلك من المعتزلة قالوا : فيه قوانين أحدهما أن ذلك كان تأسيساً لنبوة عيسى ، والآخر أنه بدعاء زكريا لها فكانت معجزة زكريا وعلى القول الأول إرهاصاً لنبوة عيسى عليه السلام .

قال صاحب تفسير روح البيان : وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة عليها السلام رغيفين وبضعة لحم أثرته بها فرجع بها إليها بطبق فقال : هلمي يابنية فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فعلمت أنها نزلت من عندالله فقال صلى الله عليه وسلم لها : أنى لك هذا ، فقالت : هو من عندالله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة بني إسرائيل ، ثم جمع رسول الله علياً والحسنين فأكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو .

والعيّاشي عن الباقر عليه السلام قال : إنّ فاطمة ضمنت لعليّ عليه السلام عمل البيت والعجن والخبز وقمّ البيت ، وضمن عليّ لها ماكان خلف الباب من نقل الحطب والطعام وأمثاله فقال لها يوماً : يافاطمة هل عندك شيء ؟ فقالت : لاوالّذي عظّم حقّك ماكان عندنا منذثلاث إلّا شيء نقريك به ، قال: أفلاأخبرتني ؟ قالت : نهاني رسول الله أن أسألك شيئاً ،فقال : لاتسأل ابن عمّك شيئاً إن جاءك بشيء وإلّافلاتسأليه . قال : فخرج عليّ فلقي رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثمّ أقبل به فلقي في الطريق المقداد بن الأسود فقال للمقداد : ماأخرجك في هذه الساعة ؟ قال : الجوع والّذي عظّم حقّك ياأمير المؤمنين ، قال علي عليه السلام : فهو أخرجني وقداستقرضت ديناراً وساؤثرك به ودفعه إليه .

فأقبل عليّ فوجد رسول الله جالساً وفاطمة تصلّي وبينهماشيء يغطّي ، فلمّا فرغت فإذاً جفنة من خبز ولحم قال عليه السلام : يافاطمة أنّى لك هذا ؟ قالت : هومن عندالله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعلي : ألا أحدّثك بمثلك ومثلها ؟ قال بلى : قال : مثل زكريّا إذادخل على مريم المحراب « فوجد عندها رزقاً قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عندالله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب» فأكلوا منها شهراً وهي الجفنة الّتي يأكل منها القائم عليه السلام وهي عندنا .

وفي الكافي أورد هذا الخبر بطريق آخر والمفاد هذا المفاد . وأيضاً من طريق العامّة بنحو ثالث كما ذكرت ، وأورده الزمخشريّ والبيضاويّ وغيرهم في تفاسيرهم .

هنا لك دعا زكريا ربه أي حيث كان قاعداً زكريّا عند مريم ورأى حال مريم وكرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد اُختها حنة في النجابة والكرامة وإن كانت عجوزاً عاقراً فقدكانت كذلك دعا زكريّا ربّه .

قال رب هب لي من لدنك أي أعطني من محض قدرتك **ذرية طيبة** أي ولداً صالحاً مباركاً تقيّاً رضيّاً ، و «الذريّة » النسل يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى ، والمراد هنا ولد واحد ، و «الطيّب» هو الّذي تستطاب أفعاله وأخلاقه ولايكون فيه أمر يستخبث ويعاب .

انك سميع الدعاء أي مجيبه كما في قولهم : « سمع الله لمن حمده» وهذالأنّ من لم

لم يجب فكأنّه لم يسمع ، فإن قيل : إنّ زكريّا كان عالماً بقدرة الله قبل رؤية حال مريم فهلاّ سأل قبل ذلك ؟ فالجواب أنّه قد يزداد الإنسان رغبة في الشيء إذا عاينه وإن كان عالماً به قبله .

فنادته الملائكة أي جبرئيل وحكم الواحد من الجنس قد ينسب إلى الجنس نحو : فلان يركب الخيل ، وإنّما يركب واحداً من أفرادها ولمّا كان جبرئيل من المقرّبين عبّر عنه باسم الجماعة تعظيماً له **وهو قائم يصلى فى المحراب** أي والحال أنّ زكريّا قائم في المسجد أو في غرفة مريم يصلّي **ان الله** أي بأنّ الله **يبشرك بيحيى** بولد اسمه يحيى لأنّه تحيى به المجالس من وعظه والقلوب بهدايته .

مصدقاً بكلمة من الله حال لكونه أوّل من يؤمن بعيسى وصدّق بأنّه كلمة الله وروحه ، وإنّما سمّي « كلمة الله » لأنّه وجد بكلمة « كن » من غير أب فشابه البديعيّات الّتي هي عالم الأمر وسمّي « روحاً » لأنّ عيسى أحيى به من الضلالة كما يحيى الإنسان بالروح ، قال السدّي : لقيت أمّ يحيى أمّ عيسى فقالت : يامريم أشعرت بحبلي ؟ فقالت : وأنا أيضاً حبلى ، قالت : فإنّي وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك ؛ فذلك قوله تعالى : « مصدّقاً » وقتل يحيى قبل أن رفع عيسى إلى السماء .

وسيداً وحصوراً عطف على « مصدّقاً » أي رئيساً يسود قومه ويفوقهم في الشرف ، كان فائقاً للناس قاطبةً ولم يلمّ بمعصية ولم يهمّ بخطيئة ، ومبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة و « الحصور » الممتنع من النساء مع القدرة عن ابن عبّاس وجماعة . وقيل : وقد تزوّج مع ذلك ليكون أغضّ لبصره . وقيل : كان عنيناً عن سعيد بن المسيّب والضحّاك ، لكن هذا الكلام ليس بصحيح لأنّه عيبٌ ولا يجوز العيب على الأنبياء ولأنّ الكلام خرج مخرج المدح .

ونبياً من الصالحين (٣٩) أي يوحى إليه إذا بلغ هو مبلغه وناشئاً من الأنبياء لأنّه كان من أصلابهم و « الصلاح » صفة تنتظم الخير كلّه .

قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء (٤٠) .

قال زكريّا عند نداء الملائكة وبشارتهم له بالولد بالاستفهام مسروراً بالولد مخاطباً لله لا لجبرئيل : كيف يكون لي غلامٌ وولد وقد أصابني الشيب ونالني الهرم ؟ قال ابن عبّاس : كان زكريّا يوم بشّر بالولد ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة [وامرأتي عاقر] أي عقيم لا تلد ، وبيضة العقر آخر البيضه .

فإن قيل : لمَ راجع زكريّا هذه المراجعة وقد بشّره الله بأن يهب له ذرّيّةً طيّبة بعد أن سأل ذلك ؟

قيل : إنّما قال ذلك على سبيل التعرّف عن كيفيّة حصول الولد أيعطيهما الله وهما على ماكانا عليه من الشيب أم يصرفهما إلى حال الشباب ثمّ يرزقهما الولد ، ويحتمل أن يكون سؤاله أيعطيه الله من امرأته العجوزة أم من امرأة أُخرى شابّة ؟ وقيل : سؤاله على وجه استعظام المقدور ومثل هذا التعجّب يحصل للإنسان عند ظهور آية عظيمة كمن يقول : كيف سمحت نفسك بإخراج ذلك الملك النفيس ؟ تعجّباً من جوده. وقيل : قال هذا الكلام تعجّباً كيف أجابه الله إلى مراده فيما دعا و كيف استحقّ ذلك ؟ ومن زعم أنّ ذلك من وسوسة الشيطان فقد غلط وأخطأ .

[قال كذلك الله يفعل ما يشاء] قال الله كذلك إشارة إلى مصدر « يفعل » في « الله يفعل » أي مثل ذلك الفعل يفعل مايشاء أن يفعله من الأفاعيل الخارقة للعادة « فالله » مبتدأ و «يفعل» خبره ، والكاف في محلّ النصب على أنّها في الأصل نعت لمصدر محذوف أي الله يفعل مايشاء أن يفعله فعلاً مثل ذلك الفعل العجيب من شيخ فان و عجوز عاقر .

قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزاً واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار (٤١) .

قال زكريّا [ربّ اجعل لي] علامة تحقّق المسؤول ووقوع الحبل ، وإنّما سألها لأنّ العلوق أمرٌ خفيّ لايوقف عليه فأراد أن يطّلعه الله عليه ليتلقّى تلك النعمة منه تعالى حين حصوله بالشكر قال الله أو جبرئيل : [آيتك] أي علامة حدوث الولد أن لاتقدر على تكليم الناس [ثلاثة أيّام] متوالية مع لياليها فإنّ ذكر الليالي أو الأيّام يقتضي دخول الأُخرى فيها عرفاً ، وإنّما جعلت آيته ذلك لتخليص المدّة لذكر الله و شكره [إلّا رمزاً] أي

إشارةً بيد أورأس أو نحوهما و سمّى الرمز كلاماً لأنّه يؤدّي مايؤدّي الكلام ويفهم منه بعض مايفهم من الكلام .

ثمّ أمره تعالى بذكره فقال : [واذ كر ربّك] في أوقات الحبسة [كثيراً] أي ذكراً كثيراً [وسبّح بالعشيّ] أي نزّهه عمّا لاينبغي من الزوال إلى الغروب [والإبكار] من طلوع الفجر إلى الضحى وقد حبس لسانه عن اُمور الدنيا إلّا رمزاً ، فأمّا في الذكر و التسبيح فقد كان لسانه جيّداً وكان ذلك من المعجزات . وقيل : المراد من التسبيح الصلاة كما يقال : فرغت من تسبيحي أي صلاتي ، ولعلّ المراد من قوله : «بالعشيّ والإبكار » في آخر النهار وأوّله .

قوله تعالى : واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقنتى لربك واسجدى و اركعى مع الراكعين (٤٣) .

أي اذكر وقت قول الملائكة وهو جبرئيل بدلالة قوله تعالى في سورة مريم : «فأرسلنا إليها روحنا [1]» وإنّما جمع تعظيماً لجبرئيل [يامريم] و كلام جبرئيل معها لم يكن وحياً لها فإنّ الله يقول : « وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم [2]» ولانبوّة للنساء بالإجماع ، وكلّمها شفاهاً كرامةً لها أو إرهاصاً لنبوّة عيسى عليه السلام و«الإرهاص» من الرهص وهو الصفّ الأسفل من الجدار ، هذا في اللغة وفي الاصطلاح أن يتقدّم على دعوى النبوّة أو وقوعها مايشبه المعجزة كإظلال الغمام لرسول الله صلى الله عليه وآله وتكلّم الحجر وقصّة الفيل .

[إنّ الله اصطفاك] أوّلاً حيث تقبّلك من اُمّك بقبول حسن ولم يتقبّل غيرك اُنثى ورزقك من رزق الجنّة [وطهّرك] من الكفر والأفعال الذميمة ومن مسيس الرجال ومن الحيض والنفاس ومن تهمة اليهود وتكذيبهم بإنطاق الطفل [واصطفاك] آخراً [على نساء العالمين] بأن وهب لك عيسى عليه السلام من غير أب وجعلكما آيةً للعالمين والمراد من « العالمين » أي على نساء عالمي زمانها ، لأنّ فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله سيّدة نساء العالمين

(١) مريم : ١٦ .
(٢) النحل : ٤٣ .

أجمع كما قال الباقر عليه السلام وقال : أبوجعفر عليه السلام : معنى الآية : اصطفاك من ذرّيّة الأنبياء و طهّرك من السفاح واصطفاك لولادة عيسى عليه السلام فيكون الاصطفاء على معنيين مختلفين .

[يامريم اقنتي لربّك] أي اعبديه وأخلصي له العبادة أو المعنى أديمي الطاعة له او أطيلي القيام في الصلاة ، عن مجاهد [واسجدي واركعي مع الراكعين] و اسجدي شكراً واركعي أي وصلّي مع المصلّين في الجماعة ، وقيل : معنى « واسجدي واركعي » أي افعلي كما يفعل الساجدون والراكعون ولمّا كان غاية قرب العبد السجود واختصّ السجود بهذه الفضيلة لاجرم تقدّم بالذكر ، ثمّ إنّ الواو تفيد الاشتراك لا الترتيب و السجود يستعمل بمعنى الصلاة أيضاً كقوله : « وأدبار السجود (١) » .

وعلى هذا فالمعنى : يامريم اقنتي أي قومي للعبادة وصلّي فكان المراد من « واسجدي » أي صلّي واركعي مع الراكعين أي صلّي بالجماعة مع الخاشعين الخاضعين ، ويمكن أن يكون أنّ السجود في ذلك الدين كان مقدّماً على الركوع .

ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون (٤٤) .

[ذلك] إشارة إلى ماتقدّم أي إنّ الّذي مضى ذكره من حديث حنة و زكريّا و يحيى إنّما هو من أخبار الغيب الّتي لايوقف عليها إلّا بمشاهدة أوقراءة كتاب أو تعلّم من عالم أوبوحي و انعدمت الثلاثة الأول فتعيّنت الرابعة [نوحيه إليك] ننزّله عليك و « الوحي » في القرآن لمعان : للإرسال إلى الأنبياء وللإلهام قال : « وأوحينا إلى أمّ موسى (٢) » ولإلقاء المعنى المراد قال تعالى : « بأنّ ربّك أوحى لها (٣) » وللإشارة « فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرةً وعشيّاً (٤) » .

[وما كنت لديهم] عند الّذي اختلفوا في تربية مريم وهو تقريرٌ لكونه وحياً على طريق التهكّم بمنكري نبوّته صلّى الله عليه وآله أي إنّهم لايشكّون أنّك لم تقرأ كتاباً وماصاحبت من

(١) ق : ٤٠ .
(٢) القصص : ٧ .
(٣) مريم : ١٠ .
(٤) الزلزال : ٥ .

علم تلك الأُمور الواقعة حتّى تسمع منهم ؛ فلم يبق طريقٌ إلّا المشاهدة وهي منتفيةٌ بالضرورة فلولم يكن هذا الخبر والعلم بطريق الوحي وأنت ما كنت مشاهداً هذا الأمر فمن أين أخبرتهم لولا الوحي ؟ وأهل مكّة ماكانوا أهل كتاب وما سمعوا بهذه القصّة أبداً .

[إذ يلقون أقلامهم] الّتي كانوا يكتبون بها التوراة في الماء على ماتقدّم ذكره ، و قيل : «أقلامهم» أقداحهم للاقتراع جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة حتّى وفّق خير الكفلاء زكريّا ، وفي الكلام حذف أي ليعلموا أيّهم يكفل مريم .

[وما كنت لديهم إذ يختصمون] ويتنافسون في هذا الأمر بحيث تخاصموا في التكفّل بعضهم بعضاً ، وفي الآية دلالة على أنّ للقرعة مدخلاً في تمييز الحقوق وقد قال الصادق عليه السلام : ماتقارع قومٌ ففوّضوا أُمورهم إلى الله إلّا خرج سهم المحقّ . وقال عليه السلام : أيّ قضيّة أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى الله تعالى ؛ قال الله : « فساهم فكان من المدحضين[(١)] » قال الباقر عليه السلام : أوّل من سوهم عليه مريم ابنة عمران ثمّ استهموا في يونس ثمّ في قصّة عبدالمطّلب كان أمر القرعة في الإبل وعبدالله ، و هي مشهورة .

قوله تعالى : اذقالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والاخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين (٤٦) .

[إذ قالت] بدلٌ من «وإذقالت» في الآية السابقة ومنصوبٌ بناصبه والمراد بـ[الملائكة] جبرئيل كما ذكرنا [يامريم إنّ الله يبشّرك] أي يفرّحك [بكلمة] كائنة [منه] عزّ وجلّ واُطلق على عيسى لفظ « الكلمة » بطريق إطلاق السبب على المسبّب لأنّ الكلمة سبب حدوثه وهي تعبّر « بكن » ، وحدوث كلّ مخلوق وإن كان بسبب هذه الكلمة لكنّ السبب المتعارف للحدوث لمّا كان مفقوداً في حقّ عيسى عليه السلام كان إسناد حدوثه إلى الكلمة أنسب وأكمل فجعل عليه السلام بهذه الاعتبار كأنّه نفس الكلمة .

---

(١) الصافات : ١٤١ .

[اسمه] أي اسم المسمّى بالكلمة [المسيح] والكلمة لمّا كانت عبارة عن مذكّر ذكّر الضمير و « المسيح » أصله مشيحا يعني بالعبرانيّة المبارك [عيسى] بدلٌ من المسيح معرّب من ايشوع [ابن مريم] والمسيح فعيلٌ بمعنى مفعول أي مسح وطهر من الأقذار،والمسيح الّذي أحد شقّي وجهه ممسوح لاعين له ولاحاجب له ولذا سمّي الدجّال مسيحاً . وقيل : المسيح بفتح الميم والتخفيف عيسى والمسّيح بكسر الميم والتشديد على وزن شرّير الدجّال ، عن إبراهيم النخعيّ .

[وجيهاً] على الحاليّة،ذوالجاه والشرف [في الدنيا] بالتقدّم على الناس والنبوّة [والآخرة] بعلوّ الدرجة في الجنّة والشفاعة [ومن المقرّبين] عندالله بارتفاعه إلى السماء ومصاحبة الملائكة .

[ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين] يكلّمهم طفلاً وكهلاً من غير تفاوت حال الطفليّة والكهليّة ، يقال : اكتهل النبت إذا طال وقوي،وهو في الإنسان مابين الشيخ والشابّ . وقيل : الكهولة إذا بلغ الإنسان حدّ أربع وثلاثين سنة .

وقيل : سمّي بالمسيح لأنّه مسح بدهن زيت بورك فيه وكانت الأنبياء يتمسّحون به . وقيل : لأنّه مسحه جبرئيل بجناحه وقت ولادته ليكون عوذةً من الشيطان . وقيل : لأنّه كان يمسح رأس اليتامى لله أولأنّه عليه السلام كان يمسح عين الأعمى فيبصر ولا يمسح ذا عاهة بيده إلّا برىء .

قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشرقال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون (٤٧) .

[قالت] مريم متضرّعةً إلى الله : [ربّ أنّى يكون لي ولدٌ] من أين يكون لي ولدٌ على وجه الاستبعاد العاديّ وذلك من اقتضاء البشريّة إذ لم يجز عادةً بأن يولد ولد بلا أب [ولم يمسسني بشرٌ] آدميّ ، وسمّي بشراً لظهوره ، وهو كنايةٌ عن الجماع .

[قال] الله أوجبرئيل : [كذلك] إشارة إلى مصدر يخلق في قوله : [الله يخلق مايشاء] أي الله يخلق مايشاء أن يخلقه مثل ذلك الخلق العجيب [إذا قضى أمراً] وأراد شيئاً وأصل القضاء الإحكام أطلق على الإرادة الإلهيّة القطعيّة المتعلّقة بإيجاد الشيء [فإنّما

يقول له كن فيكون] من غير ريث،وهو تعبيرٌ لكمال قدرته وبيان لسرعة حصوله ؛ قال ابن عبّاس : كانت مريم في غرفة قد ضربت دونها ستراً إذا هي برجل عليه ثياب بيض وهو جبرئيل « تمثّل لها بشراً سويّاً » تامّ الخلقة فلمّا رأته « قالت أعوذ بالرحمن منك » ثمّ نفخ في جيب درعها حتّى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت . قال وهب : وكان معها ذوقرابة يقال له يوسف النجّار ، وكان يوسف يستعظم هذا الأمر فإذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وإذا أراد أن يبرأها رأى ماظهر عليها فكان أوّل ما كلّمها أن قال لها : قد دخل في صدري شيء أردت كتمانه فغلبني ذلك فرأيت الكلام أشفى لصدري قالت : قل ، قال : فحدّثيني هل ينبت الزرع من غير بذر ؟ قالت نعم،قال : فهل ينبت شجر من غير أصل؟قالت:نعم ، قال : فهل يكون ولد من غير ذكر؟قالت : نعم،ألم تعلم أنّ الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر يومئذ إنّما صار من الزرع الّذي أنبت الله من غير بذر ، ألم تعلم أنّ الله خلق آدم وحوّا من غير اُنثى ولاذكر ؟ فلمّا قالت له ذلك وقع في نفسه أنّ الّذي بها شيء أكرمها الله به.روي أنّ عيسى عليه السلام حفظ التوراة وهو في بطن اُمّه وكانت مريم تسمع عيسى وهو يدرس في بطنها ؛ ثمّ لمّا شرّف عالم الشهود أعطاه الله الزهادة في الدنيا فإنّه كان يلبس الشعر ويتوسّد الحجر ويستنير القمر وكان له قدح يشرب فيه الماء ويتوضّأ فيه فرأى رجلاً يشرب بيده فقال لنفسه : ياعيسى هذا أزهد منك،فرمى القدح واستظلّ يوماً في ظلّ خيمة عجوز فكان قد لحقه حرٌّ شديد فخرجت العجوز فطردته فقام وهو يضحك وقال : يا أمة الله ما أنت أقمتني وإنّما أقامني الّذي لم يجعل لي نعيماً في الدنيا،ولمّا رفع إلى السماء وجد عنده إبرة كان يرقع بها فاقتضت الحكمة الإلهيّة نزوله في السماء الرابعة ؛ فالسالك لابدّ وأن ينقطع عن كلّ ماسوى الله ويتجرّد عن العلائق والعوائق حتّى يسير إلى الملأ الأعلى ويطير إلى مقام قاب قوسين أوأدنى . وروي أنّ موسى عليه السلام ناجى ربّه وقال : اللّهمّ أرني وليّاً من أوليائك فأوحى الله إليه أن اصعد الجبل الفلانيّ وادخل في زاوية كذا في كهف كذا حتّى ترى وليّي ؛ ففعل فرأى فيه رجلاً ميّتاً توسّد بلبنة وفوق عورته خرقةٌ وليس فيه شيء غيره ؛ فقال : اللّهم إنّي أسألك أن تريني وليّك فأريتني هذا ، فقال سبحانه : هذا هو وليّي فوعزّتي

وجلالي لا أُدخله الجنّة حتّى أُحاسبه باللبنة والخرقة من أين وجدها . نسأل الله الإعراض عن حطام الدنيا .

و يعلمه الكتاب و الحكمة و التورية و الانجيل (٤٨) و رسولا الى بنى اسرائيل انى قدجئتكم باية من ربكم انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله و ابرىء الاكمه والابرص و احيي الموتى باذن الله وانبئكم بما تاكلون وماتدخرون في بيوتكم ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين (٤٩) ومصدقا لمابين يدى من التورية ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم باية من ربكم فاتقوا الله واطيعون (٥٠) ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٥١) .

[ويعلّمه الكتاب والحكمة] أي يعلّم الله عيسى الكتاب أي بعض الكتب الّتي أنزلها على انبيائه سوى التوراة والإنجيل مثل الصحف والزبور . وقيل : المراد من الكتاب في الآية الكتابة والخطّ . قيل : أعطى الله عيسى تسعة أجزاء من الخطّ وسائر الناس جزءاً ، والأوّل أليق في المعنى ، والمراد من «الحكمة» علم الحلال والحرام كما روي عن النبيّ ﷺ قال : أُوتيت القرآن ومثله . أو المراد من «الحكمة» أُصول التوراة والإنجيل ، وأفرد الإنجيل والتوراة بالذكر مع دخولهما في الحكمة تنبيهاً عن جلالة موقعهما كقوله : «وملائكته ورسله وجبرئيل وميكال [1]» والحكمة العلوم الشرعيّة والعقليّة الموافقة للشرعيّة من تهذيب الأخلاق وما يضرّ وينفع للإنسان من الكمال والنفع الباقي .

[والتوراة والإنجيل ورسولاً] أي ويجعله رسولاً [إلى بني إسرائيل] وهذا الكلام سبق تطييباً لقلب مريم وردّاً لقول اليهود حيث قالوا : إنّ عيسى كان مبعوثاً إلى قوم مخصوصين . وكان أوّل أنبياء بني إسرائيل يوسف و آخرهم عيسى عليه السلام و انقطع هنا قصّة مريم و ولادتها ويأتي تمام قصّتها في سورة مريم ، ومن قولهم : «ورسولاً» ابتدأ بقصّة عيسى .

[أنّي قد جئتكم] أي قال لهم عيسى و كلّمهم : بانّي قد جئتكم [بآية] لمّا بعث رسولاً أي جئتكم بحجّة [من ربّكم] دالّة على صحّة نبوّتي وهي ما ذكر بعده من خلق

---

(١) البقرة : ٩٨.

الطير وغيره [أنّي أخلق] أي أُقدّر وأُشكّل لأنّه قد ثبت أنّ العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب أن يكون بمعنى التسوية والتقرير [لكم] أي لأجلكم ولجهة حصول إيمانكم ورفع تكذيبكم إيّاي [من الطين] شيئاً [كهيئة الطير] و مثل صورته [فأنفخ فيه] أي في الشيء المماثل للطير أنفخ [فيكون طيراً] حيّاً طيّاراً كسائر الطيور [بإذن الله] أي بأمره والإحياء منه تعالى لامنّي .

روي أنّ عيسى لمّا ادّعى النبوّة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خفّاشاً فأخذطيناً وصوّره ثمّ نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء و الأرض . قال وهب بن منبّة : كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميّتاً ليتميّز فعل الخلق من فعل الله . و إنّما طلبوا خلق الخفّاش لأنّه أعجب من سائر الخلق ومن عجائبه أنّه لحم و دم يطير بغيرريش ويلد كما يلد الحيوان ولايبيض كما يبيض سائر الحيوان من الطيور، ويكون له الضرع ويخرج منه اللبن ولايبصر في ضوء النهار ولافي ظلمة الليل وإنّما يرى في ساعتين ساعة بعد غروب الشمس وساعة بعد طلوع الفجر قبل أن يسفر جدّاً، ويضحك كما يضحك الإنسان وله أسنان ، ويحيض كما تحيض المرأة . وإنّ عيسى لمّا تولّد من نفخ جبرئيل في مريم و جبرئيل روح محض و روحانيّ فكانت بالمناسبة نفخة عيسى عليه السلام فجعله الله سبباً للحياة والروح .

[و أبرىء الأكمه والأبرص] أي أشفي الّذي ولد أعمى ، قال الزمخشريّ : لم يوجد في هذه الأُمّة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسيّ صاحب التفسير « و الأبرص » الّذي به برصٌ وهو بياضٌ في الجلد لم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه تتطيّر منه ، وإذا استحكم فلا برء له ولا يزول بالعلاج .

وإنّما خصّهما بالذكر للشفاء لأنّهما ممّا أعيى الأطبّاء في تداويهما و كانوا في غاية الحذاقة في زمن عيسى وسألوا الأطبّاء عنهما فقال جالينوس وأصحابه : إذا ولد أعمى لايبرأ بالعلاج و كذا إذا كان البرص بحال لوغرزت الإبرة فيه لا يخرج منه الدم لايقبل العلاج . فرجعوا إلى عيسى وجاؤوا بالأكمه والأبرص فمسح يده بعد الدعاء عليهما فأبصر

الأعمى ويبرىء الأبرص فآمن به البعض وجحد البعض وقالوا : سحرٌ هذا .

روي أنّه أبرأ في يوم واحد خمسين ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام وكان يداويهم على شرط الإيمان .

ثمّ قال عيسى : [وأُحيي الموتى بإذن الله] فسألوا جالينوس عنه فقال : الميّت لايحيى بالعلاج فإن كان هو يحيي فهو نبيّ و ليس بطبيب ؛ فطلبوا أن يحيي الموتى فأحيى أربعة أنفس أحيى العاذر و كان صديقاً له فأرسل أُخته إلى عيسى أنّ أخاك العاذر يموت فأتاه وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيّام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قدمات منذ ثلاثة أيّام فقال انطلقي بنا إلى قبره ؛ فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مطبقة فقال عيسى : اللّهم ربّ السماوات السبع والأرضين السبع إنّك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك و اُخبرهم أنّي اُحيي الموتى فأحي العاذر فقام العاذر فخرج من قبره وبقي و ولدله .

وأحيى ابن عجوزمرّ به ميّتاً على عيسى على سرير يحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله وبقي وولد له .

و أحيى ابنة العاشر الّذي يأخذ العشور قيل له : أحيها وقد ماتت أمس ، فدعا الله فعاشت وبقيت وولد لها؛ فقالوا : إنّه يحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلّهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة ؛ فأحي لنا سام بن نوح فقال عيسى : دلّوني على قبره فخرج و القوم معه حتّى انتهى إلى قبره فدعا الله بالاسم الأعظم فخرج من قبره و قد شاب رأسه فقال عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيبٌ ؟ قال : ياروح الله لمّا دعوتني سمعت صوتاً يقول : أجب روح الله فظننت أنّ القيامة قدقامت فمن هول ذلك شاب رأسي ، فسأله عن النزع فقال : ياروح الله إنّ مرارته لم تذهب عن حنجرتي وقدكان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم : صدّقوه فإنّه نبيّ فآمن به بعضهم و كذّبه آخرون ، ثمّ قال له : مت ، قال : بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت ، فدعا الله ففعل .

ثمّ طلبوا آية أُخرى دالّة على صدقه فقال : [و اُنبّئكم بما تأكلون] من أنواع المآكل [وما تدّخرون] وتخبؤون للغد [في بيوتكم] فكان يخبر الرجل بما أكل قبل وبما

يأكل بعد ويخبر الصبيان وهو في المكتب بما يصنع أهلهم وبما يأكلون ويخبؤون لهم وكان الصبيّ ينطلق إلى أهله ويبكي عليهم حتّى يعطوه ما خبؤوا له ثمّ قالوا : لصبيانهم لاتلعبوا مع هذا الساحر ، وجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم ، فقالوا : ليسوا في هذا البيت ، فقال : فمن في هذا البيت ، قالوا : خنازير ، فقال عليه السلام : كذلك يكونون، فإذاهم خنازير .

[إنّ في ذلك] أي ماذكر من الخوارق [لآيةً] عظيمة [لكم] دالّة على صحّة نبوّتي [إن كنتم مؤمنين] انتفعتم بها .

[ومصدّقاً لما بين يديّ من التوراة] أي قدجئتكم بآية ومصدّقاً لما تقدّمني و موافقاً لمن كان قبلي [و] جئتكم [لاُحلّ لكم] و أرخص لكم[بعض الّذي حرّم عليكم] في شريعة موسى عليه السلام من قبيل لحوم السمك و لحوم الإبل والشحوم والشروب .

[وجئتكم بآية من ربّكم] بشاهد على صحّة رسالتي وإنّما أعاد قوله : «وقدجئتكم بآية من ربّكم » لأنّ إخراج الإنسان عن العادة المألوفة عسيرٌ فأعاد عليه السلام كلامه في ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعاً في القلوب ومؤثّراً في قلوبهم .

فإن قيل : إنّ بين كلامه « ومصدّقاً» وبين كلامه «ولاُحلّ لكم بعض الّذي» تناقضاً ؛ فالجواب أنّ التصديق في الاُصول والتغيير في بعض الفروع ، لكن قال وهب بن منبّه : إنّ عيسى كان على شريعة موسى وكان يقرّر البيت ويستقبل بيت المقدس وإنّ الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى فجاء عيسى فأبطلها وأعاد الأمر إلى ماكان ، أوأنّ الله كان قدحرّم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على ماصدر عنهم كما قال : «فبظلم من الّذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات اُحلّت لهم[1]» ثمّ بقي ذلك التحريم مستمرّاً على اليهود فجاء عيسى و رفع بأمر الله تلك الشدّة عنهم ، ولوكان رفع كثيراً من أحكام الفروع فرضاً مثل رفع السبت و وضع الأحد مقامه لا يكون ذلك قادحاً في كونه مصدّقاً فإنّ الناسخ والمنسوخ يقع في الأحكام والفروع دون الاُصول .

[فاتّقوا الله وأطيعون] فيما آمركم به وأنهاكم عنه فإنّه من أمر الله .

[إنّ الله ربّي و ربّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم] فلا تعصوه بالشرك و المخالفة

---

(١) النساء : ١٥٨ .

«هذا» أي الإيمان بالله وحده وملازمة التقوى «صراط» سويّ يؤدّي صاحبه إلى الجنّة وهو الحقّ الصريح الّذي أطبق عليه الرسل كافّة فقوله تعالى: «ربّي و ربّكم» إشارة إلى استكمال القوّة النظريّة في مقام المعرفة بالتوحيد وقوله: «فاعبدوه» إشارة إلى لزوم استكمال القوّة العمليّة فإنّه يلازم الطاعة الّتي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي فالعلم والعمل يوجبان الاستقامة.

وسئل بعض المحقّقين كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله والاستقامة؟ فقال: بتوبة تزيل الأعمال وخوف يرفع التسويف ورجاء يبعث على العمل وذكر الله تعالى على اختلاف الأوقات وإخافة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل، ولا يحصل هذه الأمور إلّا بقلب مفرد فيه توحيد مجرّد فإذا اجتهد ونحل و ذبل و استمرّ استقام كما قال سبحانه «إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا» [1] و الاستقامة لا يتحمّلها إلّا الأكابر لأنّها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات؛ قال رسول الله ﷺ: لاتكوننّ أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء ان لم يعط لم يعمل.

فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله و اشهد بأنا مسلمون (٥٢).

الفاء فصيحة تفصح عن تحقّق أمر عيسى من الولادة إلى بعثه و إرشاده إلى الخلق [أحسّ] وعلم من بني إسرائيل [الكفر] وأرادوا قتله وأنّهم لايزدادون على رؤية الآيات إلّا الإصرار على الجحود [قال] لمخلصي أصحابه مستنصراً على الكفّار: [من أنصاري إلى الله] أي من يعينني على إقامة الدين؟

[قال الحواريّون] جمع حواري أي صفوته وخاصّته وهم اثنا عشر رجلاً، و قيل: في وجه تسميتهم أقوالاً: أحدها لنقاء ثيابهم عن سعيد بن جبير. وقيل: كانوا قصّارين ينقّون الثياب بالاُجرة و يبيضونها في الغسل. وقيل: المعنى الأوّل الّذي فسّرنا بالصفوة وهو الأنسب [نحن أنصار الله] أي أنصار دينه ورسوله.

[آمنّا بالله] استيناف جار مجرى العلّة لماقبله فإنّ الإيمان بالله تعالى موجب لنصرة

---

(١) فصلت: ٣٠.

دينه و الذبّ عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه [واشهد بأنّنا مسلمون] منقادون لنصرتك ، طلبوا من عيسى الشهادة بذلك يوم القيامة يوم تشهد الرسل لأممهم .

[ربّنا آمنّا بما أنزلت] من الإنجيل على عيسى وهو كلام تضرّع إلى الله وعرض إيمانهم عليه تعالى بعد عرضه على الرسول [واتّبعنا الرسول] أي تابعنا عيسى رسولك في كلّ ما يأتي ويذر [فاكتبنا مع الشاهدين] الّذين يشهدون بوحدانيّتك أو المراد مع اُمّة محمّد ﷺ فإنّهم شهداء على الناس قاطبة كما قال : «جعلناكم اُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس [1]» .

[ومكروا] أي الّذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكّلوا عليه من يقتله غيلة [ومكر الله] بأن رفع عيسى وألقى شبهه على من قصد اغتيال عيسى حتّى قتل وصلب وهم يزعمون أنّهم صلبوا عيسى عليه السلام ورفع عيسى إلى السماء . وإضافة «المكر» إلى الله مع أنّه عدل و حقّ على مزاوجة الكلام مثل قوله : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم [2]» والثاني ليس باعتداء و إنّما هو جزاء و المجانسة أحد وجوه البلاغة كما أنّ المقابلة أحد وجوهها نحو قوله : « وجوهٌ يومئذ ناضرة * إلى ربّها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظنّ أن يفعل بها فاقرة [3]» .

قال ابن عبّاس : لمّا أراد كفّار بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام دخل بأمر الله بيتاً فيه روزنةٌ فرفعه جبرئيل من الكوّة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث : ادخل عليه فاقتله فدخل الرجل الخبيث الخوخة ليقتله فألقى الله عليه شبه عيسى فخرج الرجل إلى أصحابه يخبرهم أنّ عيسى ليس في البيت فأخذوه وصلبوه وظنّوا أنّه عيسى ، هذا قول ابن عبّاس .

وقال وهب بن منبّه : إنّهم أسروا عيسى عليه السلام و نصبوا له خشبة ليصلبوه فأظلمت الأرض وأرسل الله الملائكة فحالوا بينه وبينهم فأخذوا رجلاً يقال له « يهوذا » وهو الّذي دلّهم على المسيح وذلك أنّ عيسى عليه السلام جمع الحواريّين تلك الليلة و أوصاهم ثمّ قال : ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك فيبيعني بدراهم يسيرة ، فخرجوا وتفرّقوا ، وكانت

(١) البقرة : ١٤٣ .
(٢) البقرة : ١٩٤ .
(٣) القيامة ٢٢-٢٥ .

اليهود يطلبه فأتى أحد الحواريّين إليهم فقال : ما تجعلون لي فأدلّكم عليه ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلّهم عليه فألقى الله عليه شبه عيسى لمّا دخل البيت ورفع عيسى فأُخذ فقال : أنا الّذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا وصلبوه وهم يظنّون أنّه عيسى .

ولمّا صلبوا شبه عيسى قالوا : إنّ وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم مقالٌ عظيم . ولمّا صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله من الجنون بدعاء عيسى و جعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله عيسى فجاءهما وقال : على من تبكيان ؟ قالتا عليك فقال : إنّ الله رفعني وإنّ هذا شيء شبّه لهم .

فلمّا كان بعد سبعة أيّام أمر الله عيسى أن اهبط إلى الأرض على موضع في جبل مخصوص فإنّه لم يبك عليك أحدٌ بكاءه ولم يحزن أحدٌ حزنه ، و ذلك بعد أن ألبسه الله النور وقطع عنه لذّة المطعم والمشرب و كساه الله من ريش الجنّة وكان يطير مع الملائكة وكان إنسيّاً ملكيّاً أرضيّاً سماويّاً وأمره أن يستجمع الحواريّين ويبعثهم في الأرض دعاةً إلى دين الله وأهبطه الله إلى الجبل فاشتعل الجبل نوراً حين هبط عيسى عليه و جمعت له الحواريّون ووصّاهم وجعلهم متفرّقين في الأرض .

ثمّ رفعه الله إليه في تلك الليلة وكان هبوطه على الجبل في الليل وهي الليلة الّتي تدخن فيها النصارى فلمّا أصبح الحواريّون حدث كلّ واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم .

وكان الحواريّون قبل أن يصلب عيسى ملازمون في صحبه عيسى إذا جاعوا قالوا : ياروح الله جعنا فيضرب بيده عليه السلام إلى الأرض فيخرج لكلّ واحد رغيفان و إذا عطشوا قالوا : ياروح الله عطشنا فيضرب بيده إلى الأرض فيخرج الماء فيشربون فقالوا : من أفضل منّا إذا شئنا سقيتنا وقد آمنّا بربّنا فقال عيسى عليه السلام : أفضل منكم من يعمل بيده و يأكل من كسبه فبعد ذلك صاروا يغسلون الثياب بالكراء .

وقيل : إنّهم كانوا ملوكاً وتبعة الملوك ؛ وذلك أنّ واحداً من الملوك صنع طعاماً وجمع الناس عليه وكان عيسى من جملتهم على قصعة منها فكانت القصعة لاتنقص فذكروا هذه القصة

للملك،فقال : أتعرفونه؟قالوا : نعم،فذهبوا بعيسى إليه فقال له الملك : من أنت ؟ قال أنا عيسى ابن مريم ، قال الملك : فإنّي أترك ملكي وأتبعك فتبعه ذلك الملك مع أقاربه و خواصّه فأولئك هم الحواريّون .

وذكر محمد بن إسحاق : أنّ اليهود بعد أن صلبوا عيسى بزعمهم عذّبوا الحواريّين فشمتوهم و عذّبوهم ، و لقوا الجهد من اليهود فبلغ ذلك ملك الروم و كان ملك اليهود يومئذ من رعيّته فقيل له : إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يخبرهم أنّه رسول الله و أراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل ، فقال : لوعلمت لحلت بينه وبينهم ، ثمّ بعث إلى الحواريّين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن أمر عيسى فأخبروه فتابعهم على دينهم و أنزل المصلوب وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها ثمّ غزا بني إسرائيل و قتل منهم خلقاً كثيراً ، ومنه ظهر أصل النصرانيّة في الروم،وكان اسم هذا الملك طباريس،وهو صار نصرانيّاً إلّا أنّه ما أظهر ذلك ثمّ أنّه جاء بعده ملك آخر يقال له : ملطيس و غزا بيت المقدس بعد رفع عيسى بنحو من أربعين سنة فقتل و سبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة وبني النضير إلى الحجاز .

قوله تعالى : اذقال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الى و مطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيمة ثم الى مرجعكم بينكم فأحكم فيما كنتم فيه تختلفون (٥٥) .

أي اذكر وقت قول الله : [ياعيسى إنّي متوفّيك] أي متوفّي أجلك ، وعاصمك من أن يقتلك الكفّار ومؤخّرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لاقتلاً بأيديهم [ورافعك] الآن [إليّ] أي إلى محلّ كرامتي ومقرّ ملائكتي وهذا البيان للتعظيم و مثله قوله : « إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين[1] » وإنّما ذهب إبراهيم من العراق إلى الشام كما يقال : الحاجّ زوّار الله والمجاورون جيران الله ، و كلّ ذلك للتفخيم فإنّه يمتنع أن يكون تعالى في المكان .

[ومطهّرك] أي مبعدك [من الذين كفروا] من سوء جوارهم و دنس معاشرتهم و

(١) الصافات : ٩٩ .

مصاحبة أرجاسهم ، وقيل في معنى التوفّي في الآية : توفّي النوم ، ورافعك إليّ في النوم لا توفّي الموت عن الربيع قال : رفعه نائماً و يدلّ عليه قوله :«وهو الّذي يتوفّاكم بالليل (١) » أي ينيمكم و أنّ النوم أخو الموت فأطلق عليه . قال ابن عبّاس : أماته الله ثلاث ساعات وفات نوم . و أمّا النحويّون يقولون : هو على التقديم والتأخير أي إنّي رافعك ومتوفّيك ؛ قالوا : الواو لاتوجب الترتيب بدلالة قوله : «فكيف كان عذابي ونذر (٢) » والنذرقبل العذاب و كذلك «وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً (٣) » عن الضحّاك ، ويدلّ عليه ماروي عن النبيّ ﷺ قال : إنّ عيسى لم يمت وإنّه راجع إليكم قبل يوم القيامة . وقد صحّ عنه أنّه ﷺ قال : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم و إمامكم منكم ؟ رواه البخاريّ ومسلم في الصحيح ؛ فعلى هذا يكون معنى الآية : إنّي رافعك وقابضك بالموت بعد نزولك من السماء .

قال الحقّيّ في تفسيره : قيل ينزل عيسى من السماء على عهد الدجّال حكماً عدلاً يكسر الصليب ويقتل الخنازير ويضع الجزية فيقبض المال حتّى لا يقبله أحد ويهلك في زمانه الملل كلّها إلّا الإسلام ويقتل الدجّال ويتزوّج بعد قتله امرأة من العرب وتلد منه ، يموت هو بعد مايعيش أربعين سنة من نزوله فيصلّي عليه المسلمون لأنّه سأل ربّه أن يجعله من هذه الأمّة فاستجاب الله دعاءه ، انتهى كلام الحقّيّ .

أقول : إنّ ماقال الحقّيّ حقّ إلّا أنّه عليه السلام يفعل هذه الأمور و يصلّي بالمسلمين خلف المهديّ المنتظر عليه السلام ويكون من أنصار المهديّ و أنّ المهديّ ذلك اليوم هو القائم بالحقّ وعيسى عليه السلام من أتباعه .

[وجاعل الذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا] وهم المسلمون لأنّهم متّبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الّذين كذّبوا و كذبوا عليه من اليهود و النصارى والّذين مكروا في قتله ومن يسير بسيرتهم وذلك التفوّق بالحقيقة و الحجّة عندالله .

[ثمّ إليّ مرجعكم] أي رجوعكم بالبعث ، والضمير في «اتّبعوك» لعيسى [فأحكم

---

(١) الانعام : ٦٠ . (٢) القمر : ١٦ .
(٣) الاسراء : ١٥ .

بينكم] يوم رجوعكم وبعثكم [فيما كنتم فيه تختلفون] من أمر عيسى عليه السلام .

[فأمّا الّذين كفروا فأُعذّبهم عذاباً شديداً في الدنيا] بالسبي والسيف و أخذ الجزية والمصائب من العقوبات والمراد بهم اليهود ومن سلك مسلكهم كما وقع عليهم هذه الأُمور وأنّهم أذلّ الملل إلى يومنا بل إلى يوم القيامة ، والمراد من الّذين اتّبعوه النصارى الّذين آمنوا بعيسى عليه السلام حقيقةً بنبوّته وقبلوا دينه .

وقيل : المعنيّ به أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وإنّما سمّاهم تبعاً مع أنّ لهم شريعةً على حدة لأنّه وجد فيهم التبعيّة صورةً ومعنىً أمّا صورةً فإنّه يقال : فلانٌ يتبع إذاجاء بعده ، و أمّا معنىً فلأنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله كان مصدّقاً بعيسى وبكتابه وليس بين الأنبياء اختلاف في أبواب التوحيد أبداً ومن يعقب الأوّل ويصدّقه فهو تابعه فأُمّة محمّد صلى الله عليه وآله يكونون ظاهرين إلى يوم القيامة ومن دعا عيسى عليه السلام إلهاً لايكون تابعاً لعيسى عليه السلام أبداً .

[والآخرة وما لهم من ناصرين] يخلصونهم من عذاب الله ، وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أي ليس لواحد منهم ناصر واحد .

[وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات] كما هو عادة المؤمنين [فيوفّيهم أُجورهم] كاملاً [والله لايحبّ الظالمين] ولا يرضى عنهم [ذلك نتلوه عليك] إشارة إلى ما ذكر من أحوال عيسى نقرؤه عليك يامحمّد و أسند تلاوته إلى ذاته تعالى مع أنّ التالي هو الملك المأمور بها على طريق إسناد الفعل إلى السبب الآمر به و فيه تشريف عظيم للملك [من الآيات] أي من العلامات الدالّة على نبوّتك لأنّها أخبارٌ لايعلمها إلّا قارىء الكتاب أو من يوحى إليه وهي شواهد قدرتنا [والذكر الحكيم] أي القرآن المحكم الممنوع من تطرّق الخلل والعيب ، والمشتمل على الحكم وجميع الحكمة الذكر الحكيم .

ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون(٥٩) الحق من ربك فلا تكونن من الممترين(٦٠) فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (٦١) .

«المثل» ذكر أمر سائر يدلّ على أنّ سبيل الثاني سبيل الأوّل . نزلت الآيات في

وفد نجران : العاقب والسيّد وجماعة من النصارى معهما فلمّا وردوا إلى محضر رسول الله ﷺ قالوا له : هل رأيت ولداً من غير ذكر ؟ فنزلت الآية فقرأها عليهم .

إنّ شأنه البديع الغريب عليه السلام في سلك الأمثال في تقدير الله وحكمه كحالة عجيبة آدم عليه السلام [خلقه من تراب] تفسير للمثل أي خلق قالب آدم من تراب [ثمّ قال له كن] أي صر بشراً [فيكون] والمقتضي أن يقال : فكان ، إلّا أنّه عدل عن الماضي إلى المضارع حكايةً للحال بصورة المشاهد الّذي يقع الآن .

روي أنّ وفد نجران لمّا قدموا المدينة وهم أربعة عشر من أشراف النصارى منهم السيّد والعاقب والثالث أبو حارثة بن علقمة الأُسقف وكان أبو حارثة في شرف وخطر عظيم وهو الّذي بنى له ملك الروم الكنائس وكان السيّد اسمه أهيب ، ولمّا دخلوا على النبيّ ﷺ في المسجد بعد العصر عليهم ثياب حسان ولهم وجوه جسام فقاموا وصلّوا واستقبلوا قبلتهم تجاه المشرق فأراد أصحاب النبيّ ﷺ أن يمنعوهم فقال ﷺ : دعوهم .

ثمّ انتهى أبو حارثة هذا وآخر معه إلى النبيّ ﷺ فقال لهما ﷺ : أسلما ، فقالا : أسلمنا قبلك ، فقال ﷺ : كذبتما يمنعكما عن الإسلام ثلاث : عبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير وزعمكما أنّ لله ولداً ، قالوا : يا محمّد فلم تشتم صاحبنا عيسى ؟ قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول : إنّه عبد ، قال : أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً من غير أب وأُمّ ؟ فحيث سلّمت أنّ عيسى لا أب له من البشر وجب أن يكون هو ابن الله ، فقال ﷺ : إنّ آدم ما كان له أب ولا أُمّ ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله فكذا حال عيسى ، فالوجود من غير أب وأُمّ أخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبّه ﷺ الغريب بالأغرب ولشبهة الخصم أقطع .

[الحقّ] أي ما قصصنا عليك من نبأ عيسى ، هو الحقّ كائناً [من ربّك] لاقول النصارى أنّه ابن الله ، وقولهم : ولدت مريم إلهاً ، ونحو ذلك [فلا تكن من الممترين] أيّها السامع من الشاكّين ، او الخطاب للنبيّ على طريقة الإلهاب والتهييج والغرض زيادة التثبيت فيكون المعنى : دم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمينان . قال أبو منصور : العصمة لا ترفع النهي والخطاب .

[فمن حاجّك] من النصارى إذهم المتصدّون للمحاجّة [فيه] أي في شأن عيسى و أُمّه عليهما السلام [من بعدما جاءك من العلم] من الآيات وسمعوا ذلك منكم ولم يرعووا عمّاهم عليه من الغيّ [فقل] واقطع الكلام بالمباهلة وهي أن تدعوهم إلى الملاعنة وقل لهم :

[تعالوا] التعالي في الأصل التصاعد كأنّ الداعي في علوّ والمدعوّ في سفل ثمّ يستعمل لكلّ مدعوّ أين كان أي هلمّوا بالرأي والعزيمة لا بالأبدان لأنّهم حاضرون عنده بأجسادهم [ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم] أي ليدع كلّ منّا و منكم أولاده و نساءه و نفسه و أعزّة أهله إلى طلب البعد من الرحمة و نطلب العذاب للكاذب منهم و نحملهم على هذا الأمر من الله [فنجعل لعنة الله على الكاذبين] من الفريقين .

روي أنّهم لمّا دعوا إلى المباهلة طلبوا المهلة وقالوا : نستنظر إلى صبيحة غد فأنظرهم رسول الله صلى الله عليه وآله فلمّا رجعوا إلى منازلهم قال لهم الأسقفّ وهو عبد المسيح المكنّى أبوحارثة : إنّه لنبيٌّ مرسل وانظروا في غداة غد إن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته و لا تباهلوه و إن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه على غير شيء .

فأتوا رسول الله وقد خرج صلى الله عليه وآله محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن و فاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها وهو يقول : إذا دعوت أنا فأمّنوا فلمّا رأى أبوحارثة وهو أعلمهم بأُمور دينهم قال : يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو دعوا الله وشاؤوا أن يزيل الله جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوه و صالحوا الرجل وإن باهلتم تهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ إلى يوم القيامة .

فتقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وجثا على ركبتيه ، قال أبوحارثة لقومه : و الله جثا كما جثا الأنبياء ، فكعّ أبوحارثة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : ادن يا أباحارثة للمباهلة فقال أبو حارثة : يا أبا القاسم رأينا أن لانباهلك وأن نترك على دينك ونثبت على ديننا ، قال صلى الله عليه وآله : فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين ، فأبوا ، فقال : فإنّي أُحاربكم ، فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّنا عن ديننا على أن نؤدّي إليك كلّ عام ألفي حلّة : ألف في صفر وألف في رجب ، وثلاثين درعاً عادية

من حديد ، فصالحهم على ذلك و كتب لهم كتاباً بذلك وقال : والّذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلّى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتّى الطير على رؤوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلّهم حتّى هلكوا .

وقيل في المصالحة : وثلاثين فرساً وثلاثين رمحاً وقيمة كل حلّة أربعون درهماً .

ولمّا رجع وفد نجران لم يلبث السيّد والعاقب إلّا يسيراً حتّى رجعا إلى النبي ﷺ وأهدى العاقب له حلّة وعصاً وقدحاً ونعلين وأسلما .

وقال بعض المعتزلة : هذا يدلّ على أنّ الحسن والحسين كانا مكلّفين في تلك الحال لأنّ المباهلة لا يجوز إلّا مع البالغين . وقال أصحابنا : إنّ صغر السنّ عن حدّ بلوغ الحلم لا ينافي كمال العقل وإنّما جُعل بلوغ الحلم حدّاً لتعلّق الأحكام الشرعيّة و قد كان سنّهما في تلك الحال سنّاً لا يمتنع معها أن يكونا كاملي العقل ، على أنّ عندنا يجوز أن يخرق الله العادة للأئمّة ويخصّهم بأُمور لا يشركهم فيه غيرهم فلو صحّ أنّ كمال العقل غير معتاد في تلك السنّ لجاز ذلك فيهم إبانة لفضلهم عن ماسواهم ويؤيّده قول النبي ﷺ : إبناي هذان إمامان قاما أو قعدا .

واتّفقوا على أنّ المراد من «نساءنا» فاطمة لأنّه لم يحضر المباهلة غيرها من النساء ولم يقل أحد : إنّ غيرها من النساء حضرت ، وهذا يدلّ على تفضيل فاطمة على جميع النساء ؛ وقال النبيّ ﷺ : إنّ الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها . وقد صحّ عن حذيفة بن اليمان قال : سمعت رسول الله يقول : أتاني ملكٌ فبشّرني أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة ونساء اُمّتي . وعن الشعبيّ عن مسروق عن عايشة قالت : أسرّ النبيّ إلى فاطمة فضحكت فسألتها فقالت : قال لي : ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة و نساء المؤمنين ؛ فضحكت لذلك .

فتبيّن أنّ المراد من قوله : «ونساءنا» فاطمة «وأنفسنا» يعني عليّاً خاصّة ولا يجوز أن يكون المعنيّ به ﷺ لأنّه هو الداعي ولا يجوز أن يدعو الإنسان نفسه وإنّما يصحّ أن يدعو غيره وإذا كان قوله : «وأنفسنا» لابدّ أن يكون إشارة إلى غير الرسول ﷺ وجب أن يكون إشارة إلى عليّ لأنّه لا أحد يدّعي دخول غير عليّ وفاطمة وولديه في المباهلة وهذا

هو الأفضليّة على من عليها في المشرق والمغرب إذ جعله الله سبحانه نفس الرسول ﷺ.

وممّا يعضده من الروايات ماصحّ عن النبيّ ﷺ أنّه سئل عن بعض أصحابه فقال له قائل: فعليّ، فقال ﷺ: إنّما سألتني عن الناس ولم تسألني عن نفسي. وقوله ﷺ: لبريدة الأسلميّ: يا بريدة لا تبغض عليّاً فإنّه منّي وأنا منه إنّ الناس خلقوا من شجر شتّى وأنا وعليّ من شجرة واحدة. وكذلك قوله بأُحد ونكايته ﷺ في تلك الغزوة ووقاية عليّ بنفسه إيّاه حتّى قال جبرئيل: إنّ هذه لهي المواساة فقال النبيّ ﷺ: يا جبرئيل إنّه منّي وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما، انتهى.

ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله و ان الله لهو العزيز الحكيم(٦٢) فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين (٦٣).

أي إنّ ماقصّ من نبأ عيسى وأُمّه ﷺ [لهو القصص الحقّ] دون ما عداه من أكاذيب النصارى [وما من إله] ما إله [إلّا الله] صرّح في الكلام «بمن» الاستغراقيّة تأكيداً للردّ على النصارى في تثليثهم [وإنّ الله لهو العزيز] الغالب على جميع مقدوراته المحيط [الحكيم] بما يقتضي الصلاح لايشاركه أحد في الأُلوهيّة.

[فإن تولّوا] وأعرضوا عن قبول التوحيد والحقّ الّذي قصّ عليك [فإن الله عليم بالمفسدين] أي فاقطع كلامك عنهم فإنّ الله عليم بفساد المفسدين مطّلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة.

قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون(٦٤).

المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى. أمر الله سبحانه نبيّه بأن يعدل عن طريق المجادلة والاحتجاج إلى نهج الملاينة والانصاف وذلك بعد تتميم الحجّة فدعاهم إلى التوحيد وإلى الاقتداء بمن اتّفقوا على أنّه كان على الحقّ فقال:

[قل] لهم: هلمّوا إلى كلمة عادلة بيننا وبينكم لاميل لها إلى الاعوجاج وهي ترك العبادة لغير الله لأنّها لاتحقّ إلّا له [ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله] أي لايتّخذ

بعضنا عيسى عليه السلام رباً فإنه كان بعض الناس.

وقيل : معنى الآية : أن لا يتخذ الأحبار أرباباً بأن يطيعهم طاعة الأرباب كقوله : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله»[1].

وقد روي أيضاً لما نزلت هذه الآية قال عديّ بن حاتم : ما كنّا نعبدهم يا رسول الله فقال صلى الله عليه وآله : أما كان يحلّون لكم و يحرّمون فتأخذون بقولهم ؟ فقال عديّ : نعم ، فقال صلى الله عليه وآله : هو ذاك.

[فإن تولّوا] عمّا دعوتموهم إليه من التوحيد و ترك الإشراك [فقولوا] أي قل : لهم أنت والمؤمنون [اشهدوا بأنّا مسلمون] أي إن تولّوا وأعرضوا عن التوحيد فقولوا لهم أنت يا محمد و من معك من أهل الإيمان للمعرضين : اشهدوا أنتم أيّها الكفّار بأنّا مستسلمون لما دعانا الله من التوحيد . والسرّ في الإشهاد على الإسلام ليشهد الكفّار لهم يوم القيامة على الإسلام كما يشهد لهم المؤمنون بالكفر ؛ فيكون شهادة الكفّار للمسلمين يوم القيامة بالتوحيد حجّةً على أنفسهم .

يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم و ما انزلت التورىة والانجيل الامن بعده أفلاتعقلون(٦٥) .

تنازعت اليهود و النصارى في إبراهيم وزعم كلّ واحد منهما أنّه عليه السلام منهم و ترافعا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت الآية والمعنى : لمَ تدّعون أنّ إبراهيم كان منكم [وما أُنزلت التوراة] على موسى [و الإنجيل] على عيسى [إلّا من بعده] أي إلّا من بعد موت إبراهيم و أنتم سمّيتم باليهوديّة و النصرانيّة بعد نزول الكتاب [أفلا تعقلون] و تتفكّرون في بطلان جدلكم و بطلان كلامكم و مذهبكم ؛ لأنّ بين إبراهيم وموسى ألف سنة و بين موسى و عيسى ألفي سنة فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلّا بعد عهده بأزمنة متطاولة ؟

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم و أنتم لا تعلمون(٦٦) .

(١) التوبة : ٣٢ .

جملةٌ من مبتدء و خبر صدّرت بحرف التنبيه إشعاراً بكمال غفلتهم أي أنتم هؤلاء الحمقاء حيث [حاججتم فيما لكم به علم] من التوراة والإنجيل من نبوّة محمد [فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم] أي فيما ليس له ذكرٌ في كتابكم ولا علمٌ لكم به من دين إبراهيم إذ لا ذكر لدينه في إحدى الكتابين قطعاً [والله يعلم] دين إبراهيم وشأنه [وأنتم لا تعلمون] ذلك و ما تعرفون شريعته فلا تضيفوا إليه ما لا تعلمونه .

ماكان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين (٦٧) .

تصريح بما نطق به البرهان المذكور [ولكن كان حنيفاً] مائلاً عن العقائد الزائفة كلّها [مسلماً] منقاداً لله [وماكان من المشركين] تعريضٌ بأنّهم مشركون بقولهم . « عزير ابن الله » « والمسيح ابن الله» وردٌ لادّعاء المشركين أنّهم على ملّته .

ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه و هذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين(٦٨) .

أي إنّ أحقّ الناس بإدّعائه بأنّه على دين إبراهيم هم الّذين اتّبعوه في زمانه وما خالفوه [وهذا النبيّ] المصطفى ﷺ لأنّه اتّبعه في الحنيفيّة [والّذين آمنوا] بالله و بمحمّد ﷺ من هذه الأمّة لموافقتهم إيّاه في أصول الشرائع [والله وليّ المؤمنين] وناصرهم و يجازيهم الحسنى بإيمانهم .

ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم و ما يضلون الا انفسهم و ما يشعرون(٦٩) .

أي أحبّت أن يصرفوكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر و إنّما قال : [طائفة] لأنّ من أهل الكتاب أمّةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله [وما يضلّون إلّا أنفسهم] جملةٌ حاليّة تدلّ على ثبات المؤمنين على ماهم عليه من الدين القويم وحاصل الآية أنّ إضلال أهل الكتاب يعود وبـاله على الكافرين و يضاعف به عذابهم [وما يشعرون] بهذا الضرر .

يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون(٧٠) .

أي لمَ تجحدون بما نطقت به من التوراة و الإنجيل على نبوّة محمد صلى الله عليه وآله [وأنتم تشهدون] أنّها آيات الله و تعلمون نعته بالكتابين أو المراد المعجزات الّتي تشاهدون منه و كتابه و معجزاته تدلّ على نبوّته .

ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل و تكتمون الحق و انتم تعلمون (٧١) .

المراد بالحقّ في الآية كتاب الله الّذي أنزله على موسى و عيسى و بالباطل ماحرّفوه و كتبوه بأيديهم ، أي لمَ تخلطون أحدهما بالآخر و إبراز باطلهم في صورة الحقّ بأن يقولوا : الكلّ من عند الله [و تكتمون الحقّ] أي نبوّة محمد صلى الله عليه وآله و صفاته و علاماته المذكورة في كتابكم [وأنتم تعلمون] أنّه ثابتٌ وحقّ في كتابكم .

و قالت طائفة من اهل الكتاب وهم رؤساؤهم :

آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا أي أظهروا الإيمان بالقرآن الّذي اُنزل على المسلمين **وجه النهار واكفروا آخره** أي في أوّل النهار وأظهروا الكفر به آخر النهار مرائين لهم أنّكم آمنتم به ابتداءً من غير تأمّل ثمّ تأمّلتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأوّل و رجعتم **لعلهم** أي المؤمنين **يرجعون (٧٢)** عمّا هم عليه من الإيمان به كما رجعتم .

والمراد كعب بن الأشرف و مالك بن الصيف و نفرٌ من اليهود قالوا لأصحابهم لما حوّلت القبلة : آمنوا بما اُنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلّوا إليها أوّل النهار ثمّ صلّوا إلى بيت المقدس آخر النهار لعلّهم يقولون هم أعلم منّا و قد رجعوا فيرجعون .

قال الحسن و السدّي : تواطأ اثنا عشر رجلاً من أحبار يهود خيبر قرى عرينة وقال بعضهم لبعض : ادخلوا في دين محمد أوّل النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا به آخره و قولوا : إنّا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس ذلك الموعود به و ظهر لنا كذبه و بطلان دينه ؛ فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينه وقالوا : إنّهم أهل الكتاب و هم أعلم منّا و بهذه الجهة يرجعون عن دينهم إلى دينكم .

ولا تؤمنوا أي لاتصدّقوا **الا لمن تبع دينكم** اليهوديّة و قام بشرائعكم و كان يوصي بعضهم بعضاً بهذا الأمر ، فحاصل المعنى أنّ هذا الكلام من بقيّة طائفة اليهود أي

لاتصدّقوا إلّا نبيّاً يقرّر شرائع التوراة ؛ فيكون اللام صلة زائدة كقوله : « ردف لكم » و المعنى « ردفكم » .

و قيل : معنى الآية : إنّهم قالوا لتبعهم : إنّكم لاتؤتوا بذلك الإيمان المدلّس الملبس إلّا لبقاء دينكم ؛ فإنّ مقصودنا من هذا التدليس الّذي نؤمن أوّل النهار أن نحفظ دينكم .

فقال سبحانه : **قل ان الهدى هدى الله** قل يا محمّد جواباً ورداً على اليهود : إنّ الهدى هدى الله وقد جئتكم به فلن ينفعكم في دفعه هذا الكيد و الحيلة .

ثمّ قال تعالى :

ان يؤتى احد مثل ما اوتيتم به او يحاجوكم عند ربكم .

وقرىء «آن يؤتى» بالمدّ على الاستفهام مثل ابن كثير و الباقون بفتح الهمزة من غير مد ولا استفهام كقوله : «أن كان ذامال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين»(١) وعلى هذه القراءة فالكلام في معرض الاستفهام التوبيخيّ والمعنى : أمن أجل أن يؤتى أحدٌ شرائع مثل ما اُوتيتم من الشرائع ينكرون اتّباعه ثمّ حذف الجواب للاختصار و مثل هذا الحذف كثيرٌ مثل قول الرجل لصاحبه : أمن قلّة إحساني إليك أم من إهانتي إليك ؛ ثمّ ما يذكر الجواب و هو «فعلت ذلك» و هذا المعنى به قال مجاهد و عيسى بن عمرو ، أمّا قرأ بقصر الألف في «أن» فقد يمكن أيضاً حملها على معنى الاستفهام كما قرىء « سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم(٢) » بالمدّ والقصر قال امرؤالقيس : «تزوّج من الحيّ أم تبتكر» أراد أتزوّج من الحيّ ، فحذف ألف الاستفهام فيكون على هذا التقدير معنى الآية المعنى الأوّل .

قال الرازيّ في المفاتيح : واعلم أنّ هذه من المشكلات الصعبة ؛ أقول : و لعلّ منشأ الإشكال الاختلاف الواقع بأنّ قوله : «أن يؤتى أحدٌ مثل ما اُوتيتم » من جملة كلام الله بعد قوله : « قل إنّ هدى الله هو الهدى» أم بقيّة كلام اليهود ؟

وقوله : «قل إنّ الهدى هدى الله» جملة معترضة . قال الفيض في الصافي : إنّ الآية من

(١) القلم : ١٥-١٦ . (٢) البقرة ٥ .

المتشابهات التي لم‌تصل إلينا عن أهل‌البيت شيء وخلص نفسه ، قال‌الطبرسي : والمفسرون ذكروا وجوهاً :

منها أنه قل يا محمد : «إن الهدى هدى‌الله» وقل : «إن الفضل بيدالله » فلا ينبغي لهم أن ينكروا أن يؤتى أحد مثل ما اُوتوا من النبوة والتوراة وهذا معنى قول الحسن وأبي علي الفارسي .

وثاني الأقوال : أن يكون قوله : «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» كلام اليهود وما بعده من كلام الله ويكون المعنى : قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما اُوتيتم أيها المسلمون ، و«لا» مقدر مثل قوله : «يبين الله لكم أن تضلوا[1]» أي أن لا تضلوا فيكون المعنى : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم و أن لا يؤتى أحد مثل ما اُوتيتم ، فيكون من كلام الطائفة . و قال المبرد : إن «لا» ليست مما يحذف في هذا المقام والمعنى : قل إن الهدى هدى الله كراهة أن يؤتى أحد مثل ما اُوتيتم أي ممن خالف دين الله الإسلام ؛ لأنه تعالى خص المؤمنين الهداية ولا يهدي من هو كاذب كفار فهدى الله بعيد من غير المؤمنين . نعم إنه تعالى هداه ابتداء فطرة الإسلام « فهديناه النجدين» فبعد قبوله الكفر غير لائق بالهداية .

وقيل : معنى الآية : إن الهدى هدى‌الله و الحق ما أمرالله به ثم فسر الهدى فقال : «أن يؤتى أحد مثل ما اُوتيتم أو يحاجوكم » فيكون حاصل المعنى أن المؤتى ما شرع لكم . وقيل : «أن» في الآية نافية فيكون على هذا التقدير من كلام الطائفة فقالوا : لا تؤمنوا أيها اليهود إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم : إنه ما يؤتى أحد مثل ما اُوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم ، والواو في «يحاجوكم» راجع إلى «أحد» وهو في معنى الجمع إذا المراد غير أتباعهم .

وقيل : الآية من أولها إلى آخرها كلها خطاب من الله و تقديره : ولا تؤمنوا أيها المؤمنون إلا لمن تبع دينكم وهو دين الإسلام ولا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل اُوتيتم من الدين المستقيم فلا نبي بعد نبيكم ولا شريعة بعد شريعتكم إلى يوم القيامه ولا تصدقوا حجة لأن دينكم خير الأديان وأن الهدى هدى‌الله . بأن تكون لأحد عليكم عند ربكم . [وإن الفضل بيدالله] ويستفهم هذه المعاني من سوق الكلام و يدل عليه ما قاله الضحاك :

(١) النساء : ١٧٥ .

إنّ اليهود قالوا : إنّا نحاجّ عند ربّنا من خالفنا في ديننا ، فبيّن الله أنّهم المغلوبون المدحضون وأنّ المؤمنين هم الغالبون والمراد من «الفضل» في الآية النبوّة ، وقيل : نعم الدنيا والآخرة .

[يؤتيه من يشاء والله واسع عليم] علّقه بالمشيّة بسبب سعة علمه بمصالح الأُمور وهو تعالى واسع المقدور .

يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٧٤) يجعل رحمته لمن يشاء ويكون محلاً وقابلاً للرحمة وهذا كقوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته [١]» وفي مضمون الآية إشارة إلى الاحتراز من الحسد فإنّ الحسد حمل أحبار اليهود على مثل هذا الإنكار من تصديق نعوت النبيّ ﷺ ولأنّ تصديقهم إيّاه ﷺ كان مانعاً لهم من جمع المال وحصول الجاه والقبول عند أرباب الدنيا .

قال النبيّ ﷺ : ثلاث هنّ أصل خطيئة فاتّقوهنّ : إيّاكم و الكبر فإنّ إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم ، وإيّاكم و الحرص فإنّ الحرص يحمل الإنسان على الانهماك في الدنيا ، وإيّاكم والحسد فإنّ ابني آدم قتل أحدهما صاحبه حسداً ، و بئست الخصلة الحسد .

قال أمير المؤمنين : قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بالحاسد قبل المحسود . قال الأصمعيّ رأيت أعرابيّاً أتى عليه مائة وعشرون سنة فقلت : ما طوّل عمرك ؟ فقال : تركت الحسد فبقيت . ومن علامات الحاسد أن يتملّق إذا شهد ويغتاب إذا غاب ويشمت بالمصيبة إذا نزلت قال الشاعر :

و إذا أراد الله نشر فضيلة ❊ طويت ، أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاوزت ❊ ماكان يعرف طيب عرف العود

وعلاج إزالته عن النفس بكثرة الأذكار و الانقطاع إلى الله وإنّ تباين مقامات أفراد الإنسان في الصفات الفاضلة رحمةٌ لهم ولم يكن ذلك إلّا بتقدير العزيز العليم فالحاسد على الحقيقة يعارض الحقّ ومعنى حسده أنّه تعالى أنعم على من لا يستحقّ تعالى عن ذلك

---

(١) الانعام : ١٢٤ .

وقد ذمّ الله الحاسدين في كتابه في قوله تعالى : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله [١]» لكن الغبطة على طاعة الله محمودة .

قوله تعالى : ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٥) .

«القنطار» وقد ذكر الخلاف في مقداره قبل هذا وعلى الجملة فالمراد المال الكثير قال ابن عبّاس : يعني بقوله : [من إن تأمنه] عبدالله بن سلام أودعه رجلٌ ألفاً و مأتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه فمدحه الله سبحانه .

[ومنهم من إن تأمنه بدينار] والمراد «بالدينار» مثقالٌ من الذهب أو العدد القليل [لا يؤدّه إليك] وهو كعب بن الأشرف أو فنحاص بن عازورا استودعه رجلٌ من قريش ديناراً فلم يؤدّه وجحده فذمّه الله والمعنى أنّ فيهم من هو في غاية الأمانة ومن هو في غاية الخيانة [إلّا مادمت عليه قائماً] أي في حال من الأحوال إلّا في حال دوام قيامك عليه على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي وإقامة البيّنة .

[ذلك] أي تركهم أداء الحقوق [بأنّهم] بسبب أنّهم [قالوا ليس علينا في الأُميّين سبيل] بيان لنفي السبيل عليهم من غير أهل دينهم بادّعائهم أنّ هذا الحكم في التوراة ولهذا السبب يميلون إلى الخيانة و كانوا يقولون : إنّه ليس علينا في أموال العرب الّتي أصبناها بأس لأنّهم مشركون وادّعوا أنّ ذلك في كتبهم .

فأكذبهم الله في ذلك بقوله : [ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون] أنّهم يكذبون لأنّ الله أمرهم بخلاف ماقالوا ، وإنّما سمّوهم «أُمّيّين» لأنّهم ماكانوا يكتبون و ذلك لأنّ الأمّ أصل الشيء فمن لا يكتب فقد بقي على أصل حاله في أن لا يكتب أو لأنّهم منسوبون إلى مكّة وهي أُمّ القرى فلهذا السبب استحلّوا ظلم من خالفهم في اليهوديّة و قالوا : لم يجعل الله في التوراة لمالهم حرمة وقد كذبوا في ذلك على الله فإنّ أداء الأمانة واجب في الأديان كلّها وحبس مال الغير والإضرار به والخيانة إليه حرام

(١) النساء : ٥٣ .

[بلى] إثبات لما نفوه أي بلى عليهم سبيل و ما أمرالله بذلك و لا أحبّه ولا أراده بل أوجب والوفاء بالعهد وأداء الأمانة [من أوفى بعهده] الهاء في «بعهده» عائدة إلى الله في قوله : «ويقولون على الله الكذب» فيكون معناه «بعهدالله» والمراد من عهدالله أمره و نهيه ويحتمل أن يكون عائدة إلى «من» ومعناه : من أوفى بعهد نفسه ؛ لأنّ العهد يضاف تارة إلى العاهد وتارة إلى المعهود له .

[فإنّ الله يحبّ المتّقين] أي إنّ الله يحبّه ، وعدل إلى ذكر المتّقين لبيان الصفة الّتي يجب لها محبّة الله وروي عن النبي ﷺ لمّا قرأ هذه الآية قال : كذب أعداءالله مامن شيء كان في الجاهليّة إلّاوهو تحت قدمي إلّا الأمانة فإنّها مؤدّاة إلى البرّ والفاجر .

وعنه ﷺ قال : ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنّه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذ وعد أخلف وإذا ائتمن خان ، وعنه ﷺ من ائتمن على الأمانة فأدّاها ولوشاء لم يؤدّها زوّجه الله من الحور العين ماشاء .

ان الذين يشترون بعهدالله و ايمانهم ثمنا قليلا اولئك لاخلاق لهم فى الاخرة ولايكلمهم الله ولاينظر اليهم يوم القيمة ولايزكيهم ولهم عذاب اليم(٧٦).

نزلت في جماعة من أحبار اليهود : أبي رافع و كنانة بن أبي الحقيق وحيّ بن الأخطب و كعب بن الأشرف كتموا مافي التوراة من أمر محمد ﷺ و كتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنّه من عندالله لئلّا تفوتهم الرياسة وماكان لهم على أتباعهم ، عن عكرمة .

وقيل : نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له في أرض قام ليحلف عند رسول الله ﷺ فلمّا نزلت الآية نكل الأشعث واعترف بالحقّ وردّ الأرض ، عن ابن جريح . وقيل : نزلت في رجل حلف يميناً فاخبره في تنفيق سلعته ، عن مجاهد والشعبيّ .

ذكر الله سبحانه الوعيد لهم على أفعالهم الخبيثة فقال : [إنّ الّذين يشترون] أي يستبدلون [بعهدالله] أي بما يلزمهم الوفاء به [وأيمانهم] وبدّلوا ماعاهدوا عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات وبما حلفوا عليه من كتمان نعوته وخياناتهم بالأمانات في مقابلة ثمن بخس قليل وهو حطام الدنيا .

[أُولئك] الموصوفون [لاخلاق] ولا نصيب [لهم في الآخرة] ولافي نعيمها [ولا

يكلّمهم الله ولاينظر إليهم يوم القيامة] وهو مجاز من شدّة غضبه وسخطه عليهم وإيقاعه بهم [ولايزكّيهم] أي لايثني عليهم كمايثني على أوليائه والتزكية من الله تكون على ألسنة الملائكة كقوله : « والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم [1] » ، ومثل قوله : « سلام قولاً من ربّ رحيم [2] » [ولهم عذاب أليم] على مافعلوه من المعاصي .

وفي تفسير الكلبي عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أخيه المسلم لقي الله وهو غضبان وتلا هذه الآية .

و روى مسلم الحجّاج في الصحيح بإسناده من عدّة طرق عن أبي ذرّ الغفاريّ عن النبيّ ﷺ قال : ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم ولايزكّيهم ولهم عذاب أليم : المنّان الّذي لايعطي شيئاً إلّا منّةً والمنفق سلعته باليمين الفاجرة والمسبل إزاره .

قوله تعالى : وان منهم لفريقاً يلون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عندالله وماهو من عندالله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٨) .

أي من اليهود المحرّفين [لفريقاً] ونصب «فريقاً» بأنّه اسم «إنّ» واللام للتأكيد وهم جماعة من أحبار اليهود كتبوا ما ليس في التوراة من صفات النبيّ وغيرها وأضافوه إلى التوراة . وقيل : نزلت الآية في اليهود والنصارى حرّفوا التوراة والإنجيل ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وألحقوا به ماليس فيه واستعمل تحريف الكتاب عن الجهة ليّاً باللسان والمراد تفسيره وتحريفه بخلاف الحقّ [لتحسبوه من الكتاب] أي لتظنّوه أيّها المسلمون من كتاب الله [وماهو من الكتاب] أي من جملته والحال أنّه ليس منه في نفس الأمر وفي اعتقادهم أيضاً .

[ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون] أنّهم كاذبون ومفترون على الله وبالجملة لمّا حرّفوا في التوراة وبدّلوا صفة رسول الله ﷺ أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالتوراة الّتي عندهم .

قوله تعالى : ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون (٧٩) .

(١) الرعد : ٢٦ .　(٢) يس : ٥٨ .

في الآية بيان لمفتريات الأحبار على الأنبياء حيث قالوا : إنّ عيسى عليه السلام أمرنا أن نتّخذه ربّاً حاشاه عليه السلام وجاء رجلٌ من المسلمين فقال : يارسول الله نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض أفلا نسجدك ؟ فقال صلى الله عليه وآله : معاذالله أن تعبد غيرالله ونأمر بعبادة غيرالله أي ماصحّ وما استقام لأحد سواء كان بشراً أولا و إنّما قيل : « بشراً » إشعاراً بعلّة الحكم فإنّ البشريّة منافيةٌ لهذا الإسناد الّذي أسنده الكفرة من النصارى وهو إسناد الربوبيّة إليه .

وحاصل معنى الآية أنّه ليس لبشر بعد أن آتاه الله وأعطاه [الكتاب] الناطق بالحقّ مثل التوراة والإنجيل والقرآن [والحكم] أي الفهم والعلم [والنبوّة] فالكتاب السماويّ والوحي ينزل أوّلاً ثمّ يحصل في عقل النبيّ وإدراكه فهم ذلك الكتاب وأسراره ثمّ بعد الحصول يبلّغ النبيّ ذلك المفهوم إلى الخلق وهو المراد بالنبوّة .

[ثمّ يقول] ذلك البشر بعد هذه التشريفات [للناس كونوا عباداً لي من دون الله] وليس لأحد حقٌّ في هذا القول . قال الأصمّ : معنى الآية أنّه لايتمكّن النبيّ بعد تحقّق نبوّته أن يقول : «للناس كونوا عباداً لي » فمعنى الآية مثل قوله « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لقطعنا منه الوتين[1] » .

[ولكن] يقول لهم [كونوا ربّانيّين] الربّانيّ منسوب إلى الربّ بزيادة الألف والنون كاللحيانيّ إذا وصف بطول اللحية ففيه الدلالة على الكمال في هذه الصفة وإذا نسب إلى اللحية من غير قصد المبالغة يقال : لحويّ ؛ فالربّانيّ هو الكامل في العلم والعلم الشديد التمسّك بطاعة الله كما يقال رجل إلهيّ ، إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته .

[بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون] أي كونوا ربّانيّين في علمكم ودراستكم وعلّموا الناس ، وعلم الكتاب ودرسه يقتضي كونه ربّانيّاً وتعلّم الناس طريق الهداية فعلم الكتاب سبب لنهي الناس عن عبوديّة غير الله فكيف يتصوّر أن يقول للخلق اعبدوني ؟ فهذا الّذي يدّعونه النصارى غير واقع وكذبٌ .

ولايأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً ايأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون (٨٠) .

عطف على قوله : « ماكان لبشر » أوعلى « ثمّ يقول » وصورة الكلام « ماكان لبشر »

(١) الحاقة : ٤٨ .

يكون موصوفاً بصفة النبوّة يأمر الناس بعبادة نفسه ولا يكون له أن يأمر الناس أن يتّخذوا الملائكة والنبيّين آلهة [أيأمركم بالكفر بعد] كونكم مخلصين بالتوحيد فإنّه لو أمركم بذلك لكفر ونزع منه النبوّة ومن آتاه الله الكتاب و الحكم والنبوّة يمنعه ذلك من ادّعاء الألوهيّة .

وقيل : الضمير في «يأمركم» راجعٌ إلى الله . وقيل : إلى محمّد وقيل : إلى عيسى . ومنشأ الاختلاف قراءة رفع الراء في « يأمركم » ونصبها لأنّ من قرأ بالنصب عطفه على « أن يؤتيه الله » ، وتكون « لا » مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله : « ما كان لبشر » وقراءة الرفع على الاستيناف وتضمّن معنى الحاليّة بتقدير المبتدء أي وهؤلاء يأمركم هكذا انتهى .

قوله تعالى : واذ اخذالله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءاقررتم واخذتم على ذلكم اصرى قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانامعكم من الشاهدين(٨١) .

قرأ حمزة بكسر اللام في «لما» والباقون بفتحها وقرأ نافع « آتيناكم» على الجمع و الباقون على التوحيد ، وقراءة الكسرة قال حمزة : إنّه يتعلّق « بالأخذ» كأنّ المعنى أخذ ميثاقهم لهذا ويكون « ما » موصولة المعنى ، الميثاق مصدر يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول فيحتمل أن يكون الميثاق من النبيّين ويحتمل أن يكون أخذه للنبيّين .

قال المفسّرون : إنّ الله أخذ الميثاق من النبيّين أن يصدّق بعضهم بعضاً وأخذ العهد على كلّ نبيّ أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وأن ينصره إن أدركه وإن لم يدركه أن يأمر قومه بالايمان به إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى عليه السلام أن يؤمن بعيسى عليه السلام ومن عيسى عليه السلام أن يؤمن بمحمّد صلى الله عليه وآله وإذا كان حكم الأنبياء كان الأمم بذلك أولى .

أي اُذكر يا محمّد وقت أخذ الله ميثاق الأنبياء وأُممهم [لما آتيتكم] «واللام » موطّئة لأنّ أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف و « ما» مبتدأ موصولة و « آتيتكم » صلتها والعائد محذوف تقديره : للّذي آتيتكموه [لتؤمننّ به ولتنصرنّه] جواب قسم مقدّر والقسم المقدّر وجوابه خبر للمبتدء، أي والله لتصدّقنّه برسالته وتنصرنّه على أعدائه وهذا إذا كانت «ما»

في الآية موصولة ، و اللام لام ابتداء و هي المتلقيّة لما اُجري مجرى القسم من قوله : « وإذأخذ الله ميثاق النبيّين » وموضع « ما » حينئذ رفع بالابتداء كما ذكرنا قبيل هذا و الخبر « لتؤمننّ » وإذا جعلت « ما » للشرط كانت « ما » في موضع نصب « بآتيتكم » وتقديره : أيّ شيء آتيتكم ومهما آتيتكم من كتاب لتؤمننّ به ؛ فالشرط هو إيتاؤه إيّاهم الكتاب والحكمة و مجيء الرسول والجزاء القسم والمقسم عليه وهو قوله : « لتؤمننّ به » كقوله : لئن أشركت ليحبطنّ عملك (١) .

فيكون على هذا معنى الآية إنّ الله قال لهم : مهما اُوتيكم كتاباً و حكمةً ثم يجيئكم به رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به و لتنصرنّه ؛ فأقرّوا بذلك و أعطوا مواثيقهم وهو المرويّ عن عليّ وابن عبّاس وقتادة والسدّيّ والجبّائيّ وأبو مسلم وهذا كلّه على قراءة الفتح في اللام في « لما آتيتكم » وعلى قراءة كسر اللام فالمعنى :ميثاقهم لأجل ما اوتوه من الكتاب والحكمة لأنّهم الفواضل وخيار الناس . وقرأ سعيد بن جبير « لمّا » مشدّدةً .

قال بعض المفسّرين ذكر « النبيّين » على سبيل المنابة ثمّ قال مخاطباً بقوله : « لما آتيتكم » في الآية إضمار ؛ فقالوا تقديره : وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لتبلّغنّ الناس ما آتيتكم ،وحذف لدلالة الكلام . وهذا بابٌ واسعٌ في القرآن وأراحوا أنفسهم التكلّفات في الآية ؛ فإنّ لام القسم إنّما يقع على الفعل فلمّا دلت هذه اللام على هذا الفعل لاجرم حذفه اختصاراً .

قال سعيدبن المسيّب : وهذه الآية من مشكلات آيات القرآن . قال الطبرسيّ : وقد غاص النحويّون في وجوه إعرابها وشقّوا الشعر في تدقيقها .

[قال] أي قال الله بعد ما أخذ الميثاق : [ءأقررتم] أي بالإيمان والنصر له .

قوله تعالى : [وأخذتم على ذلكم إصري] أي قبلتم على ذلكم الميثاق عقدي الّذي عقدته عليكم ؛ والإصر الثقل الّذي يلحق الإنسان والمراد هنا العهد .

[قالوا أقررنا] أي قال الأنبياء و اُممهم أقررنا بما أمرتنا به [قال] الله : [فاشهدوا]

---

(١) الزمر : ٦٥ .

أيّها الملائكة أو الأنبياء أو الأمم بإقرار بعضكم على بعض [وأنا معكم من الشاهدين] أي وأنا أيضاً شاهد على إقراركم ذلك، والمقصود التحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض .

فمن تولى أي أعرض **بعد ذلك** العهد **فاولئك هم الفاسقون (٨٢)** الخارجون المتمرّدون عن الإيمان والطاعة وروي عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال : لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة أما والله لو كان موسى بن عمران عليه السلام حيّاً لما وسعه إلّا اتّباعي .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّ الله ما بعث آدم و من بعده من الأنبياء إلّا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد صلى الله عليه وآله وهو حيّ ليؤمننّ به . وقال أبومسلم : إنّ الّذين أخذ الله الميثاق منهم ، يجب عليهم الإيمان بمحمّد عند مبعثه و كلّ الأنبياء يكونون عند مبعث محمد في زمرة الأموات ؛ فلمّا كان الّذين اُخذ الميثاق عليهم يجب عليهم الإيمان بمحمّد عند مبعثه ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد علمنا أنّ الّذين اُخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيّين بل هم اُممهم ، و كثيراً ورد في القرآن لفظ النبيّ والمراد اُمّته .

وممّا يؤكّد هذا أنّه تعالى حكم على الّذين اُخذ عليهم الميثاق أنّهم لو تولّوا لكانوا فاسقين و هذا الوصف لا يليق بالأنبياء وإنّما يليق بالاُمم . وأجاب بعض المفسّرين أنّه لمَ لا يجوز أن يكون المراد أنّ الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم هذا الأمر وهو الإيمان بمحمّد صلى الله عليه وآله ونظيره قوله : «لئن أشركت ليحبطنّ عملك[١]» وقد علم الله أنّه صلى الله عليه وآله لا يشرك قطّ لكن خرج هذا الكلام على سبيل الفرض كما قال : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين[٢] » .

فلو قيل : إنّ هذا الخطاب في قوله : « لما آتيتكم من كتاب » إن كان المراد الأنبياء فجميع الأنبياء ما اُوتوا الكتاب وإنّما اُوتي بعضهم وإن كان الخطاب مع الاُمم فالإشكال أظهر .

والجواب أنّ الأنبياء كانوا محكومين و مهتدين بالكتاب المنزل ولو أنّه لم ينزل على بعضهم ، ووصف الكلّ بالإتيان و بوصف أشرف أنواعهم وهم الّذين اُوتوا الكتاب . والمراد

(١) الزمر : ٦٥ . (٢) الحاقة : ٤٤ .

من «الكتاب» هو المنزل المقروء ، والمراد من «الحكمة» هو الوحي الوارد بالتكاليف المفصّلة التي لم يشتمل ظاهر الكتاب عليها .

افغير دين الله يبغون وله اسلم من في السموات والارض طوعاً و كرها واليه يرجعون (٨٣) .

ولمّا بيّن سبحانه في الآية الأولى أنّ الإيمان بمحمّد شرع شرّعه الله وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء لزم أنّ كلّ من كره ذلك فإنّه يكون طالباً ديناً غير دين الله فلهذا عبّر بهذه الآية [أفغير دين الله يبغون] وقرىء « تبغون » بالخطاب والخطاب لليهود ، فالميثاق لمّا كان مذكوراً في كتبهم على لسان رسلهم فقد كانوا عالمين وعارفين بصدق الرسول الأمّي فلم يبق لجحودهم نبوّته ﷺ سوى العناد .

فقال سبحانه : أيتولّون غير دين الله ويطلبونه [وله أسلم] أي لله أخلص وانقاد [من في السماوات والأرض] أي أهلهما . فإن قيل : إنّ الكافر ما أسلم له ؛ فالجواب : أنّ المسلمين أسلموا له طوعاً والكافر أسلم له كرهاً عند موته ضرورةً كما قال سبحانه « فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا [١] » .

وقيل : المراد من قوله : « أسلم » أي خضع وانقاد كما فسّرنا فخضوع كلّ من في السماوات والأرض لله بيانه : أنّ كلّ ما سوى الله منقادٌ خاضعٌ لله في طرفي وجوده وعدمه وهذا هو نهاية الانقياد ؛ فكلّ ما سواه لا يوجد إلّا بتكوينه و لا يفنى إلّا بإفنائه سواءٌ كان عقلاً أو نفساً أو روحاً أو جسماً أو جوهراً أو عرضاً أو فعلاً أو فاعلاً .

ونظيره في الدلالة على هذا المعنى : «ولله يسجد من في السماوات والأرض [٢] » و كذلك «وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده [٣] » وليس لأحد الامتناع عليه سبحانه في مراده فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلّق بالدين وينقادون له كرهاً فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك والكافرون عند موتهم ضرورةً .

وقال الحسن : الطوع لأهل السماوات خاصّةً وأمّا أهل الأرض فبعضهم بالطوع وبعضهم بالكره .

(١) غافر : ٨٥ . (٢) الرعد : ١٥ . (٣) الاسراء : ٤٤ .

وقيل : في الآية قول آخر وهو أنّ المراد أنّ انقياد الكلّ إنّما حصلت وقت أخذ الميثاق وهو قوله : « وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى[1] ».

[وإليه ترجعون] أي إلى جزائه مصيركم فبادروا إلى قبول دينه ولا تخالفوا الإسلام «وطوعاً وكرهاً» منصوبان على الحال مصدران تقديره : طائعاً وكارهاً .

قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم و اسمعيل و اسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون (٨٤) .

خاطبه سبحانه أوّلاً بخطاب الواحد ليدلّ على أنّه لامبلّغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلّا هو وهو المعين للتبليغ ثمّ قال : [آمنّا] بلفظ الجمع حتّى يوافقونه أصحابه عليه وتنبيهاً على أنّ هذا التكليف ليس من خواصّه بل هو واجب لكلّ المؤمنين ، أو النون نون العظمة ، أمره سبحانه بأن يتكلّم عن نفسه على ديدن الملوك إظهاراً منه تعالى لإبانة جلالة قدره ﷺ ورفعة محلّه .

[وما اُنزل علينا] وهو القرآن ، والنزول كما يعدّى بإلى لانتهائه إلى الرسل يعدّى بعلى لأنّه من فوق [وما اُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط] من الصحف والمراد من « الأسباط » حفدة يعقوب وأبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فإنّهم حفدة إبراهيم .

[وما اُوتي موسى وعيسى] من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة على أيديهم وتخصيصهما بالذكر لما أنّ الكلام مع اليهود والنصارى [والنبيّون] أي وما اُوتي النبيّون من المذكورين وغيرهم [من ربّهم] من الصحف والمعجزات .

[لانفرّق بين أحد منهم] كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحّة كلّ منهم وبحقّيّة ما اُنزل إليهم في زمانهم . واختلف في أنّ النبيّ الّذي نسخ شرعه بنبيّ بعده فهل يكون نبوّته باقية أم لا ؛ فمن قائل إنّ نبوّته أيضاً منسوخة .

---

(١) الاعراف : ١٧٢ .

ومن قائل إنّ نسخ الشريعة لايقتضي نسخ النبوّة [ونحن له مسلمون] أي منقادون و مخلصون له تعالى أنفسنا ولا نجعل له شريكاً في الربوبيّة .

و من يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه و هو فى الاخرة من الخاسرين (٨٥) .

ومن يطلب غير التوحيد [ديناً] يدين به كدأب المشركين صريحاً والمدّعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين [فلن يقبل منه] ذلك أبداً بل يردّ [وهو في الآخرة من الخاسرين] بحرمان الثواب وحصول العقاب والتحسّر الدائم .

كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات و الله لايهدى القوم الظالمين (٨٦) .

[كيف] أصله الاستفهام والمراد به هنا الإنكار أي لايهديهم الله إلى الحقّ [قوماً كفروا بعد إيمانهم] والآية تدلّ على أنّ الدين والإسلام والإيمان واحدٌ . قيل : هم عشرة رهط ارتدّوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكّة ، والمراد أنّه كيف يوفّقهم الله لاكتساب الاهتداء ؟ وإنّما يوفّق سبحانه على كسب الاهتداء ويقدرهم عليه إذا كانوا متواضعين للحقّ راغبين فيه لامعرضين عنه ولامعاندين له . وقد جرت سنّة الله في دار التكليف على أنّ كلّ فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإنّ الله لايمنعه عقيب قصد العبد .

[وشهدوا أنّ الرسول حقّ] أي صادقٌ فيما يقول [وجاءهم البيّنات] والشواهد من القرآن والمعجزات أي بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا حقيقة الأمر . وهودليلٌ على أنّ الإقرار باللسان فقط خارجٌ عن حقيقة الإيمان ضرورة أنّ المعطوف مغايرٌ للمعطوف عليه .

[والله لايهدي القوم الظالمين] الّذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان ، وهذا حال من دام على الكفر والثابت عليه وأمّا إذا رجعوا و تحرّوا إصابة الحقّ فحينئذ يهديهم الله ويجعل الاهتداء فيهم ولايمنعهم ثواب الفيض الأقدس .

اولئك الموصوفون **جزاؤهم ان عليهم لعنة الله** وهو إبعاده عن الجنّة وإنزال العذاب **و الملائكة** أي ولعنهم **والناس اجمعين (٨٧) خالدين فيها لايخفف عنهم**

العذاب ولاهم ينظرون(٨٨) أي إنّهم مخلّدون في اللعنة وثابتون في البعد عن الرحمة ولا يزال يوم القيامة يلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار من غير تخفيف لهم من العذاب في النار ، ولا يؤخّر العذاب من وقت إلى وقت عنهم ؛ فإنّ العذاب الملحق بالكفّار دائمٌ غير منقطع .

الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم(٨٩) .

قيل : نزلت في رجل من الأنصار يقال له : الحارث بن سويد بن الصامت ، وكان قتل المحذر بن زياد البكري غدراً وهرب إلى مكّة وارتدّ عن الإسلام ثمّ ندم فأرسل رسولاً إلى قومه أن يسألوا رسول الله هل لي من توبة ؟ فسألوا ، فنزلت الآيات إلى قوله : «إلّا الّذين تابوا» فحملها إليه رجل من قومه فقال : إنّي أعلم أنّك لصدوق ورسول الله أصدق منك وأنّ الله أصدق الثلاثة ، فرجع إلى المدينة وتاب وحسن إسلامه ، عن مجاهد والسدّي وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام .

وقيل : نزلت الآيات في أهل الكتاب الّذين كانوا يؤمنون بالنبيّ صلى الله عليه وآله قبل مبعثه ثمّ كفروا بعد البعثة حسداً وبغياً ، عن الحسن والجبّائي وأبي مسلم .

والاستثناء متّصل ولا يحمل على المنقطع مع حسن الاتّصال لأنّه الأصل في الكلام والمستثنون [الّذين تابوا] و رجعوا عن الكفر إلى الايمان [و أصلحوا] ضمائرهم و وعزموا على أن يثبتوا على الإيمان .

قال الطبرسيّ : وهذا المعنى أحسن من قول من قال : المراد من قوله . «وأصلحوا» أي أصلحوا أعمالهم بعد التوبة وصلّوا وصاموا ؛ فإنّ ذلك ليس بشرط في صحّة التوبة إذ لو مات قبل فعل الصالحات مات مؤمناً بالإجماع .

اقول : إنّ ماقاله الشيخ الطبرسيّ من أنّ ذلك ليس بشرط في صحّة التوبة صحيح لكن إذا تاب ومات قبل فعل الصالحات بحيث أدركه بعد التوبة الأجل ، أمّا إذا تاب وبقي ولم يتدارك صلاته وسائر واجباته الّتي عليه أداؤها فهل هو مغفورٌ ولم يعذّب ؟ فيه تأمّل ؛ لأنّ شرط قبول التوبة الرجوع عمّا كان عليه والتدارك لما فات منه ، نعم مات مؤمناً معناه أنّه ليس بكافر ولا مخلّد لكن إسقاط العذاب عنه غير معلوم .

قال صاحب تفسير روح البيان : إنّ عطف قوله : «وأصلحوا» على قوله : «إلاّ الّذين تابوا» يدلّ على أنّ التوبة وحدها وهي الندم على مامضى من الارتداد والعزم على تركه في المستقبل لايكفي حتّى ينضاف إليها العمل الصالح .

يحكى عن السريّ السقطي أنّه قال : عجبت من ضعيف عصى قويّاً . فلمّا كان الغداة و صلّيت الغداة إذاً أنا بشابّ قدوافى وخلفه ركبان على دوابّ بين يديه غلمان وهوراكب على دابّته فنزل وقال : أيّكم السريّ؟ فأوما جلسائي إليّ ، فسلّم عليّ وجلس وقال : سمعتك تقول : عجبت لضعيف عصى قويّاً ، فماأردت به ؟ فقلت : ماضعيف أضعف من ابن آدم ولاقويّ أقوى من الله و قدتعرّض ابن آدم مع ضعفه إلى معصية الله ، قال : فبكى ، ثمّ قال : يا سريّ هل يقبل ربّك غريقاًمثلي ؟ قلت : ومن ينقذ الغريق إلاّ الله ؟ قال الشابّ : إنّ عليّ مظالم كثيرة كيف أصنع ؟ قال : إن صححت الانقطاع إلى الله أرضي عنك الخصوم بشرط أن تردّ إليهم مابيدك ؛ بلغنا عن رسول الله ﷺ : إذاكان يوم القيامة واجتمع الخصوم على وليّ الله تقول الملائكة لهم لا تروعوا وليّ الله فإنّ الحقّ اليوم على الله فيهب الله لهم مقامات عالية بدل حقوقهم فيتجاوزون عن الوليّ .

قال فبكى ثمّ قال : صف لي الطريق إلى الله . فقلت : إن كنت تريد طريق المقتصدين فعليك بالصيام والقيام و ترك الآثام ، وإن كنت تريد طريق الأولياء فاقطع العلائق واتّصل بخدمة الخالق وعدّ نفسك من أصحاب القبور ؛ فإنّ الإنسان لايصل إلى الحضور الباقي و الحياة الأبديّة إلاّ بعد إفناء وجوده في الطاعة و تبديل الأخلاق الذميمة بالحميدة .

قال رسول الله ﷺ : كن في الدنيا كأنّك غريب أوعابر سبيل ولاتتّخذها وطناً، الحديث .

ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون (٩٠) .

لمّا ذكر سبحانه ذكر التوبة المقبولة عقبّه بذكر مالا يقبل منها .

قيل : نزلت في أهل الكتاب الّذين آمنوا بمحمّد و كتابه قبل مبعثه ثمّ كفروا به و أنكروا نعوته بعدمبعثه . وقيل : نزلت في الّذين آمنوا بموسى عليه السلام و كفروا بعيسى و الإنجيل [ثمّ ازدادوا كفراً] بكفرهم بمحمّد والقرآن . وقيل : نزلت في أحدعشر من أصحاب

الحارث بن سويد لمّا رجع الحارث قالوا : نقيم بمكّة على الكفر فمتى أردنا الرجعة إلى الإسلام رجعنا فينزل فينا ما نزل في الحارث فلمّا افتتح رسول الله ﷺ مكّة دخل في الإسلام من دخل منهم فقبلت توبته و نزل فيمن مات على كفره .

وقيل : معنى الآية [لن تقبل توبتهم] لأنّه كلّما نزلت آية كفروا بها و ثبتوا على كفرهم وازدادوا بالإصرار عليه والطعن فيه والصدّ عن الإيمان . وقيل : لن تقبل توبتهم عند رؤية البأس والموت؛ لأنّها يكون في حال الإلجاء ولا يتوبون إلّا عند حضور الموت .

[وأُولئك هم الضالّون] عن الحقّ الهالكون المعذّبون .

قوله تعالى : ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به اولئك لهم عذاب اليم و مالهم من ناصرين (٩١) .

لمّا كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية دخلت الفاء إيذاناً بسببيّة المبتدء لخبره و الكلام وارد على الفرض ، و الذهب كنايةٌ من أعزّ الأشياء و كونه ملء الارض كنايةٌ عن غاية الكثرة وإلّا فهو يوم القيامة لايملك نقيراً ولا قطميراً ، والمراد أنّ من مات على الكفر لو كان يملك ملء الأرض ذهباً وافتدى به لاتنفعه الفدية عن عذاب الله وأنّهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب .

[أُولئك] الموصوفون بهذا الوصف الشنيع [لهم عذاب أليم] مولم و مالهم من ناصرين في دفع العذاب ، وقرأ الأعمش «ذهب» بالرفع أمّا النصب فعلى التميز و معنى التميز في الكلام أن يكون الكلام معلوماً في الجملة لكنّه مع معلوميّته مبهمٌ مثل قولك: عندي عشرون، فالعدد معلوم لكنّ المعدود مبهم فإذا قلت : درهماً ، فسّرته ، و كذلك إذا قلت : هو أحسن الناس ، فقد أعلمت وأخبرت عن حسنه ولم تبيّن فيماذا ، فإذا قلت : وجهاً أوفعلاً ،فقد بيّنته وفسّرته . وإنّما نصب التمييز لأنّه ليس له مايخفضه ولا مايرفعه فلمّا خلا من هذين نصب؛لأنّ النصب أخفّ الإعراب فيجعل منصوباً كأنّه لا عامل فيه. وأمّا الرفع ردّاً على «ملء» كما يقال : عندي عشرون نفساً رجالاً .

[ومالهم من ناصرين] لمّا بيّن أنّه لاخلاص لهم عن العذاب بسبب الفدية بيّن

أنّه لاخلاص لهم عنه بسبب الإعانة و النصرة و الشفاعة . وفي الآية إشعار على إثبات الشفاعة ؛ وذلك لأنّه تعالى ختم وعيد الكفّار بعدم النصرة والشفاعة فلو حصل هذا المعنى في حقّ غير الكافر بطل تخصيص هذا الوعيد بالكفر . وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أي ليس لواحد منهم ناصرٌ واحد . قال رسول الله ﷺ : يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أنّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفدي به؟ فيقول : نعم ، فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم : أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلّا أن تشرك بي .

قال الفخر الرازيّ : إنّ الكافر على ثلاثة أقسام : أحدها الّذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولةً وهو الّذي ذكره الله بقوله : « إلّا الّذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإنّ الله غفورٌ رحيم » .

والقسم الثاني هو الّذي يتوب عن الكفر توبة فاسدة وهو الّذي ذكره الله في قوله : « ثمّ ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم » .

وثالثها الّذي يموت على الكفر من غير توبة وهو المذكور بقوله : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً » وهم الّذين رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمّارة على قلوبهم و تمكّنت وصارت رَيناً فتمادت في العناد وكان سبب كفرهم محبّة هذه العوائق الفانية واتّباع الهوى .

قال النبيّ ﷺ : أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى و طول الأمل فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة . قال علماء الأخلاق : مفتاح العبادة الفكرة وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى .

قال جعفر بن نصير : دفع إليّ بعض الزهّاد درهماً فقال : اشتر به التين الوزيريّ فاشتريته ، فلمّا أفطر أخذ واحدةً ووضعها في فيه ثمّ ألقاها من فمه وبكى وقال : لي احمله ، فقلت : له في ذلك ، فقال : هتف في قلبي : أما تستحيي شهوة تركتها من أجله تعالى ثمّ تعود إليها .

وأعلم أنّ النفس مجبولةٌ على ضدّ الروحانيّة الّتي هي من الملكوت الأعلى و تأمر

بالتمرّد والاستكبار ولا تقبل الموعظة قال صاحب البردة :[١]

فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتّعظت   من جهلها بنذير الشيب والهرم

فهي شبيهةٌ بجهنّم ولها دركات سبع كما أنّ لجهنّم طبقاتٌ، و دركات النفس صفاتها السبع : الكبر و الحرص و الشهوة و الحسد والغضب والبخل والحقد ؛ فمن زكّى نفسه عن هذه الصفات فقد عبر عن هذه الدركات السفليّة الشيطانيّة الجهنّميّة ووصل إلى درجات الجنان العلويّة كما قال : « قد أفلح من زكّاها [٢] » و من لم يزكّها عن هذه الصفات بقي خائباً خاسراً كما قال : «وقد خاب من دسّاها[٣]» .

قوله تعالى : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم (٩٢) .

أي لن تبلغوا أيّها المؤمنون ولن تدركوه [حتّى تنفقوا] واختلف في «البرّ» هنا فقيل : هو الجنّة عن ابن عبّاس وجماعة. وقيل : هو الطاعة والتقوى . وقيل : معناه لن تكونوا صالحين أتقياء ولن تلحقوا بزمرة الأبرار حتّى تنفقوا في سبيل الله بعض ما تهوونه و تعجبكم من كرائم أموالكم .

[وما تنفقوا من شيء فإنّ الله به عليم] أي أيّ شيء تنفقوا طيّب تحبّونه أوخبيث تكرهونه -ومحلّ الجارّ والمجرور النصب على التمييز- فيجازيكم بحسبه جيّداً كان أورديئاً علماً كاملاً لايخفى عليه شيءٌ من ذات ذلك أو صفاته ، والعاقل إذا أحبّ شيئاً جعله لنفسه ذخيرة ليوم يحتاج إليه . روي أنّها لما نزلت جاء أبوطلحة فقال يارسول الله : إنّ أحبّ أموالي إليّ بئرحاء - وهو ضيعة له في المدينة مستقبل مسجد رسول الله- فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال صلى الله عليه وآله : بخ بخ ذاك مال رابح أورايح فإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين ؛ فقسّمها في أقاربه .

وقد قيل : من أراد البرّ فلينفق بعض مايحبّه ومن أراد البارّ فلينفق جميع مايحبّه . قال نجم الدّين : فبقدر ماتكونون له يكون لكم كما قيل : «من كان لله كان الله له» فإنّ

(١) هي قصيدة مدح بها خاتم النبيين صلى الله عليه وآله الطيبين ورأى صاحبه في المنام انه صم اهداه بردة فاشتهرت القصيدة بالبردة .

(٢-٣) الشمس : ٩ - ١٠ .

الفراش ما نال من برّ الشمع وهو شعلته حتّى أنفق ما أحبّه و هو نفسه حتّى قيل : من أحبّ من دون الله شيئاً فقد حجب به عن الله و أشرك شركاً خفيّاً لتعلّق محبّته بغير الله .

حكي أنّ ربيع بن خثيم ضربه الفالج و طال به وجعه فاشتهى لحم دجاج فكفّ نفسه أربعين يوماً فأبت فقال : لزوجته قد اشهيت لحم دجاج منذ أربعين يوم فكففت نفسي رجاء أن تكفّ فأبت ؛ فقالت امرأته : سبحان الله وأيّ شيء هذا تكفّ نفسك عنه وقد أحلّه الله لك فأرسلت امرأته إلى السوق فاشترت له دجاجة وذبحتها وشوتها وخبزت خبزاً و جعلت لها أصباغاً ثمّ جاءت بالخوان فوضعته بين يديه فقام سائلٌ بالباب فقال : تصدّقوا عليّ بارك الله لكم ، فكفّ عن الأكل وقال لامرأته : خذي هذا وادفعيه إليه ، فقالت له امرأته : سبحان الله ، قال : افعلي ما آمرك به ، قالت : فاصنع ما هو خير له ، قال : وماهو ، قالت : تعطيه ثمن هذا وتأكل أنت شهوتك ،قال: أحسنت ايتيني بثمنه ؛فجاءت بثمنه ، فقال : ضعيه على هذا وادفعيه جميعاً ففعلت ، ثمّ قال : «قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها» .

وبالجملة فلا يحصل القرب ولا يزول البعد إلّا بقطع محبّة غير الله و إفناء النفس والشهوة .

قوله تعالى : كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التورية قل فأتوا بالتورية فاتلوها ان كنتم صادقين (٩٣) .

النزول : لمّا نزل قوله تعالى : «فبظلم من الّذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات اُحلّت لهم ، الآية »[(١)] وقوله : «وعلى الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر ـ إلى قوله ـ ذلك جزيناهم ببغيهم[(٢)]» أنكر اليهود وغاظهم ذلك وبرّؤوا ساحتهم من الظلم وقالوا : لسنا بأوّل من حرمت عليه تلك المطعومات وماهو إلّا تحريم قديم كانت محرّمةً على نوح و إبراهيم ومن بعده وهلمّ جرّا حتّى انتهى التحريم إلينا ، و غرضهم نفي البغي و الظلم و الصدّ عن سبيل الله من أنفسهم وما عدّد الله من مساويهم الّتي كلّما ارتكبوا منها كبيرة حرّم عليهم نوعٌ من الطيّبات عقوبةً لهم .

---

(١) النساء : ١٦٠ . (٢) الانعام : ١٤٦ .

فقال سبحانه : [كلّ الطعام] وأنواعه [كان حلاً لبني إسرائيل] والمراد أكله [إلّا ما حرّم إسرائيل على نفسه] أي يعقوب حرّم على نفسه لحوم الإبل و ألبانها .

روي أنّ يعقوب كان نذر إن وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم ، فتلقّاه ملكٌ من الملائكة فقال له : يا يعقوب إنّك رجلٌ قويّ فهل لك في الصراع ؟ فعالجه فلم يصرع واحداً منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النساء من ذلك ، ثمّ قال له الملك : أما إنّي لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذا الغمزة لأنّك نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت آخر ولد لك ، و جعل الله لك لهذه الغمزة مخرجاً من ذلك الذبح .

ثمّ إنّ يعقوب لمّا قدم بيت المقدس أراد ذبح ولده ونسي قول الملك أو اُنسي - على اختلاف بين العامّة والخاصّة في نسيان الأنبياء أو إنسائهم في اُمور أو عدمهما - فأتاه الملك فقال : إنّما غمزتك للمخرج وقد وفي نذرك فلا سبيل لك إلى ولدك . ثمّ إنّه حين ابتلا بذلك المرض لقي من ذلك بلاءً وشدّة وكان لاينام الليل من الوجع فحلف ونذر لئن شفاه الله لايأكل أحبّ الطعام إليه فحرّم لحوم الإبل وألبانها ، عن ابن عبّاس وجماعة .

وقيل : حرّم على نفسه لحم الجزور وسأل الله أن يجيز له فحرّم الله ذلك على ولده . وقيل : حرّم زائد من الكبد والكليتين والشحم إلّا ما حملته الظهور . وقيل : حرّمه كما يحرم المستظهر في دينه من الزهّاد بعض اللذائذ على نفسه وكان ذلك جائزاً .

[من قبل أن تنزّل التوراة] متعلّقٌ بقوله . « كان حلاً » و الاستثناء معترضةٌ في الكلام والمعنى أنّ المطعومات كانت حلاً لهم قبل نزول التوراة ثمّ حرّمت بسبب بغي اليهود وظلمهم فكذّب الله اليهود إدّعاءهم أنّ بعض هذه الأطعمة كانت محرّمةً وما حرّمت بسبب بغينا ، وردّ عليهم في دعواهم البراءة من الظلم والطعن في دعوى الرسول موافقته لإبراهيم بتحليله صلى الله عليه وآله لحوم الإبل وألبانها .

[قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين] أمره سبحانه بأن يحاجّهم بكتابهم الناطق بأنّ تحريم ما حرّم تحريمٌ مرتّبٌ على ظلمهم وبغيهم ويكلّفهم إخراجه و تلاوته

ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم . روي أنّهم لم يجترئوا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين .

فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون (٩٤) .

أي من اختلق عليه سبحانه بزعمه أنّه حرّم ما ذكر قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن تقدّمهم من الأمم من بعدما ذكر من أمرهم باحضار التوراة فأولئك المصرّون على الافتراء وهم المفرطون في الظلم والعدوان .

قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (٩٥) .

[قل] لهم يا محمّد ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل في شأن التحريم وأنّ كلّ الطعام كان حلاً لبني إسرائيل وأنّ محمّداً في مراتب التوحيد كان متّبعاً على دين إبراهيم وهو الحقّ [فاتّبعوا] أنتم أيّها اليهود [ملّة] الإسلام فإنّه ملّة إبراهيم وأنّكم ما كنتم متّبعين ملّته كما تزعمون [حنيفاً] حال من إبراهيم أي مائلاً عن الأديان الزائفة المعوجّة [وما كان] إبراهيم [من المشركين] وفيه تعريضٌ باشراك اليهود وتصريحٌ بأنّه ﷺ على دين الحقّ وعلى دين أبيه إبراهيم في الأصول لأنّه ﷺ لا يدعو إلّا إلى التوحيد والبراءة من التشريك والتثليث .

قال نجم الدين في كتاب تأويلات النجميّة : إنّ الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة أصناف : صنف منها الملك الروحانيّ العلويّ اللطيف النورانيّ وجعل غذاءهم من جنسهم الذكر وخلقهم للعبادة ولا يعصون الله طرفة عين أبداً ، وصنفٌ منها الحيوان الجسمانيّ السفليّ الكثيف الظلمانيّ وجعل غذاءهم من جنسهم الطعام وخلقهم للعبرة والخدمة كالبقر والغنم وأمثالها ، وصنف منها الإنسان المركّب من الملكيّ الروحانيّ والحيوانيّ الجسمانيّ جعل غذاءهم من جنسهم وجعل لروحانيّتهم الذكر ولجسمانيّتهم الطعام وخلقهم للمعرفة والعبادة والخلافة .

فمنهم ظالمٌ لنفسه وهو الّذي غلبت حيوانيّته على روحانيّته فبالغ في غذاء جسمانيّته وقصّر في غذاء روحانيّته حتّى مات روحه واستوت حيوانيّته أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . ومنهم مقتصدٌ وهو الّذي تساوت روحانيّته وحيوانيّته فغذى كلّ واحدة

منهما غذاءها ؛ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم .

و منهم سابقٌ بالخيرات وهو الّذي غلبت روحانيّته على حيوانيّته فبالغ في غذاء روحانيّته وهو الذكر وقصّر في غذاء حيوانيّته وهو الطعام حتّى ماتت نفسه واستوت قوى روحه ، أُولئك هم خير البريّة فكان كلّ الطعام حلالاً لهم من الأطعمة المناسبة للإنسان إلّا ما حرّم الإنسان السابق بالخيرات على نفسه بموت النفس وحياة القلب واستيلاء الروح من قبل أن نزل عليه الوحي والإلهام ، وإنّما حرّمه على نفسه بسبب ارتقائه إلى درجة الملكيّة ومنع نفسه عن اللذّات بسبب نهي النفس عن هواها لا أنّه حرّمه حقيقة على وجه التشريع فهنيئاً لهم .

وبالجملة قال سبحانه في حقّ إبراهيم : «وماكان من المشركين» لأنّه عليه السلام ماجعل الشركة في الخلّة مع الله وما اتّخذ خليلاً سواه و أحبّ من أحبّه الله و أبغض من أبغضه الله .

قال الفضل بن عياض : يقول الله يوم القيامة : ياابن آدم أمّا زهدك في الدنيا فإنّما طلبت الراحة لنفسك في الآخرة وأمّا انقطاعك إليّ فإنّما طلبت العزّ لنفسك ولكن هل عاديت لي عدوّاً أووليت لي وليّاً . فاسع أي العاقل في طاعتك بالخلوص في محبّة الله فإنّه الكبريت الأحمر والله لايحبّ القلب المشترك بمحبّة غيره من شهوة أوغيرها .

قال محمّد بن حسان : بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج عليّ شابٌّ قد أحرقته السموم و الرياح فلمّا رآني ولّى هارباً فتبعته وقلت : عظني بكلمة أنتفع بها ، قال : أُحذره تعالى فإنّه غيور لايحبّ أن يرى في قلب عبد سواه ، انتهى .

ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين(٩٦) .

«البيت» ما يبيت فيه أحد ثمّ استعمل في المسكن مطلقاً ، روي أنّه لمّا حوّلت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوّته صلى الله عليه وآله و قالوا : إنّ بيت المقدس أفضل من الكعبة و أحقّ بالاستقبال ، لأنّه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ومهاجر الأنبياء و قبلتهم وهي الأرض المقدّسة الّتي بارك الله فيها للعالمين وفيها الجبل الّذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام فتحويل القبلة منه إلى الكعبة باطل فنزلت :

[إنّ أوّل بيت وضع] للعبادة وجعل متعبّداً لهم والواضع هو الله تعالى [للّذي ببكة] خبرٌ لإنّ ، أي هو البيت الّذي في بكّة وهو علم للبلد الحرام يقال : بكّه إذا زحمه لازدحام الناس فيه أو لأنّها تبكّ أعناق الجبابرة ولم يقصدها جبّارٌ إلّا اضمحلّ وفنى .

قال النبيّ ﷺ : أوّل بيت وضع للناس المسجد الحرام ثمّ بيت المقدس و بينهما أربعون سنة . وروي أنّ الملائكة بنوا بيت الحرام قبل خلق آدم بألفي عام فلمّا هبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة : طف حول هذا البيت فلقد طفنا حوله قبلك بألفي عام ، فطاب به آدم ومن بعده إلى زمن نوح فلمّا أراد الله الطوفان حمل إلى السماء الرابعة و هو البيت المعمور بحيال الكعبة يطوف به ملائكة السماوات .

فعلى هذا فنسبة بناء الكعبة إلى إبراهيم رفع قواعدها و إظهار ما درس منها بعد الطوفان وبقي مختفياً إلى أن بعث الله جبرئيل إلى إبراهيم و دلّه على مكان البيت و أمره بعمارته و لمّا كان الآمر بالبناء هو الله و المبلّغ و المهندس جبرئيل و الباني هو الخليل و التلميذ والمعين إسماعيل كيف يكون بناء أشرف من الكعبة ؟

[مباركاً] أي كثير النفع و الخير لما يحصل لمن حجّه و طاف حوله من الثواب و تكفير الذنوب [وهدىً للعالمين] لأنّه قبلتهم ومتعبّدهم .

فيه آيات بينات مقام ابراهيم و من دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا و من كفر فان الله غني عن العالمين (٩٧) .

[فيه آيات بيّنات] مثل قصّة الفيل وأصحاب الفيل وبانحراف الطيور عن موازاة البيت و بانمحاق الجمار على كثرة الرماة فلولا أنّه لكان تجتمع هناك من الحجارة مثل الجبال على طول الزمان .

وقرأ ابن عبّاس : فيه آيةٌ بيّنة [مقام إبراهيم] أثر قدميه عليه السلام في الصخرة الّتي كان يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أوعند غسل رأسه على ما روي أنّه عليه السلام جاء زائراً من الشام إلى مكّة فقالت له زوجة إسماعيل : انزل حتّى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه حتّى غسلت شقّ رأسه ثمّ حوّلته إلى شقّه الأيسر حتّى غسلت شقّ الآخر فبقي أثر قدميه عليه و « مقام »

بدل من «آيات» بدل البعض من الكلّ.

[ومن دخله كان آمناً] أي ومن دخل الحرم كان مأمونا ؛ قال ابن عبّاس : إنّ الحرم كلّه مقام إبراهيم . قيل : إنّ الكلام خبرٌ والمراد به الأمر يعني أمّنوه حتّى أنّ من وجب عليه الحدّ فلاذ بالحرم لا يبايع ولا يشارى ولا يعامل حتّى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ ، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام إلّا أن يكون الفعل الموجب للحدّ واقع في الحرم فحينئذ يقام عليه الحدّ . وقيل : المعنى من دخله عارفاً بجميع ما أوجبه الله عليه كان آمناً في الآخرة من العذاب وذلك بدعوة إبراهيم «قال ربّ اجعل هذا البلد آمناً[1]» .

وقيل : «بكّة» المسجد و «مكّة» الحرم كلّه يدخل فيه البيوت و هو المرويّ عن أبي جعفر . وقيل : «بكّة» بطن مكّة و «مكّة» إسم البلد . وقيل : «بكّة» هي مكّة واشتقاقها اشتقاق بكّة وإبدال الميم من الباء واقعٌ في كلام العرب كقولهم : ضربة لازب في لازم ، ومسجد رأسه وسبّده ، والحطيم قال الصادق عليه السلام : هو ما بين الحجر الأسود و الباب وهو الموضع الّذي فيه تاب الله على آدم . و سمّي الحطيم حطيماً لأنّ الناس يحطم بعضهم بعضاً أو أنّ الذنوب تنحطم فيه ، وقال عليه السلام : إنّ تهيّأ لك أن تصلّي صلاتك كلّها الفرائض و غيرها عند الحطيم فافعل فإنّه أفضل بقعة على وجه الأرض وبعده الصلاة في الحجر أفضل .

ورد عن أبي حمزة الثمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال : أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ولو أنّ رجلاً عمر ما عمر نوح في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المقام ثمّ لقى الله تعالى بغير ولايتنا لاينفعه ذلك شيئاً . وقال الصادق عليه السلام : الركن اليمانيّ بابنا الّذي ندخل منه الجنّة .

قال صاحب روح البيان : في الحديث : من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً . وقال الحقّي : وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينشر ان في الجنّة وهما مقبرتا مكّة والمدينة . وعن ابن مسعود : وقف النبيّ صلّى الله عليه وآله على ثنية الحجون و ليس بها مقبرة فقال : يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنّة بغير حساب يشفع كلّ واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر . وعنه صلّى الله عليه وآله : من صبر على حرّ مكّة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنّم

مسيرة مائتي عام ، انتهى مانقله الحقّي في تفسيره .

أقول : هذا إذاكان مع الولاية وبدونها لا ينفع الجوار كما نطق به الحديث السابق ذكره .

قوله تعالى : [ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً] لمّا بيّن الله فضيلة البيت عقّبه بذكر وجوب حجّة الإسلام أي و واجب على من استطاع وتمكّن وقدر إلى حجّ البيت وزيارته على الوجه المخصوص فوجد إليه طريقاً بنفسه وماله فليحجّ و ليتوجّه إليه . واختلف في الاستطاعة فقيل : هي الزاد والراحلة ، عن ابن عبّاس . وقيل : مايمكنه معه بلوغ مكّة بأيّ وجه يمكن وصول نفسه إليه . و المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام : وجود الزاد والراحلة و نفقة من يجب نفقته والرجوع إمّا من مال أوضياع أو حرفة مع الصحّة في البدن وإمكان السير .

قال الحقّي : والاستطاعة الّتي هي شرط لوجوب الفعل هي الاستطاعة بهذا المعنى لا الاستطاعة الّتي هي شرط حصول الفعل فهي لايكون إلّا مع الفعل لأنّها علّة وجود الفعل فلا يكون إلّا معلولا تتحقّق إلّا بتحقّق الفعل ؛ فالاستطاعة الأولى شرط الوجوب والثانية شرط حصول الفعل . و«الحجّ» بالفتح لغة أهل الحجاز و الكسر لغة نجد و أيّاماً كان فهو القصد للزيارة بإتيان الأعمال المخصوصة وهو حقٌّ واجبٌ في ذمم الناس ولا انفكاك لهم عن أدائه .

[و من كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين] وضع سبحانه من كفر موضع من لم يحجّ تأكيداً لوجوبه وتشديداً لتاركه أي من لم يحجّ مع الاستطاعة ولم يره واجباً فقد كفر فإنّ الله غنيّ عن عبادتهم ولم يتعبّدهم لحاجة إليها ، وقيل : معنى الآية كفران النعمة لأنّ امتثال أمر الله شكرٌ لنعمته وتركه كفرانٌ .

وقد روي عن أبي امامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : من لم يحبسه حاجةٌ ظاهرةٌ من مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحجّ فليمت إن شاء يهوديّاً وإن شاء نصرانيّاً. قال الصادق عليه السلام عن رسول الله: الحجّ والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كماينفي الكير خبث الحديد .

وفي الآية دلالةٌ على فساد قول من قال : إنّ الاستطاعة مع الفعل لأنّ الله أوجب

الحجّ على المستطيع ولم يوجب على غير المستطيع وذلك لا يمكن إلّا قبل فعل الحجّ.

وأمّا نظم الآية بما قبلها أنّ الله أمر أهل الكتاب باتّباع ملّة إبراهيم ومن ملّته تعظيم البيت وزيارته.

قوله تعالى : قل يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون (٩٨) قل يا اهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (٩٩).

عاد الكلام إلى محاجّة أهل الكتاب أو اليهود خاصّة بأمره ﷺ بخطابهم : [قل] يا محمّد لهم : [لمَ تكفرون بآيات الله] الّتي آتاها محمّداً ﷺ و العلامات الّتي وافقت صفته ﷺ وتقدّمت البشارة به ، واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التوبيخ من حيث إنّه سؤال يعجزه عن إقامة العذر فكأنّه قال : هاتوا العذر في ذلك إن أمكنكم [والله شهيد على ما تعملون] حفيظ على أعمالكم ليجازيكم عليها .

[قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن] لمَ تصرفون عن دينه الحقّ وهو ملّة الإسلام « من آمن » مفعول «تصدّون» كانوا يمنعون من أراد الدخول في الإسلام بجهدهم ويقولون : إنّ صفته ﷺ ليست كذلك في كتابنا . وقيل : إنّ كيفيّة صدّهم كانوا يغرون بين الأوس والخزرج بتذكيرهم الحروب الّتي كانت بينهم في الجاهليّة حتّى تدخلهم الحميّة والعصبيّة فينسلخوا عن التوافق في الإسلام ونصرة النبيّ. وعلى هذا يكون المراد من « أهل الكتاب » في هذه الآية اليهود خاصّة .

[تبغونها عوجاً] و «الضمير» للسبيل و هو يذكّر ويؤنّث أي تطلبون سبيل الله مائلاً عن الاستقامة بأن تلبسوا عليهم لقولكم : إنّ شريعة موسى لا تنسخ . و«العوج» بفتح العين و كسرها الانحراف لكنّ المكسور يختصّ بالمعاني والمفتوح بالأعيان تقول : في كلامه عوجٌ بالكسر وفي الجدار والشجر عوج بالفتح [وأنتم شهداء] أي والحال أنّكم تشهدون في لبابكم بأنّها سبيل الله .

[وما الله بغافل عمّا تعملون] من الصدّ و كتمان الشهادة لنبيّه ﷺ .

ولمّا وبّخ الله أهل الكتاب بصدّ المؤمنين نهى المؤمنين عن اتّباع الصادّين فقال :

يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين (١٠٠) .

نزلت في شاس بن قيس اليهودي رأى منتدى محتوياً على زحام من أوس وخزرج فغاظه اُلفتهم فأرسل شاباً ينشدهم أشعار يوم بغاث وكان ذلك يوماً عظيماً اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للأوس فتعثر عرق الداء الدفين فتشاجروا فاُخبر النبي ﷺ فخرج يصلح ذات بينهم .

وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (١٠١) .

إنكارٌ وتعجيبٌ من كفرهم أي من أين يتطرّق إليكم الكفر والحال أنّ القرآن المعجز [تتلى عليكم] على لسان الرسول غضّاً معجباً مستجمعاً لجميع صفات الكمال من حيث اللفظ و المعنى وبين أظهركم [وفيكم رسوله] تعالى يعظكم ويبيّن لكم مالا تعلمون منه ويزيح شبهكم . ويجوز أن يكون المراد بقوله : «و فيكم رسوله » القوم الذين كانوا في زمنه ﷺ خاصّة ، ويجوز أن يكون المراد الاُمّة إلى يوم القيامة ؛ لأنّ آثاره وعلاماته من القرآن فينا قائمة باقيةٌ وذلك بمنزلة وجوده فينا .

[ومن يعتصم بالله] وبدينه وبكتابه [فقد هدي إلى صراط مستقيم] و طريق واضح فإنّه ﷺ لو مضى فآثار معجزاته و وجوده باقيةٌ وقد شاهد أهل عصره وتناقلتها الرواة بحيث كادت تبلغ إلى حدّ التواتر :

منها : أنّه ﷺ يرى من خلفه كما يرى من قدّامه .

ومنها : أنّه كان تنام عينه ولا ينام قلبه .

ومنها : أنّه لم يكن له ظلٌّ .

ومنها : أنّ الذباب لم يقع عليه .

ومنها : أنّه كان يسطع نور من جبهته في الليل المظلمة .

ومنها : أنّه ولد مختوناً إلى غير ذلك من المعجزات والشواهد على صدق نبوّته؛ فالاعتصام بكتابه وبرسوله هو الهداية إلى الصراط المستقيم ولا يحصل الاعتصام إلّا باتّباع سنّته

ﷺ والخشية من الله من مخالفته وشاهد الخشية موافقة الأمر « إنّما يخشى الله من عباده العلماء (١)»

والعالم متى ماكان رغبته في الدنيا وتملّق لأربابها وصرف الهمّة لاكتسابها وأحبّ الادّخار والاستكثار وطال أمله ونسي الآخرة فعلمه وبالٌ عليه وما أبعد من العلم عمله، وكيف يكون مثله من ورثة الأنبياء؟ بل هو خليفة الشيطان. قال رسول الله ﷺ : يأتي على الناس زمانٌ لايبقى من الإسلام إلّا اسمه ولامن القرآن إلّارسمه، قلوبهم خربةٌ من الهدى ومساجدهم عامرةٌ بأبدانهم، شرّ من تظلّ السماء يومئذ علماؤهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود، انتهى.

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وأنتم مسلمون (١٠٢) .

الاتّقاء افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة [حقّ تقاته] أي حقّ تقواه ومايجب منها من استفراغ الوسع في القيام بالواجبات والاجتناب عن المحارم، يريد بالغوا في التقوى حتّى لاتتركوا من المستطاع منها شيئاً [ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون] مخلصون نفوسكم لله لاتجعلون فيها شركة لما سواه أصلاً. استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال والمراد دوامهم على الإسلام.

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١٠٣) .

النزول : قال مقاتل : افتخر رجلان من الأوس والخزرج : ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسيّ : منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ومنّا حنظلة غسيل الملائكة ومنّا عاصم بن ثابت حميّ الدين ومنّا سعد بن معاذ الّذي اهتزّ العرش له بموته ورضي الله بحكمه في بني قريظة. وقال الخزرجيّ : منّا أربعة أحكموا القرآن أُبيّ ابن كعب ومعاذ بن جبل و زيد بن ثابت وأبو زيد و منّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار

---

(١) فاطر : ٢٨ .

و رئيسهم . فطال الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا ونادىافجاء الأوسيّ الى الأوس والخزرجيّ إلى الخزرج ومعهم السلاح ، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله فركب حماره و أتاهم فأنزل الله الآية فقرأها فاصطلحوا .

[واعتصموا بحبل الله] وتمسّكوا به وامتنعوا عن غيره ؛ قيل : المراد من « حبل الله » القرآن . وقيل : إنّه دين الإسلام . وقيل : على مارواه أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد عليهما السلام قال : نحن حبل الله الّذي قال سبحانه في الآية . قال الطبرسيّ : والأولى حمله على الجميع . والّذي يؤيّده ما رواه أبوسعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : أيّها الناس إنّي تركت فيكم حبلين إذا أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي : أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ألا وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض .

[ولا تفرّقوا] بحذف التاء الثانية لأنّ الاولى علامةٌ و العلامة لا تحذف أي لاتتفرّقوا عن دين الله الّذي أمركم جميعاً بلزومه و اثبتوا عليه.

[واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم] أراد ماكان بين الأوس و الخزرج من الحروب الّتي تطاولت مائة و عشرين سنةً حتّى ألّف الله بينهم بالإسلام فزالت تلك الأحقاد . وقيل : هو ماكان بين مشركي العرب من الأيّام و الطوائل فرفع الله ماكان بينهم من التنازع والاختلاف [فأصبحتم بنعمته] الله [إخواناً] متواصلين و أحباباً متحابّين بعد أن كنتم متحاربين بحيث يقصد كلّ واحد منكم إخاء الآخر لأنّ أصل الأخ معناه القصد من توخّيت الشيء إذا قصدته و طلبته .

[و كنتم على شفا حفرة من النار] أي كنتم على طرف حفرة من جهنّم مشرفين على الوقوع فيها لكفركم لو أدرككم الموت على حالة الكفر [فأنقذكم] وخلّصكم بأن هداكم إلى الإسلام [منها] أي من تلك الحفرة .

[كذلك] إشارةٌ إلى مصدر الفعل الّذي بعده أي مثل ذلك التبيين الواضح [يبيّن الله لكم آياته] دلائله [لعلّكم تهتدون] طلباً لثباتكم على الهدى فالعبد من شأنه أن يتّقي محارم الله و يحذر مخالفته فإذا غلبت عليه نفسه أحياناً فليرجع بساعته إلى ساحة

كرمه و عفوه و يقول : يا رب تبت إليك فاستر علي ، فإذا ستر عليه يقول : يا رب وفقني لأتدارك وأعمل حتى أخلص ، فإذا تدارك وأخلص يقول : يارب تقبل مني . وليكن خائفاً طول عمره من زلته التي أوقعها خوفاً من عدم قبول توبته فإذا تمرن بهذه العادة ينبغي أن يقال له : إنه مهتد .

ولتكن منكم امة يدعون الى الخير و يامرون بالمعروف وينهون عن المنكرو اولئك هم المفلحون(١٠٤) .

أي لتوجد منكم جماعة داعية إلى مافيه صلاح ديني [يأمرون] بالطاعة [وينهون] عن المعصية ، و كل ما أمر الله ورسوله فهو معروف ، و مانهى الله و رسوله فهو منكر . و قيل : المعروف مايعرف حسنه عقلاً و شرعاً ، و المنكر ماينكره العقل والشرع . وفي الآية دلالة على وجوبهما لأنه سبحانه علق الفلاح بهما بقوله : [وأولئك هم المفلحون] الفائزون ، و كلمة «هم» ضمير فصل يفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أي هم الأخصاء بكمال الفلاح .

و أكثر المتكلمين على أنهما من فروض الكفايات ، و منهم من قال : إنهما من فروض الأعيان ، منهم الشيخ أبوجعفر الطوسي . قال الطبرسي : و الصحيح أن ذلك إنما يجب بالسمع وليس في العقل ما يدل على وجوبه إلا إذا كان على سبيل دفع الضرر . و قال الجبائي يجب عقلاً والسمع يؤكده ؛ قال النبي صلى الله عليه وآله : من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه و خليفة رسول الله وخليفة كتابه ، عن الحسن .

وعن درة بن أبي لهب قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو على المنبر فقال : يارسول الله من خير الناس ؟ قال : آمرهم بالمعروف وأنها هم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم . وقال أبو الدرداء : لتأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر أوليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لايجل كبير كم ولا يرحم صغير كم ويدعو خيار كم فلا يستجاب لهم و تستنصرون فلا تنصرون . وقال حذيفة : يأتي زمان على الناس لأن يكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

ثم أمرهم سبحانه بالاتفاق على الإسلام و ترك التفرق فقال :

ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات و اولئك لهم عذاب عظيم(١٠٥) .

و لمّا أمر الله هذه الاُمّة بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وذلك لايتمّ إلّا إذا كان الآمر والناهي قادراً ولا تحصل هذه القدرة إلّا إذا حصل الاتّفاق والاجتماع في الدين فحذّرهم الله في هذه الآية الاختلاف لكيلا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف . و هذان الأمران و هما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون من أهمّ الواجبات لأنّ الدين يقوم بهما ؛ قال ﷺ : إنّ النّاس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يوشك أن يعمّهم الله بعذابه ، انتهى .

[ولاتكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا] واختلفوا في الديانة . وقيل : المراد هم اليهود والنصارى حيث تفرّقت اليهود فرقاً والنصارى فرقاً و اختلفوا [من بعد ماجاءهم البيّنات] والآيات المبيّنة للحقّ الموجبة للاتّفاق وهم اختلفوا باستخراج التأليفات الزائفة و كتم نعوت النبيّ ﷺ و تحريفها بسبب حطام الدنيا وصار كلّ واحد من أحبارهم رئيساً في بلدهم و كلّ واحد منهم يدّعي أنّه على الحقّ وأنّ صاحبه على الباطل .

[و اُولئك لهم عذابٌ عظيم] في الآخرة بسبب التفرّق .

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦) واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون(١٠٧) .

أي اذكروا [يوم تبيضّ وجوه] كثيرة [وتسودّ وجوه] كثيرة أي من استبشر ونال بمطلوبه فابيضّ وجهه و من وُصل إليه مكروه فتبدّلت صورته واغبرّ لونه ، فإنّ الإنسان يرد في القيامة على ماقدّمت يداه ، وبياض الوجه وسواده حقيقتان حاصلتان فيوسم أهل الحقّ ببياض وإشراق وسعي النور بين أيديهم و أهل الباطل بأضداد ذلك .

[فأمّا الّذين اسودّت وجوههم] فيقال لهم [أ كفرتم بعد إيمانكم] و اختلف فيمن يقال له هذا الكلام قيل : إنّهم الّذين كفروا بعد إظهار الإيمان بالنفاق . وقيل : إنّهم جميع الكفّار لإعراضهم عمّا وجب عليهم الإقرار به من التوحيد حين أشهدهم على أنفسهم ألست

بربكم قالوا بلى[١]» فقال لهم : «أكفرتم بعد إيمانكم» يوم الميثاق .

و قيل : إنهم أهل الكتاب كفروا بالنبي ﷺ بعد إيمانهم به وبنعته قبل مبعثه، عن عكرمة و الجبائي والزجاج . وقيل : أهل البدع والأهواء من هذه الأمة عن علي عليه السلام و قتادة ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : و الذي نفسي بيده ليردن علي الحوض ممن صحبني أقوام إذا رأيتهم اختلجوا دوني فأقول : إنهم أصحابي ، فيقال : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدإيمانهم ارتدوا على أعقابهم القهقرى ، ذكره الثعلبي في تفسيره . وقال أبو امامة الباهلي : هم الخوارج .

والاستفهام في قوله : «أكفرتم» للتقريع أو التقرير أي قد كفرتم [فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] بسبب كفركم بمحمد وبالقرآن .

[وأما الذين ابيضت وجوههم] وهم المؤمنون بالقرآن وبمحمد [ففي رحمة الله] وثوابه و جنته [هم فيها خالدون] مؤبدون ، و إعادة كلمة الظرف تأكيداً لتمكن المعنى في النفس أو لأن في قوله : «ففي رحمة الله» دلالة على إدخالهم وظرف الثاني على خلودهم .

تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين (١٠٨) ولله ما في السموات والارض والى الله ترجع الامور (١٠٩) .

[تلك] إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار و تعذيب الكفار و هو مبتدأ [آيات الله] خبره [نتلوها] جملة حالية من الآيات [عليك] نقرؤها عليك يا محمد بواسطة جبرئيل والآيات ملتبسة [بالحق] والعدل بموجب الوعد والوعيد [وما الله يريد ظلماً] أي شيئاً من الظلم [للعالمين] لأحد من خلقه بأن يحملهم من العقاب مالم يستحقوه وينقصهم من الثواب ما استحقوه وإنما يظلم من يظلم لجهله بقبح الظلم أو لحاجة من دفع ضرر أو جر نفع ، وتعالى الله عن مثل هذه الأمور .

[ولله ما في السماوات وما في الأرض] ملكاً وخلقاً فكيف يجوز أن يظلمهم ؟ [وإلى الله ترجع الأمور] ومعنى رجوع الأمر إليه بأن يذهب العالم بالفناء ثم يعيدها للجزاء .

---

(١) الاعراف : ١٧٢ .

وقيل : معناه أنّ الله قد ملّك عباده في الدنيا اُموراً وجعل لهم تصرّفاً واختياراً ويزول ذلك في الآخرة ويرجع إليه كلّه كما قال : « لمن الملك اليوم » واعلم أنّه يموت المرأ على ما عاش فيه ويحشر على مامات عليه .

قال رسول الله : يبعث كلّ عبد على مامات عليه . وقال : من مات وهو سكران فإنّه يعاين ملك الموت سكراناً ويعاين منكراً ونكيراً سكراناً ويبعث يوم القيامة سكراناً إلى خندق جهنّم يسمّى السكران ، فيه عين يجري ماؤها دماً لايكون له طعامٌ ولاشرابٌ إلّامنه كما أنّ أكلة الربا يقومون من قبورهم ويسقطون لعظم بطونهم وهم كالمجانين من مسّ الشيطان .

قوله تعالى : كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر و تؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرالهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون (١١٠) .

أي أنتم [خير اُمّة] وإنّما قال : « كنتم» لتقدّم البشارة لهم في الكتب الماضية و يعضدهذا البيان ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : أنتم وفيتم سبعين اُمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله . أو المراد كنتم عند الله في اللوح المحفوظ خيراُمّة ، عن الفرّاء والزجّاج . وقيل : «كان» في الآية تامّة والمعنى : وجدتم وخلقتم و«خيراُمّة» نصب على الحال . وقيل : «كان» بمعنى «صار» ومعناه صرتم خير اُمّة لكونكم تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و إيمانكم بالله . فيصيرهذه الخصال على هذا المعنى الأخير شرطاً في كونهم خيراً . وقد روي عن بعض الصحابة أنّه قال : من أراد أن يكون خيرها فليؤدّ شرط الله فيه من الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب للحكم مشعرٌ بالعلّيّة . قال الطبرسيّ : واختلف في المعنيّ بالخطاب ؛ قيل : هم المهاجرون خاصّةً . وقيل : نزلت في ابن مسعود واُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة . وقيل : الخطاب لأصحاب النبيّ الصادقين ولكنّه يعمّ السائرين ممّن يحذو حذوهم .

[ولو آمن أهل الكتاب] كإيمانكم [لكان] ذلك [خيرالهم] ممّا هم عليه من الرياسة واستتباع العوامّ [منهم المؤمنون] كأنّه قيل : هل منهم من آمن أو كلّهم على الكفر؟ فقيل : منهم المؤمنون المعهودون كعبد الله بن سلام وأصحابه [و أكثرهم الفاسقون] الخارجون

عن الطاعة والحدود .

لن يضروكم الا اذى و ان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون (١١١) .

في الآية تثبيت لمن آمن من أهل الكتاب مثل عبدالله وأصحابه ، وذلك أنّ رؤساء اليهود مثل أبي رافع و كعب وأبي ياسر و كنانة وابن صوريا كانوا يهدّدونهم ويؤذونهم بالسبّ والطعن فأثبتهم الله بقوله : [لن يضرّوكم إلّا أذىً] استثناء مفرّغ من المصدر العامّ.

ومعنى الآية أنّهم لن يضرّوكم ضرراً صعباً إلّا ضرراً أذىً لا يبالى به من طعن وتهديد لا أثر له [وإن يقاتلوكم] ويخرجوا إلى قتالكم يجعلوا ظهورهم ما يليكم منهزمين من غير أن ينالوا منكم شيئاً من قتل أو أسر [ثمّ لاينصرون] عطف على الشرطيّة أي لاينصرون من جهة أحد كما كان الأمر في حال بني قريظة والنضير ويهود خيبر .

ضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا الا بحبل الله وحبل من الناس و باءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانو يكفرون بايات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢) .

أي في أيّ مكان وأيّ زمان وجدوا في دار الإسلام اُلزموا الذلّ واُنزلت بهم وجعلت محيطة بهم ، استعارة من قولهم : ضرب فلان الضريبة على عبده أي ألزمها إيّاه . وكان اليهود لايكونون في موضع إلّا بالجزية ولقد أدركهم الإسلام وهم يؤدّون الجزية إلى المجوس [أينما ثقفوا] ووجدوا [إلّا بحبل من الله وحبل من الناس] استثناء من أعمّ الأحوال أي ضربت عليهم الذلّة ضرب القبّة على من هي عليه في جميع الأحوال إلّا حال كونهم معتصمين بذمّة الله و ذمّة المسلمين واستعير لفظ « الحبل » للعهد لأنّه سبب الفوز و النجاة .

والمراد من «العهد» وجوه الأمان ، والأمان الحاصل للذمّيّ قسمان : أحدهما الّذي نصّ الله عليه وهو الأمان الحاصل له بإعطاء الجزية عن يد ، أو الأمان الّذي فُوّض إلى رأى الإمام . ولعلّ الأوّل هو المسمّى بحبل الله ، والثاني هو المسمّى بحبل من الناس و أنّهما متغايران بالاعتبار .

[وباؤوا بغضب من الله] أي رجعوا بغضب وعقاب ولعن من الله أو المعنى استوجبوا الغضب منه تعالى [وضربت عليهم المسكنة] وزيّ الافتقار ، واليهود في الغالب إن لم يكونوا فقراء حقيقة فإنّهم يظهرون في أنفسهم الفقر .

[ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله] أي ذلك الّذي ذُكر من الذلّة و البوء بالغضب كائن بسبب كفرهم بآيات الله الناطقة بنبوّة محمد ﷺ وتحريفهم لها ولسائر الآيات وبسبب [قتلهم الأنبياء بغير حقّ] أي في اعتقادهم أيضاً وهؤلاء المتأخّرون وإن لم يصدر منهم قتل الأنبياء لكنّهم راضون بفعل أسلافهم ومصوّبين لهم في تلك الأفعال القبيحة فلذلك أُسند القتل إليهم .

[ذلك] إشارة إلى الكفر والقتل [بما عصوا وكانوا يعتدون] كان بسبب اعتدائهم حدود الله على الاستمرار فقوله : «ذلك بما عصوا» إشارة إلى علّة العلل قال بعض أهل التحقيق : من ابتلى بترك الأدب وقع في ترك السنن ومن ابتلى بترك السنن وقع في ترك الفريضة ، ومن ابتلى بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة ومن ابتلى بذلك وقع في الكفر . فعلى المؤمن أن لا يفتح على نفسه باب المعصية بل يترك بعض ما اُبيح له خوفاً ممّا يؤدّي إلى بعض ما لا يجوز له قال ﷺ : لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يدع بعض ما لا بأس به حذراً ممّا به البأس .

وقيل : الحياء على رؤوس المتّقين كالتيجان على رؤوس الملوك قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه : استحيوا من الله حقّ الحياء ، وقالوا : إنّا نستحيي يا رسول الله و الحمد لله ، قال : ليس ذلك الحياء ولكن من استحيى من الله حقّ الحياء فليحفظ الرأس وما حوى وليحفظ البطن وما وعى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حقّ الحياء .

قوله تعالى : ليسوا سواء من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل و هم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله و اليوم الاخر و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات و اولئك من الصالحين (١١٤) .

نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من أهل الحبشة وثمانية من الروم صدّقوا بمحمّد ﷺ . وقيل : نزلت هذه الآية لمّا أسلم عبدالله بن سلام و من تبعه فقالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمّد ﷺ إلّا شرارنا فأنزل الله هذه الآية .

أي ليس الّذين آمنوا من أهل الكتاب اُمّة قائمة كعبدالله و أصحابه و الّذين لم يؤمنوا سواء في الدرجة [اُمّة قائمة] وتمام البيان يقتضي أن يقال : و منهم اُمّة مذمومة غير قائمة إلّا أنّه اُضمر بناء على أنّ ذكر أحد الضدّين يغني عن الآخر و قوله : «ليسوا سواء» قيل : إنّه على لغة «أكلوني البراغيث» ومثله قوله : «ثمّ عموا وصمّوا كثير منهم» (١) قال الزجّاج والرمّانيّ : وليس الأمر كذلك لأنّ هذه اللغة رديئة في القياس والاستعمال بل إنّ ذكر أهل الكتاب قدجرى فأخبر الله أنّهم غير متساوين ، ورفع «اُمّة» إمّا على تقدير الفعل و تقديره لايستوي اُمّة هادية و اُمّة ضالّة أو على الابتداء .

والمعنى ليس سواء اُمّة قائمة بأمر الله وطاعته [يتلون آيات الله] و يقرؤون كتاب الله وهو القرآن [آناء الليل] أي ساعاته «والآنا» مفرده أنا زنة . «عصا» وقال : واويّة مفرده «انو» قيل : المراد من التلاوة الصلاة جوف الليل . وقيل : الصلاة بين المغرب والعشاء و هي الساعة الّتي تسمّى ساعة الغفلة [وهم يسجدون] الجملة حاليّة من فاعل «يتلون» أي يصلّون إذ لا تلاوة في السجود . و تخصيص السجود بالذكر لكونه أدلّ على كمال الخضوع .

[يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات] يؤمنون على الوجه الّذي نطق به الشرع ، وفي الآية تعريض بأنّ إيمان اليهود به مع قوله : «عزير ابن الله» و كفرهم بمحمّد بخلاف الإيمان «و يأمرون بالمعروف» تعريض بأنّهم يأمرون بصدّ الناس عن سبيل الله فإنّه نهي عن المعروف و أمر بالمنكر و كذا كانوا يفعلون .

[ويسارعون] ويبادرون إلى الطاعات خوف الفوات بالموت غير متثاقلين منها لعلمهم بحسن عاقبتها بخلافهم فإنّ تلك الاُمّة المذمومة منهم يتباطئون في الخيرات و يتبادرون

(١) المائدة : ٧١ .

إلى الشرّ [وأُولئك] المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة [من الصالحين] من جملة من صلحت أحوالهم .

وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين (١١٥) .

وقرىء «تفعلوا» بالخطاب وجه القراءة «بالياء» كنايةُ عمّن تقدّم ذكره من أهل الكتاب ليكون الكلام على طريقة واحدة ووجه «الخطاب» أنّه خلطهم بغيرهم من المكلّفين ويكون خطاباً للجميع في أنّ حكمهم واحدٌ . «وما تفعلوا» مجزومٌ بالشرط أي وما تفعلوا من خير كائناً ماكان فلن يضيّع ولاينقص ثوابه ، وسمّي النقص ومنع الثواب «كفراناً» مع أنّه لايضاف الكفران إلى الله إذ ليس لأحد عليه تعالى نعمةٌ حتّى يكفرها نظراً إلى أنّه تعالى سمّى إيصال الجزاء والثواب «شكراً» حيث قال : «فإنّ الله شاكرٌ عليم[1]» فلمّا جعل الشكران مجازاً عن توفية الثواب جعل الكفران مجازاً عن منعه . وتعديته إلى مفعولين قاما مقام الفاعل .

[والله عليم بالمتّقين] فيجازيهم وإنّما خصّ «المتّقين» بالذكر وإن كان عليماً بالكلّ لأنّ الكلام اقتضى ذكر جزاء المتّقين .

ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم و لا أولادهم من الله شيئاً و اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون(١١٦) .

[إنّ الّذين كفروا] بما يجب أن يؤمن به [لن] تدفع عنهم [أموالهم ولا أولادهم] من عذاب‌الله [شيئاً] من الإغناء ردٌّ للكفّار حيث قالوا : «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين»[2] وكانوا يعيّرون رسول‌الله وأصحابه بالفقر ويقولون : لو كان محمّدٌ ﷺ على الحقّ ما تركه ربّه في الفقر والشدّة . و لمّا كان‌الإنسان يدفع عن نفسه تارةً بفداء المال وتارةً بالانتصار من أهله و ولده فذكرهما [و أُولئك] مصاحبو النار على الدوام و مؤبّدون فيها .

مثل ما ينفقون فى هذه الحيوة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث

---

(١) البقرة : ١٥٨ .

(٢) سباء : ٣٥ .

قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون (١١٧).

بيان لكيفيّة عدم إغناء إنفاق الكفرة أموالهم قربة أو رياءً أو مفاخرةً أو خوفاً كالمنافقين بأيّ قسم كان.

والمراد تشبيه ما أنفقوا في عدم نفعه بحرث أصابته ريح شديدة البرد مهلكة للزرع أي كما أنّ الزرع تهلكه تلك الريح الباردة كذلك الكفر يذهب فائدة الإنفاق «والصرّ» البرد الشديد وإنّه في الأصل مصدرٌ لكن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصرصر [فأهلكته] عقوبةً لهم ولا تدع منه أثراً لأنّ الكفر مانع من الانتفاع حيث لايقبل الله منهم أبداً فلا يبقى لهم في الآخرة إلّا الحزن والأسف وهذا هو التشبيه المركّب الحاصل من الجملتين.

[وما ظلمهم الله] في ضياع ما أنفقوا من الأموال [ولكن أنفسهم يظلمون] لما أنّهم أضاعوها فيما لاينبغي كما أنفق أبو سفيان في عداوة النبيّ، أو أضاعوها وأنفقوها لا على أمر ينبغي لأنّ إنفاقهم منتزعٌ عن القربة لأنّ القربة لايحصل مع الكفر وتقديم المفعول لرعاية الفواصل.

قال رسول الله ﷺ: لاتزول قدم عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه وعن جسده فيمَ أبلاه وعن علمه ما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه. قال النبيّ ﷺ: يا عائشة إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب وإيّاك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلقي ثوباً حتّى ترقعيه. وقال ﷺ اللهمّ من أحبّني فارزقه العفاف والكفاف ومن أبغضني فأكثر ماله وولده ثمّ قرأ ﷺ: «ألهاكم التكاثر حتّى زرتم المقابر» (١)

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا الايات ان كنتم تعقلون (١١٨).

لمّا شرح سبحانه أحوال المؤمنين والكافرين حذّر المؤمنين في هذه الآية عن مخالطة

---

(١) التكاثر : ١ .

الكافرين ؛ وذلك لأنّ المسلمين كانوا يشاورون اليهود في اُمورهم ويؤانسونهم لماكان بينهم اختلاط ورضاع وحلف ظنّاً منهم أنّهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في المعاش فنهاهم الله .

وقيل : المراد المنافقون وذلك لأنّ المؤمنين يظنّون من أقوال المنافقين أنّهم صادقون في أقوالهم ، ويدلّ على هذا المعنى ما بعد هذه الآية وهو قوله : «وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ» وهذه صفة المنافقين .

و قيل : المراد به أصناف الكفّار جميعاً و الدليل عليه قوله : [بطانة من دونكم] وقوله تعالى : «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء» (١) أي لاتصاحبوا من دون المسلمين صاحباً ، وبطانة الرجل صاحب وليجته و من يعرف أسراره ثقةً به ، شبّه سبحانه ببطانته الّتي يلي بطنه .

[لايألونكم خبالاً] يقال : ألا في الأمر إذا قصر فيه فمعنى لاآلوك نصحاً أي لاأمنعك نصحاً ولا أقصر في نصيحتك والمراد أنّهم لايقصرون لكم في الإيذاء والفساد والمكر والخديعة والشرّ «والخبال» الفساد والنقص ، ورجل مخبول أي ناقص العقل .

[ودّوا ما عنتّم] «ما» مصدريّة أي تمنّوا عنتكم وشدّة ضرركم في دينكم ودنياكم والفرق بين الجملة الاُولى والجملة الثانية مع أنّ معناهما واحدٌ بيان أنّه إذا عجزوا عن إيذائكم فحبّ ذلك وتمنّيه غير زائل من قلوبهم .

[قد بدت البغضاء من أفواههم] البغضاء شدّة البغض كالضرّ بالنسبة إلى الضرّاء أي قد ظهرت علامة العداوة في كلامهم الخارج من أفواهم لما أنّهم لا يتمالكون مع ضبط أنفسهم أن ينفلت بعض الأحيان من ألسنتهم مايعلم منه بُغضكم ، والأفواه جمع الفم والفم أصله «فوه» مثل طوق وأطواق وسوط وأسواط ثمّ حذفت الهاء تخفيفاً واُقيم الميم مقام الواو لأنّهما شفويّان .

[وما تخفي صدورهم أكبر] ممّا بدا لأنّ ما يظهر على لسانهم أقلّ ممّا في قلوبهم من النفرة والحقد [قد بيّنّا لكم الآيات] الدالّة على صلاحكم من موالاة المؤمنين ومعاداة

(١) الممتحنة : ١ .

الكافرين والمنافقين [إن كنتم تعقلون] ما بيّنّا لكم فتعملون به .

قوله تعالى : ها انتم اولاء تحبونهم و لا يحبونكم و تؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور(١١٩) .

قال الأزهريّ : يحتمل أن يكون «أُولاء» منادى كأنّه قال : «يا أُولاء» وقال غيره : «ها» للتنبيه و«أنتم» مبتدأ و «أُولاء» خبره و «تحبّونهم» حال . وقال الزجّاج : جائزٌ أن يكون « أُولاء » في معنى الّذين فالمعنى : الّذين تحبّونهم ولا يحبّونكم . قال أبو السعود في تفسير المعنى: تنبّهوا أنتم أُولاء المخطئون في موالاتهم ؛ فيكون جملة من مبتدء وخبر صدّرت بحرف التنبيه و «تحبّونهم ولا يحبّونكم» بيان لخطيئتهم وهو خبر ثان «لأنتم» وتحبّونهم بسبب ما بينكم من الحلف والرضاعة و لا يحبّونكم بسبب إيمانكم و عدم بقائكم على الكُفر .

[وتؤمنون بالكتاب كلّه] أي بجنس الكتاب جميعاً والمعنى : لا يحبّونكم والحال أنّكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبّونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ وفيه توبيخ بأنّهم في باطلهم أصلب منكم في حقّكم .

[وإذا لقوكم قالوا آمنّا] نفاقاً وخدعةً [وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ] حيث لم يجدوا إلى التشفّي سبيلاً [قل موتوا بغيظكم] دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوّة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا، والمراد الطعن والطرد لا على وجه الإيجاب وإلّا لماتوا من ساعتهم ودعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنّون من ضعف الإسلام ، وليس المراد الأمر بالإقامة على الغيظ حتّى يكون أمراً بالكفر .

[إنّ الله عليم بذات الصدور] و «ذات» كلمةٌ وضعت لنسبة المؤنّث كما أنّ «ذو» كلمةٌ وضعت لنسبة المذكّر والمراد «بذات الصدور» الخواطر القائمة بالقلب والدواعي .

ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا و تتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط (١٢٠) .

أي إن تصبكم أيّها المؤمنون [حسنة] بظهوركم على عدوّ لكم وغنيمةٌ تنالونها و

تتابع الناس في الدخول في دينكم وخصب معاشكم تحزنهم حسداً إلى مانلتم [وإن تصبكم سيّئة] بإخفاق سريّة لكم أواختلاف يقع بينكم أوجدب ونكبة [يفرحوا بها] يشمتون و يفرحون من وقوع المصيبة بكم .

[وإن تصبروا] على عداوتهم وعلى مشاقّ التكليف [وتتّقوا] ما حرّم الله و نهاكم عنه [لا يضرّكم كيدهم] ومكرهم و«الكيد» حيلة لطيفة [شيئاً] من الضرر بحفظه الموعود للصابرين .

[إنّ الله بما يعملون] في عداوتكم من الكيد [محيط] عليم فيعاقبهم على ذلك .

و في قوله تعالى : « لا تتّخذوا بطانة من دونكم » إشارةُ إلى أنّ الحامل لأسرار الرجل ينبغي أن يكون من أهل دينه ولا يفشي المرأ بسرّه إلى من لم يجرّبه في كلّ حاله :

إنّ الرجال صناديق مقفّلة ❊ وما مفاتيحها إلّا التجاريب

قال الغزاليّ : ولا تعوّل على مودّة غير أهل دينك بل وعلى من لم تختبره حقّ الخبرة بأن تصحبه مدّة في دار أو موضع واحد فتجرّبه في عزله وولايته وفقره وغنائه أو تسافر معه لأنّ السفر سمّي سفراً لأنّه يكشف عن أخلاق الرجال أو تعامله في الدينار والدرهم فإن رضيته في هذه الأحوال فاتّخذه صديقاً وبطانة ، واجعله أباً لك إن كان كبيراً وابناً لك إن كان صغيراً وأخاً لك إن كان يساويك ، انتهى .

قوله : واذ غدوت من اهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم (١٢١) اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٢٢) .

اختلف العلماء في أنّ هذا اليوم أيّ يوم فالأكثرون أنّه يوم أُحد ؛ لأنّ يوم أُحد أليق بهذا الكلام لأنّ المقصود من ذكر هذه القصّة تقرير قوله : « و إن تصبروا و تتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً» ثمّ إنّ الانكسار واستيلاء العدوّ كان في يوم أُحد . وقيل : المراد يوم بدر . وقيل : الأحزاب .

[وإذ غدوت] أي اذكر لهم يا محمّد وقت خروجك أوّل النهار إلى أُحد ليذّكروا

ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنّهم إن لزموا الصبر والتقوى لا يضرّهم كيد الكفرة [من أهلك] و بيتك [تبوّىء المؤمنين] أي تنزلهم [مقاعد] مهيّأة [للقتال] والمراد الأماكن الّتي عيّنت لكلّ واحد من الصحابة لأن يقعد وينتظر فيه إلى أن يجيء العدوّ فيقوموا عند الحاجة إلى المحاربة فسمّيت الأماكن « مقاعد » لهذا الوجه .

ومجمل قصّة أُحد أنّ المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبدالله بن أُبيّ بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله و أكثر الأنصار : يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قطّ إلّا أصابنا ولادخلها علينا إلّا أصبنا منه فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم فإن أقاموا بشرّ محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وقال بعضهم : يارسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لايرون أنّا قد جبنا عنهم .

وقال ﷺ : إنّي رأيت في منامي بقراً مذبحةً حولي فأوّلتها خيراً ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأوّلته هزيمةً ورأيت كأنّي أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم .

فقال رجال مسلمون قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أُحد : اخرج بنا إلى أعدائنا ، طلباً لسعادة الشهادة وطمعاً في الحسنى والزيادة ، فلم يزالوا به ﷺ حتّى دخل ولبس لابته أي درعه فلمّا رأوا ذلك ندموا وقالوا : بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحي يأتيه وقالوا : يا رسول الله اصنع ما رأيت فقال : ما ينبغي لنبيّ أن يلبس لابته فيضعها حتّى يقاتل .

وكان قد أقام المشركون بأُحد يوم الأربعاء والخميس وخرج النبيّ ﷺ الجمعة بعد ما صلّى الجمعة وصلّى على رجل من الأنصار مات فيه فأصبح بالشعب من أُحد يوم السبت للنصف من شوّال سنة ثلاث من الهجرة فجعل ﷺ يصفّ أصحابه للقتال إن رأى صدراً خارجاً قال : تأخّر .وكان نزوله في طرف الوادي وعدوته ، وجعل ظهره و عسكره إلى

أُحد وأمّر عبدالله بن جبير على الرماة وقال لهم : ادفعوا العدوّ عنّا بالسهم حتّى لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا مكانكم وإذا ولّوكم الأدبار فلا تطلبوا المدبرين .

ثمّ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا ما وافق رأي عبد الله بن أُبيّ وكان من قدماء أهل المدينة ورؤساء المنافقين شقّ عليه ذلك وقال : أطاع الولدان وعصاني، ثمّ قال لأصحابه : إنّ محمّداً إنّما يظفر بعدوّه بكم وقد وعد أصحابه أنّ أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فانهزموا أنتم فيتبعونكم ويصير الأمر على خلاف ما قاله محمّد ، فلمّا التقى الفريقان انهزم عبدالله بالمنافقين .

وكان صلى الله عليه وآله قد خرج في ألف رجل أو تسعمائة وخمسين رجلاً فلمّا انهزم عبد الله مع ثلاثمائة بقيت سبعمائة وقوّاهم الله مع ذلك حتّى حملوا على المشركين وهزموهم .

فلمّا رأى المؤمنون انهزام المشركين طمعوا أن تكون هذه الواقعة كواقعة بدر فطلبوا المدبرين وتركوا ذلك الموضع وخالفوا أمر رسول الله ، فأراد الله أن يفطمهم عن هذا الفعل لئلاّ يقدموا على مخالفة الرسول وليعلموا أنّ ظفرهم يوم بدر ببركة طاعتهم لله ولرسوله ومتى تركهم الله مع عدوّهم لم يقوموا لهم، فتفرّق العسكر عن رسول الله كما قال تعالى : « إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أُخراكم »[1] وشجّ وجه الرسول وكسرت رباعيّته وشلّت يد طلحة ووقعت الصيحة في العسكرين : إنّ محمّداً قد قتل وكان رجل يكنّى أبا سفيان من الأنصار نادى: هذا رسول الله .

وكانت راية رسول الله بيد أمير المؤمنين وراية قريش بيد طلحه بن أبي طلحة العبديّ من بني عبد الدار فقتله أمير المؤمنين فأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله عليّ عليه السلام وسقطت الراية فأخذها مسافع بن أبي طلحة وهكذا حتّى قتل عليه السلام من حاملي الراية تسعة نفر كلّهم من بني عبد الدار إلى أن حمل لواهم عبد لهم أسود يقال له ثواب فانتهى إليه عليّ عليه السلام فقطع يده اليمنى فأخذ اللواء باليسرى فضرب يسراه وقطعها فاعتنقها بالمجذومين[2] إلى صدره ثمّ التفت العبد إلى أبي سفيان فقال : هل أعذرت في بني عبد الدار ، فضربه عليّ عليه السلام على رأسه فقتله وسقط اللواء فأخذها عمرة بنت علقمة

(١) السورة : ١٥٣ . (٢) الصحيح : الجذماوين لتأنيث اليد .

الكناني فرفعتها .

فانحط خالد بن الوليد في مائتي فارس على عبدالله بن جبير واستقبلوهم بالسهام وكان أصحاب عبدالله بن جبير خلّوا عبدالله واشتغلوا ينتهبون سواد القوم من المشركين و ذلك وقت هزيمة المشركين فخلّوا مراكزهم طمعاً المغنيمة وبقي علي عليه السلام و عبدالله بن جبير في نفر قليل وبعد ما حمل خالد وأصحابه على المسلمين و قتلوهم على باب الشعب فأتى من أدبارهم وفرّ المسلمون ونظرت قريش إلى رايتهم أنّها ارتفعت لاذوا بها(١) وانهزم أصحاب رسول الله هزيمة عظيمة و أقبلوا يفرّون إلى الجبل وفي كلّ وجه وزعموا أن رسول الله قد قتل ، ومابقي إلّا علي ونفر قليل مع رسول الله صلى الله عليه وآله نادى رسول الله إلى أين تفرّون عن الله و رسوله ؟ وكانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فإذا رأت رجلاً انهزم من قريش دفعت إليه ميلاً ومكحلة وقالت له : إنّما أنت امرأة فاكتحل بهذا .

وكان حمزة بن عبدالمطلب يحمل على القوم فإذا رأوه يحمل انهزموا ولم يثبت له أحد ، وكانت هند قد أعطت وحشياً عهداً لئن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة لأعطيتك كذا و كذا ، وكان وحشي عبداً لجبير بن مطعم حبشياً فقال وحشي : أمّا محمد فلم أقدر عليه وأمّا علي فرأيته حذراً كثير الالتفات فلا مطمع فيه قال : فكمنت حمزة فرأيته يهدّ الناس هدّاً فمرّ بي على جرف نهر فانهار فسقط فرسه وأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته فخرجت من ثنّته فسقط فأتيته فشققت بطنه وأخذت كبده وجئت بها إلى هند فقلت : هذه كبد حمزة ، فأخذتها في فمها فلاكتها فجعله الله في فمها مثل الداعضة وهي عظم رأس الركبة فلفظتها . قال رسول الله : فبعث الله ملكاً فحمله وردّه إلى موضعه . قال : فجاءت إلى مذاكيره وقطعت يده ورجله .

ولم يبق مع رسول الله إلّا أبو دجانة وسماك بن خرشة وعلي عليه السلام فكلّما حملت طائفة على رسول الله استقبلهم علي عليه السلام فدفعهم عنه حتّى تقطّع سيفه فدفع إليه رسول الله سيفه ذا الفقار و انحاز(٢) النبيّ صلى الله عليه وآله إلى ناحية أُحد فوقف و كان القتال من وجه واحد

---

(١) اى التجؤوا .

(٢) اى بعد ونحى .

فلم يزل عليٌّ يقاتل حتّى أصابه في وجهه وبدنه وبطنه ورجليه سبعون جراحة كذا أورده عليّ بن إبراهيم في تفسيره .

فقال جبرئيل : إنّ هذه هي المواساة يا محمّد فقال النبيّ : إنّه منّي وأنا منه ، فقال جبرئيل : و أنا منكما . قال أبوعبدالله : نظر رسول‌الله إلى جبرئيل بين السماء والأرض على كرسيّ من ذهب وهو يقول : لاسيف إلّا ذوالفقار ولافتى إلّا عليّ .

قال الواقديّ وابن جرير وجماعة : إنّ المشركين مثّلوا بجماعة من المسلمين وكان حمزة أعظم مثلةً ، انتهى .

أقول : ولعلّ الحكمة في انكسار المسلمين عدم ثباتهم المحلّ الّذي ألزمهم النبيّ صلى الله عليه وآله وأمرهم أن لايفارقوا العقبة ولجهة أُخرى اقتضت المصلحة وهي أنّه لو كانت الغلبة كلّ مرّة للمؤمنين لصار الإيمان ضروريّاً وهو مناف مع التكليف .

قوله : [والله سميع عليم] لمّا شاور النبيّ أصحابه في ذلك الحرب وقال بعضهم : أقم المدينة وقال آخرون : اخرج إليهم ، وكان لكلّ أحد غرضٌ في قوله : فمن موافق ومن منافق قال سبحانه : « إنّ الله سميع » لما يقولون «عليم» بما يرون .

قوله : [إذ همّت طائفتان] أي فرقتان [منكم] أي من المسلمين وهما بنوسلمة وبنو حارثة حيّان من الأنصار من الأوس بنوسلمة ومن الخزرج بنوحارثة [أن تفشلا] **أي** تضعفا وترجعا لظنّهم الثواب فيه والظاهر أنّ قصدهما ماكان على حسب العزم والتصميم وإنّما هو خطرات وحديث نفس يحدث للإنسان عند الشدائد ثمّ يردّها صاحبها إلى الثبات [والله وليّهما] وعاصمهما من اتّباع تلك الخطرات والجملة اعتراضٌ [وعلى الله] وحده دون غيره [فليتوكّل المؤمنون] في أُمورهم فإنّه حسبهم .

قال علماء الأخلاق : من وقع في ميدان التوكّل يزفّ إليه المراد كما تزفّ العروس إلى أهلها .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين .(١)

قال أبوحمزة الخرسانيّ : حججت سنةً من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت

(١) الظاهر انه حديث قدسي قاله النبي صم عن الله تعالى .

في بئر فنازعتني نفسي أن استغيث فقلت : لا والله لا أستغيث ، فإذاً مرّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر : تعال حتّى نسدّ رأس هذه البئر لئلّا يقع فيها أحد، فأتوا بقصب وطمسوا البئر فهممت أن أصيح ثمّ قلت : أشكو إلى من هو أقرب منهما فسكتّ فبينما أنا كذلك إذا أنا بشيء جاء و كشف عن رأس البئر و أدخل رجله و كأنّه اُلهمت أن تعلّق بها فتعلّقت فأخرجني فإذاً هو سبعٌ ومرّ وهتف هاتف : يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجّيناك من التلف بالتلف ؟

[ولقد نصر كم الله ببدر وأنتم أذلّة] « بدر » بئر ماء بين مكّة والمدينة حفرها رجلٌ اسمه بدر فسمّيت به وكانت وقعة بدر في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة .

وإنّما قال : « أذلّة » ولم يقل : « ذلائل » بجمع الكثرة للإشعار على أنّهم على ذلّتهم كانوا قليلاً وذلّتهم بسبب قلّة السلاح وماكان بهم من قلّة المال والمركوب ، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلّا فرسٌ واحد للمقداد بن الأسود وتسعون بعيراً وستّ أدرع وثمانية سيوف وهم كانوا ثلاثمائة وثلاث عشر رجلاً ستّة وسبعون من المهاجرين و بقيّتهم من الأنصار وكان عدوّهم زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكّة والشوكة .

وكان صاحب راية رسول الله عليّ بن أبي طالب و صاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وقيل : سعد بن معاذ .

في تفسير العيّاشيّ قال الصادق : ليس هكذا نزلت إنّما نزلت، وأنتم قليل، وما أذلّ الله رسوله قطّ .

[فاتّقوا الله] في الثبات مع رسوله كما اتّقيتم يومئذ [لعلّكم تشكرون] لتقوموا بشكر نعمته .

اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين (١٢٤) .

« إذ » ظرف « لنصر كم » وقت قولك [للمؤمنين] حين أظهروا العجز عن المقاتلة [ألن يكفيكم] « الكفاية » سدّ الخلّة والقيام بالأمر، و« الإمداد » إعانة الجيش بالجيش.

وكانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقوّة العدوّ.

[منزلين] أنزلهم الله من السماء إلى الأرض لنصرتكم، قال ابن عبّاس وجماعة . إنّ الإمداد بالملائكة يوم بدر ، ولم تقاتل الملائكة إلّا يوم بدر وكان الإمداد من الملائكة غير بدر ، بل كانت في غيره عدّةً ومدداً . قيل : أمدّهم الله أوّلاً بألف ثمّ صاروا ثلاثة آلاف ثمّ خمسة ، وإنّما قدّم لهم الوعد أوّلاً بنزول الآية لتتقوّى قلوبهم ويعزموا على الثبات و يتقوّوا بنصر الله .

[بلى] إيجاب لما بعد « أن » وتحقيقٌ له أي بلى يكفيكم ذلك، ثمّ وعدهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثّاً لهم عليهما فقال : [إن تصبروا] على لقاء العدوّ ومنا هضتهم [وتتّقوا] معصية الله [ويأتوكم] أي إن يجيئكم المشركون [من فورهم هذا] أي من ساعتهم هذه ورجعوا يعني المشركين إذا همّوا بكم وابتدروا إلى قتالكم، وقيل : معنى « من فورهم » من غضبهم وغليان عداوتهم [يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين] في حال إتيانهم لايتأخّر نزولهم عن إتيانهم ، يريد أنّ الله يعجّل نصرتكم إن صبرتم «التسويم» إظهار سيما الشيء أي معلّمين أنفسهم أوخيلهم في أذنابها و نواصيها بالصوف الأبيض، قال ﷺ لأصحابه : تسوّموا فإنّ الملائكة تسوّمت .

روي أنّ الملائكة كانوا بعمائم بيض إلّا جبرئيل فإنّه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوّام ونزلوا على الخيل البلق موافقةً لفرس المقداد . و إنّما قال ذلك لأنّ الكفّار في غزوة اُحد قدموا بعد انصرافهم وهمّوا بالرجوع فأوحى الله إلى نبيّه أن يأمر أصحابه بالتهيّؤ والرجوع إليهم وقال لهم : « إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرح مثله »(١) فيكون المعنى : إن صبرتم على الجهاد وراجعتم الكفّار أمدّكم الله بخمسة آلاف من الملائكة. وخرجوا يتبعون الكفّار على ماكان بهم من الجراح فأخبر المشركين من مرّ برسول الله أنّه خرج يتبعكم فخاف المشركون إن رجعوا أن تكون الغلبة للمسلمين وأن يكون قد التحق إليهم من كان تأخّر عنهم فدسّوا نعيم بن مسعود الأشجعيّ حتّى يصدّهم بتعظيم أمر قريش وأسرعوا في الذهاب إلى مكّة فكفى الله المسلمين أمرهم .

قال الباقر عليه السلام : إنّ الملائكة الّذين نصروا يوم بدر ماصعدوا بعد ولا يصعدون حتّى

ينصروا القائم وههنا يقتضي مزيد بيان :

قال الرازيّ : قد اختلف المفسّرون في أنّ هذا الوعد حصل يوم بدر أو يوم أُحد ويتفرّع على هذين القولين اختلاف العامل في « إذ » فإن كان الوعد حصل يوم بدر كان العامل في « إذ » قوله تعالى : « نصر كم الله » وتقدير الآية حينئذ . إذ نصر كم الله ببدر وأنتم أذلّة يقول للمؤمنين ألن يكفيكم ، الآية . وإن كان الوعد حصل يوم أُحد كان ذاك بدلاً من قوله : « وإذ غدوت » .

وحجّة القائلين بأنّ الوعد حصل يوم أُحد قالوا : إنّ يوم بدر إنّما أمدّ رسول الله بألف من الملائكة قال تعالى : في سورة الأنفال « إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألف من الملائكة [1]» فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف وخمسة آلاف بيوم بدر ؟

وأيضاً إنّه تعالى قال في هذه الآية : و يأتوكم أعداؤكم من فورهم ، ويوم أُحد هو اليوم الّذي كان يأتيهم الأعداء فأمّا يوم بدر فالأعداء ما أتوهم بل هم ذهبوا إلى الأعداء .

فإن قيل : لو جرى قوله تعالى : « ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة » في يوم أُحد والحال أنّه ما حصل الأمداد والنصر لزم الكذب .

فالجواب أنّ إنزال الملائكة كان مشروطاً بشرط أن يصبروا ولم يتعرّضوا في المغانم حسب ما أمرهم النبيّ أن لا يفارقوا الثنيّة وهم خالفوا أمر الرسول فلمّا خالفوا الشرط لا جرم فات المشروط ، وإنّما وعد الرسول بذلك للمؤمنين الّذين بوّأهم رسول الله مقاعد للقتال بشرط أن يثبتوا في تلك المقاعد وهم أهملوا القعود والثبات طمعاً في الغنيمة لمّا أحسّوا النصر ففاتهم المشروط .

ولو سلّمنا أنّ الملائكة نزلت كما أنّه روي أنّ رسول الله ﷺ أعطى اللواء مصعب ابن عمير فقتل مصعب فأخذه ملكٌ في صورة مصعب فقال رسول الله : تقدّم يا مصعب، فقال الملك: لست بمصعب فعرف الرسول أنّه الملك ، فنقول : إنّ الملائكة لم يقاتلوا ، انتهى .

وأمّا حجّة القائلين أنّ هذا الوعد كان يوم بدر أنّ ظاهر قوله : « ولقد نصر كم

---

(١) الانفال : ٩ .

الله ببدر وأنتم أذلّة فاتّقوا الله لعلّكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين» يقتضي أنّ الله نصرهم ببدر وقد وقع النصر ببدر و قلّة العدد كانت يوم بدر أكثر و كان الاحتياج إلى تقوية القلب في ذلك اليوم أكثر .

وليس لأحد أن يقول : إنّهم نزلوا لكنّهم ما قاتلوا لأنّ الوعد كان بالإمداد و بمجرّد الإنزال لايحصل الإمداد بل لابدّ من الإعانة والإعانة حصلت يوم بدر ولم يحصل يوم اُحد النهاية أنّ الجواب عن القول : بأنّ واقعة بدر كان عدد الملائكة مذكوراً في الآية بتعيين الألف هو أنّه تعالى أمدّ أصحاب الرسول بألف ثمّ زاد ألفين فيهم فصاروا ثلاثة آلاف ثمّ زادوا ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف فكأنّه قال ﷺ لهم : « ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بألف من الملائكة» فقالوا : بلى ، ثمّ قال : « ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف» فقالوا : بلى ، ثمّ قال لهم: «إن تصبروا وتتّقوا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف» وهذا الكلام كما قال ﷺ لأصحابه : أيسرّكم أن تكونوا ربع أهل الجنّة قالوا : نعم،قال : أيسرّكم أن تكونوا ثلث أهل الجنّة،قالوا : نعم ، قال : فإنّي أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنّة .

وقال بعض أهل التفسير : إنّ الله تعالى أمدّ أهل البدر بألف من الملائكة فقيل : إنّ كرز بن جابر المحاربيّ يريد أن يمدّ المشركين فشقّ ذلك على المسلمين فقال النبيّ : «ألن يكفيكم» يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله يمدّكم أيضاً بثلاثة آلاف و خمسة آلاف ، ثم إنّ المشركين ما جاءهم المدد فكذا ههنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين .

قال الرازيّ : إنّ أبا بكر الأصمّ أنكر بعض هذه المعاني أشدّ الإنكار و احتجّ عليه بوجوه :

منها أنّ الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما أنّ جبرئيل أدخل تحت المدائن الأربع أو الخمس لقوم لوط وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة و رفعها إلى السماء

وقلّب عاليها سافلها فإذا حضر هو يوم بدر فأيّ حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفّار ثمّ بتقدير حضوره فأيّ فائدة في إرسال سائر الملائكة ؟

وأيضاً قال : إنّ أكابر الكفّار كانوا مشهورين و كلّ أحد منهم مقابله من الصحابة معلوم وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة .

وأيضاً قال : إنّ الملائكة لو قاتلوا لكانوا إمّا أن يصيروا بحيث أن يراهم الناس أو لايراهم فإن رآهم الناس فإمّا أن يقال : إنّهم رأوهم في صورة الناس أو في غير صورة الناس ؛ فإن كان الأوّل فعلى هذا التقدير صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف أو أكثر ولم يقل أحدٌ بذلك ، و إن شاهدوهم في صورة غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ؛ فإنّ من شاهد الجنّ لاشك انّه يشتدّ فزعه ، وقال : إنّه على تقدير أنّ الملائكة إذا حاربوا وجزّوا الرؤوس ومزّقوا البطون وأسقطوا الكفّار عن الأفراس فحينئذ الناس كانوا يشاهدون حصول هذه الأفعال مع أنّهم ما كانوا شاهدوا أحداً من الفاعلين ومثل هذا من أعظم المعجزات ولو كانت الملائكة أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكلّ وإن كانوا أجساماً لطيفة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة و قوّة و كيف يكونوا راكبين على الخيول ؟

انتهى كلام أبي بكر الأصمّ في هذه الشبهات الركيكة لأنّها تليق بمن ينكر القرآن والنبوّة فأمّا من يقرّ بالقرآن والنبوّة فلاتليق به أن يتفوّه بمثل هذه الخرافات ونصّ القرآن ناطقٌ بها وغير قابل للتأويل ؛ لأنّ التأويل جاز في كلام لا يجوز حمله على ظاهره وأنّه لو حمل على ظاهره لكان مخالفاً للاصول أو الفروع المتّفق ، فأمّا مثل هذه الآية المحكمة ناطقة بهذا الأمر وشبهاته إذا قوبلت بقدرة الله زالت و طاحت بالكلّيّة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . واستدلاله بقوّة جبرئيل ليس مناف كون اُلوف من الملائكة مع جبرئيل من القوّة بل لعلّ يكون لأجل إجلال النبيّ في تلك الواقعة . و كذلك سائر استدلالاته بالنسبة إلى قضاء الله وأمره أوهن من نسج العنكبوت ، انتهى .

قوله تعالى : وماجعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم(١٢٦) .

الضمير في «جعله» راجع إلى المصدر . والمعنى : ما جعل الله المدد والإمداد إلّا بشارة لكم بأنّكم تنصرون ودلّ يمدد كم على الإمداد «والبشرى» إسم من الإبشار [ولتطمئنّ قلوبكم به] أي بالإمداد و تسكن إليه نفوسكم من الخوف كما كانت السكينة لبني إسرائيل .

[وما النصر إلّا من عندالله] كائن لامن العدّة والعدّة والعدد ، وهو تنبيه على أنّه لا حاجة في نصرتهم إلى مدد وإنّما أمدّهم ربطاً على قلوبهم وتطييباً لنفوسهم من حيث إنّ نظر العامّة إلى الأسباب أكثر [العزيز] الغالب في أمره [الحكيم] الّذي يفعل حسبما يقتضي الحكمة .

قوله تعالى : ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين(١٢٧) .

وجه اتّصال الآية بما قبلها أي أعطاكم الله هذا النصر [ليقطع] جمعاً [من الّذين كفروا] بالأسر والقتل أو متّصل بقوله : «ولقد نصركم الله ببدر ليقطع» ويهلك طائفة وجماعة منهم ولقد انقطع يوم بدر صناديدهم وقادتهم إلى الكفر فقتل من رؤسائهم سبعون و اُسر سبعون . وقيل : هو يوم اُحد [أو يكبتهم] أي يخزيهم ، وقيل : أي يصرعهم الله على وجوههم . والمراد حصول الإخزاء واللعن و«أو» في الآية للتنويع [فينقلبوا خائبين] لم ينالوا ممّا أملوا عرفاً بشيء من مبتغاهم .

وقيل : إنّ معنى الآية : لتطمئنّ قلوبكم به وليقطع طائفة وجمعاً من الكفّار . وإنّما ذكر بغير حرف العطف لأنّ العطف إذا كان البعض قريباً من البعض جاز حذف حرف العطف كما يقول السيّد لعبده : أكرمتك لتخدمني لتقوم بحقّي لتعينني ، فكذا ههنا .

قوله تعالى : ليس لك من الامر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون (١٢٨) .

واختلف في سبب النزول . و اختلف أيضاً في القراءة بالتاء و الياء في « يتوب » و « يعذّب » .

العيّاشيّ عن الباقر عليه السلام أنّه قرأ « أن تتوب عليهم أو تعذّبهم » بالتاء فيهما .

وعنه عليه السلام قرىء عنده : «ليس لك من الأمر شيء» قال : بلى والله إنّ لمن الأمر شيئاً وشيئاً وشيئاً وليس حيث ذهبت ولكنّي اُخبرك أنّ الله لمّا أخبر نبيّه أن يظهر ولاية عليّ عليه السلام ففكّر صلى الله عليه وآله في عداوة قومه له فيما فضّله الله به عليهم ضاق عن ذلك فأخبر الله أنّه «ليس لك من هذا الأمر شيءٌ» إنّما الأمر فيه إلى الله أن يصيّر عليّاً وصيّه وولي الأمر من بعده فهذا على الله .

وقال أبو مسلم : قوله : «ليس لك من الأمر» متّصل بقوله : «وما النصر إلّا من عند الله» فيكون معناه : نصركم الله ليقطع طرفاً منهم أو يكبتهم و ليس لك ولا لغيرك من هذا النصر شيء .

وقيل في معنى الآية : إنّ قوله : «ليس لك من الأمر» اعتراضٌ واقع بين قوله : «ليقطع طرفاً من الّذين كفروا ، الآية» وقوله : «أو يتوب عليهم» والتقدير : ليقطع طرفاً منهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذّبهم أي ليس لك من هذه الأربعة شيءٌ .

وأمّا اختلاف النزول قال جماعةٌ منهم ابن عبّاس وأنس بن مالك والحسن : إنّه لمّا كان من المشركين يوم اُحد ما كان من كسر رباعيّته وشجّه حتّى جرت الدماء على وجهه قال : كيف يفلح قوم نالوا هذا من نبيّهم وهو صلى الله عليه وآله حريصٌ على فلاحهم وهدايتهم ؟ فأعلم الله أنّه ليس إليه فلاحهم وأنّه ليس إليه إلّا التبليغ وإنّما ذلك إلى الله وكان الّذي كسر رباعيّته وشجّه في رأسه عتبة بن أبي وقّاص وأدمى وجهه الشريف رجلٌ من هذيل يقال له عبدالله بن قينة وهو صلى الله عليه وآله كان يمسح الدم عن وجهه و يقول : اللّهمّ اهد قومي فإنّهم لا يعلمون .

وقيل في معنى الآية : إنّه صلى الله عليه وآله استأذن ربّه أن يدعو عليهم يوم اُحد فنزلت هذه الآية فلم يدع وإنّما لم يؤذن له فيه لما كان في المعلوم من توبة بعض عن ، الجبّائيّ .

وقيل : أراد رسول الله أن يدعو على المنهزمين يوم اُحد فنزلت الآية : «ليس لك من الأمر» عن ابن مسعود .

وقيل : لمّا رأى النبيّ صلى الله عليه وآله ما فعل بعمّه حمزة وبأصحابه من المثلة من جدع الاُنوف قال : لئن أدالنا الله منهم لنفعلنّ بهم مثل ما فعلوا بنا ولنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من

العرب بأحد قط"؛ فنزلت الآية عن الشعبي" ومحمد بن إسحاق .

وقيل : نزلت الآية في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من قرّاء أصحاب الرسول وأميرهم المنذر بن عمرو بعثهم رسول الله ﷺ إلى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من وقعة اُحد ليعلّموا الناس القرآن فقتلهم جميعاً عامر بن الطفيل فحزن رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً ، فنزلت الآية .

قال الطبرسي" : والأصح" أنّها نزلت في اُحد ويقتضيه سياق الكلام وإنّما قال : «ليس لك من الأمر» مع أنّه ﷺ يدعوهم إلى الله ، المراد : أن" أمر عقابهم أو الدعاء عليهم و لعنهم ليس لك لأنّه يقع إنابة بعضهم .

قال الرازي" : لو قيل : إن" ظاهر هذه الآية تدل على أن" النبي" فعل فعلاً وكانت هذه الآية كالمنع منه والأمر الممنوع منه إن كان حسناً فلمَ منعه الله وإن كان قبيحاً فكيف يليق بالنبي"؟ فالجواب أن" المنع من الفعل لا يدل" على أن" الممنوع منه كان مشتغلاً به،فإنّه تعالى قال : « لئن أشركت ليحبطن" عملك [1] » وأنّه ما أشرك قط" وقوله « يا أيّها النبي" اتّق الله [2] » لا يدل" على أنّه ما كان يتّقي الله وقوله : « ولا تطع الكافرين [3] » وهو ما أطاعهم بل الفائدة من هذا المنع ذهاب غمّه الشديد والغضب العظيم في مثلة حمزة والمسلمين غيرةً على دين الله وتقويةً لتصبّره ﷺ وإكمالاً لدرجة العبوديّة .

قوله : [أو يتوب عليهم] عطف على قوله : « أو يكبتهم » أي إن الله مالك أمرهم فإمّا أن يهلكهم أو يخزيهم أو يقبل توبتهم إن أسلموا [أو يعذّبهم] إن أصر"وا [فإنّهم ظالمون] بكفرهم وظلمهم .

ولله ما في السموات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم (١٢٩) .

لمّا قال سبحانه « ليس لك من الأمر » في الآية السابقة عقّب في هذه الآية بأن" الأمر له . وذكر لفظ « ما » لأن" « ما » أعم" ممّن يعقل وما لا يعقل ، له ملكاً وخلقاً [يغفر

(١) الزمر : ٦٥ .

(٢-٣) الاحزاب : ١ .

لمن يشاء] أن يغفر له ومشيئته مبنيّة على الحكم والمصالح [ويعذّب من يشاء] أن يعذّبه ، وقدّم المغفرة لسبق رحمته غضبه ولم يبيّن من يغفر له ومن يشاء تعذيبه ليكون المكلّف بين الخوف والرجاء فلا يأمن من عذابه ولا ييأس من روحه .

وسأل بعضهم كيف يعذّب الله عباده بالأجرام مع سعة رحمته ؟ فقال : رحمته لا تغلب حكمته ولا يكون رحمته برقّة القلب كما يكون الرحمة منّا . قال ابن عبّاس : معنى الآية : يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ممّن لم يتب . و أوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين ، قال : يارب فكيف أُبشّر المذنبين وأُنذر الصدّيقين ؟ قال : بشّر المذنبين بأنّي لا يتعاظمني ذنب إلّا أغفره ، وأنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم وأنّي لا أضع عدلي وحسابي على أحد إلّا أهلكه . فالإنسان وإن كثرت عبادته لابدّ أن يطلب بقلبه و لسانه أن تدركه رحمته .

قال بعض علماء الأخلاق : دواء القلب خمسةٌ : تلاوة القرآن مع التدبّر وخلاء البطن وقيام الليل والتضرّع إلى الله عند السحر ومجالسة الصالحين .

يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٣٠) .

لمّا ذكر أنّ له التعذيب لمن يشاء والمغفرة لمن يشاء وصل ذلك بالنهي عمّا لو فعلوا لاستحقّوا عليه العذاب وهو الربى فقال : [يا أيّها الّذين] صدّقوا الله ورسوله [لا تأكلوا الربى] ذكر الأكل لأنّه معظم الانتفاع وإن كان غيره من التصرّفات أيضاً منهيّاً عنه و « الربا » الزيادة على أصل المال بالتأخير عن الأجل الحال . وقيل : هو ربى الجاهليّة .

[أضعافاً مضاعفةً] زيادات مكرّرة كان الرجل في الجاهليّة إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ولم يكن المديون واجداً لذلك المال قال : زدني في المال حتّى أزيدك في الأجل ، فربّما جعله مائتين ثمّ إذا حلّ الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثمّ إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها و « أضعافاً » جمع ضعف حالٌ من « الربى » أي متضاعفاً ولمّا كان جمع قلّة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدلّ على الكثرة حيث وصفه بقوله : « مضاعفةً »

وهي اسم مفعول لامصدر. وهذه الحال ليس لتقييد النهي بها حتّى تنتفي الحرمة عند انتفائها بل بيان ماكانوا عليه من العادة توبيخاً لهم على ذلك .

[واتّقوا الله] فيما نهيتم عنه [لعلّكم تفلحون] لكي تنجوا بإدراك ما تأملونه من ثواب الجنّة ، وإنّما أعاد تحريم الربا مع ماسبق من ذكره في سورة البقرة لأمرين : أحدهما التصريح بالنهي عنه بعد الإخبار بتحريمه لشدّة التحذير منه ولتأكيد النهي عن هذا الضرب منه الّذي يجري على الأضعاف .

واتقوا النار التى اعدت للكافرين (١٣١) .

واتّقوا بالتحرّز عن تعاطي مايتعاطونه . وفي الآية تنبيه على أنّ النار بالذات معدّة للكفّار وبالعرض للعصاة . قيل : هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتّقوه في أصناف محارمه .

وأطيعوا الله في كلّ ما أمركم به ونهاكم عنه **والرسول** الّذي يبلّغكم **لعلكم ترحمون (١٣٢)** أي لكي ترحموا وفي هذا البيان نهاية التهديد على الربى حيث أتى بلعلّ في فلاح من اجتنبه لأنّ تعليق إمكان الفلاح ورجائه بالاجتناب منه يستلزم امتناع الفلاح لهم إذا لم يجتنبوه فما أعظمها من مصيبة توجب عقاب الكفّار للمؤمنين ! و كيف درج التغليظ في التهديد حتّى ألحقه بالكفّار في الجزاء والعقاب ؟

قال رسول الله : لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه والمحلّل . وروي عن عبدالله ابن سلام للربى اثنان و سبعون حوباً أصغرها كمن أتى أُمّه في إسلام ، كذا في تنبيه الغافلين . قال صاحب روح البيان : وآخذ الربا لايقبل الله منه صدقةً ولاجهاداً ولاحجّاً ولاصلاةً .

وسارعو الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين(١٣٣) .

لمّا حذّر الله عن الأفعال الموجبة للعقاب عقّبه بالحثّ على الأفعال الموجبة للثواب أي بادروا [إلى مغفرة من ربّكم] باجتناب المعصية و إلى الأعمال الّتي توجب المغفرة .

و اختلف في ذلك فقيل : سارعوا إلى الإسلام ، عن ابن عبّاس . وقيل : إلى أداء الفرائض ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام . وقيل : إلى الهجرة. وقيل : إلى التكبيرة الأُولى عن أنس بن مالك. وقيل : إلى الصلاة الخمس. وقيل : إلى الجهاد، عن الضحّاك. وقيل : إلى التوبة، عن عكرمة .

[و جنّة عرضها السماوات] أي وإلى جنّة عرضها كعرض السماوات السبع والأرضين السبع إذا ضمّ بعض ذلك إلى بعض، عن ابن عبّاس وجماعة. وإنّما ذكر العرض بالعظم دون الطول لأنّه يدلّ على أنّ الطول أعظم من العرض بخلاف ما إذا ذكر الطول دون العرض ، فمعنى الآية مثل قوله : « ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة [1]» أي كخلق نفس واحدة .

وقيل : المراد في الآية بيان عظم ثمنها أي لو بيعت وعرضت للبيع كثمن السماوات والأرض كما يقال : عرضت هذا المتاع للبيع والمراد بيان جلالة قدرها وثمنها .

وروي أنّه سئل النبيّ صلّى الله عليه وآله فقيل له : إذا كانت الجنّة عرضها كعرض السماوات والأرض فأين تكون النار؟ فقال صلّى الله عليه وآله : سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل ؟ أي إنّ القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء قادرٌ على أن يخلق النار حيث شاء .

وبيانه صلّى الله عليه وآله في جوابهم معارضة فيها إسقاط المسألة ؛ والجواب أنّ الجنّة فوق السماوات السبع وتحت العرش ، والنار تحت الأرضين السبع ومعنى قولهم : إنّ الجنّة في السماء أي إنّها في ناحية السماء وجهتها والسماء يحويها ولا ينكر أن يخلق الله في العلو أمثال السماوات والأرضين ، وإن صحّ الخبر أنّها في السماء الرابعة كان كما يقال : في الدار بستان لاتّصاله بها و كونه في ناحية منها أو يشرع إليها بابه وإن كان أضعاف الدار .

وقيل : إنّ الله يزيد عرضها يوم القيامة فيكون المراد من قوله : «عرضها السماوات والأرض » يوم القيامة لا في الحال على تسليم أنّها في السماء .

[أُعدّت للمتّقين] المطيعين لله ولرسوله، وإنّما أُضيفت إلى المتّقين لأنّهم المقصودون بها أصلاً وإن دخلها غيرهم من الأطفال والمجانين على وجه التبع و كذلك الفسّاق لو عفي

(١) لقمان : ٢٨ :

عنهم . وقيل : معناه لولا المتّقون لما خلقت الجنّة كما يقال : وضعت المائدة للأمير . وقوله : « أُعدّت » يدلّ على أنّ الجنّة مخلوقة اليوم لأنّها لاتكون معدّة إلّا وهي مخلوقةٌ ، وأنّها خارجةٌ عن هذا العالم ؛ أمّا الأوّل فلدلالة لفظ الماضي ، وأمّا الثاني فلأنّ مايكون عرضها السماوات والأرض لايكون في هذا العالم ولاداخلاً فيه .

الذين ينفقون في السراء والضراء و الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (١٣٤) .

[الّذين ينفقون في السرّاء والضرّاء] وصف سبحانه حال المتّقين فقال : الّذين ينفقون كلّما يصلح للإنفاق في حالة اليسر وفي حالة العسر أو في حالة الفرح والغمّ أي في الأحوال كلّها ؛ لأنّ الإنسان لا يخلو عن هاتين الحالتين [والكاظمين الغيظ] عطف على الموصول و « الكظم » الحبس أي الممسكين غضبهم الكافّين عن إمضائه مع القدرة عليه [والعافين عن الناس] التاركين عقوبة من استحقّ مؤاخذته [والله يحبّ المحسنين] وهم الّذين عمّت فواضلهم وتمّت فضائلهم ، واللام يجوز للجنس فيدخل تحته هؤلاء ، ويصلح للعهد فيكون الإشارة إليهم .

قال رسول الله : من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً وأمّا في الآخرة فهو أن يبرأ ذمّته من التبعات والمطالبات .

قال الفضيل بن عياض : الإحسان بعد الإحسان مكافأة والإساءة بعد الإساءة مجازاة والإحسان بعد الإساءة كرمٌ وجودٌ والإساءة بعد الإحسان لؤم وشؤم .

روي أنّ جارية لعليّ بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيّأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها فشجّه ورفع رأسه عليه السلام إليها فقالت الجارية : إنّ الله يقول : « والكاظمين الغيظ » فقال لها : قد كظمت غيظي ، قالت : « والعافين عن الناس » قال : قد عفى الله عنك ، قالت : « والله يحبّ المحسنين » فقال عليه السلام : اذهبي يا جارية فأنت حرّة لوجه الله .

وتأمّل بأنّ الله تعالى عدّد من أخلاق أهل الجنة السخاء في الآية ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وآله : السخاء شجرة في الجنّة أغصانها في الدنيا من تعلّق بغصن من أغصانها قادته إلى الجنّة

والبخل شجرة في الجنّة أغصانها في الدنيا فمن تعلّق بغصن منها قادته إلى النار . قال علي عليه السلام : الجنّة دار الأسخياء و قال عليه السلام : السخي قريبٌ من الله قريبٌ من الجنّة قريبٌ من الناس بعيدٌ من النار . والبخيل بعيدٌ من الله بعيدٌ من الجنّة بعيدٌ من الناس قريبٌ من النار انتهى .

قوله تعالى : والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون (١٣٥) اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم اجر العاملين (١٣٦) .

النزول : روي أنّ قوماً من المؤمنين قالوا : يا رسول الله بنو إسرائيل أكرم على الله منّا ؛ كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفّارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه : اجدع أنفك و أذنك أو افعل كذا و كذا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت الآية فقال صلى الله عليه وآله : ألا أخبركم بخير من ذلكم ؟ وقرأ عليهم الآية عن ابن مسعود . وفي ذلك تسهيل لهم إذ جعل الاستغفار بدلاً منه .

وقيل : نزلت في تيهان التمّار أتته امرأة تبتاع منه تمراً فقال : إنّ هذا التمر ليس بجيّد وفي البيت أجود منه ، وذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه فقبّلها فقالت : اتّق الله ، فتركها وندم وأتى النبيّ وذكر له ذلك فنزلت الآية ، عن عطا .

واختلفوا في معنى الفاحشة وظلم النفس ؛ فقيل : المراد بالفاحشة الزنا ، ومن ظلم النفس سائر المعاصي . وقيل : الفاحشة الكبائر وظلم النفس الصغائر ، عن القاضي عبد الجبّار الهمدانيّ . وقيل : الفاحشة الكبائر ولو أنّها اسمٌ لكلّ معصية ظاهرة أو باطنة لكنّها لا يقع إلّا على الكبيرة . وقيل : المراد : [فعلوا فاحشة] فعلاً [أو ظلموا أنفسهم] قولاً [ذكروا الله] أي وعيده وذكروا جلاله الموجب للخشية [فاستغفروا لذنوبهم] بأن يندموا على المعصية مع العزم على ترك مثله في المستقبل وأمّا مجرّد الاستغفار باللسان فلا أثر له في إزالة الذنب وهو توبة الكذّابين .

[ومن يغفر الذنوب إلّا الله] و « من » استفهام إنكاريّ أي جنس الذنوب ، من يغفر

جنس الذنوب غيره تعالى و « إلّا الله » بدلٌ من الضمير المستتر في « يغفر » وهو معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه تطييباً لقلوب التائبين وبشارة لهم بسعة رحمته و تحريضاً للعباد على التوبة وردعاً من اليأس و القنوط .

[ولم يصرّوا على ما فعلوا] عطف على « فاستغفروا » أي لم يقيموا على الذنوب و أصل « الصرّ » الشدّ و الاستحكام من الصرّة و المراد هنا الارتباط بالذنب بالاقامة و الثبات عليه [و هم يعلمون] أي و هم عالمون بقبحه و وعيده ، و التقييد بذلك لما أنّه قد يعذر من لا يعلم إذا لم يكن عن تقصير في تحصيل العلم به ، أو المراد وهم ذاكرين للخطيئة غير ساهين ولا ناسين ، لأنّ الله يغفر للعبد ما نسيه وإن لم يتب منه بعينه ، أو المراد أنّهم يعلمون الحجّة في أنّها خطيئة وهذا قريب من معنى الأوّل فإذا لم يعلموا ولا طريق لهم إلى العلم به كان الإثم موضوعاً عنهم كمن تزوّج اُمّه من الرضاع أو النسب وهو لا يعلم به فإنّه لا يأثم ، وهذا قول ابن عبّاس . وقيل : وهم يعلمون أنّ الله يملك مغفرة ذنوبهم .

[اُولئك] إشارة إلى الموصوفين في قوله : « الّذين ينفقون في السرّاء والضرّاء » إلى هنا ، أي هؤلاء [جزاؤهم] على هذه الأمور [مغفرةٌ من ربّهم] وستر لذنوبهم من الله [وجنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين] و« الجنّات » مفسّرة مراراً ، والمخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك . والتعبير بالأجر و إن كان الجزاء بالتفضيل لا بالاستحقاق لمزيد الترغيب في الطاعات والزجر عن المعاصي .

في تفسير روح البيان : قال رسول الله ﷺ عن ربّه قال : ابن آدم إنّك ما دعوتني و رجوتني غفرت لك ما كان منك ، ابن آدم إنّك إن تلقني بتراب الأرض خطايا لقيتك بترابها مغفرة بعد أن لا تشرك بي شيئاً ، ابن آدم إنّك إن تذنب حتّى تبلغ ذنبك عنان السماء ثمّ تستغفرني أغفر لك .

قال ثابت البنانيّ : بلغني أنّ إبليس بكى حتّى نزلت هذه الآية وهي « و الّذين إذا فعلوا فاحشة » قال رسول ﷺ : ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثمّ يقوم ويصلّي ثمّ يستغفر الله إلّا غفر الله له .

روي أنّ الله أوحى إلى موسى عليه السلام ما أقلّ حياء من يطمع في جنّتي بلا عمل ! يا

موسى كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي ؟ قال شهر بن حوشب : طلب الجنّة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور .

قالت رابعة البصريّة :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ❊ إنّ السفينة لا تجري على اليبس

قال القشيري : أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام قل : للظلمة حتّى لا يذكروني فإنّي أوجبت أن أذكر من يذكرني وذكري للظلمة باللعنة .

قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (١٣٨) .

لمّا بيّن سبحانه ما يفعله بالمؤمن و الكافر ذكر في هذه الآية أنّ ذلك عادته في خلقه «والسنّة» الطريقة المجعولة ليقتدى بها «والخلو» الانفراد ويستعمل في الزمان الماضي لأنّ مامضى انفرد عن الوجود و خلا عنه ، والمراد بسنن الله معاملاته في الأمم المكذّبة بالهلاك والعذاب . قيل : خطاب لمن هزم يوم اُحد .

أي قد مضت يا اُمّة محمد صلى الله عليه وآله أو يا أهل اُحد المنهزمين عادات من الله في الأمم المتقدّمة إذا كذّبوا رسله بالإهلاك ، وتبقية آثارهم في الديار للاعتبار و الاتّعاظ .

وقيل : معناه قد مضت لكلّ اُمّة سنّة و منهاج إذا اتّبعوها يحصل لهم رضى الله إن شككتم في ذلك [فسيروا في الأرض] ولعلّ المراد من السير ليست المسافرة في الأرض بسير الأقدام بل تعرّف أحوالهم فإن لم تحصل المعرفة فإنّ أثر المشاهدة أقوى من أثر السماع كما قيل : ليس الخبر كالعيان [فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين] و « كيف» خبر مقدّم «لكان» أي عاقبة مكذّبي رسلي وأنبيائي .

[هذا] إشارةٌ إلى ماسلف من قوله : «قد خلت» إلى آخر الآية [بيانٌ للناس] وإيضاح ليعتبروا و دلالة و هداية و زيادة بصيرة [و موعظة] لأهل الدين و التقوى لأنّهم هم المتّعظون .

قال صاحب روح البيان : في الآية تسلية للمؤمنين فيما أصابهم يوم اُحد ؛ فإنّ الكفّار وإن نالوا من المؤمنين بعض النيل لحكمة اقتضته ، فالعاقبة للمتّقين ولو كانت الغلبة

كلّ مرّة للمؤمنين لصار الإيمان ضرورياً و هوخلاف التكليف والحكمة ، والعاقل لا يغترّ بالحظوظ الفانية واللائق أن يجتهدفيما هو خيرٌ.

ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (١٣٩) .

أي لاتضعفوا من الجهادبما أصابكم من الجراح يوم اُحد [ولاتحزنوا] على من قتل منكم . وهذاالنهي ورد للتسلّي والتصبير لا النهي عن الحزن وذلك أنّه لمّا انهزم المسلمون في الشعب وأقبل خالدبن الوليدبخيل من المشركين يريدأن يعلو عليهم الجبل فقال النبيّ ﷺ : لايعلنّ علينا ، اللّهم لاقوّة لنا إلّا بك اللّهمّ ليس يعبدك بهذه البلدة إلّاهؤلاء النفر ؛ فنزلت الآية وقام نفر رماة فصعدوا الجبل و رموا خيل المشركين حتّى هزموهم وعلوا المسلمون الجبل ، فذلك قوله : [وأنتم الأعلون]وأصله « الأعليون» واحده«الأعلى»ومؤنّثه «العليا» وجمعه «العليات والعلى» وحذفت الياء كراهة الجمع بين اُخت الكسرة والضمّة أي والحال أنتم الغالبون [إن كنتم مؤمنين] والجواب محذوف دلّ عليه المذكورأي إن كنتم مؤمنين لاتهنوا ، فإنّ الإيمان يوجب قوّة القلب .

قوله : ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس و ليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (١٤٠) .

أي إن يصبكم قرح - بفتح القاف وبضمّها - كالشهد والشهد ، و قيل : إنّ القرح -بالضمّ- الجراحات بأعيانها ، والقرح -بالفتح- ألم الجراحات [فقدمسّ القوم] أي الكفّار يوم بدر ، وقتل المسلمون من الكافرين يوم بدر سبعين و أسروا سبعين و قتل الكافرون من المسلمين باُحد سبعين و أسروا سبعين . و المعنى إن نالوا منكم يوم اُحد فقد نلتم منهم قبله ولم يضعف ذلك قلوبهم ولم يمنعهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى بأن لا تضعفوا فإنّكم ترجون من الله مالايرجون .

[وتلك الأيّام] إشارة إلى أوقات الظفر والغلبة [نداولها بين الناس] أي نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهولاء اُخرى و«المداولة» نقل الشيء من واحد إلى واحد يقال : تداولته الأيدي أي تناقلته ، وليس المرادأنّه تعالى تارة ينصر المؤمنين واُخرى ينصر الكافرين

لأنّ نصره تعالى منصب شريف لايليق بالكافر بل المراد أنّه تعالى تارةً يشدّد المحنة على الكفّار واُخرى على المؤمنين وأنّه لوشدّد المحنة على الكفّار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الضروري بأنّ الإيمان حقٌّ وماسواه باطل : ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب فلهذا المعنى تارة كذا وتارة كذا لتكون الشبهات باقيةً والمكلّف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل .

[وليعلم الله الّذين آمنوا] عطف على علّة محذوفة أي تلك الأيّام نداولها بينكم ليكون المصالح كيت وكيت وإيذاناً بأنّ العلّة فيما فعل غير واحدة . و«ليعلم» أي وليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين من غيرهم ، أو العلم في الآية مجازٌ عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبّب أي ليميّز الثابتين على الإيمان من غيرهم ، والمراد تعلّق العلم بالمعلوم من حيث إنّه موجودٌ بالفعل إذ هو الّذي يدور عليه فلك الجزاء لامن حيث إنّه موجودٌ بالقوّة فالمعنى : ليعلم الله الّذين آمنوا علماً يتعلّق به الجزاء .

[ويتّخذ منكم شهداء] أي ويكرم ناساً منكم بفوز الشهادة وهم شهداء اُحد [والله لايحبّ الظالمين] ونفي المحبّة كناية عن البغض ، وفي الآية إشعار بأنّه تعالى لاينصر الكافرين على الحقيقة وإنّما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاءً للمؤمنين ولا ينافي هذا مع قوله «وإنّ جندنا لهم الغالبون[1]» .

وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (١٤١) .

عطف على « يتّخذ » أي ليصفيهم ويطهّرهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم [ويمحق الكافرين] ويهلكهم إن كانت عليهم ، وقابل سبحانه بين التمحيص والمحق لأنّ محص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق اُولئك بإهلاك أنفسهم وهذه مقابلة في المعنى .

ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (١٤٢) .

«أم» منقطعة و « الحسبان » الظنّ ، والخطاب للّذين انهزموا يوم اُحد أي بل أظننتم [أن تدخلوا الجنّة] وتفوزوا بنعيمها [ولمّا يعلم الله] المجاهدين [منكم] حالٌ من ضمير « تدخلوا » مؤكّدةٌ للإنكار فإنّ رجاء الأجر من غير عمل مستبعدٌ في العقول وعدم

(١) الصافات : ١٧٣ .

العلم كناية عن عدم المعلوم أي ما جاهدتم لأنّ وقوع الشيء يستلزم كونه معلوماً عندالله ونفي اللازم يستلزم نفي الملزوم ؛ فنزّل نفي العلم بمنزلة نفي المعلوم و هو الجهاد و « لمّا » بمعنى «لم» إلاّ أنّ فيه ضرباً من التوقّع تقول : وعدني أن يفعل كذا ولمّا يفعل، أي لم يفعل وأنا أنتظر فعله .

[ويعلم الصابرين] منصوب بإضمار «أن» أي وأن يعلم الصابرين ويقع منكم الصبر على الشدائد فيعلّق العلم بالمعلوم .

واعلم أنّ تحقيق المسألة في علمه ليس شأنه أن يسع في هذا المختصر ولا شكّ أنّ علمه تعالى قديمٌ وهو عين ذاته تعالى وعلمه بالأشياء كان حاصلاً قبل أن يحصل الأشياء فعلمه القديم هو ذاته لم يقترن بمعلوم بل هو علمٌ ولا معلوم ، مثاله أنّك إذا قابلت المرآة انطبعت فيها صورتك وهي في المرآة مثال المخلوق المعلوم بحصوله وحضوره و هذه الصورة المنطبعة هي ظلّ صورتك الّتي فيك وشبحها يعني أنّك ظهرت للصورة الّتي في المرآة بواسطة صقالتها ومقابلتها الّتي هي المشخّصات لها عن الصورة الّتي قامت بها فالظهور الّذي انطبع من صورتك الّتي قامت بك في المرآة منفصلٌ عن صورتك الّتي قامت بك ؛ فالله سبحانه عالم ولا معلوم فمثله كنت أنت بصورتك الّتي هي أنت عليه ولك ومعك وهي كينونتك ولا صورة في المرآة فلمّا أحدث الأشياء وتكوّن المعلوم وقع العلم على المعلوم مثل أنّ المقابلة في المرآة شخّص تلك الّتي هي قديمة فيك و كنت تعلم بها وعلمك بالصورة المقابلة في المرآة هو علمك بالصورة قبل المقابلة في المرآة واحد . وهو تعالى شأنه أحديّ الذات ليس في شيء وليس فيه شيءٌ ولا يبتدىء منه الخلق بمعنى أنّه أصل مادّة الخلق أو ينتهي إليه الخلق برجوع مادّة أو صورة ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، فالخلق من أمره بقاؤه وفناؤه لا من شيء أو جزء منه تعالى عن الشيئيّة والتركيب .

و لقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رايتموه وانتم تنظرون (١٤٣).

[ولقد كنتم تمنّون الموت] أي الحرب فإنّها من مبادىء الموت أو الموت بالشهادة ، و الخطاب للّذين لم يشهدوا البدر و كانوا يتمنّون أن يشهدوا مع النبيّ صلّى الله عليه وآله مشهداً

لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحّوا على رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الخروج ثمّ ظهر منهم خلاف ذلك [من قبل أن تلقوه] أي من قبل أن تشاهدوا وتعرفوا شدّته [فقد رأيتموه] أي ما تمنّونه من أسباب الموت [وأنتم تنظرون] معاينين مشاهدين له حتّى قتل من قتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا أيضاً أنتم فلمَ فعلتم مافعلتم وهزمتم ؟

وفي الآية توبيخٌ لهم بأنّ حبّ الدنيا لايجتمع مع سعادة الآخرة و بقدر ما يزداد أحدهما ينتقص عن الآخر ؛ فإنّ الحبّ هو الّذي لاينقص بالجفاء ولا يزداد بالوفاء ؛ ولذا قيل من ظنّ أنّه يصل إلى محلّ عظيم دون مقاسات الشدائد ألقته أمانيّه في مهواة الهلاك ومن عرف قدر مطلوبه سهل عليه بذل مجهوده ؛ قال الشاعر :

و ما جاد دهر بلذّاته ❊ على من يضيق بخلع العذار

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين (١٤٤) .

قال ابن عبّاس : لمّا نزل النبيّ صلى الله عليه وآله بأحد أمر الرماة أن يلزموا أصل الجبل و أن لاينتقلوا عن ذلك سواء كان الأمر لهم أو عليهم ، فلمّا وقفوا و حملوا على الكفّار و هزموهم وقتل عليّ عليه السلام طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم والزبير والمقداد حملا على المشركين ثمّ حمل الرسول مع أصحابه فهزموا أبا سفيان ، ثمّ إنّ بعض القوم لمّا أن رأوا انهزام الكفّار بادر قوم من الرماة إلي الغنيمة .

وكان خالد بن الوليد صاحب الميمنة من الكفّار فلمّا رأى تفرّق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرّق جمعهم و كثر القتل في المسلمين ورمى عبدالله بن قميئة الحارثيّ رسول الله بحجر فكسر رباعيّته وشجّ وجهه الشريف فذبّ عنه مصعب بن عمير فقتله ابن قميئة فظنّ أنّه قتل رسول الله ؛ فقال : قد قتلت محمّداً صلى الله عليه وآله .

وقيل : صرخ صارخٌ : ألا إنّ محمّداً قد قتل ، وكان الصارخ الشيطان ، ففشا في الناس خبر قتله صلى الله عليه وآله فهنالك قال بعض المسلمين : ليت عبدالله بن أُبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان فقال أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك : يا قوم إن كان قد قتل محمّدٌ صلى الله عليه وآله فإنّ ربّ

محمد حيٌ لايموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ؟ قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ، اللّهمّ إنّي أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء ثمّ سلّ سيفه فقاتل حتّى قتل .

وبالجملة لمّا شجّ ذلك الكافر وجه رسول الله و كسر رباعيّته احتمله طلحة بن عبدالله ودافع عنه أميرالمؤمنين ونفرٌ آخرون معهم ثمّ إنّه صلى الله عليه وآله جعل ينادي و يقول : عبادالله إليّ حتّى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم فقالوا : يارسول الله ، فديناك بآبائنا أتانا خبر قتلك فاستولى الرعب علينا فولّينا مدبرين .

فمعنى الآية : [وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل] فسيخلوا كما خلوا و كما أنّ أتباعهم بقوا متمسّكين بدينهم بعد خلوّهم فعليكم أن تمسّكوا بدينه بعد خلوّه .

[أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم] إنكارٌ لارتدادهم عن الدين بخلوّه بموت أوقتل ، أي تصيرون كفّاراً بعد إيمانكم وترجعون قهقرى وراءكم ؛ وذلك أنّ المنافقين قالوا لبعض ضعفة المسلمين : إن كان محمدٌ قد قُتل فالحقوا بدينكم .

[ومن ينقلب على عقبيه] بإدباره عمّا كان يقبل عليه رسول الله من أوامره من الجهاد أو غيره [فلن يضرّ الله] بما فعل من الانقلاب [شيئاً] من الضرر وإنّما يضرّ نفسه والله منزّه عن النفع والضرر [وسيجزي الله الشاكرين] لنعمة الإسلام الثابتين عليه ؛ لأنّ الثبات عليه شُكر له وإيفاء لحقّه .

روي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : ألم تروا كيف صرف الله عنّي شتم قريش ؟ وذلك أنّهم كانوا يقولون لي مذمّماً ـ و كانت أمّ جميل امرأة أبي لهب تقول محمداً : مذمّماً أتاناودينه قلاناـ وأنا محمد .

وفي مسند عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : إذا سمّيتم الولد محمداً فأكرموه وأوسعوا له في المجلس ولاتقبحوا له وجهاً ، وما من قوم كان لهم من هو اسمه محمد أو أحمد فأدخلوه في مشورتهم إلّا خيرٌ لهم ، وما من مائدة وضعت فحضرها من اسمه محمد أوأحمد إلّا قدّس في كلّ يوم ذلك المنزل مرّتين .

واعلم أنّه ليس لقائل أن يقول : لمّا علم أنّه لايقتل لم قال : «أوقتل» لأنّ صدق القضيّة الشرطيّة لايقتضي صدق جزأيها فإنّك تقول : «لوكان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا»

فهذا حقّ مع أنّه ليس فيهما آلهة وليس فيهما فساد فكذا ههنا .

فإن قيل : إنّ قوله : «أفإن مات أو قتل» شكّ وهو على الله لايجوز ؛ فالمراد أنّه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له في ضعف الدين ووقوع الارتداد .

قوله تعالى : وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتاباً مؤجلا و من يرد ثواب الدنيا نؤته منها و من يرد ثواب الاخرة نؤته منها و سنجزى الشاكرين (١٤٦) .

وجه تعلّق هذه الآية بما قبلها أنّ المنافقين أرجفوا أنّ محمداً ﷺ قد قتل فالله تعالى يقول : إنّه لايموت إلّا بإذن الله وقضائه وقدره ، وتحريض المؤمنين على الجهاد بإعلامهم أنّ الحذر لايدفع القدر وأنّ أحداً لايموت قبل الأجل وإذا جاء الأجل لا يندفع الموت بشيء ولا فائدة في الحبس والخوف ، و لأنّ المنافقين لمّا رجع أصحاب اُحد وقُتل منهم من قتل قالوا : «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا[١]» فأجابهم الله أنّ الموت والقتل لايكونان إلّا بإذن الله .

والمراد من إذن الله في الآية أمر الله تعالى أنّه يأمر ملك الموت بقبض الأرواح . أو المراد من الإذن تكوين الله وتخليقه . وقيل : المراد من الإذن تخلية الله وترك المنع بالقهر والإجبار . فيكون المعنى يتخلّى الله بين القاتل والمقتول . وقيل : المراد من الإذن العلم ؛ فالمعنى أنّ نفساً لن تموت إلّا في الوقت الّذي علم الله موتها فيه . وقال ابن عبّاس : معنى إذن الله في الآية قضاؤه . قال الأخفش اللام في «لنفس» معناها النفي ، والتقدير : وما كانت نفس لتموت إلّا بإذن الله .

وحاصل المعنى : ماكان الموت حاصلاً لنفس من النفوس إلّا بمشيئته [كتاباً مؤجّلاً] مسمّىً في علمه أي كتب الموت كتاباً موقّتاً بوقت معلوم [ومن يرد] بعمله [ثواب الدنيا نؤته منها] أي من ثواب الدنيا وفي الآية تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم اُحد .

[ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها] من ثواب الآخرة ما يشاء من الأصناف حسبما جرى به الوعد الكريم [وسنجزي الشاكرين] نعمة الإسلام الثابتين عليه الّذين جاهدوا

(١) السورة : ١٥٦ .

في سبيل الله تحقيقاً لتكون كلمة الله هي العليا لا لذكر الجميل والغنائم .

قال رسول الله : من كانت نيّته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله و أتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت نيّته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه و شتّت عليه شمله ولا يأتيه منها إلّا ما كتب له .

وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين (١٤٦) .

في الآية تنبيه للمنهزمين يوم أحد بأنّ لكم بالأنبياء المتقدّمين وأتباعهم أسوة حسنة فكيف يليق بكم هذا الفرار والانهزام ؟ قرأ ابن كثير «وكائن» على وزن «كاعن» مهموزاً مخفّفاً والباقون قرؤوا «كأيّن» على وزن «كصيّب» وهي لفظة مركّبة من كاف التشبيه و«أيّ» حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث في «كذا و كذا» و النون فيها نون التنوين تثبت في الخطّ بغير قياس ، وقرىء على خمس لغات اثنتين منها هي اللغتين المذكورتين والثالث مثل «كإين» على وزن كعين ، والرابعة «كيئن» بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهي قلب ماقبلها . والخامسة «كأن» مثل «كعن» مخفّفة وقد قرىء بكلّ منها و محلّها الرفع بالابتداء .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «قتل معه ربّيّون» والباقون قرؤوا «قاتل معه» .

فعلى القراءة الأولى معناه أنّ كثيراً من أصحاب الأنبياء قتلوا و الّذين بقوا من بعدهم [فما وهنوا] في دينهم بل استمرّوا على جهاد أعدائهم ونصرة دينهم ، ينبغي أن يكون حالكم يا أمّة محمد كحالهم .

أو أنّ المعنى : وكأيّن من نبيّ قتل ممّن كان معه و على دينه ربّيّون ، أي أخيار فقهاء منسوبون إلى الربّ موحّدون فما ضعف الباقون ولا استكانوا لقتل من قتل منهم بل مضوا على جهاد أعداء الدين فينبغي أن يكون حالكم كحالهم .

ومن قرأ «قاتل معه ربّيّون» فالمعنى : وكم من نبيّ قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوّهم قرح فما وهنوا فكيف ينبغي لكم أن تفعلوا ذلك ؟ والمراد ترغيب الأصحاب والمسلمين في الجهاد مع النبيّ صلى الله عليه وآله.

[والله يحبّ الصابرين] على مقاساة الشدائد في سبيله .

وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا و ثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (١٤٧) .

أي إنّهم كانوا عند لقاء العدوّ واقتحام مضائق الحرب يقولون : [ربّنا اغفر لنا ذنوبنا] أي صغائرنا [وإسرافنا في أمرنا] أي تجاوزنا الحدّ في ركوب الكبائر . وأضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربّانيّين هضماً لنفوسهم ، وحاصل المعنى : ماكان قولهم إلّا طلب المغفرة وتثبيت الأقدام عند ملاقات للعدوّ ، أو المرادالتثبيت فيالدين .

[وانصرنا على القوم الكافرين] ولم يزالوا مواظبين على هذا الاستغفار والدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والتزلزل ، وفيه تعريض بالمنهزمين ما لا يخفى .

تذييل : قال صاحب الكشّاف : الربّيّون الربّانيّون ، وقرىء بالحركات الثلاث في الراء ، والفتح على القياس ، والفتح و الكسر من تغييرات النسب . وقال الزجّاج : هم الجماعات الكثيرة الواحد «ربّيّ» قال ابن قتيبة أصله من «الربّة» وهي الجماعة . وقال ابن زيد : الربّانيّون الأئمّة والولاة ، والربّيّون الرعيّة وهم المنتسبون إلى الربّ .

فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة والله يحب المحسنين (١٤٨) .

أي أعطاهم النصر و الغنيمة والعزّ والشرف و الذكر الجميل ، وثواب الآخرة الجنّة والنعيم المخلّد [والله يحبّ المحسنين] ومحبّة الله مبدأ لكلّ سعادة .

يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين (١٤٩) بل الله مولكم وهو خير الناصرين (١٥٠) .

هذه الآية من تمام كلام الأوّل وذلك أنّ الكفّار لمّا ارجفوا أنّ النبيّ قد قُتل ، وقال المنافقون : إنّه قد ضعف حاله بسبب انكساره في اُحد ولو كان على الحقّ لم ينكسر . و دعوا ضعفة المسلمين إلى الكفر . منع الله المسلمين بهذه الآية عن الالتفات بكلام الكفّار والمنافقون فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا ، الآية] قيل : المراد من «الّذين كفروا» أبو سفيان لانّه كان ذلك اليوم كبيرهم وشجرة الكفر . وقيل : المراد عبدالله بن اُبيّ و أصحابه من المنافقين

لأنّه كان يقول : إنّ محمّداً رجلٌ كسائر الناس يوماً له ويوماً عليه فارجعوا إلى دينكم الّذي كنتم فيه . وقيل : المراد اليهود الّذين في المدينة وإنّهم كانوا يلقون الشبهة في قلوب المسلمين لاسيّما عند وقوع هذه الفتنة . والصحيح أنّه يتناول كلّ الكفّار لأنّ اللفظ عامّ وخصوص السبب لايمنع من عموم اللفظ .

[إن تطيعوا] الكفّار يدخلوكم في دينهم فيكون الجور بعد الكور فإذن ترجعون [خاسرين] كرامة الدنيا وسعادة الآخرة : أمّا الدنيا فبانقياد كم للعدوّ و التذلّل له و أمّا الآخرة العذاب الدائم والحرمان من الجنّة .

[بل الله مولاكم] أي هم ليسوا أنصاركم حتّى تطيعوهم ، بل الله ناصركم [و هو خير الناصرين] فأطيعوه .

سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً و مأويهم النار وبئس مثوى الظالمين (١٥١) .

واختلفوا في أنّ هذا الوعد هل هو مختصّ بيوم اُحد أوهو عامّ في جميع الأوقات ؟ قال جماعةٌ من المفسّرين : إنّه مختصّ باُحد و ذكروا كيفيّة إلقاء الرعب في هذا اليوم بأنّ المشركين لمّا استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب في قلوب المشركين فتركوهم وفرّوا من غير سبب مع أنّ الغلبة كانت لهم حتّى روي أنّ أبا سفيان صعد الجبل وقال : أين ابن أبي كبشة و أين أصحابه ؛ وما تجاسر على النزول من الجبل والذهاب إليهم ، ورجع أبوسفيان و ذهب هو و أصحابه إلى مكّة فلمّا كانوا في بعض الطريق قالوا : ما صنعنا شيئاً قتلنا الأكثرين منهم ثمّ تركناهم ونحن قاهرون ، ارجعوا حتّى نستأصلهم بالكلّيّة وعزموا على الرجوع فألقى الله الرعب في قلوبهم .

وقيل : إنّ هذا الوعد غير مختصّ بيوم اُحد و إنّه تعالى وعد أنّه سيلقي الرعب منكم في قلوب الكافرين بعد ذلك حتّى يظهر دينكم .

[بما أشركوا] أي إلقاء الرعب بسبب إشراكهم به تعالى فإنّه من موجبات خذلانهم [مالم ينزّل به سلطاناً] أي أشركوا في عبادة الله مالم ينزّل به سلطاناً وقدرةً وهم يوهمون أنّ فيه سلطاناً والله ما أنزله وما أظهره وليس لما يشركونه به تعالى سلطةٌ وقدرة ولم يجعل

لهم في ذلك برهاناً وحجّة .

و«السلطان» ههنا الحجّة والبرهان ؛ قال الزجّاج : اشتقاقه من «السليط» و هو الّذي يضاء به السراج . وقال الليث : أصل بناء السلطان من «التسليط» ويسمّى البرهان سلطاناً لقوّته على دفع الباطل . قال ابن دريد : سلطان كلّ شيء حدّته وهو مأخوذ من اللسان السليط ، والسلاطة معناها الحدّة وأصل مادّة الرعب الملء فقال : سبيل راعب إذا ملأ الوادي فسمّي الفزع رعباً لأنّه يملأ القلب خوفاً انتهى .

وفي الآية إيذان بأنّ المتّبع في الأمور هو البرهان السماويّ دون الآراء والأهواء الباطلة .

[ومأواهم النار] لاملجأ لهم غيرها و إليها يأوون ويسكنون [وبئس مثوى الظالمين] و المخصوص بالذمّ محذوف أي النار مثواهم وفي قوله : «مثواهم» بعد ذكر «مأواهم» إشعار إلى الخلود لأنّ المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث .

ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما اريكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الاخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم و لقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين (١٥٢) .

نزلت الآية حين قال ناسٌ من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة بعد اُحد : من أين أصبنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر ؟ وهوما وعدهم على لسان نبيّه من النصر حيث قال صلّى الله عليه وآله : للرماة لاتبرحوا مكانكم فإنّا لانزال غالبين ما دمتم في هذا المكان وقدكان كذلك ؛ فإنّ المشركين لمّا أقبلوا جعل الرماة يرشّقون نبلهم والباقون يضربون بالسيوف حتّى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً وذلك قوله :

[إذ تحسّونهم] أي تقتلونهم وتبطلون حسّهم وحياتهم ؛ قال ابن قتيبة : «الحسّ» القتل الذريع يقال : جرادٌ محسوس إذ قتله البرد . يقال : بطنه ، إذا أصاب بطنه ، و رأسه إذا أصاب رأسه . أوالوعد بالنصر وقع من كلامه تعالى حيث قال : «بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم» وكان الوعد مشروطاً بالصبر والتقوى فإذا انتفى الشرط

انتفى المشروط . «إذ تحسّونهم بإذنه» أي تقتلونهم بعلمه أو بأمره .

[حتّى إذا فشلتم] أي جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإنّ الحرص من ضعف القلب [وتنازعتم في الأمر] أي في أمر الرسول فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون والمسلمون على أعقابهم : فما موقفنا هذا ؟ وقال رئيسهم عبدالله بن جبير : لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانه في نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب و الغنيمة و ذلك قوله تعالى :

[وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون] من الظفر والغنيمة و انهزام العدوّ صرتم فريقين [منكم من يريد الدنيا] وهم الّذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب [ومنكم من يريد الآخرة] وهم الّذين ثبتوا مكانهم حتّى نالوا شرف الشهادة .

[ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم] قال أبو مسلم معناه أنّه تعالى أزال ما كان في قلوب الكفّار من الرعب من المسلمين عقوبةً منه على عصيانهم و فشلهم «ليبتليكم» أي ليجعل ذلك الصرف محنةً عليكم لتتوبوا إلى الله بسبب عصيانكم وميلكم إلى الغنيمة و يعاملكم معاملة المختبر في الثواب والعقاب .

فإن قيل : لمّا كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصّة بالبعض دون الكلّ فلمَ جاء هذا العتاب باللفظ العامّ ؟

فالجواب : هذا اللفظ وإن كان عامّاً إلّا أنّه جاء المخصّص بعده وهو قوله : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

قال الرازيّ في المفاتيح : و قد اختلف قول أصحابنا وقول المعتزلة في معنى قوله تعالى : « ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم » و ذلك لأنّ صرفهم عن الكفّار معصية فكيف أضافه إلى نفسه ؟

أمّا عند أصحابنا فهذا الإشكال غير وارد عليهم لأنّ مذهبهم أنّ الخير و الشرّ بإرادة الله وتخليقه فعلى هذا قالوا : معنى الآية أنّ الله ردّ المسلمين عن الكفّار وألقى الهزيمة عليهم وسلّط الكفّار عليهم .

وقالت المعتزلة : هذا المعنى غير جائز ويدلّ عليه القرآن والعقل : أمّا القرآن فهو

قوله تعالى : «إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا»(١)، فأضاف ماكان منهم إلى الشيطان فكيف يضيفه إلى نفسه بعد هذا ؟ وأمّا المعقول فهو أنّه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف ولو كان بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه كما لايجوز معاتبتهم على طولهم وقصرهم .

قالوا : ولمّا كانت الآية مشتملة على فريقين : عاصية وهم الّذين خالفوا ابن جبير وأخلّوا الجبل ، وغير عاصية وهم الّذين تثبّتوا معه ولم يفارقوه أدّب الله الطائفة وقال : [ولقد عفا عنكم] وأدبه تعالى ذلك الصرف ليتوبوا إلى الله و لاشك أنّهم أذنبوا لأنّهم خالفوا نصّ الرسول وصارت تلك المخالفة سبباً لانهزام المسلمين و قتل جمع عظيم .

قال الرازيّ : ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّه قد يعفو عن أصحاب الكبائر لأنّه تعالى عفا عنهم من غير توبة ؛ لأنّ التوبة غير مذكورة ، انتهى كلام الرازيّ .

[والله ذو فضل على المؤمنين] أي شأنه أن يتفضّل عليهم بالعفو أو يدل لهم أو أديل عليهم ؛ إذ الابتلاء أيضاً رحمة .

قوله : اذ تصعدون و لاتلون على أحد والرسول يدعوكم في اخريكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولاما اصابكم والله خبير بما تعملون (١٥٣) .

ولمّا قال سبحانه : « ولقد عفا عنكم » لابدّ وأن يتعلّق بأمر اقترفوه وذلك الأمر بيّنه بقوله : [إذ تصعدون] والمراد به ماصدر عنهم من مفارقة ذلك المكان والأخذ في الوادي كالمنهزمين [لاتلوون على أحد] ولا تلتفتون من شدّة الهرب وأصل «اللوى» العرج على الشيء يلوي إليه عنقه أو عنان دابّته ، ويستعمل في ترك الالتفات إلى شيء ولايعطف عليه ولا يبالي به .

ثمّ قال : [والرسول يدعوكم] كان صلى الله عليه وآله يقول : يا عباد الله إليّ أنا رسول الله من كرّ فله الجنّة ، كان يدعوهم صلى الله عليه وآله وهو واقف في آخرهم يقال : جاء فلان في أُخريات الناس أي آخرهم لأنّ القوم بسبب الهزيمة قد تقدّموه .

ثمّ قال : [فأثابكم غمّاً بغمّ] ولفظ الثواب يستعمل على الأغلب في الخير ويجوز

---

(١) السورة : ١٥٥ .

أيضاً استعماله في الشرّ ، وأصل الثواب معناه الرجوع وما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيراً أو شرّاً فإن حملناه على استعمال الأغلب كان ذلك وارداً على سبيل التهكّم كما يقال : تحيّتك الضرب . وإن حملناه على أصل اللغة استقام الكلام أي جزيناوعاوضنا غمّاً لمّا آذقتم الرسول غمّاً بسبب أن عصيتم أمره فالله أذاقكم هذا الغمّ و هو الغمّ الّذي حصل لكم من الهزيمة وقتل الأحباب فالمعنى : جازاكم من ذلك الغمّ بهذا الغمّ . قيل : المراد يريد غمّ اُحد للمسلمين بغمّ بدر للمشركين .

[لكيلا تحزنوا على مافاتكم] أي لتمترنوا على الصبر في الشدائد وتعتادوا بجرع الغموم فلا تحزنوا على نفع فات أوضرّ آت . وقيل : معناه فعل بكم هذا الغمّ لأن لاتحزنوا مافاتكم من الغنيمة ولا تتركوا أمر النبيّ ولئلاّ تحزنوا على ما أصابكم وليكون غمّكم بأن خالفتم النبيّ ﷺ فقط حتّى يشغلكم حزنكم على سوء صنعكم من الحزن على غيره . وقيل : وجه آخر أي « و لقد عفا عنكم لكيلا تحزنوا على مافاتكم » فإنّ عفو الله يذهب كلّ حزن .

[والله خبير بما تعملون] فيه ترغيب في الطاعة وترهيبٌ عن المعصية . ثمّ ذكر ما أنعم عليهم بعد ذلك حتّى تراجعوا وأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله .

ثم أنزل عليكم من بعد الغم امنة نعاساً يغشي طائفة منكم وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شيء قل ان الامر كله لله يخفون في انفسهم مالايبدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شيء ماقتلنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله مافي صدوركم وليمحص مافي قلوبكم والله عليم بذات الصدور (١٥٤) .

إنّ الّذين كانوا مع النبيّ ﷺ يوم اُحد فريقان :

أحدهما كانوا جازمين بأنّه ﷺ نبيّ حقّاً وأنّه ﷺ أخبرهم بأنّ الله ينصر هذا الدين فكانوا قاطعين بأنّ هذه الواقعة لاتؤدّي إلى الاستيصال وكانوا آمنين وبلغ ذلك الأمن إلى حيث غشيهم النعاس ؛ فإنّ النوم لايكون مع الخوف .

وأمّا الطائفة الثانية وهم المنافقون الّذين كانوا شاكّين في نبوّته وماحضروا إلّا لطلب الغنيمة فهؤلاء اشتدّ جزعهم وعظم خوفهم فوصف سبحانه حال كلّ واحدة من هاتين الطائفتين فقال في صفة المؤمنين :

[ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنةً نعاساً] « والأمنة » مصدر « كالأمن » ومثله من المصادر : العظمة والغلبة يقال : أمن فلانٌ يأمن أمناً وأمنةً وأماناً .

وقرأ صاحب الكشّاف « أمنةً » بسكون الميم لأنّها المرّة من الأمن ، و« نعاساً » إمّا يكون بدلاً من « أمنة» أو مفعولاً ، و«أمنةً» يجوز أن يكون حالاً من المخاطبين بمعنى « ذوي أمنة » والأوجه أن يكون « أمنةً » منصوبةً على المفعوليّة و « نعاساً » بدلاً منه أي أعطى ووهب لكم أيّها المؤمنون . «وأنزل» مجاز من أعطى أمناً و سناً .

قال أبوطلحة : رفعت رأسي يوم اُحد فجعلت لاأرى أحداً من القوم إلّا وهو يميد تحت حجفته من النعاس و كنت ممّن اُلقي عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدي فآخذه ثمّ يسقط السوط فآخذه . وفيه دلالة على أنّ من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبىء عنه قوله تعالى : « يغشى طائفة منكم» وهم المهاجرون وعامّة الأنصار ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكلّ ، والجملة في محلّ النصب صفة لنعاساً .

[وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم] أي أوقعتهم في الهموم والأحزان ومابهم إلّاهمّ أنفسهم وقصد خلاصها وهم المنافقون [يظنّون بالله غير الحقّ] حال من ضمير « أهمّتهم» غير الظنّ الحقّ الّذي يجب أن يظنّ به سبحانه [ظنّ الجاهليّة] بدل منه وهو الظنّ المختصّ بالملّة الجاهليّة وأهلها .

وقوله : «ظنّ الجاهليّة» هو أنّهم كانوا ينكرون الإله العالم بكلّ المعلومات القادر على جميع المقدورات وهم عبدالله بن اُبيّ ومعتب بن قشير و أصحابهما و ينكرون النبوّة و البعث فلا جرم ما وثقوا بقول الرسول وعظم الخوف فيهم . وهذا الأمن كان معجزة عظيمة لأنّ الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتل المؤمنين فبقاؤهم في النعاس مع السلامة في مثل تلك الحالة من أدلّ الدلائل على أنّ حفظ الله معهم و كيف يكون الإنسان في مثل هذه الحالة المضطربة خصوصاً في اُحد أن ينعس وينام ؟

وفسّر بعض أنّ المراد من ذكر النعاس في هذه الموضع كناية عن غاية الأمن قال الرازيّ : و هذا ضعيف لأنّ صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز لايجوز إلّا عند قيام الدليل المعارض .

وقرىء «تغشى» بالتاء ردّاً إلى «الأمنة» والباقون بالياء ردّاً إلى «النعاس» محتجّاً بأنّ النعاس بدل الأمنة والكناية إلى الأصل أحسن ، و يمكن ظنّهم بغير الحقّ كانوا يقولون : لوكان محمّد محقّاً في دعواه لماسلّط عليه ، وهذاغلطفاسد ؛ لأنّ المصالح في أحكام الله جارية فلعلّ أن يكون لله تعالى في التخلية بين الكافر والمسلم حكم خفيّة ، هذاعندنا وعندالمعتزلة . وأمّا عندأهل السنّة والجماعة «يفعل مايشاء ويحكم ما يريد» لااعتراض لأحد عليه و المراد من قوله «ظنّ الجاهليّة» ظنّ أهل الجاهليّة .

[يقولون هل لنا من الأمر من شيء] قيل : في معناه وجوه : الأوّل أنّ عبدالله بن اُبي لمّا شاوره النبيّ ﷺ في هذا الأمر أشار عليه أن لا يخرج من المدينة و الصحابة ألحّوا عليه بالخروج فغضب عبدالله عن ذلك فقال : عصاني و أطاع الولدان ثمّ لمّا كثر القتل في الخزرج قيل لعبدالله : قتل بنوالخزرج . فقال عبدالله : هل لنا من الأمر من شيء . يعني أنّ محمّداً ﷺ لم يقبل قولي حين أمرته أن لايخرج من المدينة ، فحكاه الله عنهم أي لو أطاعونا ماقتلوا ، وهو استفهام على سبيل الإنكار .

الوجه الثاني أنّ من عادة العرب أنّه إذا كانت الدولة لعدوّه قالوا : عليه الأمر ؛ فقوله : «هل لنا من الأمر من شيء» أي هل لنا من الشيء الّذي كان يعدنا به محمّد ﷺ ـ وهو النصرة ـ شيء ؟ وهذا الستفهام على سبيل الإنكار و كان غرضهم أنّ ما يعدكم به محمّد ﷺ كذب ؛ فأجاب الله بقوله : [قل] يا محمّد : [إنّ الأمر كلّه لله] .

ثمّ قال : [يخفون في أنفسهم مالايبدون لك] حالٌ من ضمير «يقولون» أي مظهرين أنّهم مسترشدون طالبون للنصرة مبطنين الإنكار والتكذيب [يقولون لوكان لنا من الأمر] كأنّه قيل : أيّ شيء يخفون ؟ فقيل : يحدّثون ويقولون بعضهم لبعض فيما بينهم خفية : «لوكان لنا من الأمر شيء» كما وعد محمّد ﷺ بالغلبة [ماقتلنا ههنا] في المعركة .

[قل لو كنتم في بيوتكم] و لولم تخرجوا إلى اُحد و قعدتم بالمدينة كما زعمتم

[البرز الّذين كتب عليهم القتل] في اللوح بسبب من الأسباب [إلى] مصارعهم وقتلوا هناك البتّة ولم تنفع الإقامه بالمدينة قطعاً .

وحاصل المعنى أنّه إنّكم أيّها المنافقون او كنتم في منازلكم لخرج الّذين كتب وقدّر عليهم الموت والقتل في اللوح المحفوظ في ذلك الوقت إلى مصارعهم .

وقيل : معنى الآية أنّكم أيّها المنافقون و المرتابون لو تخلّفتم عن القتال لخرج الّذين آمنوا بالله وفرض عليهم القتال صابرين محتسبين فيقتلون ويقتلون وماتخلّفوا .

[وليبتلي الله مافي صدوركم] أي ليختبرالله مافي نيّاتكم وقد علمه سبحانه عيناً لكن لتكون العلم مشاهدة لأنّ المجازاة لابدّ وأن تقع على ماعلم مشاهدة لاعلى ماهومعلوم منهم ، وهذه فائدة الامتحان من الله .

[وليمحّص مافي قلوبكم] ويخلصه ويكشفه من مخفيّات الأمور [والله عليم بذات الصدور] أي السرائر والضمائر الّتي لاتكاد تفارق الصدور وتلازمها .

ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم (١٥٥) ياايها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير (١٥٦) و لئن قتلتم فى سبيل الله او متم لمغفرة من الله و رحمة خير مما يجمعون (١٥٧) و لئن متم اوقتلتم لالى الله تحشرون (١٥٨) .

[إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان] من المسلمين و المنهزمين و المنافقين [إنّما استزلّهم الشيطان] وهم المنهزمون أي إنّما كان سبب انهزامهم أنّ الشيطان طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ببعض ما كسبوا من الذنوب والمعاصي الّتي هي مخالفة الرسول و ترك المركز والحرص على الغنيمة و الحياة فحرموا التأييد .

[ولقد عفاالله عنهم] لتوبتهم واعتذارهم[إنّ الله غفور حليم] لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب . والإنسان بالعمل يتمكّن أن يصل إلى مقام يعجز الشيطان عن إغوائه و وسوسته .

حكي أنّ بعض السالكين رأى إبليس في المنام يبثّ جنوده و أولاده لإغواء بني آدم وكان اللعين عرياناً فقال السالك للشيطان حين رآه عرياناً : ألا تستحيي من الناس؟ فقال الشيطان : ليس هؤلاء ناس، الناس أقوامٌ في مسجد الشونسريّة أفنوا جسدي واحترقوا كبدي قال ذلك السالك ـ وأظنّه الجنيد ـ :فلمّا انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة وضعوا رؤوسهم على ركبتهم متفكّرين فلمّا رأوني قالوا : لا يغرّنّك حديث الخبيث .

[يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين كفروا] و هم المنافقون القائلون : «لوكان لنا من الأمر شيء ماقتلنا ههنا» [وقالوا لإخوانهم] ومعنى «الأُخوّة» اتّفاقهم نسباً أوعقيدة [إذا ضربوا في الأرض] أي سافروا فيها و أبعدوا للتجارة ، والضرب في الأرض الإيغال في السير ، فماتوا وإنّما خصّ الأرض بالذكر لأنّ أكثر أسفارهم في البرّ أو اكتفى بذكر «البرّ» عن البحر كقوله : « سرابيل تقيكم الحرّ » أو الأرض يشمل البرّ و البحر .

[أوكانوا غزّىً لوكانوا عندنا] أوكانوا غزاة و«غزّى» جمع غازي وهو على وزن طلّب في طالب، فقتلوا وكان مقول قولهم : [لوكانوا] مقيمين [عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم] اللام لام العاقبة أي قالوا هذا القول ليمنعوا المؤمنين عن الجهاد فلم يمتنعوا ولم يقبلوا منهم وخرجوا للغزو فصار حسرة في قلوب المنافقين .

وقيل : المعنى ولا تكونوا أيّها المؤمنون كهؤلاء الكفّار و المنافقين في هذه المقالة والعقيدة لكي يجعل الله تلك المقالة سبباً لإلزام الحسرة والحزن في قلوبهم فيما أمّلوا منكم من الموافقة معهم لما فاتهم من عزّ الظفر والغنيمة . وعلى هذا المعنى فاللام ليست للعاقبة بل لام العلّة .

[والله يحيي ويميت] أي هو المحيي والمميت من غير أن يكون للإقامة أوالسفر فإنّه قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت القاعد والمقيم مع حيازتهما لأسباب السلامة [والله بماتعملون بصير] فلاتكونوا مثل هؤلاء المنافقين .

[ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله و رحمة خيرٌ ممّا يجمعون] أي إن قتلتم أومتّم في دينه و سبيله و أنتم مؤمنين ، واللام هي الموطّئة للقسم المحذوف و جوابه «لمغفرة من الله» وحذف جواب الشرط لسدّ جواب القسم مسدّه للدلالة عليه . والمعني: و بالله

أنّ الغزو والسفر ليس ممّا يوجب الموت وتقدّم الأجل ، ولئن وقع ذلك بأمرالله لنفحة يسيرةمن مغفرة ورحمة كائنتين من الله بمقابلة ذلك خير ممّا يجمعون الكفرة من منافع الدنيا وطيّباتها مدّة أعمارهم .

فإن قيل : كيف يكون المغفرة خيرٌ ممّا يجمعون ولاخير فيما يجمعون أصلاً ؟ فالجواب أنّه وارد بزعمهم ومعتقدهم وأنّهم يحسبون أنّه خير .

[ولئن متّم أوقتلتم] على أيّ وجه اتّفق هلاككم [لا إلى الله] أي إلى المعبود العظيم الشأن [تحشرون] لا إلى غيره فيوفّي أُجوركم فبين الحشر مع المغفرة و الحشر بدون المغفرة فرق كثير .

روي أنّ عيسى بن مريم عليه السلام مرّ بقوم نحفت أبدانهم واصفرّت وجوههم ورأى عليهم أثر العبادة فقال لهم : ماذا تطلبون ؟ فقالوا : نخشى عذاب الله ، فقال : هو أكرم من أن لايخلصكم من عذابه . ثمّ مرّ بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا : نطلب الجنّة و الرحمة ، فقال عليه السلام : هو أكرم من أن يمنعكم رحمته . ثمّ مرّ بقوم ثالث ورأى آثار العبوديّة عليهم أكثر فسألهم فقالوا : نعبده لأنّه إلهنا ونحن عبيده لا للرغبة ولا للرهبة ، فقال : أنتم العبيد المخلصون ، انتهى .

و هذا المقام لايمكن تحصيله إلّا بالتجريد والفناء ؛ حكي أنّ امرأة قالت لجماعة من الكرماء : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : بذل المال ، قالت : هو سخاء أهل الدنيا والعوامّ فما سخاء الخواصّ ؟ قالوا : بذل المجهود في الطاعة ، قالت : ترجون الثواب ؟ قالوا : نعم قالت : تأخذون العشرة بواحد لقوله : «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها[1]» فأين السخاء ؟ قالوا : فما عندك ؟ قالت : العمل لله لا للجنّة ولا للنار ولا للثواب و خوف العقاب .

فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين (١٥٩) .

«ما» زائدة مؤكّدة للكلام ليتمكّن المعنى في النفس فجرى مجرى التكرير بيّن سبحانه

(١) الانعام : ١٦١ .

أنّ مساهلة النبيّ إيّاهم و مجاوزته عنهم من رحمته تعالى أي بسبب رحمة الله برحمة عظيمة كائنة من الله وهي تخصيصه بمكارم الأخلاق . كنت ليّن الجوانب لهم و عاملتهم بالرفق و التلطّف بعد ماكان منهم من المخالفة .

[ولو كنت فظّاً غليظ القلب] أي جافياً بين الخلق قاسي القلب غير رؤوف [لانفضّوا من حولك] وتفرّق أصحابك ونفروا منك ، فنفى سبحانه تعالى الفضاضة عن لسانه والقساوة عن قلبه [فاعف عنهم] فيما يتعلّق بحقوقك [واستغفرلهم] فيما يتعلّق بحقوقه تعالى إكمالاً للبرّ بهم[وشاورهم في الأمر] أي استخرج آراءهم من قولهم : شرت العسل إذا استخرجته من مواضع النحل .

وفائدة الاستشارة الاستعلام عمّا عندهم والتطييب لنفوسهم وحصول التأليف لهم أو ليمتحنهم بالمشاورة ليميّز الناصح من الغاشي ، ولعلّ المراد إجلال أصحابه و ليقتدي اُمّته في لقاء العدوّ والحروب ، وليس المراد أنّك تجهل أمراً وتستعلم من مشاورتهم و كيف يحتاج إلى رأيهم وهو مستغن بالوحي عن تعرّف الثواب و الخطاء ؟ والقلم الأعلى علمه ﷺ و اللوح كتابه ودفتره فكيف يكون محتاجاً إلى شورهم ؟ هيهات أين الثرى والثريّا؟ ولو كان المراد مثل قولهم : «إيّاك أعني واسمعي ياجارة» ويريد اقتداء اُمّته بهذه السنّة فذلك أيضاً في اُمور مجهولة معزوبة عن علم بعضهم مثل أنّ تاجر الثمار مثلاً لا يعرف أنّ تمر البصرة شراؤها أنفع أم تمر الهجر فيستشير منه أيّهما اشترى أنفع ، و أمثال هذه الاُمور لا أن يتشاوروا بينهم أن يجعلوا حدّ الزاني ألف جلدة إذا كان فقيراً وواحدة إذا كان ذا شرف ، ونعم ماقال أمير المؤمنين : فيالله وللشورى !

قال الرازيّ : ثمّ إنّه اتّفق أهل الإسلام وأجمعوا على أنّ مانزل فيه وحيٌ من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور فيه الاُمّة لأنّه إذا جاء النصّ بطل الرأي و القياس فأمّا مالا نصّ فيه فهل تجوز المشاورة فيه في جميع الأشياء أم لا ؟

قال الكلبيّ و كثير من العلماء : هذا الأمر مخصوصٌ بالمشاورة في الحروب وحجّتهم أنّ الألف واللام في «الأمر» للاستغراق ولمّا بيّنّا أنّ الّذي ينزل فيه الوحي لاتجوز المشاورة فيه فوجب حمل الألف واللام ههنا على المعهود السابق والمعهود السابق في هذه الآية إنّما

هو ما يتعلّق بالحرب ولقاء العدوّ فكأنّ قوله : «وشاورهم في الأمر» مختصاً بذلك . وقال بعضٌ : اللفظ عامٌ خصّ عنه ما نزل فيه وحيٌ فتبقى حجيّته في الباقي .

وبالجملة فالقدر المتيقّن أنّ المشورة فيما نصّ عليه غير جائزة . قال العلاّمة أبو السعود : إنّ الآية قرئت : وشاورهم في بعض الأمر .

[فإذا عزمت فتوكّل على الله] أي إذا عقدت قلبك على الفعل وإمضائه ، وعن جعفر ابن محمّد عليه‌السلام وعن جابر بن يزيد « فإذا عزمت» بضمّ التاء فعلى هذا يكون المعنى : فإذا عزمت لك وأرشدتك فاعتمد على الله وثق به وفوّض أمرك إليه .

[إنّ الله يحبّ المتوكّلين] الواثقين به والمنقطعين إليه، والانقطاع إليه لا ينافي مع مراعاة الأسباب الظاهرة لكنّ الإنسان يكون يعلم أنّ المؤثّر هو الله لا الأسباب، والحكمة اقتضت أن يجري الأمور بالأسباب فحينئذ لا يجوز لك ترك الأسباب وإذا تركت الأسباب خالفت الحكمة وكأنّك أردت ما لم يرد الله، نعم لا يجوز أن يعوّل بقلبه على الأسباب وقد يكون التعطيل معصية .

ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذاالذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٦٠) .

والنصر نوعان : معونة ومنع ، أي إن يعنكم الله ويمنعكم من عدوّكم ويكلؤكم كما فعل يوم بدر ذلك [فلا غالب لكم] فلا أحد يغلبكم [و إن يخذ لكم] الخذلان القعود عن النصرة أي إن يترككم ولم ينصركم كما فعل يوم أُحد [فمن ذا الّذي ينصركم من بعده] أي بعد خذلانه، وهذا تنبيه على أنّ الأمر كلّه له ؛ ولذا قال وأمر بالتوكّل عليه [وعلى الله فليتوكّل المؤمنون] ومن التوكّل أن لا تعتقد لنفسك ناصراً غيره ولا لرزقك خازناً غيره قال صلى‌الله‌عليه‌وآله : لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله ليرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً . ومن نصرته تعالى أن ينصرك على نفسك فإنّها أعدى عدوّك ، وحقيقة خذلانه التخلية بينك وبين نفسك فحينئذ لا جابر لكسرك ولا آخذ ليدك .

وما كان لنبى ان يغل و من يغلل يأت بما غل يوم القيمة ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون (١٦١) .

النزول : عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير أنّها نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغانم فقال بعضهم : لعلّ النبيّ أخذها . قال الضحّاك : إنّ رجلاً غلّ بمخيط من غنائم هوازن يوم حنين فنزلت الآية .

وقال مقاتل : إنّها نزلت في غنائم أُحد حين تركت الرماة المركز طلباً للغنيمة وقالوا : نخاف أن يقول رسول الله : من أخذ شيئاً فهو له و لا يقسّم كما لم يقسّم يوم بدر ، ووقعوا في الغنائم فقال رسول الله ﷺ : أظننتم أنّا نغلّ أي نخون و لا نقسّم لكم ؟ فأنزل الله الآية .

وقيل : إنّه ﷺ يقرأ القرآن وفيه عيب آلهتهم وعيب دينهم ويؤدّي الوحي فسألوه أن يطوي ذلك فأنزل الله الآية .

وقيل : إنّ أشراف الناس من صحابته طمعوا أن يخصّهم النبيّ من الغنائم بشيء زائد ، فنزلت الآية .

والغلول هو الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال : أغلّ الجازر والسالخ إذا أبقى في الجلد شيئاً من اللحم على طريق الخيانة ؛ قال ﷺ : من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه ، وقال ﷺ : هدايا الولاة غلول ، وقال ﷺ : لا إغلالُ ولا إسلال أي لاخيانة ولارشوة . المعنى في الآية : لمّا كانت الآيات السابقة بيان أمر الجهاد ذكر في هذه الآية بيان ما يتعلّق به من أمر الغنائم والنهي عن الخيانة فيها . وقرىء «يغلّ» على البناء للمجهول فعلى هذا يوافق الآية في شأن نزولها قول الضحّاك .

[وما كان لنبيّ أن يغلّ] أي لاتجتمع النبوّة والغلول كقوله : «ما كان الله أن يتّخذ من ولد» وعلى القراءة للبناء للمجهول أي ما كان لنبيّ أن يخونه أصحابه ويكتمونه شيئاً من المغنم على ما مضى فيه القول . و على قراءة المعلوم خصّه ﷺ بالذكر و إن كان لا يجوز أن يغلّ غيره من أحد لأنّ النبيّ قائمٌ بأمر الغنائم فإذا حرّمت عليه وهو صاحب الأمر فحرمتها على غيره أولى .

[ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة] أي يأتي حاملاً على ظهره كما روي في حديث طويل : ألالايغلّنّ أحدٌ بعيراً فيأتي به على ظهره يوم القيامة له رغاء ، ألالايغلّنّ أحد فرساً

فيأتي به على ظهره له حمحمة فيقول : يا محمد يا محمد فأقول : قد بلّغت لاأملك لك من الله شيئاً عن ابن عبّاس وأبي حميد أحمد الساعدي وابن عمر وقتادة . قال الجبّائي : وذلك ليفضح به على رؤوس الأشهاد . وقد روي أنّ النبيّ كان يأمر مناديا ينادي في الناس ردّوا المخيط و الخيط فإنّ الغلول عار وشنار يوم القيامة ؛ فجاء رجل بكبّة شعر فقال : إنّي أخذتها لأخيط بها برذعة بعيري فقال النبيّ ﷺ أمّا نصيبي منها فهولك ، فقال الرجل : أمّا إذا بلغ الأمر هذا المبلغ فلا حاجة لي فيها . وحمل الغلول على عنقه أمارة يعرف وذلك حكم الله في كلّ من وافى يوم القيامة بمعصية لم يتب منها أو أراد الله تعالى أن يعامله بالعدل ليعلمه أهل القيامة كما أنّ من وافى يوم القيامة بطاعة فإنّه تعالى يظهر من طاعته علامةً يعرف بها .

[ثمّ توفّى كلّ نفس ما كسبت] أي يعطى كلّ نفس جزاء ما عملت تامّاً وافياً [وهم لايظلمون] ولا ينقص أحد عن مقدار ما يستحقّه من الثواب ولا يزاد ما يستحقّه من العذاب .

قال الطبرسي : وفي هذه الآية دلالةٌ على فساد قول الجبريّة فإنّهم يقولون : إنّ الله لو عذّب أولياءه لم يكن ذلك منه ظلماً ؛ لأنّه بيّن أنّه لو لم يوفّها ما كسبت لكان ظلماً .

قوله : افمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأويه جهنم وبئس المصير (١٦٢) هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون (١٦٣).

لمّا أمر رسول الله بالخروج إلى اُحد قعد عنه جماعة من المنافقين واتّبعه المؤمنون فأنزل الله هذه الآية .

أي [أفمن اتّبع رضوان الله] في العمل بطاعته [كمن باء بسخط منه في العمل] بمعصيته ، والهمزة للإنكار والفاء العطف على محذوف تقديره : أمن اتّقى فاتّبع رضوان الله مثل من احتمل ورجع بمعصية الله وغضبه ، و«الرضوان» مصدر كالحسبان ، وقرىء بضمّ الراء كالكفران . وحاصل المعنى أنّ من أطاع النبيّ وخالفه ومن أتى بالغلول والأمانة لايستوي بل مأوى من باء بسخط الله [جهنّم وبئس المصير] .

[هم درجاتٌ عند الله] الضمير راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى أي طبقات متفاوتة والتقدير : ذوو درجات فوجب أن يكون بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات بسبب أعمالهم !

[والله بصيرٌ بما يعملون] فيجازيهم بحسبها ، ودرجات أهل السعادة متفاوتة كما أنّ دركات أهل النار متفاوتة وأهل الجنّة أصناف : الرسل والأنبياء ثمّ الأولياء و هم أتباع الرسل على بصيرة من ربّهم ، ثمّ المؤمنون و هم المصدّقون بها ، ثمّ المؤمنون أيضاً درجاتهم مختلفة و كلٌّ من هؤلاء المذكورة مراتبهم متفاوتة : منهم أصحاب منابر وهي الطبقة العليا ، ومنهم أصحاب الأسرّة و العروش ، و منهم أصحاب الكرسيّ ، ومنهم على كثبان النور . و كذلك أهل الدركات متفاوتون في العذاب ؛ قال النبيّ ﷺ : إنّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل يحذى له نعلان من نار يغلي من حرّهما دماغه ينادي : ياربّ وهل أحدٌ يعذّب عذابي ؟

هنا ينتهي الجزء الثاني من الكتاب مشتملاً على
١٢١ آية من سورة البقرة (١٦٥ ـ ٢٨٦)
و ١٦٣ آية من سورة آل عمران ،
ولله الحمد والمنّة

كلمة المصحح

لايرتاب من استوعب النظر في هذا الجزء وما سبق عليه في بذل جهد رائع وسعي مشكور لنسج الكتاب على منوال جديد ونسق واحد من أوّله إلى آخره ، ودقّة في تصحيحه ورقّة في ترتيبه بعد سبق اضطراب في الجزء المملوّ اضطراباً يجعل القارىء حيراناً والعاطش هيماناً .

وبودّنا ـ إن وفّقنا الله تعالى ـ أن نديم مشروعنا هذا إلى ختام الأجزاء . و إن عاقنا من التخريج كثرة أشغالنا فلا يصرفنا أيّ مهمّ عن إخراجه بوجه بديع يطبّي المطالع الشادي ، ونحن على عزم راسخ منه إعلاءً لكلمة الله الحقّ وإتحافاً للطيفة مؤلّفه السعيد راجياً من المولى سبحانه التوفيق والثواب ، وإليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه .

سيد كاظم موسوى

Library of

Dei Sub Numine Viget

Princeton University.

Princeton University Library
32101 072714007